
رواية
مكتبة
آين راند
أطلس
متململا
الجزء الثّاني إما . أو
ترجمة: خالد حافظي
صفحة
7

الأطلس متململًا

«الجزء الثاني: إمّا – أو»



رواية

الأطلس متململًا

«الجزء الثاني: إما – أو»

المؤلف

آين راند

الطبعة الأولى :2021

الترقيم الدولي

978-603-91630-3-9

رقم الإيداع

1442/11081



E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل، شارع مشهور

المملكة العربية السعودية

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة

www.page-7.com

Atlas Shrugged

Ayn Rand

الأطلس متململًا

«الجزء الثاني: إمّا — أو»

ترجمة

خالد حافظي



إلى فرانك أوكونور.....

الفهرس

الجزء الثّاني

إمّا – أو

الفصل الأوّل

الرجل الذي ينتمي إلى الأرض

سار الدكتور روبرت ستادلر بخطًى حثيثةٍ في أرجاء مكتبه، مُتمنيًّا ألَّا يشعر بالبرد. لقد تأخّر قدوم الربيع. وراء النافذة، كان لونُ التلال الرَّماديُّ المميت يبدو مثل طريقٍ ضبابيّةٍ تربطُ بينَ بياض السماء الملوّث ولون النهر الأسود الكئيب. وبين فينةٍ وأخرى، كانت تلتهب بقعة بعيدة في التلال، ثمّ تختفي. استمرّت الغيوم في الانقشاع أمام شعاعٍ منفرد للشمس، ثمّ تراكمت بكثافة مجدّدًا لتُطبِق على الفضاء. لم يكن الجوّ باردًا في المكتب، لكنّ الدكتور ستادلر اعتقد أنّ ذلك المنظر هو الذي جمّد المكان.

لم يكن الجوُّ باردًا في ذلك اليوم، لكنَّ البردَ استقرّ في عظامه. لقد تراكمت عليهِ الشتاءاتُ، حين كان عليه أن يصرف انتباهه عن عمله من خلال الوعي بمسألة مثل التدفئة غير الكافية، وكان الناس قد تحدّثوا عن الحفاظ على الوقود، غير أنّ الدكتور ستادلر رأى هذا الأمر منافيًا للعقل. في الماضي، لم يهتمّ بهذا التدخّل المتزايد لحوادث الطبيعة في شؤون البشر، ولا اكترثَ بقسوة فصل الشتاء المُفرطة، ولا بالفيضانات إذا جرفت قسمًا من مسار السكّة الحديديّة، ولا بالبشر ولا بقضائه أسبوعَين في أكل الخضروات المعلّبة. ثمّ إنّه لم يكترث بأن تضرب عاصفةٌ كهربائيّة محطّةَ طاقةٍ، وتترك مؤسّسة مثل معهد الدولة للعلوم دون كهرباء لمدّة خمسة أيّام. خمسة أيّام من سكون ذلك الشتاء تتوقّف خلالها، حسب اعتقاده، محرّكاتُ المختبر الكبيرة وتُمحى فيها الساعات التي لا يمكن استرجاعُها، في زمن يعمل فيه موظّفوه على المشاكل التي تكتنف جوهر الكون. التفت بغضبٍ بعيدا عن النافذة، لكنّه توقّف وعاد إليها مرّة

أخرى. لم يكن يرغب في رؤية الكتاب الذي كان مرميًّا على مكتبه.

كان يتمنّى لو أنّ الدكتور فيريس لم يأتِ. ثمّ ألقى نظرة على ساعته. فاكتشف أنّ الدكتور فيريس قد تأخّر عن الموعد الذي ضربه معه. الدكتور فلويد فيريس هذا، خادم العلم، كان يواجهه دائمًا بطريقة توحي بالاعتذار، مكتفيًا برفع قبّعته الوحيدة.

كان يعتقد أنّ الطقس فظيعٌ جدًّا على غير عادة شهر ماي. أخذ ينظر إلى أسفل النهر. ولكنّ لا شكّ في أنّ الطقس هو الذي جعله يمرّ بذلك الشعور، وليس الكتاب. لقد وضع الكتابَ على مرأى من الجميع فوق مكتبه، عندما لاحظ أنّ عزوفه عن رؤيته كان أكثر من مجرّد اشمئزاز، وأنّه يحتوي على بُعدٍ من أبعاد العاطفة التي لا يمكن قبولها أبدًا. قال في نفسه إنّه نهض من مكتبه، لا لأنّ الكتاب يقبع هناك، بل لمجرّد أنّه أراد أن يتحرّك، ويشعر بالدفء. كان يسير في الغرفة محاصرًا بين المكتب والنافذة، ويودّ رَمْي ذلك الكتاب في الرماد ما إن يتحدّث إلى الدكتور فيريس.

شاهد بقعةً خضراء وأشعّة الشمس تنبسطُ على التلّ البعيد، فبدا الرَّبيع يلقي بوعودهِ في عالم مجرَّدٍ من أيِّ عُشبةٍ أو برعمٍ سينمو مرّةً أخرى. ابتسم بلهفة، وعندما اختفت تلك البقعة، أحسَّ بطعنة من الخذلان، في حرصه، وفي الطريقة اليائسة التي كان يريد أن يتصرّفَ بها. فذكّرته بتلك المقابلة التي أجراها مع روائيّ بارز في الشتاء الماضي. كان الروائيّ قد جاء من أوروبا لكتابة مقال عنه، وهو الذي يحتقر المقابلات. ذات يوم، تحدّث بشغف، أكثر من العادة، عن الذكاء الذي تلمسه في ملامح وجه ذلك الروائيّ، لكن لم يستطع فهمَ سبب هذا الشعور الذي ساوره. وقد خرج المقال في شكل مجموعةِ جُمَلٍ منحته ثناءً مفرطًا، لكنّها شوّهت كلّ فكرةٍ أعربَ عنها. فشعر الآن، وهو يغلق المجلّة، بالشعور ذاته الذي ساوره لحظة هروب أشعّة الشمس.

قال في نفسه وهو يبتعد عن النافذة إنَّ كلّ شيء على ما يرام. ربّما كان يعترف بأنّ هجمات الوحدة قد بدأت تصيبه في بعض الأحيان. لكنّها وحدة تمنّاها. إنّها ذلك الجوع المتجاوب مع عقلٍ حيٍّ مفكّرٍ. كان متعبًا جدًّا من كلّ هؤلاء الناس، لطالما فكّر فيهم بمرارة وازدراء؛ فهو يتعامل مع الأشعّة الكونيّة، في حين أنّهم غير قادرين حتّى

على التعامل مع عاصفة كهربائيّة.

ثمّ شعر بانكماش مفاجئ في فمه، مثل صفعة تحرمه من الحقّ في متابعة ذلك المسار من التفكير. كان ينظر إلى الكتاب على مكتبه. بدا غلافُه اللّامع صارخا وجديدا، فقد نشر فقط قبل أسبوعين. صرخ في نفسه قائلا: ولكن ليس لي أيّ علاقة بهذا الكتاب! كان صراخًا بلا جدوى. لقد حمل الكتاب عنوان: ***لماذا تعتقد بأنك تفكّر؟***

لم يكن هناك أدنى صوت في صمته الداخليّ الذي يشبه صمت قاعات المحاكم، بلا شفقة أو صوت دفاع. لا شيء سوى الفقرات التي أعادت ذاكرتُه العظيمةُ نسخَها في دماغه:

ـ التفكير خرافةٌ بدائيّةٌ، والعقل فكرة غير منطقيّة، والمفهوم الطُّفولي القائل إنّنا قادرون على التفكير يعتبر الخطأ الأكثر تكلفةً في حياة البشريّة.

ـ ما يجعلك تعتقد أنّك تفكّر هو وهمٌ خلقته غددك وعواطفك. وهو، في المحصّلة، من صناعة معدتك.

ـ تلك المادّة الرماديّة التي تفتخر بها تشبه المرآة في مدينة مَلَاهٍ. فهي لا تنقل إليك سوى إشارات مشوّهة عن واقع بعيد عن متناولك.

ـ كلّما ازداد يقينك من استنتاجاتك العقلانيّة، كنت أكثر يقينًا من أنّك مخطئ. فدماغك هو أداة للتشويه، وكلّما كان الدماغ أكثر نشاطا، ازداد التشويه.

ـ عمالقة الفكر، الذين كنت معجبًا جدًّا بهم، علّموك سابقًا أنّ الأرض مسطّحة وأنّ الذرّة أصغرُ جُسَيْمٍ من المادّة. إنّ تاريخ العلم بأكمله هو تاريخ من المغالطات، وليس تاريخًا من الإنجازات.

ـ كلّما عرفنا أكثر، تعلّمنا أنّنا لا نعرف شيئًا.

ـ وحدَه الجاهل لا يزال يتمسّك بالفكرة القديمة القائلة إنّ الرؤية هي الإيمان. ومثل هذا المفهوم الذي تراه أمامك هو أوّل شيء يجب أن تكفر به.

ـ أيّ عالم يدرك أنّ الحجر ليس حجرًا على الإطلاق. والحجر، في الواقع، متطابق

مع وسادة من الريش، فكلاهما مجرّد تشكيل لسحابة من نفس الجسيمات غير المرئيّة والدائمة الدوران. لكنّك تقول إنّه لا يمكنك استخدام حجر عوض الوسادة؟ حسنًا، هذا يثبت عجزك عن مواجهة الواقع الفعليّ.

ـ إنّ الاكتشافات العلميّة الأخيرة، مثل إنجازات الدكتور روبرت ستادلر الهائلة، أثبتت بشكل قاطع أنّ عقلنا غير قادر على التعامل مع طبيعة الكون. وقد قادت هذه الاكتشافات العلماءَ إلى تناقضات مستحيلة عقليًّا لكنّها موجودة في الواقع. وإن كان الأمر لم يبلغكم بعدُ يا أصدقائي الأعزّاء من الطراز القديم، فقد ثبت الآن أنّ العقلانيّ هو المجنون.

ـ لا تتوقّع الاتّساق. فكلّ شيء هو تناقض مع كلّ شيء آخر. لا يوجد شيء سوى التناقضات.

ـ لا تبحث عن (الحسّ السليم). فالمطالبة بالمعنى هي السمة المميّزة لِلَّامعنى. والطبيعة لا معنى لها وكذلك كلّ الأشياء الأخرى. وصليبيّو اللّامعنى الوحيدون هم من أمثال الخادمة القديمة المراهقة المجتهدة التي لم تستطع العثور على عشيق، ومثل الحانوتيّ صاحب الطراز القديم الذي يعتقد أنّ الكون بسيط مثل مخزونه الصغير الأنيق وسجلّه النقديّ المحبوب.

ـ دعونا نكسر سلاسل التحيّز التي تُسمَّى المنطق. فهل سيوقفنا القياس المنطقيّ؟

ـ أنت تعتقد أنّك متأكّد من آرائك؟ لا يمكنك التأكّد من أيّ شيء. هل أنت مستعدّ لتُعرّض انسجامَ مجتمعك وحسنَ جوارك وموقعَك وسمعتَك واسمَك الطيّب وأمنَك الماليّ للخطر من أجل وَهْمٍ؟ من أجل سراب الاعتقاد بأنّك تفكّر؟ هل ستخاطر بتلك الكوارث ثمَّ تحاكمها – في زمنٍ غير مستقرّ مثل عصرنا – من خلال معارضة النظام الاجتماعيّ القائم باسم تلك المفاهيم الوهميّة الخاصّة بك والتي تسمِّيها أنت بقناعاتك الخاصّة؟ تقول إنّك متأكّد من أنّك على حقّ؟ لا أحد على حقّ، أو يمكن أن يكون محقًّا بإطلاقٍ. هل تشعر بأنّ العالم من حولك خاطئ؟ لكنّك لا تملك وسيلة لمعرفة ذلك. كلّ شيء خاطئ في عينَي الإنسان، فلماذا علينا محاربته؟ لا تجادل، اقبل، اضبط نفسك،

أطع.

هذا الكتاب كتبه الدكتور فلويد فيريس ونشرَه معهد الدولة للعلوم. قال الدكتور روبرت ستادلر في نفسه: ولكن ليس لي أيّ علاقة بهذا الكتاب!

وقف ساكنًا إلى جانب مكتبه، كان مستاء لأنّه أهدر بعض الدقائق، لكنّه لا يعرف الوقت الذي استغرقته اللحظة السابقة. وكان قد نطق الكلمات بصوت عال، وبنبرة ساخرة فظّة موجّهة إلى أيّ شيء جعله يقول ذلك.

ثم تجاهل الأمر مستندًا إلى فكرة أنّ السخرية من الذات فضيلةٌ، وأنّ التجاهل جملة عاطفيّة معادلة تقول: أنت تُدعى روبرت ستادلر، فلا تتصرّف مثل أستاذ جامعيّ عصابيّ. ثمّ جلس إلى مكتبه ودفع الكتاب جانبًا بالجزء الخلفيّ من يده.

وصل الدكتور فلويد فيريس متأخّرا بنصف ساعة، فقال:

ـ آسف، فسيّارتي تعطّلت مجدّدًا في طريقي من واشنطن إلى هنا وأمضيت وقتًا عصيبًا في محاولة العثور على شخص مّا لإصلاحها، وبما أنّ نصف محطّات الخدمات مغلقة، فإنّ الحصول على مساعدة هناك كان أمرًا شاقًّا ولاسيّما أنّ الطريق كان فارغًا إلّا من عدد قليل جدًّا من السيّارات.

كشفت نبرة صوته عن نوعٍ من الانزعاج. ثمّ جلس دون انتظار دعوة إلى ذلك.

لم يكن للدكتور فلويد فيريس ملاحظة أنّه لن تليق به أيّ مهنة أخرى على نحوٍ مخصوص، إلّا تلك التي اختارها، فهو يوصف دائما بـالعالم الوسيم. كان طوله يبلغ ستّ أقدام وله من العمر خمسة وأربعون عامًا، لكنّه تمكّن من أن يبدو أطول وأصغر سنًّا. كان يتمتّع بشيء من الجاذبيّة النقيّة ونعمة الحركة مثل راقصي الباليه، لكنّ ملابسه توحي بالصرامة، وعادة ما تكون بدلاته باللون الأسود أو تميل إلى زرقة منتصف الليل. كان لديه شاربٌ ناعم، وشعر أسود رطبٌ جعل أولاد مكتب المعهد يقولون باستهزاء إنّه يستخدم ورنيش الأحذية نفسه على طرفَي جسده. كثيرا ما كان يتندّر من باب السخرية أنّ أحد منتجي الأفلام كان سيرشّحه في السابق لدور راقص أوربيّ.

لقد بدأ حياته المهنيّة كعالم أحياء، ولكنّ تلك الوظيفة أصبحت منسيّة في مسيرته منذ فترة طويلة. ثمّ اشتهر بوصفه منسّقًا أعلى لمعهد الدولة للعلوم.

كان الدكتور ستادلر ينظر إليه بدهشة، لأنّه لم يتعوّد ألّا يعتذر منه الناس، فقال على نحو جافٍّ:

ـ يبدو لي أنّك تقضي الكثير من وقتك في واشنطن.

ردّ الدكتور فيريس بمرح: ولكن يا دكتور ستادلر، ألم تكن أنت من يثني عليّ في السابق فيناديني بحارس هذا المعهد؟ أليس هذا واجبي الأكثر أهمّيّة؟

ـ يبدو أنّ بعض واجباتك أصبحت تتراكم في هذا المكان. فقط ملاحظة بسيطة قبل أن أنسى، هل تمانع في إخباري بما يحدث هنا بخصوص فوضى نقص النفط؟

لم يستطع فهم تجهّم ملامح وجه الدكتور فيريس الذي كان يبدو مكلومًا. فردّ الدكتور فيريس بتلك النبرة الشكليّة التي تخفي الألم وتكشف الشهادة:

ـ طبعًا ستسمح لي بالقول إنّ هذا الأمر كان غير متوقّع وغير مبرّر. لم تجد أيّ سلطة من السلطات المعنيّة سببًا لهذا النقص. وقد قدّمنا الساعةَ إلى مكتب التخطيط الاقتصاديّ والموارد الوطنيّة تقريرًا مفصّلًا عن التقدّم المحرَز في العمل حتّى الآن، وأعرب السيّد ويسلي ماوتش عن ارتياحه. وقد فعلنا ما في وسعنا في هذا المشروع. ولم نسمع أحدا آخر يصفها بأنّها فوضى. بالنظر إلى صعوبات التضاريس ومخاطر الحرائق وحقيقة أنّه لم تمرّ سوى ستّة أشهر منذ أن كنّا...

سأله الدكتور ستادلر: عمّ تتحدّث؟

ـ مشروع استصلاح حقل وايت للنفط. أليس هذا ما طلبته منّي؟

ـ لا، أنا... انتظر لحظة. اسمح لي بأن أنظر في هذا الأمر مباشرة. بلى. يبدو أنّني أتذكّر شيئًا عن تولّي هذا المعهد مسؤوليّة مشروع استصلاح تلك الحقول. ما هو الشيء الذي أنت بصدد استصلاحه؟

ـ حقول وايت للنفط.

ـ لقد كان ذلك حريقًا، أليس كذا؟ في كولورادو؟ كان ذلك... انتظر لحظة... لقد تذكّرت الرجل الذي أضرم النّار في آباره النفطيّة.

ردّ الدكتور فيريس على نحو جافٍّ: أنا أميل إلى اعتقاد أنّها شائعة اخترعتها الهستيريا العامّة، إنّها إشاعة. لا أثق شخصيًا في تلك القصص الصحفيّة، وأعتقد أنّه كان حادثًا وأنّ إليس وايت لقي حتفه في ذلك الحريق.

ـ حسنًا، من يملك تلك الحقول الآن؟

ـ لا أحد في الوقت الراهن. وبما أنّه لم توجد وصيّةٌ من المتوفّى أو أيّ ورثة، فقد تولّت الدولة مسؤوليّة تشغيل تلك الحقول كتدبير من تدابير الضرورة العامّة لمدّة سبع سنوات. وإذا لم يعد إليس وايت خلال ذلك الوقت فإنّه سيعتبر ميّتا بصفة رسميّة.

ـ حسنًا، لماذا لجؤوا إليك، أقصد إلينا في مثل هذه المهمّة غير المرجّحة مثل ضخّ النفط؟

ـ لأنّها تشكّل صعوبة تكنولوجيّة كبيرة، وتتطلّب خدمات أفضل المواهب العلميّة المتاحة. كما ترى، إنّها مسألة إعادة بناء الطريقة الخاصّة لاستخراج النفط، وهي طريقة استخدمها وايت. فمعدّاته لا تزال هناك، وإن كانت في حالة مزرية. بعض عمليّاته معروفة، ولكن بطريقة أو بأخرى لا يوجد سجلّ كامل للعمليّة كاملة أو المبدأ الأساسيّ الذي تنطوي عليه. وهذا ما يتعيّن علينا إعادة اكتشافه.

ـ وكيف تسير الأمور؟

ـ التقدّم يبعث على الارتياح. لقد مُنحتُ للتوّ اعتمادًا جديدًا وأكبر من السابق. والسيّد ويسلي ماوتش مسرور بعملنا، وكذلك السيّد بالش المكلّف بلجنة الطوارئ، والسيّد أندرسون المكلّف بلجنة الإمدادات الأساسيّة، والسيّد بيتيبون عن منظّمة حماية المستهلك. أنا لا أرى ما يمكن توقّعه أكثر ممّا فعلنا. فالمشروع ناجح تمامًا.

ـ هل أنتج أيّ نفط؟

ـ لا، لكنّنا نجحنا في فرض تدفّقٍ من إحدى الآبار إلى حدّ ستّة غالون ونصف.

وهذا، بالطبع، للأهمّيّة التجريبيّة لا غير. ولكن يجب أن تأخذ في عين الاعتبار حقيقةَ أنّه كان علينا قضاء ثلاثة أشهر كاملة فقط لإخماد الحريق، وقد أُخمِد الآن على نحوٍ كلّيّ أو شبه كلّيّ. نحن نواجه مشكلة أصعب بكثير من تلك التي واجهها وايت، لأنّه بدأ من الصفر، في حين نتعامل نحن مع حطام مشوّه لعمل من أعمال التخريب الشرسة، المعادية للمجتمع الذي... أعني بذلك أنّها مشكلة صعبة، ولكن لا شكّ في أنّنا سنتمكّن من حلّها.

ـ حسنًا، ما سألتك عنه حقًّا هو نقص النفط في المعهد. فمستوى درجة الحرارة التي تمّ الحفاظ عليها في هذا المبنى طوال فصل الشتاء فظيعٌ جدًّا. لقد أخبروني بأنّ عليهم الحفاظ على النفط. بالتأكيد كان بإمكانك أن تتعامل بكفاءة عالية مع مسألة الحفاظ على هذا المكان مزوّدًا بشكل كافٍ بالنفط.

ـ هل هذا ما كان يدور بخلدك يا دكتور ستادلر؟ أوه، ولكن أنا آسف جدّا!

جاءت الكلمات مع ابتسامةٍ مشرقةٍ على وجه الدكتور فيريس، كأنّها نوع من أنواع الإغاثة، ولكنّ نبرته المهمومة في الكلام عادت حين قال:

ـ هل تعني أنّ درجة الحرارة كانت منخفضة إلى حدّ أنّها أثّرت على راحتك؟

ـ أعني أنّني تجمّدت تقريبًا حتّى الموت.

ـ لكن هذا لا يغتفر! لماذا لم يخبروني؟ من فضلك تقبّل اعتذاري الشخصيّ يا دكتور ستادلر. وأطمئنك بأنّك لن تتضايق مجدّدًا، لأنّ العذر الوحيد الذي يمكنني تقديمه لقسم الصيانة لدينا هو أنّ نقص الوقود لم يكن بسبب إهمالهم، بل كان... أوه، أدرك أنّك لم تعلم بالأمر، ومثل هذه الأمور ينبغي ألّا تشغل اهتمامك الذي لا يقدّر بثمن.. ولكن، كما ترى، كان نقص النفط في هذا الشتاء المنصرم أزمةً على مستوى كامل البلاد.

ـ لماذا لم تخبرني بأنّ حقول وايت تلك كانت المصدر الوحيد للنفط في البلاد؟!

ـ لا، لا، ولكنّ الاختفاء المفاجئ لإمدادات كبيرة جلبَ الفوضى في سوق النفط بأكمله. لذا كان على الحكومة أن تتولّى السيطرة وتفرض تقنين النفط على البلاد، من

أجل حماية الشركات الأساسيّة. لقد حصلت للمعهد على حصّة كبيرة بشكل غير عاديّ، فقط من خلال امتياز خاصّ نلته من بعض اتّصالات خاصّة جدًّا أجريتُها مع بعض أصدقائي. ولكن سينتابني شعور بالذنب على نحوٍ فظّ إذا ثبت أنّ هذا كان غير كاف. كن مطمئنا بأنّ ذلك لن يتكرّر. إنّها مجرّد حالة طارئة مؤقّتة. بحلول الشتاء القادم، ستعود حقول وايت إلى الإنتاج مجدّدًا، وستعود الظروف إلى طبيعتها. إلى جانب ذلك. وفي ما يخصّ هذا المعهد، فقد أنجزتُ جميع الترتيبات لتحويل أفراننا إلى العمل بالفحم، وكان من المقرّر أن يتمّ ذلك في الشهر المقبل، لكنّ إغلاق مسابك ستوكتون في كولورادو المفاجئ، وبدون إشعار، أربك إعداد أجزاء أفراننا، غير أنّ أندروستوكتون تقاعد، بشكل غير متوقّع تمامًا، والآن علينا أن ننتظر حتّى يعيد ابن أخيه فتح المصنع.

تجاهل الدكتور ستادلر هذا الأمر بانزعاج، وقال:

ـ حسنًا، لقد استوعب الأمر، وأنا على ثقة بأنّك ستأخذ على عاتقك مثل هذه المسألة فضلًا عن جميع أنشطتك الأخرى الخاصّة بك. لقد أصبح الأمر على شيء من السخف بالقياس إلى عدد المشاريع التكنولوجيّة التي ترى الحكومة أنّ على مؤسّسة العلوم أن تتعامل معها.

ـ ولكن، يا دكتور ستادلر..

ـ أعلم أنّه لا يمكن تجنّب ذلك. بالمناسبة، ما هو المشروع إكس؟

حدّق الدكتور فيريس بسرعة. لقد كانت نظرة غريبة تعتريها يقظة باهرة، نظرة توحي بالذهول. ثمّ قال:

ـ أين سمعت عن المشروع إكس؟

ـ أوه، لقد سمعته من أصغر طالبَين لديك وهما يتناقشان في مسألة تتعلّق به ويكتنفهما جوّ من الغموض قد تتوقّعه عند المحقّقين الهواة. لقد قالا لي إنّه أمرٌ سرّيّ جدًّا.

ـ هذا صحيح يا دكتور ستادلر. إنّه مشروعٌ بحثيّ في غاية السرّيّة عهدت به الحكومة إلينا. ومن المهمّ جدّا ألّا تحصل الصحف على أيّ معلومة حول هذا المشروع.

ـ وإلامَ يرمز الحرف إكس؟

ـ إلى مشروع إكسيلفون. هذا هو الاسم الرمزيّ بالطبع. العمل له علاقة بالصوت. ولكنّني متأكّد من أنّه لن يثير اهتمامك. إنّها عمليّة تكنولوجيّة بحتة.

ـ نعم، من الأفضل أن تجنّبني مثل هذه القصص، فليس لديّ وقت لتعهّداتكم التكنولوجيّة.

ـ هل تسمح لي أن أوصيك بعدم ذكر عبارة المشروع إكس أمام أيّ شخص؟

ـ أوه، حسنا، حسنا. اسمح لي أيضًا أن أقول إنّني لا أستسيغ نقاشات من هذا النوع.

ـ لكن بالطبع لن أسامح نفسي إذا ضيّعت وقتك في مثل هذه المشاغل! من فضلك كن متأكّدًا من أنّك تستطيع العويل عليّ.

أضاف وهو يهمّ بالنهوض: وإذا كان هذا هو السبب الذي جعلك ترغب في مقابلتي الآن، أرجوك تأكّد من أنّني..

قاطعه الدكتور ستادلر بروّية قائلا: لا، لم يكن هذا هو السبب في دعوتك.

لم يطرح الدكتور فيريس أيّ سؤال بخصوص موضوع هذه الدعوة أو الخدمة التي يمكن أن يسديها، بل ظلّ جالسًا ينتظر في صمت.

مدّ الدكتور ستادلر يدَه إلى الكتاب ورماه في حركة انزلاق من زاوية مكتبه باتّجاه وسط الطاولة، وبحركة سريعة من يده، ثمّ سأله:

ـ من فضلك، هل لك بأن تخبرني ما هذا الابتذال؟

لم ينظر الدكتور فيريس إلى الكتاب، لكنّه أبقى عينيه ثابتَتين على ستادلر للحظة لا يمكن تفسيرها. ثمّ انحنى إلى الوراء وقال بابتسامة غريبة:

ـ أفتخر بأنّك قمت بمثل هذا الاستثناء من أجلي واخترت قراءة كتاب شعبيّ. لقد بيع من هذه القطعة الصغيرة عشرون ألف نسخة في غضون أسبوعين.

ـ لقد قرأته.

ـ نعم؟

ـ أترقّب تفسيرًا منك.

ـ هل وجدت النصّ مربكا؟

نظر الدكتور ستادلر إليه في حيرة ثمّ قال:

ـ هل تدرك ماهية الموضوع الذي اخترت علاجه؟ ووفق أيّ طريقة؟ الأسلوب وحده لا يكفي لموضوع من هذا النوع!

ـ هل تعتقد، إذَن، أنّ المحتوى يحتاج إلى عرضٍ أكثر إجلالًا؟

كان صوته سلسًا ويوحي بالبراءة إلى درجة أنّ الدكتور ستادلر لم يستطع الجزمَ بما إذا كان من قبيل السخرية.

ـ هل تدرك ما تبشّر به في هذا الكتاب؟

ـ بما أنّك لا تبدو موافقًا عليه يا دكتور ستادلر، فمن الأفضل أن تعتقد أنّني كتبته عن حسن نيّة.

كان الدكتور ستادلر يعتقد أنّ ذلك هو العنصر غير المفهوم في طريقة فيريس، كان يُفترَض بمؤشّر عدم موافقته أن يكون كافيًا، ولكن يبدو أنّ فيريس لا يزال بمنأى عن ذلك.

قال الدكتور ستادلر: إذا كان يمكن لأيّ ماجنٍ في حالة سكر أن يجد القدرةَ على التعبير عن نفسه في ثنايا الأوراق، وإذا كان يمكن له أن يمنح جوهرَه صوتًا– بما يحتويه ذلك الجوهر من وحشيّة أبديّة وتلميح بكراهيته للعقل– فهذا هو نوع الكتاب الذي أتوقّع أن يكتبه. ولكن أن أراه وقد خُطَّ من يد عالم، وتحت بصمة هذا المعهد فهذا ما

أعترض عليه!

ـ ولكن يا دكتور ستادلر، هذا الكتاب لم يؤلَّف ليقرأه العلماء. بل أُلِّف ليقرأه ذلك الماجن العربيد.

ـ وماذا تعني؟

ـ أعني أنّه موجّه إلى عامّة الناس.

ولكن، يا إلهي! يمكن لأيّ معتوهٍ ضعيف إدراك التناقضات الصارخة في كلّ بيان من تصريحاتك.

ـ دعني أضع الأمر على هذا النحو يا دكتور ستادلر: كلّ إنسان لا يرى ذلك، فهو يستحقّ أن يصدّق كلّ تصريحاتي.

ـ لكنّك شوّهت هيبة العلم بتلك الأشياء التي لا توصف! لعلّه كان لي أن أتفهّم مثل هذه الرداءة لو أنّ مصدرها أناس من أمثال **سيمون بريتشيت**. لقد كان ستادلر يتحمّس لها بوصفها نوعًا من أدب المتصوّفة والدراويش، ولا أحد سيستمع إليه. لكنّك جعلتهم يعتقدون أنّه من أصناف العلوم! لقد أخذت إنجازات العقل لتدمير العقل. بأيّ حقّ استخدمت ما أنجزتُه من أعمال لإجراء تحوّلٍ غير مبرّر ومنافٍ للعقل إلى مجال آخر، وسحبِ استعارة غير قابلة للتطبيق ورسمِ تعميمٍ وحشيّ ممَّا هو مجرّد مشكلة رياضيّة؟ بأيِّ حقّ جعلت الأمر يبدو كما لو أنّه أنا!.. من أعطى الإذن بالمصادقة على هذا الكتاب؟

لم يحرّك الدكتور فيريس ساكنًا، بل ظلّ ينظر إلى الدكتور ستادلر بهدوءٍ؛ لكنّ الهدوء منحه نفسًا يشبه الوصاية فقال:

ـ الآن، كما ترى يا دكتور ستادلر، أنت تتحدّث كما لو أنّ هذا الكتاب موجّه إلى جمهور المثقّفين. ولو كان الأمر كذلك، لكان على المرء أن يهتمّ بمسائل مثل الدقّة والصلاحية والمنطق وهيبة العلم. لكنّه ليس كذلك. إنّه موجه إلى عامّة الناس وقد كنتَ دائما من بين الأوائل الذين يعتقدون أنّ العامّة لا يفكّرون.

ثمّ توقّف عن الكلام، لكنّ الدكتور ستادلر لم يقل شيئًا. فأضاف فيريس:

ـ هذا الكتاب قد لا يتضمّن أيّ قيمة فلسفيّة، لكنّه يتضمّن قيمة نفسيّة عظيمة.

ـ أخبرني فقط ما هي تلك القيمة؟

ـ كما ترى يا دكتور ستادلر، الناس لا يريدون التفكير. وكلّما تعمّقوا في المشاكل قلّت رغبتهم في التفكير. ولكنّ غريزةً مّا تُشعرهم بأنّ عليهم إعمالَ العقل وتجعلهم يشعرون بالذنب. لذلك فهم سيباركون أيّ شخص يعطيهم مبرّرًا لعدم التفكير وسيتبعونه. سيتبعون كلّ من يصنع من ذنبهم وخطيئتهم وضعفهم فضيلةً.

ـ وأنت تسوّق لنفسك أنّك ترضي الرأي العامّ؟

ـ هذا هو الطريق إلى الشعبيّة.

ـ ولماذا يجب عليك أن تسعى نحو الشعبيّة؟

انتقلت عينا الدكتور فيريس عرضًا إلى وجه الدكتور ستادلر، كما لو أنّ ذلك قد حدث من قبيل الصدفة، وأجابه باتّزان:

ـ نحن مؤسّسة عامّة مدعومة من المال العامّ.

ـ لذلك أجدك تقول للناس إنّ العلم هو الغشّ العقيم الذي يجب أن يُلغَى!

ـ هذا استنتاج يمكن استخلاصه بالمنطق من كتابي. لكنّه لن يكون الاستنتاج الذي سيتوصّلون إليه.

ـ وماذا عن العار الذي سيلحق بالمعهد في نظر أهل الفكر أينما كانوا ومهما كان عددهم؟

ـ ولماذا يجب أن نقلق بشأنهم؟

كان يمكن للدكتور ستادلر أن يعتبر تلك الجملة قابلة للفهم، لو أنّها نُطقت بنَفَس من الكراهية أو الحسد أو الخبث؛ ولكنّ غياب أيّ واحدة من تلك العواطف، وسلاسةَ نبرة الصوت الذي نطقها، أصابته بلمحة خاطفة لعالم لا يمكن أن يؤخذ

كجزء من الواقع؛ فسرى بجسده نوع من أنواع الرعب البارد.

ـ هل اطّلعت على ردود الأفعال بشأن كتابي؟ لقد لقي حظوة عظيمة.

ـ نعم، وهذا ما أجده أمرًا يستحيل تصديقه.

كان عليه أن يتكّلم ويتكّلم كما لو أنّ ما يتحدّثان عنه من قبيل نقاش متحضّر، لكنّه لم يستطع السماح لنفسه بالوقت الكافي لمعرفة ما شعر به في تلك اللحظة، فأضاف:

ـ أنا غير قادر على فهم الاهتمام الذي لقيته في جميع المجلّات الأكاديميّة ذات السمعة الطيّبة، وكيف يمكنهم السماح لأنفسهم بمناقشة كتابك بجدّيّة. لو كان هيو أكستون موجودًا، لما تجرّأ أيّ ناشر أكاديميّ على التعامل مع هذا العمل على أنّه مقبول في مجال الفلسفة.

ـ من حسن حظّي أنّه ليس موجودًا.

شعر الدكتور ستادلر بأنّ هناك كلمات سيضطرّ إلى نطقها، وتمنّى لو أنّه كان يستطيع إنهاء تلك المحادثة قبل أن يتفوّه بها.

قال الدكتور فيريس: ومن ناحية أخرى، بخصوص إعلانات كتابي.. أوه، أنا متأكّد من أنّك لا تعير أيّ اهتمام لأشياء من قبيل الإعلانات.. أودّ أن أُنْهِي إليك رسالة ثناء رفيعٍ تلقّيتها من السيّد ويسلي ماوتش.

ـ ومن يكون السيّد ويسلي ماوتش لنعتدّ برأيه؟

قال الدكتور فيريس مبتسمًا: سأخبرك عنه بالتفصيل خلال سنة أخرى، حتّى إذا لم تسألني عنه يا دكتور ستادلر. دعني أوضّح الأمر على هذا النحو: السيّد موتش هو الرجل الذي يقنّن النفط في الوقت الراهن.

ـ لهذا، أنصحك بأن تلتزم بعملك. ليكن تعاملك مع السيّد ماوتش حصرا في مسائل النفط، ولا تحشر أنفك في المسائل الفكريّة، لأنّها مهمّتي.

ردّ الدكتور فيريس بلهجة أكاديميّة خاملة: سيكون من العجيب محاولة صياغة خطّ

فاصل، لكن بما أنّنا نتحدّث عن كتابي، فلماذا نقحم في حديثنا مجال العلاقات العامّة؟ ثمّ التفت ليشير إلى إحدى الصيغ الرياضيّة المكتوبة بالطباشير على السبّورة، وقال: سيكون من الكارثيّ يا دكتور ستادلر أن تسمح لعالم العلاقات العامّة بإلهائك عن عمل لا أحد على الأرض يستطيع إنجازه غيرك.

قال الدكتور فيريس تلك الجملة بنبرة من الإذعان والاحترام، فلم يستطع الدكتور ستادلر أن يفهم منها سوى أنّها كانت جملة من قبيل: التزم بسبّورتك! فشعر بتهيّج لأنّه استوعبها على أنّها ضدّه، ثمّ فكّر بغضب في أنّ عليه التخلّص من تلك الشكوك. فقال بازدراء:

ـ العلاقات العامّة؟ أنا لا أرى أيّ هدف عمليّ يُرجى من كتابك. ولا أرى ما الهدف الذي يروم تحقيقه.

ـ هل أنت حقًّا لا تدرك ذلك؟

كانت عينا الدكتور فيريس تومضان لفترة وجيزة صوب وجه الدكتور ستادلر؛ فبدا بريق الوقاحة خاطفًا جدًّا على نحوٍ لا يمكن معه تحديده بيقين.

قال الدكتور ستادلر بصرامة: لا أرى أنّ جميع الأمور جائزة في مجتمع متحضّر.

ردّ عليه الدكتور فيريس بمرح: هذا جواب دقيق بشكل يثير الإعجاب. بالفعل لا يمكنك أن ترى أنّ جميع الأمور جائزة ومقبولة.

نهض الدكتور فيريس ليكون أوّل من يشير إلى أنّ المقابلة قد انتهت. ثمّ قال:

ـ يُرجى الاتّصال بي متى حدث أيّ شيء قد يسبّب لك أيّ إزعاج في هذا المعهد. إنّه ليشرّفني أن أكون دائما في خدمتكم.

قال الدكتور ستادلر بتعجرفٍ وبنبرة ساخرة ووقحة، وهو يعلم أنّه كان عليه تأكيد سلطته وقمع إدراكه المخزي لهذا النوع من البديل الذي اختاره: في المرّة المقبلة التي سأدعوك فيها، عليك إصلاح سيّارتك بشكل مسبّق.

ـ بالتأكيد يا دكتور ستادلر، لن أتأخّر مجدّدًا، وأرجو أن تغفر لي هذا الخطأ.

ثمّ أضاف الدكتور فيريس كما لو أنّه كان يلعب دورًا في لعبة البلياردو، أو أنّه مسرورٌ بأنّ الدكتور ستادلر تعلّم، في الأخير، طريقة المودم في الاتّصال:

ـ لقد تسبّبت لي سيّارتي في متاعب كثيرة، إنّها تتساقط إلى أشلاء، وكنت قد طلبت سيّارة جديدة، طلبت أفضل نوع من السيّارات في السوق، وهي سيّارة هاموند ذات الأسقف القابلة للطيّ والإزالة، ولكن لورانس هاموند انقطع عن العمل في الأسبوع الماضي دون سبب أو إخطار مسبّق، وحتّى الآن أنا عالق. يبدو أنّ هؤلاء الأوغاد يختفون في مكان مّا ويجب فعلُ حيال ذلك.

عندما ذهب فيريس، جلس الدكتور ستادلر في مكتبه، وقد قلّص كتفيه معًا، واعيًا فقط برغبة يائسة يتمنّى ألّا يكتشفها أيّ شخص. وفي خضمّ الألم الذي لم يستطع تحديده، كان هناك أيضا شعور يائس بأنّه ما من أحد من أولئك الذين كان يقدّرهم يرغب في رؤيته مجدّدًا.

كان يعرف الكلمات التي لم ينطق بها. فهو لم يقل إنّه سيشجب الكتاب علنًا ويتبرّأ منه باسم المعهد. لم يقل ذلك، لأنّه كان يخشى اكتشاف أنّ التهديد لن يؤثّر في فيريس لأنّه سيبقى ثابتًا وآمنًا، وأنّ كلمات الدكتور روبرت ستادلر لم تعد تحظى بأيّ سلطة. ورغم أنّه قال في نفسه إنّه سينظر لاحقًا في مسألة التعبير عن احتجاج عامٍّ، فقد كان يعلم أنّه لن يتمكّن من فعل ذلك. التقط الكتاب وتركه ينزلق إلى سلّة المهملات.

وسرعان ما تبادر إلى ذهنه أحد الوجوه، وجه شابّ لم يتذكّره منذ سنوات. فكّر وقال في نفسه: لا، لن يقرأ هذا الكتاب، لن يراه، لقد مات، لا شكّ أنّه مات منذ فترة طويلة... كان ذلك الشابّ هو الرجل الذي يتوق إلى رؤيته أكثر من أيّ كائن آخر في العالم، غير أنّه أمِل في أن يكون ذلك الرجل قد مات.

لم يكن يعلم السبب الذي جعله ينقضّ على سمّاعة الهاتف، عندما رنّ الهاتف وأخبره سكرتيره بأنّ الآنسة داغني تاجارت على الخطّ، لقد كان ينتظر مكالمتها بفارغ الصبر ولاحظ أنّ يده ترتجف. كان يظنّ لأكثر من عام أنّها لن ترغب في رؤيته مجدّدًا. ثمّ سمع صوتها الواضح والمحايد يطلب موعدًا لرؤيته:

ـ نعم، يا آنسة تاجارت، بالتأكيد، بلى، في الواقع... صباح الإثنين؟ نعم، انظري يا آنسة تاجارت، لديّ اليوم موعد في نيويورك، ويمكن أن أزورك في مكتبك بعد ظهر اليوم، إذا كنت ترغبين في ذلك... لا، لا مشكلة لديّ على الإطلاق، سأكون سعيدًا... ليكن موعدنا إذَن بعد ظهر هذا اليوم يا آنسة تاجارت، لنقل حوالي الساعة الثانية مساء، أعني.. حوالي الساعة الرابعة.

لم يكن لديه أيّ موعد في نيويورك، ولم يعطِ نفسه الوقت لمعرفة ما دفعه إلى اختلاق هذه الكذبة. كان يبتسم بشغف، وينظر إلى بقعة أشعّة الشمس في تلّة بعيدة.

***

رسمت داغني خطًّا أسود فوق خانة القطار رقم 93 في الجدول الزمنيّ للقطارات، فشعرت برضى اللحظة البائسة في إشارةٍ إلى أنّها فعلت ذلك بهدوء. إنّه عملٌ كان عليها أن تقوم به لعدّة مرّات في الأشهر الستّة الماضية. وجدت الأمرَ صعبًا في البداية؛ لكنّه أصبح أسهل بمرور الوقت. كان القطار رقم 93 عبارة عن قطار شحن يكسب رزقه من خلال نقل الإمدادات إلى هاموندسفيل، كولورادو.

كانت تعرف الخطوات التالية: أوّلًا تقليل الشحنات الخاصّة، فتقليص عدد عربات الشحن إلى هاموندسفيل، ثمّ الإلغاء التدريجيّ للوقوف في محطّة هاموندسفيل من جداول قطارات الركّاب، وأخيرا يُحدَّد اليوم الذي تمسح فيه هاموندسفيل ـ كولورادو من الخارطة.

ما إن وردت أخبارٌ تفيد بأنّ لورانس هاموند تقاعد، عرفت داغني أنّ من غير المجدي الانتظار والأمل والتساؤل عمّا إذا كان ابن عمّه أو محاميه أو لجنة من المواطنين المحلّيّين ستعيد فتح المصنع. كانت تعلم أنّ الوقت قد حان للبدء في قطع الجداول الزمنيّة.

استغرق الأمر أقلّ من ستّة أشهر بعد رحيل إليس وايت، هذه الفترة التي سمّاها أحد الصحفيّين بسرورٍ "اليومَ الميدانيّ للزميل الصغير". وكان كلّ مشغّلي النفط في

البلاد -أولئك الذين يملكون ثلاث آبار ويشكون في الماضي لأنّ إليس وايت لم يترك لهم أيّ فرصة لكسب الرزق- قد هرعوا لملء الثغرة التي تركها وايت مفتوحةً على مصراعيها. وشكّلوا رابطات وتعاونيّات وجمعيّات؛ لقد جمّعوا مواردهم وخطاباتهم تحت عنوان رئيسيّ هو "يوم الزميل الصغير في الشمس"، مثلما كتب أحد الصحفيّين. كانت شمسهم هي النيران التي أتت على أبراج وايت للنفط. في وهجها، حقّقوا ذلك النوعَ من الآمال التي كانوا يحلمون بها، في شكل ثروات لا تتطلّب أيّ كفاءة أو جهد. ثمّ شرع أكبر زبائنهم مثل شركات الطاقة، أولئك الذين تدرّبوا على امتصاص النفط دون أن يقدّموا أيّ أجر للضعف البشريّ، في التحوّل إلى الفحم. وبدأ العملاء الأصغر حجمًا، أولئك الذين كانوا أكثر تسامحًا، في الانقطاع عن أعمالهم. لقد فرض أبناء واشنطن تقنين النفط وضريبةً طارئة على أصحاب العمل لدعم عمّال حقول النفط المعطّلين عن العمل، وأغلق عدد قليل من شركات النفط الكبرى. واكتشفت المجموعة التي أطلقت على نفسها اسم "مجموعة الزملاء الصغار في الشمس" أنّ أجزاء الحفر التي كانت تكلّفهم مائة دولار، أصبحت الآن تكلّفهم خمسمائة دولار، وأنّه لم تعد توجَد أيّ سوق لمعدّات حقول النفط، وأنّ المزوّدين أصبحوا يكسبون من آلة تنقيب واحدة ما كانوا يكسبونه من بيع خمس. وبدأت خطوط الأنابيب في الإغلاق، إذ لا يوجد أحد قادر على دفع ثمن صيانتها، ومنحت شركات السكك الحديديّة الإذنَ برفع معدّلات الشحن الخاصّة بها. ولم يدرك الزملاء الصغار أنّه ليس في الريف أيّ عميل تجاريّ يستطيع شراء النفط بالسعر الذي قد يستغرقه الآن لإنتاجه. ثمّ منح أبناء واشنطن إعانات لمشغّلي النفط، ولكن لم يكن لكلّ مشغّلي النفط أصدقاء في واشنطن، وتبعًا لذلك خلق ذاك الأمر وضعًا لم يهتمّ أحد بمناقشته أو دراسته عن كثب.

كان أندروستوكتون قد وقع في ذلك النوع من المواقف الذي حسده عليه معظم رجال الأعمال. فالاندفاع نحو التحوّل إلى الفحم نزل على كتفيه مثل كتلة من الذهب: فأبقى مصنعه يعمل على مدار الساعة، في سباق ضدّ العواصف الثلجيّة التي ستطلّ

مع قدوم فصل الشتاء، وهو يعدّ قوالب للمواقد والأفران التي تعمل بحرق الفحم. لم يكن هناك الكثير من المصانع المتبقّية التي يمكن الاعتماد عليها؛ فأصبح إحدى الركائز الرئيسيّة التي تدعم أقبية البلاد ومطابخها، لكنّ تلك الركيزة انهارت دون سابق إنذار. لقد أعلن أندروستوكتون أنّه سيتقاعد، وأغلق مصنعه واختفى. ولم يترك أيّ خبر عمّا يرغب في فِعله بالمصنع أو ما إذا كان لأقاربه الحقّ في إعادة فتحه.

كانت لا تزال هناك سيّارات على طرق البلاد، لكنّها تحرّكت مثل مسافرين في الصحراء يركبون هياكل عظميّة لخيول بيّضتها الشمس: لقد تجاوزوا الهياكل العظميّة للسيّارات التي انهارت أثناء الخدمة وتركت في الخنادق على جانب الطريق. لم يعد الناس يشترون السيّارات، إذ كانت مصانعها بصدد إغلاق أبوابها. ولكن بقي هناك رجال لا يزالون قادرين على الحصول على النفط، عن طريق الصداقات التي لا يهتمّ أحد بالتشكيك فيها. هؤلاء الرجال اشتروا سيّارات بأيّ ثمن طُلِب. غمرت الأضواء جبال كولورادو من نوافذ المصنع العظيمة، حيث أحالت أحزمة التجميع الخاصّة بـلورانس هاموند الشاحنات والسيّارات إلى المسارات الجانبيّة لشركة تاجارت العابرة للقارّات. ثمّ جاء نبأ تقاعد لورانس هاموند على نحو أقلّ من المتوقّع، وجيزًا ومفاجئًا مثل ضربة واحدة من جرس في سكون ثقيل. وفي تلك اللحظة بثّت لجنة من المواطنين المحلّيّين نداءات على الراديو، تتوسّل فيه إلى لورانس هاموند، أينما كان، أن يمنحهم الإذن بإعادة فتح مصنعه. لكن لم يأتِ أيّ جواب.

لقد صرخت عندما ذهب إليس وايت، ولهثت حين تقاعد أندروستوكتون، ولكن عندما سمعت أنّ لورانس هاموند استقال، تساءلت بلا حراك: من التالي؟

قالت لها شقيقة أندروستوكتون في رحلتها الأخيرة قبل شهرين إلى كولورادو: لا يا آنسة تاجارت، لا أستطيع أن أشرح ذلك. لم ينبس لي بأيّ كلمة، ولا أعلم حتّى ما إذا كان ميّتًا أو حيًّا. إنّ مصيره مثل مصير إليس وايت. لا، لم يحدث أيّ شيء خاصّ قبل يوم من استقالته. أتذكّر فقط أنّ رجلًا جاء لرؤيته في ذلك المساء. كان شخصًا غريبًا لم أره من قبل. تحدّثا إلى وقت متأخّر من الليل. وحين ذهبت إلى النوم، كان الضوء لا

يزال مشتعلا في مكتب أندرو.

لقد لجم الصمت جميع سكّان مدن كولورادو. ولاحظت داغني طريقةَ سيرهم في الشوارع، وهم يمرّون أمام صيدليّاتهم الصغيرة ومتاجر المعدّات والتجهيزات وأسواق البقالة كما لو أنّهم يأملون في أن تنقذهم حركات وظائفهم من التطلّع إلى المستقبل. وكانت هي أيضًا قد سارت في تلك الشوارع، محاولةً عدم رفع رأسها أو رؤية حوافّ الصخور السخاميّة والصلب الملتوي، التي كانت تشكّل حقول وايت النفطيّة. ويمكن رؤيتها من مدن عديدةٍ؛ وحين نظرت أمامها، شاهدت تلك الحقول على بعد مسافة.

هناك بئر واحدة لا تزال تحترق على قمّة التلّ، دون أن يتمكّن أحد من إخمادها. لقد رأت ذلك من ناحية الشوارع: تلك الطفرة الناريّة وهي تلتوي متشنّجةً في السماء، كما لو أنّها تحاول التمزّق بارتخاء. رأتها في الليل، عبر مسافة مائة ميل من الظلام الدامس، من خلال نافذة القطار: كانت عبارة عن لهب صغير عنيف، يلوّح في مهبّ الريح، أطلق عليه الناس اسم شعلة وايت.

كان أطول قطار على خطّ جون جالت يجرّ أربعين عربة؛ أمّا أسرعها فَيَسِيرُ بسرعة خمسين ميلًا في الساعة. وكان لا بدّ من ذخر بعض المحرّكات: خصوصًا تلك التي تشتغل باحتراق الفحم، بعد سنّ تقاعدها بفترة طويلة. لقد حصل جيم على النفط لمحرّكات الديزل التي كانت تسحب قطار المذنّب وعدد قليل من عربات الشحن العابرة للقارّات. وكان مصدرُ الوقود الوحيدُ الذي يمكن الاعتماد عليه والتعامل معه هو كين داناغر من شركة داناغر للفحم في بنسلفانيا.

كانت القطارات الفارغة تتحرّك محدثةً قعقعةً عبر الولايات الأربع التي كانت مترابطة كترابط الجيران بحلق كولورادو. كانت تحمل بعض الأغنام والذرة والبطيخ وبعض المزارعين من حين إلى آخر وكذا عائلات بورجوازيّة تملك أصدقاء في واشنطن. وكان جيم قد حصل على دعم من واشنطن لكلّ قطار يعمل، لا بوصفه ناقلةً لجني الرّبح، بل باعتباره خدمةً تضمن المساواة العامّة.

كانت الشركة تستنفدُ كلّ جزء من طاقتها للحفاظ على عمل القطارات من خلال الأقسام التي لا تزال توجد حاجة إليها، في المناطق التي لا تزال تنتج. ولكن في الميزانيّات العموميّة لشركة تاجارت العابرة للقارّات، كانت عمليّات التحقّق من إعانات جيم للقطارات الفارغة تحمل أرقامًا أكبر من الأرباح التي جلبها أفضل قطار شحن في القسم الصناعيّ الأكثر ازدحامًا.

تفاخر جيم بأنّ تلك الفترة مثّلت الأشهر الستّة الأكثر ازدهارًا في تاريخ شركة تاجارت. وما أدرج على أنّه أرباح، في الصفحات اللّامعة من تقريره إلى حملة الأسهم، لم يكن الأموال التي كسبها، بل إعانات للقطارات المعطّلة. تلك المبالغ التي كان ينبغي أن تذهب لدفع الفائدة وتقاعد سندات تاجرت، أي الدَّين الذي سُمح له، وفقًا لمصلحة ويسلي ماوتش، بعدم دفعه. تباهى بحجم أكبر من الشحن الذي تحمله قطارات تاجارت في ولاية أريزونا حيث أغلق دان كونواي آخر خطّ سكك حديد لشركة فينيكس ـ دورانغو، وفي مينيسوتا حيث كان بول لاركين يشحن خام الحديد عن طريق السكك الحديديّة، وانقرضت آخر قوارب خام على البحيرات العظمى من الوجود.

قال جيم لأخته بنصف ابتسامة غريبة: كنت دائما تعتبرين أنّ كسب المال يمثّل أعظم فضيلة.. حسنا، يبدو لي أنّني أفضل منك في ذلك.

ولم يعلن أحدٌ أنّه يفهم مسألة سندات السكك الحديديّة المجمّدة؛ ربّما، لأنّ الجميع فهموها جيّدًا. في البداية، كانت هناك علامات على حالة من الذعر بين حاملي السندات وسخطٌ خطير بين الجمهور. ثمّ أصدر ويسلي ماوتش توجيهًا آخر، يقضي بأنّ الناس يمكنهم الحصول على سنداتهم المجمّدة بناءً على التماس الحاجة الأساسيّة. فالحكومة ستشتري السندات، إذا وجدت أنّ الحاجة مؤكّدة وثابتة. كانت هناك ثلاثة أسئلة لم يجب عليها أحدٌ: ما الذي يُعتبَر دليلًا؟ وما الذي يشكّل الحاجة؟ ولمن هو ضروريّ؟

ثمّ أصبح من غير اللّائق مناقشةُ سبب تلقّي شخصٍ مّا منحةَ إلغاء تجميد لأمواله،

وفي مقابل ذلك يُرفَض طلبُ شخص آخر. لقد رفضت مطالب الناس في صمتٍ وأفواههم مكمّمةٌ إذا سألهم أيّ شخص: لماذا لم تقبل مطالبكم؟ وكان يفترَض بالمرء أن يصف ، لا أن يفسّر، وأن يدلي بالحقائق، لا أن يقيّمها: فقد أُزيلَ التجميد عن السيّد سميث، وفي مقابل ذلك رُفِض طلب السيّد جونز، وهكذا كانت الأمور تسير. وعندما انتحر السيّد جونز قال الناس: حسنًا، نحن لا نعلم ما إذا كان حقًّا في حاجة إلى أمواله، فالحكومة كانت ستعطيه إيّاها، لكنّ بعض البشر جَشِعُون جدًّا.

لم يكن من المفترض أن يتحدّث المرء عن الناس الذين باعوا سنداتهم مقابل ثلث القيمة إلى أناس آخرين يملكون، بأعجوبة، ثلاثةً وثلاثين سنتا مجمّدا في دولار كامل، أو عن مهنة جديدة مارسها الأولاد الصغار الأذكياء الذين تخرّجوا للتوِّ من الكلّيّة، والذين كانوا يطلقون على أنفسهم: مزيلو التجميد، وكانوا يعرضون خدماتهم من قبيل مساعدتك على صياغة التطبيق الخاصّ بك في المصطلحات الحديثة المناسبة. وكان لهم أصدقاء في واشنطن.

عندما نظرت داغني إلى سكّة حديد تاجارت من منصّة إحدى المحطّات الريفيّة، وجدت نفسها تشعر، لا بالفخر الرائع الذي شعرت به ذات مرّة، بل بالعار، كما لو أنّه نوع من الصدإ الذي نما على المعدن، والأسوأ من ذلك: كما لو أنّ الصدأ مخضّبٌ بالدم. ولكن بعد ذلك، في باحة المحطّة الخلفيّة، نظرت إلى تمثال نات تاجارت وقالت في نفسها: إنّها سكّة حديدك التي صنعتها، وقاتلت من أجلها، ولم يوقفك الخوف أو البغض، لن أسلّمها لرجال الدم والصدإ، ولو كنت الوحيدة المتبقّية لحراسة ذلك.

لكنّها لم تتخلَّ، في الوقت نفسه، عن سعيها وراء الرجل الذي اخترع ذاك المحرّك. فذلك السعي مثّل في عملها الجزءَ الوحيد الذي جعلها قادرة على تحمّل الباقي. فكان هو الهدف الوحيد في الأفق الذي يضفي معنى على نضالها. وفي بعض الأوقات كانت تتساءل عن السبب الذي يجعلها ترغب في إعادة بناء ذاك المحرّك، وكذا عن الغاية منه. وعلى هذه الأسئلة تجيب قائلةً: لأنّني مازلت على قيد الحياة. لكنّ سعيها ظلّ عقيمًا. والمهندسان اللذان أوكلت لهما المهمّة لم يجدا شيئًا في ويسكونسن. فقد أرسلتهما للبحث

في جميع أنحاء البلاد عن الرجال الذين عملوا في شركة القرن العشرين، ومعرفة اسم المخترع. لكنّهما لم يصلا إلى أيّ معلومات. ثمّ أرسلتهما للبحث في ملفّات مكتب براءات الاختراع، لكن للأسف لم تُسجَّل أيّ براءة في هذا الموضوع.

كان الدليل الوحيد الشخصيّ الذي بقي بحوزتها هو عقب السيجارة الذي يحمل علامة الدولار. لقد نسيت ذلك، حتّى آخر مساء لها، عندما وجدته في درج مكتبها فأعطته لصديقها صاحب كشك السجائر بباحة المحطّة. اندهش الرجل العجوز، حين تفحّص العقب، وأمسكه بحذرٍ بين إصبعيه؛ فقال إنّه لم يسمع بمثل هذه العلامة التجاريّة من قبل، وتساءل كيف أمكن لمعرفتها أن تفوته. ثمّ سألها:

ـ هل هذه السيجارة من النوع الجيّد، يا آنسة تاجارت؟

أجابته: كانت أفضل سيجارة دخّنتها على الإطلاق.

رفع رأسَه في حيرة. ووعدها بأن يكتشف المكان الذي يُصنَع فيه هذا النوع من السجائر وأن يحصل لها على علبة منها.

لقد حاولت العثور على عالم قادر على محاولة إعادة بناء المحرّك. وأجرت مقابلات مع الرجال الذين أُوصي بهم على أنّهم أفضل مختصّين في مجالهم. وبعد دراسة بقايا المحرّك والمخطوطة، أعلن أوّلهم، بلهجة رقيب تنقيب، أنّ ذلك الشيء لا يمكن أن يعمل، ولن ينجح أبدًا، وأنّه سيثبت لها أنّه لا يمكن أبدًا إنجاح مثل ذلك المحرّك. أمّا الثاني فقال متشدّقًا، بلهجة الردّ على واجب مملّ، إنّه لا يعرف ما إذا كان يمكن القيام بذلك أم لا، وإنّه لن يهتمّ بمعرفة ذلك. أمّا الثالث فقال، بصوت وقح تعلوه العدوانيّة، إنّه سيحاول أداء تلك المهمّة إذا ضبط الأمر وفق عقد مدّته عشر سنوات براتب خمسة وعشرين ألف دولار في السنة. قال:

ـ في نهاية المطاف يا آنسة تاجارت، إذا كنت تتوقّعين أن تنالي أرباحًا طائلة من ذلك المحرّك، فأنتِ من يجب عليك أن تدفعي ثمن المقامرة بوقتي.

أمّا الرابع، وكان أصغرهم سنًّا، فقد نظر إليها بصمتٍ للحظة، وانزلقت خطوط

وجهه من الفراغ إلى اقتراح مشحون بالازدراء:

ـ كما تعلمين، يا آنسة تاجارت، لا أعتقد أنّنا نستطيع إعادة صنع مثل هذا النوع من المحرّكات، حتّى لو تعلّم المرء كيفيّة فعل ذلك. سيكون هذا أعلى مرتبةً من أيّ شيء لدينا، ثمّ إنّه سيمثّل نكسة للعلماء البسطاء، لأنّه لن يترك مجالًا لإنجازاتهم وقدراتهم. لا أعتقد أنّ على الإنسان القويّ أن يمتلك الحقّ في جرح الكبرياء الذاتيّ للضعفاء.

أمرته بالخروج من مكتبها، وجلست في رعبٍ وشكٍّ أمام حقيقة أفظع بيان سمعته على الإطلاق، وقد عبّر عنه بنبرة مهذّبة. وكان ملاذها الأخير هو اللجوء إلى الدكتور روبرت ستادلر.

لقد أجبرت نفسها على الاتّصال به، على الرغم من مقاومة نقطة ثابتة اختلجت في داخلها مثل صدمة الفرامل حين تكبح فتضيّق الخناق على العجلة. جادلت نفسها ثمّ فكّرت: نجحت في التعامل مع رجالٍ من أمثال جيم وأورين بويل. إنّ ذنب الدكتور ستادلر أقلّ من ذنبهم، فلماذا لا أستطيع التحدّث معه؟ لكنّها لم تجد جوابًا. كانت تشعر فقط بالتردّد، وتسمع صوتًا يهمس إليها بأنّها يجب ألّا تتّصل بالدكتور روبرت ستادلر.

وبينما كانت تجلس بمكتبها، وأمامها جداول مواقيت خطّ جون جالت، في انتظار قدوم الدكتور ستادلر، تساءلت لماذا لم تظهر أيّ موهبة من الدرجة الأولى في مجال العلوم منذ سنوات؟ لكنّها لم تنجح في الوصول إلى إجابة. كانت تنظر إلى الخطّ الأسود الذي يذكّرها بجثّة القطار رقم 93 في الجدول الزمنيّ أمامها.

وقالت في نفسها إنّ أيّ قطار يملك سمتين عظيمتين من الحياة هما الحركة والهدف؛ إنّه يشبه أيّ كائن حيّ. لكنّ ما تبقّى لها الآن لا يعدو أن يكون عددًا من عربات الشحن الميّتة والمحرّكات. وخاطبت نفسها قائلة: لا تمنحي نفسك الوقت للشعور، قطّعي أوصال الذبيحة في أسرع وقت ممكنٍ، فهناك حاجة إلى محرّكات في جميع أنحاء البلاد، كين داناغر في ولاية بنسلفانيا مثلا يحتاج إلى القطارات.

أعلن صوت جهاز التواصل بين المكاتب فوق طاولة مكتبها: الدكتور روبرت

ستادلر.

دخل الدكتور روبرت ستادلر تعلوه ابتسامة تتناغم مع قوّة كلماته:

ـ آنسة تاجارت، هل لي أن أخبرك بمدى سعادتي لرؤيتك مجدّدًا؟

لم تبتسم، بل كانت مهذّبة جدًّا وهي تجيب:

ـ زيارتك لي هنا من لطفك ودماثة أخلاقك.

ثمّ انحنت، وظلّ جسدها النحيل مستقيمًا بشكل مشدود، باستثناء حركة رأسها الرسميّة البطيئة.

ـ وماذا لو اعترفت لك بأنّ كلّ ما كنت أحتاج إليه للمجيء إلى هنا هو عذر معقول؟ هل سيدهشك ذلك؟

ـ سأحاول ألّا أبالغ في مجاملتك. رجاءً اجلس يا دكتور ستادلر.

نظر بفرح حوله وقال:

ـ لم يسبق لي أن رأيت مكتب المدير التنفيذيّ للسكك الحديديّة. لم أكن أعلم أنّه سيكون بهذه... العظمة. هل هذا يُردّ إلى خانة طبيعة الوظيفة في حدّ ذاتها؟

ـ المسألة التي أودّ استشارتك فيها بعيدة كلّ البعد عن مجال اهتماماتك يا دكتور ستادلر. قد تعتقد أنّ من الغريب أن أتّصل بك، فأرجو منك السماح لي بشرح أسبابي.

ـ إنّ رغبتكم في الاتّصال بي سبب كافٍ تماما. إذا كنت أستطيع أن أقدّم أيّ خدمة لك، أيّ خدمة، فلن أعرف شيئًا من شأنه أن يرضيني أكثر من هذه اللحظة.

كانت ابتسامته جذّابة، ابتسامة رجل ينتمي إلى عالم يستخدم فيه الابتسام، لا لتغطية كلماته، ولكن للتأكيد على جرأة التعبير عن عاطفة صادقة تعتريه.

ـ مشكلتي لها علاقة بالتكنولوجيا.

كانت تتكلّم بلهجة موضوعيّة واضحة، تشبه لهجة ميكانيكيّ شابّ يناقش مهمّة صعبة، ثمّ أضافت:

ـ أدرك تمامًا احتقارك لهذا الفرع من العلوم. ولا أتوقّع منك أن تحلّ مشكلتي، فهي ليست من الأعمال التي تنجزها أو تهتمّ بها. أودّ فقط أن أطرح عليك المشكلة، وبعد ذلك سأطرح عليك سؤالين. كان عليّ أن أتّصل بك، لأنّها مسألة تنطوي على عقل شخص مّا، عقل عظيم جدًّا، وأنت العقل العظيم الوحيد الذي لا يزال صامدًا في هذا المجال.

لم تستطع إخباره بمدى استغرابها من وقع كلماتها عليه. لقد رأت سكون وجهه، والجدّيّة المفاجئة في العينين، تلك الجدّيّة الغريبة التي بدت متلهّفة وتكاد تتوسّل إليها، ثمّ سمعت صوتَه يأتي على نحو خطير، كما لو أنّه كان تحت ضغط شيء من العاطفة التي جعلته يبدو بسيطًا ومتواضعًا:

ـ ما مشكلتك يا آنسة تاجارت؟

فأخبرته عن المحرّك والمكان الذي وجدته فيه، وأنبأته بأنّها واجهت مهمّة مستحيلة لمعرفة اسم المخترع، من دون أن تذكر تفاصيل سعيها. ثمّ سلّمته صورًا للمحرّك وبقايا المخطوطة.

شاهدته وهو يقرأ. في البداية، رأت الضمان المهنيّ في حركته السريعة والمسح الضوئيّ لعينيه، ثمّ التوقّف، ثمّ النيّة المتنامية، ثمّ حركة شفتيه التي لو صدرت عن رجل آخر لكان يمكن أن تحدث تصفيرًا أو لهاثًا. رأته يتوقّف لدقائق طويلة وينظر إلى الوراء، كما لو أنّ عقله يتسابق على مسارات مفاجئة لا حصر لها، محاولًا متابعتها كلّها. رأته يتصفّح الأوراق مرّة أخرى، ثمّ يتوقّف، ثمّ يجبر نفسه على القراءة، كما لو أنّه كان ممزّقًا بين حرصه على الاستمرار وحرصه على اغتنام كلّ الاحتمالات المنفتحة قبل رؤيتها. ثمّ لاحظت حماسته الصامتة. كانت تعرف أنّه نسي مكتبها، ووجودها، وكلّ شيء ما عدا مشهد ذلك الإنجاز وتحيّتها لأنّه كان قادرًا على ردّ الفعل، فتمنّت لو أنّ من الممكن لها أن تحبّ الدكتور روبرت ستادلر.

ظلّا صامتين لأكثر من ساعة، عندما انتهى ونظر إليها وقال:

ـ ولكنّه إنجاز خارق!

لقد عبرّ عن ذلك بنبرة مدهشة معلنًا عن أخبار لم تكن تتوقّعها. كانت ترجو لو أنّ في وسعها أن تبتسم كنوع من الإجابة وتمنحه فرحة الصداقة ليحتفلا بها معًا، لكنّها أومأت فقط وقالت ببرود:

ـ بالتأكيد.

ـ لكن يا آنسة تاجارت، إنّه عمل هائل!

ـ نعم.

ـ هل قلت إنّها مرتبطة بالتكنولوجيا؟ إنّه أكثر من ذلك بكثير. فمن خلال الصفحات التي كتب فيها المخترع عن المحوِّل، يمكنك معرفة الفرضيّة التي يتحدّث عنها. لقد وصل إلى مفهوم جديد للطّاقة. وتخلّص من كلّ افتراضاتنا القياسيّة ومعاييرنا التي لو قيّمنا بها محرّكه لكان أمرًا مستحيلًا إنجازه. لقد صاغ فرضيّة جديدةً من تلقاء نفسه وحلّ سرّ تحويل الطاقة الساكنة إلى قوّة حركيّة. هل تعلمين ماذا يعني ذلك؟ هل تدركين العمل البطوليّ كان عليه خَوْضُه في معارج العلوم الخالصة المجرّدة قبل أن يتمكّن من اختراع محرّكه؟

سألته بهدوء: من اخترع هذا المحرّك؟

ـ عذرا، لم أسمع ما قلت؟

ـ كان هذا أحد السؤالين اللذين نويتُ طرحهما عليك، هل يمكنك التفكير في أيّ عالم شابّ عرفته قبل عشر سنوات، وبإمكانه فعل ذلك؟

توقّف عن الكلام بذهول؛ ولكن لم يكن لديه الوقت للبحث عن إجابة على ذلك السؤال. فقال برويّة، وبوجه عبوس:

ـ لا، لا أستطيع تخمين اسم أيّ شخص... وهذا غريب... لأنّ قدرةً من هذا النوع لا يمكن أن تكون قد مرّت دون أن يلاحظها أحدٌ في أيّ مكان، شخص مّا كان سيدعوه إلى لفت انتباهي... كانوا دائمًا يرسلون إليّ علماء فيزياء من الشباب

الواعدين... هل قلت إنّك وجدت هذا في مختبر الأبحاث بمصنع تجاريّ عاديّ للمحرّكات؟

ـ نعم.

ـ هذا غريب. ماذا كان يفعل في مثل ذلك المكان؟

ـ هو تصميم لمحرّك.

ـ هذا ما أعنيه. رجل بعبقريّة عالم عظيم، يختار أن يكون مخترعًا تجاريًّا؟ أجد أنّه أمر شائن. لقد أراد محرّكًا، فأجرى بهدوءٍ ثورةً كبرى في علم الطاقة فقط كوسيلة لتحقيق غاية، ولم يكلّف نفسه عناء نشر النتائج التي توصّل إليها، لكنّه ذهب مباشرة إلى صنع محرّكه. لماذا أراد أن يضيّع مدارك عقله في الأجهزة العمليّة؟

ردّت بطريقة لاإراديّة: ربّما لأنّه كان يحبّ العيش على هذه الأرض.

ـ المعذرة؟

ـ لا، أنا ... أنا آسفة، يا دكتور ستادلر. لم أَنْوِ مناقشةَ أيّ موضوع غير ذي صلة بالمحرك.

كان ينظر بعيدًا، وهو يتابع مساره الخاصّ في التفكير قبل أن يقول:

ـ لماذا لم يأتِ إليّ؟ لماذا لم ينتمِ إلى مؤسّسة علميّة عظيمة؟ وإذا امتلك عقلًا لتحقيق ذلك، فلا شكّ أنّه امتلك أيضا عقلًا لمعرفة أهمّيّة ما فعله. لماذا لم ينشر ورقة عن تعريفه للطاقة؟ أستطيع رؤية الاتّجاه العامّ الذي اتّخذه، ولكن لعنة الله عليه! إنّ أهمّ الصفحات مفقودة، فالبرهان ليس موجودًا هنا! لا شكّ أنّ له شخصًا من مقرّبيه كان عليه أن يعرف بما فيه الكفاية ليعلن عن عمله لمجتمع العلم بأكمله. لماذا لم يفعلوا ذلك؟ كيف يمكن لهم أن يتخلّوا عن شيء من هذا النوع؟

ـ هذه هي الأسئلة التي لم أجد إجابات عليها.

ـ إلى جانب ذلك، ومن وجهة نظر عمليّة بحتة، لماذا ترك هذا المحرّك في كومة

خردة؟ كنت أعتقد أنّ أيّ أحمق جشع من الصناعيّين قد أمسك به من أجل كسب ثروة. إذ لم تكن هناك حاجة إلى ذكاء خارق لمعرفة قيمته التجاريّة.

ابتسمت لأوّل مرّة ابتسامةً قبيحة مختلطة بالمرارة؛ ولم تنبس بحرف. فسألها:

ـ هل وجدت تعقّب أثر المخترع أمرًا مستحيلًا؟

ـ إنّه أمر مستحيل تمامًا حتّى الآن.

ـ هل تعتقدين أنّه لا يزال على قيد الحياة؟

ـ لديّ سبب للاعتقاد بأنّه كذلك. ولكن لست متأكّدة.

ـ لنفترض أنّني حاولت نشر إعلان عنه؟

ـ لا، لا تفعل ذلك.

ـ ولكن إذا كان لي أن أضع أحد الإعلانات في المنشورات العلميّة ويكون الدكتور فيريس؟!

ثمّ توقّف عن الكلام. كانا يتبادلان النظرات، لم تقل شيئًا، لكنّها التقطت تلك النظرة، فنظر بعيدا وأنهى جملته ببرود وحزم:

ـ لقد بثّ الدكتور فيريس على الراديو أنّي أودّ رؤيته، فهل سيرفض المجيء؟

ـ نعم يا دكتور ستادلر، أعتقد أنّه سيرفض.

لم يكن ينظر إليها. فرأت شدًّا خافتا في عضلات وجهه وشيئًا من الركود يعلو خطوطَه، في الآن نفسه؛ لم تستطع تحديد نوع الضوء الذي كان يندثر بداخله ولا ما جعلها تفكّر في احتضار الضوء فيه.

ثمّ ألقى المخطوطة على المكتب بحركة تضجّ ازدراءً، وقال:

ـ أولئك الرجال الذين لا يمانعون في أن يكونوا عمليّين بما فيه الكفاية لبيع أدمغتهم مقابل المال، يجب أن يكتسبوا القليل من المعرفة حول ظروف الواقع العمليّ.

ثمّ نظر إليها بشيءٍ من التحدّي، كما لو أنّه ينتظر إجابة غاضبة. لكنّ جوابها كان

أسوأ من الغضب: فقد ظلّ وجهها بلا تعبير، وكأنّ الحقيقة أو زيف قناعاته لم تعد تهمّها. فقالت بأدب:

ـ السؤال الثاني الذي أردت أن أسألك عنه هو ما إذا كنت تستطيع إخباري باسم أيّ عالم فيزيائيّ تعرفه، وتراه يمتلك القدرةَ على محاولة إعادة بناء هذا المحرّك.

نظر إليها وضحك، ولكنّ صوته كان ممزوجًا بالألم:

ـ هل أرّقك هذا السؤال أيضًا يا آنسة تاجارت؟ من المستحيل العثور على رجل بمثل هذا الذكاء في أيّ مكان.

ـ لقد أجريت مقابلات مع بعض الفيزيائيّين، لكنّي وجدت الأمر معهم في دائرة الميؤوس منه.

انحنى إلى الأمام بشغف وسألها بنبرة تنطوي على كثير من التوسّل: هل دعوتني لأنّك تثقين في نزاهتي العلميّة يا آنسة تاجارت؟

ـ نعم، لقد كنت واثقة في نزاهة حكمك العلميّ.

فانحنى إلى الوراء، ولكن بدا كما لو أنَّه يحمل ابتسامة خفيّة خفّفت جوّ التوتّر فدرأته بعيدًا عن وجهه، وخاطبها وكأنّها كانت صديقته:

ـ أتمنّى أن أتمكّن من مساعدتك. أتمنّى بصدق أن أتمكّن من مساعدتك، لأنّ تلك كانت أصعب مشاكلي، فقد عانيت كثيرا في طريق العثور على رجال موهوبين لكي أضمّهم إلى فريق عملي. الموهبة، بحقّ الجحيم! سأكون راضيًا عن مجرّد ما يشبه الوعد، ولكنّ الرجال الذين يرسلونهم إليّ لا يمكن أن يقال عنهم بصراحة إنّهم يمتلكون مهارات تكفيهم حتّى لتسيير مرآب لإصلاح السيّارات. لا أعلم ما إذا كان تقدّمي في العمر هو الذي يجعل طموحاتي أكبر، أم إنّ الجنس البشريّ هو الذي تدهور فعلًا، لكنّ العالم لم يكن في شبابي يفتقر إلى الذكاء. اليوم، إذا رأيت نوعًا الرجال الذين أجريت معهم مقابلات، فـ...

توقّف فجأة، كما لو أنّه يعيش لحظات تذكّر مفاجئ. وبقي صامتًا؛ يبدو أنّه يفكّر في

شيء مّا يعلمه، ولكن لم يرغب في إخبارها به؛ ولكنّها أيقنت ذلك، عندما خلص بفظاظةٍ، في تلك النغمة من الاستياء الذي يخفي التهرّب فقال:

ـ لا ، أنا لا أعرف أيّ شخص يمكنني أن أوصيك به.

ردّت: هذا كلّ ما أردت طلبه منك يا دكتور ستادلر. شكرًا لأنّك منحتني وقتك.

جلس صامتًا وثابتًا للحظة، كما لو أنّه لا يودّ المغادرة. ثمّ سألها:

ـ آنسة تاجارت، هل يمكنك أن تريني المحرّك الحقيقيّ في حدّ ذاته؟

نظرت إليه بذهول، ثمّ قالت:

ـ لماذا، نعم ... إذا كنت ترغب في ذلك. لكنّه في قبوٍ تحت الأرض، في أسفل أنفاق محطّتنا.

ـ أنا لا أمانع في رؤيته، إذا كنت لا تمانعين في أخذي إلى هناك. ليس لديّ دافع خاصّ، بل هو فقط فضولي الشخصي الذي يجعلني أودّ أن أراه، هذا كلّ ما في الأمر.

وعندما وقفا في قبو الجرانيت، ينظران إلى علبة زجاجيّة تحتوي على شكل من المعدن المكسور، خلع قبّعته بحركة بطيئة خفيّة، فلم تستطع الجزم بما إذا كانت تلك الحركة بادرةً روتينيّة توحي بتذكّره أنّه كان وحدَه في غرفة مع سيّدة، أم أنّها حركة كشفٍ للرأس يؤدّيها المرء حين يكون أمام تابوت.

وقفا في صمت، في وهج ضوء واحدٍ منكسر وممتدّ من السطح الزجاجيّ إلى وجهيهما. كانت عجلات القطار تنقر على بعد مسافة، وبدا الأمر في بعض الأحيان كأنّ هزّة مفاجئة على وشك إيقاظ إجابة من الجثّة المعدنيّة الموضوعة في العلبة الزجاجيّة.

قال الدكتور ستادلر بصوت منخفض: إنّه لأمرٌ رائع جدًّا. إنّه لأمرٌ رائع جدًّا أن نرى فكرة عظيمة وجديدة وحاسمة ولكنّها ليست لي!

نظرت إليه، متمنّية تصديق أنّها فهمته على النحو الصحيح. لقد تحدّث بإخلاص

عاطفيّ، متجاهلًا الأعراف أو القلق بشأن ما إذا كان من المناسب السماح لها بسماع اعترافه بألمه. لم يكن ينظر إلى أيّ شيء سوى وجه امرأة قادرة على الفهم، ثمّ قال:

ـ آنسة تاجارت، هل تعرفين السمة المميّزة لإنسان متوسّط القدرات؟ إنّها استياؤه من إنجاز إنسانٍ آخر. أولئك البشر الرديئون السريعو الغضب الذين يجلسون وهم يرتجفون خشيةَ أن يثبت عمل شخص مّا أنّه أعظم من عملهم. ليس لديهم أدنى فكرة عن معنى الوحدة التي تأتي عندما تصل إلى القمّة. ذلك الشعور بالوحدة من أجل المساواة ومن أجل احترام العقل والإعجاب بإنجازاته. إنّهم يكشفون لك أسنانهم من ثقوب الفئران الخاصّة بهم، معتقدين أنّك تستمتع إذ تسمح لتألّقك بأن يلقي بهم في العتمة، وأنت في الحقيقة تهبهم عامًا من حياتك لرؤية وميض من المواهب في أيّ مكان بينهم. إنّهم يحسدون على الإنجاز، والحلم بالعظمة عندهم هو أن يعترف جميع البشر في العالم بحظوتهم ومكانتهم. هم لا يعرفون أنّ ذلك الحلم هو الدليل الخالص على الرداءة، لأنّ هذا النوع من العالم هو ما لن يستطيع رجل الإنجاز تحمّله. إنّهم لا يملكون أيّ وسيلة لمعرفة ما يشعر به الإنسان المتميّز عندما يكون محاطًا بالدونيّة والكراهية؟ لا، ليس الكراهية، بل الملل، ذلك الملل الرهيب، الميؤوس منه، المستنزف، والمشلول. على أيّ أساس يأتيك الثناء والتملّق من البشر الذين لا تحترمهم؟ هل شعرت من قبل بتوق إلى شخص مّا يمكنك أن تعجب به؟ بأن تنظر إلى شيء مّا، لا إلى ما هو دونَك، بل إلى ما هو أعلى وأسمى؟

قالت: لقد شعرت بذلك طوال حياتي.

قال بنبرة تضجّ هدوءًا ووداعةً: أنا أعرف ذلك.. لقد خبرته منذ الوهلة الأولى التي تحدّثت فيها معك ولهذا السبب جئت اليوم.

توقّف عن الكلام لحظةً، لكنّها لم تتفاعل معه، فأنهى كلامه بالهدوء نفسه:

ـ حسنًا، هذا هو السبب الذي جعلني أرغب في رؤية المحرّك.

ردّت بهدوء: أفهم ذلك.

لقد كانت نبرة صوتها شكلَ الاعتراف الوحيدَ الذي استطاعت منحه إيّاه.

قال وهو يخفض عينيه للنظر في العلبة الزجاجيّة: آنسة تاجارت، أعرف رجلًا قد يكون قادرًا على إعادة بناء ذلك المحرّك. لكنّه لن يرغب في العمل معي، لذلك فالراجح أنّه النوع الذي تبحثين عنه.

ولكن حين رفع رأسه، وقبل أن يرى نظرة الإعجاب في عينيها، تلك النظرة المفتوحة التي توسّل إليها، ونظرة الغفران، فإنّه دمّر لحظته الوحيدة للتكفير عن ذنبه بإضافة صوت من السخريّة المتكرّرة في غرف الاستقبال:

ـ يبدو أنّ الشابّ لم تكن لديه أيّ رغبة في العمل من أجل خير المجتمع أو رفاهية العلم. لقد ذكر لي أنّه لن يشتغل بأيّ وظيفة حكوميّة. وأفترض أنّه يطلب راتبًا أكبر من صاحب عمل خاصّ.

التفت بعيدًا، حتّى لا يرى النظرة التي كانت تتلاشى في وجهها، أو يسمح لنفسه بمعرفة معناها.

ردّت بصوت حادٍّ: نعم، ربّما هو من النوع الذي أبحث عنه.

ردّ بجفاءٍ: إنّه عالم فيزياء شابّ من معهد يوتا للتكنولوجيا، اسمه كوينتن دانيلز. أرسله إليّ صديقٌ منذ بضعة أشهر. وجاء لرؤيتي، لكنّه لم يقبل بالوظيفة التي عرضتُها عليه. أردته أن يعمل مع طاقمي. كان يتمتّع بعقل عالم، ولا أعرف إن كان بإمكانه النجاح في إعادة تركيب محرّكك. لكنّه يمتلك في الأقلّ القدرةَ على المحاولة. أعتقد أنّه لا يزال بإمكانك الوصول إليه في معهد يوتا للتكنولوجيا. لا أعرف ما يفعله هناك إلى حدّ الآن، لأنّهم أغلقوا المعهد منذ عامٍ.

ـ شكرًا لك يا دكتور ستادلر، سأحاول التواصل معه.

ـ إذا... إذا رغبتِ في مساعدتي، فإنّه يسعدني أن أمدّ له يد العون في الجزء النظريّ. سأنجز بعضَ الأعمال لنفسي، بدءًا من خيوط تلك المخطوطة. أودّ أن أجد سرَّ الطاقة الأساسيَّ الذي وجده مؤلّفه. إنّه مبدؤه الأساسيّ الذي يجب أن نكتشفه. وإذا نجحنا

في ذلك، فقد ينهي السيّد دانيالز المهمّة، بقدر ما يتعلّق الأمر بمحرّكك.

ـ سأقدّر أيّ مساعدة تقدّمها لي يا دكتور ستادلر.

سارا بصمت عبر الأنفاق الميّتة في المحطّة، أسفل روابط مسار صدئ تحت سلسلة من الأضواء الزرقاء، إلى وهج المنصّات البعيد.

وفي فم النفق، شاهدا رجلًا راكعًا على القضبان، يطرق على مفتاحٍ طرقًا غير منتظم، وهو ساخطٌ بسبب عدم اليقين. وقف رجل آخر يراقبه بفارغ الصبر.

سأل المراقب: حسنا، ما خطب هذا الشيء اللعين؟

ـ لا أعلم.

ـ لقد أفنيتَ فيه ساعة ولم تُصلحه بعد.

ـ صحيح.

ـ كم من الوقت ستستغرق عمليّة الإصلاح؟

ـ من هو جون جالت؟

غمز الدكتور ستادلر داغني. وبمجرّد مرورهما أمام الرجلين، قال لها:

ـ لا أحبّ هذا الاسم.

أجابته: أنا كذلك.

ـ من أين أتى؟

ـ لا أحد يعلم.

وظلّا صامتين، ثمّ قال:

ـ لقد سبق أن عرفت جون جالت. إلّا أنّه توفّي منذ فترة طويلة.

ـ من يكون جون جالت؟

ـ كنت أعتقد أنّه لا يزال على قيد الحياة. لكنّني الآن لا أشكّ في أنّه ميّت. كان يتمتّع

بعقل عظيم، ولو أنّه ما يزال حيًّا لكان العالم كلّه يتحدّث عنه.

ـ لكنّ العالم كلّه يتحدّث عنه.

وقف صامتًا وهو يتأمّل فكرةً لم يسبق لها أن دارت في خلده، ثمّ قال:

ـ نعم ...نعم ... لماذا؟

ـ من يكون يا دكتور ستادلر؟

ـ لماذا يتحدّثون عنه؟

ـ لكن، من يكون؟

رفع رأسه مرتعشا، وقال بحدّة:

ـ إنّها مجرّد صدفة. فالاسم ليس شائعًا على الإطلاق. إنّها مصادفة لا معنى لها. ولا علاقة لها بالشخص الذي أعرفه، فذلك الرجل قد مات.

ولم يسمح لنفسه بمعرفة المعنى الكامل للكلمات التي أضافها:

ـ يجب أن يكون ميّتًا.

***

كانت الطلبيّة الموضوعة على طاولة مكتبه تحمل عنوان: سرّيّ... عاجل... ذات أولويّة... حاجة أساسيّة معتمدة من قبل مكتب المنسّق الأعلى... لحساب المشروع إكس وطالبته ببيع عشرة آلاف طن من معدن ريردن إلى معهد الدولة للعلوم.

قرأها ريردن وألقى نظرة في اتّجاه المشرف على طواحينه وهو يقف أمامه دون أن يتحرّك. لقد دخل عليه المشرف، ووضع الطلبيّة على مكتبه دون أن ينبس بكلمة واحدة.

قال ردًّا على لمحة ريردن: ظننتُك تريد رؤية ذلك.

ضغط ريردن على زرّ واستدعى الآنسة إيفز. سلّمها الطلبيّة قائلًا:

أعيدي إرسال هذه الطلبيّة من حيث أتت. أخبريهم أنّني لن أبيع معهدَ الدولة

للعلوم أيَّ معدنٍ من معادن ريردن.

أخذ المشرف ومعه جوين إيفز ينظران إليه، ويتبادلان النظرات في ما بينهما، ويعاودان النظر إليه مرّة أخرى، ولكنّ ما رآه في عيونهما كان نوعًا من تعبير عن التهنئة.

ردّت جوين إيفز رسميًّا، بزلّة من لسانها كما لو أنّ الطلبيّة تمثّل أيّ نوع آخر من أوراق العمل: حاضر يا سيّد ريردن.

ثمّ انحنت وغادرت الغرفة وتبعها المشرف. أطلق ريردن ابتسامة باهتة، في تحيّة إلى ما شعرا به. فهو لم يشعر بشيء تجاه تلك الورقة أو عواقبها المحتملة.

فقبل ستّة أشهر قال في نفسه: تصرّف أوّلًا، حافظ على استمرار المطاحن، أمّا المشاعر فهي تأتي لاحقًا. فجعله هذا الأمر قادرًا على مراقبة نزيهة لعمل قانون الحصّة العادلة.

ولم يعلم أحدٌ كيفيّة احترام ذلك القانون. فقد أخبروه، أوّلًا، بأنّه لا يستطيع إنتاج معدن ريردن بكمّيّة أكبر من حمولة أفضل سبيكة خاصّة كان ينتجها أورين بويل، هذا بخلاف الفولاذ. لكنّ أفضل سبيكة خاصّة لأورين بويل كانت عبارة عن بعض الخليط الذي لم يهتمّ أحدٌ بشرائه. ثمّ قيل له إنّ بإمكانه أن ينتج معدن ريردن بالكمّيّة نفسها التي كان ينتجها أورين بويل إن استطاع ذلك. ولم يعلم أحدٌ كيف سيتمّ تحديد الأمر، إلى أن أعلن شخص مّا في واشنطن عن رقم معيّن، وضبط عددا من الأطنان سنويًّا، دون إبداء أيّ أسباب. فاتّفق الجميع على اتّباع ذلك النحو من التقدير.

لم يعلم أيضًا كيفيّة إعطاء كلّ مستهلك حصّةً من معدن ريردن تساوي حصّة غيره. ولم يستطع ملء قائمة انتظار الطلبات لمدّة ثلاث سنوات، على الرغم من أنّه سُمح له بالعمل بكامل طاقته. وكانت الطلبيّات جديدةً تأتي يوميًّا. رغم أنّها لم تعد طلبيّات بالمعنى القديم والشريف للتجارة. كانت مجرّد طلبات. وينصّ القانون على أنّه يمكن رفع دعوى قضائيّة ضدّه من قبل أيّ مستهلك لم يحصل على حصّته العادلة من معدن ريردن.

ولم يكن أحدٌ يعرف الكيفيّة التي بها يحدّد ما يشكّل حصّة عادلة من أيّ كمّيّة. ثمّ أرسلوا إليه من واشنطن شابًّا يافعًا ولامعًا تخرّج للتوّ من الكلّيّة، في موقع نائب مدير للتوزيع. وبعد مؤتمرات كثيرة مع العاصمة تمّت بالهاتف، أعلن الصبيّ أنّ العملاء سيحصلون على خمسمائة طن من المعدن لكلّ منهم، مع ترتيب تواريخ طلباتهم. فلم يجادل أحدٌ بخصوص الرقم الذي حدّده. لم تكن هناك طريقة لبناءِ حجّة؛ فالرقم يمكن أن يكون رطلًا أو مليون طن بالصلاحيّة ذاتها. وكان الصبيّ قد أنشأ مكتبًا في مطاحن ريردن، حيث أخذت أربع فتيات طلبات للحصول على أسهم شركة معدن ريردن. وبالمعدّل الحاليّ لإنتاج المطاحن، امتدّت التطبيقات إلى القرن المقبل.

لم تستطع خمسمائة طن من معدن ريردن توفير ثلاثة أميال من السكك الحديديّة لشركة تاجرت العابرة للقارّات. لم تستطع توفير الدعائم لأحد مناجم الفحم لكين داناغير. فحُرِمت أكبر الصناعات، وكذا أفضل عملاء ريردن، من استخدام معدنه. ولكنّ نوادي الغولف المصنوعة من معدن ريردن ظهرت فجأةً في السوق، فضلًا عن أواني القهوة، وأدوات الحديقة وصنابير الحمّام. ولم يُسمح لكين داناغير بالحصول عليه، وهو الذي كان يقدّر قيمة المعدن وتجرّأ على طلبه في تحدٍّ لغضب الرأي العامّ؛ فتركت طلباته شاغرة، وقطعت عليه القوانينُ الجديدةُ الإمداداتِ دون سابق إنذار. أمّا السيّد موين، الذي خان شركة تاجارت العابرة للقارّات وهي في أقسى الظروف، فكان يصنع مفاتيح معدن ريردن ويبيعها لمنطقة المحيط الأطلسي الجنوبيّة.

أخذ ريردن يتأمّل بعواطف متباينة. كان يلتفت بعيدًا، دون أن ينبس بكلمة، عندما يذكر له أيّ شخص ما يعرفه الجميع: تلك الثروات السريعة التي كانت تجنى من معدن ريردن.

قال الناس في غرف الاستقبال: حسنًا، لا يمكننا تسميتها بالسوق السوداء، لأنّها ليست حقًّا كذلك. لا أحد يبيع المعدن بشكل غير قانونيّ. فهم يبيعون حقّهم في ذلك. إنّهم لا يبيعون حقًّا، بل يكتفون بجمع حصصهم.

لم يكن يريد معرفة تعقيدات تلك الحشرات في الصفقات التي تُبَاع من خلالها

الحصصُ وتُجمَّع، ولا الكيفيّة التي أنتجت بها الشركة المصنّعة في ولاية فرجينيا خمسةَ آلاف طن من الصبّ المصنوع من معدن ريردن، خلال شهرين، ولا ما كان ينتجه ذلك الرجل في واشنطن شريك الشركة المصنّعة غير المدرجة في القائمة. كان يعلم أنّ أرباحهم على طن من معدن ريردن أكبر بخمس مرّات من أرباحه. فلم يقل شيئًا. كلّ شخص كان يتمتّع بالحق في المعدن إلّا هو.

كان صبيّ واشنطن الصغير -الذي لقّبه عمّال الصلب بالممرّض الرطب- يحوم حول ريردن بفضول بدائيّ مندهش، بشكل لا يصدق، كان شكلًا من أشكال الإعجاب. وكان ريردن يراقبه بتسلية مثيرة للاشمئزاز. لم يكن الصبيّ يدرك أيّ مفهوم للأخلاق؛ لقد غرست فيه الكلّيّة ذلك السلوك، فتركت فيه أثر صراحة غريبة، ساذجة وساخرة في آنٍ واحدٍ مثل براءة وحشيّة.

قال له ذات مرّة، على نحو مفاجئ ومن غير أيّ استياء: أنت تحتقرني يا سيّد ريردن. وهذا سلوك غير عمليّ.

سأله ريردن: لماذا تعتبره سلوكًا غير عمليّ؟

بدا الصبيّ في حيرة من أمره، ولم يجد أيّ جواب. لم يكن يملك إجابة على أيّ سؤال يتضمّن الاستفسارَ عن السبب، إذ كان يتحدّث دائمًا وفق تأكيدات سطحيّة. فيقول عن الناس دون تردّد أو تفسير: هذا من الطراز القديم، إنّه لم يعدّ تأهيله، وإنّه غير مُعدَّل. وكان يقول أيضًا، وهو خرّيج جامعيّ متخصّص في التعدين: يبدو أنّ صَهر الحديد يتطلّب، في نظري، درجة حرارة عالية. لم ينطق بشيء سوى الآراء غير المؤكّدة حول الطبيعة الفيزيائيّة. لا شيء سوى الضرورات الجازمة عن البشر.

قال له في إحدى المرّات: يا سيّد ريردن، إذا كنت ترغب في تسليم أصدقائك مزيدًا من معدنك، أعني وفق شحنات أكبر، فإنّه يمكنني ترتيب ذلك. لماذا لا نتقدّم بطلب للحصول على إِذْنٍ خاصّ على أساس الحاجة الأساسيّة؟ لديّ بعض الأصدقاء في واشنطن. فأصدقاؤك هم من الناس المهمّين جدًّا، ورجال الأعمال الكبار، لذلك لن يكون من الصعب المراوغة تحت مبرّر الحاجة الأساسيّة. بالطبع، ستكون هناك بعض

النفقات مقابل تلك الأشياء في واشنطن. أنت تعلم كيف تسير الأمور. إنّها تتطلّب نفقات على الدوام.

ـ ما هي تلك الأشياء؟

ـ أنت تفهم ما أعنيه.

ـ لا. لمَ لا تشرح لي ذلك؟

كان الصبيّ ينظر إليه مرتابًا، وقيّم الأمر في ذهنه، ثمّ قال:

ـ إنّها علامةٌ على نفسيّة سيّئة.

ـ ما هي؟

ـ كما تعلم، يا سيّد ريردن، فإنّه ليس من الضروريّ استخدام مثل تلك الكلمات.

ـ مثل ماذا؟

ـ الكلمات نسبيّة. إنّها مجرّد رموز، وإذا لم نستخدم رموزًا قبيحة، فلن يمسّنا أيّ قبح. لماذا تريدُني أن أقول الأشياء بطريقة مّا، بينما سبق لي أن قلتها بطريقة أخرى؟

ـ ووفق أيّ طريقة أردتك أن تقولها؟

ـ لماذا تريدني أن أفعل ذلك؟

ـ للسبب نفسه الذي يجعلك ترفض ذلك.

التزم الصبيّ بالصمت لحظة، ثمّ قال:

ـ كما تعلم، لا توجد معايير مطلقة. ولا يمكننا التصرّف وفق مبادئ صارمة، يجب أن نكون مرنين، وعلينا أن نتكيّف مع واقع اليوم وأن نتصرّف على أساسٍ نفعيٍّ في الوقت الراهن.

ـ تفضّل أيّها الفتى، اذهب وحاول صبّ طن من الصلب دون مبادئ جامدة، وأنتجه وفق نفعيّة اللحظة.

اعترى ريردن معنًى غريبٌ، يشبه تقريبًا امتعاضًا من أسلوب ذلك الفتى، فجعله

يشعر باحتقار تجاهه، ولكنّه لم يكن مستاءً منه. إذ بدا الصبيّ ملائمًا لروح الأحداث من حولهما. وبدا الأمر كما لو أنّهما كانا يُنقلان عبر فترة طويلة من القرون إلى العصر الذي ينتمي إليه الصبيّ، لكنّه لا يلائم زمن ريردن. لقد كان ريردن يعتقد أنّه مطالبٌ بإدارة سباق خاسر للحفاظ على استمراريّة عمل الأفران القديمة بدلًا من بناء أخرى جديدة. وبدلًا من إطلاق مشاريع جديدة، وأبحاث جديدة، وتجارب جديدة في استخدام معدن ريردن، فإنّه كان ينفق كامل طاقته في البحث عن مصادر لخام الحديد تمامًا مثل البشر في فجر العصر الحديديّ ولكن بأملٍ أقلّ.

كان يحاول تفادي تلك الأفكار. عليه أن يقف بحذرٍ في مواجهة شعوره الخاصّ، كما لو أنّ جزءا منه قد أصبح غريبا وتوجّب الاحتفاظ به في حالة خدر وسبات، وأنّ إرادته يجب أن تبقى ثابتة، وفي حالة تحذير حذرة. وكان ذلك الجزء مجهولًا لا يعرف منه إلّا أنّه يجب ألّا يرى جذوره أبدًا ولا يعطيه صوتًا أبدًا. لقد عاش لحظة خطيرة لم يتمكّن من السماح لها بالعودة.

كانت تلك هي اللحظة التي سمع فيها على الراديو أخبار حقول نفط إليس وايت المشتعلة، حدث ذلك وهو وحيد بمكتبه في أمسية شتويّة مشلولًا بسبب انتشار صحيفة على مكتبه مع عمود طويل من التوجيهات في الصفحة الأولى. ثمّ كان أوّل ردّ فعل له -قبل أيّ تفكير في المستقبل، وأيّ شعور بالكارثة، وأيّ صدمة أو رعب أو احتجاج- هو أن ينفجر ضاحكًا. كان يضحك في انتصار، وشعور بالخلاص، وابتهاج، تلك البهجة الحيّة، والكلمات التي لم تنطق بعدُ، لكنّها كانت تُحَسُّ معلنة: بارك الله فيك يا إليس، مهما كان فعلك!

وعندما أدرك الآثار المترتّبة عن ضحكاته، عَرَف أنّه محكوم عليه الآن باليقظة الدائمة لمواجهة ذاته. ومثل الناجي من أيّ نوبة قلبيّة، كان يعلم أنّه تلقّى تحذيرًا وأنّه يحمل في داخله خطرًا يمكن أن يصيبه في أيّ لحظة.

منذ ذلك الحين، أخفى تلك المشاعر. فحافظ على وتيرة متّزنة وحذرة وخاضعة لرقابة شديدة في خطواته الداخليّة. لكنّ تلك المشاعر راودته مجدّدًا لبضع لحظات.

وعندما نظر إلى طلبيّة معهد الدولة للعلوم على مكتبه، بدا له أنّ التوهّج الذي يتحرّك فوق الورقة لا يأتي من الأفران في الخارج، بل من لهيب حقل نفط يحترق.

قال الممرّض اللطيف، حين سمع عن الطلبيّة المرفوضة: لم يكن عليك أن تفعل ذلك يا سيد ريردن.

ـ ولِمَ لا؟

ـ ستكون هناك مشكلة.

ـ أيّ نوع من المشاكل؟

ـ إنّها طلبيّة حكوميّة. ولا تستطيع رفضها.

ـ ولِمَ لا أستطيع؟

ـ إنّه مشروع ضروريّ وسرّيّ. إنّه أمر في غاية الأهمّيّة.

ـ أيّ نوع من المشاريع؟

ـ لا أعلم، لا أعلم. إنّه سرّ.

ـ إذن كيف علمت أنّه مهمّ؟

ـ لقد قال ذلك.

ـ من قال ذلك؟

ـ لا يمكنك أن تشكّ في شيء من هذا القبيل!

ـ ولِمَ لا أستطيع؟

ـ لكنّك لا تستطيع.

ـ إذا لم أستطع، فهذا سيجعله مطلقًا، وقد قلت إنّه لا وجود لأيّ شيء مطلق.

ـ هذا أمرٌ مختلف.

ـ كيف يكون الأمر مختلفًا؟

ـ إنّها الحكومة.

ـ هل تعني أنّه لا وجود للمطلقات إلّا الحكومة؟

ـ أعني أنّهم إذا قالوا إنّه مهمّ فهو كذلك.

ـ ولماذا؟

ـ لا أريدك أن تتورّط في المشاكل يا سيّد ريردن وأنت ستقع بالتأكيد في ورطة، لأنّك تبحث كثيرًا عن الأسباب. فلماذا تفعل ذلك؟

أخذ ريردن ينظر إلى وجه الصبيّ ثمّ ضحك. تأمّل الصبيّ كلماته الخاصّة وراجعها ثمّ ابتسم بخجل، كان يبدو تعيسًا.

أمّا الرجل الذي جاء لزيارة ريردن بعد أسبوع فكان شابًّا نحيلًا، لكنّه ليس بالحدّ المطلوب من الشباب والنحافة التي بدا عليها. كان يرتدي ملابس مدنيّة، سروالًا جلديًّا ضيّقا مثل زيّ شرطيّ المرور.

قال بلهجة ناعمة وسرّيّة: أعرف أنّك رفضت بيع المعادن لمعهد الدولة للعلوم، يا سيد ريردن.

ردّ ريردن: هذا صحيح.

ـ ولكن أليس هذا الرفض عصيانًا متعمّدًا ضدّ القانون؟

ـ لك أن ترى هذا الأمر بالطريقة التي تحلو لك.

ـ هل لي أن أعرف سببك؟

ـ سببي ليس مهمّا بالنسبة إليك.

ـ أوه، هو بالطبع مهمّ جدًّا! فنحن لسنا أعداءك يا سيّد ريردن. إنّنا نريد أن نكون منصفين معك. يجب ألّا تخاف من حقيقة أنّك صناعيّ كبير. فنحن لن نجعل هذا الأمر ضدّك، نحن في الواقع نريد أن نكون منصفين معك كما هي الحال بالنسبة إلى أدنى عامل يوميّ. فقط نودّ أن نعرف السبب الخاصّ بك.

ـ انشر رفضي في الصحف، وسيخبرك أيّ قارئ عن سببي. وقد ظهر في جميع الصحف قبل أكثر من عامٍ بقليل.

ـ أوه، لا! لماذا نتحدّث عن الصحف؟ ألا يمكننا تسوية هذا الأمر بشكل ودّيّ؟

ـ هذا الأمر يعود لك.

ـ لا نريد نشر ذلك في الصحف.

ـ لا؟

ـ لا نريد أن نؤذيك.

وبعد أن ألقى نظرة على الشابّ قال ريردن: لماذا يحتاج معهد الدولة للعلوم إلى عشرة آلاف طن من المعدن؟ وما هو المشروع إكس؟

ـ أوه، ذلك المشروع؟ إنّه مشروع مهمّ جدًّا للبحث العلميّ، وهو ذو قيمة اجتماعيّة كبيرة، وقد يثبت أنّه ذو منفعة عامّة لا تقدَّر بثمن، ولكن، للأسف، فإنّ لوائح السياسة العليا لا تسمح لي بأن أذكر لك طبيعة الأمر بتفصيلٍ أدقّ.

قال ريردن: كما تعلم، يمكنني أن أقول لك -في موضوع سبب رفضي- إنّني لا أرغب في بيع معدني لأولئك الذين يبقون هدفهم سرّيًّا عنّي. لقد صنعت ذلك المعدن وأرى أنّ من مسؤوليّتي الأخلاقيّة أن أعرف في أيّ غرض سيُستَخدَم.

ـ أوه، لا تقلق بهذا الخصوص يا سيّد ريردن! نحن نعفيك من المسؤوليّة.

ـ ولنفترض أنّني لا أرغب في إعفاء نفسي من تلك المسؤوليّة؟

ـ لكن... ولكن هذا يعتبر موقفًا من الطراز القديم... وهو موقف نظريّ بحت.

ـ قلت لك إنّه يمكن تسميتهُ سببي الخاصّ. ولكنّي لن أعتبره كذلك، ففي هذه الحالة، لديّ سبب آخر شامل. وأودّ ألّا أبيع معدن ريردن لمعهد الدولة العلوم لأيّ غرض سواء أكان جيّدًا أم سيّئًا، سرّيًّا أم معلنًا.

ـ ولكن لماذا؟

ردّ عليه ريردن برويّة: اسمع، قد يوجَد نوع من التبرير للمجتمعات المتوحّشة التي كان على الرجل أن يتوقّع فيها أنّ الأعداء يمكنهم قتله في أيّ لحظة وعليه أن يدافع عن نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا. لكن لا يمكن أن يوجَد مبرّر لمجتمع يُتَوقَّع فيه من رجلٍ أن يصنع الأسلحة لقاتليه.

ـ لا أعتقد أنّه يُستحسَن استخدام مثل هذه الكلمات. لا أعتقد أنّ من العمليّ التفكير في مثل هذه العبارات. ففي نهاية الأمر، لا تستطيع الحكومة -في سعيها إلى وضع سياسات وطنيّة واسعة النطاق- أن تدرك ضغينتك الشخصيّة ضدّ مؤسّسة معيّنة.

ـ إذن لا تُعِر الأمر انتباهك.

ـ ماذا تعني؟

ـ لا تأتِ لتسأل عن السّبب.

ـ ولكن يا سيّد ريردن، لا يمكننا أن نسمح بخرق القانون. فماذا تتوقّع منّا أن نفعل؟

ـ كلّ ما ترغب فيه.

لكن هذا لم يسبق له مثيل على الإطلاق. لم يرفض أحدٌ بيع سلعة أساسيّة للحكومة. في واقع الأمر، لا يسمح لك القانون برفض بيع المعادن الخاصّة بك لأيّ شركة، بله الحكومة.

ـ حسنًا، لماذا لا تعتقلني إِذَنْ؟

ـ هذه مناقشة، ودّيّة يا سيّد ريردن. لماذا نتحدّث عن أشياء مثل الاعتقالات؟

ـ أليست تلك حجّتك النهائيّة ضدّي؟

ـ لماذا تطرح الأمر على هذا النحو؟

ـ أليس ذلك ضمنيًّا في كلّ جملة من هذه المناقشة؟

ـ لماذا لا تسمّي لنا السبب؟

ـ لمَ لا؟ هل تحاول إخفاء حقيقة أنّه لولا تلك الورقة الرابحة الخاصّة بك، لما

سمحت لك بدخول هذا المكتب؟

ـ لكنّني لا أتحدّث عن اعتقالات.

ـ أمّا أنا فأتحدّث عنها.

ـ أنا لا أفهمك يا سيّد ريردن.

ـ هل هذه المناقشة ليست وديّة؟ إنّها ليست كذلك. افعل الآن ما يحلو لك بخصوص هذا الموضوع.

حملت ملامحُ وجه الرجل نظرةً غريبة. إنّه الارتباك، كما لو أنّه لم يحمل أدنى تصوّر للقضيّة التي تواجهه، بالإضافة إلى شعور بالخوف، وكأنّه كان دائمًا على علم تامّ بها وعاش في رهبة من التعرّض لها.

شعر ريردن بإثارة غريبةٍ، ولكنّه شعر كما لو أنّه على وشك فهم شيءٍ لم يفهمه مطلقًا، أو أنّه على درب شيءٍ من اكتشافٍ لا يزال بعيدًا جدًّا عن المعرفة، باستثناء أنّ له أهمّيّة هائلة لم يلمحها من قبل مطلقًا.

قال الرجل: الحكومة تحتاج إلى معدنك، يا سيّد ريردن. عليك أن تبيعنا إيّاه، فأنت تدرك بالتأكيد أنّ خطط الحكومة لا يمكن أن تعقّد بسبب مسألة موافقتك.

ردّ ريردن بروِيّة: البيع يتطلّب موافقة البائع.

ثمّ نهض وسار إلى النافذة. وأضاف مشيرًا إلى أحد الأركان حيث يتمّ تحميل قوالب من معدن ريردن على عربات الشحن:

ـ سأخبرك بما يمكنك القيام به. هناك يقبع معدن ريردن. قُدْ شاحناتك الخاصّة إلى هناك مثل أيّ سارق آخر، ولكن من دون مخاطرة، لأنّني لن أطلق النار عليك، فأنا كما تعلم لا أستطيع فعل ذلك. وخذ المعدن كما يحلو لك واذهب. لا تحاول أن ترسل إليّ فواتير الدفع، لأنّني لن أقبلها. لا توقّع شيئًا لي، لأنّه لن يُصرَف. إذا كنت تريد ذلك المعدن، فلديك الأسلحة للاستيلاء عليه، فامض قدمًا ولا تتردّد.

ـ يا إلهي، وماذا سيقول عامّة الناس؟!

كانت صرخة غريزيّة لاإرادية حرّكت عضلات وجه ريردن لفترة وجيزة في ضحكٍ لا صوت له. لقد فهما كلاهما الآثار المترتّبة على تلك الصرخة. فقال ريردن بإنصافٍ، وفي نبرةٍ خطيرة وغير متوتّرة كأنّها خاتمة:

ـ أنت تحتاج إلى مساعدتي لتجعلها تبدو وكأنّها عمليّة بيعٍ مثل أيّ معاملات أخلاقيّة آمنة وعادلة. لن أساعدك.

لم يجادله الرجل في الأمر. فنهض ليغادر قائلًا:

ـ سوف تندم على الموقف الذي اتّخذته يا سيّد ريردن.

ردّ ريردن: لا أعتقد ذلك.

وكان يعلم أنّ الحادث لم ينتهِ بعد، وأنّ سرّيّة المشروع إكس ليست السبب الرئيسي الذي جعل هؤلاء الناس يخشون من نشر القضيّة. كان يعلم أنّه شعر بإحساس غريب مفرح ومريح من الثقة في النفس، وأنّ تلك هي الخطوات الصحيحة أسفل درب كان قد لمحه.

***

تمدّدت داغني على كرسيّ في غرفة الجلوس، وعيناها مغلقتان. كان يومًا شاقًّا لكنّها علمت أنّها سترى هانك ريردن في تلك الليلة. فكان التفكير في الأمر أشبه برافعة تحمل بعيدًا عنها ثقلَ ساعات من قبح لا معنى له.

كانت مستلقية بثبات وفرحة وارتياح يحدوها هدفٌ واحد هو الانتظار بهدوء سماعَ صوت المفتاح في القفل. لم يتّصل بها هاتفيًّا، لكنّها سمعت أنّه كان حاضرًا في نيويورك في ذلك اليوم لمؤتمر مع منتجي النحاس، وأنّه لن يغادر المدينة حتّى صباح يوم الغد، ولن يقضي ليلة في نيويورك من غير أن يكون معها. كانت تحبّ أن تنتظره. ووجدت في نفسها حاجةً إلى فترة من الوقت تكون بمثابة جسرٍ يربط بين أيّامها ولياليه.

كانت تعتقد أنّ الساعات المقبلة، مثل كلّ لياليها معه، ستضاف إلى حساب ادّخار

يعيش فيه المرء حياته ويخزّن لحظات من الزمن وهو مفتخر بالحياة. ولم يكن الفخر الوحيد ليوم عملها هو أنّها عاشته، بل أنّها نجت منه وبقيت على قيد الحياة. كانت تعتقد أنّ من الخطإ الفادح اضطرار المرء إلى قول ذلك في أيّ ساعة من حياته. لكنّها لم تستطع التفكير في الأمر الآن. كانت تفكّر في هانك، والنضال الذي مرّت به خلال الأشهر الماضية خلفهما، ونضاله من أجل الخلاص؛ كانت تعلم أنّها يمكن أن تساعده على الفوز، ولكن يجب عليها مساعدته في كلّ شيء باستثناء الدعم بالكلمات.

وتذكّرت مساء الشتاء الماضي عندما جاء، وأخذ طردًا صغيرًا من جيبه ومدّه إليها، قائلًا: أريدك أن تأخذيه. ففتحته وأخذت تحدّق في الهديّة بحيرة مشكّكة في ما رأته. كانت قلادة مصنوعةً على شكل الكمّثرى تتوسّطها ياقوتةٌ واحدة تتلألأ مثل لهيب نار عنيفة. كانت من بين الأحجار الكريمة المشهورة، ولم يستطع شراءها سوى اثني عشر رجلًا في العالم؛ وهانك لم يكن واحدًا منهم.

ـ هانك... لماذا اشتريتها؟

ـ لا يوجد سبب بعينه. أردت فقط أن أراك ترتدينها.

ـ أوه، لا، لا أرغب في شيء من هذا النوع! لماذا تضيّع مالك فيه؟ أنا نادرًا ما أذهب إلى مناسبات يجب على المرء أن يرتدي فيها مثل هذه الجوهرة النادرة. فمتى سأرتديها إذَن؟

نظر إليها، وجال ببصره برويّة من ساقيها إلى وجهها. ثمّ قال:

ـ دعيني أريك شيئًا.

ثمّ قادها إلى غرفة النوم، وخلع ملابسَها، دون أن ينبس بكلمة واحدة، على طريقة مالكٍ وهو يخلع ملابس شخص لا يشترط موافقته. ثمّ شبك القلادة على كتفيها وهي تقف عاريةً، والحجر الكريم بين نهديها مثل قطرة متلألئة من الدم.وتساءل:

ـ هل تعتقدين أنّ على الرجل أن يهدي عشيقتَه مجوهرات لغرض آخر سوى متعته الخاصّة؟ هذه هي الطريقة التي أريدك أن ترتدي بها هذه القلادة. ارتديها فقط لي.

أحبّ أن أنظر إليها، إنّها جميلة.

فضحكت مطلقةً صوتًا ناعمًا، ومنخفضًا، ولاهثًا. لم تكن تقدر على الكلام أو التحرّك، كانت فقط تومئ بصمت في قبول وطاعة؛ لقد أومأت مرّات عديدة، فتمايل شعرها في حركة دائريّة، ثمّ بقيت ثابتة وقد أبقت رأسها منحنيًا له.

ثمّ سقطت على السرير وتمدّدت بكسلٍ، ورأسها مُلقًى إلى الخلف، وذراعاها على جانبيها، وراحتا يديها مضغوطتان على النسيج الخشن لغطاء السرير، وإحدى ساقيها مثنيّة، والخطّ الطويل للساق الأخرى الممتدّة عبر كتّان الغطاء الأزرق الداكن، والحجر المتوهّج مثل جرح في شبه الظلام، يلقي أشعّة مثل تلألؤ النجوم على بشرتها.

كانت عيناها شبه مغمضتين في انتصار ساخر وواعٍ بأنّه معجب بها، لكنّ فمها كان نصف مفتوح في توقّعات عاجزة، ومتوسّلة. وقف عبر الغرفة، ينظر إليها، وإلى بطنها المسطّح المرسوم، مثل رسم أنفاسها في جسم حسّاس ووعي أكثر حساسيّة. ثمّ خاطبها، بصوت منخفض، مصمّم وهادئ بشكل غريب:

ـ داغني، إذا رسمك فنّان مّا كما أنت الآن، سيأتي الرجال لإلقاء نظرة على اللوحة من أجل تجربة لحظة لا يمكن لأيّ شيء أن يمنحهم إيّاها في حياتهم الخاصّة. سيسمّونه فنّا رائعًا ولن يعرفوا طبيعة ما يشعرون به، لكنّ اللوحة ستظهر لهم كلّ شيء، ستخبرهم أنّك لست بكوكب الزهرة الكلاسيكيّ، بل نائبة رئيس لشركة سكك حديد، لأنّ تلك الجزئيّة هي طرف في الرسم، وحتّى ما أنا عليه، لأنّ ذلك جزء منه أيضًا. داغني، هم سيشعرون بذلك ويبتعدون وينامون مع أوّل ساقية للنبيذ في الأفق، ولن يحاولوا أبدًا الوصول إلى ما شعروا به. أمّا أنا فلا أريد أن أسعى إليه من خلال لوحة فنّيّة. أريد أن أعيشه حقيقة ملموسة في الواقع ولن أفتخر بأيّ شوق ميؤوس منه. لن أحمل طموحًا مجهضًا. أريد أن أحصل عليها، وأمارسها، وأعيشها. هل تفهمين؟

أجابته :أوه نعم، يا هانك، فهمتك. ثمّ أضافت بصوت مهموس جدًّا:

ـ هل تفهمني أنت أيضًا يا عزيزي؟ هل تفهم ذلك تمامًا؟

وفي مساء عاصفة ثلجيّة، عادت إلى المنزل فوجدت انتشارًا هائلا من الزهور الاستوائيّة تزيّن غرفة جلوسها قبالة الزجاج الداكن للنوافذ التي ضربتها رقاقات الثلج. كانت سيقان زهور شعلة الزنجبيل من ولاية هاواي، بطول ثلاث أقدام؛ وكانت رؤوسها الكبيرة مثل مخاريط من بتلات بملمس حسيّ يشبه الجلد الناعم ولون الدم. قال لها عندما زارها في تلك الليلة:

ـ لقد رأيتها في نافذة بائع الزهور وأعجبتني رؤيتها خلال العاصفة الثلجيّة. ولكن لا شيء قد يكون أكثر إهمالًا من كائن في نافذة عامّة.

وبدأت تجد الزهور في شقّتها خلال أوقات لا يمكن التنبّؤ بها، وقد أرسلت من دون بطاقة، ولكن مع توقيع المرسل. كانت رائعة في أشكالها، وألوانها العنيفة، وتكلفتها الباهظة. وأحضر لها قلادة ذهبيّة مصنوعة من مربّعات صغيرة مُنفصلة شكّلت انتشارًا من الذهب الصلب لتغطية رقبتها وكتفيها، مثل طوق لدرع فارس. ثمّ أمرها: ارتديها بانسجام مع فستان أسود. ثمّ أحضر لها مجموعة من كؤوس طويلة، كانت كتلا رفيعة مربّعة الشكل من الكريستال، صنعها صائغ شهير. وشاهدت الطريقة التي يحمل بها إحدى الكؤوس عندما قدّمت له مشروبًا، كانت لمسة شكل الزجاج تحت أصابعه وطعم الشراب ومشهد وجهها كأنّها شكل واحد من لحظة الاستمتاع غير القابلة للتجزئة. ثمّ قال:

ـ كنت أرى أشياء أحبّها، لكنّني لم أتبعها مطلقًا. لا يبدو أنّ في ذلك معاني كثيرةً. أمّا الآن فالمعنى قائم أمامي.

في صباح أحد الأيّام الشتويّة، اتّصل بها هاتفيًّا في المكتب، وقال لها، بنبرةٍ لا تشبه نبرة الدعوة، بل نبرة أمرٍ تنفيذيّ: سنتناول العشاء معًا الليلة. أريدك أن ترتدي ملابسك. هل لديك أيّ نوع من أثواب السهرة يكون لونه أزرق؟ ارتديه.

كان الفستان الذي ارتدته عبارةً عن سترة رفيعة من اللون الأزرق المغبّر، وقد

أكسبتها مظهرا من البساطة المكشوفة. وكان ما أحضره ووضعه على كتفيها رداءً قُدَّ من فراء الثعالب الزرقاء غطّاها من منحنى ذقنها إلى أخمص قدميها.

قالت وهي تضحك: هانك، هذا أمر غير معقول. إنّها ليست من نوع الملابس التي أفضّلها!

سألها وهو يجذبها إلى المرآة: ولِمَ لا تفضّلينها؟

لقد جعلها دثارُ الفراءِ الضخمُ تبدو وكأنّها طفل ملتحف يواجه عاصفة ثلجيّة؛ ذلك النسيج الفاخر حوّل براءةَ كومة الملابس الغريبة تلك إلى أناقة من التباين المتعمّد المنحرف: إلى مظهر من الشهوانيّة الشديدة. كان الفراء البنّيّ الناعم خافتًا تشوبه هالة من اللون الأزرق لا يمكن رؤيتها، وليس للمرء إلّا أن يشعر بها وكأنّها ضباب مطوّق، أو لون لا يُدركه بالعين، بل من خلال اللمس باليدين، كما لو أنّه يشعر بإغراق راحة يده في نعومة الفراء، من دون اتّصال حقيقيّ. لم يترك الرداء شيئًا ظاهرًا منها، باستثناء لون شعرها البنّيّ، ولون عينيها الأزرق الرماديّ، وشكل فمها.

التفتت إليه، وابتسمت بذهول وعجزٍ، ثمّ قالت:

ـ أنا... لم أكن أعلم أنّه سيبدو هكذا.

ـ أنا من فعل ذلك وفق ذوقي الخاصّ.

جلست بجانبه في سيّارته وهو يقود في شوارع المدينة المظلمة. وكانت هناك شبكة متلألئة من الثلج تومض في الأفق مرّةً بعد أخرى كلّما مرّت الأضواء على الزوايا. ولم تسأله إلى أين كانا ذاهبين. جلست متّكئة في المقعد، ومالت إلى الوراء، تحدّق في الثلج. لقد كان رداء الفراء ملتفًّا بإحكام حولها، وشعرت بأنّ فستانها تحته أصبح خفيفًا مثل ثوب النوم في حضن ذلك الرداء.

كانت تنظر إلى صفوف الأضواء المقوّسة التي ترتفع من خلال الستار الثلجيّ، وتلقي في الوقت نفسه نظرةً خاطفة على هانك، وعلى قبضة يديه اللتين تتحكّمان في المقود بأناقة بسيطة تنمّ عن حساسيّة مفرطة وهو يرتدي معطفًا أسود وكوفيّة بيضاء.

كانت تظن أنّه ينتمي إلى مدينة عظيمة، بين الأرصفة المصقولة والحجر المنحوت.

عبرت السيّارة نفقًا، واندفعت كلمح البصر داخل قنال من البلاط سمع فيه رجع صداها تحت النهر، ثمّ ارتفعت إلى لفائف طريق سريعة عالية تحت سماء سوداء مفتوحة. كانت الأضواء تحتها الآن، وانتشرت في أميال مسطّحة من نوافذ المداخن المائلة إلى الزرقة، والرافعات المائلة، وهبوب النار الحمراء، والأشعّة الطويلة الخافتة التي تعكس خيال الأشكال الملتوية لمنطقة صناعيّة. وتذكّرت أنّها رأته ذات مرّة، في مطاحنه، ببقعٍ من السخام على جبهته، مرتديًا بدلات عمل متآكلةٍ بالحمض؛ كان يلبسها بشكل طبيعيّ مثلما يرتدي ملابسه الرسميّة. وقالت في نفسها إنّه ينتمي إلى هنا أيضًا، وهي تنظر إلى شقق في نيوجيرسي بين الرافعات والحرائق وقعقعة الطحن لعلب التروس.

عندما أسرعوا إلى أسفل طريق مظلمة من خلال ريف خالٍ من السكان، بخيوط من الثلوج المتلألئة عبر المصابيح الأماميّة، تذكّرت كيف كان يبدو في صيف عطلتهما، وهو يرتدي البنطلون، وقد تمدّد على أرض بها وادٍ وحيدٌ، والعشب تحت جسده والشمس تلفح ذراعيه العاريتين. كان ينتمي إلى الريف، وهي تعتقد أنّه يستطيع أن ينتمي إلى أيّ مكان. ثمّ قالت متوخّية الدقّة في التعبير إنّه رجل تنتمي إليه الأرض، ويملك زمام أموره. وتساءلت لماذا إذن كان عليه أن يتحمّل عبء المأساة التي قبلها، في مكابدة صامتة، إلى درجة أنّه لا يكاد يعرف أنّه يحملها؟ كانت تعرف جزءًا من الجواب؛ وشعرت بأنّ الجواب سينكشف قريبا، وأنّ يوم استيعابها قد اقترب. لكنّها لم ترغب بالتفكير في الأمر الآن، لأنّهما ابتعدا عن الأعباء، ولأنّهما في فضاء السيّارة المسرعة كانا يحتفظان بسكون السعادة الكاملة. فحركّت رأسها بشكل غير محسوس لتلمس كتفه للحظة.

غادرت السيّارة الطريقَ السريعة وتحوّلت نحو ساحات أضاءتها نوافذ بعيدة علقت فوق الثلج وراء تشابك الأغصان العارية. في ضوء ناعم خافت، جلسا على طاولة عند نافذة تواجه الظلام والأشجار. كان الفندق يقع على ربوة في الغابة؛ يبدو عليه ترف

التكلفة العالية والخصوصيّة، وجوّ من الذوق الجميل ممّا يوحي بأنّه لم يكتشفه بعد أولئك الذين يسعون وراء ارتفاع التكلفة والمعاملة اللطيفة. لم تكد تعرف غير غرفة الطعام؛ وهي غرفة تُشعِر بالراحة الفائقة. وكانت الزخرفة الوحيدة التي شدّت انتباهها هي بريق الأغصان التي غمرها الثلج خارج زجاج النافذة.

جلست، تنظر إلى الخارج، وقد انزلق الفراء الأزرق من فوق ذراعيها وكتفيها العاريين. أمّا هانك فظلّ يراقبها عن قربٍ بعينين شاخصتين، ورضا رجل يتأمّل براعته الخاصّة.

قال: أحبّ أن أمنحك الأشياء لأنّك لا تحتاجين إليها.

ـ ولمَ لا؟

ـ لا لأنّني أريدك أن تمتلكيها. بل لأنّني أريد أن أكون مصدر امتلاكك إيّاها.

ـ هذه هي الطريقة التي أحتاج إليها يا هانك. أريد تلك الأشياء منك.

ـ هل تدركين أنّ هذا الفعل ليس سوى انغماسٍ ذاتيٍّ وآثمٍ من جانبي؟ أنا لا أفعل ذلك من أجل متعتك، ولكن من أجل متعتي.

أطلقت صرخة لاإراديّة؛ امتزجت بالتسلية واليأس والسخط والشفقة، ثمّ قالت:

ـ هانك لو أنّك منحتني تلك الأشياء فقط من أجل متعتي، وليس من أجل متعتك، لرميتها على وجهك.

ـ نعم... نعم، ربّما ستفعلين ذلك أو ينبغي عليك فعل ذلك.

ـ هل أسميت ذلك انغماسك الذاتيّ الآثم؟

ـ هكذا يسمّونه.

ـ أوه، نعم! هكذا يسمّونه. ماذا عنك أنت، ماذا تسمّيها يا هانك؟

ردّ بلامبالاة: لا أعلم.

ثمّ أضاف عن قصد:

ـ أنا أعرف فقط أنّه سلوك آثمٌ، ثمّ اسمحي لي بأن أكون ملعونًا بسبب ذلك، ولكن هذا ما أريد أن أفعله أكثر من أيّ شيء آخر على وجه الأرض.

لم تجبه، بل جلست تنظر إليه مباشرة بابتسامة خافتة، كما لو أنّها تطلب منه الاستماع إلى معنى كلماته الخاصّة.فقال:

ـ لقد أردت دائما أن أستمتع بثروتي. لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك. ولم أمتلك الوقت حتّى لأعرف كم أردته، لكنّني أعلم أنّ كلّ الصلب الذي سكبته عاد إليّ كذهب سائل، وأنّ الذهب كان يسير إلى التصلّب في أيّ شكل أتمنّاه، وكنتُ أنا من عليه أن يستمتع به. ولكنّني لم أستطع فعل ذلك. لم أجد أيّ هدف لفعل لذلك. لقد وجدته الآن. أنا من أنتج تلك الثروة وأنا الذي سأدعها تشتري لي كلّ نوع من أنواع المتعة التي أريدها مثل متعة رؤية أشياء كثيرة أقدر الآن على دفع ثمنها، فضلًا عن افتخارٍ منافٍ للعقل بتحويلك إلى شيء فاخر.

ردّت من دون أن تبتسم: ولكنّني أنا الشيء الفاخر الذي كنتَ تدفع ثمنه منذ فترة طويلة.

ـ كيف ذلك؟

ـ عن طريق القيم نفسها التي دفعتها من أجل المطاحن الخاصّة بك.

لم تكن تعلم ما إذا كان فَهِم ذلك وفق غائيّة كاملة مضيئة مثّلت ترجمةً للفكر عبر الكلمات؛ لكنّها عرفت أنّ ما شعر به في تلك اللحظة كان تعبيرًا عن الفهم. فقد لمحت ابتسامة ارتياح غير مرئيّة في عينيه.

قال: لم يسبق لي أن احتقرت الترف، ومع ذلك لطالما احتقرت أولئك الذين استمتعوا به. كنت أتأمّل متعهم فتبدو لي فارغةً من أيّ معنى. وأشاهد الصلب وهو يسكب، طن من الصلب السائل يعمل كما أردت، حيث أردت ذلك. ثمّ أذهب إلى المآدب وأرى الناس الذين يجلسون وهم يرتجفون في حالة من السهو أمام أطباقهم الذهبيّة الخاصّة ومفارش المائدة المصنوعة من الدانتيل، تلك الأشياء التي صنعت

بواسطة ترصيع قميص بالألماس والقلائد، وليس العكس. ثمّ كنت أسارع إلى رؤية أوّل كومة خبث يمكن أن أجدها، هم يقولون إنّني لا أعرف كيف أستمتع بالحياة، لأنّني لا أهتمّ بأيّ شيء سوى العمل.

نظر إلى نحت جمال الغرفة الباهت وإلى الناس الذين جلسوا حول الطاولات. جلسوا بطريقة عرض ذاتيّ واعٍ، كما لو أنّ تكلفة ملابسهم العالية والرعاية الهائلة من الجاذبيّة الخاصّة بهم كان ينبغي أن تنصهر في روعة، ولكنّها لم تكن كذلك. كانت تعلو وجوههم نظرة من القلق والحقد الشديد.

ـ داغني، انظري إلى هؤلاء الناس. من المفترض أن يكونوا مستهترين بالحياة، باحثين عن التسلية ومحبّين للرفاهية. يجلسون هناك، وينتظرون هذا المكان ليعطيهم معنى، وليس العكس. ولكن يتمّ تصويرهم لنا دومًا بوصفهم مستمتعين بالملذات المادّيّة، ومن ثمّ يُسوَّق لنا أنّ الاستمتاع بالملذّات المادّيّة هو الشرّ. الاستمتاع؟ هل هم يستمتعون بتلك الأشياء؟ أليس هناك نوع من الانحراف في ما تعلّمناه، خطأ مّا آثم ومهمّ جدًّا؟

ـ نعم، يا هانك، هو آثم وشرس جدًّا ومهمّ جدًّا.

ـ إنّهم المستهترون، أمّا نحن فمجرّد تجّار. هل تدركين أنّنا نقدر على الاستمتاع بهذا المكان أكثر ممّا نتصور؟

ـ بالتأكيد.

قال برويّة: لماذا تركنا كلّ شيء للحمقى؟ كان يجب على كلّ تلك الأشياء أن تكون من نصيبنا.

نظرت إليه بذهول، ثمّ ابتسمت قائلة:

ـ أتذكّر كلّ كلمة قلتها لي في تلك الحفلة. لم أجبك حينها لأنّ الإجابة الوحيدة التي كانت لديّ، والشيء الوحيد الذي عَنَتْه لي كلماتك، ظننته جوابًا كنت ستكرهني من أجله وهو؛ أنّني أريدك.

قال وهو ينظر إليها: داغني، لم تكوني حينها تنوين ذلك، ولكنّ ما أردتِ قولَه هو أنّك ترغبين في النوم معي، أليس كذا؟

ـ نعم، يا هانك. بطبيعة الحال.

حدّق في عينيها، ثمّ نظر بعيدًا. ظلّا صامتين لفترة طويلة. ثمّ لمح الشفق الناعم من حولهما، وبريق كوبين من النبيذ على طاولتهما، ثمّ قال:

ـ داغني، في شبابي عندما كنت أعمل بمناجم الخام في مينيسوتا، كنت أطمح إلى أن أستمتع بمثل هذه الأمسية. لا، لم يكن هذا ما عملتُ من أجله، ولم أفكّر بذلك في أحيان كثيرة. ولكن في إحدى ليالي، والنجوم في الخارج والجوّ بارد جدّا، وأنا متعب، لأنّني عملت كثيرا ولم أرغب في شيء على وجه الأرض سوى الاستلقاء والنوم هناك، على حافّة المنجم، كنت آمل من حين إلى آخر أن أجلس في يوم من الأيّام بمثل هذا المكان، حيث مشروب واحد من النبيذ سيكلّفني أكثر من أُجرة يومٍ كنت قد كسبت ثمن كلّ دقيقة منه وكلّ قطرة وكلّ زهرة على الطاولة، وأنّني سأجلس هنا بلا هدف سوى متعتي الخاصّة.

سألت مبتسمة: ومع عشيقتك؟

رأت لمحة الألم في عينيه وتمنّت بشدّة أنّها لم تقل ذلك. فأجابها:

ـ مع... امرأة.

كانت تعرف الكلمة التي لم ينطقها. وتابع، بصوته الناعم والثابت:

ـ حين أصبحت غنيًّا ورأيت ما فعله الأغنياء من أجل المتعة، اعتقدت أنّ المكان الذي تخيّلته، لم يكن موجودًا. لم أتخيّل ذلك بوضوح شديد. لم أكن أعرف ما ستؤول إليه الأمور، كنت أعرف فقط ما سأشعر به. لقد تخلّيت عن توقّع تلك الأشياء منذ سنوات لكنّني أشعر بها الليلة.

ثمّ رفع كأسه ونظر إليها.

ـ هانك، أنا مستعدّة لأتخلّى عن أيّ شيء في حياتي، ما عدا أن أكون... ذلك الكائن

الفاخر المسلّي لك.

رأى يدها ترتجف وهي تمسك بكأسها. ثمّ قال بإنصاف:

ـ أعلم ذلك يا أعزّ الناس.

جلست مصدومةً، لأنّه لم يستخدم هذه الكلمة من قبل. ألقى برأسه إلى الخلف مجدّدًا وأطلق ببراعة ابتسامةَ فرحٍ لم ترَها على محيّاه من قبل.

قال: إنّها أوّل لحظة ضعف لك يا داغني.

ضحكت وهزّت رأسها. فمدّ بذراعه عبر الطاولة ووضع يده على كتفها العارية، كما لو أنّه يمنحها لحظة دعم. ثمّ ضحك بهدوء، فتركت فمها يلثم أصابعه كما لو أنّ الأمر حدث صدفةً؛ لكنّها أبقت وجهها إلى الأسفل لحظةً حتّى إنّه ظنّ ما رآه يتألّق في عينيها دموعًا.

وحين نظرت إليه، كانت ابتسامتها مطابقة لابتسامته، وأضحت بقيّة المساء عبارةً عن احتفالهما الخاصّ. طوال سنواته، منذ تلك الليالي على أطراف المناجم، وطوال سنواتها، منذ ليلة حفلها الأولى حين اعتراها الشوق المقفر إلى رؤية غير ملتقطة من السعادة، كانت تتساءل عن الناس الذين يتوقّعون جعل الأضواء والزهور رائعةً.

ـ ألا يوجد في ما تعلّمناه بعض أخطاء تكمن في ما هو آثم ومهمّ جدًّا؟

كانت تفكّر في كلماته، وهي مستلقية على كرسيّ في غرفة معيشتها، ذات أمسية ربيعيّة كئيبة، في انتظار أن يأتي... ثمّ قالت في نفسها: انظر فقط بعيدا يا حبيبي وستتخلّص من هذه الأخطاء وتتحرّر من كلّ الألم المهدَر الذي لم يكن ينبغي أن تحمله... لكنّها شعرت بأنّها هي أيضًا لم ترَ المسافة بأكملها، وتساءلت عمّا تبقّى من خطوات لتكتشفه.

حافظ ريردن على يديه في جَيبَي معطفه وعلى ذراعيه مضغوطتين على جانبيه وهو يمشي في الشوارع المظلمة، سائرًا في طريقه إلى شقّتها، لأنّه شعر بأنّه لا يريد لَمَس أيّ شيء أو الاحتكاك بأيّ شخص. لم يعش ذلك الشعور من قبل، الشعور بالاشمئزاز

الذي لم يثره أيّ كائن معيّن من قبل، لكنّه بدا أنّه يغمر كلّ شيء من حوله، ممّا جعل المدينة تبدو وكأنّها تترنّح. كان بإمكانه أن يفهم الاشمئزاز من أيّ شيء، وأن يحاربه بالسخط السليم من معرفة أنّ ذلك الشيء لا ينتمي إلى العالم. ولكنّ ذلك الشعور كان جديدًا عليه، الشعور بأنّ العالم مكانٌ بغيضٌ لم يكن يريد الانتماء إليه.

كان قد عقد مؤتمرا مع منتجي النحاس الذين تخنقهم مجموعةٌ من التوجيهات القانونيّة من شأنها أن تضعهم خارج الوجود خلال عامٍ آخر. لم يكن يملك أيّ نصيحة ولا أيّ حلّ يجود به عليهم، فبراعته التي اشتهر بها بوصفه رجلًا يستطيع دائما العثور على وسيلة للحفاظ على استمراريّة الإنتاج لم تكن قادرة على اكتشاف وسيلة لإنقاذهم. لكنّهم كانوا يعلمون جميعا أنّه لا توجد أيّ طريقة لإنقاذهم؛ وأنّ البراعة فضيلة من فضائل العقل. وفي القضيّة التي كانت تواجههم، تمّ تجاهل العقل باعتباره غير ذي صلة منذ فترة طويلة. فقال أحد الرجال: إنّها صفقة بين فتيان واشنطن ومستوردي النحاس.

فاعتقد أنّ تلك كانت مجرّد طعنة صغيرة دخيلة من الألم والشعور بخيبة الأمل من توقّعٍ لم يكن لديه الحقّ فيه؛ كان يجب أن يعلم أنّ ذلك هو مجرّد ما كان رجل مثل فرانسيسكو دانكونيا من شأنه أن يفعله، وتساءل بغضب لماذا يشعر كما لو أنّ لهبًا قليلا مشرقًا قد أخمد بمكان مّا في عالم بلا نور.

لم يعلم ما إذا كانت استحالة الفعل قد منحته ذلك الشعور بالكراهية، أو أنّ الكراهية جعلته يفقد الرغبة في التصرّف. وكان يعتقد أنّ ما واجهه هو خليط من كليهما؛ فالرغبة تفترض مسبقًا إمكانيّة الفعل لتحقيقها؛ والفعل يفترض مسبقًا هدفا يستحقّ تحقيقه. إذا كان الهدف الوحيد الممكن هو تملّق لحظة متداعية لصالح الرجال الذين يحملون البنادق، فلن يوجد لا الفعل ولا الرغبة مطلقًا.

سأل نفسه بلا مبالاة: كيف يمكن للحياة أن تكون؟ كان ينظر إلى الحياة بوصفها حركةً؛ إنّ حياة الإنسان حركة هادفة؛ ولكن ما هي حالة الكائن الذي يرفض هدفه وحركته؟ ما مصير الكائن المحجوز في سلاسل ولكنّه يُترك للتنفّس ورؤية روعة

الاحتمالات التي كان يمكن أن يصلها، يترك ليصرخ لماذا؟ وإلى أن تظهر فوّهة البندقيّة بوصفها تفسيرًا وحيدًا؟ لكنّه تجاهل هذا الأمر، وواصل المسير، ولم يكترث حتّى بالبحث عن إجابة.

ثمّ لاحظ، بلا مبالاة، الدمارَ الذي أحدثته لامبالاتُه. ومهما كان النضال الذي عاشه في الماضي صعبًا، فإنّه لم يصل قطّ إلى القبح النهائيّ المتمثّل في التخلي عن إرادة الفعل. ففي لحظات المعاناة، لم يترك للألم فرصة الانتصار عليه، لم يسمح له قطّ بإفنائه عبر فقدان الرغبة في السعادة. لم يشكّ مطلقًا في طبيعة العالم أو عظمة الإنسان من حيث هو قوّة دافعة وجوهر لوجوده. قبل سنوات، تساءل بريبة تهكّميّة عن الطوائف المتعصّبة التي ظهرت بين الناس في زوايا التاريخ المظلمة، تلك الطوائف التي تعتقد أنّ الإنسان محاصرٌ في عالم خبيثٍ يحكمه الشرّ لغرض وحيد هو تعذيبه. الليلة، عرف ما كانت رؤيتهم إلى العالم وشعورهم به. إذا كان ما رآه الآن من حوله هو العالم الذي يعيش فيه، فإنّه لا يريد أن يلمس أيّ جزء منه، ولا يريد محاربته، لقد كان دخيلًا ولا يملك أيّ شيء ليخسره ولن يهتمّ بالبقاء على قيد الحياة لفترة أطول.
داغني وأمنيته في رؤيتها كانت الاستثناء الوحيد المتبقّي له. وتواصلت تلك الأمنية. ولكنّه في صدمة مفاجئة، أدرك أنّه لا يشعر بأيّ رغبة في معاشرتها تلك الليلة. تلك الرغبة -التي لم تمنحه راحة لحظة، وكانت تنمو، وتتغذّى على رضاها الخاصّ- انتفت بسرعة. لقد أحسّ بعجز غريب. ولم يكن عقله أو جسده هو السبب. بل على العكس من ذلك، شعر بشغف غير محدود تجاهها أكثر من ذي قبل وأحسّ بأنّها أكثر امرأة رغب فيها على وجه الأرض؛ ولكنّ ما صدر من ذلك الموقف كان مجرّد رغبة في أن يرغب فيها، رغبة في الشعور، وليست شعورًا. وبدا الشعور مجرّد تخدير غير شخصيّ، كما لو أنّ فعل الجنس ينتمي الآن إلى مملكة سبق له أن غادرها.

ـ لا تنهضي. ابقي هناك، من الواضح أنّك كنت تنتظرينني إلى درجة أنّني أريد النظر إليك لفترة أطول.

قال تلك الجمل، وهو لا يزال في مدخل شقّتها، حين رآها ممدّدةً على كرسيّ، ثمّ

اهتزّت هزّةً صغيرة وهي متلهّفة، ثمّ ألقت بكتفيها إلى الأمام وهي على وشك النهوض؛ فأخذ في الضحك.

وأشار – كما لو أنّ جزءًا منه يراقب ردود فعله بفضول منفصل – إلى أنّ ابتسامته وإحساسه المفاجئ بالسعادة كانا حقيقيّين. لقد أدرك معنى الشعور الذي لطالما اعتراه، ولكنّه لم يحدّد كنهَه لأنّه كان على الدوام مطلقًا وفوريًّا: ذلك الشعور الذي يمنعه من مواجهتها وهو يتألّم، كان أبلغ بكثير من الشعور بالفخر برغبته في إخفاء معاناته: ذلك الشعور بأنّ المعاناة يجب ألّا تفتح باب الاعتراف في حضورها، وأنّه لا ينبغي أبدًا أن يدفع أيّ شكل من أشكال المطالبة بالألم بينهما وأن يستهدف الشفقة. فهو لم يجلب الشفقة إلى ذلك المكان، بالإضافة إلى أنّه لم يكن يبحث عنها هناك.

سألته، وقد اتّكأت مرّة أخرى بخضوع في كرسيّها. وكانت نبرة صوتها ساخرة: أَمَازِلتَ تحتاج إلى دليل على أنّني في انتظارك دائمًا؟

ـ داغني، لماذا لا تعترف معظم النساء بذلك أبدًا، وفي مقابل ذلك تعترفين؟

ـ لأنّهنّ لسن متأكّدات على الإطلاق من أنّهنّ مرغوبات. أمّا أنا فواثقةٌ من نفسي.

ـ أنا معجب بثقتك في نفسك.

ـ الثقة بالنفس لا تمثّل سوى جزء واحد ممّا قلته يا هانك.

ـ وما هي بقيّة الأجزاء؟

ـ ثقتي بقيمتي، وقيمتك.

نظر إليها كما لو أنّه يمسك بشرارةِ فكرةٍ مفاجئةٍ، فضحكت، وأضافت:

ـ لن أكون متأكّدة حين أمسك رجلًا مثل أورين بويل، على سبيل المثال. فهو لن يرغب في معاشرتي مطلقًا، على النقيض منك تمامًا.

سألها برويّة: هل تقصدين أنّ قيمتي لم تكن لترتفع عندك لو أنّي لم أرغب فيك؟

ـ بالطبع.

ـ هذا ليس ردّ فعل معظم الناس عندما يصبحون مرغوبين.

ـ إنّه ليس كذلك.

ـ يشعر معظم الناس بأنّ شأنهم يزداد رفعةً في أعينهم إذا رغب فيهم الآخرون.

ـ أشعر بأنّ الآخرين سيزدادون رفعةً في قلبي، إذا كانوا يرغبون فيّ. وهذه هي الطريقة التي تشعر بها أنت أيضًا تجاه نفسك، سواء اعترفت بذلك أم لم تعترف.

ليس هذا ما قلته لك حينها، في أوّل صباح جمعنا، قال في نفسه وهو ينظر إليها باتجاه أسفلها. تمدّدت بكسلٍ، وملامح وجهها خالية من المعنى، ولكنّ عينيها كانتا مشرقتين بمرح. كان يعلم أنّها تفكّر في ذلك وأنّها تعرف أنّه كذلك. فابتسم، لكنّه لم يقل شيئًا آخر.

وبينما كان يجلس نصف ممدّد على الأريكة، يراقبها عبر الغرفة، شعر بالسلام كما لو أنّ بعض الجدار المؤقّت قد ارتفع بينه وبين الأشياء التي شعر بها وهو في طريقه إلى هنا. وأخبرها عن لقائه بالرجل الذي زاره من معهد الدولة للعلوم، فعلى الرغم من علمه بأنّ وراء الحدث خطرًا، فإنّ شعورًا غريبًا ومتوهّجًا بالارتياح لا يزال قائمًا في ذهنه.

ثمّ ضحك من نظرة سخطها وقال:

ـ لا تزعجي نفسك بالغضب منهم. فالأمر ليس أسوأ من كلّ ما يفعلونه يوميًّا.

ـ هانك، هل تريدُني أن أتحدّث إلى الدكتور ستادلر حول هذا الموضوع؟

ـ بالتأكيد لا!

ـ يجب أن يوقفه. إنّه يستطيع فعلَ أشياء كثيرة.

أفضّل الذهاب إلى السجن على أن ينقذني ذلك الشخص. هل قلت الدكتور ستادلر؟ لا تقولي لي إنّك على علاقة به، هل الأمر كذلك؟

ـ التقيتُه قبل بضعة أيّام.

ـ ولماذا؟

ـ التقيتُه لأعرض عليه موضوع المحرّك.

ـ المحرّك...؟

قال ذلك برويّة، وبطريقة غريبة، كما لو أنّ التفكير في المحرّك قد جلب له فجأة عالمًا كان قد نسيه، ثمّ أضاف:

ـ داغني... الرجل الذي اخترع ذلك المحرّك كان موجودًا، أليس كذلك؟

ـ لماذا... طبعًا. ماذا تعني؟

ـ أعني فقط ذلك... أنّها فكرة جميلة، أليست كذا؟ حتّى لو أنّه مات الآن، فقد كان على قيد الحياة في ما سبق... وهو خالد مادام قد صمّم ذلك المحرّك.

ـ ما خطبك يا هانك؟

ـ لا شيء. أخبريني عن المحرّك.

أخبرته داغني عن لقائها بالدكتور ستادلر، ثمّ نهضت وأخذت تسير في الغرفة، وهي تتكلّم؛ وظلّت تمشي وتتكلّم. كانت تشعر دائما بموجة من الأمل والحرص على الفعل كلّما تعاملت مع موضوع المحرّك.

أوّل شيء لاحظه هو أضواء المدينة وراء النافذة: شعر كما لو أنّ تلك الأنوار كانت تُشغَّل، واحدةً تلو أخرى، لتشكّل أفقًا كبيرًا يحبّه؛ لقد شعر به، على الرغم من علمه بأنّ الأضواء كانت هناك طوال الوقت. ثمّ فهم أنّ الشيء الذي كان يعود قائمٌ بداخله: الشكل الذي يعود تدريجيّا هو حبّه للمدينة. ثمّ عرف أنّه قد عاد، لأنّه كان ينظر إلى المدينة خلف جسدٍ مشدود نحيلٍ لامرأة رفعت رأسها بشغفٍ في أفق المسافة المرئيّة، وكانت خطواتها بديلًا لا يهدأ من الهروب. كان ينظر إليها كما ينظر إلى شخص غريب، ولا يكاد يدرك أنّها امرأةٌ، ولكنّ الأفق كان يتدفّق إلى شعور بكلمات من قبيل: هذا هو العالم وجوهره، وهذه المدينة هي التي جعلتهما ينسجمان معًا، من الأشكال المقوّسة للمباني وخطوط زاويا وجه جُرِّد من كلّ شيء إلّا الهدف؛ وخطوات الفولاذ

الصاعدة؛ وخطوات كائن مصمّم على هدفه، وهذا هو ما كان عليه كلّ الرجال الذين عاشوا ليخترعوا الأضواء، والفولاذ، والأفران، والمحرّكات. لقد كانوا هم العالم، ولم يكونوا بشرًا جاثمين في زوايا مظلمة، نصفهم يتسوّل، والنصف الآخر مهدّد، يعرضون بفخرٍ قروحَهم المفتوحة للمطالبة فقط بالحياة والفضيلة. وكان يعلم دائمًا أنّ في الكون رجلًا واحدًا يمتلك شجاعة الفكر الجديد الساطعة. فهل يمكنه أن يتخلّى عن العالم للآخرين؟ ومادام يمكن أن يجد مشهدًا واحدا يمنحه فرصة استعادة إعجابه بالحياة، فهل باستطاعته الإيمان بأنّ العالم ينتمي إلى القروح والأنين والبنادق؟ فالرجال الذين اخترعوا المحرّكات كانوا موجودين فعلا، وهو لن يشك أبدًا في واقع وجودهم. وحدَها رؤيته إيّاهم جعلت التباين لا يطاق، على نحوٍ يصبح فيه حتّى شعور البغض تكريمًا لولائه لهم وللعالم الذي كان لهم وله.

قال بشكل مفاجئ، حين لاحظ أنّها توقّفت عن الكلام: عزيزتي ...عزيزتي...

فسألته بهدوء: ما خطبك يا هانك؟

ـ لا شيء... إلّا أنّه لم يكن عليك أن تستدعي ستادلر.

وكان وجهه يشرق بالثقة، وبدا صوته مسلّيًا، دفاعيًا ورقيقا، ولم تكن تستطيع اكتشاف أيّ شيء آخر فيه، كعادته دائمًا، باستثناء مسحة من الوداعة بدت غريبة وجديدة.

قالت: لقد شعرت بأنّه لم يكن ينبغي عليّ استدعاؤه، لكنّي لم أعرف السبب.

ـ سأخبرك بالسبب. ما أراده منك هو الاعتراف بأنّه لا يزال الدكتور روبرت ستادلر كما كان يجب أن يكون، لكنّه لم يكن، وهو على يقين من أنّه لم يكن كذلك. أرادك أن تمنحيه احترامك، على الرغم من أفعاله وتناقضها. أرادك أن تزيّفي الواقع من أجله، حتّى تستمرّ عظمته، ولكنّ معهد الدولة للعلوم سيقضي عليه، كما لو أنّه لم يوجَد قطّ، وأنت الوحيدة التي يمكنها القيام بذلك من أجله.

ـ لماذا أنا؟

ـ لأنّك الضحيّة.

نظرت إليه بذهول. لقد تكلّم عن قصد؛ فشعر بوضوح في الإدراك مفاجئٍ وعنيفٍ، كما لو أنّ موجة من الطاقة كانت تندفع إلى تنشيط البصر، لتُدمِج النصف المرئيّ والنصف الملموس في شكل واحد واتّجاه واحد.

ـ داغني، إنّهم ينجزون شيئًا لم نكن على علمٍ به من قبل. هم يعرفون شيئًا لا نعرفه، لكن يجب أن نكتشفه. لا أستطيع إدراكه تمامَ الإدراك حتّى الآن، ولكنّني بدأت أرى أجزاء منه. ذلك السارق من معهد الدولة للعلوم كان خائفًا عندما رفضت مساعدته على التظاهر بأنّه مجرّد مشترٍ صادق لمعدني، لقد كان خائفًا جدًّا. لكن ممّ يخاف؟ لا أعلم، لقد كان الرأي العامّ مجرّد اسم يطلقه لتبرير ذلك، لكنّه ليس المبرّر الكامل. لماذا كان يخاف؟ لديه الأسلحة، والسجون، والقوانين. كان يستطيع أن يستولي على كلّ مطاحني لو رغب في ذلك، ولم يكن أحدٌ ليدافع عنّي، وهو يعلم ذلك علم اليقين. فلماذا كان مهتمًا بما أؤمن به؟ لكنّه فعل. أنا من كان يجب عليه أن يخبره بأنّه ليس من اللصوص، بل زبوني وصديقي. هذا ما كان يحتاج إليه منّي وهذا ما احتاج إليه الدكتور ستادلر منك. أنت التي كان عليك أن تتصرّفي كما لو أنّه رجل عظيم ولم يحاول قطّ تدمير سكك حديدك ومعدني الخاصّ. لا أعرف ما الذي يخطّطون لإنجازه، لكنّهم يريدون منّا التظاهر بأنّنا نرى العالم كما يتظاهرون بأنّهم يرونه. إنّهم بحاجة إلى نوع من العقوبات منّا. أنا لا أعرف طبيعة تلك العقوبة، لكن يا داغني، أعلم أنّه إذا كنّا نقدّر حياتنا، فيجب ألّا نعطيهم إيّاها. حتّى إذا علّقوك على حبل المشنقة، لا تعطيها لهم. دعيهم يدمّرون سكّة حديدك ومطاحني، لكن لا تعطيهم إيّاها لأنّني أدرك ذلك جيّدًا: أعرف أنّ هذه هي فرصتنا الوحيدة.

ظلّت داغني واقفة أمامه، تنظر بانتباه إلى الخطوط العريضة الخافتة لشكل مّا حاولت أيضًا فهمه.

قالت: نعم... نعم، أعرف ما رأيت فيه... لقد شعرت بذلك أيضًا، ولكنّ الأمر بدا فقط مثل إزالة غبار الماضي الذي ذهب قبل أن أعرف أنّني رأيت ذلك، مثل مسحة من

الهواء البارد، وما تبقّى هو دائما الشعور بأنّه كان عليّ إيقاف ذلك... أعلم أنّك محقّ، فأنا لا أستطيع فهمَ لعبتهم، ولكن هذا القدر الذي ذكرته صحيحٌ: يجب ألّا نرى العالم كما يريدون منّا أن نراه. إنّه نوع من الاحتيال، خدعة قديمة وجسيمة جدًّا. والمفتاح لكسر ذلك هو: التحقّق من كلّ فرضيّة يعلّموننا إيّاها، والتشكيك في كلّ مبدإ، إلى....

كانت تحوم حوله حين دارت بخلدها فكرةٌ مفاجئةٌ، لكنّ داغني قطعت الحركة والكلمات في اللحظة نفسها: وكان للكلمات الموالية أن تكون تلك التي لم ترد التفوّه بها. ثمّ وقفت تنظر إليه بابتسامة بطيئة ومشرقة يشوبها الفضول.

في مكان مّا بداخله، كان يدرك الفكرة التي أوشكت على الإفصاح عنها، لكنّه عرفها فقط في شكل الولادة السابق، ذاك الذي يجب أن ينحت كلماته في المستقبل. لم يتوقّف لالتقاط تلك الفكرة الآن، لأنّ في خضمّ الطوفان المشرق لما شعر به كانت هناك فكرة أخرى سبقت الأولى، فأصبحت واضحةً له واستوقفته ليعيش دقائق عديدة من الماضي. ثمّ نهض واقترب منها وأخذها بين ذراعيه.

حمل جسدها وهو يضغط عليه عموديًّا، كما لو أنّ جسديهما تيّاران يرتفعان معًا، كلّ منهما إلى نقطة واحدة، وكلّ منهما يحمل وعيه كلّه إلى اجتماع شفتيه.

ما شعرت به في تلك اللحظة تضمّن، كجزء واحد مجهول منه، معرفةَ الجمال في وضعيّة جسده وهو يحملها، كما لو أنّهما كانا يقفان في وسط غرفة عالية فوق أضواء المدينة.

ما عرفه، وما اكتشفه في تلك الليلة، هو أنّ حبّه الذي استعاد وجودَه لم يسمح له بعودة رغبته فيها، ولكنّ الرغبة عادت بعد أن استعاد عالمه وما فيه من حبّ وقيمة وإحساس. وكذا اكتشف أنّ الرغبة لم تكن ردًّا على تأثير جسدها، ولكن احتفالًا بنفسه وبإرادة الحياة فيه.

لم يكن يعرف ذلك، ولم يفكّر في هذا الأمر. كان قد تجاوز الحاجة إلى الكلمات، ولكنْ لحظةَ شعُر باستجابة جسدها له، شعر أيضًا بمعرفةٍ غير مسموحٍ بها، معرفة أنّ ما سمّاه فسادَها هو فضيلتها العليا وقدرتها على الشعور بفرحة الوجود، كما شعر بها هو.

الفصل الثّاني

أرستقراطيّة الجذب

أعلن مستطيل التقويم المعلّق في سماء المدينة وراءَ نافذة مكتبها تاريخ: 2 سبتمبر. انحنت داغني مزهوّةً على طاولة المكتب. وكان الضوء الأوّل المنبعث والشعاع المنعكس على زجاج مستطيل التقويم يعلنان دومًا اقترابَ الغسق؛ وحين تبدو تلك الصفحة البيضاء المتوهّجة لزجاج التقويم فوق الأسقف، تنطمس معالم المدينة، ممّا يؤدّي إلى التعجيل بالظلام.

كانت داغني تنظر إلى تلك الصفحة البعيدة كلّ مساء من أماسي الأشهر الماضية. وكأنّ ذلك التقويم يقول لها إنّ أيّامك معدودة، أو أنّها كانت علامة على التقدّم نحو شيء تعرفه الروزنامة، لكنّ داغني لم تعرفه بعد. في الماضي، سجّل التقويم سباقها لبناء خطّ جون جالت، ولكنّه يسجّل الآن سباقَها ضدّ كارثة مدمّرة ومجهولة.

الرجال الذين بَنَوا بلدات جديدة في ولاية كولورادو غادروا واحدًا تلو آخر نحو وجهة صامتة وغير معلومة لم يعد منها أيّ صوت أو شخص حتّى الآن. أمّا المدن التي تركوها فكانت تحتضر. وقد ظلّت بعض المصانع التي بَنَوها مقفلةً ودون مُلاّك؛ واحتجزت السلطات المحلّيّة آخرين؛ وفي الحالتين تركت الآلات هامدةً في مكانها.

شعرت داغني كما لو أنّ خارطةً مظلمة من ولاية كولورادو انتشرت أمامها مثل لوحة التحكّم في حركة المرور، بعدد قليل من الأضواء المتناثرة من خلال جبالها.

وانطفأت الأضواء واحدًا تلو آخرى، كما اختفى البشر واحدًا تلو آخر. كان هناك نمط خاصّ بذلك الحدث، شعرت به، لكنّها لم تستطع تعريفه؛ لقد أصبحت قادرة على التنبّؤ، بشبه يقين، بهويّة الراحل المقبل، لكنّها لم تتمكّن من فهم السبب.

ومن بين الرجال الباقين، الذين استقبلوها في إحدى المرّات أثناء هبوطها من عربة القاطرة المحرّكة على منصّة تقاطع وايت، لم يكن سوى تيد نيلسن، الذي لا يزال يدير مصنع نيلسن للمحرّكات. فسألته:

ـ تيد، لا تخبرني بأنّك ستكون أحد الراحلين في قادم الأيّام؟

لقد طرحت عليه هذا السؤال عندما زارته آخر مرّة في نيويورك، فأجابها بسخريّة: آمل ألّا أفعل ذلك.

ـ ماذا تعني بأنّك تأمل في ذلك؟ ألست متأكّدًا؟

أجابها برويّة وتثاقل: داغني، لقد اعتقدت دومًا أنّني أفضّل الموت على التوقّف عن العمل. كذلك كان حال الرجال الذين رحلوا. يبدو لي أنّ من المستحيل أن أرغب في المغادرة. ولكن قبل عامٍ، بدا من المستحيل أن يتمكّنوا هم أيضا من ذلك. هؤلاء الرجال كانوا أصدقائي. لقد عرفوا ما سيفعله رحيلهم بنا نحن معشر الناجين. وما كانوا ليذهبوا على هذا النحو، من دون أن يتركوا أيّ كلمة، سوى الرعب الإضافيّ الذي لا يمكن تفسيره، ما لم يكن لديهم سببٌ مّا له أهمّيّة قصوى. قبل شهر، أخبرني روجر مارش، من شركة مارش للكهرباء، بأنّه سيكبّل نفسه بالسلاسل إلى مكتبه، حتّى لا يكون قادرًا على تركه، مهما يكن حجم الإغراء المروّع. لقد كان يستشيط غاضبًا من الرجال الذين غادروا. وأقسم لي أنّه لن يفعلها أبدًا، وقال لي إنّه إذا واجهه شيء لا يستطيع مقاومته فإنّه سيحافظ على القدر الكافي من الصفاء الذهنيّ ليترك لي رسالة تدلّني على ما حدث، فلا أُضطَرّ إلى إجهاد دماغي في هذا النوع من الرهبة التي نشعر بها الآن على حدّ سواء. هذا ما أقسم عليه قبل أسبوعَين لكنّه ذهب ولم يترك لي أيّ رسالة... داغني، لا أستطيع أن أقول ما سأفعله عندما أواجه مثل هذا المصير. مهما يكن ما رأوه عندما رحلوا.

لقد تمثّلت الأمرَ على أنّ بعض المخرّبين كانوا يتنقّلون عبر البلاد بلا صوت وأنّ الأضواء كانت تنطفئ بمجرّد أن يلمسها أولئك المخرّبون، واعتقدت بمرارةٍ أنّ شخصًا مّا قد عكس مبدأ دوران محرّك القرن العشرين وحوّل الطاقة الحركيّة الآن إلى طاقة ثابتة.

بينما كانت داغني تجلس بمكتبها أثناء تجمّع الغسق، بدا لها أنّ ذلك هو العَدُوّ الذي كانت في سباق معه. كان التقرير الشهري لكوينتن دانيلز على طاولة مكتبها. لم تكن، حتّى الآن، على يقين من أنّ دانيالز سوف يحلّ سرّ المحرّك؛ ولكنّ المخرّب كان يتحرّك بسرعة وثقة في النفس وفق وتيرة متسارعة لم يسبق لها مثيل. وتساءلت عمّا إذا كان سيوجَد أيّ عالم لاستخدام المحرّك بحلول الوقت الذي ستعيد فيه بناءه.

لقد أُعجبت بكوينتن دانيلز منذ اللحظة التي دخل فيها مكتبها في أوّل مقابلة لهما. كان رجلًا نحيفًا في أوائل الثلاثينات من عمره، بوجهٍ نحيل أليف وابتسامة جذّابة تستمرّ آثارها في ملامحه في جميع الأوقات، ولاسيّما حين ينصت؛ كان حسن المحيّا، يظهر صبرًا لافتًا ويدخل مباشرةً إلى صلب الموضوع قبل لحظات من إشارة المتكلّم.

سألته حينها: لماذا رفضت العمل مع الدكتور ستادلر؟

فابتسم على نحوٍ فيه تلميح؛ وكان ذلك أقرب إلى إظهار شعور معيّن؛ هو الشعور بالغضب. لكنّه أجاب بحكمة واتزان:

ـ كما تعلمين، لقد قال الدكتور ستادلر في إحدى المرّات إنّ الكلمة الأخيرة في عبارة (البحث العلميّ الحرّ) لا لزوم لها. يبدو أنّه نسي ذلك. حسنًا، سأقول فقط إنّ (البحث العلميّ الحكوميّ) يتضمّن تناقضًا في المصطلحات.

وسألته عن المنصب الذي شغله بمعهد التكنولوجيا في يوتا. فأجابها:

ـ لقد اشتغلت حارسًا ليليًّا.

قالت بذهول: ماذا؟ حارس ليليّ؟

فكرّر لها الجواب ذاته بأدبٍ، كأنّما اعتقد أنّها لم تلتقط جوابه جيّدًا، أو أنّ الموقف لم

يكن فيه ما يدعو إلى الدهشة.

وأثناء استجوابه، أوضح أنّه لا يحبّ أيّ أساس من الأسس العلميّة المتبقّية في الوجود، وأنّه كان يودّ الحصول على وظيفة في مختبر البحوث لبعض الاهتمامات الصناعيّة الكبيرة، ولكن لم يكن بوسع أيّ منها تحمّل أيّ عمل بعيد المدى في الوقت الحاضر. ولماذا ينبغي عليها فعل ذلك؟ لهذا، حين أُغلِق معهد يوتا للتكنولوجيا بسبب ضعف التمويل، ظلّ هناك حارسًا ليليًّا وساكنًا وحيدًا للمكان. كان الراتب كافيًا لدفع احتياجاته، وكان مختبر المعهد هناك، سليمًا، وصالحًا لاستخدامه الخاصّ دون أيّ عائق.

ـ إذن أنت تجري عملًا بحثيًّا خاصًّا بك؟

ـ هذا صحيح.

ـ لأيّ غرض؟

ـ من أجل متعتي الخاصّة.

ـ ماذا تنوي أن تفعل، إذا اكتشفت شيئًا له أهمّيّة علميّة أو قيمة تجاريّة؟ هل تنوي وضعَه لأحد الاستخدامات العامّة؟

ـ لا أعرف، لا أعتقد ذلك.

ـ ألا تريد أن تكون في خدمة الإنسانيّة؟

ـ أنا لا أتحدّث هذا النوع من اللغة يا آنسة تاجارت. لا أعتقد أنّك أنت أيضًا تتحدّثينها.

قالت وهي تضحك: أعتقد أنّنا سنتفاهم على نحوٍ جيّد.

ـ بالتأكيد.

وحين أخبرته بقصّة المحرّك، وأخذ يدرس المخطوطة، لم يعلّق، بل اكتفى بالقول إنّه سيتولّى المهمّة وفق أيّ شروط تضبطها.

طلبت منه أن يختار شروطه الخاصّة. واحتجّت، باستغراب، على انخفاض الراتب الشهريّ الذي كان يكسبه.

ـ يا آنسة تاجارت، لا أرغب في الحصول على شيء من أجل لا شيء. ولا أعلم كم من الوقت قد تضطرّين فيه إلى الدفع لي، أو ما إذا كنت ستحصلين على أيّ شيء في المقابل. سأراهن على عقلي ولن أدع أيّ شخص آخر يفعل ذلك. أنا لا أجمع المال عن قصد ولكن أنا متأكّد من أنّني أنوي الحصول عليه أثناء تسليمك بضاعتك. وإذا نجحت، عندها سأسلخك حيّة، لأنّني أرغب في الحصول على نسبة مئويّة من الربح، وستكون نسبة عالية، لكنّ التفكير فيها سيستحقّ منك وقتًا كثيرًا.

وحين حدّد لها النسبة التي أرادها، ضحكت وقالت:

ـ هل هذا ما تسمّيه سلخي وأنا حيّة، وتقول إنّه سيأخذ من وقتي تفكيرًا طويلا. حسنًا، سيكون لك ما تريد.

واتّفقا على أن يكون مشروعها الخاصّ، وأنّ من المقرر أن يكون هو موظّفها الخاصّ؛ لا أحد منهما رغب في تدخّل قسم البحوث بشركة تاجارت في ذلك الأمر. لقد طلب كوينتن البقاء في ولاية يوتا، في منصبه الاعتياديّ حارسًا ليليًّا، حيث كان يملك كلّ معدّات المختبر وجميع الظروف الخاصّة التي يحتاج إليها. وكان من المتوقّع أن يظلّ المشروع سرًّا بينهما، إلى أن ينجح.

قال في ختام هذا اللقاء: لا أعلم كم سنةً سيستغرق منّي حلّ هذا الموضوع، يا آنسة تاجارت. لكنّي أعلم أنّني إذا قضّيت بقيّة حياتي في ذلك ونجحت، فإنّني سأموت راضيًا. ثمّة شيء واحد فقط أريده أكثر من إيجاد حلّ لهذه المعضلة: وهو مقابلة الرجل الذي اخترع هذا المحرّك.

كانت ترسل إليه شيكا مرّة واحدة في كلّ شهر، منذ عودته إلى ولاية يوتا، فيرسل إليها تقريرًا عن عمله. كان من السابق لأوانه أن يأمل في حلٍّ، ولكنّ تقاريره كانت النقاط المضيئة الوحيدة في الضباب الراكد في أيّام داغني بالمكتب.

رفعت رأسها، وهي تُنهي قراءة صفحات التقرير. وكان التقويم على بعد مسافة يشير إلى: الثاني من سبتمبر. ازداد نور أضواء المدينة في الأسفل، وانتشر في تألّقٍ. لقد فكّرت بريردن وتمنّت أن يكون في المدينة، إذ كانت ترغب في رؤيته تلك الليلة.

وإثر ملاحظة التاريخ مجدّدًا، تذكّرت فجأة أنّ عليها الإسراع بالعودة إلى المنزل لترتدي ملابسها، لأنّها كانت على موعد لحضور حفل زفاف جيم في تلك الليلة، وإن كانت لم ترَ جيم، خارج المكتب، لأكثر من عامٍ. لم تلتقِ بخطيبته من قبل، لكنّها قرأت ما يكفي عن الخطوبة في الصحف. نهضت من مكتبها في انسحاب مقيت مرهق: وبدا لها أنّ حضور حفل الزفاف أسهل من إزعاج نفسها بشرح غيابها بعد ذلك.

كانت تمشي مسرعة عبر باحة المحطّة حين سمعت صوتا ينادي: يا آنسة تاجارت! مع ملاحظة غريبة من الاستعجال والتردّد معًا. توقّفت فجأة، ولكنّها أخذت بضع ثوان لتدرك أنّ المنادي هو ذلك الرجل العجوز في كشك السجائر.

ـ يا آنسة تاجارت، لقد انتظرتك أيّامًا عديدة، وبي حريصٌ شديد على التحدّث إليك.

كان يبدو على ملامح وجهه تعبير غريب، بتقاسيم مجهدة تحاول أن تخفي الخوف.

قالت مبتسمة: أنا آسفة، كنت طوال الأسبوع أسرع في الدخول إلى المبنى والخروج منه، ولم يكن لديّ الوقت للتوقّف.

ـ يا آنسة تاجرت، هل تذكرين عقب السيجارة الذي يحمل علامة الدولار، ذاك الذي أعطيتني إيّاه قبل بضعة أشهر؟ هل لك أن تجيبيني: من أين تحصّلت عليها؟

وقفت ساكنة للحظة ثمّ أجابته:

ـ أخشى أن تكون قصّة حصولي على تلك السيجارة طويلة ومعقّدة.

ـ هل توجد وسيلة للتواصل مع الشخص الذي أعطاك تلك السيجارة؟

ـ أفترض ذلك على الرغم من أنّني لست متأكّدة جدًّا من الأمر. لماذا؟

ـ هل سيخبرك من أين حصل عليها؟

ـ لا أعلم، لكن ما الذي يجعلك تشكّ في أنّه لن يفعل؟

سألها: آنسة تاجارت، ماذا تفعلين حين تجدين نفسك أمام قول شيء مّا لشخص مّا وأنت تدركين أنّ ذلك الشيء يستحيل تحقيقه؟

أجابته بعد أن ضحكت: الرجل الذي أعطاني السيجارة قال لي إنّ على المرء في مثل هذه الحالة أن يفحص فرضيّاته.

ـ وهل فعل هو أيضًا ذلك مع تلك السيجارة؟

ـ حسنًا، لا، ليس بالضبط. لكن لماذا؟ ما الذي ترغب في قوله لي؟

ـ يا آنسة تاجارت، لقد استفسرت عن تلك السجائر في جميع أنحاء العالم. وتحقّقت من كلّ مصدر للمعلومات مرتبط بمجال صناعة التبغ. ووضعت عقب السجائر تحت تحليل كيميائيّ. لا يوجد مصنع يُنتِج ذلك النوع من الورق. والعناصر المنكّهة في التبغ لم تستخدم في أيّ خليط من أخلاط التدخين التي حثت عنها. لقد صنعت تلك السيجارة آليًّا، لكنها لم تُصنع في أيّ مصنع أعرفه، وأنا أعرفها جميعًا. وعلى حدّ علمي، يا آنسة تاجارت، فإنّ تلك السيجارة لم تصنع في أيّ مكان على وجه الأرض

***

وقف ريردن، يراقب بلا مبالاة، بينما كان النادل يُخرج طاولة العشاء من غرفته في الفندق. لقد غادر كين داناغر المكان. وكانت الغرفة نصف مظلمة؛ إذ يوجَد اتّفاقٌ ضمنيّ غير مُعلَن بأن يبقى نور الأضواء منخفضًا خلال العشاء، على نحوٍ لا يكون فيه وجه داناغر مرئيًّا. وربّما، لم يتعرّف عليه النُّدُل.

كان عليهما الالتقاء خلسة، مثل المجرمين الذين يجب ألّا يُنظَر إليهم وهم مجتمعون. لم يتمكّنا من الاجتماع في مكتبيهما أو في منزليهما، ولم يكن أمامهما من حلٍّ سوى الالتقاء في المدن المزدحمة، في أحد أجنحة فندق واين – فوكلانالد. ويمكن أن يعاقب كلّ منهما بغرامة ماليّة قدرها عشرة آلاف دولار والسجن لمدّة عشر سنوات إذا اكتشف أنّه وافق

على تسليم داناغر أربعة آلاف طن من الأشكال الهيكليّة لمعدن ريردن.

في عشائهما، لم يناقشا ذلك القانون أو دوافعهما أو المخاطرة التي كانا يتعرّضان لها. لقد تحدّثا فقط عن العمل. تحدّث داناغر بوضوح وموضوعيّة، مثلما كان يتحدّث دائما في أيّ مؤتمر، وبيّن أنّ نصف طلبيّته الأصليّة ستكون كافية لتجهيز مثل تلك الأنفاق وأنّه سينهار، إذا تأخّر في تجهيز مناجم شركة الفحم الكونفدراليّة وإعادة تأهيلها، وأنّ تلك الشركة ستُفلس بعد أن اشتراها قبل ثلاثة أسابيع.

قال: إنّها ملكيّة ممتازة، ولكنّ ظروف اكتسابها كانت صعبة؛ لقد وقع حادث سيّئ هناك في الشهر الماضي، وحدث انهيار في الكهف وانفجارٌ للغاز، قتل أربعين رجلًا.

وأضاف، في تلاوة رتيبة لبعض التقارير الإحصائيّة غير الشخصيّة:

ـ لقد أعلنت الصحف أنّ الفحم يمثّل الآن أهمّ سلعة في البلاد وأنّ مشغّلي الفحم بصدد الاستفادة من نقص النفط. بينما صرخت إحدى عصابات واشنطن بأعلى صوتها أنّني بصدد التوسّع كثيرًا وأنّه ينبغي فعل شيء مّا لإيقافي، لأنّني أصبحت في اعتقادهم احتكاريًّا. وتوجد عصابة أخرى في واشنطن تصرخ أنّني لا أتوسّع بما فيه الكفاية وينبغي عليّ فعل شيء مّا للسماح للحكومة بالاستيلاء على مناجمي، لأنّني جشع ولا أفكّر إلّا في كسب الأرباح دون رغبة في تلبية حاجة عامّة الناس إلى الوقود. ووفقًا لمعدّل الربح الحاليّ الذي أجنيه، فإنّ شركة الفحم الكونفدراليّة لن تستطيع إعادة المال الذي أنفقته عليها إلّا بعد سبعة وأربعين عامًا. ليس لديّ أطفال. اشتريتها، لأنّ هناك زبونا واحدا لم يجرؤ على مغادرتها دون استخراج الفحم. وهذا الزبون هو شركة تاجارت العابرة للقارّات. سأظلّ أفكّر في ما يمكن أن يحدث لو انهارت السكك الحديديّة.

توقّف عن الكلام لحظةً ثمّ أضاف:

ـ لا أعرف لماذا مازلت أهتمّ بذلك الأمر، لكنّني سأظلّ أهتمّ، إذ يبدو أنّ هؤلاء الناس في واشنطن لا يملكون صورة واضحة لما ستؤول إليه الأشياء. أمّا أنا فأتنبّأ بما

سيحدث.

قال ريردن: سأسلّمك المعدن، وعندما تحتاج إلى النصف الآخر من طلبك، أخبرني فقط وسأمدّه بك أيضًا.

وفي نهاية العشاء، قال داناغر بالنبرة الدقيقة والرائقة نفسها، بلهجة رجل يعرف معنى كلماته الدقيق: إذا اكتشف أيّ موظّف من موظّفيك أو موظّفي شركتي هذا الأمر وحاول ممارسة أيّ ابتزاز خاصّ، فسأشتري صمته. لكنّني لن أفعل إذا كان يملك أصدقاء في واشنطن. وإذا تدخّل أيّ واحد من هؤلاء فسأذهب إلى السجن.

ردّ ريردن: سنذهب معًا.

وأشار ريردن، وهو يقف وحيدًا في غرفته نصف المظلمة، إلى أنّ احتمال الذهاب إلى السجن جعله غير مبالٍ. ثمّ تذكّر أيّامَ كان في الرابعة عشرة من عمره وكان شاحبًا وقد أعياه الجوع، فلم يسمح لنفسه بسرقة الفاكهة من موقف الرصيف. أمّا الآن، فإنّ إمكانيّة إرساله إلى السجن -إذا ما اعتُبِر ذلك العشاء جناية- لم يعد يعني له أكثر من إمكانيّة أن يُدهَس بشاحنة: فيكون مجرّد حادث جسديّ قبيح دون أيّ أهمّيّة أخلاقيّة.

كان يعتقد أنّه اضطرّ إلى إخفاء تلك الصفقة التجاريّة الوحيدة التي استمتع بها في عمله مدّةَ عام، مثل سرّ المذنب، مثل إخفائه سرَّ مذنبٍ آخر دفنه في الليالي التي كان يقضيها مع داغني، تلك الساعات الوحيدة التي أبقته على قيد الحياة. وكان يرى أنّ بين السرّين صلةً مّا، وبعض التواصل الأساسيّ الذي كان عليه أن يكتشفه. لم يستطع فهمهما، ولم يتمكّن من العثور على الكلمات التي تستطيع الإعراب عنهما، لكنّه شعر بأنّه سيجيب على كلّ سؤال في حياته يومَ يجدهما.

استند إلى الحائط، وأرسل رأسه إلى الخلف، وعيناه مغلقتان، وفكّر في داغني، ثمّ شعر بأن لا أسئلة يمكن أن تهمّه بعد الآن. كان يعتقد أنّه سيراها في تلك الليلة، وكاد يكره الأمر لأنّ صباح الغد بدا قريبًا جدًّا ومن ثمّ سيضطرّ إلى مغادرتها، ثمّ تساءل عمّا إذا كان بإمكانه البقاء في المدينة غدًا، أو عمّا إذا كان عليه أن يغادرها الآن دون أن يراها،

حتّى يتمكّن من الانتظار، وحتّى يتمكّن من أن تكون أمامه دائمًا: لحظة يضع فيها يديه على كتفيها وينظر إلى وجهها. وقال في نفسه: لقد أصابك الجنون يا رجل، لكنّه يعلم أنّها إن تكن بجانبه في كلّ ساعة من أيامه، فإنّ ذلك لن يغيّر شيئًا في الأمر، ولن يكون كافيًا لأنّه لا بدّ له من اختراع أيّ شكل عديم المعنى من التعذيب لنفسه من أجل اختبار قدرته على التحمّل. كان يعرف أنّه سيراها في تلك الليلة. والتفكير في تركها سيجعل الأمر أكثر متعةً، فلحظة التعذيب ستزيد يقينه بقيمة الساعات المتبقّية. كان يفكّر في ترك ضوء غرفة جلوسها مشتعلًا، ثمّ مسكها عند السرير، فلا يرى سوى منحنى شريط الضوء الذي يمتدّ من خصرها إلى كاحلها، خطّ واحد يرسم شكل جسدها الطويل النحيف في الظلام، ثمّ يسحب رأسها إلى النور، ليرى ملامح وجهها، ثمّ رؤيتها وهي تسقط إلى الوراء، بلا مقاومة، فيسقط شعرها على ذراعه، فينظر إلى عينيها المغمضتين ووجهها المرسوم وثغرها المفتوح له، كما هي الحال في نظرة ألمٍ.

وقف عند الجدار منتظرًا، ليترك كلّ أحداث النهار تتساقط، ليشعر بالحرّيّة، ويتأكّد من كون الفترة القادمة من الزمن ملكه.

لكن حين دُفع باب غرفته دون سابق إنذار، لم يسمع أو يصدقّ ذلك في البداية. رأى صورة ظلّيّة لامرأة، رافقها خيال خادم الفندق، وضع حقيبة في الأسفل واختفى. وكان الصوت الذي سمعه هو صوت ليليان:

ـ لماذا أنت وحيد في الظلام يا هنري!؟

ضغطت على مفتاح الضوء قرب الباب ثمّ ظلّت واقفة هناك، في استعداد سريع، مرتديةً بدلة السفر البنّيّة الفاتحة، فبدت شفّافة كما لو أنّها كانت تسافر وهي ترتدي ملابس كالزجاج. كانت تبتسم، ثمّ سحبت قفّازَيها على نحوٍ يوحي بأنّها وصلت إلى المنزل.

سألته: هل ستبقى هنا هذا المساء يا عزيزي؟ أم كنت تفكّر في الخروج؟

لم يعرف الوقت الذي استغرقه قبل أن يجيب: وماذا تفعلين هنا؟

ـ لماذا تطرح عليّ مثل هذا السؤال، ألا تتذكّر أنّ جيم تاجارت دعانا إلى حفل زفافه؟ وأنّ الزفاف مقرّر الليلة.

ـ لم أكن أنوي الذهاب إلى حفل زفافه.

ـ أوه، ولكنّني أنوي فعلَ ذلك!

ـ لماذا لم تخبريني بهذا الأمر قبل أن أغادر المنزل في الصباح؟

ضحكت بمرح وأجابته:

ـ كنت أودّ أن أجعلها مفاجأة لك يا حبيبي. من المستحيل عمليًّا جرّك إلى أيّ واجب اجتماعيّ، ولكن اعتقدت أنّك قد تفعل ذلك على هذا النحو من واقع وحي اللحظة، فقط الخروج وتمضية وقت طيّب معي، كما يفترض بكلّ الأزواج أن يفعلوا. اعتقدت أنّك لن تمانع في ذلك، لقد كنت غالبًا ما تقضي ليلة وحيدة بنيويورك في كثير من الأحيان ثمّ تغادر!

ثمّ رأى نظرة ألقتها عليه عرضًا من تحت حافّة قبّعتها المائلة بشكل عصريّ. فلم ينبس ببنت شفة.

قالت: بالطبع، لقد خاطرت بالقدوم، فلعلّك كنت ستتناول العشاء مع شخص مّا.

لم يقل شيئًا، فواصلت حديثها:

ـ أو لعلّك كنت تنوي العودة إلى المنزل الليلة؟

ـ لا.

ـ هل لديك أيّ ارتباط لهذا المساء؟

ـ لا.

قالت وهي تشير إلى حقيبتها: جيّد. لقد أحضرت ملابس سهرة. هل تراهن على أن ألبس صداري الأرجوانيّ أسرع ممّا يمكن أن تقضّيه في ارتداء أيّ لباس من ملابسك؟

ثمّ اعتقد أنّ داغني ستكون حاضرة في حفل زفاف شقيقها تلك الليلة، فلم يعد له داع إلى السهر معها في ذلك المساء. فقال:

ـ سأخرج معك إذا كنت ترغبين في الأمر، ولكن ليس إلى ذلك الزفاف.

ـ أوه، ولكن هذا هو المكان الذي أريد أن أذهب إليه! إنّه الحدث الأكثر عبثًا في الموسم، والجميع يتطلّعون إليه منذ أسابيع، بما فيهم كلّ أصدقائي. لن أفوّته من أجل أيّ شيء في العالم. لا يوجد أيّ عرض أفضل منه في هذه المدينة، بل إنّه الأفضل شهرة. إنّه زواج سخيف تمامًا؟ وماذا تتوقّع من جيم تاجارت غير السخافة؟

كانت تتحرّك عَرَضًا عبر الغرفة، وهي تلقي نظرة خاطفة حولها، كما لو أنّها تبغي التعرّف على مكان غير مألوف. ثمّ قالت: لم أزر نيويورك منذ سنوات. أعني لم أزرها معك في أيّ مناسبة رسميّة.

أثناء توقّف زوجته عن الكلام وهي تُجيل نظرَها بلا هدف، لاحظ هانك أنّها توقّفت فترةً وجيزةً لرؤية منفضة سجائر مليئة، ثمّ انتقلت إلى بقيّة أرجاء الغرفة. لقد شعر بطعنة من الاشمئزاز سرعان ما لاحظتها ليليان في ملامح وجهه، فضحكت بمرح وقالت: أوه ولكن يا حبيبي، أنا لست مرتاحة! أشعر بخيبة أمل. كنت آمل أن أجد بعض أعقاب السجائر ملطّخة بأحمر الشفاه.

لقد سمح لها بفضول التجسّس عليه، حتّى لو كان ذلك تحت غطاء نكتة. ولكنّ شيئا من الصراحة الشديدة في أسلوبها جعله يتساءل عمّا إذا كانت تمزح؛ وبسرعة البرق شعر أنّها كانت تخبره بالحقيقة. لكنّه رفض ذلك الانطباع، لأنّه لم يكن يتصوّر إمكانيّة وقوعه.

قالت: أخشى أنّك لن تكون إنسانيًّا أبدًا، لذلك أنا متأكّدة من عدم وجود منافسة لي. وحتّى إن وجدت –وهو ما أشكّ فيه يا عزيزي– فأنا لا أعتقد أنّني سأقلق بشأن ذلك، لأنّه إذا كان الشخص متاحًا دائمًا عند الاستدعاء، من دون موعد، فإنّ الجميع سيعرفون أيّ نوع من الأشخاص هو...

فقال في نفسه إنّه يجب أن يكون حذرًا؛ وكان على وشك صفع وجهها، فقال: ـ ليليان، أظنّك تعلمين أنّني لا أحتمل فكاهة من هذا النوع.

ضحكت وقالت: أوه، لا تكن جدّيًّا إلى هذه الدرجة! أنا لم أنس أنّك جادّ جدًّا في كلّ الأشياء، ولاسيّما مع نفسك.

التفتت إليه فجأة، فغابت ابتسامتها. كانت لديها نظرة غريبة، تشبه نظرة المتوسّل، وقد اعتاد رؤيتها على ملامح وجهها في بعض الأحيان، نظرة تمزج بين الإخلاص والشجاعة، ثمّ قالت:

ـ أنت تفضّل أن تكون جادًّا يا هنري؟ حسنًا. كم من الوقت تتمنّى لي أن أوجد في مكان مّا بقبو حياتك؟ إلى أيّ مدًى تريديني أن أصبح وحيدة؟ لم أطلب منك شيئًا. لقد تركتك تعيش حياتك كما يحلو لك. ألا يمكنك أن تهبني ليلة واحدة؟ أعلم أنّك تكره الحفلات وسوف تشعر بالملل. لكنّها تعني لي الكثير. سمِّها ما شئت، مناسبة فارغة مثلًا، أو أيّ نوع من أنواع الغرور الاجتماعيّ. أريد أن أظهر، ولو مرّة واحدة، مع زوجي. أفترض أنّك لا تفكّر في الأمر بهذه الطريقة، لكنّك رجل مهمٌّ، فالكلّ يحسدك، ومنهم من يكرهك، ومنهم من يحترمك، ومنهم من يهابك. أنت رجل ستفخر به أيّ امرأة، لتتباهى به زوجًا لها أمام بقيّة الناس. قد تصفه بكونه شكلًا متدنّيًا من التفاخر الأنثويّ، ولكن هذا هو شكل سعادة أيّ امرأة. أنت لا تعيش بمثل هذه المعايير، لكن أنا أعيش هكذا. ألا يمكنك أن تعطيني هذا القدر من الاهتمام، ثمن بضع ساعات من الملل؟ ألا يمكنك أن تكون قويًّا بما فيه الكفاية للوفاء بالتزامك وأداء واجب الزوج؟ ألا يمكنك الذهاب إلى هناك، ليس من أجل مصلحتك، ولكن من أجل مصلحتي، لا لأنّك تريد الذهاب، ولكن فقط لأنّني أريد ذلك؟

قال في نفسه بيأس: داغني، التي لم تنبس له بكلمة واحدة عن حياته في المنزل، والتي لم تقدّم أيّ ادعاء، أو تفوّهت بأيّ توبيخ أو سؤال، لا يستطيع أن يظهر أمامها في موقع الزوج، لا يستطيع أن يدعها تراه يتباهى بها كما يفعل أيّ زوج بفخر. كان يتمنّى أن يموت في تلك اللحظة قبل أن يرتكب مثل ذلك الفعل، لأنّه يعلم أنّه سوف

يرتكبه.

ولأنّه قَبِل سرّه بوصفه ذنبًا ووعد نفسه بأن يتحمّل مسؤوليّة عواقبه، ولأنّه اعتبر أنّ الحقّ مع ليليان، فقد كان قادرًا على تحمّل أيّ شكل من أشكال اللعنة، ولم يتمكّن من إنكار ذلك الحقّ، لأنّه يعلم أنّ سبب رفضه الذهابَ هو السبب نفسه الذي لم يعطه الحقّ في الرفض، ولأنّه سمع صرخة الالتماس في ذهنه: يا الله، يا ليليان، أيّ شيء باستثناء تلك الحفلة! ولم يسمح لنفسه بالتسوّل من أجل الرحمة. فقال بإنصاف، وكان صوته حادًّا تعوزه الحياة:

ـ حسنًا يا ليليان. سأذهب معك.

***

على الأرضيّة المشقّقة لغرفة نومها، في ذلك المنزل، سقط وشاح الزفاف المصنوع من الدانتيل المزيّن بالورد. رفعته تشيريل بروكس بحذر، واتّجهت لتنظر إلى نفسها في مرآة ملتوية علّقت بالحائط. لقد تمّ تصويرها هناك طوال اليوم، والتقط لها صورًا عديدة في مرّات كثيرة خلال الشهرين الماضيين. كانت لا تزال تبتسم بامتنان لا يخلو من شكّ عندما أراد الصحفيّون التقاط صورتها، لكنّها تمنّت ألّا يكثروا من ذلك.

لقد وضعتها إحدى الأخوات الطاعنات في السنّ -وكانت تعمل صحفيّة غزيرة الكتابة بعمود متخصّص في العاطفة والحبّ، وتتمتّع بحكمة أعوان الشرطة الساخرة- تحت وصايتها قبل أسابيع، عندما أُلقيت الفتاة لأوّل مرّة في لقاءات صحفيّة تشبه مفرمة للحوم. أمّا اليوم، فكانت تلك الأخت تطارد الصحفيّين، وتقاطعهم قائلة: حسنا، حسنا، ادحريهم! ودفعت الجيران خارجًا، بينما أوصدت تشيريل الباب في وجوههم ثمّ أخذت تساعدها في ارتداء ملابسها. كانت تدفع تشيريل إلى حفل الزفاف دفعًا، إذ اكتشفت أنّه لا يوجد أيّ شخص آخر ليفعل ذلك.

لقد تكلّف وشاح الزفاف، وفستان الساتان الأبيض، والنعال الرقيق، وعقد اللؤلؤ حول رقبتها، ما يعادل ضعف سعر كامل محتويات غرفة تشيريل بخمسمائة مرّة.

واحتلّ السرير معظم مساحة الغرفة، أمّا باقي الأثاث فتلخّص في خزانة كثيرة الأدراج، وكرسيّ واحد، وفساتينها القليلة المعلّقة خلف ستارة باهتة. كانت التنّورة ذات الطوق الضخم لثوب الزفاف تحتكّ بالجدران كلّما تنقّلت العروس بجسدها النحيل المتمايل وهي ترتدي تلك التنّورة الواسعة في تناقض دراميّ مع الصدريّة الشديدة الضيق ذات الكمّين الطويلين. لقد صمّم ذلك الفستان أفضل مصمّم للأزياء في المدينة.

قالت للأخت العجوز بنبرة اعتذار: كما ترين، عندما حصلت على الوظيفة في متجر الألعاب، كان بإمكاني الانتقال إلى غرفة أفضل، لكنّني لا أعتقد أنّ مكان السكن يهمّ كثيرًا، لذلك وفّرت أموالي، لأنّني سأحتاج إليها في شيء مهمّ مستقبلًا..

توقّفت عن الكلام وابتسمت، وهزّت رأسها بذهول ثمّ أضافت:

ـ كنت متأكّدة من أنّني سأحتاج إليها يومًا مّا.

قالت الأخت: تبدين بخير. لا يمكنك رؤية الكثير في تلك المرآة المزعومة، لكنّك بخير.

ـ أنت تعلمين الطريقة المستعجلة التي حدثت بها كلّ هذه الأشياء... لم يكن لديّ الوقت لأجهّز نفسي كما ينبغي. لكن كما ترين، جيم رجل رائع. إنّه لا يمانع في الزواج بمجرّد فتاة مبيعات لمتجر ألعاب، تعيش في مثل هذا المكان. هو لن يسخر منّي يومًا بسبب هذه الأشياء.

أجابتها العجوز بوجه عبوس: آه هاه.

تذكّرت تشيريل معجزةَ أوّل مناسبة زارها فيها جيم تاجارت هناك. وقد عاد في إحدى الأمسيات، دون سابق إنذار، بعد شهرٍ من لقائهما الأوّل، عندما فقدت الأمل في رؤيته مجدّدًا. فشعرت بالإحراج على نحو بائس، وأحسّت كما لو أنّها كانت تحاول تأخير شروق الشمس في الفضاء كي لا يبزغ على بركة من الطين. لكنّ جيم ابتسم، وهو يكتفي بالجلوس على كرسيّها، ينظر إلى ملامح وجهها الخجول وفي أرجاء

غرفتها. ثمّ طلب منها أن ترتدي معطفها، وأخذها لتناول العشاء في أغلى مطعم بالمدينة. كان يبتسم بسبب عدم يقينها، وحرجها، والرعب الذي عاشته أثناء اختيار شوكة خاطئة، ونظرة السحر في عينيها. لم تكن تعرف رأيه. لكنّه كان يعلم أنّها مندهشة، لا من المكان، ولكن لأنّه دعاها إلى هذا المطعم الفاخر. كانت لا تكاد تلمس الطعام المكلف، فتناولت العشاء، لا باعتباره غنيمة مثل أغلب الأغنياء مصّاصي الدماء، ولا مثل كلّ الفتيات اللائي خرجن معه سابقا، ولكن مثل جائزة مشرقة لم تتوقّع أنّها تستحقّها.

وعاد إليها بعد أسبوعين، ثمّ ازدادت مواعدهما تدريجيًّا. كان يقود سيّارته إلى متجر الألعاب في ساعة الإغلاق، وكانت ترى زميلاتها البائعات وهنّ ينظرن إلى وجهها بأفواه فاغرة، حين تهمّ بصعود سيّارته الليموزين فيفتح لها الباب سائق يرتدي زيًّا رسميًّا. كان يأخذها إلى أفضل النوادي الليليّة، وعندما يعرّفها بأصدقائه، يقول: الآنسة بروكس تعمل في متجر الألعاب بساحة ماديسون. فترى التعبيرات الغريبة على وجوههم وجيم يراقبهم بملامح ساخرة في عينيه. اعتقدت أنّه يريد أن يجنّبها الحاجة إلى الاحتجاج أو الإحراج. بل اعتقدت أيضًا أنّه يمتلك القدرة على أن يكون صادقًا وألّا يكترث سواء أوافق الآخرون على سلوكه أم لا. لكنّها شعرت بألم غريب، حارق، جديد عليها، ليلةَ سمعت امرأةً تعمل في مجلّة سياسيّة عالية الشهرة، تقول لرفيقها الجالس بالطاولة الموالية: كم هو كريم جيم!

ولو أنّه أراد آنذاك شيئًا، لدفعت له بالشكل الوحيد الذي كان يمكن أن تقدّمه في المقابل. وقد أعربت عن امتنانها لأنّه لم يسعَ إلى ذلك. لكنّها شعرت كما لو أنّها مدينة لعلاقتهما بدَين هائلٍ وليس لديها ما تدفعه في مقابل ذلك سوى عبادتها الصامتة له. وهي التي كانت تعتقد أنّه لا يحتاج إلى عبادتها.

في بعض الأمسيات جاء لإخراجها، لكنّه بقي في غرفتها بدلًا من ذلك، وتحدّث إليها، بينما كانت تستمع في صمت. حدث ذلك دائما بشكل غير متوقّع، مع نوع من المفاجأة الغريبة، وكأنّه لم ينوِ القيام بذلك، ولكنّ شيئا انفجر بداخله وكان عليه أن

يتكلّم. ثمّ جلس على سريرها وجسده إلى الوراء، غير مدرك لمحيطه وحضورها، ومع ذلك كانت عيناه تجولان في ملامح وجهها بين حين وآخر، كما لو أنّ عليه التأكّد من أنّ كائنًا حيًّا يسمعه.

ـ لم ، لم أكن أفعل ذلك من أجلي، لم أكن أفعل ذلك من أجلي على الإطلاق، لماذا لا يصدّقني أولئك البشر؟ كان عليّ أن أستجيب لمطالب النقابات بخفض عدد القطارات، وكان تعليق العمل بالسندات هو الطريقة الوحيدة التي يمكنني القيام بها، ولهذا السبب قدّم لي ويسلي ذلك، من أجل العمّال، وليس من أجلي. كلّ الصحف قالت إنّني كنت مثالًا رائعًا يقتدي به جميع رجال الأعمال، فرجل الأعمال يتمتّع بحسّ المسؤوليّة الاجتماعيّة. هذا ما قالوه، هذا صحيح، أليس كذلك؟... أليس كذلك؟ فما الخطأ في هذا التأجيل الاختياريّ؟ ماذا لو تخطّينا بعض الجوانب الفنّيّة؟ لقد كان ذلك لهدفٍ جيّد. فالجميع يتّفقون على أنّ أيّ شيء تفعله هو جيّد، مادام ليس لنفسك... لكنّها لم تعطني الفضل لأيّ هدف جيّد. هي لا تعتقد أنّ في وسع أحدٍ غيرها أن يكون جيّدًا. أختي عاهرة مغرورة لا ترحم، فهي لن تأخذ أفكار أيّ شخص باستثناء أفكارها... لماذا يستمرّون في النظر إليّ بهذه الطريقة؛ هي وريردن وكلّ هؤلاء الناس؟ لماذا هم متأكّدون من أنّهم على حقّ؟ إذا كنت أعترف بتفوّقهم في عالمهم المادّيّ، فلماذا لا يعترفون بتفوّقي في عالمي الروحيّ؟ يملكون العقل، وأنا أملك القلب. يتمتّعون بالقدرة على إنتاج الثروة، أتمتّع أنا بالقدرة على الحبّ. أليست قدراتي أكبر؟ ألم يُعتَرف به على أنّه الملكة الأعظم خلال قرون من التاريخ البشريّ؟ لماذا لا يتعرّفون عليه؟ لماذا هم متأكّدون من كونهم رائعين وعظماء على هذا النحو وأنا لست كذلك؟ أليس هذا هو بالضبط السبب الذي ينبغي أن ينحنوا له ولي، لأنّني لست مثلهم؟ ألن يكون ذلك عملًا إنسانيًّا حقيقيًّا؟ لا يتطلّب الأمر أيّ لطف لاحترام رجل يستحقّ الاحترام. إنّه مجرّد مقابل يجب أن يحصل عليه. فإيلاء الاحترام غير المكتسب هو بادرة الخير العليا... لكنّهم غير قادرين على الإحسان. إنّهم ليسوا بشرًا. إنّهم يشعرون بعدم القلق تجاه حاجة أيّ شخص...أو تجاه ضعفه. لا قلق... ولا شفقة...

لم تستطع أن تفهم سوى القليل من كلامه، لكنّها أدركت أنّه غير سعيد وأنّ شخصًا مّا قد ألحق به الأذى. رأى ألم الحنان في تقاسيم وجهها، وألم السخط ضدّ أعدائه، ورأى نظرة شعور ببطولة مقصودة منحه إيّاها شخص قادر على تجربة العاطفة وراء تلك النظرة.

لم تعرف السبب الذي جعلها على يقين من كونها الإنسانة الوحيدة التي يمكنه الاعتراف لها بعذابه. فأخذت الأمر على أنّه شرف خاصّ أو هديّة أخرى.

واعتقدت أنّ الطريقة الوحيدة التي تجعلها جديرةً به هي ألّا تسأله عن أيّ شيء. وفي إحدى المرّات عرض عليها المال. فرفضت أَخْذَه، وقد اعترى عينيها توهّجٌ ساطع ومؤلم من الغضب علامةً على ألّا يحاول إغراءها بذلك النحو مجدّدًا. كانت غاضبة من نفسها: تساءلت عمّا إذا سبق لها فعل شيء يجعله يعتقد أنّها من تلك الطينة التي تلهث وراء المال. ولكنّها لم ترغب في أن تكون ناكرة لجميل هذا الاهتمام، أو أن تحرجه بفقرها القبيح؛ بل رغبت في أن تظهر له حرصها على الارتقاء وتبرير امتيازه؛ لذلك أخبرته بأنّه يستطيع مساعدتها، إذا رغب في ذلك، بإيجاد وظيفة أفضل. لكنّه لم يجبها. وفي الأسابيع التي تلت ذلك، انتظرت ردّه، لكنّه لم يتعرّض بتاتًا لذلك الموضوع. فألقت باللوم على نفسها: لقد ظنّت أنّها أساءت إليه، وأنّه أخذ الأمر بوصفه محاولة لاستغلاله.

ثمّ صدمها حين أهداها سوار الزمرّد. لقد صُدِمت صدمةً قويّة حتّى إنّها لم تفهم ما حدث. وفي محاولة يائسة لعدم إيذائه، ناشدته بأنّها لا تستطيع قبوله. سألها:

ـ لِمَ لا؟ ليس الأمر كما لو أنّك امرأة سيّئة أدفع لها الثمن المعتاد مقابل ما تقدّمه. هل أنت خائفة من أنّني قد أُكثر عليك في المطالب؟ ألا تثقين بي؟

ضحك بصوت عالٍ حين أحرجها التلعثم. وكان يبتسم، بنوع غريب من التمتّع، طوال المساء حين ذهبا معًا إلى نادٍ ليليّ وارتدت السوار مع ثوبها الأسود الرثّ.

ثمّ جعلها ترتدي ذلك السوار مرّة أخرى، ليلةَ اصطحبها إلى حفل استقبال رائع

قدّمته السيّدة كورنيليوس بوب. وقالت في نفسها: مادام يصطحبني إلى منزل أصدقائه ـأولئك الأصدقاء اللامعين الذين شاهدت أسماءهم على قمم جبال لا يمكن الوصول إليها، وكانت أسماؤهم أشهر من نار على علمٍ بالقسم الاجتماعيّ في أغلب الصحف- فإنّه لا يمكنني إحراجه وأنا أرتدي ذلك الثوب البالي القديم. لقد صرفت جلّ مدّخراتها لتلك السنة على ثوب سهرةٍ مصنوع من الشيفون الأخضر الزاهي بخطّ عنق منخفض، وحزام مزيّن بالورود الصفراء وحلقة تثبيت قُدّت من حجر الراين. وحين دخلت مقرّ الإقامة الصارم، مع الأضواء الباردة الرائعة وشرفة معلّقة فوق أسطح ناطحات السحاب، كانت تعرف أنّ فستانها غير ملائم لهذه المناسبة، على الرغم من أنّها لم تستطع معرفة السبب. لكنّها حافظت على هيئتها على نحو مستقيم بفخر، وابتسمت بثقة شجاعة مثل هريرة ترى يدًا تمتدّ للعب معها، وكانت تعتقد أنّ الناس حين يجتمعون لقضاء وقت طيّب لا يقدرون على إيذاء أحد.

وبعد انقضاء ساعة، أصبحت محاولتها للابتسامة نداءً عاجزًا وحائرًا. ثمّ اختفت الابتسامة كلّما شاهدت الناس من حولها. بدا لها هندام الفتيات وثقتهنّ أمرًا وقحًا وسيّئا، ولاسيّما في الطريقة المتعجرفة التي تحدّثوا بها إلى جيم، كما لو أنّهنّ لا يحترمنه أو يحملن له أدنى تقدير، وخصوصًا إحداهنّ وكانت تدعى بيتي بوب، وهي ابنة المضيّفة، التي واصلت الإدلاء بملاحظات له لم تستطع تشيريل فهمها، لأنّها لم تعتقد أنّها فهمتها على النحو الصحيح.

في البداية، لم يعرها أحدٌ أيّ اهتمام، باستثناء بعض النظرات المندهشة من ثوبها. وبعد فترة رأتهم ينظرون إليها. ثمّ سمعت امرأة مسنّة تسأل جيم، في لهجة حريصة، وهي تشير إلى أن يذكّرها باسم بعض أسر متميّزة غاب عن ذاكرتها قائلة:

ـ هل قلت آنسة بروكس من ماديسون سكوير؟

ثمّ رأت ابتسامة غريبة على وجه جيم حين أجابها:

ـ نعم، تلك التي تمسك بالحسابات في متجر رالي لمستحضرات التجميل.

ثمّ رأت بعض الناس وقد أصبحوا مهذّبين جدًّا معها، والبعض الآخر يتحرّك بعيدا بطريقة حادّة، وكان معظمهم محرجا بلا معنى في حيرة بسيطة، وجيم يراقب بصمت بتلك الابتسامة الغريبة.

حاولت تحاشي سبيلهم لتتجنّب ملاحظاتهم. فكانت تنزلق على طول حوافّ الغرفة، فسمعت أحد الرجال يقول:

ـ حسنا، جيم تاجارت هو أحد أقوى الرجال في واشنطن في الوقت الراهن.

غير أنّه لم يقل ذلك بكلّ احترام. وفي الشرفة، حيث المكان أكثر ظلمة، سمعت رجلين يتحدّثان وتساءلت لماذا تشعر بأنّهما يتحدّثان عنها. فقال أحدهما:

ـ تاجرت يستطيع أن يفعل ما يشاء، إذا كان ذلك يحلو له.

أمّا الآخر فقال شيئًا عن حصان أحد الأباطرة الرومان واسمه كاليغولا.

ثمّ نظرت إلى عمود وحيد مستقيم بمبنى تاجارت وقد ارتفع على بعد مسافة، فظنّت أنّها فهمت الأمر: هؤلاء الناس يكرهون جيم لأنّهم يحسدونه. واعتقدت أنّه مهما يكن شأنهم، ومهما تكن أسماؤهم وأموالهم، فلا أحد منهم له إنجازٌ يضاهي إنجازاته، ولا أحد منهم تحدَّى البلد بأسره لبناء سكّة حديد ظنّ الجميع أنّها أمر مستحيل. لأوّل مرّة، وجدت نفسها تملك شيئا تقدّمه لجيم: هؤلاء الناس كانوا من أهل اللؤم والصَّغَار شأنهم شأن أولئك الذين هربت منهم في مدينة بافالو. وجيم كان وحيدا مثلما كانت هي دائمًا، وصِدْقُ شعورها هو الاعتراف الوحيد الذي وجده.

ثمّ عادت إلى قاعة الاحتفال، وقطعت الحشد مباشرة. وكان الشيء الوحيد المتبقّي لها، مع بعض الدموع التي حاولت إخفاءها في ظلام الشرفة، هو البريق المضيء بضراوةٍ في عينيها. فإذا كان قد رغب في الوقوف إلى جانبها علنًا، على الرغم من أنّها مجرّد فتاة متجر، وإذا كان قد رغب في التباهي بها وأحضرها إلى هنا لمواجهة سخط أصدقائه، فهي لفتة رجل شجاع يتحدّى رأيهم، وهي على استعداد لمضاهاة شجاعته من خلال العمل كفزّاعة في تلك المناسبة.

لكنّها كانت سعيدة بانتهاء الأمر عندما جلست بجانبه في سيّارته، وهما يتوجّهان إلى المنزل عبر الظلام. لقد شعرت بنوع من الارتياح الكئيب. وانحسر شعور التحدّي المقاتل عندها في شعور غريب موحش؛ فحاولت ألّا تفسح المجال لذلك. أمّا جيم فكان قليل الكلام، وهو جالس ينظر بتجهّمٍ من خلال نافذة السيّارة، فتساءلت عمّا إذا كانت قد خيّبت أمله بطريقة مّا.

على منحدر منزلها في غرفة الإقامة، قالت له بكآبة: أنا آسفة إن كنتُ خذلتك...

لم يجبها في حينها، ثمّ سألها: ماذا ستقولين إذا طلبت منك الزواج؟

ألقت نظرة عليه وعلى ما حولها، كان هناك فراش قذر معلّق على عتبة نافذة شخص مّا، ومحلّ رهن عبر الشارع، وسطل قمامة في منحدر بجانبهما. لم يجرؤ أيّ رجل على طرح مثل ذلك الطلب في مثل ذلك المكان، ولم تكن تعرف ما يعنيه، فأجابته:

ـ أعتقد أنّني... لا أملك حسّ الدعابة. مكتبة سُر مَن قرأ

ـ هذا اقتراح جدّيّ يا عزيزتي.

ثمّ كانت هذه هي الطريقة التي وصلا بها إلى قبلتهما الأولى، والدموع تنهمر على وجهها، تلك الدموع التي حاولت إخفاءها في الحفلة، دموع الصدمة والسعادة، والتفكير بأنّ هذه هي حقيقة السعادة. وكان صوت منخفض موحش بداخلها يخبرها بأنّ تلك لم تكن الطريقة التي ترغب في أن يحدث بها ذلك الأمر.

لم تفكّر في الصحف، حتّى اليوم الذي دعاها فيه جيم إلى شقّته ووجدتها مزدحمة بالناس الذين لديهم دفاتر وكاميرات ومصابيح فلاش. وحين رأت صورتها في الصحف لأوّل مرّة -صورتها مع جيم وهو يمسك بذراعها- ضحكت من الفرح وتساءلت بفخر عمّا إذا كان كلّ شخص في المدينة قد شاهدها. وبعد فترة، تلاشت فرحتها.

ظلّوا يصوّرونها في مكتب متجر الألعاب، وفي مترو الأنفاق، وعلى منحدر غرفة إقامتها، وحتّى في غرفتها البائسة. هي تستطيع الآن أن تطلب المال من جيم وتحاول

الاختباء في أحد الفنادق المجهولة لأسابيع من خطوبتهما، لكنّه لم يقدّم لها ذلك المال. يبدو أنّه يريدها أن تبقى حيث كانت. لقد التقطوا صورا لجيم في مكتبه، وفي باحة محطّة تاجارت، وعلى درج عربة السكك الحديديّة الخاصّة به، وأثناء مأدبة رسميّة في واشنطن. وكانت الأنباء العظيمة في جلّ صفحات الجرائد، والمقالات في المجلّات، وأخبار الإذاعة، ومقالات الأخبار، تعلن كلّها الصرخة نفسها، الصرخة الواحدة الطويلة والمستمرّة حول الفتاة سندريلا ورجل الأعمال الديمقراطيّ.

وأخبرت نفسها بألّا تشعر بالريبة كلّما ساورها الإحساس بعدم الارتياح؛ وألّا تكون ناكرة للجميل كلّما شعرت بالألم. شعرت بذلك فقط في لحظات قليلة نادرة، عندما استيقظت في منتصف الليل وتمدّدت في صمت غرفتها، غير قادرة على النوم. كانت تدرك أنّ الأمر سيستغرق سنوات لكي تصدّق، وتستوعب كلّ شيء. كانت تترنّح خلال أيّامها مثل شخص أصابته ضربة شمس، لا ترى شيئًا سوى شخصيّة جيم تاجارت مثلما رأته أوّل وهلة ليلة انتصاره الكبير.

قالت لها الأخت الناحبة، عندما وقفت في غرفتها للمرّة الأخيرة، وانسياب دانتيل وشاح الزفاف يشبه الرغوة الكريستاليّة الممتدّة من شعرها إلى الألواح المنقوشة على الأرض: اسمعي يا فتاة، أنت تعتقدين أنّ المرء إذا أصيب في الحياة، فبسبب خطاياه، وهذا صحيح على المدى الطويل. ولكن هناك أشخاص سيحاولون إيذاءك من خلال فعل الخير الذي يرونه فيك، وهم يدركون أنّه جيّد، ويحتاجون إليه ولكنّهم سيعاقبونك عليه. لا تدعي مثل هذا الأمر يحطّمك عندما تكتشفينه.

قالت، وهي تنظر أمامها مباشرة، وقد امتزج إشعاع ابتسامتها بجدّية نظرتها: لا أعتقد أنّني خائفة، لا يحقّ لي أن أكون خائفة من أيّ شيء. أنا سعيدة جدًّا كما ترين، لطالما اعتقدت أنّه لا يوجد أيّ معنى في قول الناس إنّ كلّ ما يمكنك فعله في الحياة هو المعاناة. لن أخضع لذلك وأستسلم. كنت أعتقد أنّ الأمور التي يمكن أن تحدث ستكون جميلة وعظيمة جدًّا. لم أتوقّع أن يحدث ذلك لي. ليس بهذا الحجم وبهذه السرعة. ولكن سأحاول الارتقاء إلى ذاك المستوى.

***

قال جيمس تاجارت: المال هو أصل الشرّ كلّه، لا يمكن للمال أن يشتري السعادة. سيقهر الحبّ أيَّ حاجز وأيَّ مسافة اجتماعيّة. قد لا يكون ذلك أكثر من مهدّئ يا معشر الشباب، لكن هذا ما أشعر به.

ووقف تحت أضواء قاعة الاحتفالات في فندق واين - فوكلاند، وسط دائرة من الصحفيّين الذين أحاطوا به لحظة انتهاء حفل الزفاف. وسمع جلبة حشد الضيوف مثل المدّ وراء تلك الدائرة. وقفت تشيريل بجانبه، وهي تضع يدها بقفّازها الأبيض فوق كمّه الأسود. كانت لا تزال تحاول سماع كلمات الحفل، ولم تعتقد أنّها سمعتها.

ـ كيف تشعرين يا سيّدة تاجرت؟

سمعت السؤال من مكان مّا في دائرة الصحفيّين. كان الأمر أشبه بهزّة العودة إلى الوعي: كلمتان جعلتا فجأةً كلّ شيء حقيقيًّا. ابتسمت وهمست مختنقة:

ـ أنا... أنا سعيدة جدًّا...

على الجهة الأخرى من قاعة الاحتفالات، كان أورين بويل، الذي بدا شجاعًا جدًّا بملابسه الكاملة، وبيرترام سكودر، الذي بدا هزيلا جدًّا، يراقبان حشد الضيوف وهما يحملان الفكرة نفسها، على الرغم من أنّ أيًّا منهما لم يتجرّأ على التصريح بها. وقال أورين بويل في نفسه إنّه يبحث عن وجوه الأصدقاء، أمّا بيرترام سكودر فأخبر نفسه بأنّه بصدد جمع الموادّ لكتابة مقال. لكنّ الاثنين، وهما غير معروفين أحدهما عند الآخر، كانا يرسمان مخطّطًا ذهنيًّا للوجوه التي شاهداها، ويصنّفانها تحت عنوانين، لو سُمّيا، لكانا: الإحسان والخوف. فمن بين الحاضرين يوجد رجال مثّل وجودهم حماية خاصّة تمتدّ إلى جيمس تاجارت، وآخرون مثّل وجودهم علامةً على رغبة في تجنّب عدائه، أولئك الذين يمثّلون يدًا تنزل لانتشاله، وأولئك الذين مثّلوا ظهرًا يسمح له بالتسلّق عليه. ووفقًا لرمز لم يُكتب في ذلك اليوم، لم يتلقّ أيّ شخص الدعوة أو قبلها من رجل بمكانة بارزة للعامّة مثل جيم إلّا بناءً على رمز واحد أو آخر من تلك الدوافع. وكان

من بينهم من هو في المجموعة الأولى ومعظمهم من الشباب؛ لقد جاؤوا من واشنطن. أمّا من هم في المجموعة الثانية فكانوا أكبر سنّا؛ وهُم من رجال الأعمال.

كان أورين بويل وبيرترام سكودر رجلين يستخدمان الكلمات بوصفها أداة عامّة، لتجنّب ما في عقل المرء من خصوصيّة. فالكلمات هي التزام يحمل آثارا لا يرغبان في مواجهتها. لم يكونا بحاجة إلى كلمات في جداولهما؛ فالتصنيف بالنسبة إليهما يتمّ عن طريق الوسائل المادّيّة: فحركة محترمة من حاجبَي كلٍّ منهما، كانت تعادل عاطفة كلمات من قبيل ممتاز جدًّا! للمجموعة الأولى، وحركة ساخرة من شفتي كلٍّ منهما، كانت تعادل عاطفة كلمات من قبيل حسنا، حسنا! للمجموعة الثانية. لكنّ أحد الوجوه دمّر عملهما السلس وكلّ آليّات حسابهما في لحظة: عندما رَأَيا زرقة عينَي هانك ريردن الباردة وشعره الأشقر ، فتمزّقت عضلاتهما في سجلّ المجموعة الثانية في ما يعادل أوه، ذلك الشابّ! فعادل مجموع جدولهما ما يقدّر بقوّة جيمس تاجارت نفسها. بل زاد عليه بما يصل إلى مجموع مثير للإعجاب.

كانا يعرفان أنّ جيمس تاجارت على علم تامٍّ بذلك، عندما رَأَياه يتحرّك بين ضيوفه. مشى بسرعة، على نمط شفرة مورس، فواصل وتوقّفات قصيرة، بطريقة تهيُّج خافت، كما لو أنّه يدرك عددَ الناس الذين قد يستاؤون من عدم ارتياحه. وعلى تقاسيم وجهه بدا تلميح ابتسامته بنكهة الشماتة، وكأنّما علم أنّ فعل المجيء لتكريمه هو فعل يلحق العار بالرجال الذين جاؤوا؛ كان يعرف ذلك ويستمتع به.

ظلّت خيالات حاشيته تتبعه وتتنقّل خلفه، كما لو أنّ وظيفتها منحه متعة تجاهلها. تردّد السيّد موين لفترة وجيزة بين الالتحاق بأذيال تلك الحاشية أحيانًا، والدكتور بريتشيت وبالف يوبانك أحيانا أخرى. وكان أكثرهم إصرارا بول لاركين. ظلّ يصف الدوائر حول تاجارت، كما لو أنّه يحاول الحصول على لفحة شمس بواسطة شعاع عرضيّ، ويتوسّل بابتسامته الحزينة كي يلاحظ وجوده.

كانت عينا تاجارت تجتاحان الحشد من حين إلى آخر، بسرعة وتخفٍّ، كأنّه مصباح يدويّ بيدٍ متصيّد؛ ووفق ما قرأه أورين بويل في تقلّص عضلاته، فهذا يعني أنّ

تاجارت كان يبحث عن شخص مّا ولا يريد لأحدٍ أن يعرف ذلك. انتهى البحث عندما جاء يوجين لوسون لمصافحة يد تاجارت وهو يقول، بشفته السفلى ذات الالتواء الرطب، مثل وسادة لتخفيف الضربة:

ـ لم يستطع السيّد ماوتش تلبية الدعوة يا جيم، وهو آسف جدًّا، لقد استأجر طائرة خاصّة للمجيء، ولكن في اللحظة الأخيرة ظهرت بعض الأمور العاجلة، أنت على علم بالمشاكل الوطنيّة المصيريّة.

بقي تاجارت واقفًا بثبات، لكنّه لم يجبه وظلّ عابسًا. وانفجر أورين بويل ضاحكًا، فالتفت تاجارت إليه بحدّة إلى درجة أنّ الآخرين اختفوا من دون انتظار الأمر بالانصراف.

قاطعه تاجارت قائلا: وما الذي تعتقد أنّك بصدد فعله؟

قال بويل: أستمتع بوقت طيّب يا جيمي، فقط أستمتع بوقت طيّب.

ـ ويسلي هو أحد صبيانك، أليس كذلك؟

ـ أعرف شخصًا مّا هو أحد صبياني وكان من الأفضل عليه ألّا ينسى ذلك.

ـ من؟ لاركين؟ لا، لا أعتقد أنّك تتحدّث عن لاركين، وإذا لم يكن لاركين هو الذي تتحدّث عنه، فلماذا إذَن أعتقد أنّ عليك أن تكون حذرًا في استخدام ضمير الملكيّة. لا أمانع بشأن التصنيف العمريّ، أعلم أنّني أبدو شابًّا بالقياس إلى سنّي، لكنّني أشعر فقط بالحساسيّة تجاه الضمائر.

ـ هذا ذكاء مفرط منك، لكنّك ستصبح أكثر ذكاءً في هذه الأيّام.

ـ إن أصبحت على هذا النحو، فعليك فقط المضيّ قدمًا والاستفادة القصوى من ذلك، يا جيمي. لكن فقط لو كنت كذلك.

ـ المشكلة مع الناس الذين يتجاوزون أنفسهم هو أنّهم يتمتّعون بذاكرة قصيرة. كنت أفضّل أن تتذكّر من أطلق العنان للحصول على معدن ريردن في السوق.

ـ لماذا عليّ تذكُّر مَن وعد بذلك؟ وكان هو الطرف الذي سحب كلّ سلسلة وضع يديه عليها في محاولةٍ لمنع استصدار ذلك التوجيه الخاصّ، لأنّه يعتقد أنّ السكك الحديديّة قد تحتاج إلى معدن ريردن في المستقبل.

ـ لأنّك أنفقت عشرة آلاف دولار وأنت تسكب الخمور في كؤوس الناس الذين كنت تأمل في أن يمنعوا التوجيه حول وقف العمل بالسندات!

ـ هذا صحيح. لقد فعلتُ ذلك وكان لي أصدقاء يملكون سندات سكك الحديد، بالإضافة إلى أنّ لي أصدقاء في واشنطن أيضًا يا جيمي. حسنًا، لقد تغلّب أصدقاؤك على أصدقائي بخصوص ذلك الأمر، ولكنّ أصدقائي هزموا أصدقاءك ففازوا بمعدن ريردن، وأنا لا أنسى ذلك. ولكن بحقّ الجحيم! كلّ شيء يسير على ما يرام معي، هذه هي الطريقة المثلى لتبادل الأشياء، لا تحاول فقط خداعي يا جيمي. اذخر ذلك الفعل للمصّاصين.

ـ إذا كنت لا تعتقد أنّني حاولت دائما بذلَ قصارى جهدي من أجلك...

ـ بالتأكيد، لقد فعلت ذلك. لقد بذلت أفضل ما يمكن توقّعه، وأخذت كلّ الأمور بعين الاعتبار. وستستمرّ في فعل ذلك أيضًا، مادام لديّ شخص مّا تحتاج إليه.. ولكن لن يدوم ذلك لمدّة أطول. لهذا أردت أن أذكّرك بأنّ لديّ أصدقائي في واشنطن. أصدقاء لا يمكن شراؤهم بالمال مثل أصدقائك يا جيمي.

ـ وماذا تقصد بقولك هذا؟

ـ فقط ما كنتَ تفكّر به. فالأصدقاء الذين تقدر على شرائهم لا يستحقّون إلّا اللعنة، لأنّه يوجد دومًا شخص يمكن أن يقدّم لهم المزيد من المال، لذلك فإنّ المجال يبقى مفتوحًا على مصراعيه لأيّ شخص يدفع أكثر، وهو تمامًا مثل المنافسة القديمة مرّة أخرى. ولكن إذا تحصّلت على البضاعة بفضل رجل منهم، فاعلم أنّك قد حصلت عليه، ولن يزايد عليه أحدٌ. وعليه يمكنك الاعتماد على صداقته. حسنًا، نحن نملك معًا أصدقاء. لديك أصدقاء يمكنني استخدامهم والعكس صحيح. وهذا يلائمني..

لمَ لا! على المرء أن يتاجر بشيء مّا. إذا لم نقايض المال – وعصر المال قد مضى – فإنّنا نقايض الرجال.

ـ ما الذي ترمي إليه؟

ـ وفيمَ السؤال؟ أنا فقط بصدد إخبارك ببعض الأشياء التي يجب أن تتذكّرها. الآن خذ ويسلي، على سبيل المثال، أنت وعدته بوظيفة مساعد في مكتب التخطيط الوطنيّ لنخدع ريردن زمن مشروع قانون تكافؤ الفرص. كانت تجري اتّصالات في هذا الصدد، وهذا ما طلبت منك القيام به مقابل (قاعدة مكافحة أكل الكلب للكلب)، إذ كانت لي اتّصالات ساعتها. لذا قام ويسلي بدوره، وقد لاحظت ذلك بأمّ عينيك كيف حصلت على كلّ شيء على الورق. أوه بالتأكيد، وأنا أعلم أنّك تحصّلت على دليل مكتوب من هذا النوع من الصفقات التي سحبها للمساعدة في تمرير مشروع هذا القانون، بينما كان يأخذ المال من ريردن لإفشال ذلك، وفي الآن نفسه يبقيه في غفلة من أمره. لقد كانت صفقات قبيحة جدًّا. سيكون الأمر فوضويًّا جدًّا بالنسبة إلى السيّد ماوتش إذا خرج كلّ شيء إلى العلن. لذلك فقد أوفيت بوعدك وجعلته يحصل على الوظيفة، لأنّك كنت تظنّ أنّ بوسعك امتلاكه. وقد دفع الثمن بشكل رائع، أليس كذلك؟ لكنّ الأمر لن يدوم طويلا. بعد فترة، سيصبح السيّد ويسلي ماوتش قويًّا جدًّا وتصبح الفضيحة قديمة جدًّا، ولا أحد سيهتمّ كيف حصل على وظيفته في بداية مشواره المهنيّ أو من الذي خدعه. لا شيء يدوم إلى الأبد. ويسلي كان الذراع اليمنى لريردن، وبعدها أصبح ذراعك، وقد يصبح غدًا ذراعا لشخص آخر.

ـ هل تلمّح إلى شيء مّا؟

ـ لمَ لا تعتبره مجرّد تحذير ودّيّ. نحن أصدقاء قدامى يا جيمي، وأعتقد أنّ هذا ما يجب أن نحافظ عليه. أعتقد أنّ أحدنا يمكن أن يفيد الآخر جدًّا، طبعًا إذا لم تبدأ بعض الأفكار الخاطئة عن الصداقة في التسرّب إلى ذهنك. أنا أؤمن بتوازن القوى.

ـ هل منعت ماوتش من المجيء إلى هنا الليلة؟

ـ حسنًا، لعلّي فعلت ذلك ولعلّي لم أفعل. سأدعك تقلق بشأنه. هذا أمر جيّد بالنسبة إليّ، إن أنا فعلته، والأفضل منه إن أنا لم أفعل.

تبعت عينا تشيريل جيمس تاجارت من خلال الحشد. وبدت الوجوه التي ظلّت تتنقّل وتتجمّع حولها وديّةً جدًّا، وكانت أصواتهم حريصة على الدفء حتّى إنّها لم تشكّ في أنّه لا يوجد أيّ خبث في أيّ ركن من أركان قاعة الحفل. وتساءلت لماذا تحدّث معها بعضهم عن واشنطن، بطريقة مفعمة بالأمل والسرّيّة بأنصاف جُمَل، وأنصاف تلميحات، كما لو أنّهم يسعون إلى الحصول على مساعدتها في شيء سرّيّ كان من المفترض أن تفهمه. لم تكن تعرف ما تقول، لكنّها ابتسمت وأجابت على كلّ ما يحلو لها. لم تكن قادرة على إلحاق العار بشخص السيّدة تاجارت من خلال أيّ لمحة من الخوف.

ثمّ رأت العدوّ. لقد كانت شخصيّة طويلة القامة ونحيلة في ثوب سهرة رماديّ، إنّها شقيقة زوجها.

كان ضغط الغضب في ذهن تشيريل هو عبارة عن تراكم مخزّن لأصوات عذابات جيم. لقد أحسّت بمشاعر الانزعاج تسحبها إلى واجب لم تقم به بعد. فظلّت عيناها تعودان إلى عدوّتها وتدرسانها عن قصد. وقد أظهرت صور داغني تاجارت في الصحف شخصيّة ترتدي البنطلون، أو وجهًا بقبّعة مائلة وطوق معطف مرفوع. الآن ارتدت ثوب سهرة رماديًّا بدا غير لائق، لأنّه بدا متواضعًا بشكل متقشّف، بل متواضعا جدًّا إلى درجة أنّه يختفي بسرعة من ذهن المرء فيتركه في حالة إدراك الجسد النحيل الذي تظاهر بتغطيته. في القماش الرماديّ المتناسق مع لون عينيها، وهو يشبه لون معادن البنادق الرماديّ، كان هناك طيف أزرق. لم تكن ترتدي مجوهرات، فقط سوار على معصمها، في شكل سلسلة مصنوعة من الروابط المعدنيّة الثقيلة بجبيرة زرقاء خضراء.

انتظرت تشيريل حتّى رأت داغني تقف وحدها، ثمّ مشت إلى الأمام وهي تتحرّك بحزم عبر الغرفة. ثمّ نظرت من مسافة قريبة إلى عينَي داغني اللتين تشبهان في لونهما

لونَ معدن البندقيّة. فبدت تينك العينان، اللتان نظرتا إليها مباشرة بفضول مهذّب وغير شخصيّ، باردتين وحادّتين في آنٍ واحد.

قالت تشيريل، بصوت غليظ وقاسٍ: ثمّة شيء أريد منك أن تعرفيه حتّى لا يكون هناك أيّ تظاهر حول هذا الموضوع. لن أعوّل على صلة القرابة اللطيفة التي تجمعنا. أعرف ما فعلته بجيم وكيف جعلته بائسًا طوال حياته. سأحميه منك. سأضعك في مكانك المناسب. أنا السيّدة تاجارت، أنا المرأة في هذه العائلة الآن.

ردّت داغني: لك الحقّ في ذلك. أما عنّي، فأنا الرجل في هذه العائلة.

ثمّ راقبت تشيريل أخت زوجها وهي تبتعد، فاعتقدت أنّ جيم كان على حقّ: أخته تلك كانت مخلوقة من شرّ بارد لم يمنحها أيّ ردّ، أو اعتراف، أو عاطفة من أيّ نوع، سوى لمسة من شيء يشبه التسلية المدهشة غير المبالية.

وقف ريردن إلى جانب ليليان وتبعها عندما تحرّكت. لقد رغبت في أن يراها الحاضرون وهي مع زوجها؛ الذي بدا ممتثلا لرغبتها. لم يعلم ما إذا كان قد رآه أيّ شخص؛ ولكنّه يعلم أن لا أحد يحوم حولها، باستثناء الشخص الذي لا يمكن أن يسمح لنفسه برؤيته.

كانت الصورة التي لا تزال راسخة بذهنه هي لحظة دخوله تلك الغرفةَ مع ليليان حين رأى داغني وهي تنظر إليهما. نظر إليها مباشرة، وهو مستعدّ لقبول أيّ صفعة تختارها عيناها له. ومهما تكن العواقب التي ستؤثّر على ليليان، كان سيعترف بزناه علنًا، بدلًا من ارتكاب ذلك الفعل الذي لا يوصف وهو التهرّب من عيني داغني، وإغلاق المنافذ أمام وجهه في فراغ جبان، والتظاهر لها بأنّه لا يعرف طبيعة فعله.

ولكنّه لم يتلقَّ أيّ صفعة. كان يعلم كلّ وميض من الإحساس المنعكس في وجه داغني؛ ويدرك أنّها لم تشعر بأيّ صدمة، لكنّه لم يرَ شيئا فيها سوى الصفاء الأصيل. انتقلت عيناها إلى عينيه، كأنّها تعترف بالمعنى الكامل لذلك اللقاء، ولكنّها كانت تنظر إليه كأنّها تنظر إلى أيّ مكان، مثلما نظرت إليه في مكتبه أو في غرفة نومها. كان يبدو له

أنّها وقفت أمامهما معًا، على مسافة بضع خطوات، وكشفت لهما ببساطة وصراحة مثلما كشف اللباس الرماديّ جسدها.

ثمّ انحنت داغني لهما في حركة مهذّبة من رأسها، فبادلاها السلوك نفسه. ردّ ريردن التحيّة، ثمّ رأى إيماءة وجيزة من ليليان، وبعد ذلك رأى ليليان تتحرّك بعيدًا فأدرك أنّه يقف ورأسه منحنٍ للحظة طويلة.

لم يعرف ما كان يقول لأصدقاء ليليان أو ما كان يجيبهم به، تماما مثلما يسير رجل خطوة تلو أخرى محاولًا عدم التفكير في طول طريق ميؤوس منه، لذلك ذهب لحظة بلحظة، وتخلّص من أيّ بصمة أو أيّ شيء في ذهنه. ثمّ سمع بعض النتف من ضحكات ليليان المسرورة، بنبرة ارتياح في صوتها.

وبعد برهة من الزمن، لاحظ وجود نساء كثيرات من حوله؛ ويبدو أنّهنّ جميعا يشبهن ليليان، بنظرة الاستمالة الثابتة نفسها، والحواجب الرقيقة المنمُوصة وهي ترتفع بثبات، والعيون المجمّدة في تسلية ثابتة. لاحظ أنهنّ كنّ يحاولن مغازلته، وأنّ ليليان شاهدت الأمر كما لو أنّها تستمتع باليأس من محاولاتهنّ. كان يعتقد أنّ هذا الأمر يشعرها بسعادة الغرور الأنثويّ الذي توسّلت إليه أن يهبها إيّاه. وتلك معايير لم يكن يعيش بها، ولكن كان عليه أن يضعها في اعتباره. ثمّ التفت للهروب إلى مجموعة من الرجال.

لكنّه لم يستطع العثور على بيان واحد مباشر في محادثات الرجال؛ وعلى اختلاف المواضيع التي تحدّثوا فيها لم يبدُ أنّ أنّهم ناقشوا أيًّا منها في صلة بالواقع. فكان يستمع مثل أجنبيّ يتعرّف على بعض الكلمات، لكنّه لم يستطع ربطها في جمل. ثمّ مرّ شابّ، بمظهر عربيد وقحٍ، وهو يترنّح أثناء مروره أمام المجموعة فقاطع حديثهم بضحكة مكتومة وقال:

ـ لقد تعلّمت الدرس الخاصّ بك يا ريردن؟

لم يفهم ما قصده ذلك الجرذ؛ ولكن بدا أنّ الجميع يدركون ما كان يعنيه؛ فأظهروا

ملامح الصدمة وكتموا سعادتهم.

ذهبت ليليان بعيدًا عنه، كما لو أنّها تسمح له بأن يفهم أنّها لا تصرّ على حضوره بمعنى الكلمة الحرفيّ. فانسحب إلى زاوية القاعة حيث لا أحد يراه أو يلاحظ اتّجاه عينيه. ثمّ سمح لنفسه بالنظر إلى داغني.

شاهد الفستان الرماديّ، وتغيّر حركة الأقمشة الناعمة عندما تسير، والتوقّفات اللحظيّة المنحوتة من القماش، والظلال والضوء. فرآها مثل دخان رماديّ تشوبه زرقة تتشكّل في لحظة مّا على شكل منحنى طويل مائل إلى الأمام نحو ركبتها ثمّ يعود باتّجاه قمّة نعالها. كان يعلم أنّ كلّ جهة للضوء ستتشكّل إذا تمّ تبديد ذلك الدخان.

شعر بألم غامض وملتوٍ. إنّه الغيرة من كلّ رجل تحدّث إليها. لم يشعر بذلك من قبل، ولكنّه شعر به هناك، حيث كان لكلّ شخص الحقّ في الاقتراب منها إلّا هو.

ثمّ، كما لو أنّ صفعة مفاجئة لدماغه فجّرت لحظة تحوّلت فيها وجهته، شعر بدهشة هائلة من كلّ ما كان يفعله هناك والسبب الذي دفعه إلى فعله. لقد خسر في تلك اللحظة كلّ أيّامه وعقائد ماضيه، ومفاهيمه، ومشاكله، واختفى ألمه. كان يعلم فقط – على بعد مسافة كبيرة وواضحة – أنّ الإنسان موجود لتحقيق رغباته. وتساءل لماذا يقف هناك، ومن له الحقّ في مطالبته بإهدار ساعة واحدة لا تعوَّض من حياته، والحال أنّ رغبته الوحيدة هي الاستيلاء على ذلك الجسد النحيل المغطّى باللون الرماديّ والاحتفاظ به طوال بقائه في الوجود.

في اللحظة التالية، شعر برعشة استعادة عقله. فأحسّ بحركة منحسرة وازدراء من شفتيه المضغوطتين معًا على سبيل التعبير بكلمات رثى بها نفسه: لقد أبرمت عقدًا في الماضي، وعليك أن تلتزم به. ثمّ اعتقد فجأةً أنّ المحاكم لا تعترف في إطار المعاملات التجاريّة بعقدٍ لم يعط فيه طرف إلى الطرف الآخر أيّ اعتبار قيم. وتساءل ما الذي جعله يفكّر في ذلك. بدت الفكرة غير ذات صلة، فلم يواصل التفكير فيها.

رأى جيمس تاجرت ليليان ريردن وهي تندفع نحوه عرضًا، حدث ذلك خلال

لحظة كان فيها بالصدفة وحده عند الزاوية الخافتة بين أصيص نخلة والنافذة. توقّف وانتظر ليسمح لها بالاقتراب. لم يستطع تخمين هدفها، ولكن تلك كانت الطريقة التي جرى بها العرف السائد حينها، ممّا يعني أنّ من الأفضل عليه سماعها.

سألته وهي تضحك من ملامح الحرج: هل أعجبتك هديّتي يا جيم؟ لا تحاول الذهاب إلى قائمة الأشياء المهداة في شقّتك لكي تبحث عنها. هي ليست في شقّتك، إنّها هنا، وهي هديّة غير مادّيّة يا عزيزي.

رأى نصف ابتسامة على وجهها، ونظرةً مفهومة بين أصدقائه على أنّها دعوة لتقاسم نصر سرّيّ؛ كانت نظرة لا تنمّ عن وجود تجاوز للتفكير، ولكن عن التفوّق على شخص مّا. فأجابها بحذرٍ، بابتسامة ممتعة تنمّ عن الأمان: وجودك هنا هو أفضل هديّة يمكن لك أن تهبيني إيّاها.

ـ أحقًّا تعني وجودي يا جيم؟

للحظة، ظلّت خطوط وجهه مربوطة بصدمةٍ. كان يعرف ما تعنيه، لكنّه لم يتوقّع منها أن تعني ذلك.

قالت بعد أن ابتسمت: كلانا يعرف أنّ وجوده في هذه الليلة هو الأكثر قيمة عندك، وأنّك لم تتوقّع حضوره. ألم تفكّر حقًّا في إعطائي الفضل في ذلك؟ أنا متفاجئة منك. اعتقدت أنّ لديك عبقريّةً في التعرّف إلى الأصدقاء المحتملين.

لم يشأ إلزام نفسه بأيّ شيء؛ لكنّه أبقى صوته محايدًا بعناية فقال:

ـ هل فشلت في تقدير صداقتك يا ليليان؟

ـ الآن فقط يا عزيزي، أدركت ما كنت أحدّثك عنه. لم تتوقّع منه أن يأتي إلى هنا، لم تعتقد حقًّا أنّه يخاف منك، أليس كذلك؟ ولكن أن يعتقد الآخرون أنّه يهابك، فتلك ميزة لا تقدّر بثمن تمامًا، أليس كذلك؟

ـ أنا... فوجئت بذلك يا ليليان.

ـ ألا ينبغي عليك القول إنّك منبهر بذلك؟ فجميع ضيوفك منبهرون جدًّا. أستطيع

أن أسمعهم فعلًا وهم يفكّرون في جميع أنحاء الغرفة ومعظمهم غارق في التفكير: (إذا كان عليه أن يسعى إلى الحصول على شروط مع جيم تاجارت، فمن الأفضل عليه أن يمتثل بصرامة لتلك الشروط). بينما يفكّر عدد قليل منهم: (إذا كان خائفًا، فسنتخلّص من أشياء كثيرة) وهذا هو ما تريده، بالطبع، وأنا لن أفكّر في إفساد انتصارك، ولكن أنا وأنت الوحيدان اللذان يعرفان أنّك لم تحقّق ذلك بيد واحدة.

لم يبتسم جيم لكنّه سألها، بوجه خالٍ من أيّ تعبير وبصوتٍ سلس، ولكن بتلميح قسوة موزون بعناية:

ـ ما رأيك؟

قالت وهي تضحك: هو في الأصل رأيك تمامًا يا جيم. ولكن لنتحدّث عمليًّا، لا موقف لي على الإطلاق. إنّه مجرد معروف قمت به من أجلك، وأنا لست بحاجة لأيّ مقابل. لا تقلق، فأنا لا أضغط من أجل أيّ مصالح خاصّة، ولا أسعى إلى الضغط على توجيه معيّن للسيد ماوتش، ولا أبحث حتّى عن تاج من الألماس منك. إلّا إذا كان بالطبع، تاجًا من شيء غير مادِّيّ مثل تقديرك.

نظر إليها مباشرة للمرّة الأولى، وقد ضاقت عيناه، واسترخى وجهه فأصدر نصف ابتسامة، ممّا يوحي بتعبير يعني، لكليهما، أنّهما شعرا بالألفة بينهما وأنّهما ينتميان إلى المنزل نفسه معًا. كان تعبيرًا عن الازدراء:

ـ أنت تعرفين، يا ليليان، أنّي لطالما كنت معجبًا بك كواحدة من النساء المتفوّقات حقًّا.

ـ على علم بذلك.

كان يدرس ملامحها بوقاحةٍ، فقال بنبرة لا توحي بالاعتذار:

ـ يجب أن تسامحيني إذا اعتقدت أنّ بعض الفضول مسموح به بين الأصدقاء. أنا فقط أتساءل وفق أيّ زاوية نظر كنت تفكّرين وهل فكّرت في أنّ ثمة أعباء ماليّة أو خسائر قد تؤثّر على مصالحك الشخصيّة؟

قالت متجاهلة سؤاله: أفكّر وفق زاوية نظر الفارس يا عزيزي. فلو أنّ لك أقوى حصان في العالم، لكنت كبحت جماحه وفق النسق المطلوب ليحملك على أكفّ الراحة، رغم أنّ ذلك يعني التضحية بكامل طاقته، ويعني أيضًا أنّه لن يُنظَر إلى سرعته القصوى وأنّ قوّته العظمى ستضيع. كنت ستفعل ذلك، لأنّك إذا تركت الحصان ينطلق مثل السهم، فإنّه سيكون قادرًا على إلقائك في أيّ وقت من الأوقات... لكنّ الجوانب الماليّة ليست همّي الرئيسيّ، وليست همّك أيضًا يا جيم.

قال برويّة: لقد قلّلت من شأنك فعلًا.

ـ أوه، حسنًا، هذا خطأ، أنا على استعداد لمساعدتك في تصحيحه. وأعرف نوع المشاكل التي يشكّلها لك. وأدرك أيضًا السبب الذي يجعلك تهابه، وهو سبب وجيه لتكون كذلك. لكن... حسنًا، أنت في مجال الأعمال والسياسة، لذلك سأحاول التعبير عن فكرتي بلغتك. فرجل الأعمال يقول إنّه يستطيع تسليم البضائع، والناشط السياسيّ يقول إنّه يستطيع الحصول على أصوات الناخبين، أليس ذلك صحيحًا؟ حسنًا، ما أردتك أن تعرفه هو أنّ بإمكاني تسليمك إيّاه في أيّ وقت أختاره. ويمكنك التصرّف وفقا لذلك.

وفق عُرف أصدقائه، كان الكشف عن أيّ جزء من نفسه يعني إعطاء سلاح لعدوّه، لكنّه وقّع اعترافها وطابقها عندما قال:

ـ أتمنّى لو أنّ لي ذكاء أختي.

نظرت إليه غير مندهشة؛ إذ لم تجد أنّ كلماته لم تكن غير ذات صلة وقالت:

ـ نعم، هي امرأة صعبة. بلا نقطة ضعف؟ لا نقاط ضعف على الإطلاق؟

ـ لا شيء.

ـ لا علاقات غراميّة؟

ـ يا إلهي، طبعًا لا!

تجاهلت ردّه، في إشارة إلى تغيير ذلك الموضوع، لم تكن داغني تاجارت شخصًا تهتمّ

بالحديث المسهب عنه فقالت:

ـ أعتقد أنّ عليّ السماح لك بجولة على ضيوفك، حتّى يمكنك الدردشة قليلا مع بيف يوبانك. يبدو أنّه قلق لأنّك لم تنظر إليه طوال المساء، وهو يتساءل عمّا إذا كان الأدب سيترك بلا صديق في هذا البهو.

ردّ بشكل عفويّ تمامًا: ليليان، أنت إنسانة رائعة!

قالت بعد أن ضحكت: ذلك هو التاج غير المادّيّ الذي أردته يا عزيزي!

استمرّت بقايا الابتسامة على وجهها وهي تتحرّك وسط الحشد، ابتسامة سائلة تنساب بهدوء على مظهر التوتّر والملل الذي ينتاب كلّ الوجوه من حولها. انتقلت على غير منهج، وهي تتمتّع بشعور أن ينظر إليها الحاضرون، بثوبها الساتان الأبيض مثل قشر البيض المتلألئ أو مثل القشدة الثقيلة بحركة من قامتها الطويلة.

ثمّ شدّت انتباهها شرارةٌ خضراء تشوبها زرقة، وهي تومض للحظة تحت الأضواء، على معصم ذراع رقيقة عارية. ثمّ رأت الجسد النحيل، واللباس الرماديّ، والكتفين الهشّتين العاريتين. فتوقّفت لتنظر في عبوس إلى السوار.

غيّرت داغني وجهتها. ومن بين الأشياء التي استاءت منها ليليان، كان التهذيب غير الشخصيّ لوجه داغني هو أكثر شيء استاءت منه.

سألتها عرضًا وهي تبتسم: ما رأيك في زواج أخيك يا آنسة تاجارت؟

ـ ليس لديّ أيّ رأي بخصوص هذا الموضوع.

ـ هل تقصدين أنّه لا يستحقّ أيّ فكرة منك؟

ـ إذا كنت ترغبين في أن تكوني دقيقة: نعم، هذا ما أعنيه.

ـ أوه، ولكن ألا ترين فيه أيّ دلالة إنسانيّة؟

ـ لا.

ـ ألا تعتقدين أنّ شخصًا مثل عروس أخيك تستحقّ بعض الاهتمام؟

ـ لماذا تسألين؟ أنا لا أكترث لهذا الأمر.

ـ أنا أحسدك يا آنسة تاجارت. أحسدك على عزلتك الأولمبيّة. أعتقد أنّ هذا هو سرّ السبب الذي يجعل البشر الفانين والأقلّ شأنًا منك لا يمكنهم أبدًا أن يأملوا في معادلة نجاحك في مجال الأعمال. إنّهم يسمحون بأن يتشتَّت انتباههم، على الأقلّ إلى حدّ الاعتراف بالإنجازات في مجالات أخرى.

ـ وما هي الإنجازات التي نتحدّث عنها؟

ـ ألا تمنحين أيّ اعتراف على الإطلاق للنساء اللواتي يصلن إلى قمم غير عاديّة من الغزو، لا في المجال الصناعيّ، ولكن في المجال الإنسانيّ؟

ـ لا أعتقد أنّ كلمة مثل (الغزو) تليق بعالم الإنسان.

ـ أوه، ولكن خذي بعين الاعتبار، كيف كان من الصعب على النساء الأخريات أن يعملن إذا كان العمل هو الوسيلة الوحيدة المتاحة لهنّ لتحقيق ما حقّقته تلك الفتاة من خلال شخص أخيك.

ـ لا أعتقد أنّها تدرك بالضبط طبيعة ما حقّقته.

ثمّ رآهما ريردن معًا فاقترب منهما. لقد شعر بأنّه يجب سماع حديثهما مهما تكُن العواقب، فتوقّف في صمتٍ بجانبهما. لم يعرف ما إذا كانت ليليان على بيّنة من وجوده، ولكنّه يعرف أنّ داغني كانت كذلك.

قالت ليليان: يجب عليك أن تبدي قليلا من الكرم تجاهها يا آنسة تاجارت، على الأقلّ سخاء الاهتمام. يجب ألّا تحتقري النساء اللواتي لا يمتلكن موهبتك الرائعة لكنّهنّ يمارسن مواهبهنّ الخاصّة. فالطبيعة توازن دائمًا بين هداياها وتقدّم تعويضات، أليس كذلك؟

ـ لست متأكّدة من أنّني أفهمك.

ـ أوه، أنا متأكّدة من أنّك لا تريدين سماعي لأصبح أكثر وضوحًا!

ـ لماذا تقولين هذا فأنا كلّي آذان صاغية.

تجاهلتها ليليان بغضبٍ؛ ولو أنّها من بين النساء اللّائي كنّ صديقاتها لكانت قد فُهمت ولتوقّفت عن الكلام منذ فترة طويلة، ولكنّ داغني مثّلت خصمًا جديدًا. إنّها امرأة ترفض الأذى. لم تكن تهتمّ بأن تتكلّم بشكل أكثر وضوحًا، لكنّها رأت ريردن وهو ينظر إليها. فابتسمت وقالت:

ـ حسنًا، تأمّلي زوجة أخيك يا آنسة تاجارت. أيّ فرص تمتلكها لتنهض في هذا العالم؟ لا فرص على الإطلاق وفقًا لمعاييرك الصارمة. لم يكن بإمكانها أن تنجح في العمل. إنّها لا تمتلك مثل عقلك الفريد. بالإضافة إلى أنّ الرجال سيصعّبون عليها الأمر. ربّما كانوا سيجدونها جذّابةً جدًّا، لذلك استغلّت حقيقة أنّ للرجال معايير، للأسف، ليست عالية مثل معاييرك. لقد لجأت إلى مواهب أنا متأكّدة من أنّكِ تحتقرينها. فأنت لم تهتمّي قطّ بالتنافس معنا نحن معشر النساء الأقلّ منك شأنًا في مجال طموحنا الوحيد، أي في تحقيق السلطة على الرجال.

ـ إذا كنت تسمّينها سلطة يا سيّدة ريردن، فأنا لا أعتبرها كذلك.

ثمّ همّت بالذهاب، لكنّ صوت ليليان أوقفها:

ـ أودّ أن أصدّق أنّك منسجمة تمامًا يا آنسة تاجارت، وأنّك خالية تمامًا من الضعف البشريّ. أودّ أن أصدّق أنّك لم تشعري قطّ بالرغبة في مدح أو هجاء أو رغبة في أيّ شخص. ولكن أرى أنّك كنت تتوقّعين حضوري أنا وهنري هنا الليلة.

ـ لمَ لا؟ فأنا لا أستطيع الجزم بأنّني فعلت، ولم يكن بوسعي الاطّلاع على قائمة ضيوف أخي.

ـ ثمّ لماذا ترتدين هذا السوار؟

انتقلت عينا داغني عمدًا إلى عينيها مباشرة، ثمّ قالت:

ـ أنا أرتديه على الدوام.

ـ ألا تعتقدين أنّه يحمل نكتة بعيدة المنال؟

ـ لم يكن مزحة قطّ يا سيّدة ريردن.

ـ هل ستتفهّمينني إذا قلت إنّني أودّ منك إعادة ذاك السوار إليّ.

ـ أنا أتفهّمك. لكنّني لن أعيده إليك.

سمحت ليليان بمرور لحظة، كما لو أنّها أرادت أن تدع لكليهما على حدّ سواء فرصةَ الاعتراف بمعنى الصمت. فكانت أوّل مرّة تلتقط فيها نظرة لداغني دون ابتسامة ثمّ قالت:

ـ ما الذي تتوقّعين منّي أن أفكّر فيه يا آنسة تاجارت؟

ـ أيّ شيء تتمنّينه.

ـ وما هو دافعك؟

ـ كنت تعلمين دافعي عندما أعطيتني السوار.

ثمّ لمحت ليليان حضور ريردن. وكان وجهه خاليا من أيّ تعبيرٍ؛ لم ترَ منه أيّ ردّ فعل، أو أيّ تلميح بنيّة مساعدتها أو إيقافها، لا شيء سوى الانتباه الذي جعلها تشعر كما لو أنّها تقف في دائرة الضوء.

ثمّ عادت ابتسامتها، كدرع واقٍ، تلك الابتسامة المسلّية الداعمة التي كانت تهدف إلى تحويل وجهة الموضوع نحو قضيّة غرفة الاستقبال مجدّدًا. ثمّ قالت:

ـ أنا متأكّدة يا آنسة تاجارت من أنّك تدركين أنّ هذه الغرفة ليست على درجة عالية من اللياقة.

ـ لا.

ـ لكن لا شكّ في أنّك تقومين بمخاطرة خطيرة وقبيحة.

ـ لا.

ـ أنت لا تأخذين بعين الاعتبار إمكانيّة أن... يساء فهمك؟

ـ لا.

هزّت ليليان رأسها في علامة لوم مغلّفة بابتسامة وقالت:

ـ يا آنسة تاجارت، ألا تعتقدين أنّ المرء في هذه الحالة لا يستطيع الانغماس في النظريّة المجرّدة، ولكن يجب عليه أن ينظر في الواقع العمليّ؟

ردّت عليها داغني: لم أفهم قطّ المقصود ببيان من هذا النوع.

ـ أعني أنّ موقفك قد يكون مثاليًّا جدًّا، وأنا متأكّدة من ذلك، ولكن، للأسف، معظم الناس لا يشاركونك إطارك العقليّ السامي وسيسيؤون تفسير أفعالك بطريقة ستكون بغيضة جدًّا.

إذَن، فالمسؤولية والمخاطر ستكون ملقاة على عاتقهم، وليس على عاتقي.

ـ أنا معجبة بك و... لا يجب أن أقول إنّني معجبة (ببراءتك)، ولكن هل يمكنني أن أسمّيها (النقاء)؟ بالتأكيد لم تخطر ببالك مثل هذه الكلمة قطّ، أنا متأكّدة من ذلك، لكنّ الحياة ليست، وللأسف، مستقيمة ومنطقيّة مثل... سكّة الحديد، ولكن من الممكن أيضًا أنّ نواياك السامية قد تؤدّي بالناس إلى الاشتباه بالأشياء التي... حسنا، قد تكون بكلّ تأكيد كما تعلمين ذات طبيعة دنيئة وفاضحة.

كانت داغني تنظر إليها مباشرةً فقالت: لا أفعل.

ـ ولكن لا يمكنك تجاهل هذا الاحتمال.

التفتت داغني إليها وهمّت بالذهاب وقالت: بالفعل أنا أقوم بذلك.

ـ أوه، ولكن لماذا يجب عليك التهرّب من النقاش إن لم يكن لديك ما تخفيه؟ توقّفت داغني فأضافت ليليان:

ـ وإذا كانت شجاعتك الرائعة والمتهوّرة تسمح لك بالمقامرة بسمعتك، فهل يجب عليك تجاهل الخطر الذي يتهدّد السيّد ريردن؟

سألتها داغني برويّة: وأيّ خطر يتهدّد السيّد ريردن؟

ـ أنا متأكّدة من أنّك تفهمينني.

ـ لا، لم أفهمك.

ـ أوه، ولكن بالتأكيد ليس من الضروريّ أن يكون الأمر أكثر وضوحًا وعلانية.

ـ يجب أن يكون كذلك إن رغبتِ في مواصلة هذا النقاش.

تحوّلت عينا ليليان إلى وجه ريردن، بحثًا عن بعض الإشارات لمساعدتها على تقرير ما إذا كانت ستواصل الكلام أو تتوقّف. لكنّه لم يساعدها. فقالت:

ـ يا آنسة تاجارت، أنا لست على قدم المساواة مع مواقفك الفلسفيّة. أنا مجرّد زوجة عاديّة من عامّة الناس. فمن فضلك أعطني ذلك السوار، وإذا كنت لا تريدين أن أفكّر في ما قد يتبادر إلى ذهني فسأسمّي الأمور بمسمّياتها.

ـ يا سيّدة ريردن، هل هذه هي الطريقة والمكان اللذين اخترتِها للتلميح إلى أنّني أعاشر زوجك؟

ـ بالتأكيد لا!

وكانت الصرخة فوريّة، بصوت الذعر ونوعيّة ردّ الفعل التلقائيّ، مثل رعشة الانسحاب ليد سارق وقد انطلقت في العمل. وأضافت، بضحكة غاضبة وعصبيّة، وبنبرة من السخرية والإخلاص كشفت إقرارًا متردّدًا لرأيها الفعليّ:

ـ سيكون هذا أبعد احتمال في ذهني.

قال ريردن: إذَن هل لك أن تعتذري من الآنسة تاجارت.

استعادت داغني أنفاسها، وقطعت كل حركاتها ما عدا الصدى لهاثها الخافت. والتفّتا كلاهما به. فلم تلاحظ ليليان أيّ شيء على ملامح وجهه، لكنّ داغني رأت ملامح العذاب.

قالت داغني: لا داعي إلى الاعتذار يا هانك.

أجابها ببرود من دون أن ينظر إليها، ولكنّه كان ينظر إلى ليليان بصيغة الأمر الذي لا يمكن أن يعصى: هو ضروريّ عندي.

درست ليليان وجهه بدهشة خفيفة، ولكن من دون قلق أو غضب، مثل شخص واجه لغزًا لا أهمّيّة له. وقالت بطريقة مهذّبة، وبصوت سلس وواثق مجدّدًا:

ـ بالطبع، أرجو أن تتقبّلي اعتذاري يا آنسة تاجارت، إن أنا أعطيتك انطباعًا بأنّني شككت في وجود علاقة يمكن أن أعتبرها غير محتملة بالنسبة إليك، ومن المستحيل أن يقدم عليها زوجي انطلاقًا من معرفتي بميولاته.

التفتت وابتعدت بلا مبالاة، تاركة إيّاهما معًا، كما لو أنّها تقدّم دليلا متعمّدا على صدق كلماتها.

وقفت داغني بثبات وعيناها مغلقتان. لقد كانت تفكّر في الليلة التي أعطتها فيها ليليان السوار. كان هانك حينها قد اتّخذ مكانه بجانب زوجته، أمّا الآن فهو في صفّها. ومن بين الثلاثة، كانت هي الوحيدة التي فهمت تمامًا ما يعنيه ذلك الأمر.

ـ مهما يكن سوء ما ترغبين في قوله لي، فستكونين على حقّ.

سمعته ففتحت عينيها. كان ينظر إليها ببرود، بوجهه القاسي الذي لا يسمح بأيّ علامة من علامات الألم أو الاعتذار قد توحي بالأمل في المغفرة.

قالت: يا أعزّ الناس على قلبي، لا تعذّب نفسك على هذا النحو. كنت أعلم أنّك متزوّج. ولم أحاول قطّ التهرّب من تلك الحقيقة، وأنا لست متألّمة منها في هذه الليلة.

كانت كلماتها الأولى هي الأكثر عنفًا من بين الضربات العديدة التي شعر بها: لم تستخدم مثل تلك الكلمات من قبل. ولم تسمح له البتّة بسماع تلك النبرة الخاصّة من الحنان. لم تتحدّث قطّ عن زواجه في خصوصيّة اجتماعهما، ومع ذلك تحدّثت عنه هناك بكلّ بساطة ومن دون عناء.

رأت الغضب يتطاير في تقاسيم وجهه – ذلك التمرّد على الشعور بالشفقة – بنظرةٍ تقول لها في ازدراءٍ إنّه لم يخُن أيّ تعذيب ولا يحتاج إلى مساعدة، ثمّ ساورته نظرة تكشف عن إدراك أنّها تعرف ملامح وجهه بدقّة مثلما كان يعرف ملامح وجهها، فأغمض عينيه، ومال برأسه قليلًا، وقال بهدوء شديد:

ـ شكرًا لك.

فابتسمت وابتعدت عنه.

حمل جيمس تاجارت كأس الشمبانيا الفارغ في يده ولاحظ التسرّع الذي لوّح به بالف يوبانك إلى نادل عابر، كما لو أنّ النادل أذنب بعد القيام بهفوة لا تغتفر. ثمّ أكمل يوبانك عقوبته:

ـ لكنّك، يا سيّد تاجارت، تعلم أنّ الرجل الذي يعيش على مستوى أعلى لا يمكن فهمه أو تقديره. إنّه صراع ميؤوس منه في محاولة للحصول على دعم للأدب من عالم يحكمه رجال الأعمال. إنّهم ليسوا سوى أناس مبتذلين من الطبقة المتوسّطة أو الهمج المفترسين من أمثال ريردن.

قال بيرترام سكودر بعد أن ربّت على كتفه: إنّ أفضل مجاملة أدين لك بها، يا جيم، هي أنّك لست رجل أعمال حقيقيّ!

قال الدكتور بريتشيت: أنت رجل ثقافة يا جيم. أنت لست منقّبًا سابقا عن الموادّ الخام مثل ريردن. ولست مضطرًّا إلى أن أشرح لك الحاجة الماسّة إلى مساعدة واشنطن في مجال التعليم العالي.

وظلّ بالف يوبانك يسأله: هل أعجبتك روايتي الأخيرة يا سيّد تاجارت؟ هل أعجبتك حقًّا؟

لمح أورين بويل المجموعة، وهو في طريقه عبر الغرفة، لكنّه لم يتوقّف. وكانت نظرته كافية لتقدير طبيعة مخاوف المجموعة. كان يعتقد أنّ على المرء أن يتاجر بشيء مّا، لكنّه لم يهتمّ بتسمية ما كانت تتمّ المتاجرة به.

قال جيمس تاجارت وهو يقرّب حافّة كأس الشمبانيا من شفتيه: نحن في فجر عصر جديد. إنّنا نحطّم طغيان القوّة الاقتصاديّة الشريرة. سنحرّر البشر من حكم الدولار، وسنحرّر أهدافنا الروحيّة من الاعتماد على أصحاب الوسائل المادّيّة. سنحرّر ثقافتنا من قبضة مطاردي الربح وسنبني مجتمعًا يكرّس المثل العليا، وسنستبدل

بأرستقراطيّة المال...

ـ قاطعه صوت من خارج المجموعة: أرستقراطيّةَ الجذب.

فجال الجميع بالنظر من حولهم فانتبهوا إلى أنّ الرجل الذي وقف في مواجهتهم كان فرانسيسكو دانكونيا.

بدا وجهه مسفوعًا من شمس الصيف، وكانت عيناه تشبهان لون السماء ذلك اليومَ الذي حصل فيه على تلك السمرة. أمّا ابتسامته فتشبه صباح الصيف. وأمّا الطريقة التي ارتدى بها ملابسه الرسميّة فقد جعلت بقيّة الحشد يبدون كما لو أنّهم يتنكّرون في أزياء مستعارة.

سألهم في خضمّ صمتهم: ما خطبكم؟ هل قلت شيئًا لا يعرفه أحدٌ هنّا؟

ـ كيف وصلت إلى هنا؟

كان أوّل شيء وجد جيمس تاجارت نفسه قادرًا على نطقه.

ـ بالطائرة إلى نيويورك، ثمّ بسيّارة أجرة من هناك، ثمّ بمصعد من جناحي الذي يقع على بعد ثلاثة وخمسين طابقًا من فوقك.

ـ لم أكن أقصد ذلك... أعني، ما قصدته هو...

ـ لا تكن مندهشا جدًّا يا جيمس. إذا حضرت في نيويورك وسمعت بوجود حفلة فلن أفوّتها، أليس كذلك؟ كنت دائما تقول إنّني لست أكثر من كلب صيد.

كانت المجموعة تنظر إليهما. فقال تاجارت بحذر:

ـ أنا بالطبع سعيد لرؤيتك.

ثمّ أضاف بعدوانيّة لتحقيق نوع من التوازن:

ـ ولكن إذا كنت تعتقد أنّك سوف...

لم يلتقط فرانسيسكو التهديد، بل ترك جملة تاجارت تنزلق في الجوّ وتتوقّف، ثمّ سأله بأدب:

ـ إذا كنت أعتقد.. ماذا؟

ـ أنت تدرك جيّدًا ما أعنيه.

ـ بلى فهمتك. هل يجب أن أخبرك بما أعتقد؟

ـ هذه ليست اللحظة المناسبة لأيّ...

ـ أعتقد أنّ من واجبك تقديمي إلى عروسك يا جيمس. لطالما لازمتك أخلاقك بشكل قويّ جدًّا، لكنّك تفقدها دائمًا في حالات الطوارئ، وهذا هو الوقت المناسب الذي يحتاج فيه المرء إلى أخلاقه أكثر من غيره.

وحين تحوّل لمرافقته نحو تشيريل، التقط تاجارت الصوت الخافت الصادر عن بيرتر امسكودر؛ لقد كانت ضحكة مكتومة لم تولد بعد. فعلم تاجارت أنّ الرجال الذين زحفوا عند قدميه قبل لحظةٍ، والذين قد تكون كراهيتهم لفرانسيسكو دانكونيا أكبر من كراهيته له، يستمتعون بالمشهد رغم ذلك. وكانت الآثار المترتّبة على تلك الحقيقة من بين الأشياء التي لم يهتمّ بذكرها.

انحنى فرانسيسكو لتشيريل وقدّم لها أطيب تمنّياته، كما لو أنّها عروس وريث ملكيّ. فشعر تاجارت بالارتياح وهو يراقبه بعصبيّة، وشعر أيضًا بلمسة من الاستياء المجهول، لمسة إذا أراد تسميتها فإنّها ستخبره بأنّ المناسبة تستحقّ العظمة التي منحتها أخلاق فرانسيسكو في تلك اللحظة.

كان خائفًا من البقاء إلى جانب فرانسيسكو وخشي أن يطلق له العنان بين الضيوف. فمشى بضع خطوات أولى لكنّ فرانسيسكو تبعه مبتسمًا.

ـ هل كنت تعتقد أنّي سأفوّت حفل زفافك يا جيمس وأنت صديق طفولتي وأفضل مالك للأسهم؟

ردّ تاجارت وهو يلهث، وكأنّه ندم على ذلك، وكان الصوت اعترافًا بالذعر: ماذا؟

لم يبد أنّ فرانسيسكو تنبّه إلى ذلك، ولكنّه قال بصوت بريء إلى حدّ مّا:

ـ أوه، ولكن بالطبع أنا أعرف ذلك. أعرف أسماء العملاء على قائمة الأسهم لشركة دانكونيا للنحاس. ومن المدهش أن تلاحظ عدد الرجال بأسماء من قبيل سميث وجوميز وهي أسماء غنيّة بما يكفي لامتلاك قطع كبيرة من أغنى شركة في العالم. لا يمكنك إذَن إلقاء اللوم عليّ، إذا تملّكني الفضول إلى معرفة الأشخاص المميّزين الذين لديّ بالفعل بين حاملي أسهم الأقلّيّات. يبدو أنّني أحظى بشعبيّة كبيرة ضمن مجموعة مذهلة من الشخصيّات العامّة في جميع أنحاء العالم، وكذا في الدول الشعبيّة حيث لم أعتقد أنّه تبقّى بها أيّ أموال على الإطلاق.

قال تاجارت بعبوس وجفاف: توجد أسباب كثيرة منها التجاريّة. لماذا يُنصح أحيانًا بعدم إطلاق استثمارات مباشرة؟

ـ أحد الأسباب هو أنّ الرجل منّا لا يريد أن يعرف الناس أنّه غنيّ. وسبب آخر هو أنّه لا يريدهم تعلّم كيفيّة وصوله إلى ذلك المستوى من البذخ.

ـ لا أعرف ما تعنيه بذلك أو لماذا يجب أن تعترض عليه.

ـ أوه، أنا لا أعترض على الإطلاق. أنا أقدّر ذلك. ويوجد عدد كبير من المستثمرين – من الطراز القديم طبعا – الذين تركوني بعد كارثة مناجم سان سيباستيان. لقد أرعبهم الأمر فهجروني. لكنّ الحَدِيثين كان يضعون فيّ ثقة أكبر، لذلك تصرّفوا وفق الإيمان كما تعوّدوا دائمًا. لا أستطيع أن أقول لكم كم أقدّر ذلك.

ودّ تاجارت لو أنّ فرانسيسكو لم يتحدّث بصوت عالٍ جدًّا؛ وتمنّى لو أنّ الناس لم يجتمعوا من حولهما. "لقد أبليت البلاء الحسن"، قالها في لهجة آمنة من مجاملة الأعمال التجاريّة.

ـ بلى، أليس كذلك؟ إنّه لأمر رائع أن يرتفع مخزون النحاس لشركة دانكونيا خلال العام الماضي إلى ذلك المدى. ولكن لا أعتقد أنّني يجب أن أكون مغرورًا جدًّا بشأن هذا الموضوع، إذ لم تعد هناك منافسة في العالم، ولا يوجد مكان يمكن للمرء أن يستثمر فيه مالَه إذا أراد أن يصبح غنيًّا بسرعة، ولك في شركة دانكونيا للنحاس أحسن مثال، فهي

أقدم شركة على وجه الأرض، وهي الشركة التي يمكن أن يراهن عليها المرء لعدّة قرون. فكّر فقط في ما تمكّنت بفضله من البقاء على قيد الحياة عبر العصور. لذلك إذا قرّرتم أنت وأناسك أنّها أفضل مكان لا يمكن فيه ضرب أموالكم المخفيّة، فإنّ الأمر سيستغرق الكثير من الوقت أمام نوع من الرجال غير العاديّين لتدمير شركة دانكونيا للنحاس، و إنّكم لَعَلَى حقٍّ.

ـ حسنًا، لقد سمعت بعض الأخبار تقول إنّك بدأت تتحمّل مسؤوليّاتك، وإنّ تجارتك قد استقرّت في الآونة الأخيرة. هم يقولون إنّك تعمل بجدٍّ.

ـ أوه، هل لاحظ أحدٌ ذلك؟ كان المستثمرون من الطراز القديم هم الذين جعلوا من المهمّ مشاهدة ما كان يفعله رئيس الشركة. أمّا المستثمرون الحديثو العهد فهم لا يجدون تلك المعرفة ضروريّة. ولا أعتقد أنّهم انتبهوا إلى أنشطتي.

قال تاجارت وهو يبتسم: هم يعوّلون على مؤشّر البورصة. وهو يحكي لهم القصّة بأكملها، أليس كذلك؟

ـ نعم هذا صحيح على المدى الطويل.

ـ يجب أن أقول إنّني سعيد لأنّك لم تكن مثل كلب الصيد في العام الماضي. والنتائج ظاهرة للعيان من خلال عملك.

ـ هل هي كذلك؟حسنا، لا، ليس تمامًا حتّى الآن.

ردّ تاجارت، بلهجة حذرة وفي شكل سؤال غير مباشر: أعتقد أنّه ينبغي عليّ الشعور بالفخر لأنّك اخترت أن تأتي إلى هذه الحفلة.

ـ أوه، ولكن كان علي أن آتي. بل كنت أعتقد أنّك تتوقّع حضوري.

ـ لمَ لا تقول إنّني لم أكن... أعني...

ـ كان يجب أن تتوقّع حضوري يا جيمس. هذا هو الحدث العظيم الرسميّ لعدّ الأنوف، حيث يأتي الضحايا لإظهار مدى أمان تدميرهم، ويشكّل المخرّبون مواثيق للصداقة الأبديّة، التي تستمرّ لمدّة ثلاثة أشهر. أنا لا أعلم بالضبط إلى أيّ مجموعة

أنتمي، ولكن كان عليّ أن أحضر وأُحدّدها بنفسي، أليس كذلك؟

صرخ تاجارت بشراسة، وهو يرى التوتّر على الوجوه المحيطة بهما: ماذا تقول بحقّ الجحيم؟

ـ كن حذرا، يا جيمس. إذا تظاهرت بأنّك لا تفهمني، سأوضّح لك الأمر أكثر.

ـ إذا كنت تعتقد أنّ من المناسب النطق بمثل هذا...

ـ أعتقد أنّ الأمر مسلٍّ. في الماضي كان هناك رجال يخشون أن يكشف شخص مّا بعض أسرارهم التي لا يعرفها زملاؤه. أمّا في الوقت الحاضر، فهم يخافون من أن يذكر شخص مّا بالاسم ما يعلمه الجميع. هل سبق لكم يا معشر البشر العمليّين أن فكّرتم بأنّ كلّ ما سيستغرقه أمر تفجير بنيتكم الكبيرة والمعقّدة، مع كلّ ما تبذلونه من قوانين وبنادق، هو مجرّد شخص يسمّي طبيعة ما تقومون به بالتحديد؟

ـ إذا كنت تعتقد أنّ من اللّائق أن تأتي إلى حفل الزفاف من أجل إهانة المضيّف..

ـ لماذا تصدر مثل هذا الحكم يا جيمس. فقد جئت إلى هنا لأشكرك.

ـ تشكرني؟

ـ بالطبع، لقد أسديت لي خدمة عظيمة، أنت وأولادك في واشنطن والشباب في سانتياغو. أتساءل فقط لماذا لم يتحمّل أحدكم عناء إخباري بذلك؟ فتلك التوجيهات التي أصدرها شخص مّا هنا قبل بضعة أشهر تخنق صناعة النحاس بأكملها في هذه البلاد والنتيجة هي أنّ هذه البلاد ستضطرّ فجأة إلى استيراد كمّيات أكبر بكثير من النحاس. ليس في العالم من نحاس غير نحاس شركة دانكونيا. لذلك فأنا أرى أنّ ثمّة سببًا وجيها لأكون ممتنًّا لك.

ردّ تاجارت على عجلٍ: أؤكّد لك أن ليس لي أيّ علاقة بهذا. وإلى جانب ذلك، فإنّ السياسات الاقتصاديّة الحيويّة لهذا البلد لا تتحدّد بأيّ اعتبارات مثلما تعلن أنت أو..

ـ أعرف كيف تحاك تلك السياسات يا جيمس. وأعرف أنّ الصفقة بدأت مع الأولاد في سانتياغو، لأنّهم كانوا على جداول كشوف دفع الأجور لشركة دانكونيا

لعدّة قرون. حسنًا، لا، (جدول الرواتب) هي كلمات مشرّفة، ربّما من الصواب أن نقول إنّ شركة دانكونيا للنحاس قد دفعت لهم المال من أجل الحماية لعدّة قرون. أليس هذا ما يتفوّه به رجال العصابات الخاصّة بك؟ أولادنا في سانتياغو يسمّونها ضرائب. لقد كانوا يحصلون على نصيب من كلّ طن يباع من النحاس لشركة دانكونيا. لذلك هم يملكون مصلحة خاصّة في رؤيتي أبيع أكبر عدد ممكن من الأطنان، ولكن مع تحوّل العالم إلى دول فإنّ هذا هو البلد الوحيد الذي لم يبقَ فيه رجال قادرون على حفر الجذور في الغابات للحصول على قوتهم. لذلك هذه هي السوق الوحيدة المتبقّية على وجه الأرض. لقد أراد الأولاد في سانتياغو أن يحتكروا هذه السوق. وأنا لا أعلم ما عرضوه على الأولاد في واشنطن، أو من تداول وماذا تداول ومع مَن؟ لكنّني أعلم أنّك تدخّلت في مكان مّا، لأنّك تحمل قطعة كبيرة من الأسهم في شركة دانكونيا للنحاس. وبالتأكيد لم تكن مستاءً من ذلك. وفي ذلك الصباح، قبل أربعة أشهر، أي في اليوم الموالي لإصدار التوجيهات، كنت تراقب هذا النوع من القفزة المرتفعة لأداء شركة دانكونيا للنحاس في البورصة. وهذا ما يفسّر تلك القفزة العمليّة في مؤشّر البورصة أمام عينيك.

ـ من أوحى إليك بهذه المبرّرات لاختراع قصّة شائنة من هذا النوع؟

ـ لا أحد. لم أكن أعلم شيئًا عن ذلك. لقد رأيت فقط تلك القفزة على شريط أخبار البورصة في ذلك الصباح. وهو يلخّص القصّة بأكملها، أليس كذلك؟ وإلى جانب هذا، فإنّ الأولاد في سانتياغو فرضوا ضريبة جديدة على النحاس في الأسبوع الموالي، وقالوا لي إنّني لا ينبغي أن أهتمّ، خصوصًا أمام ذلك الارتفاع المفاجئ لأسهمي. لقد أخبروني بأنّهم كانوا يعملون من أجل مصالحي العليا. وحين قرنت الحدثين معًا استنتجت أنّني صرت أغنى ممّا كنت عليه من قبل.

ـ ولماذا تريد أن تخبرني بهذا الأمر؟

ـ لماذا لا ترغب في الاعتراف بأيّ فضل في ذلك يا جيمس؟ هذا خارج عن المألوف من طبائعك وخارج عن السياسة التي كنت خبيرًا فيها. في عصر يوجد فيه البشر لا

عن طريق الحقّ، بل عن طريق المصلحة، لا أحد يرفض شخصا صاحب فضل، لذلك يحاول المرء أن يوقع أكبر عدد ممكن من الناس في فخّ الامتنان. ألا تريديني أن أكون أحد رجالك في زمن المحنة؟

ـ لا أعرف عمّا تتحدّث.

ـ فكّر في أي فضل تلقّيته من دون أيّ جهد منّي. لم تتم أُستشَر، ولم أُبلَغ، ولم أفكّر في ذلك، لقد رُتّب كلّ شيء من دوني، وكلّ ما عليّ فعله الآن هو إنتاج النحاس. كان ذلك معروفا كبيرا يا جيمس، وربّما كنت على يقين من أنّني سأردّه لك.

التفت فرانسيسكو فجأة من دون انتظار جوابٍ، وذهب بعيدا. لم يتبعه تاجارت؛ بل بقي واقفًا يعتريه شعور بأنّ أيّ شيء سيكون أفضل من إهدار دقيقة واحدة أخرى في محادثتهم.

توقّف فرانسيسكو عن الحركة عندما وصل إلى داغني. نظر إليها لحظةً في صمت، ومن دون تحيّة. اكتفى برسم ابتسامة ليقول لها إنّها كانت أوّل شخص يراه وأوّل من رآه عند دخوله قاعة الاحتفالات.

ولمواجهة كلّ شكّ وتحذير من عقلها، لم تشعر بشيء سوى الثقة المفرحة؛ ولكن لسبب غير مفهوم، شعرت أيضًا كما لو أنّه كانت لـفرانسيسكو شخصيّة مميّزة في ذلك الحشد تشبه نقطة أمن غير قابلة للتدمير. وفي اللحظة التي ندّت عنها ابتسامة تخبره بمدى سعادتها لرؤيته، سألها:

ـ ألا تريدين أن تخبريني بالإنجاز الرائع الذي تبيّن أنّ خطّ جون جالت حقّقه؟

شعرت بشفتيها ترتجفان بشدّة وتضيقان بإحكام في آنٍ واحد فأجابته:

ـ أنا آسفة إذا أظهرت أنّني مازلتُ عرضة للأذى. لا ينبغي أن يصدمني أنّك وصلت إلى مرحلة تحتقر فيها أيّ إنجاز.

ـ نعم، ألست كذلك دائمًا؟ لقد احتقرت ذلك الخطّ كثيرا إلى درجة أنّني لم أكن أرغب في رؤيته يصل إلى تلك النهاية التي بلغها.

فلاحظ أنّ لها سمة من الانتباه المفاجئ، وسمة أخرى من التفكير المتسرّع لخلق ثغرة مفتوحة على اتّجاه جديد. راقبها لحظة، كما لو أنّه يعرف كلّ خطوة ستجدها على طول تلك الطريق، ثمّ ضحك ضحكة مكتومة وقال:

ألا تريدين أن تسأليني الآن: من هو جون جالت؟

ـ ولماذا يجب أن أرغب في سؤالك، ولماذا الآن بالذات؟

ـ ألا تتذكّرين أنّك تجرّأت على تحدّيه بأن يأتي ويطالب بخطّك؟ حسنا، إنّه بصدد فعل ذلك.

واصل فرانسيسكو مشيه من دون أن ينتظر رؤية نظرة عينيها، نظرة كان يشوبها الغضب، والحيرة وأوّل بصيص خافت من علامة الاستفهام.

كانت عضلات وجهه هي التي جعلت ريردن يتفطّن إلى طبيعة ردّ فعله عند وصول فرانسيسكو: فلاحظ فجأة أنّه يبتسم وأنّ وجهه مسترخٍ في رفاهية خافتة لابتسامة سابقة حدثت أثناء بعض الدقائق الماضية حين كان يشاهد فرانسيسكو دانكونيا في الحشد.

واعترف لنفسه، للمرّة الأولى، بكلّ اللّحظات التي أدرك نصفها ورفض نصفها الآخر، عندما تذكّر فرانسيسكو دانكونيا ودفع تلك الفكرة جانبًا قبل أن يصبح على علم بمدى رغبته في رؤيته مجدّدًا. وفي لحظات من الإرهاق المفاجئ - في مكتبه، مع حرائق الأفران وهي تخمد في الشفق، وهو يمشي وحيدا في ظلام عبر الريف الخالي نحو منزله في صمت الليالي الطوال - كان قد وجد نفسه يفكّر في الرجل الوحيد الذي بدا سابقًا أنّه هو المتحدّث باسمه. ثمّ دفع بالذاكرة جانبا، وقال لنفسه: ولكن هذا أسوأ من كلّ الآخرين! في حين كان يدرك تمام الإدراك أنّ ذلك الأمر لم يكن صحيحا، لكنّه لم يستطع تحديد السبب الذي جعله يشعر بأنّه على يقين من أمره. ثمّ اكتشف أنّه كان يلقي نظرة خاطفة على بعض الصحف لمعرفة ما إذا كان فرانسيسكو دانكونيا قد عاد إلى نيويورك، ثمّ ألقى الصحف جانبًا، وسأل نفسه بغضب: ماذا لو عاد؟ هل ستذهب

لمطاردته في النوادي الليلية وحفلات الكوكتيل؟ ما الذي تريده منه؟

وكان يعتقد أنّ هذا ما أراده حين وجد نفسه يبتسم لرؤية فرانسيسكو في الحشد، ذلك الشعور الغريب بالتوقّع الذي يحمل الفضول والتسلية والأمل.

لا يبدو أنّ فرانسيسكو قد لاحظ وجوده. انتظر ريردن للحظة وهو يصارع رغبته في الاقتراب؛ وقال في نفسه يجب ألّا أقترب منه خصوصا بعد ذلك النوع من المحادثة التي حصلت بيننا آخر مرّة. ما الغاية من لقائه؟ وماذا سأقول له؟ وبعد ذلك، أحسّ بالمرح، وشعور باليقين من أنّه كان على حقّ، فمشى عبر قاعة الاحتفالات، نحو المجموعة التي أحاطت بفرانسيسكو دانكونيا.

وتساءل، وهو ينظر إليهم، لماذا انجذب هؤلاء الناس إلى فرانسيسكو، ولماذا اختاروا أن يسجنوه في دائرة محكمة، في حين أنّ امتعاضهم منه كان واضحًا تحت غلاف ابتساماتهم. لقد كانت وجوههم مكسوّة بتلميح غريب المظهر، ليس خوفًا، بل هو أقرب إلى الجبن. كان مظهرا من الغضب. وقف فرانسيسكو محاصرًا بالحافّة الجانبية من درج من الرخام، نصفه منحنٍ، ونصفه الآخر جالس على الدرج؛ فأضفت هيئته غير الرسميّة، بالإضافة إلى الشكليّة الصارمة في ملابسه، جوًّا من الأناقة الفائقة. فكان وجهه هو الوحيد الذي تعلوه نظرة السعادة وابتسامة رائعة توحي بأنّه يستمتع بالحفلة على النحو المناسب؛ لكن بدا أنّ عينيه تعمّدتا إخفاء التعبير، ولم تحملا أيّ أثر للمرح، ولم تعبّرا عن شيء سوى نشاط الإدراك المتزايد.

كان ريردن واقفًا بجانب المجموعة من دون أن يلاحظ وجودَه أيّ أحدٍ حين سمع امرأة ترتدي أقراط ألماس كبيرة وذات وجه مترهّل وعصبيّ، وهي تسأل بتوتّر:

ـ ، ماذا تعتقد أن يحدث للعالم، يا سيّد دانكونيا؟

ـ سيحدث له فقط ما يستحقّه.

ـ أوه، أيّ قسوة هذه!

سألها فرانسيسكو: ألا تؤمنين بتطبيق القانون الأخلاقيّ يا سيّدتي؟ أنا أؤمن به.

سمع ريردن بيرترام سكودر، خارج المجموعة، وهو يخاطب فتاة قد أبدت بعض السخط، قائلا:

ـ لا تدعيه يزعجك. كما تعلمين، المال هو أصل كلّ الشرور، وفرانسيسكو هذا نتاج نموذجيّ للمال.

لم يعتقد ريردن أنّ فرانسيسكو كان يستطيع سماع ذاك الكلام، لكنّه رآه على العكس من ذلك يلتفت إليهما بابتسامة مهذّبة جدًّا وقال:

لذلك أنت تعتقد أنّ المال هو أصل كلّ الشر؟ هل سبق لك أن تساءلت: ما هو أصل المال؟ المال هو أداة للتبادل، ولا يمكن أن يوجد ما لم تكن هناك سلع منتجة، يقدر البشر على إنتاجها. المال هو الشكل الماديّ للمبدإ القائل إنّ البشر الذين يرغبون في التعامل بعضهم مع بعض يجب أن يتعاملوا بالتجارة وأن يقايضوا قيمة بأخرى. المال ليس أداة للمتسوّلين، الذين يطلبون منتجك بالدموع، أو أداة للصوص، الذين يأخذونه منك بالقوّة. المال ممكن فقط من قبل البشر الذين ينتجون. هل هذا ما تعتبره شرًّا؟

ـ حين تقبل المال مقابل مجهودك، فأنت تفعل ذلك فقط وفق قناعة مفادها أنّك ستبادل به نتاج جهد الآخرين. فليس المتسوّلون أو اللصوص هم من يعطون المال قيمة. ولن يستطيع محيط الدموع ولا كلّ البنادق في العالم تحويلَ تلك القطع من الورق، تلك التي تجمعها في محفظتك، إلى الخبز الذي ستحتاج إليه للبقاء على قيد الحياة غدًا. تلك القطع من الورق، التي كان ينبغي أن تكون من الذهب، هي عربون شرف، وأنت تزعم أنّها طاقة البشر الذين ينتجون. محفظتك هي بيان الأمل الخاصّ بك في وجود بشرٍ بمكان مّا في العالم من حولك لن يتخلّفوا عن ذلك المبدإ الأخلاقيّ الذي هو أصل المال. هل هذا ما تعتبره شرًّا؟

ـ هل سبق لك أن بحثت عن أصل الإنتاج؟ فَلْتُلْقِ نظرة على مولّد كهربائيّ، هل ستتجرّأ على إخبار نفسك بأنّ الجهد العضليّ للوحوش غير المفكّرة هو الذي أنتجه؟ حاول أن تزرع بذرة من القمح دون المعرفة التي تركها لك البشر الذين اضطرّوا إلى

اكتشاف ذلك للمرّة الأولى. حاول الحصول على طعامك عن طريق لا شيء سوى الحركات الجسديّة، وستتعلّم أنّ عقل الإنسان هو أصل جميع السلع المنتجة وكلّ الثروة التي وجدت على الأرض.

ـ لكنّك تقول إنّ المال يجنيه الأقوياء على حساب الضعفاء؟ أيّ قوّة تعني؟ إنّها ليست قوّة البنادق أو العضلات. فالثروة هي نتاج قدرة الإنسان على التفكير. وعليه، هل يَخلق المالَ الإنسانُ الذي اخترع المحرّك على حساب أولئك الذين لم يخترعوه؟ هل يُصنَع المال من قبل الأذكياء على حساب الحمقى؟ من قبل القادرين على حساب غير الأكفاء؟ من قبل الإنسان الطموح على حساب الكسول؟ يُصنع المال – قبل أن يُنهب أو يُتَسَوَّل – بجهد كلّ إنسان صادق، كلٌّ حسب قدرته. والإنسان الصادق هو الذي يعلم أنّه لا يستطيع استهلاك أكثر ممّا ينتج.

ـ التجارة عن طريق المال هي قانون البشر ذوي الإرادة الحسنة. فالمال يعتمد على المسلّمة البديهيّة بأنّ كلّ إنسان هو صاحب عقله وجهده. والمال لا يسمح للقوّة بوصف قيمة جهدكم، باستثناء الاختيار الطوعيّ للإنسان الذي هو على استعداد لمبادلتك جهده في المقابل. والمال يسمح لك بالحصول على عملك وبضائعك التي يضبط قيمتها البشر الذين يشترونها، لا أكثر ولا أقلّ. لكنّه لا يسمح لك بأيّ صفقات باستثناء تلك التي تعود بالنفع المتبادل من قبل الحكم غير القسريّ للمتبادلين التجاريّين. والمال يطلب منك الاعتراف بأنّ البشر يجب أن يعملوا لمصلحتهم الخاصّة، وليس لإلحاق الضرر بأنفسهم، من أجل ربحهم، وليس خسارتهم، الاعتراف بأنّهم ليسوا وحوشًا يحملون أثقالًا، ولدوا لتحمّل ثقل بؤسك، وبأنّه يجب عليك أن تقدّم لهم القيم، لا الجروح، وأنّ الرابطة المشتركة بين البشر ليست تبادل المعاناة، ولكن تبادل السلع. المال يتطلّب منك ألّا تبيع ضعفك لغباء الناس، ولكن أن تبيع موهبتك من أجلهم؛ إنّه يطالبك بأن تشتري منهم، لا أرخص ما يقدّمون، ولكن أفضل ما يمكن أن تجده بأموالك. وعندما يعيش البشر عن طريق التجّار محتكمين إلى العقل، وليس إلى القوّة، فسيكون أفضل منتج هو الفائز، وكذلك شأن أفضل أداء، والرابح

هو الإنسان الذي لديه أفضل حكم وأعلى قدرة. وهكذا فإنّ درجة إنتاجيّة الإنسان هي ما سيحدّد درجة مكافأته. هذا هو قانون الوجود الذي أداته ورمزه المال. هل هذا ما تعتبره شرًّا؟

ـ لكنّ المال هو مجرّد أداة. وسوف يأخذك أينما ترغب، ولكن لن يحلّ محلّك مثل السائق. وسيمنحك وسيلة لإشباع رغباتك، لكنّه لن يوفّر لك الرغبات. المال هو آفة البشر الذين يحاولون عكس قانون السببيّة، أولئك البشر الذين يسعون إلى استبدال العقل عن طريق الاستيلاء على منتجات العقل.

ـ المال لن يشتري السعادة للإنسان الذي لا يملك مفهومًا واضحًا لما يرى، المال لن يعطيه رمز القيم، إن هو تهرّب من معرفة ما يجب عليه تقييمه، ولن يوفّر له هدفًا، إن هو تهرّب من اختيار ما يسعى إليه. المال لن يشتري الذكاء للحمقى، أو الإعجاب للجبناء، أو الاحترام لغير الأكفاء. فالإنسان الذي يحاول شراء أدمغة مَن هم أفضل منه لخدمته، بأمواله لاستبدال حكمه، ينتهي به الأمر إلى أن يصبح ضحيّة مَن هم أدنى منه. سيهجره الأذكياء، وسيحيط به أهل الغشّ والاحتيال، يحرّكهم قانون لم يكتشفه بعد: هو أنّه لا يجوز لأيّ إنسان أن يكون أصغر من ماله. هل هذا هو السبب الذي يجعلك تَسِمُه بالشرّ؟

ـ وحده الإنسان الذي لا يحتاج إلى المال يصلح لوراثة الثروة، أي الإنسان الذي من شأنه أن يكوّن ثروته الخاصّة بغضّ النظر عن النقطة التي انطلق منها. وإذا كان الوريث على قدر أمواله، فإنّ المال سيخدمه. وإن لم يكن الأمر كذلك، فإنّه سيدمّره. لكنّك ستنظر إليه وتصرخ بأنّ المال هو الذي أفسده. أليس كذلك؟ أم إنّه هو من أفسده وبدّد أمواله؟ لا تحسد وريثًا لا قيمة له؛ فثروته ليست ملكه ولن تقدر أن تفعل بها أفضل منه. ولا تعتقد أنّه كان ينبغي أن توزّع بينكم؛ فإرهاق العالم بخمسين طفيليًّا بدلًا من واحد، لن يعيد الفضيلة الميّتة التي كانت ثروة. فالمال هو قوّة حيّة يمكن أن تموت من دون جذورها. المال لن يخدم العقل الذي لا يمكن أن يطابقه. هل هذا هو السبب الذي يجعلك تَسِمه بالشر؟

ـ المال هو وسيلة البقاء على قيد الحياة. والحكم الذي تنطق به على مصدر رزقك هو الحكم الذي تنطق به على حياتك. فإذا كان المصدر فاسدًا، فقد لعنتَ وجودك. هل تحصل على أموالك عن طريق الاحتيال؟ أو من خلال القوادة على رذائل البشر أو غبائهم؟ أو من خلال تقديم الطعام للحمقى على أمل الحصول على أكثر ممّا تستحقّ قدرتك؟ أو عن طريق خفض المعايير الخاصّة بك؟ أوعبر عملكِ الذي تزدريه للمشترين الذين تحتقرهم؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنّ أموالك لن تعطيك لحظة أو فلسًا واحدًا يستحقّ الفرح. وكلّ الأشياء التي ستشتريها تصبح بلا فائدة، بل إنّها لن تسلم من اللوم؛ ولن تكون إنجازًا، ولكن تذكيرا بالعار. ثمّ ستصرخ بأنّ المال هو الشرّ. إنّه الشرّ، لأنّه لن ينبّهك إلى احترام ذاتك؟ هو الشرّ، لأنّه لن يتيح لك التمتّع بانحرافك؟ هل هذا هو أصل كراهيتك للمال؟

ـ سيبقى المال دائمًا نتيجةً ترفض أن تحلّ محلّك بوصفها سببًا. فالمال هو نتاج الفضيلة، ولكنّه لن يعطيك الفضيلة ولن يفتدي مفاسدك. المال لن يعطيك الشيء الذي لا تستحقّ، سواء أكان مادّة أم روحًا. هل هذا هو أصل كراهيتك للمال؟

ـ أم قلتَ إنّ حبّ المال هو السبب في كلّ الشرور؟ فأن تحبّ شيئًا يعني أن تعرف طبيعته ومحبّته. وأن تحبّ المال هو أن تعرف المال وتحبّ حقيقة أنّه مخلوق من أفضل قوّة بداخلك، وهو مفتاح العبور الخاصّ بك إلى التجارة بجهدك مقابل أفضل جهد بين البشر. الشخص الذي يبيع نفسه من أجل الدينار هو من يكون أعلى صوتًا في إعلان كراهيته للمال، ويملك سببًا وجيها ليكرهه. وعشّاق المال على استعداد للعمل من أجل ذلك. هم يعلمون أنّهم قادرون على استحقاق ذلك.

ـ اسمح لي بأن أقدّم لك نصيحة تدلّ على طبائع البشر: فالإنسان الذي يلعن المال هو ذاك الذي تحصّل عليه على نحو غير شريف؛ أمّا الإنسان الذي يحترمه فقد اكتسبه من عرق جبينه.

ـ انجُ بحياتك من أيّ إنسان يخبرك بأنّ المال شرّ. تلك الجملة هي جرس إنذار يعلن اقتراب لصّ منك. وما دام الناس يعيشون معًا على وجه الأرض فإنّهم يحتاجون إلى

وسائل للتعامل بينهم، وبديلهم الوحيد، إذا تخلّوا عن المال، هو فوّهة البندقيّة.

ـ لكنّ المال يطالبك بأعلى الفضائل، إذا كنت ترغب في كسبه أو الحفاظ عليه. فالناس ـ الذين لا يمتلكون الشجاعة أو الفخر أو احترام الذات، والبشر الذين لا يمتلكون أيّ حسّ أخلاقيّ بحقّهم في أموالهم والذين لا يبدون استعدادا للذّود عنه مثلما يذودون عن حياتهم، والناس الذين يعتذرون لأنّهم أغنياء - لن يحافظوا على غناهم لفترة طويلة. هم الطعم الطبيعيّ لأسراب من اللصوص تركن تحت الصخور لعدّة قرون، ولكنّها تأتي لتزحف عندما تشمّ رائحة إنسان يتوسّل أن يُغفَر له ذنب امتلاكه الثروة. وسوف يعجّلون بإعفائه من الذنب، ومن حياته، كما يستحقّ.

ـ ثمّ سترى صعود الناس ذوي المعايير المزدوجة – أولئك البشر الذين يعيشون بالقوّة، ومع ذلك يعتمدون على أولئك الذين يعيشون عن طريق التجارة لإضفاء قيمة على أموالهم المنهوبة – أي الناس الذين ينشرون الفضيلة. ففي مجتمع أخلاقيّ، هؤلاء هم المجرمون، والقوانين الأساسيّة إنّما وضعت لحمايتك منهم. ولكن عندما يمتّع المجتمع المجرمين بالحقّ في النهب باسم القانون – أي لأولئك الذين يستخدمون القوّة للاستيلاء على ثروة الضحايا المنزوعي السلاح – فإنّ المال يصبح نقمة لمخترعيه. هؤلاء اللصوص يعتقدون أنّ من الآمن سرقة البشر العزّل، بمجرّد أن يصدروا قانونًا ينزع منهم سلاحهم. ولكنّ ناهبها سيتحوّل إلى مغناطيس يجذب الناهبين الآخرين، الذين سيسلبون منه كلّ شيء حصل عليه. ثمّ يستمرّ السباق، لا سباق القادرين على الإنتاج، ولكن سباق أولئك الذين لا يرحمون في وحشيّتهم. وحين تكون القوّة هي المعيار، يفوز القاتل على النشّال. ثمّ يختفي ذلك المجتمع، في انتشار الخراب والذبح.

ـ هل ترغب في معرفة ما إذا كان ذلك اليوم على وشك القدوم؟ فقط راقب المال. فالمال هو مقياس فضيلة المجتمع. عندما ترى التداول يتمّ، لا بالموافقة، ولكن عن طريق الإكراه؛ وحين ترى أنّك من أجل الإنتاج، تحتاج إلى الحصول على إذن من الناس الذين لا ينتجون أيّ شيء؛ وحين ترى المال يتدفّق إلى أولئك الذين يتعاملون، لا مع السلع، ولكن مع المصالح؛ وحين ترى الناس يزدادون ثراءً عن طريق الكسب

غير المشروع والرشوة عوضًا عن العمل، وترى قوانينك لا تحميك منهم، بل تحميهم منك؛ وحين ترى الفساد يكافأ والصدق يصبح تضحية بالنفس، فاعلم أنّ مجتمعك محكوم عليه بالفشل. المال هو وسيلة نبيلة إلى درجة أنّه لا ينافس الأسلحة ولا يجعل من المعاملة وحشيّة. ولن يسمح لبلد بالبقاء على قيد الحياة ونصفه ممتَلَكٌ ونصفه الآخر منهوب.

ـ وكلّما ظهر المخرّبون بين البشر، فإنّهم سيبدؤون بتدمير المال، لأنّه يمثّل حماية للبشر وقاعدة للوجود الأخلاقيّ. فالمخرّبون يستولون على الذهب ويتركون لأصحابه مجرّد كومة من الأوراق المزيّفة. وهذا من شأنه أن يغتال جميع المعايير الموضوعيّة ويسلّم الناس إلى سلطة تعسّفيّة يضع قيمها فرد اعتباطيّ. لقد كانت للذهب قيمة موضوعيّة، وهي ما يعادل الثروة المنتجة. أمّا الورق فهو رهن للثروة التي لا وجود لها، مدعومة بمسدّس موجّه إلى أولئك الذين من المتوقّع أن ينتجوها. فالورق هو شيك يسحبه اللصوص القانونيّون بناءً على حساب ليس حسابهم: بناء على فضيلة الضحايا. انتظر اليوم عندما يرتدّ معلنا: حساب دون رصيد.

عندما تجعل الشرّ وسيلةً للبقاء على قيد الحياة، لا تتوقّع من البشر أن يبقوا صالحين. لا تتوقّع منهم أن يبقوا على أخلاقهم ويفقدوا حياتهم بهدف أن يصبحوا علفًا لغير الأخلاق. لا تتوقّع منهم الإنتاج، حين يعاقب الإنتاج ويجازى النهب. لا تسأل: من دمّر العالم؟ إنّه أنت.

ـ أنت تقف في خضمّ أعظم الإنجازات التي حقّقتها أعظم حضارة منتجة وتتساءل لماذا تنهار من حولك، بينما أنت تدين لها بمالها الحيويّ. أنت تنظر إلى المال كما فعل الهمج من قبلك، وتتساءل لماذا تزحف الأدغال لتصل إلى حافّة مدنك. طوال تاريخ البشر، استحوذ على المال لصوصٌ كثيرون كانوا من مختلف الأنواع والأصناف، فتغيّرت أسماؤهم بمرور التاريخ، ولكنّ طريقتهم ظلّت كما هي: الاستيلاء على الثروة بالقوّة وإبقاء المنتجين مقيّدين ومهانين ومذمومين ومعدمين من الشرف. تلك العبارة عن شرّ المال، التي تفوّهت بها على نحو يشابه الاستهتار الصائب، متأتّية من زمن

أُنتِجت الثروة فيه من قبل عمل العبيد، العبيد الذين كرّروا حركاتهم فاكتشفها في السابق عقل شخص مّا فتركها غير مُطوّرة على مدى قرون عديدة. ومادام الإنتاج يُحكَم بالقوّة، والثروة يتمّ الحصول عليها عن طريق الغزو، فإنّه لم يبقَ لنا ما نغزوه سوى القليل من الأشياء. ومع ذلك، فقد مجّد البشر، عبر كلّ قرون الركود والتجويع، جميعَ الناهبين من أرستقراطيّة السيف، والناس الذين يولدون أرستقراطيّين بالفطرة، وأرستقراطيّة البيروقراطيّة، واحتقروا المنتجين، من عبيد، وتجّار، وأصحاب المتاجر والصناعيّين.

من أجل مجد البشريّة، كان هناك، وللمرّة الأولى والوحيدة في التاريخ، بلد المال، لا أملك عبارات تليق لأبجّل بها أمريكا، لأنّها تعني: وطن العقل والعدالة والحرّيّة والإنتاج والإنجاز. وللمرّة الأولى، تحرّر عقل الإنسان وأمواله، ولم تحقّق الثروات بالغزو، بل بالعمل وحده، وبدلًا من السيوف والعبيد، ظهر صانع الثروة الحقيقيّ، أعظم عامل، وأعلى نوع من البشر -الإنسان الذي صنع نفسه- الصناعيّ الأمريكيّ.

ـ إذا طلبت منّي أن أسمّي ما هو أكثر تميّزًا وفخرًا بين الأميركيّين، فسأختار – لأنّه يحتوي على كلّ الميزات الأخرى – حقيقةَ أنّهم هم الأشخاص الذين ابتكروا عبارة (كسب المال). لم تستخدم أيّ لغة أو أمّة أخرى هذه الكلمات من قبل؛ كان البشر دائما يفكّرون في الثروة بوصفها كمّيّة ثابتة، ليتمّ الاستيلاء عليها، وتسوّلها، ووراثتها، وتقاسمها، ونهبها أو الحصول عليها بوصفها خدمة. كان الأميركيّون هم أوّل من فهم ضرورة خلق الثروة. فحملت كلمات من قبيل (كسب المال) جوهر الأخلاق الإنسانيّة.

ـ ومع ذلك كانت تلك الكلمات بمثابة الإدانة للأميركيّين من قبل الثقافات المتعفّنة في قارّات اللصوص. إنّ عقيدة اللصوص تدفعك الآن إلى أن تعتبر إنجازاتك الأكثر فخرًا سمةً مميّزة للعار، وازدهارَك ذنبًا، وأعظم رجالك من الصناعيّين أوغادًا، ومصانعك الرائعة نتاجًا وملكيّة للعمالة العضليّة وعمل العبيد الذين تحرّكهم السياط، مثل عبيد أهرامات مصر. وذلك الجرذ المتعفّن الذي يتكلّف الابتسامة لا يرى فرقًا

بين قوّة الدولار وقوّة السوط، يجب أن يتعلّم الفرق وهو مندسّ في مخبئه الخاصّ، وأظن أنّه سيتعلّم ذلك.

ـ ومن الآن حتّى ذلك الزمن وما لم تكتشف أنّ المال هو أصل كلّ الخير، فإنّ ما تطلبه ليس سوى دمارك الخاصّ. فعندما لا يكون المال هو الأداة التي يتعامل بها الناس في ما بينهم، فإنّ البشر سيصبحون أدوات بيد بشر آخرين. وعليك أن تختار بين الدم والسياط والبنادق أو الدولار. اتّخذ خيارك، لأنّه لا يوجد أيّ خيار آخر، والوقت لا يرحم.

لم يكن فرانسيسكو ينظر إلى ريردن في معرض حديثه ولو مرّة واحدة؛ ولكن بمجرّد انتهائه من الكلام صوّب عينيه مباشرة نحو وجهه. توقّف ريردن بلا حراك، ولم يرَ شيئا سوى فرانسيسكو دانكونيا من خلال ظلال الحاضرين المتحرّكة والأصوات الغاضبة بينهم.

كان من بينهم أشخاص استمعوا للحديث، لكنّهم سارعوا بالابتعاد الآن، وأناس آخرون قالوا: إنّه لأمرٌ فظيع!، هذا ليس صحيحًا!، كم هو رجل شرس وأنانيّ! لقد كانوا يصرخون بصوت عالٍ وبحرّيّة في آن واحد، كما لو أنّهم يتمنّون إسماع جيرانهم، ولكن على أمل ألّا يسمع فرانسيسكو ذلك الكلام.

قالت المرأة ذات الأقراط: أنا لا أتّفق معك، يا سيّد دانكونيا!

ـ إذا كنت تستطيعين دحض جملة واحدة تلفّظت بها يا سيّدتي، فسأكون مستعدًّا لسماعك وبامتنانٍ.

ـ لا أستطيع الإجابة. ولا أملك أيّ إجابات، عقلي لا يعمل على هذا النحو، ولكنّني لا أشعر بأنّك على حقّ، لذلك أعلم أنّك مخطئ.

ـ كيف تعلمين ذلك؟

ـ أشعر به. أنا لا أحتكم إلى ذهني، بل إلى قلبي. أمّا أنت فقد تكون جيّدا في توظيف المنطق، ولكنّك إنسان بلا قلب.

ـ يا سيّدتي، حين نرى الناس يموتون بسبب الجوع من حولنا، لن يكون لقلبك أيّ دور دنيويّ لاستخدامه في إنقاذهم. وأنا لا أملك ما يكفي من القلب لأقول لك ذلك عندما تصرخين: لكنّني لم أكن أعرف هذا! ولا أحد ساعتها سيغفر لك ذلك.

انتقلت المرأة بعيدا عنه، والارتجاف يسري في عضلات خدّيها، ثمّ قال:

ـ حسنا، إنّها بالتأكيد طريقة مسلّية للحديث في هذه الحفلة!

وتكلّم رجل بَدِينٌ ذو عينين مراوغتين بصوت عالٍ، وبنبرة فيها تكلّفٌ للبشاشة، ممّا يوحي بأنّ اهتمامه الوحيد في أيّ قضيّة هو ألّا يسمح للنقاش بأن يصبح غير سارّ: إذا كانت تلك هي الطريقة التي تفكّر بها تجاه المال يا رجل، فأنا أعتقد أنّني سعيد جدًّا لأنّني قد حصلت على حصّة جيّدة من أسهم شركة دانكونيا للنحاس.

ردّ عليه فرانسيسكو: يا سيّدي، عليك أن تفكّر في الأمر مرّتين.

بدأ ريردن في التوجّه نحوه، وكذلك تحرّك فرانسيسكو، الذي لم يكن يبدو أنّه ينظر في اتّجاهه. فعلا ذلك لمقابلته في آن واحد، كما لو أنّ الآخرين غير موجودين.

قال ريردن ببساطة، وسهولة، وكأنّه يخاطب صديق طفولته: مرحبًا.

ثمّ رأى ابتسامته تنعكس في وجه فرانسيسكو الذي ردّ قائلا:

ـ مرحبًا.

ـ أريد أن أتحدّث إليك.

ـ ومن تخالني كنت أحدّث طوال ربع الساعة الأخير؟

قال ريردن وهو يبتسم: لم أكن أظنّ أنّك انتبهت إلى وجودي.

ـ منذ أن دخلت إلى الحفل لاحظت أنّك وشخص آخر كنتما، في هذه القاعة، الوحيدين اللذين سعدا لرؤيتي.

ـ ألا ترى أنّك تبدو متعجرفًا على هذا النحو؟

ـ لا.. بل أنا ممتنّ.

ـ ومن هو الشخص الآخر الذي كان سعيدًا لرؤيتك؟

تجاهل فرانسيسكو السؤال فردّ باستخفافٍ: امرأة.

لاحظ ريردن أنّ فرانسيسكو قاده إلى الحديث على حِدَةٍ، بعيدًا عن المجموعة، بطريقة طبيعيّة وبمهارة لا يعرف معها هو ولا الآخرون أنّ ما جرى كان متعمّدا.

قال فرانسيسكو: لم أتوقّع أن أجدك هنا. لم يكن عليك المجيء إلى هذه الحفلة.

ـ ولِمَ لا؟

ـ هل لي أن أعرف سبب مجيئك إلى هنا؟

ـ لقد كانت زوجتي حريصة على قبول الدعوة.

ـ اعذرني بأن أعبّر عن هذا الأمر على هذا النحو: لقد كان من الأفضل لو طلبت منك زوجتك أن تأخذها في جولة ببيوت الدعارة، على أن تأتيا إلى هنا. إنّ حضور هذا الحفل أمرٌ خطير.

ـ وأين يكمن هذا الخطر؟

ـ أنت لا تعلم، يا سيّد ريردن، طريقة هؤلاء الناس في ممارسة الأعمال التجاريّة أو كيف يفسّرون وجودك هنا. فوفقًا لعرفك، وليس وفق عرفهم، يكون قبول ضيافة الرجل رمزًا لحسن النيّة، وإعلان أنّك ومضيّفك تقفان على شروط علاقة حضاريّة. فلا تمنحهم هذا النوع من العقوبة.

ـ ولماذا جئت أنت إلى هنا؟

تجاهله فرانسيسكو بمرح وقال: أوه، لا تكترث لما أفعله. فأنا مجرّد كلب صيد.

ـ وماذا تفعل في هذه الحفلة؟

ـ أبحث فقط عن فتوحات.

ـ وهل وجدت أيًّا منها؟

سرعان ما تغيّرت ملامح فرانسيسكو فأصبح جدّيًّا فأجابه على نحو صارم

ورسميّ:

ـ بالتأكيد، وأعتقد أنّه سيكون أفضل وأعظم فتح.

غضب ريردن بشكل لاإراديّ، وأطلق صرخة، كانت أقرب إلى اليأس منها إلى اللوم:

ـ كيف لك أن تضيّع نفسك على هذا النحو؟

صدرت إشارة خافتة للابتسامة، مثل انعكاس ضوء بعيد في عيني فرانسيسكو بينما كان يسأل هانك:

ـ هل يهمّك أن تعترف بأنّك تهتمّ بشأني؟

قال ريردن: ستستمع للكثير من الاعترافات، إذا كان هذا ما تبحث عنه. فقبل أن ألتقي بك، كنت أتساءل كيف أمكن لك تبديد ثروة مثل ثروتك. أمّا الآن فقد ازداد الأمر سوءًا، لأنّني لا أستطيع احتقارك مثلما كنت أفعل سابقًا أو كما أودّ أن أفعل الآن، ولكنّ السؤال الأكثر فظاعة: كيف أمكن لك تدمير عقل مثل عقلك؟

ـ لا أعتقد أنّني بصدد تدميره الآن.

ـ لا أعرف إن كان ما يزال هناك أيّ شيء قد يعنيك، ولكنّي أودّ أن أقول لك ما لم أقله لأحد قبلك. هل تتذكّر أنّك قلت، حين قابلتك، إنّك تريد أن تقدّم لي امتنانك؟

لم يتبقّ أيّ أثر للتسلية في عيني فرانسيسكو، ولم يسبق لريردن أن تلقّى احتراما مهيبًا كالاحترام الذي تعبّر عنه عينا فرانسيسكو الذي أجابه بهدوء:

ـ نعم يا سيّد ريردن.

ـ قلت لك حينها إنّني لست بحاجة إلى معروفك وامتنانك، بل وأهنتك بسببه. حسنًا، لقد فزت. والخطاب الذي أدليت به الليلة هو ما كنت تعرضه عليّ، أليس كذلك؟

ـ نعم، يا سيّد ريردن.

ـ لقد فاق خطابك كلّ معاني الامتنان، لأنّني كنت بحاجة إلى الامتنان؛ كما فاق مشاعر الإعجاب، وأنا كنت بحاجة إلى ذلك أيضًا، ولكن كان أكثر بكثير من أيّ كلمة أستطيع أن أجدها لتعبّر عنه، وسيستغرق منّي الأمر أيّامًا طويلة من التفكير في كلّ ما وهبني إيّاه خطابك، ولكنّني أعلم أمرًا وحيدًا: هو أنّني كنت بحاجة إلى ذلك الخطاب. لم يسبق لي أن قدّمت اعترافا من هذا النوع، لأنّني لم أطلب من قبل مساعدة من أيّ شخص. وإذا كان يسلّيك استنتاجك أنّني كنت سعيدا لرؤيتك، فلديك الآن شيء حقيقيّ ليضحك ، إذا كنت ترغب في ذلك.

ـ قد يستغرق منّي الأمر بضع سنين، ولكن سأثبت لك أنّ هذه الأشياء لا تثير ضحكي ولا سعادتي.

أثبت ذلك الآن بالإجابة عن سؤال واحد: لماذا لا تمارس ما تبشّر به؟

ـ هل أنت متأكّد من أنّني لا أفعل ذلك؟

ـ إذا صحّت الأشياء التي قلتها، وإذا كنت تملك الجرأة على ذلك، فمن المفروض أن تكون الرجل الصناعيّ الأوّل في العالم الآن.

ـ ردّ فرانسيسكو بحزم، تمامًا مثلما ردّ على الرجل البدين، ولكن بنبرة وديعة هذه المرّة: عليك أن تفكّر في الأمر مرّتين يا سيّد ريردن.

ـ لقد فكّرت في هذا الأمر كثيرًا، لكنّني لم أخلص إلى أيّ جواب.

ـ دعني أعطكَ تلميحًا: إذا كانت الأشياء التي قلتها صحيحة، فمن هو الرجل الأكثر ذنوبًا في هذه القاعة الليلة؟

ـ أفترض أنّه جيمس تاجارت؟

ـ لا يا سيّد ريردن، ليس جيمس تاجارت. ولكن يجب عليك تحديد الذنب واختيار الرجل بنفسك.

ـ لو حدث هذا الأمر قبل بضع سنوات، لقلت إنّه أنت. ومازلت أعتقد أنّ هذا ما يجب أن أقوله. لكنّني تقريبًا وُضعت في موقف تلك المرأة الغبيّة التي تحدّثت إليك:

فكلّ سبب أعرفه يخبرني بأنّك المذنب، ومع هذا لا أستطيع الشعور بذلك.

ـ أنت ترتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبته تلك المرأة، يا سيّد ريردن، ولكن على نحو نبيلٍ.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أكثر بكثير من مجرّد حكمك عليّ. تلك المرأة وكلّ من شابهها يستمرّون في التهرّب من الأفكار التي يعرفون أنّها جيّدة. أمّا أنت فلا تنفكّ تخرج من عقلك الأفكار التي تعتقد أنّها شرّيرة. هم يفعلون ذلك لأنّهم يريدون تجنّب الجهد، أمّا أنت فتفعل ذلك، لأنّك لن تسمح لنفسك بالنظر إلى أيّ شيء من شأنه أن يرحمك. إنّهم ينغمسون في عواطفهم مهما كلّفهم الأمر. أمّا أنت فتضحي بمشاعرك كأوّل ثمن لأيّ مشكلة. إنّهم غير مستعدّين لتحمّل أيّ عبء. أمّا أنت فمستعدّ لتحمّل أيّ أعباء. إنّهم يستمرّون في التهرّب من المسؤوليّة، بينما تستمرّ أنت في تحمّلها. لكن ألا ترى أنّ الخطأ الأساسيّ هو نفسه؟ وأيّ رفض للاعتراف بالواقع، لأيّ سبب من الأسباب، له عواقب وخيمة. لا توجد أفكار شرّيرة إلّا واحدة فقط: هي رفض التفكير. لا تتجاهل رغباتك يا سيّد ريردن ولا تُضحِّ بها. تأمّل فقط أسبابَها. فهناك حدّ مّا لتحمّلك.

ـ كيف عرفت هذا عنّي؟

ـ لقد ارتكبت الخطأ نفسه سابقًا. ولكن لم يدم لفترة طويلة.

ـ أتمنّى...

توقّف ريردن فجأةً عن الكلام، فابتسم فرانسيسكو، ثمّ قال:

ـ هل تخشى أن تتمنّى يا سيّد ريردن؟

ـ أتمنّى السماح لنفسي بأن أحبّك ما استطعتُ.

ـ كنت سأعطي..

توقّف فرانسيسكو عن الكلام، ولكن لسبب غير مفهوم، فرأى ريردن نظرة تحمل

عاطفةً لم يستطع تحديدها، لكنّه كاد يقول إنّه شعور بالألم؛ لقد شاهد أوّل لحظة تردّد لفرانسيسكو.

ـ هل تملك أيّ أسهم في شركة دانكونيا للنحاس، يا سيّد ريردن؟

قال ريردن بعدما نظر إليه بحيرة: لا.

ـ في يوم من الأيّام، ستدرك ماهية الخيانة التي أنا بصدد ارتكابها الآن، ولكن... لا تشترِ أبدًا أيّ سهم من أسهم شركة دانكونيا للنحاس. لا تتعامل أبدًا مع شركة دانكونيا للنحاس بأيّ شكل من الأشكال.

ـ ولماذا؟

ـ حين تعرف السبب الكامل، ستدرك ما إذا كان هناك أيّ شيء أو أيّ شخص يستحقّ عندي أكثر من اللعن و... وكم كان يعني لي ذلك.

عبس ريردن، لقد تذكّر شيئًا، ثمّ قال:

ـ لن أتعامل مع شركتك. ألم تسمِّ من ينتمون إليها بالرجال أصحاب المعايير المزدوجة؟ ألست أحد اللصوص الذين يراكمون الآن الثروة بفضل تلك التوجيهات؟

لسبب غير مفهوم لم يدرك فرانسيسكو أنّ تلك الجمل كانت تضجّ بالإهانة. مسح وجهه ليستعيد مجدّدًا مظهر أمانه وقال:

ـ وهل تعتقد أنّني كنت مَن أغراهم بسنّ تلك التوجيهات من المخطّطين اللصوص؟

ـ إذا لم يكن كذلك، فمن فعله إذَن؟

ـ لقد فعلها وسطائيّ المتطفّلين.

ـ هل تمّ ذلك الأمر دون موافقتك؟

ـ بل حتّى دون علمي.

ـ أودّ أن أصدّقك، ولكن لا توجد طريقة لإثبات ذلك الآن.

ـ لا؟ سأثبت لك ذلك في خلال الدقائق الخمس عشرة القادمة.

ـ كيف؟ الحقيقة الوحيدة التي يعرفها الجميع هي أنّك أكبر مستفيد من تلك التوجيهات.

ـ هذا صحيح. لقد استفدت أكثر ممّا يمكن للسيّد ماوتش وعصابته تخيّله بعد سنوات من عملي، لقد منحوني الفرصة التي أحتاج إليها.

ـ هل أنت بصدد التباهي؟

ـ وهل تراهن على أنّني بصدد التباهي.

رأى ريردن بريبةٍ أنّ عيني فرانسيسكو تحملان نظرة صلبة ومشرقة، نظرة لا تمتّ لكلب الصيد بصلة، بل نظرة رجل أعمال مقتدر.

ـ وهل تعلم يا سيّد ريردن أين يحتفظ معظم هؤلاء الأرستقراطيّين الجدد بأموالهم الخفيّة؟ هل تعلم أين استثمرت معظم النسور حصّة أرباحها العادلة من معدن ريردن؟

ـ لا، ولكن..

ـ في أسهم شركة دانكونيا للنحاس. لأنّها شركة قديمة منيعة وغنيّة حتّى إنّها ستستمرّ في البقاء لمدّة ثلاثة أجيال أخرى من النهب. إنّها شركة يديرها رجل مستهتر منحلّ لا يعطي شيئًا سوى اللعن، وهو يسمح لهم باستخدام ممتلكاته في أيّ شكل من الأشكال التي يحلو لهم ويستمرّون في كسب المال بشكل تلقائيّ، تمامًا كما فعل أسلافه. ألم يكن ذلك هو الترتيب المثاليّ للناهبين يا سيّد ريردن؟ هناك فقط نقطة واحدة فاتتهم.

قال ريردن وهو يحدّق فيه: ما الذي تلمّح إليه؟

قال فرانسيسكو بعد أن ضحك بشكلٍ مفاجئٍ: إنّه أمر سيّئ جدًّا سيلحق بهؤلاء المنتفعين من معدن ريردن. أنت لا تريدهم أن يخسروا المال الذي خصّصته لهم، أليس

كذلك يا سيّد ريردن؟ ولكنّ الحوادث تقع في العالم. هل تعلم ما يقولونه؟ هم يقولون إنّ الإنسان ليس سوى دمية عاجزة تعيش تحت رحمة كوارث الطبيعة. فعلى سبيل المثال، سيشبّ حريق في أرصفة خام شركة دانكونيا بمدينة فالبارايسو في صباح الغد، حريق سيدمّرها ويسوّيها بالأرض مع نصف هياكل الميناء. كم الساعة يا سيّد ريردن؟ هل اختلطت في ذهني الأمور؟ بعد ظهر الغد، سيكون هناك انزلاق صخريّ في مناجم دانكونيا بمدينة أورانو؛ لا أرواح ستفقد، لا إصابات، باستثناء المناجم نفسها. وسيتبيّن أنّ المناجم قد انتهت، لأنّها كانت تعمل في أماكن خاطئة لعدّة أشهر. وماذا يمكن أن تتوقّع من إدارة رجل مستهتر؟ وستدفن الرواسب الكبيرة من النحاس تحت أطنان من الجبال حيث لن يتمكّن وريث سيباستيان دانكونيا من استصلاحها في أقلّ من ثلاث سنوات، ولن تستعيدها الدولة على الإطلاق. وعندما يبدأ حاملو الأسهم في النظر إلى الأمور، سيجدون أنّ المناجم في كامبوس، وفي سان فيليكس، وفي لاس هيراس كانت تشتغل بالطريقة نفسها، وتدار وهي ترزح تحت الخسارة لأكثر من عام. لقد تلاعب المستهتر فقط بالدفاتر التي أبقاها بعيدة عن أعين الصحفيّين. هل أخبرك بما سيكتشفونه عن إدارة مسابك دانكونيا؟ أو عن أسطول خامات دانكونيا؟ ولكنّ كلّ هذه الاكتشافات لن تجلب أيّ خير لأصحاب الأسهم بأيّ حال من الأحوال، لأنّ أسهم شركة دانكونيا للنحاس ستتحطّم صباح الغد، ستتحطّم مثل مصباح كهربائيّ حين يقع على خرسانة، ستتحطّم مثل مصعد سريع حين ينثر جميع راكبيه إلى أشلاء في جميع أنحاء المزاريب!

اندمج صوت فرانسيسكو الصاعد بانتصارٍ مع صوت مطابق، فانفجر ريردن ضاحكًا.

لم يكن ريردن يعلم كم من الوقت دامت تلك اللحظة أو ما شعر به خلالها، فقد كان الأمر أشبه بصفعة ترمي به إلى نوع آخر من الوعي، ثمّ صفعة ثانية تعيده إلى ذاته. كلّ ما تبقّى، كما في صحوةٍ من مخدّرٍ، كان هو الشعور بأنّه يدرك نوعًا هائلًا من الحرّيّة لا يمكن أبدًا أن يضاهيه في الواقع. كان ذلك يشبه حريق وايت مجدّدًا، فظنّ أنّ ذلك

هو خطره السرّيّ.

ثمّ وجد نفسه يبتعد قليلًا عن فرانسيسكو دانكونيا. فوقف فرانسيسكو يراقبه باهتمام، وبدا كما لو أنّه كان يراقبه طوال تلك المدّة غير المعلومة من الزمن.

قال فرانسيسكو بهدوء: يا سيّد ريردن، لا توجد أفكار شرّيرة إلّا فكرة واحدة هي رفض التفكير.

ردّ ريردن: لا.

لم يكد يهمس، كان عليه أن يبقي صوته منخفضًا لأنّه يخشى أن يسمع نفسه وهو يصرخ، ثمّ أضاف:

ـ لا... إذا كنت ترى هذا الأمر مفتاحًا، فلا تتوقّع منّي أن أهلّل لك... لم تكن تملك القوّة لمحاربتهم...لقد اخترت أسهل طريق وأكثرها فسادًا... إنّه تدمير متعمّد... تدمير إنجاز لم تصنعه ولم تستطع التلاؤم معه...

ـ لن تقرأ هذا الأمر في الصحف غدًا. ولن يكون هناك أيّ دليل على التدمير المتعمّد. فكلّ شيء وقع وفق المسار العاديّ الذي يمكن تفسيره وتبريره بضعف الكفاءة. فضعف الكفاءة لا يفترض أن يعاقب عليه المرء في الوقت الحاضر، أليس كذلك؟ ولعلّ الأولاد في بوينس آيرس والأولاد في سانتياغو يريدون أن يسلّموني إعانة عن طريق العزاء والمكافأة. لا يزال هناك جزءٌ كبير متبقٍّ من شركة دانكونيا للنحاس، على الرغم من أنّ جزءًا كبيرًا من ذلك ذهب إلى الأبد ولن يعود. لا أحد سيقول إنّني فعلت ذلك عمدًا. ولك أن تفهم الأمور كما تريد.

قال ريردن بهدوءٍ: أعتقد أنّك الرجل المذنب في هذه القاعة. أعتقد أنّك أسوأ من أيّ كائن يمكنني أن أتخيّله...

نظر إليه فرانسيسكو بنصف ابتسامة غريبة من الصفاء، صفاء الانتصار على الألم، ولم يجبه.

كان صمتهما هو الذي سمح لهما بسماع أصوات الرجلين اللذين كانا على بعد

خطوات قليلة منهما، فحوّلا نظرهما إلى المتحدّثين.

أحدهما كان رجلًا مسنًّا ممتلئ الجسم ومن الواضح أنّه رجل أعمال من النوع غير المدهش لأصحاب الضمائر الحيّة. وكان يرتدي بدلة من اللباس الرسميّ، من النوع الجيّد، ولكنّها تنتمي إلى الموضة المألوفة قبل عشرين عامًا، بصبغة باهتة من اللون الأخضر المتدرّج وفق طبقات؛ ويبدو أنّه كان يرتدي تلك البدلة في مناسبات قليلة. أمّا قميصه فكان مرصّعًا على نحو كبير جدًّا وبشكل مزهوّ، ولكنّه كان زهوا موروثًا مثيرا للشفقة، بقطع معقّدة من الطراز القديم، التي ربّما ورثها عبر أربعة أجيال تمامًا مثل تجارته. كان وجهه يحمل التعبير الذي يسمّى، في تلك الأيّام، علامةَ صدق الرجل: إنّه التعبير عن الحيرة. كان ينظر إلى رفيقه، وهو يحاول جاهدًا وعلى نحو ميؤوس منه أن يفهم.

كان رفيقه أصغر منّه سنّا وأقصر قامة، إنّه رجل صغير بلحم متكتّل، وصدر مندفع إلى الأمام ونقاط رقيقة بارزة على الشارب. ويقول، بنبرة متعالية من الملل:

ـ حسنًا، لا أعلم. كلّكم تتذمّرون من ارتفاع التكاليف، ويبدو أنّ الشكوى من الأسهم في الوقت الحاضر هي الأنين المعتاد بين الناس الذين تقلّصت أرباحهم قليلًا. لا أعلم، يجب أن ننظر في الأمر، وعلينا أن نقرّر ما إذا كنّا سنسمح لك بجني أيّ أرباح أم لا.

نظر ريردن إلى فرانسيسكو، ولمح وجهًا تجاوز تصوّرَه لما يمكن أن يفعله نقاء هدف واحد في ملامح البشر: كان أكثر الوجوه التي لا ترحم، ويمكن للمرء أن يسمح لنفسه برؤيتها. ففكّر في نفسه على أنّه شخص لا يرحم، لكنّه يعلم أنّه لا يمكن أن يطابق ذلك المستوى من العراء بنظرة عنيدة، وفارغة من أيّ شعور. ولكنّها كانت ملامح عدالة. واعتقد ريردن أنّه مهما يكُن ما تبقّى من جسد فرانسيسكو فإنّ الإنسان الذي يمكن أن يواجهه لا بدّ أن يكون عملاقًا.

وبعد فترة التفت فرانسيسكو إليه بوجه عاديّ، ثمّ قال بهدوء شديد:

ـ لقد غيّرت رأيي يا سيّد ريردن. أنا سعيد بمجيئك إلى هذه الحفلة. أريدك أن تنظر في هذا الأمر.

ثمّ أضاف فرانسيسكو فجأةً وهو يقول بنبرة مرحة وفضفاضة لرجل عديم المسؤوليّة:

– أنت لن تمنحني هذا القرض يا سيّد ريردن؟ هذا يضعني في موقف فظيع ولا بدّ لي من الحصول على المال، لا بدّ لي من جمعه في هذه الليلة، لا بدّ لي من جمعه قبل أن تفتح البورصة في الصباح، لأنّه في غياب ذلك...

لم يكن مجبرًا على الاستمرار في الكلام، لأنّ الرجل الصغير ذا الشارب كان يمسك بذراعه.

لم يعتقد ريردن قطّ أنّ جسد الإنسان قد يُغيّر مقاييسه أمام نظر المرء، لكنّه رأى الرجل يتقلّص في الوزن، وفي الهيئة، وفي الشكل، كما لو أنّ الهواء كان يخرج من كتله العضليّة، وفجأةً أصبح مَن كان حاكمًا متغطرسًا قطعةَ خردة لا يمكن أن تشكّل تهديدًا لأحد. فقال:

ـ هل من خطب يا سيّد دانكونيا؟ أعني، ...في البورصة؟

أشار فرانسيسكو بيده إلى ريردن بأن يلتزم الصمت، قبل أن يهمس إليه:

ـ اصمت، بربّك اصمت!

كان الرجل يرتجف وهو يقول:

ـ هل وقع... خطأ مّا؟

ـ لم يسبق لك أن امتلكت أيّ سهم في شركة دانكونيا للنحاس، أليس كذلك؟

أومأ الرجل برأسه، لأنّه لم يكن قادرًا على الكلام. وقال له فرانسيسكو:

ـ يا الله، الأمر يزداد سوءًا! حسنًا، اسمع، سأخبرك بشيء إذا أعطيتني كلمة شرف، لكن لا بدّ أن تعدني بألّا تعيده على أحد. فأنت لا ترغب في أن يساورك الشعور

بالذعر.

قال الرجل وهو يلهث: أمنحك كلمة الشرف...

ـ ما أنصحك به هو أن تسرع إلى سمسار الأسهم الماليّة الخاصّ بك وتبيعها بأسرع ما يمكن، لأنّ الأمور لا تسير على نحوٍ جيّد جدًّا في شركة دانكونيا للنحاس، فأنا أحاول أن أجمع بعض المال، ولكن إذا لم أنجح في ذلك، فستكون محظوظًا لو تحصّلت على عشرة سنتات مقابل الدولار صباح الغد. يا الله! لقد نسيت أنّك لا تستطيع الوصول إلى سمسار البورصة الخاصّ بك قبل صباح الغد. حسنًا، الأمر يزداد سوءًا، ولكن..

أخذ الرجل في العدو عبر الغرفة، وهو يدفع الناس بعيدًا عن طريقه، كأنّه طوربيد أطلق بين الحشد.

ـ صرخ فرانسيسكو بقسوة وهو يلتفت إلى ريردن: انتبه.

غاب الرجل في الحشد، ولم يتمكّنا من رؤيته أو معرفة لَمن كان سيبيع سرّه، أو ما إذا كان لديه ما يكفي من الدهاء ليتاجر بتلك الأسهم مع أولئك الذين يملكون الامتيازات، لكنّهما شاهدا نتائج مروره تنتشر من خلال القاعة، والتشرذم المفاجئ الذي قسّم الحشد، مثل التصدّعات القليلة الأولى، ثمّ مثل الشقوق المتسارعة التي تجتاح جدارًا على وشك الانهيار، فتُحدث خطوطًا منخفضة من الفراغ، لا عن طريق لمسة إنسانيّة، ولكن بسبب الرعب.

واختنقت الأصوات فجأةً، وخيّم الصمت، ثمّ ارتفعت أصوات ذات طبيعة مختلفة، كانت تتعالى بشكل مطّرد أسئلةٌ عديمة الجدوى، وهمساتٌ غير طبيعيّة، ثمّ صرخت امرأةٌ في خضمّ قهقهات قليلة متباعدة وضحك قسريّ لأولئك الذين لا يزالون يحاولون التظاهر بأن لا شيء قد حدث.

كانت هناك بقع من الجمود في حركة الحشد، مثل انتشار بقعٍ من الشلل، ولكنّ سكونًا مفاجئًا عمّ القاعة، كما لو أنّ محرّكًا أُوقِف عن الاشتغال؛ ثمّ وقعت حركة

ارتجاج محمومة تائهة وبلا هدف، وارتطام أجسامٍ في أسفل التلّة تحت رحمة الجاذبيّة العمياء لكلّ صخرة تصطدم بها في الطريق. كان الناس يهربون، ويهرعون إلى الهواتف، ويركضون بعضهم تجاه بعض، يمسكون أو يدفعون الجثث من حولهم عشوائيًّا. هؤلاء هم أقوى الناس في البلاد، أولئك الذين حملوا معهم سلطة، لا يمكن الردّ عليها، سلطة على غذاء أيّ إنسانٍ وهيمنة على نعمة استجمامه طيلة سنوات بقائه على الأرض. لقد أصبح هؤلاء الناس مجرّد كومة من الأنقاض، تبعثرت في ريح الذعر والهلع، أنقاض فضلت من بناء قطع عموده الرئيسيّ.

هرع جيمس تاجارت، الذي لم يبدُ وجهه لائقًا بعد تعرّضه لعواطفَ تَعَلَّم البشر إخفاءها قرونًا من الزمن، إلى فرانسيسكو وصرخ: هل ما حدث صحيح؟

قال فرانسيسكو مبتسمًا: لماذا تسأل يا جيمس، ما خطبك؟ لماذا تبدو منزعجًا؟ المال هو أصل كلّ الشرور، لذلك سئمت أن أكون شريرًا.

ركض تاجارت نحو المخرج الرئيسيّ، وصرخ بشيءٍ لأورين بويل وهو في طريق الخروج. أومأ بويل برأسه، وظلّ يومئ بشيء من الحرص والتواضع كخادم غير ذي جدوى، ثمّ اندفع قبالته في اتّجاه آخر. ركضت تشيريل وراء تاجارت، بوشاح زفافها الملفوف حولها مثل سحابة كريستال في الهواء، وأمسكت به عند الباب قائلة:

ـ ماذا حدث يا جيم؟

دفعها جانبًا، فسقطت على معدة بول لاركين، بينما هرب تاجارت. ثمّ وقف ثلاثة أشخاص ثابتين بلا حراك، مثل ثلاثة أعمدة متباعدة عبر القاعة، ومجال رؤيتهم متقاطع مع انتشار الحطام: داغني، تنظر إلى فرانسيسكو، وفرانسيسكو وريردن ينظران أحدهما إلى الآخر.

الفصل الثالث

الابتزاز الأبيض

سألت ليليان: كم الساعة الآن؟

قال ريردن في نفسه إنّ الوقت بدأ ينفدُ، لكنّه أجاب:

ـ لا أعلم. لكنّ الساعة لم تشر بعد إلى منتصف الليل.

ثم تذكّر السَّاعة التي على معصمه، فأضاف:

ـ تشير الساعة إلى منتصف الليل إلّا عشرين دقيقة.

قالت ليليان: سأستقلّ قطار العودة إلى الديار.

سمع ريردن الجملة، ولكن كان على تلك العبارات أن تنتظر دورها لتدخل ضمن المقاطع المزدحمة في وعيه. وقف ينظر بلاوعي إلى غرفة جلوس جناحه، وهي تقع على بعد مسافة ركوب المصعد لبعض دقائق عن مكان الحفلة. ثمّ أجابها تلقائيًّا في لحظة وجيزة:

ـ هل ستغادرين في هذه الساعة؟

ـ لا يزال الوقت مبكّرا. وتوجد قطارات كثيرةٌ ما تزال تعمل.

ـ أنا أرحّب بك هنا.

ـ لا، أعتقد أنّني أفضّل العودة إلى الديار.

لم يجادلها، ثمّ أضافت:

ـ وماذا عنك يا هنري؟ هل تنوي العودة إلى المنزل الليلة؟

ـ لا.. لديّ مواعيد عمل هنا غدًا.

ـ كما يحلو لك.

تناست سقوط لحاف السهرة الذي كان على كتفيها، فأمسكت به على ذراعها وبدأت تسير نحو باب غرفة نومه، لكنّها توقّفت وقالت بتوتّر:

ـ أنا أكره فرانسيسكو دانكونيا. لماذا كان عليه أن يأتي إلى تلك الحفلة؟ ألم يتعلّم بالقدر الكافي التزام الصمت، على الأقلّ حتّى صباح الغد؟

لكنّ ريردن لم يجبها، فتمادت في الحديث:

ـ إنّ ما سمح بحدوثه لشركته يعتبر أمرًا وحشيًّا. بالطبع، إنّه ليس أكثر من مستهتر فاسد، لكنّ ثروة بذلك الحجم تمثّل مسؤوليّةً. وللإهمال حدودٌ لا يمكن لأيّ إنسان أن يسمح لنفسه بتجاوزها!

تأمّل ريردن وجهها الذي كان متوتّرًا بشكل غريب، بملامح حادّة، ممّا جعلها تبدو أكبر سنًّا. وواصلت حديثها:

ـ إنّه مدين بواجب معيّن لحاملي أسهمه، أليس كذلك؟... أليس كذلك يا هنري؟

ـ هل تمانعين إذا لم نناقش ذلك الأمر؟

فزمّت شفتيها من أحد الجانبَين، في حركة تعادل التجاهل، ودخلت غرفة النوم. ووقف ريردن عند النافذة، ينظر إلى الأسفل صوب أسطح السيّارات المتدفّقة، وترك عينيه ترتاحان برؤية شيء مّا، بينما كانت مَلَكَة إبصاره منفصلة عن الوجود. كان عقله لا يزال مركّزا على الحشد في قاعة الاحتفالات بالطابق السفليّ، وأساسًا على شخصيّتين من ذلك الحشد. ولكن بما أنّ غرفة جلوسه ظلّت في تخوم مجال رؤيته، فإنّ الشعور بضرورة فعل شيء مّا كان عليه أن يفعله بقي على تخوم مجال وعيه. ثمّ أدرك للحظة ما كان عليه أن يفعله. كانت تلك الحقيقة هي أنّه مضطرّ إلى خلع ملابس السهرة، ولكن بعيدًا عن تلك الحافّة خالجه شعورٌ بالتردّد في خلع ملابسه في وجود

امرأة غريبة بغرفة نومه، ثمّ نسي القيام بذلك الأمر مجدّدًا في اللحظة الموالية.

خرجت ليليان بالأناقة ذاتها التي وصلت بها قبل الحفل، ببدلة السفر البيج المصمّمة بتناسق محكم مع جسدها، وقبّعة مائلة على أكثر من نصف رأسها أظهرت تموّجات شعرها الجميل. حملت حقيبتها، وهي تؤرجحها بهدوء، كما لو أنّها تريد إثباتَ قدرتِها على حملها.

فمدّ يده بشكل آليٍّ وعفويٍّ واستلم الحقيبة من يدها. فسألته:

ـ ماذا تفعل؟

ـ سآخذك إلى المحطّة.

ـ بهذا المظهر؟ ألم تلاحظ أنّك لم تغيّر ملابسك.

ـ لا يهمّ.

ـ لا تكلّف نفسك عناء مرافقتي. فأنا قادرة على إيجاد طريقي الخاصّ. إذا كانت لديك مواعيد للعمل غدًا، فمن الأفضل أن تخلد للنوم.

لم يجبها، بل سار معها إلى الباب، وأبقاه مفتوحًا لها ثمّ تبعها إلى المصعد. وظلّا صامتين عندما ركبا سيّارة أجرةٍ إلى المحطّة. في مثل تلك اللحظات تذكّر وجودها، فلاحظ أنّها كانت تجلس باستقامة، كما لو أنّها تتباهى باتّزان هيئتها؛ لقد بدت يقظة وراضية، وكأنّها بدأت رحلة هادفة في الصباح الباكر.

توقّفت سيّارة الأجرة عند مدخل محطّة تاجارت. كانت الأضواء الساطعة تغمر المدخل الزجاجيّ العظيم، فحوّلت تأخّر الساعة إلى شعور بالأمان النشط الخالد. قفزت ليليان بخفّة من سيّارة الأجرة، قائلةً:

ـ ما من ضرورة لنزولك، عُدْ أدراجك إلى حيث كنت. هل ستكون معنا بالمنزل لتناول العشاء غدًا أم في الشهر المقبل؟

قال: سأهاتفك حين أقرّر العودة.

وبيدها التي كانت ترتدي قفّازًا لوّحت لتودّعه. واختفت في أضواء المدخل. ومع بدء تحرّك سيّارة الأجرة إلى الأمام، أعطى السائقَ عنوانَ شقّة داغني.

كانت الشقّة مظلمة عندما دخل، لكنّ باب غرفة نومها كان نصف مفتوح فسمع صوتها يقول: مرحبًا بك يا هانك.

تساءل وهو يدخل: هل كنت نائمة؟

ـ لا.

فأضاء الغرفة ورآها. كانت مستلقيةً على السرير، ورأسها مسنود على الوسادة، وشعرها منسدلٌ بانسيابٍ على كتفيها، كما لو أنّها لم تتحرّك لفترة طويلة، ولكنّ وجهها لم يكن مضطربًا. كانت تبدو مثل تلميذة بطوقٍ خِيطَ على ثوب نومٍ أزرق باهتٍ يقع عاليًا جدًّا من مركز رقبتها.

جلس على حافّة السرير، فابتسمت، مشيرةً إلى أنّ الشكليّات الصارمة في ملابسه جعلت أفعاله تبدو حميمةً بشكل طبيعيّ بسيط، فبادلها الابتسام. لقد جاء وهو على كامل الاستعداد لرفض المغفرة التي منحته إيّاها في الحفلة، كحال المرء حين يرفض معروفًا من خصم كريمٍ جدًّا. وبدلًا من ذلك، مدّ يده فجأةً ولمس جبهتها، وأسفل خطّ شعرها، في لفتةٍ من حنانٍ يُشعِر بالحماية، وبشعور مفاجئ بمدى نعومتها الطفوليّة، وبأنّها كانت الخصم الذي تحمّل التحدّي المستمرّ لقوّته، ولكنّه أيضًا الخصم الذي ينبغي عليه أن يوفّر له الحماية.

قال: أنت تحملين أعباء كثيرة. وأنا جعلت الأمر يبدو أكثر صعوبة بالنسبة إليك...

ـ لا يا هانك، لم تَفعل ذلك، وأنت تعلم هذا.

ـ أعلم أنّك تمتلكين القوّة لعدم السماح لهذا الأمر بإيذائك، لكنّها قوّة لا يحقّ لي الاستنجاد بها أو طلبها. ومع ذلك فعلت، وليس لديّ أيّ حلّ، ولا شيء أملكه لأكفّر به عن ذنبي. لا يسعني إلّا أن أعترف بأنّني أعلم ذلك وأنّه لا توجد طريقة أستطيع بها طلب المغفرة منك.

ـ لم ترتكب ذنبًا لكي أغفره لك.

ـ لم يكن لديّ الحقّ في جلب ليليان أثناء حضورك.

ـ لم يسبّب لي حضورها أيّ أذى. فقط ...

ـ بلى؟

ـ ... فقط رؤيتك وأنت تتعذّب... كان من الصعب عليّ أن أراك على ذلك النحو.

ـ لا أعتقد أنّ المعاناة تُعوّض عن أيّ شيء، ولكن مهما يكن شعورك، فأنا لم أعانِ بما فيه الكفاية. إذا كان يوجد شيء أكرهه فهو الحديث عن معاناتي، لأنّها لا تعني أيّ أحدٍ بقدر ما تعنيني شخصيًّا. ولكن إذا كنت تريدين أن تعلمي، وإن كنت تدركين ذلك مسبقًا، نعم، كان ذلك عبارة عن جحيم بالنسبة إليّ. أتمنّى لو كان الأمر أسوأ من ذلك بكثير. على الأقلّ، أنا لا أدّعي الإفلات منه.

قال ريردن ذلك على نحو جادٍّ ومن دون انفعال، كأنّه حكم غير شخصيّ على نفسه. فابتسمت، بحزن تشوبه التسلية، ثمّ أخذت يده ووضعتها على شفتيها، وهزّت رأسها رفضًا لذلك الحكم، مخفيةً وجهها بيده.

سألها بهدوء: ما قصدك؟

قالت بحزم: لا شيء.. هانك، كنت أعلم أنّك متزوّج. وكنت واعيةً بما أفعله. لقد اخترت أن أفعل ذلك، ولستَ مدينًا لي بأيّ شيء، ولا ينبغي أن تفكّر في أيّ واجب تجاهي.

هزّ رأسه ببطء، احتجاجًا على كلامها.

ـ هانك، لا أريد منك شيئًا سوى ما تريد أن تعطيني إيّاه. هل تتذكّر أنّك دعوتني بالتاجرة ذات مرّة؟ أريدك أن تأتي إليّ فلا تبحث عن أيّ شيء سوى متعتك. ومادمت ترغب في البقاء متزوّجًا مهما كان سببك، فليس لديّ الحقّ في أن أُستاء منه. طريقتي في التداول هي أن أدرك أنّ الفرح الذي تمنحني إيّاه هو مقابلٌ للفرح الذي تحصل عليه منّي، وليس من خلال معاناتك أو معاناتي. أنا لا أقبل التضحيات ولا أصنعها. ولو

طلبت منّي أكثر ممّا كنت تعني لي، فإنّي سأرفض. لو طلبت منّي التخلّي عن السكّة الحديديّة، سأتركك. وإذا صحّ أنّ متعة الفرد يجب شراؤها مقابل آلام الآخر، فمن الأفضل ألّا يكون هناك أيّ تجارة على الإطلاق. فالتجارة التي يكسب منها أحدٌ ويخسر منها الآخر تسمّى احتيالًا. وأنت لا تفعل ذلك في مجال الأعمال التجاريّة يا هانك، فلا تفعله في حياتك الخاصّة.

وتحت تأثيرٍ يشبه مسار الصوت الخافت من وقع كلمات داغني، كان ريردن يتذكّر الكلمات التي قالتها ليليان، ولكنّه كان يرى المسافة بين الاثنين، والفرق بين مسعاهما في علاقتها به، واختلاف هدفهما من الحياة.

ـ داغني، ما رأيك في زواجي بليليان؟

ـ لا يحقّ لي التفكير في ذلك.

ـ لا شكّ أنّك تساءلت عنه.

ـ لقد فعلت... قبل أن أزور منزل إليس وايت، لكن أفكّر في موضوع زواجكما منذ ذلك الحين.

ـ أنت لم تطرح عليّ أيّ سؤالٍ حول هذا الموضوع.

ـ ولن أفعل ذلك.

صمت لحظةً، ثمّ قال: وهو ينظر إليها مباشرةً في تأكيد لرفضه الأوّل للخصوصيّة التي منحته إيّاها دائما:

ـ هناك شيء واحد أريدك أن تعرفيه وهو أنّني لم ألمسها منذ... زيارتنا لمنزل إليس وايت.

ـ أنا سعيدة لسماع ذلك.

ـ هل تعتقدين أنّه يمكنني فعل ذلك؟

ـ لم يخطر هذا الأمر إطلاقًا ببالي.

ـ داغني، هل تعنين أنّه إذا كان لي أن أفعل... ستقبلين الأمر أيضًا؟

ـ نعم.

ـ ألن تكرهي إقدامي على ذلك؟

ـ سأكرهه على نحوٍ يفوق قدرتي على إخبارك به. ولكن إن كان هذا هو خيارك فسأقبله. أحبّك يا هانك.

أخذ يدها ورفعها إلى شفتَيه، فشعرت بمقاومة تلك اللحظة في جسده وفي الحركة المفاجئة التي نزل بها، نصف منهارٍ، وترك فمه يتشبّث بكتفها. ثمّ سحبها إلى الأمام، وسحب طول جسدها المغلّف بثوب النوم الأزرق الشفّاف ليستلقي على ركبتيه، ويمسك به في عنف غاضب، كما لو أنّه كره كلماتها، وفي الآن نفسه كما لو أنّ تلك الكلمات هي ما كان يودّ سماعه.

انحنى وجهه على وجهها فسمعت السؤال الذي كان يعيده مرارًا وتكرارًا في ليالي السنة السابقة، ذلك السؤال الذي كان يمزّقه دائمًا على نحوٍ لاإراديّ، وفي قطيعة مفاجئة دائمة تخون عذابه السرّيّ المستمرّ: من كان عشيقك الأوّل؟

فتراجعت قليلًا في توتّر، محاولةً الابتعاد عنه، لكنّه احتجزها، فقالت بملامح وجهٍ ثابتةٍ: لا يا هانك.

كانت حركة شفتيه القصيرة المشدودة تشبه الابتسامة فقال:

ـ أعرف أنّك لن تجيبي على هذا السؤال، لكنّني لن أتوقّف عن طرحه، لأنّ ذلك ما لن أقبله أبدًا.

ـ اسأل نفسك عن السبب الذي يجعلك لا تقبل ذلك.

أجاب، ويده تتحرّك ببطء من نهديها إلى ركبتيها، وكأنّه كان يشدّد على ملكيّته، ويبدي كرهه في الوقت نفسه: بسبب... الأشياء التي سمحتِ لي بها ... لم أكن أتخيّل قطّ أنّ بإمكانك فعل ذلك، ولا حتّى تخيّلتُ أنّني أستطيع فعلها... ولكن مادمتِ قد فعلتِ ذلك، بل وأكثر، فلا شكّ أنّك سمحت به لرجل آخر، وهكذا فإنّك كنت

ترغبين منه في أن..

ـ هل تدرك معنى ما أنت بصدد قوله؟ هذا يعني أنّك لم تقبل قطُّ برغبتي فيك أيضًا.. وأنّك لم تقبل قطُّ بأنّني يمكن أن أشتهيك، تمامًا كما كان يمكن أن أشتهي ذلك الرجل سابقًا.

قال بصوت منخفض: هذا صحيح.

أفلتت نفسها منه بحركة فظّة ملتوية، ثمّ انتصبت واقفةً، لكنّها كانت تنظر إليه بابتسامة خافتة، وقالت بهدوء:

ـ هل تدرك ذنبك الحقيقيّ الوحيد؟ ذنبك هو أنّك، رغم قدرتك العظيمة على فعل ذلك، لم تتعلّم مطلقًا أن تُمتع نفسك. لقد رفضت بسهولة دائمة متعتك وكنت على استعداد لتحمّل الكثير.

ـ هو أيضًا قال ذلك.

ـ من؟

ـ فرانسيسكو دانكونيا.

فتساءل: لماذا وجد في نفسه انطباعًا بأنّ ذلك الاسم صدمها فأجابت بعد فوات الأوان:

ـ وهل قال ذلك لك؟

ـ لكنّنا كنّا نتحدّث عن موضوع مختلف تمامًا.

وبعد لحظة من الزمن، قالت بهدوء:

ـ لقد رأيتك تتحدّث معه. مَن منكما كان يهين الآخر هذه المرّة؟

ـ لم نكن نتبادل الشتائم. داغني، ما رأيك فيه؟

ـ أعتقد أنّه فعل ذلك عمدًا، ذلك التحطيم الذي سنواجهه غدًا.

ـ أعلم أنّه تعمّد فعل ذلك. ومع هذا ما رأيك فيه؟

ـ لا أعلم، يجب أن أعتقد أنّه أكثر شخص فاسد قابلته في حياتي.

ـ يجب أن تشعري بذلك. لكن ليس إلى درجة اليقين؟

ـ لا أستطيع إرغام نفسي على التأكّد من ذلك.

قال وهو يبتسم: وهذا هو الأمر الغريب بشأنه. أعرف أنّه كاذبٌ ومتسكّعٌ ومستهترٌ ورخيصٌ وأنّه كائن بشريّ غير مسؤول على نحوٍ خبيث لا يمكن تخيّله، ومع ذلك، فحين كنت أنظر إليه، شعرتُ بأنّه إذا وجد رجلٌ سأعهد إليه بحياتي، فسيكون هو...

ردّت وهي تلهث: هانك، هل تريد أن تقول إنّك معجب به؟

ـ ما أريد قوله هو أنّني لا أعرف أصلًا معنى أن تُعجب بإنسان، ولم أكن أعرف كم أفتقد ذلك المعنى إلى أن قابلت فرانسيسكو.

ـ يا الله يا هانك، لقد وقعت في حبّه!

أجابها مبتسمًا: نعم، أعتقد أنّني وقعت في حبّه. وما الذي يخيفك في الأمر؟

ـ لأنّ...لأنّني أعتقد أنّه سيؤذيك بشكل رهيب. فكلّما نظرت إليه أكثر، كان من الصعب عليّ تحمّل الأمر... وسيستغرق منك وقتا طويلا لتجاوز ذلك، فلو كنتُ... أشعر أنّ عليّ أن أحذّرك منه لكنتُ فعلت، لكنّني لا أستطيع، لأنّني لست متأكّدة من أيّ شيء مرتبط به، ولا حتّى ما إذا كان أعظم رجل على وجه الأرض أو أدنى من ذلك.

ـ وأنا لست متأكّدًا من أيّ شيء مرتبط به، إلّا أنّني أحبّه.

ـ لكن فكّر في ما فعله. فهو لم يؤذِ جيم وبويل فحسب، بل أيضًا أنا وأنت وكين داناغر وبقيّتنا، لأنّ عصابة جيم ستشكّ في أنّنا كنّا السبب وراء ذلك، وستحدث كارثة أخرى، تمامًا مثل حريق وايت.

ـ نعم... نعم، تمامًا مثل حريق وايت. لكن، وكما تعلمين، لا أعتقد أنّني أكترث كثيرًا لذلك الأمر، ولا لوقوع كارثة أخرى. كلّ شيء سينسى على أيّة حال. إنّها مسألة

وقت لا غير. فبعض الأشياء ستنسى بسرعة، والبعض الآخر يقتضي وقتًا أطول لكي ينسى. وكلّ ما سيبقى أمامنا في المستقبل هو أن نبقي السفينة صامدةً ما أمكننا ذلك، ومن ثمّ نبحر بها.

ـ وهل هذا عذر يسمح له بما ارتكبه في نفسه؟ وهل هذا كلّ ما جعلك تعجب بفرانسيسكو؟

ـ لا، بالطبع لا! هذا هو الشعور الذي أفتقده حين أتحدّث إليه. والأمر الغريب هو ما يجعلني أشعر به.

ـ وبماذا يجعلك تشعر؟

ـ بالأمل.

أومأت برأسها في تعجّب عاجز وهي تدرك أنّها هي أيضًا شعرت بالإحساس نفسه.

أضاف: لا أعرف السبب. لكن حين أنظر إلى الناس أجد أنّهم لم يخلقوا من أيّ شيء سوى الألم ماعدا فرانسيسكو وأنت. فأنا أفتقد ذلك اليأس الرهيب الذي يحيط بنا إلّا في حضوره، وهنا معك. ولا أفتقده في أيّ مكان آخر.

عادت إليه واندسّت لتجلس عند قدميه، ثمّ ضغطت بوجهها على ركبتيه وقالت: هانك، لا يزال أمامنا الكثير... والكثير الآن...

نظر إلى شكل الحرير الأزرق الباهت المتجمّع فوق ملابسه السوداء، فانحنى إليها، ثمّ قال بصوت منخفض:

ـ داغني...هل تذكرين الأشياء التي قلتها لك في ذلك الصباح بمنزل إليس وايت... أعتقد أنّي كنت أغالط نفسي.

ـ كنت على علم بذلك.

***

أعلن التقويم فوق السقوف من خلال رذاذ رماديّ من المطر: 3 سبتمبر، وعلى برج آخر أشارت الساعة إلى 10:40، حين كان ريردن يستقلّ سيارة أجرة للعودة إلى فندق واين فوكلاند. كان راديو سيّارة الأجرة ينعق بأصوات الذعر الصّاخبة معلنًا عن تحطّم شركة دانكونيا للنحاس.

انحنى ريردن بضجر على المقعد، يبدو أنّ الكارثة لم تكن أكثر من قصّة إخباريّة قديمة قُرِئت منذ فترة طويلة. لم يشعر بأيّ شيء، سوى إحساس غير مريح بعدم اللياقة حين تفطّن إلى أنّه يرتدي ملابس السهرة في الشوارع صباحًا. لم يشعر بأيّ رغبة في العودة من العالم الذي تركه إلى العالم الذي رآه يتساقط عبر نوافذ سيّارة الأجرة.

أدار المفتاح في باب جناحه بالفندق، على أمل العودة إلى أيّ مكتب في أسرع وقت ممكن، دون أن يرى أيّ شيء من حوله.

فصُدم وعيه بحدَثين معًا: وجود مائدة الفطور، وباب غرفة نومه المفتوح على مشهد السرير الذي كان ينام به شخص مّا. ثمّ جاءه صوت ليليان من فوق السرير قائلًا: صباح الخير يا هنري.

جلست على الكرسيّ، وهي تردي البدلة نفسها التي كانت ترتديها بالأمس، من دون سترة أو قبّعة؛ ولكن بدت بلوزتها البيضاء مجعّدة بتعجرف. وكانت هناك بقايا فطور على الطاولة. ثمّ أخذت تدخّن سيجارةً بهدوء ووقفة صبورة يشوبها احتجاج طويل.

بينما كان هانك واقفًا بثبات، أخذت ليليان وقتها لثني ساقيها والجلوس بشكل مريح أكثر، ثمّ سألته: ألن تقول لي أيّ شيء يا هنري؟

فوقف مثل رجل يرتدي زيًّا عسكريًا في أحد الإجراءات الرسميّة حيث لا يسمح بإطلاق العنان للعواطف الجيّاشة، ثمّ قال: لك أن تتكلّمي.

ـ ألن تحاول الدفاع عن نفسك وإيجاد المبرّرات؟

ـ لا.

ـ ألن تتوسّل مغفرتي؟

ـ لا يوجد سبب يستوجب مغفرتك لي. ولا يوجد شيء أرغب في إضافته. أنت تعلمين الحقيقة الآن والأمر متروك لك.

ضحكت، وهي ممدّدة، تدلّك لَوْحَي كتفيها على ظهر الكرسيّ سألته:

ـ ألم تتوقّع أن يُلقى عليك القبض عاجلًا أم آجلًا؟ ولو أنّ رجلًا مثلك ظلّ نقيًّا مثل راهبٍ لأكثر من عام، لدفعني ذلك إلى البحث عن السبب. إنّه لأمر مضحك، لأنّ دماغا شهيرا مثل دماغك لم يحل دون أن يفتضح أمرك بهذه البساطة.

ثمّ أخذت تحوم في أرجاء الغرفة، وحول طاولة الفطور وأضافت:

ـ كنت متأكدّة من أنّك لن تعود إلى هنا في الليلة الماضية ولم يكن من الصعب أو المكلّف على الإطلاق أن أكتشف من أحد موظّفي الفندق في هذا الصباح أنّك لم تقضِ أيّ ليلة بهذه الغرفة العامَ الماضي.

لم يقل ريردن شيئًا. ثمّ ضحكت وهي تقول:

ـ رجل من الفولاذ المقاوم للصدإ! رجل الإنجاز والشرف الأفضل بكثير من بقيّة أفراد أسرتنا! هل صديقتك راقصة في الجوقة أم تشتغل ببرد الأظافر في صالون حلاقة حصريّ يرعاها أصحاب الملايين؟

ظلّ صامتا ولم ينبس ببنت شفة، فبادرته بالسؤال:

ـ من هي يا هنري؟

ـ لن أجيب على ذلك.

ـ أريد أن أعرف.

ـ لن تعرفي أيّ شيء.

ـ ألا تعتقد أنّه أمرٌ مثير للسخرية، أن تلعب دور رجل نبيل يحمي اسم سيّدته، لن تلعب دور الرجل النبيل من الآن فصاعدا؟ قل من هي؟

ـ قلت إنّني لن أجيب.

قالت وهي تتجاهله: أعتقد أنّه لا فرق عندي. يوجد نوع معياريّ واحد فقط لغرض معياريّ واحد. لقد عرفت دائما أنّك كنت تخفي، وراء نظرتك الزاهدة تلك، مجرّد رجل جلف شهوانيّ بسيط لا يري شيئا في المرأة سوى إرضاء الجانب الحيوانيّ بداخله، وهو ما أفتخر بأنّي لم أمنحك إيّاه. كنت أعلم أنّ إحساسك بالشرف المتبجّح سينهار في يوم من الأيّام وسوف تنجذب إلى أدنى وأرخص نوع من الإناث، تمامًا مثل أيّ زوج آخر خائن.

ضحكت، ثمّ أضافت:

ـ تلك المرأة التي كانت من بين كبار معجباتك، الآنسة داغني تاجارت، والتي استشاطت غضبًا في وجهي لمجرّد تلميحٍ بأنّ بطلها لم يكن نقيًّا مثل سككها الحديديّة غير القابلة للصدإ والتآكل. وكانت ساذجة بما فيه الكفاية لتتخيّل أنّني يمكن أن أشكّ في كونها من النوع الذي يفضّل الرجالَ الجذّابين لعلاقة يكون فيها ما تسعى إليه هو الأكثر شهرة وليس الأكثر ذكاءً. كنت أعرف طبيعتك الحقيقيّة وميولاتك، أليس كذلك؟

لم يقل شيئًا، فسألته:

ـ هل تعلم ما أفكّر فيه بشأنك الآن؟

ـ لديك الحقّ في إدانتي بأيّ طريقة ترغبين فيها.

قالت وهي تضحك: الرجل العظيم الذي كان يحتقر – في مجال الأعمال –الضعفاء الذين يقلّصون عدد العمّال القادمين أو يتساقطون على جانب الطريق لأنّهم لم يتمكّنوا من مجاراة قوّة شخصيّته وصمود هدفه! كيف تشعر حيال ذلك الآن؟

ـ مشاعري لا تحتاج إلى اهتمامك. لديك الحقّ في تقرير ما تريدين منّي فعله، سأوافق على أيّ مطلب تقدّمينه، باستثناء واحد: لا تطلبي منّي التخلّي عنه.

ـ أوه، أنا لا أطلب منك أن تتخلّى عنه! ولا أتوقّع منك أن تغيّر طبيعتك. فهذا هو

مستواك الحقيقيّ، فوراء كلّ تلك العظمة العصاميّة لفارس الصناعة الذي ازدهر بفضل عبقريّته المحض من حرفيّ مزاريب بمناجم الخام إلى صانع يدويّ للأوعية ثمّ إلى رجل أعمال بربطة عنق بيضاء! ربطة العنق البيضاء تلك تناسبك جدًّا وتسمح لك بالعودة إلى المنزل في الساعة الحادية عشرة صباحا! أنت لم ترتق مطلقا لتبلغ مكانةً أرفع من مناجم الخام، فذلك هو المكان الطبيعيّ الذي تنتمي إليه. وكلّكم على شكله يا معشر الأمراء العصاميّين الذين ينتمون إلى سجلّ الأموال. تحجزون لكم مكانًا في زاوية الصالون كلّ ليلة سبت، مع الباعة المتجوّلين وفتيات قاعة الرقص!

ـ هل ترغبين في الطلاق؟

ـ أوه، أهذا ما تريده! ألم تكن هذه تجارة ذكيّة ستجني منها ربحًا عظيما! ألا تفترض أنّني كنت أعرف رغبتك في الطلاق منذ الشهر الأوّل من زواجنا؟

ـ إذا كان الأمر على هذا النحو، فلماذا قاومت كلّ هذا الوقت؟

أجابته بحدّة: إنّه سؤال لا تملك الحقّ في طرحه.

قال، معتقدًا أنّ السبب الوحيد الذي استطاع أن يتصوّره -وهو حبّها له- يمكن أن يبرّر إجابتها: هذا صحيح.

ـ لا، أنا لن أطلّقك. هل تفترض أنّني سأسمح لعلاقتك الرومانسيّة مع تلك العاهرة بأن تحرمني من منزلي، واسمي، ووضعي الاجتماعيّ؟ سأحافظ على هذه القطع من حياتي بقدر ما أستطيع، وإن كانت تلك الأشياء تنبني على أساس واهٍ مثل إخلاصك. لا تخطئ في ذلك: فلن أعطيك الطلاق أبدًا. سواء أعجبك ذلك أم لا، أنت متزوّج وستبقى كذلك.

ـ سأبقى زوجك إذا كان هذا ما كنت ترغبين فيه.

ـ وعلاوة على ذلك، فأنا لن آخذ بعين الاعتبار.. بالمناسبة، لماذا لا تجلس؟

قال وهو واقف: أرجوك قولي ما عليك قوله.

ـ لن أنظر في أيّ طلاق غير رسميّ مثل الانفصال. يمكنك أن تستمرّ في حبّك

الرومانسيّ بمترو الأنفاق والطوابق السفليّة حيث ينتمي، ولكن أتوقّع منك أن تتذكّر أنّني، في نظر العالم، السيّدة زوجة هنري ريردن. لقد أعلنتُ دائمًا هذا التفاني المبالغ فيه في الأمانة، والآن دعني أَرَكَ محكومًا عليك بحياة المنافق الذي أنت عليه حقًّا. أتوقّع منك أن تحافظ على إقامتك في المنزل الذي هو رسميًا منزلك، ولكنّه سيكون لي الآن.

ـ إذا كنت ترغبين في ذلك.

انحنت إلى الوراء بشكل فضفاض، وهي تسترخي بلا قيد، ونشرت ساقيها بعيدًا، وألقت يديها بالتوازي على ذراعي الكرسيّ على نحو صارم مثل القاضي الذي يمكن أن يسمح لنفسه بأن يكون مهملًا.

قالت وهي تضحك ببرود: الطلاق؟ هل تعتقد أنّك ستنجو بهذه السهولة؟ وهل تظنّ أنّك ستنقذ نفسك بمجرّد دفع بضعة ملايين من ملايينك التي ستُلقيها كنفقة؟ كنت معتادا على شراء ما تريد من خلال وسائل بسيطة من الدولارات، لكنّك لا تستطيع تصوّر قيمة الأشياء التي ليست تجاريّة، والتي لا تقبل التفاوض. لا يمكنك تخيّل وجود أشخاص لا يولون المالَ أيَّ أهمّيّة. ولا يمكنك تخيّل ما يعنيه ذلك. حسنًا، أعتقد أنّك ستتعلم. أوه نعم، بالطبع، ستوافق على أيّ طلب أتقدّم به من الآن فصاعدا. أريدك أن تجلس في ذلك المكتب الذي أنت فخور به جدًّا، وفي تلك المطاحن الثمينة الخاصّة بك، وتلعب دور البطل الذي يعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم، عملاق الصناعة الذي يحافظ على استمرار البلاد كلّها، ذلك العبقريّ الذي هو أرفع قيمة من عامّة الناس الذين يشتركون في الأنين نفسه، والذي يقبعون في الهامش. ثمّ أريدك أن تأتي إلى المنزل وتواجه الشخص الوحيد الذي يعرفك على حقيقتك، والذي يعرف القيمة الفعليّة لكلمتك، وشرفك، ونزاهتك، واحترامك لذاتك المتبجّحة. وأريدك أن تواجه، في منزلك، الشخص الوحيد الذي يحتقرك وله الحقّ في القيام بذلك. أريدك أيضًا أن تنظر إليّ كلّما بنيتَ فرنًا آخر، أو صببتَ حمولة أخرى من الصلب، أو استمعت إلى التصفيق والإعجاب، وكلّما شعرت بالفخر بنفسك، وكلّما شعرت بالنظافة، وكلّما شعرت بالانتشاء من الإحساس بعظمتك حدّ الثمالة. أريدك أن تنظر إليّ كلّما سمعت

عن أيّ عمل من أعمال الفساد، أو حين تشعر بالغضب من فساد الإنسان، أو بالازدراء تجاه احتيال شخص مّا، أو حين تكون ضحيّة ابتزاز حكوميّ جديد. تأكّد دومًا أنّك لست الأفضل، وأنّك لست المتفوّق على أيّ شخص، وأنّه لا يوجد شيء لديك الحقّ في إدانته. وأريدك أن تنظر إليّ وأن تعرف مصير الإنسان الذي حاول بناء برج يمتدّ إلى السماء، أو الإنسان الذي أراد أن يصل إلى الشمس على أجنحة مصنوعة من الشمع، أو أنت، أيّها الرجل الذي أراد أن يخدع العالم بأنّه مثاليّ!

في مكان مّا خارج ذهنه وبصرف النظر عنه، كما لو أنّه يقرأ في دماغ ليس دماغه، لاحظ فكرة تتمثّل في أنّ هناك بعض الخلل في مخطّط العقاب الذي تريد أن يتحمّله، شيء خاطئ بشروطه الخاصّة، بصرف النظر عن مدى صلاحيّته أو عدالته، بعض من سوء التقدير العمليّ الذي من شأنه أن يهدم كلّ شيء إذا تمّ اكتشافه. فلم يحاول اكتشاف ذلك الخطإ. لقد مرّت بذهنه ملاحظة عابرة، يكتنفها فضول بارد، ليتمّ استحضارها مجدّدًا في مستقبل مّا بعيد. لم يكن هناك شيء بداخله الآن يستحقّ الاهتمام أو الردّ.

كان دماغه مخدّرًا بالجهد المبذول لمسك آخر إحساس له بالعدالة لمواجهة موجة الاشمئزاز الغامرة، إلى درجة أنّها أخرجت ليليان من الشكل البشريّ، فتجاوز كلّ توسّلاته لنفسه بأنّه لا يحقّ له الشعور بتلك الموجة. وقال في نفسه إذا كانت بغيضة إلى هذا الحدّ، فهو من جلبها وأوصلها إلى تلك الدرجة؛ كانت تلك هي طريقتها في تحمّل الألم، فلا يمكن لأحد أن يصف شكل محاولة الإنسان وهو يتحمّل المعاناة، ولا يمكن لأحد أن يلومه. ففي نهاية المطاف ليس هو من تسبّب في ذلك. لكنّه لم يرَ أيّ دليل على الألم في سلوكها. ثمّ ربّما كان القبح هو الوسيلة الوحيدة التي تستطيع استحضارها لإخفاء ذلك السلوك، كما كان يقول. لم يفكّر في أيّ شيء سوى تحمّل الاشمئزاز إلى ما لا نهاية. وعندما توقّفت عن الكلام، سألها:

ـ هل أنهيت كلامك؟

ـ نعم، أعتقد ذلك.

إذَن من الأفضل أن تستقلّي قطار العودة إلى المنزل الآن.

عندما قام بالحركة اللّازمة لنزع ملابس السهرة، أحسّ كما لو أنّه في نهاية يوم طويل من العمل البدنيّ المرهق. كان قميصه بلون النشا يتصبّب عرقًا. لم يكن يملك أيّ أفكار أو مشاعر، لا شيء سوى الشعور الذي دمج بقايا كليهما، الشعور بالتهنئة على أعظم انتصار طالب به نفسه: أنّ ليليان خرجت من جناح الفندق حيّة.

***

دخل الدكتور فلويد فيريس مكتب ريردن وفي داخله تعبير رجل متأكّد من نجاح سعيه ومن كونه قادرًا على حمل ابتسامة خير. فتحدّث ببهجة لعلّها تكون ضمانًا سلسًا؛ ولكنّ ريردن ساوره انطباع بأنّ مصدرَ ذلك الضمان رجلٌ مقامر مخادع قضى جهدا مذهلا وهو يحفظ ويتذكّر كلّ اختلاف ممكن في نمط خلط الأوراق، فشعر بالأمان إذ عرف أنّ علامةً مّا وُضعت على كلّ ورقة فوق سطح طاولة اللعب.

قال على سبيل التحيّة: حسنا يا سيّد ريردن، لم أكن أعرف أنّني وإن كنت تقلّدتُ مناصب عامّة كثيرةً وصافحتُ أيادي مشهورةً كثيرةً، مازلتُ متشوّقًا إلى الحصول على لقاء مع رجل بارز مثلك. صدّق أو لا تصدّق، فهذا ما أشعر به الآن.

ردّ ريردن: كيف حالك؟

جلس الدكتور فيريس وأدلى ببعض ملاحظات حول ألوان أوراق الشجر في شهر أكتوبر، تلك الأوراق التي شاهدها على جانبَي الطريق طوال المسافة الطويلة لرحلته بالسيّارة من واشنطن إلى هناك، والتي أجراها خصّيصا للقاء السيّد ريردن شخصيّا. لم يقل ريردن شيئًا. ثمّ أخذ الدكتور فيريس ينظر من خلال النافذة إلى المنظر الملهم لمطاحن ريردن التي كانت، كما يقول، إحدى أكثر الشركات الإنتاجيّة قيمةً في البلاد.

قال ريردن: لم تكن قبل عام ونصف تقول هذا الكلام عن معدن ريردن.

عبس الدكتور فيريس لفترة قصيرة، ثمّ قال ببساطة:

ـ كان ذلك قبل عام ونصف العام يا سيّد ريردن. والزمن والأحوال تتغيّر، والناس

يتغيّرون مع الزمن، والحكماء يفعلون ذلك أيضًا. الحكمة تكمن في معرفة متى نتذكّر ومتى ننسى. فالاتّساق والثبات ليسا عادتين ذهنيّتين من الحكمة أن يُمارسا أو يُتوقَّعا من الجنس البشريّ.

ثمّ انتقل ليقدّم خطابًا بشأن حماقة الثبات على المبدإ في عالم لا شيء فيه مطلق سوى مبدإ التوافق. وتحدّثا بجدّيّة، ولكن بأسلوب عشوائيّ وعفويّ، كما لو أنّهما كانا يدركان أنّ ذلك ليس الموضوع الرئيسيّ للمقابلة؛ ولكنّ الغريب في الأمر هو أنّ الدكتور لم يتحدّث بنبرة الديباجة لمقدّمة موضوع اللقاء، ولكنّه كان يتحدّث بنبرة تذييل واختتام للموضوع كما لو أنّهما ناقشا الموضوع الرئيسيّ منذ فترة طويلة.

انتظر ريردن أوّل تعبير يقول فيه الدكتور: ألا تعتقد ذلك؟ ليجيبه:

ـ ألا تتكرّم بذكر المسألة العاجلة التي طلبت من أجلها هذا اللقاء.

بدا الدكتور فيريس مندهشا وخالي البال للحظة، ثمّ قال بسرور، كما لو أنّه تذكّر موضوعًا غير مهمّ يمكن التخلّص منه دون جهد:

ـ أوه، ذلك الموضوع؟ الموضوع يتعلّق بمواعيد تسليم معدن ريردن إلى معهد الدولة للعلوم. ونحن نودّ أن نستلم خمسة آلاف طن بحلول الأوّل من ديسمبر، وبعد ذلك سنوافق تمامًا على انتظار رصيد نظام الطلبيّات إلى ما بعد أوّل العام القادم.

جلس ريردن وأخذ ينظر إلى الدكتور في صمت لفترة طويلة؛ وكان لكلّ لحظة عابرة تأثيرٌ يجعل نبرة صوت الدكتور فيريس المرحة معلّقةً في الهواء بأرجاء الغرفة، لتبدو أكثر حماقة. وحين بدأ الدكتور فيريس يخاف من أنّ ريردن لن يجيب على الإطلاق، أجابه ريردن:

ـ ألم يقدّم لك شرطيّ المرور ذو السروال الجلديّ الضيّق، الذي أرسلته إلى هنا، تقريرًا عن محادثته معي؟

ـ بلى يا سيّد ريردن، ولكن..

ـ وماذا تريد أن تسمع غير ذلك؟

ـ لكنّ ذلك حدث قبل خمسة أشهر يا سيّد ريردن. وقد وقع حدث معيّن منذ ذلك الحين، ممّا يجعلني متأكّدا تمامًا من أنّك قد غيّرت رأيك وأنّك لن تتسبّب لنا في أيّ مشكلة على الإطلاق، تمامًا كما أنّنا لن نسبّب لك أيضا أيّ مشكلة.

ـ عن أيّ حدث تتحدّث؟

ـ حدث تعرفه أكثر منّي، ولكن كما ترى، أنا على علم به، على الرغم من أنّك تفضّل ألّا يكون على علم به.

ـ عن أيّ حدث تتحدّث؟

ـ بما أنّه سِرّك يا سيّد ريردن، فلماذا لا تدعه يبقى سرًّا؟ ومن منّا لا يملك أسرارًا في الوقت الحاضر؟ فعلى سبيل المثال، المشروع إكس هو سرّ. أنت تدرك، بطبيعة الحال، أنّه يمكننا الحصول على المعادن الخاصّة بك ببساطة عبر شرائها بكمّيّات أقلّ عن طريق مختلف المكاتب الحكوميّة التي ستنقلها إلينا في ما بعد، ولن تكون قادرا على منع هذا الأمر. ولكن هذه الخطّة تستوجب منّا أن نسمح بتدخّل الكثير من البيروقراطيّين السيّئين.

ابتسم الدكتور فيريس بصدق، ثمّ أضاف:

ـ أوه نعم، نحن لا تجمعنا شعبيّة كما هي حالنا مع الخواصّ من المواطنين، وهذا من شأنه أن يستوجب السماح بوساطة بيروقراطيّين آخرين كثيرين في مشروع إكس السرّيّ، وهو الأمر غير مرغوب فيه جدًّا في الوقت الراهن. وكذلك الشأن بخصوص أيّ دعاية صحفيّة حول المشروع إذا وضعناك رهن المحاكمة لرفضك الامتثال لأمر حكوميّ. ولكن إذا امتثلت للمحاكمة بسبب قضيّة أخرى، وبتهمة أكثر خطورة، على نحوٍ لا يكون فيه للمشروع إكس ومعهد الدولة للعلوم أيّ تورّط، أو إمكانيّة وجود أيّ مشكلة مبادئ أو إثارة أيّ تعاطف جماهيريّ، فذلك لن يزعجنا على الإطلاق، ولكن من شأنه أن يكلّفك أكثر ممّا تتصوّر. لذلك، فإنّ الشيء العمليّ الوحيد المتاح لك هو مساعدتنا في الحفاظ على سرّنا وسعينا إلى مساعدتك في الحفاظ على أسرارك،

وأنا على يقين من إدراكك أنّنا قادرون تمامًا على إبقاء أيّ من البيروقراطيّين بأمان بعيدًا عن مسارك متى أردنا ذلك.

ـ عن أيّ حدث وأيّ سرّ وأيّ محاكمة تتحدّث؟

ـ أوه، يا سيّد ريردن لا تكن صبيانيًّا! أنا أتحدّث عن الأربعة آلاف طن من معدن ريردن التي سلّمتها إلى كين داناغر.

لم يجبه ريردن. فقال الدكتور فيريس مبتسمًا:

ـ إنّ قضايا المبدإ تمثّل مصدر إزعاج كبير. وهي تضيّع وقت كلّ من يهتمّ بها. هل أنت مهتمّ بأن تكون شهيدا لقضيّة تتعلّق بالمبدإ، فقط في ظروف لا يعلم فيها أحد أنّ هذا ما كنت عليه، لا أحد ما عدا أنا وأنت، ولن تحصل فيها على فرصة لتنبس بكلمة واحدة حول هذه المسألة أو المبدإ الذي يتعلّق بها، ولن تكون فيها بطلا، ومخترعا لمعدن جديد مذهل، يتّخذ موقفًا ضدّ الأعداء الذين قد تبدو أعمالهم خسيسة إلى حدّ مّا في نظر الجمهور. إنّك لن تكون بطلا، وإنّما مجرّد مجرم حقّ عامّ، بل ورجل صناعيّ جشع خدع القانون بدافع الطمع، ومبتزّ من السوق السوداء كسرّ اللوائح الوطنيّة المصمّمة لحماية الرفاه العامّ. ستبدو مثل بطل بلا مجد وبلا جمهور، سيكون أعظم إنجازه إسالة الحبر لما لا يزيد عن نصف عمود من ورق الصحف في مكان مّا بالصفحة الخامسة في إحدى الجرائد. الآن، هل ما تزال تهتمّ بأن تكون ذلك النوع من الشهداء؟ لأنّ تلك هي الحدود التي بلغتها هذه المسألة إلى الآن: إمّا أن تسمح لنا بالحصول على المعدن أو تذهب إلى السجن لمدّة عشر سنوات برفقة صديقك داناغر.

ولّما كان الدكتور فيريس عالم أحياء فإنّه فُتِن دائما بالنظريّة القائلة إنّ الحيوانات تتمتّع بالقدرة على شمّ رائحة الخوف؛ وقد حاول تطوير قدرة مماثلة في نفسه. وعند مشاهدة ريردن، خلص إلى أنّ الرجل قرّر منذ فترة طويلة الاستسلام، لأنّه لم يلتقط أيّ أثر لأيّ ملامح خوف في وجدانه.

سأله ريردن: ومن كان مخبرك؟

ـ أحد أصدقائك يا سيّد ريردن، صاحب منجم للنحاس في ولاية أريزونا، هو من أبلغنا بأنّك اشتريت في الشهر الماضي كمّيّة إضافيّة من النحاس، فوق الحمولة العاديّة المطلوبة للحصّة الشهريّة لشركة ريردن للفولاذ التي يسمح لك القانون بإنتاجها. فالنحاس هو أحد مكوّنات معدن ريردن، أليس كذلك؟ كانت تلك كلّ المعلومات التي نحتاج إليها، وقد سهُل علينا تعقّب الباقي. ولا يجب أن تلوم مالك المنجم كثيرًا، لأنّ منتجي النحاس، كما تعلم، يواجهون ضغطًا شديدًا في الوقت الحاليّ إلى درجة أنّ الرجل اضطرّ إلى تقديم شيء ذي قيمة من أجل الحصول على معروف، بحكم (الحاجة الطارئة) الذي أنهى بعض التوجيهات في قضيّته ومنحه تعويذة صغيرة ليتنفّس. والشخص الذي تاجر بمعلوماته يعرف أنّها ستكون ذات قيمة عالية، لذلك تاجر بها معي مقابل بعض الخدمات التي كان في أمسّ الحاجة إليها. لذلك فإنّ كلّ الأدلة اللّازمة، فضلًا عن السنوات العشر القادمة من حياتك، هي الآن في حوزتي. وأنا أعرض عليك صفقة تجاريّة. ومتأكّد من أنّك لن تعترض، فالتجارة هي تخصّصك. قد يختلف الشكل قليلًا عمّا كان عليه في شبابك، ولكنّك تاجر ذكيّ، لأنّك كنت تعلم دائمًا كيفيّة الاستفادة من الظروف المتغيّرة، وهذه هي شروط يومنا هذا، لذلك يجب ألّا يكون من الصعب عليك معرفة أين تقع مصلحتك والتصرّف وفقًا لذلك.

قال ريردن بهدوء: في شبابي، كان هذا يسمّى ابتزازًا.

قال الدكتور فيريس مبتسمًا: هذا ما هو عليه الأمر يا سيّد ريردن. لقد ولجنا عصرًا أكثر واقعيّة.

ولكنّ ريردن كان يعتقد أنّ هناك فرقًا كبيرا بين طريقة المبتزّ العاديّ وطريقة الدكتور فيريس. فالمبتزّ سيظهر علامات الشماتة على خطيئة ضحيّته والاعتراف بشرّها، وسيشكّل تهديدًا للضحيّة وشعورا بالخطر عليهما معًا. أمّا الدكتور فيريس فلم ينقل من ذلك أيّ شيء. لقد كان أسلوبه يشبه التعامل مع أمر عاديّ وطبيعيّ، مقترحًا شعورًا بالأمان، فهو لم يحمل أيّ نبرة إدانة، بل أظهر تلميحًا إلى الصحبة التي تقوم – عند كليهما – على ازدراء الذات. ثمّ ساور ريردن شعورٌ مفاجئ جعله يميل إلى الأمام

في وضع انتباه متلهّف، وهو الشعور بأنّه كان على وشك اكتشاف خطوة أخرى على طول درب تأمّله.

ابتسم الدكتور فيريس عند رؤيته انشغالَ ريردن وهنّأ نفسه على أنّه أمسك بالمفتاح الصحيح. بدت اللعبة واضحة له الآن، وأخذت علامات نمط تشكيل البطاقات تسقط في الترتيب الصحيح؛ ولكنّ بعض الرجال، كما يعتقد الدكتور فيريس، كانوا سيقومون بأيّ شيء مادامت أسماؤهم لا تذكر، ولكنّ ذلك الرجل كان يريد الصراحة، وكان إنسانًا واقعيًا على نحوٍ يصعب توقّعه.

قال الدكتور فيريس بودّ: أنت رجل عمليّ جدًّا يا سيّد ريردن. لا أستطيع أن أفهم لماذا تريد التخلّف عن هذا العصر. لماذا لا تضبط نفسك وتكيّفها بالشكل الصحيح؟ أنت أذكى منهم جميعًا. أنت شخص ذو قيمة عظيمة، لقد أردناك لفترة طويلة، وعندما سمعت أنّك تعرّضت لمحاولة خديعة من قبل جيم تاجارت كنت أعرف أنّه يمكنك تحقيق النجاح. لا تهتمّ بأمر جيم تاجارت، إنّه لا شيء، إنّه مجرّد طعم للبراغيث. ادخل في اللعبة الكبيرة، فبإمكاننا استخدامك كما يمكن لك استخدامنا. هل تريدنا أن ندوس على أورين بويل من أجلك؟ لقد ضربك ضربًا مبرّحًا، هل تريدنا أن نكسر شوكته قليلًا؟ يمكن أن يتمّ ذلك بكل يُسرٍ. أو تريدنا أن نبقي كين داناغر في الصفّ؟ انظر كم كنت غير عمليّ بشأن ذلك. وأعلم السبب الذي دفعك إلى بيع المعدن له، لأنّك تحتاج إليه للحصول على الفحم. فهل ستُخاطرُ بِالدخول إلى السجنِ ودفع غراماتٍ ضخمةٍ فقط لتُبقِي على الجانبِ الجيّدِ من كين داناغر، هل تسمّي ذلك عملًا جيّدًا؟ عليك الآن بعقد صفقة معنا ودَع السيّد داناغر يفهم أنّه إذا لم يلتزم بالقانون، فإنّ مصيره سيكون السجن، أمّا أنت فستبقى حرّا طليقا لأنّك تملك أصدقاء، أمّا هو فلا. ولا يجب عليك أبدا أن تقلق بشأن إمدادات الفحم من ذلك الحين فصاعدًا. الآن هذه هي الطريقة الحديثة للقيام بالأعمال التجاريّة. اسأل نفسك أيّ الطرق أكثر عمليّة. ومهما سيقول أيّ شخص عنك، فهو لن ينكر أبدًا أنّك رجل أعمال عظيم وواقعيّ متطرّف.

ردّ ريردن: هذا ما أنا عليه.

قال الدكتور فيريس: هذا بالضبط ما كنت أعتقده. فأنتَ بلغتَ هذه الدرجة العالية من الثراء في عصر أفلس فيه معظم الرجال، وقد تمكّنت دائمًا من تذليل العقبات، وحافظت على استمراريّة طواحينك وتحقيق النجاح، وهذه هي سمعتك. لذلك لا تريد أن تكون غير عمليّ الآن، أليس كذلك؟ وما الغاية؟ وما الذي يعنيك مادمت تجني المال؟ اترك النظريّات لأشخاص من أمثال بيرترام سكودر والمثل العليا لأشخاص من أمثال بالف يوبانك، وكن على طبيعتك. انزل إلى الأرض. فأنت لست الرجل الذي يسمح للمشاعر بالتدخّل في الأعمال التجاريّة.

قال ريردن ببطء: لا لن أفعل. لن أسمح بأيّ نوع من أنواع المشاعر.

قال الدكتور فيريس مبتسمًا: ألا تفترض أنّنا كنّا نعلم ذلك؟

لقد كانت نبرة صوته توحي بأنّه تخلّى عن براءة اختراع شعره المصنوع من الجلد اللّامع لإثارة إعجاب زميل مجرم من خلال عرض دهاء متفوّق، ثمّ أضاف:

ـ لقد انتظرنا طويلًا حتّى نقع على شيء يدينك. أنتم معشر الرجال الصادقين مصدر كلّ المشاكل والصداع ولكنّنا كنّا نعلم أنّك ستنزلق عاجلًا أم آجلًا. وهذا كلّ ما طمحنا إليه.

ـ يبدو أنّك مسرور بشأن هذا الموضوع.

ـ ألا أملك سببًا وجيها لأكون كذلك؟

ـ لكن في نهاية المطاف أنا لم أخرق أحد القوانين الخاصّة بكم.

ـ حسنا، ما الغاية، في رأيك، من تلك القوانين؟

لم يلاحظ الدكتور فيريس الملامح المفاجئة على وجه ريردن، ملامح رجل صدمته الرؤية الأولى التي كان يسعى إليها. وكان الدكتور فيريس قد تجاوز مرحلة الإبصار؛ لأنّه كان عازمًا على توجيه الضربات الأخيرة لحيوان وقع في فخّ.

قال الدكتور فيريس: وهل تعتقد حقًّا أنّنا نريد أن نحترم تلك القوانين؟ نحن نريدها أن تُخرَق. ومن الأفضل لك أن تدرك أنّ من تواجههم ليسوا مجرّد مجموعة كشفيّة. في تلك اللحظة فقط ستعرف أنّ هذا ليس عصر المبادرات الجميلة. نحن نسعى وراء السلطة ونعمل من أجلها. أنت وزملاؤك كنتم مجرّد مقامرين، لكنّنا نعرف حيلكم الحقيقيّة، ومن الأفضل لكم أن تكونوا حكماء فتتخلّوا عن المقامرة والحيل. إذ لا توجد طريقة لحكم البشر الأبرياء. والقوّة الوحيدة التي تتمتّع بها أيّ حكومة هي القدرة على قمع المجرمين. حسنًا، وحين لا يوجَد عدد كافٍ من المجرمين، فإنّ على المرء صناعتهم. فيعلن أنّ أشياء عديدة تعتبر جريمة فيصبح من المستحيل على البشر العيش دون انتهاك القوانين. ومن يريد أمّة من المواطنين الملتزمين بالقانون؟ وما الفائدة في ذلك لأيّ شخص؟ مرّر فقط نوعًا من القوانين التي لا يمكن مراعاتها أو تطبيقها أو تفسيرها بشكل موضوعيّ، وحينها يمكنك إنشاء دولة تنتهك القانون، ثمّ يمكنك الاستفادة من الخطيئة. هذا هو النظام الآن يا سيّد ريردن، وهذه هي اللعبة، وبمجرّد أن تفهمها، سيكون من الأسهل التعامل معها.

لاحظ ريردن، وهو ينظر إلى الدكتور فيريس الذي كان هو أيضًا يراقبه، نوبةً مفاجئة من القلق، بالملامح التي تسبق الذعر، كما لو أنّ ورقة لعب نظيفة لم يسبق لها مثيل قد سقطت على الطاولة من مجموعة أوراق الدكتور فيريس.

أمّا ما رآه الدكتور فيريس في وجه ريردن فكانت نظرة من الصفاء المضيء التي تأتي من الإجابة المفاجئة عن مشكلة قديمة مظلمة، ونظرة من الاسترخاء والحرص معًا. كان في عيني ريردن وضوح شبابيٌّ ولمسة ضعيفة من الاحتقار في خطّ فمه. ومهما يكن معنى ذلك، فإنّ الدكتور فيريس لم يستطع فكّ شفرته. لقد كان متأكّدًا من شيء واحد فقط: أنّ وجه ريردن لم يحمل أيّ علامة من علامات الشعور بالذنب.

قال ريردن بهدوءٍ واستخفاف: يوجد خلل في نظامك يا دكتور فيريس، إنّه عيب عمليّ ستكتشفه عندما تضعني أمام المحاكمة لبيع أربعة آلاف طن من معدن ريردن لكين داناغر.

استغرق الأمر عشرين ثانية، ليقتنع الدكتور فيريس في نهاية المطاف بأنّه سمع قراره النهائيّ.

ـ هل تعتقد أنّنا بصدد خداعك؟

زمجر الدكتور فيريس، وفجأةً جاء صوته شبيهًا بنوعيّة الحيوانات التي قضّى وقتًا كثيرا في دراستها: فبدا كما لو أنّه يكشّر عن أنيابه.

ردّ ريردن: لا أعلم، وهذا الأمر لا يعنيني بأيّة حال من الأحوال.

ـ هل قرّرت ألّا تكون عمليًّا على هذا النحو؟

ـ تقييم أيّ فعل بأنّه (عمليّ) يا دكتور فيريس يعتمد على ما يرغب المرء في ممارسته.

ـ ألم تضع دائما مصلحتك الذاتيّة فوق كلّ اعتبار؟

ـ وهذا ما أفعله الآن.

ـ إذا كنت تعتقد أنّنا سنسمح لك بالنجاة من..

ـ من فضلك اخرج من هنا.

ـ من تظنّ أنّك تخدع؟

ارتفع صوت الدكتور فيريس وكان على وشك الصراخ ثمّ أضاف:

ـ لقد انتهى زمن بارونات الصناعة وأَفَلَ! لقد حصلت على السلع، ولكنّنا نملك السلع التي تدينك، وأنت مخيّر بين أمرين إمّا أن تسير على طريقتنا أو سوف..

ضغط ريردن على أحد الأزرار، فدخلت الآنسة إيفز المكتب. فقال ريردن:

ـ لقد أصبح الدكتور فيريس مشوّش الذهن وضلّ طريقه يا آنسة إيفز، هلّا رافقته خارجًا من فضلك؟

ثمّ التفت إلى فيريس وقال:

ـ الآنسة إيفز امرأةٌ تزن حوالي مائة رطل، ولا تملك أيّ مؤهلات عمليّة على الإطلاق، هي فقط كفاءة فكريّة فائقة. وهي لن تقوم بوظيفة حارس الصالون، إلّا في

مكان غير عمليّ مثل المصنع.

وكانت الآنسة إيفز تبدو كما لو أنها تؤدّي واجبًا بلا أهمّيّة. أبقت الباب مفتوحًا وهي واقفة مباشرة بطريقة منضبطة، فسمحت للدكتور فيريس بعبور الغرفة، ثمّ خرجت هي أوّلًا؛ وتبعها الدكتور فيريس. ثمّ عادت بعد بضع دقائق، ضاحكة في ابتهاج لا يمكن السيطرة عليه.

سألته وهي تضحك من خوفها عليه، والخطر المحيط بهما، ومن كلّ شيء ما عدا انتصار تلك اللحظة: سيّد ريردن، ماذا ستفعل حيال هذا الأمر؟

جلس في هيئة لم يسمح لنفسه باتّخاذها من قبل، تُشعرهُ بالاستياء لكونها تمثّل الرمز الأكثر ابتذالا لرجال الأعمال، جلس متّكئًا على كرسيّه، ورجلاه على مكتبه، وبدا لها أنّ الموقف يوحي بالجوِّ الفريد للنبلاء، وأنّه لم يكن يشبه هيئة مدير متّزن، بل هيئة شابّ صليبيّ.

أجابها بمرح: أعتقد أنّني بصدد اكتشاف قارّة جديدة يا إيفز، قارّة كان لا بدّ للإنسان اكتشافها جنبًا إلى جنب مع أمريكا، لكنّه لم يفعل ذلك.

***

قال إيدي ويلرز، وهو ينظر إلى العامل عبر الطاولة: يجب أن أتحدّث إليك بخصوص هذا الموضوع. لا أعلم لماذا سيساعدني الأمر فعلا..أعرف فقط أنّك تسمعني.

كان الوقت متأخّرًا وأضواء الكافتيريا تحت الأرض خافتة، لكنّ إيدي ويلرز كان يرى بوضوح عيني العامل وهما تنظران إليه باهتمام.

قال إيدي ويلرز: أشعر كما لو... كما لو أنّه لم يبق هناك أيّ بشر أو أيّ لغة إنسانيّة، أشعر أنّي إذا صرخت في وسط الشوارع، فلن يكون هناك من يسمع ذلك... لا، هذا ليس تمامًا ما أشعر به، بل أشعر بأنّ شخصا مّا بصدد الصراخ في وسط الشوارع، ولكنّ الناس يمرّون ولا صوت يصل إليهم.. ومن يصرخ هو ليس أنا أو هانك ريردن أو

كين داناغر، ولكن يبدو كما لو أنّه كان ثلاثتنا معًا... ألا ترى أنّ شخصًا مّا كان يجب أن ينهض للدفاع عنهم، لكن لا أحد فعل ذلك أو سيجرؤ عليه في المستقبل؟ لقد وضع ريردن وداناغر هذا الصباح في قفص الاتّهام وكانت تهمتهما هي البيع غير القانونيّ لمعدن ريردن. سوف يحاكمون الشهر القادم. كنت هناك في قاعة المحكمة في فيلادلفيا عندما تَلَوْا لائحة الاتّهام. كان ريردن هادئًا جدًّا، وقد ساورني شعور بأنّه يبتسم، لكنّه لم يكن كذلك. أمّا داناغر فكان هادئا أكثر من اللازم. فهو لم ينبس بكلمة. لقد وقف هناك، كما لو أنّ القاعة فارغة. قالت الصحف إنّهُ يجب أن يُزجَّ بهما في السجن... لا... لا، أنا لا أرتجف، أنا بخير، سأكون بخير بعد لحظة من الآن... لهذا لم أقل لها كلمة، كنت أخشى أن أنفجر ولم أرغب في أن أصعِّب عليها الأمر. أعرف حقيقة شعورها، وطريقة تفكيرها... أوه نعم، لقد حدّثتني بشأن هذا الموضوع من دون أن تتزعزع، بل حدث ما هو أسوأ من ذلك. أنت تعرف ذلك النوع من الصلابة عندما يتصرّف شخص مّا كما لو أنّه لا يشعر بأيّ شيء على الإطلاق... اسمع، هل سبق لي أن أخبرتك بأنّني معجب بك؟ أنا أحبّك كثيرًا بسبب الطريقة التي تبدو بها الآن. أنت تسمعنا وتفهم... ماذا قالت؟ ما قالته كان غريبًا، فهي لم تكن منشغلة بهانك ريردن بقدر ما كانت خائفة على كين داناغر. قالت إنّ ريردن يملك ما يكفي من القوّة ليتدبّرأمره، لكنّ داناغر لن يكون كذلك، لا لأنّه يفتقر إلى القوّة، ولكن لأنّه سيرفض استعمالها... هي تشعر بأنّها على يقين من أنّ كين داناغر سيكون الشخص القادم الذي سيغادر. سيختفي مثل إليس وايت وكلّ هؤلاء الآخرين الذين استسلموا واختفوا... لماذا؟ حسنا، تعتقد أنّ هناك تورّطا في شيء مّا يشبه تحويل الضغط الاقتصادي والإجهاد الشخصيّ. فبمجرّد أن يتحوّل كلّ ثقل اللحظة ويلقى على كاهل شخص واحد، فإنّ ذلك الشخص سيختفي تماما مثل انهيار أحد أعمدة البنايات. فقبل عام، لم يحدث شيء في البلاد يفوق فقدان إليس وايت. إنّه الشخص الذي فقدناه ومنذ ذلك الحين، كما تقول، كان الأمر كما لو أنّ مركز الثقل يتأرجح بعنف، تماما مثلما هي الحال لسفينة شحن غارقة وخارجة عن نطاق السيطرة. وتنتقل العدوى من صناعة إلى صناعة أخرى، ومن إنسان إلى إنسان آخر. وحين نفقد أحدهم، نصبح في حاجة ماسّة

إلى الآخر، وهو أيضًا سيكون المختفي المقبل. حسنًا، أيّ كارثة يمكن أن تحدث الآن أكبر من ترك إمدادات الفحم في هذه البلاد تحت رحمة أيدي رجال من أمثال بويل أولاركين وعبثهم؟ لم يبقَ أحد في صناعة الفحم يستطيع أن يقدّم الكثير ما عدا كين داناغر. لذلك فهي تقول إنّها تشعر تقريبًا كما لو أنّ علامة وضعت على هذا الرجل، أو أنّ الأضواء سلّطت عليه في الوقت الحاليّ، في انتظار اجتثاثه... ما الذي يضحكك؟ قد يبدو الأمر منافيًا للعقل، ولكن أعتقد أنّه صحيح... ماذا؟ أوه نعم أنت تراهن على أنّها امرأة ذكيّة!... ثمّ هناك شيء آخر يؤكّد ذلك كما تقول. فالإنسان يجب أن يصل إلى مرحلة عقليّة معيّنة، ليس مرحلة الغضب أو اليأس، بل أكثر منهما بكثير قبل أن يقع اجتثاثه. لا يمكنها أن تعلم ماهية تلك المرحلة، لكنّها كانت تعلم، قبل وقت طويل من الحريق، أنّ إليس وايت قد وصل إلى تلك المرحلة وأنّ شيئا مّا سيحدث له. وحين رأت كين داناغر في قاعة المحكمة اليوم، قالت إنّه كان مستعدّا لمدمّره... نعم، تلك هي الكلمات التي استخدمتها: كان مستعدّا للمدمّر. ألا ترى أنّها لا تعتقد أنّ ما يقع هو محض صدفة. إنّها تعتقد أنّ هناك نظاما وراء ذلك، ونيّة مسبّقة، ورجلا مدبّرا. هناك مدمّرٌ طليق في البلاد، يقطع دعم واحد تلو آخر للسماح بانهيار المبنى كلّه على رؤوسنا. إنّه أحد المخلوقات التي لا ترحم والتي تحرّكها أحد الأهداف التي لا يمكن تصوّرها... هي تقول إنّها لن تسمح له بالنيل من كين داناغر. إنّها تستمرّ في الإصرار على ضرورة وقف داناغر، فهي تريد التحدّث إليه، والتضرّع إليه، ومناشدته، وإحياء كلّ ما سيخسر، وتسليحه ضدّ ذلك المدمّر قبل أن يأتي. إنّها حريصة بشدّة على الوصول إلى داناغر. أوّلًا، لأنّه رفض رؤية أيّ شخص. لقد عاد إلى بيتسبرغ وإلى مناجمه، لكنّها تحصّلت عليه هاتفيًا، في وقت متأخّر اليوم، وضربت معه موعدًا لرؤيته بعد ظهر الغد... نعم، ستذهب إلى بيتسبرغ غدًا... نعم، إنّها خائفة على داناغر، خائفة جدًّا... لا، إنّها لا تعرف شيئًا عن ذلك المدمّر ولا تملك فكرة عن هويته، ولا الدليل القاطع على وجوده ما عدا آثار الدمار. لكنّها متيقّنة من وجوده... لا، لا يمكنها تخمين هدفه، فهي تقول إنّه لا شيء على وجه الأرض يمكن أن يبرّر ما ينوي فعله. هناك أوقات تشعر فيها أنّها ترغب في العثور عليه أكثر من أيّ إنسان آخر في العالم، وأكثر

حتّى من العثور على مخترع المحرّك. وتقول إنّها إذا وجدت ذلك المدمّر، فإنّها ستطلق عليه النار على مرأى كلّ العالم ومسمعه، وقالت أيضًا إنّها مستعدّة لمنح حياتها مقابل حياته هو أوّلا وأن تنتقم منه بيديها...لأنّه أكثر المخلوقات شرًّا على الإطلاق، ولأنّه الرجل الذي يستنزف أدمغة العالم. أعتقد أنّ هذا الأمر يزداد أهمّيّة عندها، في بعض الأحيان. وحتّى بالنسبة إليها، لا أعتقد أنّها تسمح لنفسها بمعرفة كم هي متعبة في صباح ذلك اليوم. لقد جئت إلى العمل في وقت مبكّر جدّا ووجدتها نائمة على الأريكة في مكتبها، والضوء لا يزال مشتعلًا. كانت هناك طوال الليل. وقفت ونظرت إليها. لم أكن أودّ إيقاظها حتّى لو انهارت سكّة الحديد اللعينة وهي نائمة. لماذا؟ لأنّها كانت تبدو كفتاة صغيرة وديعة. بدت كما لو أنّها متأكّدة من أنّها ستستيقظ في عالم لن يؤذيها فيه أحد، كما لو أنّه لن يكون لديها ما تخفيه أو تخشاه. هذا ما كان فظيعًا، ذلك النقاء غير المذنب لوجهها، بجسدها الملتوي من الإرهاق، وهي لا تزال مستلقية هناك لأنّها انهارت. لقد كانت تبدو.. لماذا تسألني عن الكيفيّة التي كانت عليها وهي نائمة... نعم، أنت على حقّ، لماذا أتحدّث عن ذلك؟ لا يجب عليّ ذلك، لا أعلم ما الذي جعلني أفكّر في الأمر... لا تُعِرني أيّ اهتمام. سأكون بخير غدًا أعتقد أنّني مصدوم من قاعة المحكمة فصرت أفكّر: إذا كان رجال من أمثال ريردن وداناغر سيتمّ إرسالهم إلى السجن، فما هو نوع العالم الذي نعمل فيه وما الذي نعمل عليه؟ ألا توجد أيّ عدالة على الأرض؟ كنت في منتهى الحمق لأقول ذلك لصحفيّ ونحن نغادر قاعة المحكمة، فضحك وقال: من هو جون جالت؟ أخبرني، ماذا يحدث لنا؟ ألم يتبقّ رجل عادل واحد؟ أليس هناك من يدافع عنهم؟ هل تسمعني؟ أليس هناك من يدافع عنهم؟

***

قالت السكرتيرة: آنسة تاجارت، سيكون السيّد داناغر حرًّا خلال لحظات، يوجد زائر في مكتبه. أتمنّى أن تتقبّلي اعتذاري.

خلال ساعتين من رحلتها إلى بيتسبرغ، كانت داغني غير قادرة بشكل متوتّر على تبرير قلقها أو رفضها؛ لم يكن هناك سبب لحساب الدقائق، ومع ذلك كانت قد

شعرت برغبة عمياء في التعجّل. ثمّ اختفى ذلك القلق عندما دخلت غرفة الانتظار في مكتب كين داناغر: لقد وصلت إليه، ولم يحدث شيء لمنع ذلك، فشعرت بالأمان والثقة والارتياح الهائل.

لكنّ كلمات السكرتيرة هدّمت ذلك الارتياح. فقالت في نفسها لقد أصبحت جبانة يا داغني، ثمّ شعرت برجّة من الرعب لوقع الكلمات بلا سبب، مع كلّ ما يتناسب مع معناها.

ـ أنا آسفة جدًا يا آنسة تاجارت، السيّد داناغر سيكون معك خلال لحظات قليلة. ألن تجلسي.

سمعت صوت السكرتيرة المحترم والمهموم، ثمّ أدركت أنّها وقفت هناك من دون إجابة. ونقل الصوت قلقًا بشأن عدم اللياقة من إبقائها رهن عذاب الانتظار.

ابتسمت داغني وقالت:

ـ أوه، لا داعي إلى القلق، فكلّ شيء على ما يرام.

جلست على كرسيّ خشبيّ، تواجه حواجز مكتب السكرتيرة. ومدّت يدها لأخذ سيجارة ثمّ توقّفت متسائلة عمّا إذا كان لديها الوقت لتدخينها، على أمل أنّها لن تضطرّ إلى ذلك، ثمّ تناولت السيجارة وأشعلتها بفظاظة.

كان المبنى من الطراز القديم، وهو المقرّ الرئيسيّ لشركة داناغر العظيمة للفحم. وفي مكان مّا بالتلال وراء النافذة كانت الحفر حيث عمل كين داناغر سابقًا كعامل مناجم. لم يسبق له أن نقل مكتبه بعيدًا عن حقول الفحم.

كان بإمكانها أن ترى مداخل المنجم وهي تقطع سفوح التلال، على شكل إطارات صغيرة من العوارض المعدنيّة، تؤدّي إلى مملكة هائلة تحت الأرض. لقد بدت تلك المداخل متواضعة بشكل غير مستقرّ، تائهة في لونَي التلال البرتقاليّ والأحمر العنيفين... وتحت سماء زرقاء قاسية، وضوء شمس أواخر أكتوبر، بدا بحر أوراق الشجر مثل بحر من النار... مثل موجات الدوّارة التي تبتلع الوظائف الهشّة في مداخل المنجم.

فارتجفت داغني ونظرت بعيدا: ففكّرت في أوراق الشجر المشتعلة المنتشرة على تلال ولاية ويسكونسن، وعلى الطريق إلى ستارنسفيل.

ثم لاحظت أنّه لم يتبقّ لها سوى عقب من السيجارة بين أصابعها. فأشعلت واحدةً أخرى.

وحين نظرت إلى الساعة على جدار غرفة الانتظار، انتبهت إلى السكرتيرة التي كانت هي أيضًا تنظر في الآن نفسه إلى الساعة. وكان الموعد محدّدا في الساعة الثالثة مساءً. أمّا الساعة البيضاء فكانت تشير إلى: 3:12

قالت السكرتيرة: من فضلك يا آنسة تاجارت، أرجو أن تعذرينا على هذا التأخير. السيّد داناغر سيكون مستعدّا للقائك في أيّ لحظة الآن. فهو دقيق جدًّا بشأن مواعيده. صدّقيني، مثل هذا التأخير لم يسبق له مثيل.

ـ أعلم ذلك.

كانت تعلم أنّ كين داناغر دقيق على نحوٍ صارم بشأن جدوله الزمنيّ للسكك الحديديّة وأنّه معروف بإمكان إلغاء مقابلة إذا سمح أحد المتّصلين لنفسه بالوصول متأخّرًا بخمس دقائق.

كانت السكرتيرة امرأة مسنّة عزباء بسلوك محرج وممنوع، سلوك فيه من المجاملة اللطيفة المتّزنة والمنيعة ضدّ أي صدمة، تماما مثل بلوزتها البيضاء الناصعة والبعيدة عن الأوساخ على الرغم من الجوّ المليء بغبار الفحم. كانت داغني تعتقد أنّ من الغريب أن توجد امرأة بتلك الصلابة والتدريب الجيّد على ذلك النحو من التوتّر، فهي لم تبادر بأيّ محادثة، ثمّ جلست ثابتة، منحنية على بعض صفحات الورق فوق مكتبها. ثمّ انبعث الدخان من نصف سيجارة داغني، بينما كانت المرأة لا تزال جالسة تنظر إلى الصفحة نفسها.

وحين رفعت رأسها لإلقاء نظرة على الساعة وجدتها تشير إلى الثالثة والنصف.

ـ أعرف أنّ أمرًا كهذا لا يغتفر يا آنسة تاجارت.

كانت نبرة التفهّم واضحة في صوتها الآن، ثمّ أضافت:

ـ أنا غير قادرة على فهم هذا الأمر.

ـ هلّا أخبرت السيّد داناغر بأنّني هنا؟

ـ لا أستطيع!

كان كلامها يشبه الصرخة، لكنّها تأمّلت نظرة داغني المندهشة فشعرت بأنّها مضطرّة إلى الشرح:

ـ لقد اتصل بي السيّد داناغر عبر جهاز التواصل بين المكاتب، وقال لي إنّه يجب ألّا تقطع مقابلته تحت أيّ ظرف أو لأيّ سبب من الأسباب.

ـ ومتى فعل ذلك؟

حدثت لحظة توقّف مثل لحظة إطلاق وسادة هوائيّة صغيرة، ثمّ أجابتها:

ـ قبل ساعتين.

نظرت داغني إلى باب مكتب داناغر المغلق. كان بوسعها أن تسمع الصوت من خارج الباب، ولكنّه كان صوتًا خافتًا إلى درجة أنّها لم تستطع الجزم بما إذا كان صوت رجل واحد أو محادثة بين اثنين من الرجال، لم تستطع تبيّن الكلمات أو نوعيّة العواطف المصاحبة لطريقة قولها. كانت أصواتا خافتة فقط، بل حتّى نسقها بدا طبيعيًّا إلى درجة أنّه لم ينقل نبرة مرتفعة للكلام.

سألتها: منذ متى والسيّد داناغر في المؤتمر؟

قالت السكرتيرة بسخرية: منذ الساعة الواحدة.

ثمّ أضافت في شكل اعتذار:

ـ لقد كان المتّصل غير مبرمج على جدول أعماله، وإلّا لما سمح السيّد داناغر بحدوث ذلك.

لم يكن الباب مقفلا، قالت داغني في نفسها؛ ثمّ شعرت برغبة غير معقولة في خلعه

والدخول. كان الباب مجرّد لوحات خشبيّة قليلة بمقبض نحاسيّ، ولن يتطلّب منها سوى قبضة من عضلات يدها الصغيرة، لكنّها أشاحت بنظرها بعيدًا، لأنّها كانت تعلم أنّ قوّة النظام المتحضّر وحقّ كين داناغر في الخصوصيّة كانا أكثر حاجز منيع، وأكثر من أيّ قفل.

وجدت نفسها تحدّق في أعقاب سجائرها التي تراكمت في المنفضة، وتساءلت لماذا منحها ذلك المكان شعورًا أكثر حدّة بالتوجّس. ثمّ أدركت أنّها تفكّر في هيو أكستون الذي كانت قد كتبت له رسالة، على عنوان مطعمه في وايومنغ، طالبة منه أن يخبرها باسم المكان الذي حصل منه على السيجارة بعلامة الدولار، وقد عادت رسالتها، بخطوط بريديّة أبلغتها أنّه قد انتقل بعيدا، ولم يترك أيّ عنوان لإعادة توجيه الرسائل إليه.

ثمّ قالت في نفسها بغضبٍ إنّ هذا ليس له علاقة باللحظة الراهنة، وإنّها يجب أن تسيطر على أعصابها. لكنّ يدها اهتزّت للضغط على زرّ منفضة السجائر وجعل الأعقاب تختفي من المنفضة.

وبينما كانت تنظر إلى أعلى، التقت عيناها بنظرة السكرتيرة التي تراقبها.

قالت السكرتيرة بنبرة من اليأس: أنا آسفة، يا آنسة تاجارت. لا أعلم ماذا أفعل حيال هذا الأمر. لا أجرؤ على مقاطعته.

سألتها داغني ببطء، في تحدٍّ لآداب المناصب: من يكون الرجل الذي يقابل السيّد داناغر؟

ـ لا أعلم، يا آنسة تاجارت. لم يسبق لي أن رأيت هذا الرجل من قبل، أعتقد أنّه صديق للسيّد داناغر منذ أيّام الطفولة.

ردّت داغني بارتياح: أوه!

ـ لقد جاء دون سابق إنذار وطلب مقابلة السيّد داناغر وقال إنّ هذا هو الموعد الذي حدّده معه السيّد داناغر قبل أربعين عامًا.

ـ وكم عمر السيّد داناغر؟

قالت السكرتيرة: اثنتان وخمسون سنة.. بدأ السيّد داناغر العمل في سنّ الثانية عشرة.. والغريب أنّ الزائر لا يبدو في الأربعين من العمر. بل في الثلاثينات.

ـ هل ذكر اسمه؟

ـ لا.

ـ كيف كان مظهره؟

ابتسمت السكرتيرة ببعض الحيويّة، كما لو أنّها كانت على وشك النطق بمجاملة حماسيّة، ولكنّ الابتسامة اختفت فجأةً، فقالت:

ـ لا أعلم.. من الصعب وصفه. لديه وجه غريب.

وظلّتا صامتتين لفترة طويلة، وكانت عقارب الساعة تقترب من الإشارة إلى 3:50 عندما رنّ جرس مكتب السكرتيرة. لقد رنّ جرس مكتب داناغر في إشارة للإذن بالدخول. فقفزتا معًا، وهمّت السكرتيرة بالنهوض مبتسمة في ارتياح، مسرعة إلى فتح الباب.

وعندما دخلت مكتب داناغر، رأت داغني باب الخروج الخاصّ يُغلَق بعد خروج المتّصل الذي سبقها. ثمّ سمعت طرق الباب على زجاج نافذته الصغيرة وخشخشة خافتة على اللوحة الزجاجيّة.

لقد رأت الرجل الذي غادر، من خلال انعكاسه على وجه كين داناغر. لم يكن يشبه الوجه الذي رأته في قاعة المحكمة، ولا الوجه الذي عرفته لسنوات بطلعةٍ بهيّة صلبة لا تتغيّر. كان وجهًا بمُحيّا يتمنّاه كلّ شابّ في العشرينات لكنّه لا يستطيع تحقيقه، بتقاسيم خالية من أيّ علامة من علامات الإجهاد، على نحوٍ جعل الخدّين الصافيين، والجبين المجعّد، والشعر الرماديّ، تشكّل تركيبةَ أملٍ، وحرص، وصفاء ناصع: فكان الموضوع هو الخلاص.

لم ينهض عندما دخلت، بل بدا كما لو أنّه لم يعد تمامًا إلى واقع اللحظة ونسي الروتين

المحض، لكنّه ابتسم لها بمشاعر الخير البسيطة فوجدت نفسها تبادله الابتسامة. انتبهت إلى نفسها وهي غارقة في التفكير بأنّ تلك كانت الطريقة المثاليّة التي ينبغي لكلّ إنسان أن يحيّي بها إنسانًا آخر، وتلاشى قلقها، فشعرت فجأة بيقينها من أنّ كلّ شيء على ما يرام وأنّه لا يوجد شيء يبرّر الخوف.

قال: كيف حالك يا آنسة تاجارت. سامحيني، أعتقد أنّني أبقيتك تنتظرين مدّة طويلة. اجلسي من فضلك.

قالت: لم أمانع في الانتظار، فأنا ممتنّة لأنّك منحتني هذا الموعد. كنت حريصة جدًّا على التحدّث معك بخصوص مسألة عاجلة وفي غاية الأهمّيّة.

انحنى إلى الأمام عبر المكتب، بنظرة من التركيز اليقظ، كما فعل دائما كلّما ذكرت أمامه مسألة تجاريّة هامّة، لكنّها لم تكن تتحدّث إلى الرجل الذي تعرفه، وكان هذا الأمر غريبًا، فتوقّفت غير متأكّدة من الحجج التي كانت مستعدّة لاستخدامها.

قال بعد أن نظر إليها في صمت: إنّه لَيومٌ جميل يا آنسة تاجارت، ربّما يكون آخر يوم جميل في هذا العام. هناك شيء لطالما أردت القيام به، لكن لم يكن لديّ الوقت لذلك. دعينا نَعُدْ إلى نيويورك معًا ونسافر في تلك الرحلات البحريّة بالقارب حول جزيرة مانهاتن. دعينا نُلْقِ نظرة أخيرة على أعظم مدينة في العالم.

جلست بهدوء تحاول أن تثبّت عينيها كي تمنع المكتب من التمايل. هذا هو كين داناغر، الرجل الذي لم يكن يحظى بصديق حميم، ولم يسبق له أن تزوّج، ولا سبق له أن حضر أيّ مسرحيّة أو فيلم، ولم يسمح لصلافة أيّ أحد بأن تأخذ من وقته أو بنقاش أيّ مَشْغَلٍ آخر باستثناء الأعمال التجاريّة.

ـ يا سيّد داناغر، لقد جئت إلى هنا للتحدّث إليك حول مسألة في غاية الأهمّيّة تخصّ مستقبل أعمالك ومناجمك. جئت لأتحدّث عن قرار اتّهامك.

ـ أوه، ذلك الموضوع؟ لا تقلقي بشأنه، فهو أمرٌ تافه. سوف أتقاعد.

جلست بثبات، ولم تكن تشعر بأيّ شيء، وكانت حركتها الأولى رعشة مفاجئة من

رأسها نحو باب الخروج، فسألته بصوت منخفض وفمٍ مُحَرَّف شوّهته الكراهية:

ـ من زارك هنا؟

قال داناغر وهو يضحك: إن أنت فكّرت في هذا الأمر كثيرًا، فعليك أن تخلصي إلى أنّه سؤال لن أجيبك عنه.

قالت بنبرة الشكوى: يا الله يا كين داناغر!

ردّ بلطف: أنت مخطئة يا فتاة. أنا أعلم ما تشعرين به، ولكنّك كنت مخطئة.

ثمّ أضاف بشكل رسميّ:

ـ أنا آسف، يا آنسة تاجارت. لقد كان عليك أن تأتي إلى هنا بعد ذلك بوقت قصير.

قالت: نعم، لقد جئت متأخّرة جدًّا. وهذا أصلا ما جئت لأحول دون حدوثه. كنت أعلم أنّ ذلك سيحدث.

ـ لماذا؟

ـ أيًّا كان الزائر، فقد كنت متأكّدة من أنّ الأمر سيصيبك أنت بعد ذلك.

ـ هل كنت متأكّدة فعلا؟ هذا مضحك. لم أكن كذلك.

ـ أردت أن أحذّرك لتتمكّن من ... وتتسلّح ضدّه.

قال وهو يبتسم: حتّى لا تعذّبي نفسك بالتحسّر على التوقيت، أعاهدك يا آنسة تاجارت على أنّه لا يمكنني القيام بذلك.

شعرت بأنّه مع مرور كلّ دقيقة كان يبتعد نحو مسافة أبعد بكثير، حيث لن تكون قادرة على الوصول إليه، ولكن لا تزال هناك بعض الجسور الرقيقة المتبقّية بينهما وكان عليها أن تسرع. فانحنت إلى الأمام، وقالت بهدوء شديد، وبعاطفة تشكّلت بثبات مبالغ فيه في صوتها:

ـ هل تتذكّر ما فكّرتَ فيه وشعرتَ به، وما كنتَ عليه قبل ثلاث ساعات؟ هل تتذكّر ما تعنيه لك المناجم؟ هل تتذكّر شركة تاجارت العابرة للقارّات أو شركة ريردن

للفولاذ؟ هلّا أجبتني باسم كلّ ذلك؟ هل ستساعدني على الفهم؟

ـ سأجيبك على كلّ ما يمكنني الردّ عليه.

ـ هل قرّرت أن تتقاعد وتتخلّى عن عملك؟

ـ نعم.

ـ ألا يعني ذلك الآن أيّ شيء لك؟

ـ إنّه يعني لي الآن أكثر من ذي قبل.

ـ لكنّك ستتخلّى عنه؟

ـ بالتأكيد.

ـ لماذا؟

ـ لن أجيبك على هذا السؤال.

ـ أنت، يا من أحببت عملك، يا من لم يحترم شيئا سواه، واحتقرت أيّ نوع من أنواع الأفعال العبثيّة. ألا ترى أنّك أنت خنت الحياة التي لطالما أحببتها؟

ـ لا، لقد اكتشفت للتوّ كم أحبّها.

ـ لكنّك تنوي العيش بلا عمل أو هدف؟

ـ ومن قال لك ذلك؟

ـ هل ستنقل أعمال تعدين الفحم إلى مكان آخر؟

ـ لا، لن أعمل في مجال تعدين الفحم.

ـ ماذا ستفعل إذَن؟

ـ لم أقرّر بعد.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لن أجيبك.

أمهلت نفسها فرصة لكي تستجمع قوّتها وتخبر نفسها بأنّها يجب أن تغيّب العاطفة، ولا تظهر له إحساسها بأيّ شيء. ثمّ قالت بنبرة هادئة:

ـ هل تدرك عواقب تقاعدك على هانك ريردن، وعليّ، وعلى الجميع أيًّا كانوا؟

ـ نعم، أنا أدرك ذلك بشكل كلّيّ أكثر ممّا تدركين في الوقت الحاضر.

ـ وهل هذا لا يعني لك أيّ شيء؟

ـ هذا يعني لي أكثر ممّا تتخيّلين.

ـ إذَن لماذا تهجرنا؟

ـ لن تصدّقي ذلك ولن أشرح لك الأمر، لكنّني لن أهجركم.

ـ نحن متروكون لتحمّل عبء أكبر، وأنت لا تبالي بمعرفة أنّك سترى اللصوص يدمّروننا.

ـ لا يجب أن تكوني متأكّدة من ذلك.

ـ غير متأكّدة من أيّ شيء؟ لا مبالاتك أم دمارنا؟

ـ من كليهما معًا.

ـ لكن كما تعلم، وقد علمت بذلك منذ هذا الصباح، إنّها معركة حتّى الموت، ولقد كنت واحد منّا في مواجهة اللصوص.

ـ وإذا أجبتك بأنّني أعلم ذلك، وأنّك لا تعلمين، فقد تعتقدين أنّي لا أحمّل كلامي أيّ معنى. لذلك فسّريه كما يحلو لك، ولكنّ ذلك هو جوابي.

ـ هل ستخبرني بالمعنى؟

ـ لا، عليك أن تكتشفيه.

ـ أنت مستعدّ لِتَرْكِ هذا العالم في أيدي اللصوص. أمّا نحن فلن نقترف هذه الخطيئة.

ـ لا تكوني متأكّدة من ذلك أيضًا.

ظلّت صامتة بلا حول أو قوّة. كان مصدر غرابة أسلوبه متأتّيًا من بساطته: فقد تحدّث كما لو أنّه طبيعيّ تمامًا. وفي خضم الأسئلة التي لم تتمّ الإجابة عليها والسرّ المأسويّ الذي صاحبها، نقل انطباعًا بأنّه لم تعد هناك أسرار أو حاجة غامضة على الإطلاق.

ولكن بينما كانت تراقبه، رأت أوّل استراحة في هدوئه المرح: فلاحظت أنّه كان يناضل ضدّ بعض الأفكار؛ تردّد، ثمّ قال بجهد:

ـ بخصوص هانك ريردن... هل يمكنك أن تسدي إليّ معروفًا؟

ـ بالطبع.

ـ هل تستطيعين إخباره بأنّي... كما ترين، لم يسبق لي أن أعرت الناس أيّ اهتمام، ومع ذلك كان ريردن هو الرجل الذي أحترمه دائمًا، لكنّني لم أكن أعلم حتّى اليوم أنّ ما شعرت به تجاهه هو ... إنّه كان الرجل الوحيد الذي أحببته... أخبريه فقط بهذا الأمر وبأنّني أتمنّى لو أستطيع.. لا، أعتقد أنّ هذا كلّ ما يمكنني قوله له... من المحتمل أن يلعنني بسبب مغادرتي... ولكنّه قد لا يفعل ذلك.

ـ سأخبره.

أثناء سماع نبرة الألم الخافتة والخفيّة في صوته، شعرت بأنّها قريبة جدًا منه حتّى إنّه يبدو من المستحيل أن يوجّه الصفعة التي كان يهدّد بتوجيهها، فقرّرت أن تبذل جهدا أخيرًا.

ـ يا سيّد داناغر، إذا كان يتوجّب عليّ أن أسجد على ركبتيّ وأتضرّع إليك فهل سيكون هناك... هل توجد فرصة لوقفك؟

ـ لا توجد أدنى فرصة.

وبعد فترة وجيزة، سألته بحياد:

ـ ومتى ستستقيل؟

ـ الليلة.

قالت وهي تشير إلى التلال التي تقع وراء النافذة: وماذا ستفعل بشركة داناغر للفحم؟ لمن ستتركها؟

ـ لا أعرف، أو لعلّي لا أكترث. لن أتركها لأيّ أحد أو ربّما سأتركها للجميع. سأتركها لمن يريد أن يأخذها.

ـ ألن تتخلص منّا؟ ألن تعيّن خلفًا لك؟

ـ لا، لماذا؟

ـ اتركها في أيادٍ آمنة. هل يمكن أن تصطفي على الأقلّ اسم وريث من اختيارك؟

ـ ليس لديّ أيّ خيار. لم يعد هذا الأمر يشكّل فارقًا بالنسبة إليّ. أتريدين منّي أن أترك لك كلّ شيء؟

مدّ يده ليلتقط ورقة بيضاء، ثمّ أضاف:

ـ سأكتب رسالة تسميتك وريثةً وحيدة الآن إذا رغبتِ في ذلك.

هزّت رأسها في ارتداد لاإراديّ من الرعب وقالت:

ـ أنا لست من اللصوص!

ضحك ونحّى الورقة جانبًا وقال:

ـ ألا ترين؟ لقد منحتني الجواب الصحيح سواء كنت تدركين ذلك أم لا. لا تقلقي بشأن شركة داناغر للفحم، لن يحدث أيّ فرق سواء عيّنت أفضل خلف في العالم، أو أسوأهم، أو لا أحد. وبغضّ النظر عمّن سيتولّى الأمر الآن، سواء الرجال أو الطفيليّات، فإنّ ذلك لن يحدث أيّ فرق.

ـ لكن أن ترحل وتتخلّى عن ذلك... مجرّد التخلّي... عن مؤسّسة صناعيّة عظيمة، كما لو أنّنا كنّا في عصر الرحّل أو مثل الهمج الذين يهيمون على وجوههم في الأدغال!

قال بنبرة تمتزج فيها السخرية والشفقة: ألسنا كذلك؟ لماذا يجب عليّ أن أترك أيّ

فعل أو أيّ إرادة؟ لا أريد مساعدة اللصوص على التظاهر بأنّ الملكيّة الخاصّة لا تزال موجودة. أنا فقط أمتثل للنظام الذي أسّسوه. سيقولون إنّهم لا يحتاجونني وإنّهم يحتاجون فقط إلى فحمي، فلندعهم يأخذوه.

ـ إذَن أنت تقبل بنظامهم؟

ـ هل يبدو أنّني أفعل ذلك؟

قالت، وهي تتنهّد وتنظر إلى باب الخروج: ماذا فعل بك؟

ـ لقد قال إنّ لي الحقّ في الوجود.

ـ لم أكن أعتقد أنّه يمكن لثلاث ساعات أن تجعل رجلا يعادي اثنين وخمسين عامًا من حياته!

ـ إذا كان هذا ما تعتقدين أنّ ذلك الزائر فعله، أو إذا كنت تعتقدين أنّه أسرَّ لي ببعض إيحاءات لا يمكن تصوّرها، فإنّني أستطيع أن أدرك مدى قلقك بشأن هذا الأمر. لكن ليس هذا ما فعله. لقد اكتفى بتسمية ما عشته، وما يعيشه كلّ إنسان طيلة المدّة الزمنية التي لا يقضيها وهو بصدد تدمير نفسه.

كانت تعلم أن الأسئلة لم تعد مجدية وأنّه لا يوجد شيء يمكنها قوله له. نظر إلى رأسها المنحني، ثم قال بلطف:

ـ أنت إنسانة شجاعة يا آنسة تاجارت. أعرف ما ترغبين في فعله الآن وما يكلّفك هذا الأمر، فلا تعذّبي نفسك ودعيني أذهب.

نهضت داغني. كانت على وشك أن تتكلّم، ولكنّه رآها فجأة تحدّق إلى أسفل، ثمّ قفزت إلى الأمام واستولت على منفضة السجائر التي كانت تقع على حافّة المكتب. كانت المنفضة تحتوي على عقب سيجارة مختوم بعلامة الدولار.

ـ ما خطبك يا آنسة تاجارت؟

ـ هل كان... هل كان يدخّن هذا النوع من السجائر؟

ـ من؟

ـ زائرك؟ هل كان يدخّن هذه السيجارة؟

ـ لماذا، لا أعلم... أعتقد أنّه فعل ذلك... نعم، أعتقد أنّني رأيته يدخّن سيجارة ذات مرّة... دعيني أرى... لا، هذه ليست علامتي التجاريّة المفضّلة من السجائر، لذلك يجب أن تكون سيجارته.

ـ هل دخل هذا المكتب أيّ زوّار آخرين اليوم؟

ـ لا، لكن لماذا كلّ هذه الأسئلة يا آنسة تاجارت؟ ما المشكل في ذلك؟

ـ هل لي أن آخذ عقب السيجارة؟

قال وهو في حيرة من أمره: تأخذين ماذا؟ عقب السيجارة؟

ـ نعم.

ـ بالتأكيد يمكنك ذلك، ولكن لماذا؟

كانت تنظر إلى أسفل وعقب السيجارة بكفّ يدها كما لو أنّه جوهرة نفيسة. ثمّ قالت:

ـ لا أعلم... لا أعلم أيّ خير سيجلبه لي عقب السيجارة هذا، إلّا أنّه دليل على.. هو سرّ خاصّ بي.

وقفت، متردّدة بخصوص المغادرة، وهي تنظر إلى كين داناغر على شاكلة إرسال النظرة الأخيرة إلى إنسان يغادر صوب عالم اللّاعودة. فاستنتج ذلك وابتسم ومدّ يده قائلًا:

ـ لن أقول وداعًا، لأنّني سأراك مرّة أخرى في المستقبل غير البعيد.

قالت بشغف: أوه، هل ستعود؟

ـ لا، بل أنت من سينضمّ إليّ.

***

لم يكن هناك شيء غير نَفَس أحمر باهت يخيّم فوق الهياكل في الظلام، كما لو أنّ المطاحن نائمة، وهي في الحقيقة على قيد الحياة، وما يثبت نشاطها كان تنفّس الأفران وضربات قلب السيور البعيدة. وقف ريردن قرب نافذة مكتبه، كانت يده تضغط على البلّور؛ ولكن من زاوية نظر بعيدة، غطّت يده نصف ميل من الهياكل، كما لو أنّه يحاول مسكها.

كان ينظر إلى جدار طويل من الشرائط الرأسيّة يمثّل بطّاريّة أفران فحم الكوك. انزلق باب ضيّق مفتوح بوهج وجيز من اللهب، وخرجت ورقة من فحم الكوك الأحمر المتوهّج تنزلق بسلاسة، مثل شريحة من الخبز من جانب محمّصة عملاقة. فأمسك بها للحظة، ثمّ أطلقت النار من فتحة الزاوية الضيّقة عبر الشريحة وانهارت في جدول الانتظار على القضبان أدناها.

فقال في نفسه إنّه فحم داناغر. كانت تلك هي الكلمات الوحيدة العالقة بذهنه. أمّا الباقي فمجرّد شعور بالوحدة، بوحشة شاسعة جدًّا إلى درجة أنّ الألم الخاصّ المرافق لها غار في فراغ هائل.

بالأمس، أخبرته داغني بقصّة محاولتها العقيمة مع داناغر والرسالة التي أوصى بتسليمه إيّاها. وفي هذا الصباح، سمع الأخبار التي أعلنت عن اختفاء داناغر. لم ينم تلك الليلة، وظلّ مشدودا بالتركيز على واجبات يومه، وظلّت إجابته على رسالة داناغر تنبض في ذهنه، ذلك الجواب الذي لن تتاح له الفرصة لنطقه.

الرجل الوحيد الذي أحببته كما قال كين داناغر، وهو الذي لم يعبّر له عن أيّ شيء شخصيّ في أيّ مناسبة أكثر من "انظر هنا يا ريردن". فكّر وقال في نفسه: لماذا سمحنا للأمر بالوقوع؟ لماذا أصبحنا نحن الاثنين مدانين في كلّ الساعات التي قضّيناها بعيدًا عن مكاتبنا، بالذهاب إلى المنفى بين الغرباء المكتئبين الذين جعلونا نتخلّى عن كلّ رغبة في الراحة، والصداقة، والاستماع لصوت من الأصوات البشريّة؟ هل يمكنني الآن أن أستعيد ساعة واحدة أمضيتها في الاستماع إلى أخي فيليب وأهبها لكين داناغر؟ من الذي جعل من واجبنا أن نقبل، على سبيل المكافأة الوحيدة لعملنا، التعذيبَ المتمثّل

في التظاهر بالحبّ لأولئك الذين لم يحرّكوا فينا سوى مشاعر الازدراء؟ نحن الذين كنّا قادرين على إذابة الصخور والمعادن لأهدافنا، لماذا لم نسعَ البتّة إلى ما أردناه من البشر؟

حاول خنق الكلمات في ذهنه، وهو يعلم أنّه من غير المجدي التفكير فيها الآن. لكنّ الكلمات كانت هناك وبدت مثل الكلمات الموجّهة إلى الموتى: لا، أنا لا ألعنك على مغادرتك، إذا كان ذلك هو السؤال والألم الذي أخذته معك. لماذا لم تعطِني فرصة لأخبرك... بماذا؟ بأنّني موافق؟ لا، ولكن لا أستطيع أن لومك ولا تتبّعك.

ثمّ أغلق عينيه، ليسمح لنفسه بتجربة لحظة الإغاثة الهائلة التي سيشعر بها لو أنّه ينسج على منواله ويتخلّى عن كلّ شيء. وتحت تأثير صدمة خسارته، شعر بخيط رفيع من الحسد. لماذا لم يأتوا من أجلي أيضًا، أيّا كانوا، ليمنحوني ذلك السبب الذي لا يقاوم والذي سيجعلني أرحل مثلهم؟ لكن في اللحظة التالية، شعر بقشعريرة غضبه تخبره بأنّه سيقتل الرجل الذي سيحاول الاقتراب منه، وأنّه سيقتله قبل أن يسمع كلمات السرّ التي ستأخذه بعيدًا عن طواحينه.

كان الوقت متأخّرًا، وكان موظّفوه قد رحلوا، لكنّه خشي الطريق إلى منزله وفراغ المساء المقبل. ثمّ شعر كما لو أنّ العدوّ الذي قضى على كين داناغر، كان ينتظره في الظلام وراء توهّج المطاحن. واعتقد أنّه لم يعد منيعًا بعد الآن، لكن أيّا كان العدوّ، ومن أيّ مكان قد يحلّ، فهو في مأمن منه هنا، في دائرة من الحرائق التي تحيط به لدرء الشرّ عنه.

نظر إلى بقع بيضاء لهيكلٍ يقع على مسافة بعيدة وهي تتلألأ على النوافذ الداكنة؛ لقد كانت مثل تموّجات من أشعّة الشمس الثابتة التي ترسمُ على الماء. إنّها انعكاس علامة النيون المضيئة على سطح المبنى فوق رأسه، تعلن: شركة ريردن للفولاذ. وفكّر في الليلة التي أراد فيها إضاءةَ علامة فوق ماضيه، تعلن: حياة ريردن. لماذا تمنّى ذلك؟ ولعيون مَن يا ترى؟

لقد فكّر – بدهشة مريرة وللمرّة الأولى – بأنّ الفخر الذي شعر به ذات مرّة، كان متأتّيًا من احترامه للبشر، ولقيمة إعجابهم وحكمهم. لكنّه لم يعد يشعر بذلك. فهو يعتقد أنّه لا يوجد بشرٌ يمكنه أن يقدّم لهم تلك العلامة.

ثمّ التفت بفظاظة بعيدًا عن النافذة. وأمسك معطفه باكتساح قاسٍ من لفتة تهدف إلى إعادته مرّة أخرى إلى جوّ الانضباط في العمل. وأغلق بعنف طيّتي المعطف على جسده، وشدّ وثاق الحزام الضيّق، ثمّ سارع إلى إطفاء الأنوار بثبات سريع من يده في طريقه للخروج من المكتب.

ثمّ فتح الباب، وتوقّف. كان هناك مصباح واحد مضيء في زاوية من غرفة الانتظار الباهتة، ورجل جالس قرب حافّة مكتب، في موقف عارض يشبه انتظار المريض. إنّه فرانسيسكو دانكونيا.

وقف ريردن بثبات والتقط لحظة وجيزة كان فرانسيسكو أثناءها بلا حراك. فنظر إليه بوميض ابتسامة مسلّية تشبه غمزة بين المتآمرين في سرٍّ لا يفهمه غيرهما، دون الاعتراف به. كانت مجرّد لحظة وجيزة جدًّا حتّى إنّه يصعب التقاطها، إذ بدا له أنّ فرانسيسكو نهض في الآن نفسه عند دخوله، بحركة مهذّبة يشوبها الاحترام. أشارت الحركة إلى أنّها كانت مجرّد إجراء شكليّ صارم، وإنكار لأيّ محاولة افتراض شيء مّا، لكنّها شدّدت على حميميّة حقيقة أنّه لم ينطق بكلمة تحيّة أو تفسير.

ـ سأله ريردن بصوت خشن: ماذا تفعل هنا؟

ـ ظننتُ أنّك تريد رؤيتي في هذه الليلة يا سيّد ريردن.

ـ ولماذا؟

ـ للسبب نفسه الذي أبقاك إلى وقتٍ متأخّر جدًّا في مكتبك. فأنت لم تكن تعمل.

ـ منذ متى وأنت جالس هنا؟

ـ ساعة أو ساعتين.

ـ لماذا لم تطرق بابي؟

ـ هل كنت ستسمح لي بالدخول؟

ـ لقد تأخّرت في طرح هذا السؤال.

ـ هل لي أن أغادر يا سيّد ريردن؟

أشار ريردن إلى باب مكتبه قائلا: ادخل.

أشعل ريردن أضواء المكتب، كان يحاول أن يسيطر على الموقف. فقد اعتقد أنّ عليه ألّا يسمح لنفسه بالشعور بأيّ شيء، لكنّه شعر بعودة ألوان الحياة إليه في حرص هادئ شديد لعاطفة لم يستطع تحديد ماهيتها. وكان ما قاله لنفسه بوعي هو أنّ عليه توخّي الحذر.

جلس على حافّة مكتبه، ثمّ ثنى ذراعيه في تقاطع ونظر إلى فرانسيسكو، الذي ظلّ واقفًا باحترام أمامه، وسأله مبتسمًا:

ـ لماذا جئت إلى هنا؟

ـ أنت تريدني أن أجيبك يا سيّد ريردن. ولن تعترف لي أو لنفسك كم كنت وحيدًا بشدّة في هذه الليلة. وإذا لم تستجوبني فلن تشعر بأنّك مضطرّ إلى إنكار ذلك. أنا على علم بوحدتك.

أجابه ريردن بتوتّر يشبه انشداد حبل يسحبه الغضب في مواجهة الصلافة في أحد طرفيه والإعجاب بالصراحة في الطرف الآخر:

ـ سأعترف به إذا كنت ترغب في ذلك. وما الذي سيقلقني إذا كنت على علم بذلك؟

ـ أنا أعلم وأهتمّ بك يا سيّد ريردن. ففي محيطك، أنا الرجل الوحيد الذي يفعل ذلك.

ـ لماذا يجب عليك أن تهتمّ بي؟ ولماذا أحتاج إلى مساعدتك في هذه الليلة؟

ـ لأنّه ليس من السهل عليك أن تلعن الرجل الذي يعني لك الكثير.

ـ لن ألعنك لو بقيت بعيدًا عنّي.

اتّسعت عينا فرانسيسكو قليلًا، ثمّ ابتسم وقال:

ـ كنت أتحدّث عن السيّد داناغر.

للحظة، بدا ريردن كما لو أنّه يريد صفعة على وجهه، ثمّ ضحك بهدوء وقال: حسنًا. اجلس.

انتظر ريردن ليرى الفائدة التي سيجنيها فرانسيسكو الآن، ولكنّ فرانسيسكو أطاعه في صمت، بابتسامة صبيانيّة غريبة، وبنظرة تمزج بين الانتصار والامتنان معًا.

قال ريردن: أنا لا ألعن كين داناغر.

ـ ألم تفعل ذلك؟

ـ لا، أنا لا أحاول أن أصف كم يجب على الإنسان أن يتحمّل. وإذا أفلس، فليس عليّ أن أحكم عليه.

ـ إذا أفلس...؟

ـ حسنًا، ألم يكن كذلك؟

انحنى فرانسيسكو إلى الوراء؛ لقد عادت ابتسامته، لكنّها لم تكن ابتسامة فرح. ثمّ قال:

ـ ماذا سيفعل بك اختفاؤه؟

ـ سأكون فقط مطالبًا بالعمل مع قليل من الجدّ.

نظر فرانسيسكو إلى جسر من الصلب، ثمّ تتبّع ضربات المطارق السوداء في مواجهة البخار الأحمر خلف النافذة، وقال وهو يشير بيده:

ـ لكلّ واحدة من تلك العوارض حدٌّ للحمولة التي يمكن أن تتحمّلها. فماذا عن قدرتك على التحمّل؟

قال وهو يضحك: هل هذا ما كنت خائفًا منه؟ ألهذا جئت إلى هنا؟ هل كنت خائفًا من أن أتحطّم؟ وهل أردت إنقاذي، كما أرادت داغني تاجارت أن تنقذ كين داناغر؟ لقد حاولت الوصول إليه في الوقت المناسب، لكنّها لم تستطع إنقاذه.

ـ هل فعلت ذلك حقًّا؟ لم أكن أعرف ذلك؟ أنا والآنسة تاجارت نختلف بشأن

أشياء كثيرة.

ـ لا تقلق، فأنا لن أختفي. دعهم جميعًا يستسلموا ويتوقّفوا عن العمل. أمّا أنا فلن أستسلم. أنا لا أعرف حدودي ولا أهتمّ بمعرفتها. وكلّ ما أعرفه هو أنّه لا يمكن لأيّ أحد إيقافي.

ـ أيّ إنسان يمكنه إيقافه يا سيّد ريردن.

ـ كيف؟

ـ إنّها مسألة معرفة القوّة الدافعة لذلك الإنسان.

ـ وما هي هذه القوّة الدافعة؟

ـ يجب أن تعرفها يا سيّد ريردن. فأنت آخر الرجال الأخلاقيّين الذين تُرِكوا للعالم.

قال ريردن وهو يضحك في مرارة: لقد وُصفت بشتّى النعوت ما عدا تلك. وأنت مخطئ بشأن ذلك الوصف ولا تملك أدنى فكرة عن حجم الخطإ الذي اقترفته.

ـ هل أنت متأكّد؟

ـ هل يجب عليّ أن أراجع أخلاقي؟ ما الذي جعلك تتفوّه بهذا الأمر؟

أشار فرانسيسكو إلى المطاحن خلف النافذة وقال: هذا الشيء.

ظلّ ريردن ينظر إليه لفترة طويلة من دون أن يتحرّك، ثمّ سأله: وماذا تعني بذلك؟

ـ إذا كنت تريد أن ترى مبدًا مجرّدًا، مثل العمل المعنويّ، متجسّدًا في شكل ماديّ، فتلك المطاحن هي خير مثال على ذلك. انظر إليها يا سيّد ريردن وإلى كلّ عارضة منها، وإلى كلّ الأنابيب والأسلاك والصمّامات التي وضعت هناك وفق خيار للإجابة عن السؤال: أتختار الصواب أم الخطأ؟ وكان عليك أن تختار الصواب وكان عليك أن تختار الأفضل ضمن علمك، الأفضل لغايتك، وهو صنع الصلب، ثمّ المضيّ قدمًا وتوسيع المعرفة، والقيام بعمل أفضل، والأفضل، بهدفك الخاصّ بوصفهِ معيارًا للقيمة. كان عليك أن تتصرّف بناءً على حكمك الخاصّ، وأن تمتلك القدرة على الحكم، والشجاعة

للوقوف على حكم عقلك، واختيار الأنقى، وتكريس الأكثر قسوة لقاعدة القيام بالصواب، والقيام بالأفضل، وبلوغ أقصى ما يمكن لك فعله. لا شيء يمكنه أن يجعلك تتصرّف ضدّ حكمك، وكنت قد رفضت كلّ ما هو خاطئ، وكلّ الشرّ، وأيّ إنسان حاول أن يقول لك إنّ أفضل طريقة لتسخين الفرن هي أن تملأه بالجليد. الملايين من البشر، أمّة بأكملها، لم تكن قادرة على ردعك عن إنتاج معدن ريردن، لأنّك كنت تملك معرفة بقيمته الفائقة والقوّة التي تعطيها تلك المعرفة. ولكن ما أتساءل عنه يا سيّد ريردن هو: لماذا تعيش وفق مدوّنة واحدة من المبادئ عندما تتعامل مع الطبيعة ومدوّنة أخرى عند تعاملك مع الناس؟

ثبّت عليه ريردن عينَيه عن قصد إلى درجة أنّ السؤال جاء بطيئا: وماذا تعني بذلك؟

ـ لماذا لا تتمسّك بالهدف من حياتك وفق ما تبديه تجاه مطاحنك من وضوح وصلابة؟

ـ وماذا تقصد؟

ـ لقد حكمت على كلّ لبنة في هذا المكان من خلال قيمة مساهمتها في هدف صنع الصلب. فهل كنت صارمًا بخصوص الهدف الذي يخدمه عملك والصلب الخاصّ بك؟ وما الذي ترغب في تحقيقه من خلال وهب حياتك لصنع الصلب؟ ووفق أيّ معيار للقيمة تحكم أيّامك؟ فعلى سبيل المثال، لماذا قضّيت عشر سنوات من الجهد الصارم لإنتاج معدن ريردن؟

نظر ريردن بعيدًا، بحركة هبوط طفيفة لكتفيه مثل إلقاء تنهيدة تمزج بين الانفراج وخيبة الأمل. ثمّ قال:

ـ إذا كان عليك أن تطرح كلّ تلك الأسئلة، فإنّك لن تفهم شيئًا.

ـ وإذا أخبرتك بأنّني أفهم كلّ شيء، وبأنّك أنت الذي لا تستوعب أيّ شيء، فهل ستطردني من هنا؟

ـ كان عليّ أن أطردك من هنا منذ البداية، لكن لا بأس إذا واصلت حديثك، وقلت

لي ما تعنيه.

ـ هل أنت فخور بالسكك الحديديّة لخطّ جون جالت؟

ـ نعم.

ـ ولماذا؟

ـ لأنّها أفضل سكّة حديد صنعت على الإطلاق.

ـ ولماذا أنجزتها؟

ـ من أجل كسب المال.

ـ كانت هناك طرق أسهل لكسب المال، فلماذا اخترت السبيل الصعب؟

لقد ذكرت الهدف في خطابك ليلة حفل زفاف تاجارت؛ كان ذلك بهدف مقايضة قصارى جهدي بأفضل جهد للآخرين.

ـ وإذا كان هذا هو هدفك، فهل حقّقته؟

قال ريردن بعض لحظات من الصمت: لا.

ـ هل كسبت أيّ أموال؟

ـ لا.

ـ وعندما تجهد طاقتك إلى أقصى حدٍّ من أجل إنتاج الأفضل، هل تتوقّع أن تكافأ على ذلك أو تعاقب؟

لم يجبه ريردن. فأضاف: ووفقًا لكلّ معايير اللياقة، والشرف، والعدالة المعروفة عندك، هل أنت مقتنع بأنّه كان ينبغي أن تكافأ على ذلك؟

قال ريردن بصوت خافت: لا.

ـ ثمّ إذا كنت قد عوقبت بدلًا من ذلك، فوفق أيّ مدوّنة أخلاقيّة قبلت ذاك العقاب؟

لم يجبه ريردن الذي ظلّ صامتًا. فقال فرانسيسكو:

ـ عمومًا، يُفترَض أنّ العيش في مجتمع بشريّ يجعل حياة المرء أسهل وأكثر أمانًا ممّا لو تُرك وحدَه في نضاله ضدّ الطبيعة في جزيرة خالية كالصحراء. والآن، أينما وُجد إنسان يحتاج إلى المعدن أو يستخدمه بأيّ شكل من الأشكال، فإنّ معدن ريردن جعل حياته أسهل. هل جعل هذا المعدن حياتك أسهل ممّا كانت عليه؟

ردّ ريردن بصوت منخفض: لا.

ـ هل ما زالت حياتك كما كانت قبل أن تنتج هذا المعدن؟

ردّ ريردن: لا.

وقطعت تلك الكلمة حديثه كما لو أنّ حبل أفكاره قُطِع. فصدمه صوت فرانسيسكو فجأة وهو يأتي مثل أمرٍ: قلها!

ردّ ريردن بحياد: لقد جعل ذلك المعدن حياتي تبدو أكثر صعوبة.

قال فرانسيسكو بوضوح تامّ: ما نوع الرجال الذين فكّرت فيهم حين خرج خطّ جون جالت إلى حيّز الوجود؟ هل كنت ترى أنّ هذا الخطّ ينبغي أن يستخدم من قبل أناس يتساوون معك في الطاقة الإنتاجيّة مثل إليس وايت، علما أنّ هذا الاستخدام سيساعدهم على بلوغ إنجازات عظيمة؟

ردّ ريردن وقد عيل صبره: نعم.

ـ هل كنت ترغب أن تراه يُستعمَل من قبل أناس لا يملكون مثل قدراتك العقليّة، ولكنّهم بالمقابل يتقاسمون معك نزاهتك الأخلاقيّة، مثل إيدي ويلرز الذي لا يمكن أبدًا أن يخترع معدنًا مثل معدنك، ولكنّهم سيبذلون قصارى جهدهم، ويعملون بجدٍّ كما فعلت، ويعيشون بجهدهم الخاصّ، فيركبون القطارات التي تمشي على السكك الحديديّة الخاصّة بك، ليمنحوا لحظة سكون بفضل الرجل الذي أعطاهم أكثر ممّا يمكن أن يعطوه؟

قال ريردن بلطف: نعم.

ـ وهل كنت ترغب في أن تراه مستعملًا من قبل الكسالى الذين لا يبذلون أيّ مجهود، أولئك الذين لا يملكون قدرة كاتب حفظ الإيداع ولكنّهم يطالبون بدخل رئيس الشركة، والذين ينجرفون من فشل إلى فشل ويتوقّعون منك أن تدفع فواتيرهم، والذين يحملون أمنياتهم كأمر مساوٍ لعملك وحاجتهم كأعلى مطالبة يكافَؤون عليها أكثر من جهدك، والذين يطالبونك بخدمتهم، والذين يطالبون بأن يكون هدف حياتك هو خدمتهم، والذين يعلنون أنّك ولدت للعبوديّة بسبب عبقريّتك، بينما هم يولدون ليحكموا بنعمة عدم الكفاءة، ويرون مهمّتك تتلخّص في أن تعطي فقط، بينما تكون مهمّتهم هي الأخذ، ويرونك خلقت للإنتاج، بينما خلقوا هم للاستهلاك، ولا يرون أيّ داعٍ لكي يدفعوا لك، سواء كان الدفع مادّيًا أو معنويًا، فلن تحصل لا على الثروة ولا على الاعتراف ولا على الاحترام ولا على الامتنان. إذن هم سيمطّطون قطارات تلك السكك الحديديّة الخاصّة بك وهم يسخرون منك ويلعنونك، لأنّهم لا يدينون لك بأيّ شيء. هل هذا ما كنت ترغب فيه؟ هل تشعر بالفخر بذلك؟

ردّ ريردن: لو حدث هذا لكنت فجّرت تلك السكك الحديديّة.

ـ إذَن لماذا لم تفعل ذلك يا سيّد ريردن؟ من بين الأنواع الثلاثة من البشر التي وصفتها، أيّ الناس الذين يتمّ تدميرهم الآن؟ وأيّهم يستخدم خطّك اليوم؟

وبعد فترة طويلة من الصمت، سمعا نبضات المعادن البعيدة في المطاحن. فقال فرانسيسكو:

ـ ووفقًا لما وصفته في الختام، هل يوجد إنسان يعلن حقّه في قرش واحد من جهد إنسان آخر.

لم يجبه ريردن، ولكنّه كان ينظر إلى انعكاس علامة النيون على النوافذ الداكنة على بعد مسافة.

ـ يا سيّد ريردن، أنت تفتخر بنفسك، لأنّك لم تضع حدًّا لقدرتك على التحمّل، وتعتقد أنّك تفعل الصواب. وماذا لو لم تكن كذلك؟ ماذا لو كنت تضع فضيلتك في

خدمة الشرّ وتدعها تصبح أداةً لتدمير كلّ شيء تحبّه وتحترمه؟ لماذا لا تتمسّك بمدوّنة القيم الخاصّة بك بين الناس كما تفعل بين مصاهر الحديد؟ أنت الذي لم يسمح بنسبة واحد في المائة من الشوائب لتدخل في سبيكة من المعدن، ما الذي سمحت بتسرّبه داخل مدوّنتك الأخلاقيّة الخاصّة بك؟

جلس ريردن بثبات؛ لقد كانت الكلمات في ذهنه مثل وقع خطوات أسفل الدرب الذي كان يسعى وراءه؛ كانت عبارة عن معاقبة الضحيّة. مكتبة سُر مَن قرأ

ـ أنت، يا من لم يخضع لمشاقّ الطبيعة ومصاعبها، بل قهرها وجعلها في خدمة راحته وسعادته، لماذا تخضع لأيدي البشر؟ أنت، يا من تدرك من خلال عملك أنّ كلّ فرد منّا يجب أن يتحمّل العقاب فقط لأنّه أخطأ، ما الذي كنت على استعداد لتحمّله ولأيّ سبب؟ طوال حياتك، وأنت تسمع أنّ نفسك مُدانة، لا بسبب أخطائك، بل من أجل أعظم فضائلك. لقد كنت مكروهًا، لا لأخطائك، ولكن لإنجازاتك. لقد احتقروك لجميع تلك الصفات الشخصيّة التي تعتبر من مفاخرك. وصفوك بالأنانيّة بسبب شجاعتك في التصرّف بناءً على حكمك وتحمّل المسؤوليّة الوحيدة عن حياتك الخاصّة. نعتوك بالمتغطرس بسبب عقلك المستقلّ. ونعتوك بالقسوة بسبب نزاهتك الصادقة. ثمّ نعتوك بالمعادي للمجتمع بسبب قدرتك على المغامرة في الطرق الوعرة غير المكتشفة. وقالوا إنّك غير رحيم بسبب قوّتك وانضباطك الذاتيّ وأنت تتصرّف وفق هدفك الخاصّ. وقالوا أيضًا إنّك جشع بسبب قدرتك على خلق الثروة. أنت، يا من أنفقت دفقا لا يمكن تصوّره من الطاقة، كيف أمكنهم أن يصفوك بالطفيليّ؟ أنت، يا من خلقت الوفرة حين لم يكن هناك أيّ شيء سوى الأراضي البور والناس الذين لا حول لهم ولا قوّة، يتضوّرون جوعًا أمامك، كيف أمكنهم أن يصفوك باللصّ؟ أنت، يا من أبقاهم جميعًا أحياء، كيف يحقّ لهم أن يقولوا إنّك مستغلّ. أنت، يا من كنت الرجل الأنقى والأكثر أخلاقًا بينهم، كيف يحقّ لهم أن يسخروا منك ويصفوك بالمادّيّ المبتذل. هل توقّفت عن سؤالهم: بأيّ حقّ؟ ووفق أيّ مدوّنة أخلاقيّة أو عرف؟ ووفق أيّ معيار؟ لا، لقد تحمّلت كلّ شيء بصمت. لقد انحنيت لعُرفهم ولم تتمسّك قطّ

بعرفك فكنت تعلم ماهية الأخلاق الصارمة اللّازمة لإنتاج مسمار معدنيّ واحد، ولكن سمحتَ لهم بأن تكون علامتك التجاريّة غير أخلاقية. كنت تعلم أنّ الإنسان يحتاج إلى مدوّنة صارمة من القيم للتعامل مع الطبيعة، ولكن كنت تعتقد أنّك لا تحتاج إلى مثل تلك القيم للتعامل مع الناس. لقد تركت السلاح الأكثر فتكًا في أيدي أعدائك، وهو سلاح لم تشكّك فيه أو تفهمه البتّةَ. قانونهم الأخلاقيّ هو سلاحهم. فاسأل نفسك بعمق عن عدد الطرق الرهيبة التي جعلتك تقبل بذلك العرف وكيفيّة اشتغالها. اسأل نفسك عمّا قد تقدر مدوّنة القيم الأخلاقيّة على فعله في حياة الإنسان، ولماذا لا يمكن أن يوجد من دونها، وماذا يحدث له إذا قبل بالمعيار الخاطئ، الذي بسببه يصبح الشرّ خيرًا. هل لي أن أخبرك بالسبب الذي يجعلك منجذبًا إليّ حتّى لو كنت تعتقد أنّه يجب عليك أن تلعنني؟ لأنّني أوّل رجل منحك ما يدين به العالم كلّه لك وما كان يجب أن تطالب به جميع البشر قبل أن تتعامل معهم: عقوبة أخلاقيّة.

أخذ ريردن يحوم حول فرانسيسكو، ثمّ وقف بثبات، بسكون لم يبقَ منه غير اللهاث. انحنى فرانسيسكو إلى الأمام، كما لو أنّه يريد أن يصل حالة تشبه الهبوط الخطير لطائرة، وكانت عيناه ثابتتين، ولكن يبدو أنّ النظرة المنبعثة منهما ترتجف بكثافة.

ـ أنت مذنب بسبب خطيئة كبيرة يا سيّد ريردن، أنت مذنب أكثر ممّا يتفوّهون به في وجهك، لكن ليس بالطريقة التي يعظونك بها. فأسوأ ذنب هو قبول ذنب غير مستحقّ، وهذا ما كنت تفعله طوال حياتك. لقد كنت تدفع ثمن الابتزاز، لا بسبب رذائلك، ولكن بسبب فضائلك. كنت مستعدًّا لتحمّل العقاب غير المستحقّ كلّما كانت الفضائل التي تمارسها أعظم. لكنّ فضائلك هي تلك التي تبقي البشر على قيد الحياة. لقد كانت شفرتك الأخلاقيّة التي تعيش بها، ولكنّك لا تذكرها أو تعترف بها أو تدافع عنها، هي التي تحافظ على وجود الإنسان. وإذا عوقبت على ذلك، فما هي طبيعة أولئك الذين عاقبوك؟ وإذا كانت مدوّنتك الأخلاقيّة هي قانون الحياة، فماذا كانت مدوّنتهم إذَن؟ وأيّ معيار للقيمة يكمن في جذور تلك المدوّنة؟ وما هو هدفها النهائيّ؟ هل تعتقد أنّ ما تواجهه هو مجرّد مؤامرة للاستيلاء على ثروتك؟ أنت، يا من

تعلم مصدر الثروة، يجب عليك أن تعلم أكثر من ذلك بكثير وأسوأ من ذلك بكثير. هل طلبت منّي أن أسمّي لك القوّة الدافعة للإنسان؟ القوّة الدافعة للإنسان هي قانونه الأخلاقيّ. فلتسأل نفسك إلى أين تقودك قوانينهم الأخلاقيّة وما الذي تقدّمه لك كهدف نهائيّ. فالشرّ الأسوأ من قتل نفس بشريّة هو تسويق الانتحار للإنسان على أنّه عمل من أعمال الفضيلة. شرّير من يرمي إنسانًا في أتون فرن التضحية، ويطالبه بأن يقفز داخله من تلقاء نفسه، ويكون بالإضافة إلى ذلك هو من شيّد ذلك الفرن. وبيانهم الخاصّ يشهد أنّهم هم الذين يحتاجون إليك، وليس لديهم ما يقدّمونه لك في المقابل. وهو يشهد أيضًا أنّ عليك أن تدعمهم لأنّهم من دونك لا يستطيعون البقاء على قيد الحياة. فاعتبر الفحش الذي يقدّم عجزهم وحاجتهم، حاجتهم إليك، تبريرًا للتعذيب. هل أنت مستعدّ لقبوله؟ هل يعنيك إرضاء حاجيات مدمّريك على حساب قدرتك العظيمة على التحمّل، ومقابل ثمن عذابك؟

ـ لا!

قال فرانسيسكو، بصوت هادئ: يا سيّد ريردن، إذا رأيت أطلس، ذلك العملاق الجبّار الذي يحمل العالم على كتفيه، وهو واقف، ودمه يسيل إلى أسفل صدره، وقد التوت ركبتاه، وذراعاه ترتجفان ولكنّه لا يزال يحاول أن يحمل العالم عاليًا بما يحتفظ به من قوّة، وكلّما كان جهده أعظم ازداد العالم على كتفيه ثقلا، فبماذا ستنصحه؟

ـ أنا ... لا أعلم. ما... هل يستطيع أن يفعل ذلك؟ وبماذا ستنصحه أنت؟

ـ بأن يهزّ كتفيه ويتجاهل الأمر.

بلغت قعقعة المعدن أرجاءَ المكتبِ على شكل تدفّق غير منتظم للأصوات دون إيقاع ملحوظ، ولم تكن قعقعته تشبه صوت عمل آليّة، بل تشبه بعض الاندفاع الواعي وراء كلّ تمزّق مرتفع مفاجئ يتصاعد ثمّ يتحطّم ويتشتّت وفق أنين باهت من التروس. وزجاج النوافذ يحدث رنينا من حين إلى آخر.

كانت عينا فرانسيسكو تراقبان ريردن كما لو أنّهما تفحصان مسار رصاصة صوب

هدف مقصوف. وكان من الصعب تتبّع المسار: فجسده كان هزيلا منتصبًا على حافّة المكتب، ولم تُبدِ زرقة عينيه الباردة سوى حدّة ثابتة على مدى مسافة كبيرة، خانه فقط فمه غير المرن فأظهر خطًّا رَسَمَه الألم.

قال ريردن بجهد: استمرّ.. استمرّ في حديثك. فأنت لم تنتهِ بعد من الكلام، أليس كذلك؟

أجابه فرانسيسكو بصوت قاسٍ: بل إنّي لم أكد أبدأ.

ـ وما ... الذي ترمي إليه؟

ـ ستعرف ذلك قبل أن أنتهي من كلامي ولكن أوّلًا، أريد منك أن تجيب على هذا السؤال: إذا كنت تفهم طبيعة العبء الخاصّ بك، كيف يمكنك...

وحطّم دوي صفّارة الإنذار الفضاءَ وراء النافذة. لقد أطلقت مثل صاروخ في خطّ طويل ورقيق إلى السماء. ثمّ توقّفت لحظة، وهوى طنينها، ثمّ أخذ في التصاعد مدويًّا على شكل دوّامات من الصوت، كما لو أنّها تحارب من أجل التنفّس لمواجهة الرعب، لكي تصرخ بصوت أعلى كان يشبه صرخة الألم والعذاب، طلبًا للمساعدة. لقد كان صوت المطاحن يشبه صراخ جسد جريح يبكي.

اعتقد ريدن أنّه كان الأوّل الذي همّ بالقفز نحو الباب لحظة الصراخ الذي ضرب وعيه، لكنّه لاحظ أنّه تأخّر للحظات، لأنّ فرانسيسكو سبقه. لقد عجّل فرانسيسكو بالنزول من القاعة نحو المصعد فضغط على الزرّ ولم يشأ الانتظار فسبقه على السلالم. تبعه ريردن بعد أن انتبه إلى ضغط زرّ المصعد ففضّل المصعد على السلالم، وتقابلا عند منتصف الطريق أسفل ارتفاع المبنى. لكن قبل أن يتوقّف القفص الفولاذيّ عن الارتعاش عند عتبة الطابق الأرضيّ، كان فرانسيسكو خارجًا، يسرع تلبيةً لنداء المساعدة. كان ريردن يحسب نفسه عدّاءً جيّدًا، لكنّه لم يستطع مجاراة سرعة جسدٍ مرّ مثل البرق المتلألئ عبر امتدادات من الوهج الأحمر والظلام، جسد مستهتر عديم الفائدة كان يكره أن يُعجَب بنفسه.

لم يكن في المجرى، الذي يتدفّق من حفرة منخفضة على جانب فرن الانفجار، أيُّ توهّج أحمر من النار، ولكن كان به لون يشبه شعاعًا أبيض من أشعّة الشمس. فسكبه على امتداد الأرض، فتفرّع عشوائيًّا على شكل شرائط مفاجئة؛ كانت تقطع من خلال الضباب الغارق من البخار مع بزوغ مشرق للصباح. لقد كان حديدًا سائلًا، وما أعلنته صرخة الإنذار تلك بيّنت وقوع شقّ في ذلك المجرى.

لقد عُلِّقت شحنة الفرن بعد أن أحدث الشقّ فتحة في الصنبور. وسقط رئيس الفرن على الأرض فاقدًا الوعيَ، بينما اندفع التدفّق الأبيض فمزّق الحفرة ببطءٍ. كان الرجال يخمدون النار بالرمل والخراطيم والطين لإيقاف الخطوط المتوهّجة التي تنتشر في حركة انزلاقيّة ثقيلة تلتهم كلّ شيء في طريقها وتنفث الدخان اللّاذع.

في اللحظات القليلة التي كان ريردن يحتاج إليها لفهم مشهد الكارثة وطبيعتها، رأى جسد رجل يرتفع فجأة عند أسفل الفرن، جسدًا رسم ملامحه الوهج الأحمر تقريبًا كما لو أنّه كان واقفًا في طريق السيل. لقد رأى تأرجح ذراع بيضاء بكمّ قميص ترتفع وتقذف جسمًا أسود صوب مصدر المعدن المتزحلق. إنّه فرانسيسكو دانكونيا، وما قام به من فعل كان ينتمي إلى فنٍّ لم يعتقد ريردن أنّ أيّ رجل تدرّب على أدائه.

فمنذ سنين خلت، عمل ريردن في مصنع مغمور للصلب بولاية مينيسوتا، حيث كانت وظيفته تتمثّل في إغلاق الحفرة باليد، بعد أن يُفتَح فرن صهر، وذلك عبر رمي رصاصات من الطين الناريّ لسدّ تدفّق المعدن. كانت مهمّة خطيرة أودت بحياة أناس كثيرين؛ لقد ألغيت تلك الوظيفة منذ سنوات بعد اختراع البندقيّة الهيدروليكيّة؛ ولكن كانت هناك مطاحن فاشلة تكافح، أثناء طريقها إلى الانحدار، محاولةً استخدام معدّات وأساليب قديمة من الماضي البعيد. لقد أنجز ريردن المهمّة. ولكن في السنوات التي تلت ذلك، لم يلتقِ بأيّ رجل آخر قادر على فعل ذلك. وفي خضمّ إطلاق نفاثات من البخار الحيّ، لمواجهة فرن الانفجار المتهالك، كان يرى الآن الشكل الطويل النحيف للفتى المستهتر الذي يؤدّي المهمّة بمهارة خبير.

استغرق الأمر من ريردن لحظة لنزع معطفه، والتقاط زوج من النظّارات الواقية من

أوّل رجل في الأفق ثمّ انضمّ إلى فرانسيسكو عند فوّهة الفرن. لم يكن هناك وقت للتحدّث أو التساؤل. نظر إليه فرانسيسكو مرّة واحدة، وما رآه ريردن كان وجهًا ملطّخًا ونظّارتين واقيتين سوداوين وابتسامة عريضة.

وقفا على ضفّة زلقة من الطين المتفحم، على حافّة الجدول الأبيض، وقد وجدا ثقبًا مستعرا تحت أقدامهما، كانا يقذفان الطين على الوهج حيث الألسنة الملتوية تشبه الغاز وهي تغلّي المعدن. لقد أصبح وعي ريردن تطوّرًا لسلسة من الانحناءات، ورفعًا للأثقال، وتوجيهها وإرسالها إلى الأسفل. وقبل أن يصل إلى وجهته غير المرئيّة، والانحناء للأثقال التالية مرّة أخرى، كان وعيه مرسومًا بإحكام عند مشاهدة هدف ذراعه، لإنقاذ الفرن، والموقف غير المستقرّ لقدميه، لإنقاذ نفسه. لم يكن يدرك أيّ شيء آخر ما عدا أنّ مجموع ذلك هو شعور الابتهاج بالعمل، وقدرته الذاتيّة، ودقّة جسده، واستجابته لمشيئته. وعلى الرغم من عدم وجود وقت لمعرفة ذلك، فقد أدركه، واستولى عليه بحواسّه متجاوزًا رقابة عقله. كان يرى صورة ظلّيّة سوداء بأشعّة حمراء تنطلق من خلف كتفيها، ومرفقيها، ومنحنياتها الدائريّة، أشعّةٌ حمراء تدور عبر البخار مثل الإبر الطويلة. أضواء كاشفة، تتبع تحرّكات خبير سريع واثق من أنّه لم يسبق له مثيل إلّا في ملابس السهرة تحت أضواء قاعات الرقص.

لم يكن هناك وقت لتشكيل الكلمات، والتفكير، والشرح، لكنّه كان يعلم أنّ هذا هو فرانسيسكو دانكونيا الحقيقيّ. لم يشعر بشيء غير السعادة. كان يبدو وكأنّه تدفّق للطاقة يضاف إلى طاقته الخاصّة.

وعلى إيقاع جسده، وبتأثير الحرارة الحارقة على وجهه وتأثير تلك الليلة الشتويّة على لَوْحَي كتفيه، أدرك ريردن فجأةً أنّ ذلك هو الجوهر البسيط لعالمه: رفض الخضوع للكارثة بشكلٍ فوريّ، والدافع الذي لا يقاوم لمحاربتها، والشعور بالانتصار لقدرته على الفوز. كان على يقين من أنّ فرانسيسكو شعر بذلك أيضًا، وأنّه قد تأثّر بالدافع نفسه، وأنّه كان من الصواب أن يشعر به، والصواب عند كلّ منهما هو أن يكونا ما كانا عليه، لقد التقط لمحات من وجه مملوء بالعرق عازم على العمل، فكان أكثر وجه سعيد

رآه على الإطلاق.

ظلّ الفرن فوقهما مثل كتلة سوداء ملفوفة في لفائف من الأنابيب والبخار؛ بدت وكأنّها تلهث، وتطلق شهقات حمراء معلّقة في الهواء فوق الطواحين، وناضلا حتّى لا يسمحا لها بمزيد النزف حتّى الموت. علقت شرارات حول أقدامهما وانفجرت في حزم مفاجئة من المعدن، واحتضرت دون أن يلاحظها أحدٌ على ملابسهما، وعلى بشرة أيديهما. كان التيّار يتدفّق بشكل أبطأ، في اندفاعات مكسورة عبر السدّ الذي تجاوز أنظارهما.

حدث ذلك سريعًا إلى درجة أنّ ريردن لم يعِ ما حدث إلّا بعد انتهائه. لم يعِ غير لحظتين؛ إحداهما عندما رأى جسد فرانسيسكو يتأرجح بعنفٍ وهو يندفع إلى الأمام لكي يرسل الرصاصة لمواصلة الخطّ في الفضاء، ثمّ رأى تلك الرعشة إلى الخلف، كانت رعشة مفاجئة غير منتظمة، رعشة فاشلة، ولاحظ ضربًا متشنّجًا بهدف الدفع إلى الأمام، وظلَّ ذراعين يمتدّان فيفقدان توازنهما، واعتقد أنّ القفزة عبر المسافة بينهما على التلال الزلقة المتهالكة تعني موتهما. أمّا اللحظة الأخرى فهي عندما هبط بجانب فرانسيسكو، وأمسكه من ذراعه، معلّقًا متمايلًا معًا بين المسافة والثغرة، فوق الحفرة البيضاء، ثمّ استقرّ على قدميه وسحبه إلى الخلف، وللحظة، ظلّ طول جسد فرانسيسكو مقابل طول جسده، كما لو أنّه يمسك بجسد ابنه الوحيد. فاختزل حبّه وخوفه وارتياحه في جملة واحدة:

ـ كن حذرا، أيّها الأحمق اللعين!

فمدّ فرانسيسكو يده لالتقاط قطعة من الطين واستمرّ في الإطفاء. وعندما أنجزت المهمّة وردمت الفجوة، أحسّ ريردن بألم التواء في عضلات ذراعيه وساقيه، وأحسّ بأنّ جسده لم يعد يملك القدرة على الحراك، ومع ذلك شعر بزوال كلّ شيء كما لو أنّه كان يدخل مكتبه في الصباح، متلهّفًا لحلّ عشر مشاكل جديدة. نظر إلى فرانسيسكو ولاحظ لأوّل مرّة أنّ ملابسهما مبقّعةٌ بثقوب ذات دوائر سوداء، وأنّ أيديهما تنزف، وأنّ رقعة من الجلد تمزّقت بصدغ فرانسيسكو وخطّا أحمر يسيل في عظم خدّه. نزع

فرانسيسكو النظّارتين الواقيتين من عينيه وابتسم له ابتسامة صباحيّة.

اندفع شابّ بدت عليه علامات الأذى المزمن والوقاحة معًا نحو ريردن، لقد هرع إليه وهو يبكي: يا سيّد ريردن، لم أستطع منع ذلك! وانطلق في خطاب تفسيريّ. أدار ريردن ظهره له دون أن ينبس ببنت شفة. لقد كان المساعد المسؤول عن مقياس ضغط الفرن، وهو شابّ انقطع عن الدارسة في الكلّيّة.

كان ريردن يعتقد أنّ حوادث من هذا النوع تقع بشكل متكرّر في ذلك الزمن، بسبب نوع الخام الذي يستخدمه، ولكن كان عليه استخدام أيّ خام يمكن العثور عليه. وقد اعتقد أنّ عمّاله القدامى كانوا قادرين دائمًا على تجنّب الكارثة؛ إذ كان لأيّ منهم القدرة على رؤية مؤشّرات الانقطاع ومعرفة كيفيّة منعه؛ لكن لم يتبقّ منهم الكثير، وكان عليه أن يوظّف أيّ رجال يجدهم. ومن خلال لفائف البخار الملتفّة حوله، لاحظ أنّ الرجال الأكبر سنًّا هم الذين هرعوا من جميع أنحاء الطواحين لمحاربة الاختراق ووقفوا الآن على شكل طابور، يتلقّون الإسعافات الأوليّة من قبل الطاقم الطبّيّ. تساءل عمّا يحدث لشباب البلد. لكنّ تعجّبه اختفى حين رأى وجه طالب الكلّيّة، ذاك الذي لم يستطع تحمّل رؤيته، بموجة من الازدراء، من خلال التفكير الصامت بأنّه إذا كان ذلك هو العدوّ، فإنّه لا يوجد ما يخشاه. وخطرت كلّ تلك الأشياء بباله واختفت في الظلمة الخارجيّة؛ ولم يبدّدها غير مشهد رؤية فرانسيسكو.

رأى فرانسيسكو وهو يملي الأوامر على الرجال من حوله. لم يعرفوا مَن يكون ولا من أين جاء، لكنّهم أنصتوا إليه: كانوا يعلمون أنّه رجل يجيد وظيفته. انقطع فرانسيسكو عن الكلام عند منتصف جملة لم ينهِها حين رأى ريردن يقترب وهو يستمع إليه، فقال ضاحكًا:

ـ أوه، أستميحك عذرًا!

قال ريردن: امضِ قدمًا. فكلّ شيء صائبٌ، حتّى الآن.

لم يقل أحدهما شيئًا للآخر عندما سارا معًا عبر الظلام في طريق عودتهما إلى المكتب.

شعر ريردن بغبطة الضحك وهي تتصاعد بداخله، ورأى أنّه هو أيضًا يريد أن يغمز إلى فرانسيسكو مثل زميل متآمر عرف سرًّا لم يكن فرانسيسكو يعرفه. فكان ينظر إلى وجهه من حين إلى آخر، لكنّ فرانسيسكو لم يكن ينظر إليه. وبعد لحظات قال فرانسيسكو:

ـ لقد أنقذتَ حياتي.

ردّ عليه ريردن مبتسما: لقد أنقذت فرني.

ظلّا صامتين. وكان ريردن يحسّ أنّه صار أخفّ وزنًا مع كلّ خطوة اتّخذها. رفع وجهه ليواجه الهواء البارد، فرأى ظلام السماء الهادئ ونجمًا واحدًا فوق مدخنة كتبت حروفها في اتّجاه عموديّ: شركة ريردن للفولاذ. لقد كان سعيدا لأنّه ما يزال على قيد الحياة.

لم يكن يتوقّع التغيير الذي رآه في وجه فرانسيسكو عندما نظر إليه في ضوء مكتبه، فالأشياء التي رآها في وهج الفرن تلاشت الآن. كان يتوقّع نظرة انتصار وسخرية من كلّ الإهانات التي سمعها فرانسيسكو منه، نظرة تطالب بالاعتذار الذي كان حريصًا على تقديمه بفرحٍ. وبدلًا من ذلك، رأى وجهًا تعوزه الحياة بسبب إنهاك غريب. ثمّ قال ريردن:

ـ هل تأذّيت؟

ـ لا... لا على الإطلاق.

قال ريردن وهو يشير إلى الحمّام: تعال إلى هنا.

ـ انظر إلى نفسك.

ـ لا تهتمّ. أنت من يجب عليه أن يأتي إلى هنا.

لاحظ ريردن، ولأوّل مرّة، أنّه كان الرجل الأكبر سنًّا؛ لقد شعر بالسعادة لتولّي فرانسيسكو المسؤوليّة؛ وشعر بمشاعر الأبوة التي تتضمّن الثقة والتسلية والحماية. فغسل وجه فرانسيسكو ونزع عنه الأوساخ، وضع المطهّرات والضمّادات اللّاصقة

على صدغه، ويديه، ومرفقيه المحروقين. وكان فرانسيسكو يطيعه في صمت. ثمّ سأله ريردن، بنبرة من الإجلال والتقدير:

ـ أين تعلّمت العمل بهذه الطريقة؟

ـ لقد تربّيت داخل مصاهر من كلّ نوع.

لم يستطع ريردن فكّ شفرات وجهه الذي اعتلاه سكونٌ غريبٌ، كما لو أنّ عينيه كانتا ثابتتين على رؤية سرّيّة خاصّة به أنشأت على فمه خطًّا من السخرية المقفرة والمرّة والمؤذية للذات. ولم يتحدّثا حتّى عادا إلى المكتب.

قال ريردن: أنت تعلم أنّ كلّ ما قلته هنا كان صحيحًا. لكنّ ذلك ليس أكثر من وجه القصّة، أمّا قفاها فهو ما فعلناه الليلة، ألا ترى ذلك؟ نحن قادران على الفعل، أمّا هم فليسوا كذلك، لذا فنحن من سيفوز على المدى الطويل، بغضّ النظر عمّا سيفعلونه بنا.

لم يجبه فرانسيسكو. فأضاف ريردن:

ـ اسمع، أعرف مشكلتك. فأنت لا تهتمّ أبدًا بالقيام بعمل يوم حقيقيّ في حياتك. كنت أظنّك مغرورًا بما فيه الكفاية، ولكن أرى أنّك لا تملك أدنى فكرة عمّا تحصّلت عليه منك. انسَ ثروتك تلك لفترة وتعالَ للعمل معي. سأبدأ بتوظيفك رئيسًا لعمّال الفرن في أيّ وقت. لن تعلم ما الذي ستفعله خلال سنوات قليلة. ستكون مستعدًّا لتقدير شركة دانكونيا للنحاس وتشغيلها.

كان يتوقّع أن ينفجر فرانسيسكو ضاحكًا ويكون على استعداد للجدال، ولكن بدلًا من ذلك، رآه يهزّ رأسه ببطء، كما لو أنّه لم يستطع الوثوق بصوته أو خشي أنّه إذا تكلّم فسيُضطرّ إلى القبول. وبعد لحظة، قال:

ـ يا سيّد ريردن ... كان بودّي أن أعمل في ما تبقّى من حياتي رئيس عمّال بأفرانك، ولكنّني لا أستطيع.

ـ ولمَ لا؟

ـ لا تسألني. إنّها... مسألة شخصيّة.

كانت رؤية فرانسيسكو على ذلك النحو تمثّل، في ذهن ريردن، شخصيّة رجل غير قادر على المعاناة بشكل كبير، وهي رؤية استاء منها ووجدها جذّابة بشكل لا يقاوم في الآن نفسه. فما رآه الآن في عيني فرانسيسكو هو نظرة تعذيب هادئ، تحت سيطرة مشدّدة، يحملها بصبر. ثم مدّ فرانسيسكو يده بصمت لأخذ معطفه. فسأله ريردن:

ـ أنت لن تغادر، أليس كذلك؟

ـ بلى، سأغادر.

ـ ألن تنهي ما كان عليك أن تخبرني به؟

ـ ليس الليلة.

ـ كنت تريد منّي أن أجيبك على سؤال. فما هو هذا السؤال؟

أطلق فرانسيسكو ابتسامة تشبه أنين الألم، ثمّ قال:

ـ لن أطرح ذلك السؤال يا سيّد ريردن، لأنّي أعرف الجواب.

الفصل الرابع

معاقبة الضحية

كان الديك الروميّ المشويّ يكلّف ثلاثين دولارا. أمّا كلفة الشمبانيا فقد بلغت خمسة وعشرين دولارا، وأمّا ثمن مفرش المائدة المصنوع من الدانتيل، وهو عبارة عن نسيج لشبكة من العنب وأوراق الكروم المتعدّدة الألوان على ضوء الشموع، فهو ألفا دولار. وقد بلغت تكلفة خدمة العشاء، من تصميم فنّان صهر اللونين الأزرق والذهبيّ وحوّلهما إلى أبيض شفّاف صينيّ، ألفين وخمسمائة دولار. أمّا الأواني الفضّيّة، التي كانت تحمل الأحرف الأولى (ل ـ ر) في أكاليل الغار الإمبراطوريّة، فقد كلّفت ثلاثة آلاف دولار. ولكن كان من غير المعقول التفكير في المال وما يمثّله.

في وسط الطاولة كان هناك حذاء فلاح خشبيّ، مذهّب، مليء بالقطيفة والعنب والجزر. كانت الشموع عالقة في القرع الذي قُطِّع على شكل وجوه مفتوحة الأفواه يسيل منها لعاب الزبيب والمكسّرات والحلوى فوق مفرش المائدة. لقد كان عشاء عيد الشكر، والثلاثة الذين واجهوا ريردن حول الطاولة هم زوجته ووالدته وشقيقه.

قالت والدة ريردن: هذه هي الليلة التي سنشكر فيها الربّ على بركاته. فالله كان لطيفًا بنا. ففي جميع أنحاء البلاد أناس لا يملكون أيّ طعام في المنزل الليلة، أمّا البعض الآخر فلا يملك منزلًا أصلًا، وأكثرهم يعملون يوميًا، لكن دون جدوى. مثل هذه الأشياء تفزعني حين أطوف حول المدينة. لماذا تسألونني عن الناس الذين زرتهم في الأسبوع الماضي فقط، ومن تعتقدون أنّي زرت غير لوسي جودسون. هل تتذكّر لوسي جودسون يا هنري؟ لقد كانت تعيش بجوارنا في ولاية مينيسوتا عندما كنتَ بين

العاشرة والثانية عشرة من العمر، وكان لديها صبيّ في عمرك. لقد فقدت أثر لوسي عندما انتقلت مع عائلتها إلى نيويورك منذ عشرين سنة خلت. حسنًا، لقد شعرت بالرعب حين أدركت الحالة التي أصبحت عليها. إنّها اليوم مجرّد عجوز هرمة بلا أسنان، ملفوفة في معطف رجل، تستجدي الناس في زاوية الشارع. وكنت أقول في نفسي إنّه كان من الممكن أن أكون مكانها لولا نعمة الله.

قالت ليليان بمرح: حسنًا، إذا كان عشاء الشكر جيّدا ومرتّبا وفق هذا التصنيف الرائع، فأعتقد أنّه لا ينبغي لنا أن ننسى جيرترود، الطبّاخة الجديدة فهي فنّانة في الطهي.

ردّ فيليب عليها: أمّا أنا فأودّ أن أكون من الطراز القديم، لأنّني سأكتفي بشكر أجمل أمّ في العالم.

أجابته والدة ريردن: حسنًا، وفي هذا الصدد، يجب أن نشكر ليليان على هذا العشاء وعلى كلّ المتاعب التي تكبّدتها لكي يبدو جميلا جدّا. لقد أمضت ساعات في ترتيب الطاولة. إنّه عشاء ظريف ومختلف حقًّا.

قال فيليب وهو يحني رأسه جانبًا ليدرس الأمر من موقع الناقد الذي يقدّر الأمور: الحذاء الخشبيّ هو الذي أعطى كلّ هذا الانطباع، تلك هي اللمسة الحقيقيّة. إذ يمكن لأيّ شخص أن يملك الشموع وأواني الفضّة وكلّ تلك الخردة التي لا تقتضي أيّ شيء سوى المال، ولكن هذا الحذاء هو ما يستوجب تفكيرًا مغايرًا.

لم يقل ريردن شيئًا. لقد تحرّك ضوء الشموع على وجهه الثابت بلا حراك، كان وجهه يحمل تعبيرًا عن مجاملة غير مخصوصة.

قالت والدته وهي تنظر إليه: أنت لم تلمس نبيذك. يجب عليك أن تشرب نخب الامتنان لشعب هذا البلد الذي قدّم لك الكثير.

قالت ليليان: هنري ليس في مزاج يسمح له بتقبّل ذلك يا أمّي. أخشى أن يكون عيد الشكر عطلةً فقط لأولئك الذين يتمتّعون بذهن صاف وضمير مرتاح.

ثمّ رفعت كأس نبيذها، ولكنّها أوقفته في منتصف الطريق إلى شفتَيها وسألت زوجها: أنت لن تقوم بتلك الوقفة أثناء محاكمتك غدًا، أليس كذلك يا هنري؟

ـ بلى، سأقوم بها.

قالت وهي تضع كأسها جانبا: وماذا ستفعل؟

ـ ستكتشفين ذلك غدًا.

ـ هل تعتقد أنّك ستفلت من ذلك!

ـ أنا لا أعلم ما يدور بذهنك في خصوص الموضوع الذي لن أفلت منه.

ـ هل تدرك أنّ التهمة الموجّهة إليك خطيرة جدًّا؟

ـ بالتأكيد، أدرك ذلك.

ـ لقد اعترفت بأنّك بعت المعدن لكين داناغر.

ـ طبعًا فعلت.

ـ قد يعاقبونك بالسجن لعشر سنوات.

ـ لا أعتقد أنّهم سيفعلون ذلك، لكنّه أمرٌ ممكن.

سأله فيليب وقد بدا على ملامح وجهه نوع غريب من الابتسامة:

ـ ألم تقرأ ما نُشِر بالصحف يا هنري؟

ـ لا.

ـ أوه، يجب عليك قراءته إذَن!

ـ هل يجب عليّ أن أفعل ذلك؟ لماذا؟

ـ يجب أن تكتشف الألقاب التي يطلقونها عليك!

قال ريردن: هذا مثير للاهتمام.

قال ذلك وهو يقصد ابتسامة فيليب التي كانت مثيرة للمتعة.

قالت والدته: لم أفهم ذلك. السجن؟! هل قلت السجن يا ليليان؟ هنري، هل سيزجّون بك في السجن؟

ـ ربّما يفعلون ذلك.

ـ لكن هذا أمر سخيف! يجب أن تفعل شيئًا حياله.

ـ ماذا سأفعل؟

ـ لا أعلم، ولا أفهم أيّ شيء من ذلك. فالناس المحترمون لا يُزجّ بهم في السجون. افعل شيئًا. ولاسيّما أنّك تعرف دومًا ما يجب القيام به حيال الأعمال التجاريّة.

ـ ليس هذا النوع من الأعمال.

قال بنبرة طفل خائف ومدلّل: لا أصدّق ذلك.. أنت تقول هذا فقط لتبدو لئيمًا.

قالت ليليان وهي تبتسم ببرودٍ وتلتفت إلى ريردن: إنّه يلعب دور البطل يا أمّي، ألا ترى أنّ موقفك غير مجدٍ تمامًا؟

ـ لا.

ـ أنت تعرف أنّ القضايا من هذا النوع ليس... المقصود منها بلوغ المحاكمة. إذا كان المرء يعرف الأشخاص المناسبين، فهناك طرق عديدة لتسوية الأمور وديًّا.

ـ أنا لا أعرف الأشخاص المناسبين.

ـ انظر إلى أورين بويل، لقد اقترف أكثر ممّا اقترفت بكثير، بل وأسوأ بكثير من صفقتك الصغيرة في السوق السوداء، لكنّه كان على ما يكفي من الذكاء لينأى بنفسه عن المحاكم.

ـ إذن أنا لست ذكيًّا بما فيه الكفاية.

ـ ألا تعتقد أنّه حان الوقت لتتكيّف مع ظروف عصرنا؟

ـ لا.

ـ حسنا، ثمّ لماذا تتظاهر بأنّك ضحيّة؟ إذا زُجّ بك في السجن، فسيكون ذلك بسبب

خطئك.

ـ عن أيّ تظاهر تتحدّثين يا ليليان؟

ـ أوه، أعرف أنّك تعتقد أنّك تناضل من أجل نوع من أنواع المبادئ، ولكنّها في الواقع ليست سوى مسألة غرور خاصّ لا يصدّق. أنت تفعل ذلك فقط لظنّك أنّك على حقٍّ.

ـ وهل تعتقدين أنّهم على حقٍّ؟

ـ هذا هو الغرور الذي أتحدّث عنه. الغرور هو حين تولي أهمّيّة أكبر لمن هو على حقّ ومن هو على باطل. إنّه أكثر أشكال الغرور التي لا تطاق، ذلك الإصرار على القيام بالصواب دومًا. فكيف تدرك ماهية الصواب؟ كيف يمكن لأيّ شخص أن يعرف ذلك؟ إنّه مجرّد وهم لتملّق غرورك وإيذاء الآخرين من خلال التباهي بتفوّقك عليهم.

قال وهو ينظر إليها باهتمام وانتباهٍ: لماذا سيؤذي الآخرين إذا كان مجرّد وهم؟

ـ هل عليّ الإشارة إلى أنّه في حالتك لا يعني سوى النفاق؟ لهذا أجد موقفك منافيًا للعقل. إنّ مسائل الحقّ لا تؤثّر إطلاقا على الوجود البشريّ. وأنت بالتأكيد لست سوى إنسان، أليس كذلك يا هنري؟ أنت لست أفضل من أيّ من واحد من الذين ستواجههم غدًا. وأعتقد أنّك مضطرّ إلى تذكّر أنّه ليس عليك اتّخاذ موقفٍ من أيّ نوع من المواقف التي تنحاز إلى المبادئ. قد تكون أنت ضحيّة هذه الفوضى بالذات، ولعلّهم يحبكون حيلة مدنّسة للإيقاع بك، لكن حتّى لو فعلوا ذلك، فهم يفعلونه لأنّهم ضعفاء. إنّهم ضعفاء فشلوا في مقاومة إغراء الاستيلاء على معادنك والتحكّم في أرباحك. إنّهم لا يملكون أيّ وسيلة أخرى لزيادة ثرائهم. لماذا تلومهم؟ هي مجرّد مسألة سلالات مختلفة، لكنّكم من النسيج البشريّ الرديء نفسه الذي يفسح المجال للسرعة نفسها. لن يغريك المال، لأنّ من السهل عليك صنعه. لكنّك لن تصمد أمام الضغوط الأخرى وستسقط بشكل مخزٍ أليس كذلك؟ لهذا ليس لك الحقّ في إبداء أيّ سخط تجاههم. فأنت لا تملك أيّ تفوّق أخلاقيّ لتؤكّده أو تدافع عنه. وإذا لم تفعل

ذلك، فما الفائدة من خوض معركة لا يمكنك الفوز فيها؟ وأنا أفترض أنّ المرء قد يجد بعض الارتياح في أن يكون شهيدًا إذا كان هو فوق اللوم. ولكن من أنت لتلقي الحجر الأوّل؟

توقّفت لمراقبة تأثير كلامها. ولكن لم يكن هناك أيّ تأثير، إلّا ازدياد كثافة اهتمامه اليقظ؛ لقد كان يستمع إليها كما لو أنّه مدفوع بفضول علميّ غير شخصيّ. فلم يكن الردّ الذي تتوقّعه. فقالت:

ـ أعتقد أنّك تفهمني.

أجابها بهدوء: لا، أنا لا أفهمك البتّة.

ـ أعتقد أنّ عليك التخلّي عن أوهامك، فأنت تدرك جيّدًا أنّها مجرّد أوهام. وأعتقد أيضًا أنّه يجب عليك أن تتعلّم التفاهم مع الآخرين. فعصر البطولة قد مضى وهذه هو عصر الإنسانيّة، بمعنى أعمق بكثير ممّا تتخيّل. لم يعد من المتوقّع أن يكون البشر قدّيسين ولا أن يعاقبوا على خطاياهم. لا أحد على صواب أو خطإ، كلّنا سواءٌ في ذلك، كلّنا بشر، والإنسان ناقص بطبعه. لن تكسب شيئًا غدًا ولو أثبتّ أنّهم مخطئون. يجب عليك أن تستسلم بلطف شديد، ببساطة لأنّه الشيء العمليّ الذي يجب عليك القيام به. يجب أن تلتزم بالصمت على وجه الخصوص لأنّهم مخطئون. سيقدّرون ذلك. قدّم التنازلات للآخرين وهم سيبادلونك خيرًا منها. عِشْ ودع غيرك يعيش. اعط وخذ. استسلم واستوعب. تلك هي سياسة عصرنا، وقد حان الوقت لقبولها. لا تقل لي إنّك جيّد جدًّا في ذلك، فأنت تعلم أنّك لست كذلك. وأنت تعلم أنّني على بيّنة من هذا الأمر.

لم تكن نظرة عينيه، اللتين لا تزالان ثابتتين على نقطة مّا في الفضاء، ردًّا على كلماتها؛ ولكنّها بدت ردًّا على صوت رجل يقول له: هل تعتقد أنّ ما تواجهه مجرّد مؤامرة للاستيلاء على ثروتك؟ أنت، يا من تعرف مصدر الثروة، يجب أن تعلم أنّها أكثر من ذلك بكثير بل وأسوأ من ذلك بكثير.

التفت ليلقي نظرة على ليليان. كان يرى المدى الكامل لفشلها في ضخامة لامبالاتها. كان تيّار الشتائم الذي يسيل من إهاناتها مثل صوت آلة التثبيت البعيدة، بضغط طويل عاجز لم يصل إلى أيّ شيء بداخله. وكان قد سمعها وهي تلقي مذكّراتها المدروسة حول ذنبه في كلّ مساء قضّاه بالمنزل خلال الأشهر الثلاثة الماضية. لكن لم يكن إطلاقا يساوره أيّ إحساس بالذنب. فكانت العقوبة التي أرادت أن تلحقها به هي عذاب العار؛ ولكنّ ما ألحقته به هو عذاب الملل.

وقد تذكّر لمحة موجزة له -في ذلك الصباح بفندق واين فوكلاند- عن عيبٍ في مخطّط عقابها، وهو مخطّط لم يفحصه. الآن قال ذلك في نفسه للمرّة الأولى. أرادت أن تفرض عليه معاناة العار، لكنّ إحساسه بالشرف كان سلاحها الوحيد في التنفيذ. لقد أرادت أن تنتزع منه اعترافًا بفساده الأخلاقيّ، لكنّ استقامته الأخلاقيّة فقط هي التي كانت تستطيع أن تعلّق أهمّيّة على مثل هذا الحكم. أرادت أن تجرحه باحتقارها له، لكنّه كان فوق الأذى، إلّا إذا احترم حكمها. أرادت أن تعاقبه على الألم الذي سبّبه لها، وحملت ألمها كبندقيّة موجّهة إليه، كما لو أنّها ترغب في ابتزاز عذابه عند حدّ شفقته. لكنّ أداتها الوحيدة كانت إحسانه الخاصّ، واهتمامه بها، وتعاطفه معها. فقوّتها الوحيدة كانت قوّة فضائله الخاصّة. فماذا لو اختار سحب كلّ تلك القوّة؟

ورأى أنّ مسألة الذنب يجب أن تستند إلى قبوله الخاصّ بمدوّنة العدل التي أدانته. لكنّه لا يقبلها، ولن يكون مجبرا على قبولها. أمّا فضائله، أي كلّ الفضائل التي كانت بحاجة إليها لتعاقبه، فكانت متأتّية من قانون آخر وعاشت بمعيار آخر. لم يشعر بالذنب، أو الخزي، أو الندم، أو العار. ولم يشعر بأيّ قلق على أيّ حكم اختارت تمريره إليه، لقد فقد احترامه لحكمها منذ فترة طويلة. والسلسلة الوحيدة التي لا تزال تحتجزه لم تكن سوى بقايا شفقة أخيرة.

لكن وفق أيّ قانون تتصرّف؟ أيّ نوع من القوانين سمح لها بمفهوم العقوبة التي تتطلّب فضيلة الضحيّة باعتبارها وقودًا لإنجاحها؟ كان يعتقد أنّ هذا القانون من شأنه أن يدمّر فقط أولئك الذين حاولوا مراقبته؛ وأنّه عقاب سيعاني منه الصادقون

الشرفاء فقط، بينما يفرّ المخاتل غير الشريف من دون أن يصاب بأذى. هل يمكن للمرء تصوُّر أنّ من لحق به العار قد يساوي بين الفضيلة والألم، فيجعل الفضيلة، وليس الرذيلة، مصدرًا للمعاناة وقوّتها الدافعة؟ إذا كان هذا النوع من البشر المتعفّنين يكافح لجعله يعتقد أنّه كان كذلك، فلن تهمّه أيّ قضيّة تتعلّق بشرفه وقيمته الأخلاقيّة. وإذا لم يكن كذلك، فما هي طبيعة محاولة ليليان؟

كانت محاولتها تتلخّص في الاعتماد على فضيلته واستخدامها أداةً للتعذيب، وممارسة الابتزاز لمواجهة كرم الضحيّة كوسيلة وحيدة للسلب، وقبول هديّة حسن نيّة الرجل وتحويلها إلى أداة لتدمير المانح... جلس بسكون وثبات، يتأمّل صيغة وحشيّة للشرّ إلى درجة أنّه كان قادرًا على تسميتها، ولكن لم يعتقد قطّ في إمكانيّة وجودها.

جلس بصمت، ينصت إلى قرع سؤال واحد في ذهنه مثل المطرقة: هل عرفت ليليان الطبيعة الدقيقة لمخطّطها؟ هل كانت سياسة واعية وُضعت وهي في كامل وعيها؟ ثمّ تجاهل الأمر؛ فهو لم يكن يكره ليليان بالقدر الكافي ليصدّق ما وصل إليه من استنتاج.

ثمّ أخذ ينظر إليها. لقد كانت منهمكة حينها في مهمّة تقطيع حلوى البرقوق التي كانت تقف كجبل من اللهب الأزرق على طبق فضّيّ أمامها، وكان توهّجها يتراقص أمام وجهها وفمها الضاحك. كانت تغرق سكّينًا فضّيًا في ذلك اللهب، بمنحنى ذراعها الرشيقة. كانت لديها أوراق معدنيّة بألوان الخريف الأحمر والذهبيّ والبنّيّ مبعثرة على جوانب ثوبها المخمليّ الأسود المتلألئة في ضوء الشموع.

ولم يستطع التخلّص من الانطباع، الذي ظلّ يتلقّاه ويرفضه لمدّة ثلاثة أشهر، بأنّ انتقامها ليس شكلًا من أشكال اليأس كما كان يفترض. لم يكن يرى أنّها تستمتع بالانتقام. لم يجد أيّ أثر للألم في أسلوبها. لقد كانت تتمتّع بثقة لم يعهده فيها. وكانت تبدو وكأنّها في منزلها لأوّل مرّة. وعلى الرغم من أنّ كلّ شيء داخل المنزل كان من اختيارها وذوقها الخاصّ، فقد بدت دائمًا بمثابة مديرة ماهرة لامعة وساخطة لفندق من الدرجات العالية، تستمرّ في الابتسام لمالكي الفندق في تسلية مريرة من منصبها الدونيّ. فبقيت التسلية، ولكنّ المرارة تلاشت. لم يزدد وزنها، ولكنّ ملامحها فقدت

الحدّة الرقيقة لمظهر باهت وناعم من الرضا؛ حتّى صوتها بدا كما لو أنّه صار ممتلئًا.

لم يكن ينصت لما تقول؛ كانت تضحك في وميض آخر من النيران الزرقاء، بينما جلس هو يزن السؤال: هل كانت تعلم ذلك؟ ورأى أنّه اكتشف سرًّا أكبر بكثير من مشكلة زواجه، وأنّه أدرك صيغة سياسة تُمارَس في جميع أنحاء العالم على نطاقٍ أوسع ممّا كان يجرؤ على التفكير به في الوقت الراهن. ولكنّ إدانة إنسان بتلك الممارسة كان حكمًا بالإدانة لا رجعة فيه، وكان يعلم أنّه لن يصدّق ذلك أكثر من أيّ شخص، مادامت إمكانيّة الشك لا تزال قائمة.

كان يعتقد، وهو ينظر إلى ليليان بآخر جهد من كرمه، أنّه لن يصدّق صدور ذلك منها. فباسم كلّ فضل وفخر كانت تمتلكه، وباسم كلّ تلك اللحظات التي رأى أثناءها ابتسامة فرح على وجهها، ابتسامة كائن حيّ، وباسم خيال الحبّ الوجيز الذي شعر به تجاهها ذات مرّة، باسم كلّ هذه الأشياء لن يحكم عليها بالشرّ التامّ.

ثمّ نظر إلى كبير الخدم وهو يضع طبقًا من حلوى البرقوق أمامه، وسمع صوت ليليان وهي تقول:

ـ أين سرحت في الدقائق الخمس الأخيرة يا هنري، هل عدت إلى القرن الماضي؟ فأنت لم تجبني وكأنّك لم تسمع أيّ كلمة قلتها.

أجابها بهدوء: بلى، سمعت كلّ كلمة نبست بها، لا أعلم ما الذي تحاولين تحقيقه.

قالت والدته: يا له من سؤال! هل هذا هو سلوك الرجل المثاليّ؟ إنّها تحاول إنقاذك من الزجّ بك في السجن، هذا ما تحاول تحقيقه.

اعتقد أنّ ذلك قد يكون صحيحًا؛ وقد يقوده التفكير بمنطق الجبن الطفوليّ الفظّ إلى أنّ دافع كيدهما هو الرغبة في حمايته، من أجل الإلانة موقفه، لعلّه يصل إلى حلٍّ وسط آمن تكون فيه سلامته. كان هذا أمرًا ممكنًا، لكنّه يعلم أنّه لا يصدّق هذه الفرضيّة.

قالت ليليان: لم تكن يومًا شخصيّة شعبيّة ومحبوبة من الجميع. إنّه ليس مجرّد سؤال واحد بعينه. بل ذلك الموقف العنيد الذي يستعصي على الحلّ. فالرجال الذين

سيحاكمونك يعرفون ما تفكّر فيه. لهذا سيقمعونك، وفي مقابل ذلك يتركون رجلًا آخر ينجو بنفسه.

ـ لمَ لا؟ أنا لا أظنّهم يعرفون ما أفكّر فيه. وهذا ما سأطلعهم عليه غدًا.

ـ ما لم تظهر لهم أنّك على استعداد للاستسلام والتعاون، فإنّك لن تحظى بأدنى فرصة للنجاة. أنت رجل صعب المراس ومن الصعب جدًّا التعامل معك.

ـ لا، على العكس، لقد كنت سهلا جدًّا.

قالت والدته: ولكن إذا زجّوا بك في السجن، ماذا سيحدث لعائلتك؟ هل فكّرت في ذلك؟

ـ لا، لم أفكّر في هذا الأمر.

ـ هل فكّرت في العار الذي سوف تجلبه للعائلة؟

ـ أمّي، هل تفهمين المسألة المطروحة في هذه القضيّة؟

ـ لا، أنا لا أفهمها ولا أريد أن أفهمها. فالأمر كلّه متعلّق بأعمال تجاريّة قذرة وسياسة قذرة. كلّ الأعمال التجاريّة والسياسيّة هي مجرّد أعمال قذرة. لم أرد فَهْمَ أيّ شيءٍ من هذا القبيل، ولا يعنيني مَن هو على صواب أو مَن هو على خطإ، ولكن أرى أنّ ما يجب على الرجل التفكير فيه أوّلًا هو عائلته. ألا تعلم ما الذي سيفعله ذلك بنا؟

ـ لا، يا أمّي، أنا لا أعلم، أو لا أبالي.

نظرت إليه والدته بذهول. ثمّ قال فيليب فجأة:

ـ حسنًا، أعتقد أنّكم جميعا تتمسّكون بمواقف ضيّقة الأفق، فلا أحد هنا يبدو مهتمًّا بما في هذه القضيّة من جوانب اجتماعيّة. أنا لا أتّفق معك يا ليليان. لا أرى مبرّرًا لقولك إنّهم يحبكون خدعة فاسدة ضدّ هنري وأنّه على حقّ. أعتقد أنّه أكثر من مذنب. أمّا أنت يا أمّي، فيمكنني أن أشرح لكِ المسألة ببساطة إذ لا يوجد شيء غير عاديّ حول هذا الموضوع، والمحاكم تضجّ بقضايا من هذا النوع. رجال الأعمال يستغلّون

حالة الطوارئ الوطنيّة من أجل كسب المال. فهم يخترقون الأنظمة وينتهكون القوانين التي تحمي الرفاه المشترك للجميع من أجل تحقيق مكاسب شخصيّة. إنّهم ينتفعون من السوق السوداء فيزدادون ثراءً عن طريق الاحتيال على الفقراء فيستولون على حصّتهم المشروعة، في وقت تشكو فيه البلاد من شحّ شديد في الموارد. إنّهم ينتهجون سياسة انتهازيّة معادية للمجتمع ولا ترحم أحدًا، سياسية يوجّهها الجشع والأنانيّة. لا فائدة من التظاهر والتدجيل حول هذا الموضوع، فنحن جميعًا ندرك ذلك، وأعتقد أنّه أمر مهين.

تحدّث فيليب بطريقة لامبالية وغير مباشرة، كما لو أنّه يشرح ما هو واضح لمجموعة من المراهقين؛ وقد حملت نبرته تأكيدَ رجلٍ يدرك أنّ الأساس الأخلاقيّ الذي قام عليه موقفه ليس عرضة للتشكيك.

جلس ريردن ينظر إليه، كما لو أنّه يدرس كائنًا شوهد لأوّل مرّة. وفي مكان مّا من أعماق عقل ريردن كان هناك صوت رجل ثابت ولطيف وعنيد. كان صوته يقول: بأيّ حقّ؟ ووفق أيّ قانون؟ ووفق أيّ معيار؟

قال ريردن من دون أن يرفع صوته: فيليب، كرّر أيّ شيء ممّا قلته مجدّدًا، وسوف تجد نفسك في الشارع الآن. ولن تحمل معك سوى تلك البدلة الملقاة على ظهرك، وستكون ضائعا بلا نقود ولا أيّ شيء آخر.

لم يسمع منه جوابًا، ولم يصدر منه صوت أو أدنى حركة. ولاحظ أنّ صمت الثلاثة الذين سبقوه لا يحمل أيّ عنصر من عناصر الغرابة. لم يكن مظهر الصدمة على وجوههم يشبه صدمةَ الناس من انفجار قنبلة مفاجئ، بل صدمة أناس يدركون أنّهم يلعبون بصمّام مضيء. لم تَعْلُ صيحات فزع، أو احتجاجات، أو أسئلة؛ فَهُم يعلمون أنّه يعني ذلك، ويدركون كلّ ما يعنيه. لقد أخبرهم شعور خافت ومقزّز بأنّهم كانوا يعلمون ذلك منذ وقت طويل، قبل أن يقع هذا الحدث.

ردّت أمّه في نبرة التماس: أنت... لا تريد رَمْيَ أخيك في الشارع، أليس كذلك؟

بلى، أريد ذلك.

ـ ولكنّه أخوك... ألا يعني ذلك أيّ شيء لك؟

ـ لا، إنّه لا يعني أيّ شيء.

ـ لعلّه تمادى قليلًا هذه المرّة، لكنّ ما قاله مجرّد كلام فارغ وفضفاض. إنّها مجرّد ثرثرة عصريّة، وهو لا يدرك ما يقول.

ـ إذَن دعيه يتعلّم ما يقول.

ـ لا تكن قاسيًا عليه... إنّه أصغر منك وأضعف. هو... لا تنظر إليّ بهذه الطريقة يا هنري! لم يسبق لي أن رأيتك تبدو هكذا... لا يجب أن تخيفه، أنت تعرف أنّه يحتاج إليك.

ـ هل يعلم ذلك فعلًا؟

ـ لا يمكنك أن تكون قاسيًا على رجل يحتاج إليك، ستشعر بتأنيب الضمير بقيّةَ حياتك.

ـ لن يحدث ذلك.

ـ يجب أن تكون لطيفًا يا هنري.

ـ أنا لست كذلك.

ـ يجب أن تبدي بعض الشفقة.

ـ لن أفعل.

ـ الرجل الصالح هو الذي يعرف كيف يغفر.

ـ لن أفعل.

ـ أنت لا تريدني أن أصدق أنّك أنانيّ.

ـ بلى، أنا كذلك.

كان فيليب يمسح ببصره أفراد العائلة واحدًا تلو آخر. وبدا كأنّه رجل متأكّد من كونه يقف على الجرانيت الصلب، لكنّه اكتشف فجأة أنّه يقف على جليد رقيق، يتشقّق الآن في جميع الاتّجاهات.

ـ ولكن أنا...

حاول فيليب أن يتكلّم، لكنّه توقّف؛ لقد بدا صوته وكأنّه خطوات اختبار فوق الجليد، ثمّ أضاف: ولكن أليس لي الحقّ في التعبير؟

ـ الحقّ في التعبير ينبغي أن تمارسه في منزلك، لا في منزلي.

ـ أليس لديّ الحقّ في التعبير عن أفكاري الخاصّة؟

ـ على نفقتك الخاصّة، وليس على حسابي.

ـ ألا تتسامح مع أيّ اختلافات في الرأي؟

ـ ليس عندما أدفع الفواتير.

ـ ألا يرتبط الأمر عندك بشيء سوى المال؟

ـ نعم، حقًّا إنّه من أموالي.

ـ ألا يمكن أن تنظر إلى المسألة من جوانب أخرى؟

ـ لا.

ـ لكنّي لست عبدك.

ـ وهل أنا عبدك؟

ـ أنا لا أعلم ما أنت بصدد..

ثمّ توقّف عن إتمام جملته، لقد كان يعلم ما هو المقصود. فقال ريردن:

لا، أنت لست عبدي. أنت حرّ في الخروج من هنا في أيّ وقت تختاره.

ـ أنا... أنا لا أتحدّث عن ذلك.

ـ أمّا أنا فأقصد ذلك.

ـ أنا لا أفهم ذلك...

ـ هل أنت لا تفهم فعلًا؟

ـ لقد كنت دائمًا على علم بآرائي السياسيّة. لم يسبق لك أن اعترضت عليها من قبل.

قال ريردن بنبرة حادّة: هذا صحيح، كان يمكن أن أكون مدينًا لك بتفسير موقفي لو أنّني ضلّلتك. لم أحاول قطّ تذكيرك بأنّك تعيش على أعمالي الخيريّة. ظننتُ أنّ موقعك سيذكّرك بذلك. وحسبتُ أنّ أيّ إنسان يقبل مساعدة شخص آخر، سيدرك أنّ حسن النّيّة هو الدافع الوحيد للمانح، وأنّ حسن النّيّة ينبغي أن يكون مقابلا لهذا الدَّين. لكن أجدُني مخطئًا. لقد كنتَ تحصل على طعامك غير المستحقّ فخلصت إلى أنّ المودّة لا تستحقّ أيضًا. وقد استنتجت أنّني كنت أكثر شخص آمنٍ في عالملِك لتبصق عليه، وبالتحديد لأنّني أمسك بك من رقبتك. لقد خلصت إلى أنّني لا أريد تذكيرك بذلك وأنّ الخوف من إيذاء مشاعرك سيقيّدني. حسنًا، لنصحّح الأمر: أنت كائن خيريّ استنفد رصيده منذ زمن بعيد. ومهما تكن العاطفة التي قد أكون شعرت بها تجاهك سابقًا، فإنّها تلاشت اليوم. ليس لي أدنى اهتمام بك أو بمصيرك أو بمستقبلك. وليس لديّ أيّ سبب يدفعني إلى الرغبة في إطعامك. وإذا تركت منزلي فلن يحدث الأمر عندي أيّ فرقٍ سواء أكنت جائعًا أم لا. الآن هذا هو موقعك الحقيقيّ هنا، وسوف أتوقّع منك تذكّر ذلك، إذا كنت ترغب في البقاء. وإذا لم تكن كذلك، فاخرج غير مأسوف عليك.

وخلافًا لملامح حركة رأسه وانحنائه قليلًا على كتفيه، لم يظهر فيليب أيّ ردّ فعل. ثمّ قال بصوت حادّ لا حياة فيه:

ـ لا تتخيّل أنّني أستمتع بالعيش هنا، وإذا كنت تعتقد أنّني سعيد فأنت مخطئ. سأضحّي بكلّ شيء مقابل الابتعاد. إذا كان هذا هو موقفك النهائيّ، فسيكون من الأفضل لي أن أغادر.

كانت الكلمات مجرّد بيان تقريريّ، غير أنّ نبرة الصوت تحمل سؤالًا ضمنيًّا ينتظر جوابًا؛ لكنّ لم ريردن لم ينبس ببنت شفة. ثمّ أضاف:

ـ لا داعي إلى القلق بشأن مستقبلي. أنا لا أطلب معروفًا من أيّ أحد. ثمّ إنّه يمكنني الاعتناء بنفسي دون حاجة إلى أيّ شخص.

كانت هذه الكلمات موجّهة إلى ريردن، ولكنّ عينيه كانتا تنظران إلى والدته؛ أمّا أمّه لم تتكلّم؛ لقد كانت خائفة من التحرّك، ثمّ استرسل في الكلام:

ـ لطالما أردت أن أكون بمفردي. ولطالما أردت العيش في نيويورك، بالقرب من جميع أصدقائي. بالطبع، قد أواجه مشكلة في الحفاظ على مكانة اجتماعيّة معيّنة... إنّها ليست غلطتي حين أجدُني محرجًا من ذكر اسم العائلة الثريّة... سأحتاج إلى ما يكفي من المال لمدّة سنة أو سنتين... لأؤسّس بطريقة مناسبة لي...

ردّ ريردن بحدّة: لن تحصل على أيّ فلس منّي.

ـ لم يكن لي أن أطلب منك ذلك، أليس كذا؟ ولا تعتقد أنّني لا أستطيع الحصول عليه في مكان آخر! ولا تظنّنّ أنّني لا أستطيع المغادرة! أنا قادر على الرحيل خلال دقيقة، لو أنّني أفكّر فقط في نفسي. لكنّ أمّي تحتاج إليّ، وإذا هجرتها...

ـ أنا لا أحتاج منك إلى شروحات.

ـ وإلى جانب هذا، فقد كنت تسيء فهمي يا هنري. لم أقل ذلك بدافع إهانتك. ولم أكن أتحدّث إليك على نحو شخصيّ، كنت أناقش فقط الصورة السياسيّة العامّة من وجهة نظر اجتماعيّة مجرّدة، والتي...

ـ أنا لا أحتاج منك إلى شروحات.

قال ريردن ذلك وهو ينظر إلى وجه فيليب الذي طأطأ رأسه قليلًا، والذي ينظر إليه بعينين تعوزهما الحياة، كما لو أنّهما لم تشاهدا أيّ شيء؛ لم تحملا أيّ شرارة من الإثارة، أو أيّ إحساس شخصيّ، سواء أكان بالتحدّي أم بالأسف، بالعار أم بالمعاناة؛ عينان بيضاويّتان لم تحملا أيّ معنى إلّا كراهية طائشة. قال ريردن مجدّدا:

ـ أنا لا أحتاج منك إلى شروحات، اصمت فقط.

كانت نظرة الاشمئزاز، التي جعلت ريردن يلتفت بوجهه بعيدًا، تحتوي على تشنّج تشوبه الشفقة. وفي لحظة مّا أراد الاستيلاء على كتفي أخيه، ليربّت عليه ويبكي: كيف يمكنك أن تفعل هذا بنفسك؟ كيف وصلت إلى مرحلةٍ لم يتبقّ فيها منك غير هذا؟ لماذا تركت حقيقة وجودك الرائعة تمرّ؟... ثمّ نظر بعيدًا لأنّه يعلم أنّ تلك الأسئلة عديمة الفائدة.

ولاحظ، في ازدراء مرهق، أنّ الثلاثة الذين كانوا ينظرون إلى الطاولة ظلّوا صامتين. فمراعاتهم خلال كلّ السنوات الماضية لم تجلب له شيئًا سوى توبيخاتهم المبرّرة الخبيثة. أين ذهب صلاحهم الآن؟ الآن حان الوقت للوقوف أمام قانون العدالة الخاصّ بهم، لو أنّ العدالة جزء من قانونهم. لماذا لم يلقوا عليه كلّ تلك الاتّهامات بالقسوة والأنانية، التي كان قد تقبّلها مثل لازمة أبديّة في حياته؟ ما الذي سمح لهم بفعل ذلك على مدى سنوات؟ كان يعرف أنّ الكلمات التي سمعها في ذهنه هي مفتاح للإجابة ومعاقبة الضحيّة.

قالت والدته، بصوتها التعيس الغامض: لا تدعونا نتشاجر. إنّه عيد الشكر.

وعندما نظر إلى ليليان، التقط لمحة جعلته متأكّدًا من أنّها كانت تراقبه لفترة طويلة، لقد راقبته في حالة ذعر.ثمّ نهض وقال بعبارة عامّة:

ـ أرجو أن تعذروني الآن.

سألته ليليان بحدّة: إلى أين أنت ذاهب؟

وقف لحظة ينظر إليها مكرهًا، كما لو أنّه كان يؤكّد المعنى الذي ستستشفّه من إجابته: إلى نيويورك.

قالت مندهشة: الليلة؟

ـ بل الآن.

ـ لا يمكنك الذهاب إلى نيويورك الليلة!ليس هذا الوقت مناسبًا للخروج. أعني

ليس بوسعك هجر عائلتك في مثل هذه الظروف. يجب أن تفكّر في مسألة الأيدي النظيفة. أنت لست في وضع يسمح لك بأيّ شيء من شأنه أن يكون فسادًا.

قال ريردن في نفسه: وفق أيّ قانون؟ ووفق أيّ معيار؟

ـ لماذا ترغب في الذهاب إلى نيويورك الليلة؟

ـ أعتقد أنّني ذاهب للسبب نفسه الذي يجعلك ترغبين في إيقافي، يا ليليان.

ـ غدًا هو يوم محاكمتك.

ـ هذا تمامًا ما أعنيه.

قالت بصوت مرتفع: لا أريدك أن تذهب!

ابتسم، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي ابتسم لها فيها خلال الأشهر الثلاثة الماضية، ولكنّها لم تكن الابتسامة التي تهتمّ برؤيتها، ثمّ أضافت:

ـ أنا أمنعك من أن تتركنا الليلة.

التفت وغادر الغرفة. جلس أمام مقود سيّارته، ونظر إلى الطريق المتجمّد الذي يشبه الزجاج يرتفع أمام وجهه وينزل تحت العجلات بسرعة ستّين ميلًا في الساعة، لقد استبعد من ذهنه التفكير في عائلته، وتدحرجت رؤية وجوههم إلى هاوية السرعة التي ابتلعت الأشجار العارية والهياكل الوحيدة على جانبَي الطريق. كانت هناك حركة مرور قليلة، وعدد قليل من الأضواء لمجموعات بعيدة من المدن التي مرّ بها، ولكن كان الفراغ الذي يشبه الخمول علامةً وحيدة على أنّه في عطلة. وكان توهّج ضبابيّ، بلون صدإ الصقيع، يومض فوق سقف مصنعٍ مرّةً في كلّ لحظة نادرة، وهبّت رياح باردة من خلال مفاصل سيّارته، وضربت غطاء القماش على الإطار المعدنيّ.

ثمّ ساوره شعور خافتٌ من التباين لم يحدّده بعد، فاستبدل بالتفكير في عائلته التفكيرَ في لقائه مع الممرّضة الرطبة، وصبيّ واشنطن المرتبط بمطاحنه.

ففي وقت توجيه الاتّهام إليه، اكتشف أنّ الصبي كان على علم بصفقته مع داناغر،

ولكنّه لم يبلغ أحدًا بذلك. وقد سأله آنذاك:

ـ لماذا لم تبلغ أصدقاءك عنّي؟

أجابه الصبيّ بفظاظة، من دون أن ينظر إليه: لم أشأ ذلك.

ـ لقد كانت مراقبة الأشياء من هذا النوع بالتحديد جزءًا من عملك، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ بالإضافة إلى هذا، ربّما كان أصدقاؤك سيسعدون لسماعه.

ـ أعرف ذلك.

ـ ألم تكن تعلم قيمة تلك المعلومات والتجارة الهائلة التي يمكن أن تجنيها مع أصدقائك في واشنطن، أولئك الذين عرضت عليهم ذات مرّة، هل تتذكّر ذلك؟ الأصدقاء الذين مثّلوا دائمًا نفقات المناسبات؟ كان يمكن أن ترتقي بحياتك المهنيّة إلى مستوى أعلى جدًّا. لا تقل لي إنّك لم تدرك ذلك.

ـ كنت أدرك ذلك.

ـ ولماذا لم تفعل ذلك إذَن؟

ـ لم أكن أريده.

ـ ولمَ لا؟

ـ لا أعلم.

وقف الصبيّ، متجنّبًا عيني ريردن، كما لو أنّه يحاول تجنّب شيء غير مفهوم داخل نفسه. ضحك ريردن وقال:

ـ اسمع أيّها القاصر، أنت تلعب بالنار. ومن الأفضل لك الذهاب وقتل شخص مّا بسرعة، قبل أن تدع مثل هذا الموضوع ينال منك. هذا السبب الذي منعك من التحوّل إلى مخبر جيّد، وإلّا فإنّ حياتك المهنيّة كلّها ستتبخّر وتذهب إلى الجحيم.

لكنّ الصبيّ لم يجبه.

ذهب ريردن إلى مكتبه، كالمعتاد في هذا الصباح، على الرغم من أنّ باقي مبنى المكتب كان مغلقًا. وفي وقت الغداء، كان قد توقّف عند طواحين الدرفلة واندهش حين وجد الممرّضة الرطبة واقفة هناك، وحدها في زاوية وقد تجاهلها الجميع وهي تراقب العمل بمتعة الأطفال.

سألها ريردن: ماذا تفعلين هنا في هذا اليوم؟ ألا تعلمين أنّه يوم عطلة؟

ـ أوه، لقد تركت الفتيات، وجئت فقط لإنهاء بعض الأعمال.

ـ أيّ أعمال؟

ـ أوه، الرسائل و... أوه، بحقّ الجحيم، لقد وقّعت ثلاث رسائل وشحذت الأقلام الرصاص، وأنا أعلم أنّه لم يكن عليّ القيام بذلك اليوم، ولكن لم يكن لديّ شيء أفعله في المنزل و... أنا أشعر بالوحدة بعيدًا عن هذا المكان.

ـ أليس لديك أيّ عائلة؟

ـ لا... أودّ ألّا نتحدّث عن عائلتي. وماذا عنك يا سيّد ريردن؟ أليس لديك عائلة أيضًا؟

ـ أعتقد... أودّ ألّا نتحدّث عنها أيضًا.

ـ أحبّ هذا المكان. أحبّ أن أتسكّع. أنت تعلم، يا سيّد ريردن، أنّني تخصّصت في دراسة المعادن.

مشى ريردن بعيدًا، ثمّ التفت ليلقي نظرة إلى الوراء فالتقط مشهدًا للممرّضة الرطبة وهي تتطلّع إليه كما لو أنّها صبيٌّ ينظر إلى بطل قصّة مغامرة كان يفضّلها في طفولته. فقال في نفسه: فليساعد الربّ هذا اللقيط الصغير المسكين! وأضاف: فليوفّقهم الله جميعًا.

كان يقود سيّارته في الشوارع المظلمة لبلدة صغيرة، وهو يقتبس كلمات من معتقداتهم التي لم يشاركهم فيها قطُّ في سياق شفقة تشبه الاحتقار. ورأى الصحف المعروضة على المدرّجات المعدنيّة، بحروف العناوين السوداء وهي تعلن في تلك

الزوايا الخالية: كارثة السكك الحديديّة. وكان قد سمع الأخبار على الراديو، بعد ظهر ذلك اليوم وهي تذيع: لقد وقع حادث تحطّم على الخطّ الرئيسيّ لشركة تاجارت العابرة للقارّات، بالقرب من مدينة روكلاند، بولاية وايومنغ؛ ويتمثّل الحادث في وقوع انقسام بالسكك الحديديّة أدّى إلى تحطّم قطار شحن على حافّة الوادي. حوادث من هذا النوع أصبحت أكثر تواترًا بالخطّ الرئيسي لشركة تاجارت، أزيل ذلك المسار، المسار الذي كانت داغني تخطّط لإعادة بنائه، قبل أقلّ من ثمانية عشر شهرًا، واعدةً إيّاه بنقل معادنه في رحلة من الساحل إلى الساحل.

كانت قد أمضت سنةً، لتلتقط السكك الحديديّة البالية من الفروع المهجورة لإصلاح سكك الخطّ الرئيسيّ. وأمضت شهورًا في محاربة رجال مجلس إدارة جيم، الذين قالوا إنّ حالة الطوارئ الوطنيّة مؤقّتة فقط، وإنّ المسار الذي استمرّ لمدّة عشر سنوات يمكن أن يستمرّ لشتاء آخر، حتّى الربيع، عندما تتحسّن الظروف، كما وعد السيّد ويسلي ماوتش. وقبل ثلاثة أسابيع، جعلتهم يأذنون بشراء ستّين ألف طن من السكك الحديديّة الجديدة؛ ومثل هذا الأمر لا يمكن له أن يفعل أكثر من جَعل بقع قليلة بجميع أنحاء القارّة في أسوأ الانقسامات، ولكنّ هذا هو كلّ ما تمكنّت من الحصول عليه من مجلس الإدارة. كان عليها أن تنتزع المال من بشر أصمّهم الذعر: لقد كانت عائدات الشحن تنخفض بمعدّل رهيب إلى درجة أنّ رجال المجلس أصبحوا يرتجفون، وهم ينظرون بإمعانٍ في فكرة جيم عن العام الأكثر ازدهارًا في تاريخ شركة تاجارت. وكان عليها أن تأمر بجلب سكك حديديّة فولاذيّة، ولم يكن هناك أمل في الحصول على إذن الحاجة الطارئة لشراء معدن ريردن ولم يكن لديها حتّى الوقت لتسوّله.

حاد ريردن بنظره بعيدًا عن عناوين الصحف وأخذ يراقب تألّقًا منبعثًا من السماء كان يبشّر بالوصول إلى مدينة نيويورك. فشدّ يديه على عجلة القيادة قليلًا.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف عندما وصل إلى المدينة. وكانت شقّة داغني مظلمة حين سمح لنفسه بدخولها بمفتاحه. ثمّ رفع سمّاعة الهاتف واتّصل

بمكتبها فأجابه صوتها المخصوص: شركة تاجارت العابرة للقارّات، من المتّصل.

سألها: ألا تعلمين أنّه يوم عطلة؟

ـ مرحبًا بك يا هانك. ليس للسكك الحديديّة أيّام عطل. من أين تتّصل؟

ـ من شقّتك.

ـ سأكون هناك خلال نصف ساعة أخرى.

ـ لا بأس، ابقي هناك وسوف آتي من أجلك.

وحين وصل ريردن ودخل مكتبها كانت القاعة مظلمة باستثناء فتحة الزجاج المضاءة من جهة إيدي ويلرز. كان إيدي يغلق مكتبه، ويستعدّ للمغادرة. فنظر إلى ريردن، في دهشة محيّرة.

ـ مساء الخير، إيدي. ما الذي يبقيكم مشغولين جدًّا، أهو حطام روكلاند؟

قال إيدي متنهّدا: نعم، يا سيّد ريردن.

ـ هذا ما أريد مقابلة داغني بشأنه، وبشأن السكك الحديديّة الخاصّة بك.

ـ إنّها لا تزال هنا.

فتوجّه نحو بابها، لكنّ إيدي ناداه بتردّد: سيّد ريردن...

فتوقّف وقال: نعم؟

ـ لقد أردت أن أقول ... لأنّ غدًا هو موعد محاكمتك ... ومهما يكن ما سيفعلونه بك فمن المفترض أن يتمّ ذلك باسم كلّ الناس... أردت فقط أن أقول إنّني ... إنّ اسمي لن يكون في قائمة المشتكين... حتّى لو لم يكن هناك شيء يمكنني القيام به حيال ذلك، إلّا أن أقول لك... وحتّى لو كنت أعلم أنّ هذا لا يعني أيّ شيء.

ـ هذا يعني أكثر بكثير ممّا كنت تشكّ. ربّما أكثر من شكوك أيّ منّا. شكرًا يا إيدي.

راقبت داغني من طاولة مكتبها دخول ريردن؛ فرآها تراقبه وهو يقترب منها ولاحظ أنّ علامات التعب تختفي من عينيها. جلس على حافّة المكتب. أمّا هي

فانحنت إلى الوراء، تسرّح خصلة من شعرها قبالة وجهها، وكتفاها تسترخيان تحت بلوزة بيضاء رقيقة.

ـ داغني، ثمّة شيء أريد إخبارك به يخصّ السكك الحديديّة التي أمرت بها. وأريدك أن تعرفيه هذه الليلة.

كانت تراقبه بانتباه، وتقاسيم وجهه تجذبها لتكون بنظرة التوتّر الرسميّ نفسها.

ـ من المفترض أن أسلّم إلى شركة تاجارت العابرة القارّات، إلى حدود الخامس عشر من فبراير، كمّيّة تقدّر بستّين ألف طن من السكك الحديديّة، وهي ستغطّي ثلاثمائة ميل من المسار. وسوف تتلقّون – مقابل المبلغ نفسه من المال – ثمانين ألف طن من السكك الحديديّة، وستغطّي خمسمائة ميل من المسار. أنت تعرفين المادّة التي هي أرخص وأخفّ وزنًا من الصلب. فالسكك لن تكون من الفولاذ، بل ستكون من معدن ريردن. فلا تجادلي أو تعترضي أو توافقي، فأنا لا أطلب موافقتك. إذ ليس من المفترض أن توافقي أو تعرفي أيّ شيء عن هذا الأمر. وأنا سأقوم بذلك وسأكون المسؤول الوحيد عنه. وسوف نعمل على توفيره بطريقة لا يدرك معها مَن هم مِن بين موظّفيك والذين يعلمون بطلبك للصلب، أنّك ستتلقّين معدن ريردن، وحتّى أولئك الذين سيعلمون أنّك قد تلقّيت هذا المعدن، فيجب ألّا يعلموا أنّ لديك أيّ تصريح لشرائه. سنحدث بلبلة في كيفيّة مسك الدفاتر حتّى إنّه إذا حدث أيّ مكروه، فلن يتمكّن أحدٌ من إثبات أيّ شيء على أيّ شخص، إلّا أنا. قد يشكّون في أنّني رشوت شخصًا من طاقمك أو يشكُّون في أنّكِ تورّطت في ذلك لكنّهم لن يكونوا قادرين على إثباته. أريدك أن تقسمي بشرفك على أنّك لن تعترفي بذلك أبدًا مهما حدث. إنّه معدني، وإذا وُجِدَت أيّ فرص لأخذه، فأنا من سيقتنص تلك الفرص. لقد خطّطت لهذا منذ اليوم الذي تلقّيت فيه طلبك. لقد أمرت بالنحاس لذلك، من مصدر لن يخونني أبدًا. لم أكن أنوي إخبارك بذلك حتّى وقت لاحق، لكنّني غيّرت رأيي. أريدك أن تعلمي بهذا الأمر الليلة، لأنّني سأحاكم غدًا على النوع نفسه من الجرائم.

استمعت له من دون أن تتحرّك. لكنّه لاحظ، أثناء نطقه بالجملة الأخيرة، انقباضًا

خافتا في خدّيها وشفتيها، لم يكن يشبه الابتسامة تمامًا، لكنّها أعطته جوابها كلّه: الألم والإعجاب والفهم.

ثمّ رأى نظرة عينيها تغدو أكثر ليونةً، بشكل أكثر إيلامًا، وحيويّة على نحو خطير. فأمسك معصمها، كما لو أنّ قبضةَ أصابعه المحكمةَ وحدّة بصره منحتاها الدعم الذي كانت تحتاج إليه، ثمّ قال بلهجة صارمة:

ـ لا تشكريني، فهذا ليس إحسانًا منّي. أنا أفعل ذلك لكي أتمكّن من تحمّل أعباء عملي، أو سأحطّم مثل كين داناغر.

قالت هامسة: حسنًا يا هانك، لن أشكرك.

كانت نبرة صوتها ونظرة عينيها تؤكّدان أنّ ما قالته مجرّد كذبة.

قال مبتسما: أقسمي بشرفك.

طأطأت برأسها وقالت: أقسم لك بشرفي، فأطلق معصمها. ثمّ أضافت:

ـ الشيء الوحيد الذي سأقوله لك هو أنّهم إذا حكموا عليك بالسجن غدًا، فسوف أستقيل دون أن أنتظر أيّ مدمر ليدفعني إلى فعل ذلك.

ـ لن تفعلي ذلك. ولا أعتقد أنّهم سيحكمون عليّ بالسجن. أظنّهم سيفرجون عنّي بكلّ سهولة. لديّ فرضيّة حول هذا الموضوع، سأشرحها لك بعد ذلك، عندما أضعها على المحكّ.

ـ ما هي هذه الفرضيّة؟

ـ من هو جون جالت؟

ابتسم وهو ينهض، ثمّ أضاف:

هذا كلّ شيء. لن نتحدّث أكثر عن محاكمتي الليلة. أليس لديك أيّ شيء نشربه في مكتبك؟

ـ لا، ولكن أعتقد أن مدير المرور هنا يملك حانة متنقّلة بأحد رفوف خزانة ملفّاته.

ـ هل يمكنك أن تسرقي منه بعض الشراب، إذا لم يكن قد أغلق تلك الحانة؟

ـ سأحاول.

وقف وهو ينظر إلى بورتريه نات تاجارت على جدار مكتبها، بورتريه لشابّ برأس مرفوع. عادت، وهي تحمل زجاجة من البراندي وكأسين، ثمّ ملأتهما في صمت.

ـ أنت تعلمين يا داغني أنّ عيد الشكر عطلةٌ أقرّها الناس المنتجون كي يحتفلوا بنجاح أعمالهم.

انتقلت حركة ذراعه وهو يرفع كأسه، من الصورة، إلىٖ داغني، ثمّ إلى نفسه، فإلى مباني المدينة خارج النافذة.

***

قبل شهر من ذلك، أخبرت الصحافة كلّ من ملؤوا قاعة المحكمة بأنّهم سيرون الرجل الذي كان عدوًّا جشعًا للمجتمع؛ لكنّهم جاؤوا لرؤية الرجل الذي اخترع معدن ريردن.

وقف، عندما دعاه القضاة إلى الوقوف. كان يرتدي بدلة رماديّة، بعينين زرقاوين شاحبتين وشعر أشقر؛ تلك الألوان التي لم تكن قادرة على جعل شخصيّته تبدو عنيدةً. والحقّ أنّ بدلته تلك، ذات البساطة المكلفة التي نادرًا ما تباهى بها في تلك الأيّام، جعلته يبدو منتميًا إلى مكتب فخم جدًّا لشركة غنيّة، وجعلت سلوكه يبدو كأنّه قادمٌ من عصر متحضّر يتعارض مع المكان حوله.

عرف الحشد من الصحف أنّه يمثّل شرّ الثروة القاسية؛ ولذلك ـ بينما أشادوا بفضيلة العفّة، ثمّ ركضوا لمشاهدة أيّ فيلم كان يعرض أنثى نصف عارية على ملصقاته ـ فقد جاؤوا لرؤيته؛ فالشرّ، على الأقلّ، لم يكن يحمل ذلك اليأس الآسن الذي لا معنى له، أو سوء العبث الذي لا يعتقد به أحدٌ ولا يتجرّأ شيء على تحدّيه. نظروا إليه من دون أن تبدو عليهم مشاعر الإعجاب. لقد كان الإعجاب شعورًا فقدوا القدرة على الإحساس به منذ فترة طويلة؛ فنظروا إليه بفضول وبحسّ خافت من التحدّي ضدّ

أولئك الذين قالوا لهم إنّ من واجبهم أن يكرهوه.

قبل بضع سنوات، كانوا سيهزؤون من ثقته بنفسه. أمّا اليوم، فثمّة سماء رماديّة اللون تخيّم على نوافذ قاعة المحكمة، وَعَدَت بالعاصفة الثلجيّة الأولى من فصل شتاء طويل وصعب؛ لقد كانت آخر مدّخرات من النفط في البلاد على وشك أن تنضب، ومناجم الفحم لم تكن قادرة على مواكبة التدافع الهستيريّ لإمدادات الشتاء. وتذكّر الحشد في قاعة المحكمة أنّ تلك هي الحالة التي كلّفتهم خدمات كين داناغر. كانت هناك شائعات بأنّ إنتاج شركة داناغر للفحم قد انخفض بشكل ملحوظ خلال شهر واحد؛ وقالت الصحف إنّها مجرّد مسألة إعادة تعديل، بينما كان ابن عمّ داناغر يعيد تنظيم الشركة التي تولّى إدارتها. وفي الأسبوع الماضي، كانت الصفحات الأولى من الجرائد قد حملت قصّة كارثة في موقع مشروع سكنيّ قيدَ الإنشاء: إذ انهارت عوارض الصلب المعيبة، ممّا أسفر عن مقتل أربعة من العمّال؛ غير أنّ الصحف لم تذكر نبأ موت العمّال، لكنّ عامّة الناس علموا بذلك، كما علموا بأنّ العوارض صنعت من طرف شركة أورين بويل المتّحدة للفولاذ.

جلسوا في قاعة المحكمة في صمتٍ شديد ينظرون إلى ذلك الجسد الطويل ذي البدلة الرماديّة بلا أمل في نجاته من العقاب. كانوا يفتقدون إلى القدرة على الأمل، ولكن بحياد غير متحمّس ارتفع بعلامة استفهام خافتة. وضعت علامة الاستفهام على جميع شعارات التقوى التي صدّعت آذانهم لسنوات.

وقد كشّرت الصحف عن أنيابها وهي تؤكّد أنّ سبب متاعب البلاد، كما أظهرت تلك القضيّة، هو الجشع الأنانيّ للصناعيّين الأغنياء؛ وأنّ الرجال من أمثال هانك ريردن هم الذين يتحمّلون مسؤوليّة تقلّص النظام الغذائيّ، وانخفاض درجة الحرارة وتشقّق سقوف منازل الأمّة؛ وأنّه لولا الرجال الذين خرقوا الأنظمة وعرقلوا خطط الحكومة، لكان الازدهار قد تحقق منذ زمن بعيد؛ وأنّ رجلا مثل هانك ريردن لم يكن مدفوعًا بشيء سوى الربح. وقد ذكر البيان الأخير ذلك من دون تفسير أو تحليل، كما لو أنّ عبارة دافع الربح علامة تجاريّة بديهيّة للشرّ المطلق.

وتذكّر الحشد أنّ تلك كانت الصحف نفسها التي أعلنت، قبل أقلّ من عامين، أنّ إنتاج معدن ريردن ينبغي أن يكون محظورا، لأنّه سيعرّض حياة الناس للخطر بسبب جشع صاحبه؛ وتذكّروا أيضًا أنّ الرجل ذا البدلة الرماديّة قد ركب في عربة قطار المحرّك الأوّل لتشغيل أكثر من مسار صنع من معدنه الخاصّ، ولكنّه الآن يحاكم بسبب جريمة الجشع، لأنّه أخفى عن الجمهور بيعه لحمولة من معدنه في حين كان عليه عرضها في السوق العامّة.

ووفقا للإجراءات التي حدّدتها التوجيهات، فإنّ هذه القضايا لا تُحاكم من قبل هيئة محلّفين، بل من طرف هيئة مؤلّفة من ثلاثة قضاة يعيّنهم مكتب التخطيط الاقتصاديّ والموارد الوطنيّة؛ وكان الإجراء، كما ذكرت التوجيهات، يقتضي أن يكون غير رسميّ وديمقراطيًّا. وقد أُزيلت هيئة القضاة من قاعة المحكمة القديمة في مدينة فيلادلفيا خصّيصًا لهذه المناسبة، وحلّت محلّها طاولة تقفُ فوقَ منصّة خشبيّة.

ثمّ قرأ أحد القضاة، وهو يعمل مدّعيًا عامًّا، التهمَ الموجّهة إلى ريردن معلنًا: يمكنك أن تدلي الآن بدلوك وتترافع دفاعًا عن نفسك.

أجاب هانك ريردن، وهو يواجه المنصّة، بصوت مؤثّر وواضح على نحو مذهل: لن أدافع عن نفسي.

ـ هل أنت..

تلعثم القاضي؛ لم يكن يتوقّع أن تكون القضيّة بتلك السهولة. ثمّ سأله:

ـ هل ستجعل نفسك تحت رحمة هذه المحكمة؟

ـ أنا لا أعترف بحقّ هذه المحكمة في محاكمتي.

ـ ماذا تقول؟

ـ أنا لا أعترف بحقّ هذه المحكمة في محاكمتي.

ـ لكن يا سيّد ريردن هذه هي المحكمة المعيّنة قانونيًّا لمحاكمة هذا الصنف بالذات من الجرائم.

ـ أنا لا أعترف بأنّ أفعالي جُرم.

ـ لكنّك اعترفت بأنّك خالفت لوائحنا التي تتحكّم في بيع معدنك.

ـ أنا لا أعترف بحقّكم في السيطرة على بيع معدني الخاصّ.

ـ وهل من الضروريّ بالنسبة إليّ أن أشير إلى أنّ اعترافك لم يكن مطلوبا؟

ـ لا، أنا على علم تامّ بذلك وأنا أتصرّف وفقا لذلك.

لاحظ ريردن سكون الغرفة. ووفقا لقواعد الادّعاء المعقّدة التي لعبها كلّ أولئك الناس بعضهم لصالح بعض، كان عليهم أن يعتبروا موقفه حماقة غير مفهومة؛ وكان ينبغي أن يصدر حفيف من الدهشة والسخرية، ولكن لم يصدر أيّ شيء من ذلك، فالجميع كانوا جالسين في صمتٍ وهدوءٍ.

سأل القاضي: هل تعني أنّك ترفض الانصياع للقانون؟

ـ لا. بل أنا أمتثل للقانون. فقانونكم ينصّ على أنّه يمكن التخلّص من حياتي وعملي وممتلكاتي من دون موافقتي. حسنًا، يمكنكم الآن التخلّص منّي دون مشاركتي في هذه المسألة. لن ألعب دور الدفاع عن نفسي، حيث لا يوجد أيّ دفاع ممكن، ولن أحاكي وَهْم التعامل مع محكمة العدل.

ـ لكن يا سيّد ريردن، القانون يتيح لك فرصة الدفاع عن نفسك.

ـ لا يمكن للسجين الذي يقدَّم إلى المحاكمة أن يدافع عن نفسه إلّا إذا كان هناك مبدأ موضوعيّ للعدالة يعترف به قضاته، وهو مبدأ يدعم حقوقه، ولا يجوز لهم انتهاكه ويمكنه الاحتجاج ضدّه. والقانون، الذي تحاولون محاكمتي به، ينصّ على أنّه لا توجد مبادئ، وأنّه ليس لديّ أيّ حقوق وأنّه يمكنكم أن تفعلوا بي ما يحلو لكم. حسنا، فلتفعلوا ذلك.

ـ يا سيّد ريردن، القانون الذي تندّد به يستند إلى أعلى مبدإ في الصالح العامّ.

ـ ومن هم عامّة الناس؟ وما الصالح الذي يحمله القانون لهم؟ لقد كان البشر في

الماضي يعتقدون أنّ الخير مفهوم يجب تحديده من خلال مدوّنة للقيم الأخلاقيّة وأنّه لا يحقّ لأيّ شخص السعي وراء الخير من خلال انتهاك حقوق الآخرين. وإذا بي أجد الآن أبناء جلدتي من البشر مستعدّين للتضحية بي بأيّ طريقة يرضونها من أجل أيّ شيء يرون أنّه مصلحتهم، ومستعدّين أيضا لمصادرة ممتلكاتي لمجرّد أنّهم بحاجة إليها. حسنًا، إنّهم على هذا النحو يفعلون مثل ما يفعل أيّ لصّ. ما من فرق بين ما تقومون به وما يقوم به اللصوص سوى أنّ اللصّ لا يطلب منك أن تصدِّق على سرقته.

على جانب من قاعة المحكمة خُصّصت مجموعةٌ من المقاعد للزوّار البارزين الذين جاؤوا من مدينة نيويورك لمشاهدة المحاكمة. جلست داغني تستمع بانتباه، وهي تعلم أنّ تدفّق كلماته سيحدّد مسار حياتها. وجلس إيدي ويلرز بجانبها. أمّا جيمس تاجارت فلم يأت. وجلس بول لاركين منحنيًا إلى الأمام، ووجهه مندفع مثل كمّامة حيوان، تشحذه نظرة من الخوف تتحوّل الآن إلى كراهية خبيثة. وكان السيّد موين، الجالس بجانبه، رجلًا يتمتّع ببراءة أكبر ولكن بفهم أقلّ؛ وكان خوفه من طبيعة أبسط، ولكنّه استمع وهو في حيرة من سخط لاركين وهوسه وهو يقول: يا إلهي، لقد فعلها الآن! الآن سيقنع الوطن بأسره بأنّ جميع رجال الأعمال أعداء للصالح العامّ!

تساءل القاضي: وهل يجب علينا أن نفهم أنّ مصالحك الخاصّة فوق مصالح عامّة الناس؟

ـ أعتقد أنّ مثل هذا السؤال لا يمكن أن يطرح إلّا في مجتمع أكلة لحوم البشر.

ـ ما... ماذا تعني؟

ـ أعتقد أنّه لا يوجد تضارب للمصالح بين الناس الذين لا يطالبون بالمستحقّات غير المكتسبة، ولا يمارسون التضحيات البشريّة.

ـ هل نفهم من ذلك أنّه إذا رأى عامّة الناس أنّ من الضروريّ الحدّ من أرباحك، فأنت لن تعترف بحقّهم في فعل ذلك؟

ـ بلى سأفعل. قد يقلّص الجمهور أرباحي في أيّ وقت يرغب فيه، وذلك برفض

شراء منتجي.

ـ إنّنا نتحدّث عن... طرق أخرى.

ـ أيّ طريقة أخرى غيرها هي طريقة اللصوص، وأنا أدرك أنّها على هذا النحو.

ـ يا سيّد ريردن، أنت لا تدافع عن نفسك بهذه الطريقة.

ـ قلت إنّني لن أدافع عن نفسي.

ـ لكنّ ما تتفوّه به لم يسمع به من قبل! هل تدرك خطورة التهمة المنسوبة إليك؟

ـ لا أكترث، ولا أراها أصلا تهمة.

ـ هل تدرك العواقب المحتملة لموقفك؟

ـ نعم، بشكل كامل.

ـ إنّ موقف المحكمة يرى أنّ الوقائع التي عرضها الادّعاء لا تبرّر على ما يبدو أيّ تساهل. والعقوبة التي ستفرضها سلطة هذه المحكمة عليك هي عقوبة شديدة جدًّا.

ـ تفضّلوا، باشروا العقاب.

ـ عذرًا؟

ـ هيّا، افرضوا تلك العقوبة.

نظر القضاة الثلاثة بعضهم إلى بعض. ثمّ عاد المتحدّث باسمهم إلى ريردن. وقال: هذا لم يسبق له مثيل.

قال القاضي الثاني: إنّه لأمر شاذّ تمامًا. فالقانون يطلب منك أن تدافع عن نفسك. وما من حيلة أمامك الآن إلّا أن تضع نفسك تحت رحمة القضاء.

ـ لن أفعل ذلك.

ـ لكن عليك أن تفعل.

ـ هل تعني أن ما تتوقّعه منّي هو نوع من العمل التطوعيّ؟

ـ نعم.

ـ أنا لا أتطوّع لفعل أيّ شيء.

ـ لكنّ القانون يطالب بتمثيل جانب المدّعى عليه في المحضر.

ـ هل تعني أنّكم بحاجة إلى مساعدتي لكي تجعلوا هذا الإجراء قانونيًّا؟

ـ حسنا، لا... نعم... أعني إكمال نموذج هذا الطلب.

ـ لن أساعدكم على ذلك.

فردّ القاضي الثالث بعنف، وهو أصغرهم سنًّا، وكان يعمل مدّعيًا عامًّا، وقال بعد أن عيل صبره:

ـ هذا أمر مثير للسخرية وغير عادل! هل تريد أن تدع الأمر يبدو كما لو أنّه كان إدانة لرجل بارز مثلك على أساس تهم كاذبة أو أدلّة غير كافية دون...

ثمّ توقّف عن الكلام برهة من الزمن. فأطلق شخص مّا في الجزء الخلفيّ من قاعة المحكمة تصفيرة طويلة.

ردّ ريردن بجدّيّة: أريد أن أسمح لطبيعة هذا الإجراء بأن تظهر بالضبط على ما هي عليه. وإذا كنتم بحاجة إلى مساعدتي لإخفاء ذلك، فأنا لن أساعدكم.

ـ لكنّنا بصدد منحك فرصة للدفاع عن نفسك.. وأنت من يرفض ذلك.

ـ لن أساعدكم على التظاهر بأنّ لديّ فرصة. ولن أساعدكم في الحفاظ على مظهر الاستقامة حيث لا يتمّ الاعتراف بالحقوق. ولن أساعدكم في الحفاظ على مظهر العقلانيّة من خلال الدخول في نقاش يكون فيه المسدّس هو الحجّة الأخيرة. ولن أساعدكم في التظاهر بأنّكم تديرون العدالة.

ـ لكنّ القانون يجبرك على التطوّع للدفاع عن نفسك!

فصدر ضحك في الجزء الخلفيّ من قاعة المحكمة.

ردّ ريردن بجدّيّة وحرص: أيّها السادة، هذا هو الخلل في نظريّتكم، وأنا لن

أساعدكم في الخروج منه. فإذا اخترتم التعامل مع الرجال عن طريق الإكراه، فافعلوا ذلك. ولكن ستكتشفون أنّكم بحاجة إلى التعاون الطوعيّ من ضحاياكم، وبطرق أكثر بكثير ممّا يمكنكم أن تروها في الوقت الحاضر. وينبغي أن يكتشف ضحاياكم أنّ إرادتهم - التي لا يمكنكم إجبارها على فعل أيّ شيء - هي التي تجعل من وجودكم ممكنًا. لقد اخترت أن أكون ثابتًا على المبدإ وسأطيعكم وفق الطريقة التي تطلبونها. وأيّا كان ما ترغبون منّي فعله، فإنّني سأفعله تحت تهديد فوّهة المسدّس. وإذا حكمتم عليّ بالسجن فعليكم أن ترسلوا رجالًا مسلّحين لحملي إلى هناك، فأنا لن أذهب إليه طائعًا. وإذا كنتم ستنزلون عليّ غرامة ماليّة، فسيكون عليكم الاستيلاء على جميع ممتلكاتي لاستخلاص تلك الغرامة، أمّا أنا فلن أتطوّع لدفعها. وإذا كنتم تعتقدون أنّ لديكم الحقّ في إجباري على فعل ذلك، فاستخدموا بنادقكم علنًا. ولن أساعدكم في إخفاء طبيعة أفعالكم.

انحنى القاضي الأكبر إلى الأمام عبر الطاولة وأصبح صوته ساخرًا جدًّا:

ـ يا سيّد ريردن، أنت تتحدّث كما لو أنّك كنت تناضل من أجل مبدإ معيّن، ولكنّ ما تناضل من أجله هو ممتلكاتك الخاصّة فقط، أليس كذلك؟

نعم، بالطبع. أنا أناضل من أجل ممتلكاتي الخاصّة، وهل تعرف أيّ نوع من المبادئ يمثّله هذا الفعل؟

ـ أنت تقدّم نفسك على أنّك بطل الحرّيّة، لكن الحرّيّة التي تعنيها هي فقط لكسب المال الذي تبحث عنه.

ـ نعم، بالطبع. كلّ ما أريده هو الحرّيّة في كسب المال، وهل تعرف ما تعنيه هذه الحرّيّة؟

ـ بالتأكيد، يا سيّد ريردن، أنت لا تريد أن يُساء فهم موقفك. ولا تريد أن تترك عند الناس انطباعًا بأنّك رجل يفتقد إلى حسّ التكافل الاجتماعيّ، وبأنّك رجل لا يولي أيّ اهتمام لرفاهية رفاقه من البشر، بل يعمل فقط من أجل مصالحه الخاصّة.

ـ بالفعل، أنا أعمل فقط من أجل مصالحي الخاصّة ومن أجل المال الذي أكسبه بعرق جبيني.

كان هناك لهاث في الحشد وراءه، لكنّه لم يكن دليلا على سخطهم، بل تعبيرًا عن الدهشة، قابله صمت من القضاة الذين واجههم. ثمّ استأنف حديثه بهدوء:

ـ لا أريد أن يُساء فهم موقفي. وسأكون سعيدًا بأن أذكر ذلك لسجلّ المحكمة. فأنا على اتّفاق تامّ مع وقائع كلّ ما قيل عنّي في الصحف، وأقرّ بتلك الحقائق، لكنّني لا أتّفق مع تقييمها على ذلك النحو. فأنا أعمل فقط من أجل ربحي الخاصّ، وأقوم بذلك من خلال بيع منتج يحتاج إليه البشر الذين هم على استعداد لشرائه. فأنا لا أنتجه لفائدتهم على حساب فائدتي، وهم لا يشترونه لأجل مصالحي على حساب مصالحهم؛ ثمّ إنّني لا أضحّي بمصالحي من أجلهم ولا هم يضحّون بمصالحهم من أجلي؛ فنحن نتعامل على قدم المساواة عن طريق الموافقة المتبادلة لمنفعة متبادلة، وأنا فخور بكلّ قرش كسبته على هذا النحو. وأنا غنيّ وفخور بكلّ قرش أملكه. لقد كسبت أموالي من خلال مجهودي الخاصّ، في تبادل حرّ ومن خلال الموافقة الطوعيّة لكلّ إنسان تعاملت معه، وأيضا وفق الموافقة الطوعيّة لأولئك الذين استخدموني عندما بدأت، والموافقة الطوعيّة لأولئك الذين يعملون لديّ الآن، والموافقة الطوعيّة لأولئك الذين يشترون منتجي. وسأجيب على جميع الأسئلة التي تخشون أن تسألونني عنها بصراحة. هل أدفع للعمّال أجورا أكثر ممّا يستحقّون؟ بالطبع لا. هل أرغب في بيع منتجي بأقلّ ممّا يرغب زبائني في دفعه؟ بالتأكيد لا. هل أرغب في بيعه بالخسارة أو التخلّي عنه؟ طبعا لا. إذا كان هذا هو الشرّ، فافعلوا بي كلّ ما يحلو لكم، وفقا لأيّ معايير تتبنّونها. أمّا أنا فهذه هي معاييري، فأنا أكسب رزقي بعرق جبيني كما يجب على كلّ رجل شريف أن يفعل. وأرفض أن تكون حقيقة وجودي وحقيقة أنّني يجب أن أعمل من أجل دعم حياتي مرتبطة بقبول أنّي مذنب. وأرفض حقيقة أنّني قادر على فعل ذلك وأن أفعل ذلك بشكل جيّد. وأرفض حقيقة أنّني قادر على فعل ذلك بشكل أفضل من معظم الناس، وحقيقة أنّ عملي له قيمة أكبر من عمل جيراني وأنّ المزيد من الناس

على استعداد تامّ لكي يدفعوا لي. أرفض الاعتذار عن قدرتي–وأرفض الاعتذار عن نجاحي – وأرفض الاعتذار عن أموالي. وإذا كان هذا هو الشرّ، فلكم أن تستفيدوا الاستفادة القصوى من ذلك. وإذا كان هذا ما يجده الشعب ضارًّا بمصالحه، فليدمّرني. هذا هو قانوني، ولن أقبل بأيّ قانون آخر. أستطيع أن أقول لكم إنّني قد فعلت خيرًا لبني جلدتي من البشر أكثر ممّا يمكن أن تأملوا في إنجازه، لكنّني لن أقول ذلك، لأنّني لا أسعى إلى الخير للآخرين كعقوبة على حقّي في الوجود، ولا أعترف بصالح الآخرين كمبّرر للاستيلاء على ممتلكاتي أو تدميرهم لحياتي. لن أقول إنّ خير الآخرين كان هو الهدف من عملي، فخيري الخاصّ هو الذي كان هدفي، وأنا أحتقر الرجل الذي يضحّي بمصلحته. أستطيع أن أقول إنّكم لا تسعون إلى خير الناس، إذ لا يمكن تحقيق خير أحدٍ مقابل تضحيات البشريّة، فعندما تنتهك حقوق رجل واحد، فأنت تنتهك حقوق الجميع، وعامّة المخلوقات التي لا حقّ لها مصيرها الدمار. يمكن لي أن أقول لكم إنّكم لا تستطيعون ولن تستطيعوا تحقيق شيء سوى الدمار الشامل تمامًا مثلما يفعل أيّ لصّ، حين لا يبقى بحوزته أيّ ضحايا. يمكنني أن أقولها، لكنّني لن أفعل. فأنا لا أتحدّى سياستكم الخاصّة، بل أتحدّى فرضيّاتكم الأخلاقيّة. وإذا صحّت مقولة أنّ البشر يمكنهم تحقيق خيرهم عن طريق تحويل بعض البشر الآخرين إلى أكباش فداء، وطُلب منّي أن أضحّي بنفسي من أجل المخلوقات التي تريد البقاء على قيد الحياة على حساب دمي، وطُلب منّي أن أخدم مصالح المجتمع بصرف النظر عن مصالحي فإنّني سأرفض، ولن أرى في مصلحتي الشرّ الأكثر احتقارًا، وسأحارب هذا الأمر بكلّ ما أوتيت من قوّة، وسأحارب البشريّة قاطبة، ولو تبقَّت دقيقة واحدة من عمري فإنّي سأستمرّ في الكفاح قبل أن أُقْتَل، وأودّ أن أقاتل وكلّي ثقة تامّة في عدالة معركتي وحقّي بوصفي كائنا حيّا يودّ الدفاع عن حقّه في الوجود. لا أرغب في أن يساء فهمي بخصوص هذا الموضوع. ولو اعتقد زملائي المواطنون، الذين يسمّون أنفسهم عامّة الناس، أنّ خيرهم وصالحهم العامّ يتطلّب ضحايا، فإنّني سأقول لهم: اللعنة على الصالح العامّ، فأنا لن أكون جزءًا منه!

انفجر الجمهور بالتصفيق. وجال ريردن بنظره من حوله، فكان أكثر ذهولا من قُضاته. لقد رأى وجوها تضحك تحت تأثير الإثارة العنيفة، ووجوها أخرى تناشد الحصول على مساعدة، ولكنّه لاحظ يأسهم الصامت يُفْضَح في العراء، ولاحظ في عيونهم غضبًا وسخطًا تمامًا كالذي كان يخالجه، فوجد ارتياحًا في تحدّي الهتاف الجامح؛ لقد رأى فيهم نظرات الإعجاب ونظرات الأمل. كانت هناك أيضا وجوه لشبّان فصحاء وإناث متحرّرات جدًّا، من النوع الذي يقود الاستهجان في مسارح الأخبار عند رؤية أيّ رجل من رجال الأعمال على الشاشة. لم يحاولوا تجيش مظاهرة مضادّة حينها بل كانوا صامتين.

وبينما كان ينظر إلى الحشد، لاحظ أنّ الناس كانوا يرون في وجهه ما لم تتمكّن تهديدات القضاة من استحضاره: أوّل علامة على التعاطف.

ومرّت لحظات قليلة قبل أن يسمعوا ضربَ مطرقةٍ غاضبًا على الطاولة وصراخ أحد القضاة:

ـ اصمتوا أو سآمر بإخلاء قاعة المحكمة!

وعندما عاد إلى الطاولة، جالت عينا ريردن في قسم الزوّار. ثمّ توقّف نظره على داغني، توقّفًا لم تلاحظه إلّا هي، كما لو أنّه يقول: لقد نجح الأمر. كانت تبدو هادئة إلّا أنّ عينيها بدتا واسعتين جدًّا مقارنة بوجهها. كان إيدي ويلرز تعلوه الابتسامة، أمّا السيّد موين فبدا مذهولًا، وأمّا بول لاركين فكان يحدّق في الأرض. وفي مقابل ذلك كانت ملامح وجه بيرترام سكودر خاليةً من أيّ تعبير وكذلك وجه ليليان التي جلست في نهاية الصفّ، بساقين متقاطعتين، وشال فرو المنك المائل من كتفها اليمنى إلى وركها الأيسر وهي تنظر إلى ريردن بلا حراك.

وفي خضمّ العنف المعقّد لكلّ ما شعر به، وجد الوقت للاعتراف بلمسة من الأسف والشوق: لقد كان هناك وجه أمل في رؤيته، بحث عنه منذ بداية المحاكمة، وأراد أن يكون حاضرا أكثر من أيّ وجه آخر من حوله. لكنّ فرانسيسكو لم يأتِ.

قال القاضي الأكبر سنًّا على نحو معاتب، وهو يبتسم بودٍّ ويشرع ذراعيه: يا سيّد ريردن، من المؤسف أنّك قد أسأت فهمنا تمامًا. هذه هي المشكلة... رجال الأعمال يرفضون عادة الاقتراب منّا بروح من الثقة والصداقة. يبدو أنّهم ينظرون إلينا دومًا نظرة المرء إلى عدوٍّ. فلماذا تتحدّث عن التضحيات البشريّة؟ وما الذي جعلك تذهب إلى هذا الحدّ؟ فنحن ليس لدينا أيّ نيّة في الاستيلاء على ممتلكاتك أو تدمير حياتك. نحن لا نسعى إلى الإضرار بمصالحك. ونحن نثمّن كثيرا إنجازاتك المبهرة. وهدفنا هو تحقيق التوازن بين الضغوط الاجتماعيّة وتحصيل العدالة للجميع. فهذه الجلسة هي في الحقيقة، ليست محاكمة، بل هي نقاش وديّ يهدف إلى التفاهم والتعاون المتبادلين.

ـ أنا لا أتعاون وجسدي تحت فوّهة البندقيّة.

ـ ولماذا نتحدّث عن الأسلحة؟ فهذه المسألة ليست خطيرة بما يكفي لتبرير مثل هذه الإشارات. ونحن ندرك تمامًا أنّ الذنب في هذه القضيّة يقع أساسًا على السيّد داناغر، الذي حرّض على انتهاك القانون، ومارس الضغط عليك واعترف بذنبه باختفائه من أجل الهروب من المحاكمة.

ـ لا، لقد كان الاتّفاق بيني وبين داناغر طوعيًّا، وليس تحت أيّ ضغط.

قال القاضي الثاني: يا سيّد ريردن، قد لا تشاركنا بعض أفكارنا، ولكن عندما يقال كلّ شيء ويتمّ، فإنّنا جميعا نعمل من أجل القضيّة نفسها. من أجل خير الناس ونحن ندرك أنّك كنت مندفعًا إلى تجاهل الجوانب الفنّيّة والقانونيّة بسبب الوضع الحرج لمناجم الفحم وما للوقود من أهمّيّة حاسمة في الرفاه العامّ.

ـ لا، لقد دفعتني أرباحي الخاصّة ومصالحي الخاصّة. أمّا تأثيرها على مناجم الفحم والرفاه العامّ فهو فقط من محض تقديرك الخاصّ، ولم يكن ذلك دافعي.

حدّق السيّد موين فيه بذهولٍ وهمس لبول لاركين: إنّه لضرب من ضروب الجنون.

قاطعه لاركين قائلا: أوه، اخرس!

قال القاضي الأكبر: أنا متأكّد يا سيّد ريردن، من أنّك لا تؤمن حقًّا – ولا الجمهور

أيضًا – بأنّنا نرغب في معاملتك بوصفك قربان تضحية. وإذا كان هناك شخص يعاني من سوء الفهم، فإنّنا سنكون حريصين على إثبات أنّ ذلك غير صحيح.

وانسحب القضاة من أجل المداولة، غير أنّهم لم يستغرقوا وقتًا طويلًا، فقد عادوا بسرعة إلى قاعة المحكمة وهم صامتون على نحو ينذر بالسوء، ثمّ نطقوا بالحكم الذي يقضي بأداء هانك ريردن غرامة ماليّة قدرها خمسة آلاف دولار.

واجتاحت قاعة المحكمة عاصفة من الضحك الساخر تتخلّلها موجات من التصفيق. لقد كان التصفيق موجّهًا إلى ريردن، أمّا الضحك فوُجّه إلى القضاة.

وقف ريردن بلا حراك، ولم يلتفت إلى الحشد، وهو لا يكاد يسمع التصفيق. وقف ينظر إلى القضاة ولم يكن وجهه يحمل أيّ علامة توحي بالانتصار، أو أيّ إحساس بالغبطة، فهو لم يحمل غير كثافة التأمّل في رؤية تعجّب مرير كاد يتحوّل إلى شعور بالخوف. كان يرى فداحة صغر العدوّ الذي كان يدمّر العالم. فشعر كما لو أنّه قد مرّ، بعد رحلة سنوات عبر مناظر الدمار الطبيعيّة، على أنقاض المصانع العظيمة، وحطام المحرّكات القويّة، وجثث الرجال الذين لا يقهرون، ليصل في الأخير إلى مرتبة لصّ ناهب، بعد أن توقّع العثور على عملاق، لكنّ ما وجده لم يكن أكثر من جرذ حريص على الركوض قصد الاختباء عند سماعه أوّل صوت لخطوة بشريّة. ثمّ قال في نفسه لو كان هذا هو ما هزمنا، فالذنب ذنبنا.

ثمّ رفع رأسه مجدّدًا لرؤية الناس في قاعة المحكمة وهم يضغطون لمحاصرته. ابتسم كردّ على ابتساماتهم، وكمقابل لحماسهم المأسويّ المحموم الذي ينعكس على وجوههم، ولكنّ ابتسامته حملت لمسة من الحزن.

قالت امرأة عجوز بشال خشن فوق رأسها: بارك الله فيك يا سيّد ريردن! ألا يمكنك أن تنقذنا يا سيّد ريردن؟ إنّهم يأكلوننا أحياء. ولا فائدة من خداع أيّ إنسان بأنّهم يلاحقون الأغنياء، هل تعلم بما يحدث لنا؟

قال رجل يبدو مثل عامل في مصنع: اسمع يا سيّد ريردن. إنّ الأغنياء هم الذين

يطعنوننا في الظهر. أخبر هؤلاء الأوغاد الأثرياء، الذين يتوقون إلى التخلّي عن كلّ شيء، أنّهم عندما سيتخلّون عن قصورهم، فإنّهم في الحقيقة يسلخون الجلد عن ظهورنا.

قال ريردن: أعرف ذلك.

الذنب ذنبنا، هكذا اعتقد. فلو كنّا نحن هم المحرّكين لكان مقدّموالخدمات، والمحسنون إلى البشرية، على استعداد للسماح بالعلامة التجاريّة للشرّ بأن تكون مختومة في ذواتنا ولتحمّلنا بصمتٍ عقوبة فضائلنا. أيّ نوع من الخير كنّا نتوقّع أن ينتصر في العالم؟

نظر إلى الناس من حوله. لقد كانوا يهتفون له طوال اليوم، مثلما هتفوا له على جانبَي مسار خطّ جون جالت. ولكن غدًا سيطالبون بتوجيه جديد من ويسلي ماوتش ومشروع الإسكان المجّانيّ لأورين بويل، في حين انهارت على رؤوسهم عوارض بويل. كانوا يفعلون ذلك، لأنّهم سيأمرونهم بعد ذلك بالنسيان على أنّه خطيئة، وهذا ما جعلهم يهتفون لهانك ريردن.

لماذا كانوا على استعداد للتخلّي عن أعلى لحظاتهم بوصفها خطيئة؟ لماذا كانوا على استعداد لخيانة أفضل شيء بداخلهم؟ ما الذي جعلهم يعتقدون أنّ هذه الأرض هي عالم الشرّ حيث اليأس مصيرهم الطبيعيّ؟ لم يستطع ذكر السبب، لكنّه كان يعلم أنّ اسمه يجب أن يُذكر. ورأى وجود علامة استفهام كبيرة داخل قاعة المحكمة، ومن واجبه الآن أن يجيب عليها.

تلك كانت الجملة الحقيقيّة المفروضة عليه، كما اعتقد، لاكتشاف أيّ فكرة بسيطة متاحة لأبسط إنسان، جعلت البشريّة تقبل المذاهب التي أدّت بها إلى التدمير الذاتيّ.

***

قالت داغني في ذلك المساء، بعد المحاكمة: هانك، لن أعتقد أبدا بأنّ الأمر قد بلغ تلك الدرجة من اليأس. ولن يحدث ذلك مجدّدا أبدا، لن أميل أبدًا نحوالابتعاد. لقد

ثبت أنّ الحقّ هو ما ينجح ويفوز دائمًا... بشرط أن يعلم المرء ماهية الحقّ.

ثمّ قالت له ليليان في عشاء اليوم الموالي: لقد فزت إذَن، أليس كذلك؟

كان صوتها غير ملزم؛ لكنّها لم تقل أيّ شيء آخر، اكتفت بمراقبته، كما لو أنّها تدرس لغزًا. وسألته الممرّضة اللطيفة في المطاحن:

ـ سيّد ريردن، ماذا تعني بالفرضيّة الأخلاقيّة؟ وهل ستواجه الكثير من المتاعب؟

عبس صبيّ المصنع، ثمّ قال ضاحكًا:

ـ يا الله، لقد كان ذلك عرضًا رائعًا! لقد أوسعتهم ضربًا يا سيّد ريردن! شخصيّا كنت جالسًا قرب الراديو وأعوي.

ـ وكيف علمت أنّه ضرب؟

ـ نعم، لقد كان ضربًا مبرحًا، أليس كذا؟

هل أنت متأكّد من ذلك؟

ـ بالتأكيد، أنا متأكّد.

ـ على هذا الأساس فإنّ الشيء الذي يجعلك متأكّدًا هو فرضيّة أخلاقيّة.

أمّا الصحف فقد التزمت الصمت. فإثر الاهتمام المبالغ فيه الذي منحه الصحفيّون للقضيّة، تصرّفوا كما لو أنّ المحاكمة كانت لا تستحقّ أدنى اعتبار. لقد طبعوا روايات موجزة على صفحات غير محتملة، صيغت بعموميّات لا يمكن لأيّ قارئ أن يكتشف معها أيّ تلميح إلى أنّها قضيّة مثيرة للجدل.

ويبدو أنّ رجال الأعمال الذين التقاهم كانوا يرغبون في التهرّب من مناقشة موضوع محاكمته. ولم يدلِ البعض بأيّ تعليق على الإطلاق، ولكنّهم ابتعدوا، وأظهرت وجوههم استياء غريبًا في إطار الجهود الرامية إلى الظهور بمظهر غير ملزم، كما لو أنّهم كانوا يخشون أن يُفسَّر مجرّد فعل النظر إليه على أنّه اتّخاذ موقف. وغامر آخرون بالتعليق: حسب رأيي، يا ريردن، ما صدر عنك لم يكن في غاية الحكمة...

يبدو لي أنّ هذا الوقت غير مناسب لخلق الأعداء... لا يمكننا إثارة الاستياء.

سأله ريردن: استياء من؟

ـ لا أعتقد أنّ الحكومة سيعجبها الأمر.

ـ وهل أنت مدرك لعواقب ذلك؟

ـ حسنًا، لا أعلم ... فعامّة الناس لن تأخذها على محمل الجدّ، لا بدّ أن يجلب هذا الأمر الكثير من السخط.

ـ وهل لاحظت كيف تفاعل الجمهور مع هذا الأمر.

ـ حسنًا، لا أعلم... لقد كنّا نحاول جاهدين ألّا نعطي أيّ تبرير لكلّ تلك الاتّهامات حول الجشع الأنانيّ، لكنّك سلّمت الذخيرة للعدوّ.

ـ هل تفضّل أن تتّفق مع العدوّ الذي يقول إنّك لا تملك الحقّ في الأرباح الخاصّة بك وفي ممتلكاتك؟

ـ أوه، لا، بالتأكيد لا، ولكن لماذا تتطرّف في الرأي؟ هناك دائما منطقة وسطى.

ـ منطقة وسطى بينك وبين قاتليك؟

ـ لماذا تستخدم مثل هذه الكلمات الآن؟

ـ هل ما قلته في المحاكمة صحيح أم لا؟

ـ إنّ ما قلته سيساء اقتباسه، بل سيساء فهمه.

ـ هل كان صحيحا أم لا؟

ـ عامّة الناس أغبياء جدّا في التعامل مع مثل هذه القضايا.

ـ هل كان صحيحا أم لا؟

ـ ليس هذا هو الوقت المناسب لكي تتباهى بثروتك، لأنّ البسطاء يتصوّرون جوعًا. إنّ كلامك سيدفع بهم فقط إلى الاستيلاء على كلّ شيء.

ـ ولكن حين نخبرهم بأنّهم يتمتّعون بالحقّ في ثرواتهم، فهل مثل هذا الكلام سيكبح جماحهم؟

ـ حسنا، لا أعلم...

قال رجل آخر: لم تعجبني الأشياء التي قلتها في محاكمتك. أنا لا أتّفق معك على الإطلاق. فأنا شخصيًّا فخور لأنّني أعمل من أجل الصالح العامّ، وليس من أجل ربحي الخاصّ فقط. أحبّ أن يكون لي هدف أعلى من مجرّد كسب وجباتي الثلاث في اليوم وسيّارة ليموزين هاموند.

قال آخر: وأنا لم أستسغ تلك الفكرة حول إلغاء التوجيهات والضوابط. أعترف لك بأنّهم يركضون مثل خنازير البرّيّة وهم يفرطون في القيام بذلك. ولكن.. أنا لا أتّفق في ما يخصّ مسألة إلغاء الضوابط بشكل نهائيّ، بل أرى أنّ بعض الضوابط ضروريّة. ولاسيّما تلك التي توضع من أجل الصالح العامّ.

قال ريردن: أيّها السادة، أنا آسف، سأكون ملزمًا بإنقاذ أعناقكم اللعينة جنبًا إلى جنب مع عنقي.

ولم تصدر عن مجموعة من رجال الأعمال برئاسة السيّد موين أيّ تصريحات بشأن المحاكمة. ولكن بعد أسبوع أعلنوا، بقدر مفرط من الدعاية، أنّهم سيمنحون أموالًا لبناء ملعب لأطفال العاطلين عن العمل.

ولم يشر بيرترام سكودر إلى المحاكمة في عموده الصحفيّ. ولكن بعد عشرة أيّام، كتب ما يلي: قد يستطيع أيّ إنسان جمع فكرة مّا عن القيمة العامّة للسيّد هانك ريردن، وسيخلص من ذلك إلى أنّه لا يحظى بشعبيّة كبيرة بين زملائه من رجال الأعمال، وأيضًا إلى أنّ علامته التجاريّة القديمة أصبحت قاسية أكثر من اللازم حتّى بالنسبة إلى بارونات الربح المفترسة.

وفي أمسية من أماسي شهر كانون الأول / ديسمبر ـ عندما كان الشارع وراء نافذته مثل الحلق المزدحم بالسعال بزمور الترام قبل عيد الميلاد – جلس ريردن بغرفته في

فندق واين فوكلاند، يقاتل عدوًّا أكثر خطورة من التعب أو الخوف، وهو الاشمئزاز من فكرة الاضطرار إلى التعامل مع البشر.

جلس، غير راغب في المغامرة بالنزول إلى شوارع المدينة، وغير راغب حتّى في التحرّك، كَما لو أنّه كان مقيّدًا بالسلاسل إلى كرسيّه وإلى تلك الغرفة. لقد حاول لساعات تجاهُل تلك العاطفة التي تقوّي الحنين إلى الوطن، كان يدرك أنّ الرجل الوحيد الذي يتوق إلى رؤيته موجودٌ هناك في ذلك الفندق على بعد بضعة طوابق فوق غرفته.

وكان قد ضبط نفسه، في الأسابيع القليلة الماضية، وهو يضيع الوقت في الردهة كلّما دخل الفندق أو غادره، وهو يتسكّع دون داعٍ في مكتب البريد أو كشك بيع الصحف، ويشاهد التيّارات المتعجّلة من الناس، على أملٍ أن يرى فرانسيسكو دانكونيا. وقد تنبّه إلى أنّه كان يتناول العشاء بمفرده في مطعم واين فوكلاند، وعيناه مسلّطتان على ستائر المدخل. هو الآن جالس في غرفته، معتقدًا أنّ المسافة بضعة طوابق فقط.

ونهض واقفًا وهو يضحك بتكتّم من السخط المسلّي، ولكنّه اعتقد أنّه كان يتصرّف، مثل امرأة تنتظر مكالمة هاتفيّة من حبيبها وتحارب إغراء إنهاء التعذيب من خلال اتّخاذ الخطوة الأولى للاتّصال به. فقال في نفسه إنّه لا يوجد سبب يمنعه من الذهاب إلى فرانسيسكو دانكونيا، إذا كان هذا ما أراده. ومع ذلك، فإنّه حين قال لنفسه إنّه سيقدم على هذا الأمر، شعر ببعض بذور الاستسلام الخطيرة أمام شدّة ارتياحه الخاصّ.

خطى خطوة نحو الهاتف ليتّصل بجناح فرانسيسكو لكنّه توقّف. لم يكن ذلك ما أراد فعله؛ فما أراده كان ببساطة القيام بزيارة مفاجئة غير معلنة، مثلما كان يفعل فرانسيسكو حين يدخل عليه مكتبه؛ وكان هذا هو ما يبدو أنّه يشير إلى حقٍّ غير مذكور بينهما.

وفي طريقه إلى المصعد قال في نفسه: قد لا يكون في الداخل، وحتّى إذا كان موجودًا هناك، فإنّك ستجده على الأرجح يتسلّى مع إحدى العاهرات، وهو أمر سيخدمك على أحسن وجه. ولكنّ الفكرة بدت غير واقعيّة، إذ لم يستطع جعلها تنطبق على

الرجل الذي كان قد رآه في فوّهة الفرن، فوقف بثقة في المصعد، ينظر إلى أعلى، ثمّ مشى بثقة في البهو، وهو يشعر بمرارة الاسترخاء في مرح. ثمّ طرق الباب.

ردّ صوت فرانسيسكو بعنف: ادخل!

فتح ريردن الباب وتوقّف عند العتبة. وظلّ أحد المصابيح المظلّلة من الساتان الأكثر تكلفة في الفندق تبعث بدائرة من الضوء في منتصف الأرضيّة على أوراق واسعة من أوراق التحرير. وكان فرانسيسكو دانكونيا متمدّدًا على الأرضيّة، وهو يرتدي قميصًا بكمّين طويلين، وخصلة من الشعر تتدلّى على وجهه. كان متمدّدا على بطنه، مسنودا بمرفقيه، يعضّ نهاية قلم رصاص في تركيز على نقطة مّا أمامه صعبة التعقّب. لم ينظر إلى أعلى، بل بدا وكأنّه قد نسي طرقة الباب. فحاول ريردن تمييز الرسم: فبدا وكأنّه قسم من مصهر. فوقف يراقبه بإعجاب ودهشة؛ لو أنّه امتلك القدرة على جلب صورته الخاصّة لفرانسيسكو دانكونيا إلى الواقع، لكانت تلك هي الصورة التي سيشاهدها: شخصيّة عامل شابّ هادف وعازم على مهمّة صعبة.

وفي لحظة مّا، رفع فرانسيسكو رأسه. وفي اللحظة الموالية، ألقى بجسده إلى أعلى في وضعيّة ركوع، ينظر إلى ريردن بابتسامة من المتعة التي لا تصدّق. ثمّ استولى على الرسومات وألقى بها جانبًا على عجل ووجهه إلى أسفل.

سأله ريردن: أعتذر، لأنّني قاطعتك، وأنت تقوم بعمل مهمّ؟

قال مبتسما: لا شيء مهمّ، تفضّل بالدخول.

أحسّ ريردن فجأة باليقين من أنّ فرانسيسكو كان هو أيضًا في انتظاره، مثلما ينتظر نصرًا لم يكن يأمل تمامًا في تحقيقه.

سأله ريردن: ماذا كنت تفعل؟

ـ كنت فقط أسلّي نفسي.

ـ دعني أَرَ الورقة.

ـ لا.

ثمّ نهض وركل الرسومات جانبًا. فلاحظ ريردن أنّه لئن استاء من طريقة فرانسيسكو الوقحة في ملكيّة مكتبه وإدارته، فهو أيضا مذنب الآن بسبب الموقف نفسه، لأنّه لم يقدّم أيّ تبرير لزيارته، لكنّه عبر الغرفة وجلس عرضًا في كرسيّ، كما لو أنّه كان في منزله.

سأله ريردن: لماذا لم تأت لمواصلة ما بدأته؟

ـ لقد أبليت البلاء الحسن من دون مساعدتي.

ـ هل تعني محاكمتي؟

ـ نعم أعني محاكمتك.

ـ كيف علمت بذلك؟ وأنت لم تحضر جلسة المحاكمة.

ابتسم فرانسيسكو، لأنّ نبرة الصوت اعترفت بجملة إضافيّة على نحو ضمنيّ: كنت أبحث عنك. ثمّ قال:

ـ ألا تفترض أنّني سمعت كلّ كلمة من تلك المحاكمة عبر الراديو؟

ـ أَفَعَلْتَ ذلك حقًّا؟ حسنا، هل أعجبك سماع سطور جملك الخاصّة وأنا أردّدها على الهواء مباشرة مثل الأراجيز؟

ـ لم تكن كذلك يا سيّد ريردن. لم تكن سطوري. ألم تكن تلك الأشياء هي التي تحيا بها دائمًا؟

ـ نعم.

ـ لقد ساعدتك فقط لترى أنّه كان يجب عليك أن تفخر بالعيش بها.

ـ أنا سعيد لأنّك سمعت ذلك.

ـ لقد كان خطابًا رائعًا يا سيّد ريردن، لكنّه جاء متأخّرًا بحوالي ثلاثة أجيال.

ـ وماذا تعني؟

ـ لو وُجِدَ في الماضي رجلُ أعمال واحدٌ يملك مثل هذه الشجاعة ليقول بكلّ فخر

إنّه لا يعمل إلّا من أجل شغفه الخاصّ ومصالحه الشخصيّة لأنقذ العالم.

أنا لم أتخلّ عن العالم لأنّه ضائع.

هو ليس كذلك. ولا يمكن أن يكون أبدًا كذلك. لكن يا الله!كم من العناء كان سيوفّره علينا ذلك الرجل؟!

ـ حسنًا، أعتقد أنّنا يجب أن نقاتل، بغضّ النظر عن الحقبة التي نعيش فيها.

ـ نعم... يا سيّد ريردن، أقترح عليك أن تحصل على نسخة من محاكمتك وتقرأ ما قلته ثمّ تنظر ما إذا كنت تمارس ذلك بشكل كامل وثابت أم لا.

ـ هل تعني أنّني لم أكن كذلك؟

ـ اكتشف ذلك بنفسك.

ـ أعلم أنّك تملك الكثير لتخبرني به عندما تمّت مقاطعتنا تلك الليلة في المطاحن. فلماذا لا تنهي ما كان عليك قوله؟

ـ لا، فالوقت لا يزال مبكّرا جدًّا للحديث عن ذلك الأمر.

تصرّف فرانسيسكو كما لو أنّ هناك شيئًا غير عاديّ بشأن تلك الزيارة، أو كأنّه اعتبرها مسألة طبيعيّة مثلما كان يتصرّف دائما في وجود ريردن. ولكنّ ريردن لاحظ أنّه لم يكن هادئا جدًّا كما كان يودّ، لقد كان يسير في الغرفة، بطريقة غير واضحة وإحساس غامض يساوره لكنّه لا يرغب في الاعتراف به، ونسي المشكاة التي لا تزال واقفة على الأرضيّة، وهي الإضاءة وحيدة للغرفة.

قال فرانسيسكو: لقد تعرّضت لضرب مبرح في طريقك إلى تلك الاكتشافات، أليس كذلك؟ هل أعجبك سلوك زملائك من رجال الأعمال؟

ـ أعتقد أنّ سلوكهم كان متوقّعا.

قال فرانسيسكو بصوت يوتّره غضب التعاطف: لقد مرّت اثنتا عشرة سنة، ومع ذلك مازلت غير قادر على رؤية ذاك الأمر بلامبالاة!

بدت جملته لاإراديّة، كما لو أنّه يحاول قمع صوت العاطفة بداخله، فتلفّظ بكلمات مكبوتة. فسأله ريردن:

ـ اثنا عشر عامًا، منذ متى؟

توقّف الكلام على نحوٍ فوريّ، لكنّ فرانسيسكو أجابه بهدوء:

ـ بما أنّني فهمت ما كان هؤلاء الرجال يفعلونه.. وأعرف ما تمرّ به الآن... وأيضًا الأشياء التي ما تزال تنتظرك.

ردّ ريردن: شكرا جزيلا.

ـ ولمَ الشكر؟

ـ لمَ تحاول جاهدًا ألّا تظهره. لكن لا تقلق بشأني فأنا مازلت قادرا على تحمّله... كما تعلم، لم آت إلى هنا لأنّني أردت التحدّث عنه أو حتّى عن المحاكمة.

ـ سأوافق على نقاش أيّ موضوع تختاره بسبب وجودك هنا.

قال فرانسيسكو ذلك بنبرة دعابة مهذّبة، ولكنّ تلك اللهجة لم تكن تخفي أنّه يقصد: ما الذي أردت التحدّث عنه؟

ـ أريد التحدّث عنك.

توقّف فرانسيسكو لينظر إلى ريردن لحظةً، ثمّ أجابه بهدوء: حسنًا، لك ذلك.

لو أمكن لريردن أن يحوّل ما شعر به مباشرة إلى كلمات، ويتجاوز حاجز إرادته، لكان بكى وصرخ: لا تخذلني، فأنا بحاجة إليك، أنا بصدد محاربتهم جميعًا، لقد قاتلت إلى أقصى حدّ وقد جُبِلت على مزيد القتال، والذخيرة الوحيدة الممكنة والمتبقّية لي هي أنّني في حاجة إلى معرفة رجل واحد أثق به، وأكنّ له كلّ الاحترام والإعجاب.

لكنّه بدلًا من ذلك، قال بهدوء وببساطة شديدة:

ـ هل تعرف، أعتقد أنّ الجريمة الأخلاقيّة الحقيقيّة الوحيدة التي يمكن أن يرتكبها إنسان ضدّ إنسان آخر هي محاولة خلق انطباع يوحي، من خلال أقواله أو أفعاله،

بالتناقض والمستحيل وغير العقلانيّ، وهكذا يزعزع مفهوم العقلانيّة عند ضحيّته.

ـ هذا صحيح.

ـ وإذا قلت لك إنّ هذه هي المعضلة التي وضعتني فيها، فهل ستساعدني بالإجابة على سؤال شخصيّ؟

ـ سأحاول.

ـ ليس عليّ أن أقول لك -لأنّك تعلم ذلك- إنّك الرجل الذكيّ الوحيد الذي قابلته في حياتي. لقد جئتك لأقبل حقيقة أنّك ترفض ممارسة قدرتك العظيمة على عالم اليوم، لا بوصف تلك الحقيقة حقًّا مشروعًا بل بوصفها إمكانًا. ولكنّ ما يفعله الإنسان في حالات اليأس ليس بالضرورة مفتاحًا كاشفًا لشخصيّته. فلطالما اعتقدت أنّ المفتاح الحقيقيّ يكمن في كلّ ما يسعى إليه المرء من أجل المتعة. وهذا ما أجده غير قابل للتصوّر، فبغضّ النظر عمّا تخلّيت عنه، فإنّك لطالما اخترت البقاء على قيد الحياة، فكيف يمكنك أن تجد أيّ متعة في قضاء حياة ذات قيمة مثل حياتك في الجري وراء النساء الرخيصات وفي فكرة حمقاء تقوم على الانحراف؟

نظر إليه فرانسيسكو مبتسمًا، كما لو أنّه يقول: لا؟ وكأنّي بك لا تريد الحديث عن نفسك؟ وما تعترف به ليس إلّا تلك الوحدة اليائسة التي تجعل مسألة شخصيّتي أكثر أهمّيّة بالنسبة إليك من أيّ سؤال آخر الآن؟

ردّ عليه فرانسيسكو: هناك طريقة لحلّ كلّ معضلة من هذا النوع يا سيّد ريردن، تكمن في التحقّق من فرضيّاتك.

ثمّ جلس على الأرض، وأعدّ نفسه بشكل جيّد، على نحوٍ غير رسميّ، لمحادثةٍ كان سيستمتع بها:

ـ هل مقولة أنّني رجل ذكيّ هي من استنتاجك المباشر؟

ـ بالتأكيد.

ـ وهل أدركت من معرفتك المباشرة بي أنّني أقضي حياتي في الركض وراء النساء؟

ـ أنت لم تنكر ذلك قطّ.

ـ أنكر ذلك؟ لقد مررت بالكثير من المتاعب لخلق ذلك الانطباع.

ـ هل تعني أنّ هذا الانطباع غير صحيح؟

ـ وهل أبدو لك مثل رجل يعاني من عقدة دونيّة بائسة؟

ـ يا إلهي، طبعًا لا!

ـ لكنّك تعلم أنّ هذا هو النوع الوحيد من الرجال الذي يقضي حياته في ملاحقة النساء.

ـ وماذا تعني؟

ـ هل تتذكّر ما قلته عن المال وعن البشر الذين يسعون إلى عكس قانون السببيّة؟ أولئك الذين يحاولون استبدال العقل عن طريق الاستيلاء على منتجات العقل؟ حسنًا، إنّ الإنسان الذي يحتقر نفسه يحاول اكتساب احترام ذاته من خلال المغامرات الجنسيّة، وهو أمر لا يمكن القيام به، لأنّ الجنس ليس هو السبب، بل هو تأثير وتعبير عن إحساس الإنسان بقيمته الخاصّة.

ـ من الأفضل أن تشرح لي ذلك.

ـ هل سبق أن واجهت المسألة نفسها؟ إنّ البشر الذين يعتقدون أنّ الثروة تأتي من الموارد المادّيّة وليس لها جذور أو معنى فكريّ، هم الناس الذين يعتقدون – للسبب نفسه – أنّ الجنس هو القدرة المادّيّة التي تعمل بشكل مستقلّ عن العقل أو الاختيار أو رمزيّة القيم. هم يعتقدون أنّ جسدك يخلق رغبةً ويترك الخيار لك، تمامًا كما لو أنّك تقول إنّ خام الحديد يحوّل نفسه إلى سكك حديديّة من تلقاء نفسه. فالحبّ أعمى، كما يقولون؛ والجنس أمر منيع عن العقل ويسخر من قوّة جميع الفلاسفة. ولكن، في الواقع، فإنّ ما يختاره الإنسان في علاقة بالجنس هو نتيجة قناعاته الأساسيّة وحصيلة مجموعها. أخبرني بما يجده أيّ إنسان جذّاب جنسيًّا، وسأخبرك بفلسفته الكاملة في الحياة. أرني المرأة التي ينام معها وسأخبرك بتقييمه لنفسه. وبغضّ النظر عن الفساد

الذي تعلّمه عن فضيلة نكران الذات، فالجنس أنانيّة أعمق من جميع الأفعال، وهو الفعل الذي لا يمكن أن يؤدّي إلى أيّ دافع ولكنّ التمتّع به خاصّة –حاول فقط التفكير في القيام به في كنف روح من الصدقة ونكران الذات– هو فعل غير ممكن إذا كانت الغاية منه تحقير الذات، لأنّه يوظّف فقط لتمجيد الذات، والثقة في كوننا مرغوبين وجديرين بالرغبة. إنّه فعل يجبر المرء على الوقوف عاري الروح والجسد وقبول غروره الحقيقيّ بوصفه معيارًا للقيمة. فهو سينجذب دائمًا إلى المرأة التي تعكس رؤيته إلى نفسه على نحو أعمق، تلك المرأة التي سيسمح له استسلامها بتجربة – أو تزييف – شعوره باحترام ذاته. فالرجل الواثق من قيمته الخاصّة، سيرغب في أعلى نوع من النساء، تلك المرأة التي ستبهره، وستكون هي الأقوى، والأصعب في التغلّب عليها، لأنّ امتلاك بطلة من هذا النوع هو الذي سيمنحه فقط الشعور بتحقيق إنجاز، وليس امتلاك عاهرة بلا عقل. إنّه لا يسعى إلى... ما خطبك؟

قال ريردن متوتّرا: واصل كلامك.

ـ إنّه لا يسعى إلى اكتساب قيمته، بل إلى التعبير عنها. ولا يوجد تعارض بين معايير عقله ورغبات جسده. لكنّ الرجل الذي لا يرى لحياته قيمةً سوف ينجذب إلى امرأة يحتقرها لأنّها ستعكس نَفَسَه السرّيّ، وستطلق سراحه من ذلك الواقع الموضوعيّ الذي يبدو فيه مزيّفًا، وسوف تعطيه وهمًا آنيًّا بقيمته الخاصّة وهروبًا مؤقتًا من الشفرة الأخلاقيّة التي تلعنه. فلتراقب الفوضى القبيحة التي يقوم بها معظم الرجال في حياتهم الجنسيّة، ولاحظ أيضًا فوضى التناقضات التي يحملونها على أنّها فلسفتهم الأخلاقيّة. إذ ينتج الأوّل من الآخر. فالحبّ هو جوابنا على قيمنا العليا، ويمكن أن يكون أيّ شيء آخر. فدع الإنسان يفسد قيمه ونظرته إلى الوجود، ودعه يعترف بأنّ الحبّ ليس لمتعة النفس بل هو إنكار للذات، وبأنّ الفضيلة لا تنشأ من الكبرياء، بل من الشفقة أو الألم أو الضعف أو التضحية، وأنّ أنبل حبّ يولد، لا من الإعجاب، بل من الإحسان، فهو ليس استجابة للقيم، بل استجابة للعيوب. وبذلك سيكون قد شطر نفسه إلى قسمين. فجسده لن يطيعه، ولن يستجيب، بل سيجعله عاجزًا تجاه المرأة التي اعترف

لها بحبّه وسينجذب إلى أدنى نوع من العاهرات التي يمكن أن تصادفه. وسيتبع جسده دائمًا المنطق النهائيّ لقناعاته العميقة؛ فإذا كان يعتقد أنّ الطباع هي القيم، فإنّه قد يلعن وجوده على أنّه شرّ وسينجذب إلى الشرّ فقط. وقد يلعن نفسه فيشعر بأنّ الفساد هو كلّ ما يستحقّ الاستمتاع به. وقد يساوي بين الفضيلة والألم فيشعر بأنّ الرذيلة هي عالم المتعة الوحيد. ثمّ سيصرخ بأنّ جسده يفرز رغبات شرّيرة خاصّة به لا يمكن لعقله أن يقهرها، وبأنّ الجنس خطيئة، وبأنّ الحبّ الحقيقي عاطفة روحيّة نقيّة. ثمّ سيتساءل: لماذا لا يجلب الحبُّ له سوى الملل والجنس، ولا شيء سوى العار.

قال ريردن ببطء، وهو ينظر بعيدًا، من دون أن يعي أنّه كان يفكّر بصوت عالٍ: على الأقلّ... لم أقبل قطّ بذلك المبدإ الآخر... لم أشعر قطّ بالذنب من كسب المال.

أضاع فرانسيسكو أهمّيّة أوّل كلمتين، ولكنّه ابتسم وقال بعد أن عيل صبره:

ـ ألا ترى أنّها القضيّة نفسها؟ لا، لن تقبل أبدًا أيّ جزء من عقيدتهم الشرّيرة ولن تستطيع إجبار نفسك على قبولها. وإذا حاولت أن تلعن الجنس بوصفه شرّا، فستجد نفسك مضطرّا إلى التصرّف بناءً على فرضيّة أخلاقيّة مناسبة. ستنجذب إلى امرأة من أعلى المراتب عند أوّل لقاءٍ وسترغب دائمًا في البَطَلَة. وستكون غير قادر على احتقار نفسك ولن تصدّق أنّ الوجود شرٌّ وأنّك مخلوق عاجز عالقٌ في عالم مستحيل. أنت الرجل الذي قضّى حياته في تشكيل المادّة. أنت الرجل الذي سيعلم أنّ الفكرة التي لا يُعبَّر عنها في الفعل الجسديّ هي نفاق حقير، كذلك هو الحبّ الأفلاطونيّ، فالفعل الجسديّ الذي لا توجّهه الفكرة يعتبر خداعًا للذات، وكذلك هو حال الجنس عندما ينقطع عن مدوّنة القيم. وستدرك أنّها المشكلة عينها، كما سيدرك ذلك إحساسُك غير المُنتَهكِ باحترام الذات. وستكون غير قادر على الرغبة في امرأة تحتقرها. وحده الرجل الذي يمجّد الحبّ الذي يخلو من أيّ رغبة، يستطيع إفساد أيّ رغبة لا يوجّهها الحبّ. لكن لاحظ أنّ معظم الناس مخلوقات تنقسم إلى نوعين؛ فالنوع الأوّل هو الإنسان الذي يحتقر المال والمصانع وناطحات السحاب وجسده. إنّه يحمل مشاعر غير محدّدة حول الموضوعات المجرّدة. وهو يبكي بيأس، لأنّه لا يشعر بأيّ شيء تجاه النساء

اللواتي يحترمهنّ، لكنّه يجد نفسه عبدًا في علاقة حبّ مع عاهرة من الحضيض. إنّه الرجل الذي يسمّيه الناس مثاليًّا. أمّا النوع الآخر فهو الإنسان الذي يسمّيه الناس بالعمليّ، أي الإنسان الذي يحتقر المبادئ والتجريدات والفنّ والفلسفة وحتّى عقله. فهو يعتبر أنّ اقتناء الأشياء المادّيّة هو الهدف الوحيد من الحياة، ويضحك على الحاجة إلى النظر في الغرض منها أو مصدرها. وهو يتوقّع منها أن تعطيه الشعور بالمتعة، ويتساءل لماذا كلّما تحصّل على المزيد منها، قلّ شعوره. إنّه الرجل الذي يقضي وقته في مطاردة النساء. لاحظ الاحتيال الثلاثيّ الذي يرتكبه على نفسه. ولن يعترف بحاجته إلى احترام ذاته، لأنّه يسخر من مفهوم مثل القيم الأخلاقيّة؛ ومع ذلك يشعر بازدراء الذات العميق الذي يأتي من اعتقاد أنّه قطعة من اللحم. هو لن يعترف بذلك، لكنّه يعلم أنّ الجنس هو التعبير الجسديّ عن الإشادة بالقيم الشخصيّة. لذلك يحاول الحصول على ما كان ينبغي أن يكون السبب. إنّه يحاول أن يكتسب إحساسًا بقيمته الخاصّة من النساء اللواتي يستسلمن له، وينسى أنّ النساء اللواتي يختارهنّ ليس لديهنّ شخصيّة ولا حكم ولا معيار للقيمة. فيقول لنفسه إنّ كلّ ما يسعى إليه هو المتعة الجسديّة، ولكن لاحظ أنّ نساءه سيُتعبنه خلال أسبوع أو ليلة. إنّه يحتقر العاهرات المهنيّات ويحبّ تخيُّل أنّه قادر على إغواء الفتيات الفاضلات اللّاتي يقمن باستثناء كبير من أجل مصلحته. إنّه الشعور بالإنجاز الذي يسعى إليه ولن يجده أبدًا. فأيّ مجدٍ يمكن أن يتحقّق من خلال غزو جسدٍ طائش؟ الآن هذا هو التعريف الملائم للرجل الذي يطارد المرأة. فهل هذا الوصف يناسبني؟

ـ يا إلهي، طبعًا لا!

ـ ثمّ يمكنك الحكم، من دون أن تطلب وعدًا بذلك، لتسألني عن عدد مطاردات النساء التي قمت بها في حياتي.

ولكن ماذا كنت تفعل في الصفحات الأولى من الصحف طيلة اثني عشر عامًا؟

ـ لقد أسرفت مالًا كثيرًا على أكثر الحفلات المبتذلة التي كان بإمكاني التفكير فيها، وأهدرت فترة بائسة من الوقت والناس يشاهدونني مع النوع المناسب من النساء. أمّا

بالنسبة إلى البقيّة.. فلديّ بعض أصدقاء يعلمون بهذا الأمر، ولكنّك ستكون أوّل شخص أسرّ له بهذا الأمر، وهو أنّه لم يسبق لي أن نمت مع أيّ واحدة من هؤلاء النساء. لم ألمس قطّ واحدةً منهنّ.

ـ وما لا يصدَّق أكثر من ذلك هو أنّني أصدّقك.

على الأرضيّة بجانبه، ألقت المشكاة أجزاء مكسورة من الضوء على وجه فرانسيسكو، وهو يميل إلى الأمام، فبدت على وجهه مسحة ممتعة من البراءة:

ـ إذا كنت تهتمّ بإلقاء نظرة على تلك الصفحات الأولى من الجرائد، فسترى أنّني لم أقل أيّ شيء. ستجد النساء اللواتي كنّ حريصات على التسرّع في طباعة القصص التي تلمّح إلى أنّ رؤيتهنّ معي في مطعم كانت علامة على رومانسيّة رائعة، والتسرّع في نشرها. ما الذي تعتقد أنّ هؤلاء النساء يبحثن عنه غير الرغبة في الحصول على قيمتهنّ الخاصّة من أعداد الرجال الذين يقعون في فخاخهنّ، ومن شهرتهم؟ إلّا أنّ تلك ليست سوى خطوة واحدة أكثر زيفًا، لأنّ القيمة التي يسعين إليها ليست موجودة في الواقع الفعليّ، ولكنّها تتحقّق من الانطباع الذي يشعرن به تجاه النساء الأخريات وحسدهنّ. حسنًا، لقد منحت هؤلاء العاهرات ما يرغبن فيه، ولكنّ ما كنّ يرغبن فيه حرفيًّا، من دون التظاهر بأنّهنّ يتوقّعنه، هو ذلك التظاهر الذي يخفي طبيعة رغباتهنّ. هل تعتقد أنّهنّ يردن النوم معي أو مع أيّ رجل آخر؟ هنّ لم يكنّ قادرات على الرغبة الحقيقيّة والصادقة، بل أردن الطعام بدافع غرورهنّ، فأعطيتهنّ إيّاه. لقد أعطيتهنّ الفرصة للتباهي أمام أصدقائهنّ ورؤية أنفسهنّ على صفحات الفضائح في أدوار المغريات العظيمات. لكن هل تعلم أنّ هذا الأمر يشتغل بالطريقة نفسها التي وظّفتها في محاكمتك؟ إذا كنت تريد هزيمة أيّ نوع من أنواع الاحتيال القبيح، فعليك بالامتثال له حرفيًّا، من دون إضافة أيّ شيء من تلقاء نفسك لإخفاء طبيعتها. لقد فهمت أولئك النساء الدرسَ. فنظرن ما إذا كان يوجد أيّ رضا في أنّ ما يحسدهنّ عليه الآخرون هو إنجاز لم يحقّقه المرء. وبدلًا من احترام الذات، أعطتهنّ الرومانسيّات المعلنة معي شعورًا أعمق بالنقص: كلّ واحدة منهنّ تعلم أنّها جرّبت وفشلت. إذا

كان يُفترَض أنّ سحبي إلى السرير هو معيارها العامّ للقيمة، فهي تعلم أنّها لا تستطيع الارتقاء إلى ذلك المستوى. أعتقد أنّ هؤلاء النساء يكرهنني أكثر من أيّ رجل آخر على وجه الأرض لكنّ سرّي آمن لأنّ كلّ واحدة منهنّ تظنّ أنّها الوحيدة التي فشلت وأنّ جميع الأخريات نجحن، ولن تعترف أبدًا بالحقيقة لأيّ شخص.

ـ ولكن ماذا فعلت بسمعتك الخاصّة؟

قال فرانسيسكو متجاهلًا: أولئك الذين أحترمهم، سيعرفون حقيقتي عاجلًا أم آجلًا. أمّا الآخرون... الآخرون سيرون ما أنا عليه شرًّا. دعهم يقولوا ما يحلو لهم تمامًا كالصفحات الأولى في الجرائد.

ـ لكن لماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟ هل فقط لتلقّنهم درسًا؟

ـ قطعًا لا! لقد أردت أن أكون معروفًا باسم المستهتر.

ـ لماذا؟

ـ المستهتر هو الرجل الذي لا يتوانى في إهدار المال.

ـ لماذا تتظاهر بمثل هذا الدور؟

ـ للتمويه.

ـ لماذا؟

ـ لهدف يخصّني.

وما هو هذا الهدف؟

ـ لا تطلب منّي إخبارك بذلك. لقد أخبرتك بأشياء أكثر من اللّازم أو أكثر ممّا يجب أن تعرف.

ـ وإذا كان ما أخبرتني به أكثر ممّا يجب، فلماذا أخبرتني به؟

ـ لأنّك... جعلتني أفقد الصبر للمرّة الأولى منذ سنوات، ولأنّني لم أرد لأيّ شخصٍ أن يعرف حقيقتي مثلما أردتك أن تعرفها. ولأنّني كنت أعلم أنّك ستحتقر

الرجل المستهتر أكثر من أيّ نوع آخر من الرجال-مثلما أحتقره أيضًا. المستهتر؟ لم يسبق لي أن أحببت سوى امرأة واحدة في حياتي، ومازلت أحبّها وسوف أبقى دائما أحبّها! لم أعترف بذلك لأحدٍ... حتّى هي.

ـ هل خسرتها؟

جلس فرانسيسكو ينظر بعيدا في الفضاء، ثمّ أجاب: آمل ألّا أكون كذلك.

ضرب ضوء المشكاة وجهه من الأسفل، فلم يستطع ريردن رؤية عينيه، فاكتفى بالنظر إلى فمه المرسوم في خطوطٍ من التحمّل والاستقالة الرسميّة الغريبة. لقد كان ريردن يعلم أنّ ذلك جرحٌ لا يمكن التحقيق فيه والتقصّي عنه أكثر من ذلك.

قال فرانسيسكو وقد تبدّل مزاجه: أوه حسنا، لقد كانت أطول منّي قليلًا!

قال ريردن: بما أنّك وثقت بي، فإنّني أريد أن أودعك، بالمقابل، سرّي. أريدك أن تعرف كم كنت أثق بك قبل أن آتي إلى هنا وقد أحتاج إلى مساعدتك لاحقًا.

ـ أنت الرجل الوحيد الذي بقي لي وأودّ أن أساعده.

ـ ثمّة أمور كثيرةٌ لا أعرفها عنك، لكنّني متأكّد من شيء واحد هو أنّك لست صديقًا للصوص.

ـ طبعًا، أنا لست كذلك.

ـ لذلك أعلم أنّك لن تخونني إذا قلت لك إنّني سأستمرّ في بيع معادن ريردن للعملاء الذين يقع عليهم اختياري ووفق أيّ مبلغ يحلو لي. الآن، أنا على استعداد لسكب معدن طلبيّة يفوق حجمها عشرين مرّة حجم طلبيّتهم.

جلس فرانسيسكو على ذراع كرسيّ، على بُعد بضعة أقدام، ثمّ انحنى إلى الأمام ينظر إلى ريردن في صمت وعُبُوسٍ، ثمّ سأله:

ـ وهل تعتقد أنّك تحاربهم من خلال فعل ذلك؟

ـ حسنا، وماذا كنت ستسمّيه؟ التعاون؟

ـ لقد كنت مستعدًا لمدّهم بمعدن ريردن مقابل فقدان أرباحك، وفقدان أصدقائك، وإثراء الأوغاد الضالين الذين تجرّؤوا، واعتبرت إساءتهم امتيازًا يحافظ على حياتهم. وأنت الآن على استعداد للقيام بذلك على حساب قبول دور المجرم فتعرّض نفسك لخطر الزجّ بك في السجن في أيّ لحظة من أجل الحفاظ على وجود نظامٍ لا يمكن أن يستمرّ إلّا من قبل ضحاياه، وذلك فقط عن طريق خرق قوانينه الخاصّة.

ـ ليس من أجل نظامهم، ولكن من أجل العملاء الذين لا أستطيع تَرْكَهم تحت رحمة نظامهم، سأقاوم هذا النظام، ولن أتركهم يوقفونني، مهما تكن صعوبة ما سأفعله، ولن أترك لهم الساحة، حتّى لو كنت آخر رجل على وجه الأرض. هذا النظام غير قانونيّ، وهو الآن أهمّ عندي من كلّ مطاحني.

رفع فرانسيسكو رأسه ببطء ولم يجبه، ثمّ سأله: مَن مِن أصدقائك في صناعة النحاس ستمنحه هذه المرّة امتياز أن يبلغك عنك؟

قال ريردن مبتسمًا: ليس هذه المرّة. لأنّني سأتعامل مع رجل يمكنني الوثوق به.

ـ حقًّا؟ ومن هو؟

ـ أنت.

جلس فرانسيسكو باستقامة وسأله: ماذا؟

كان صوته منخفضًا إلى درجة أنّه نجح تقريبًا في إخفاء صوت اللهاث. وكان ريردن يبتسم قبل أن يقول:

ـ ألم تكن تعلم أنّني أحد عملائك الآن؟ لقد تمّ ذلك من خلال اثنين من المهرّجين وتحت اسم مستعار، ولكن سأحتاج إلى مساعدتك لمنع إثارة فضول أيّ شخص من موظّفيك بشأن هذا الموضوع. أحتاج إلى ذلك النحاس، وأحتاج إليه في الوقت المحدّد، ولا يهمّني إذا كانوا سيعتقلونني في وقت لاحق، مادمتُ سأتجاوز ذلك الأمر. أعلم أنّك لم تعد تنشغل بشركتك وثروتك وعملك، لأنّك لا تهتمّ بالتعامل مع اللصوص من أمثال تاجارت وبويل. لكن إذا كنت تعني كلّ الأشياء التي علّمتني

إيّاها، وإذا كنتُ آخر رجل تحترمه، فستساعدني في البقاء على قيد الحياة وستمدّ لي يد العون في هذه الحرب التي أخوضها ضدّهم. لم أطلب قطّ مساعدة أيّ شخص وأنا أطلبها منكِ لأنّني بحاجة إليك. أنا أثق بك. لقد كنت دائمًا تعلن عن إعجابك بي. حسنًا، حياتي بين يديك، إذا كنت تريد مساعدتي. هناك طلبيّة من شركة دانكونيا للنحاس تشحن إليّ الآن. لقد غادرت سان خوان في الخامس من كانون الأوّل/ ديسمبر.

ـ ماذا؟!

لقد كانت صرخة صدمة عاديّة أطلقها فرانسيسكو نحو قدميه، لتجاوز أيّ محاولة لإخفاء أيّ شيء ثمّ قال: في الخامس من ديسمبر؟

ردّ ريردن بذهول: نعم.

ثمّ قفز فرانسيسكو إلى الهاتف. قلت لك لا تتعامل مع شركة دانكونيا للنحاس! لقد كانت صرخة يأس امتزج فيها الأنين بالغضب.

مدّ يده لرفع سمّاعة الهاتف، ولكنّه ترنّح إلى الخلف. فأدرك حافّة الطاولة، كما لو أنّه كان يوقف نفسه كي لا يرفع السمّاعة، وظلّ واقفًا ورأسه إلى الأسفل، لفترة طويلة لم يستطع هو ولا ريردن تحديدها. كان ريردن مخدّرًا من حقيقة مشاهدة صراع مؤلم لا يدلّ عليه إلّا هذا الجسد المتجمّد. لم يستطع تخمين طبيعة ذلك الصراع، بل كان يعلم فقط أنّ هناك شيئًا مّا يقدر فرانسيسكو على منعه في تلك اللحظة، وأنّه كان القوّة التي لن يستخدمها.

عندما رفع فرانسيسكو رأسه، رأى ريردن وجهًا تجذبه معاناة كبيرة إلى درجة أنّ خطوطه كانت تقريبًا تشبه صرخة ألمٍ مسموعة، بل وأكثر فظاعة لأنّ الوجه حمل نظرة من الحزم، كما لو أنّ القرار قد اتّخذ وكان ذلك هو ثمنه.

ـ فرانسيسكو ... ما خطبك؟

قال بنبرة يمتزج فيها اليأس والقوّة: هانك، أنا... سيّد ريردن، في الوقت الذي كنت

ستلعنني فيه، حين كنت تشكّك في كلّ كلمة قلتها... أقسم لك - باسم المرأة التي أحبّ - أنّني صديقك.

ذكرى وجه فرانسيسكو، كما بدا في تلك اللحظة، عادت إلى ريردن بعد ثلاثة أيّام، من خلال صدمة عمياء من الخسارة والكراهية. عادت، على الرغم من وقوفه بجانب الراديو في مكتبه. إذ اعتقد أنّ عليه الآن الابتعاد عن فندق واين فوكلاند وإلّا سيقتل فرانسيسكو دانكونيا بمجرّد أن يراه هناك. وما انفكّت هذه الذكرى تعود، من خلال الكلمات التي كان يسمعها. لقد بلغه أنّ السفن الثلاث، من شركة دانكونيا للنحاس، المتّجهة من سان خوان إلى نيويورك، تعرّضت لهجوم من قبل راجنار دانسكولد وتحوّلت إلى حطام في قاع المحيط. استمرّت الذكرى في العودة، على الرغم من علمه بأنّ ما خسره كان أكثر بكثير من النحاس الذي غرق مع تلك السفن.

الفصل الخامس

حساب من دون رصيد

كان ذلك أوّل فشل شهده تاريخ شركة ريردن للفولاذ. ولأوّل مرّة، لم يُسلَّم طلب على النحو الذي وعدت به. ولكن بحلول الخامس عشر من فبراير، تاريخ الموعد المقرّر لتسليم السكك الحديديّة لشركة تاجارت، لم يحدث ذلك الفشل أيّ فرق لأيّ شخص.

وحلّ فصل الشتاء في وقتٍ مبكّرٍ؛ في الأيّام الأخيرة من تشرين الثاني/ نوفمبر. وقال الناس إنّه أصعب فصل شتاء على الإطلاق وإنّه لا يمكن إلقاء اللوم على أحد بسبب شدّة العواصف الثلجيّة غير العادية. لم يهتمّوا بتذكّر وجود أوقاتٍ لم تجتحهم فيها العواصف الثلجيّة، طوال الطرق غير المضاءة بلا مقاومة، وعلى أسطح المنازل غير المدفّأة، ولم تشلّ حركة القطارات، ولم تترك أعقاب الجثث التي تعدُّ بالمئات.

وكانت أيضًا المرّة الأولى التي تأخّرت فيها شركة داناغر للفحم في توصيل الوقود إلى شركة تاجارت العابرة للقارّات، في الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر، وقد أوضح ابن عمّ داناغر أنّه لم يكن بوسعه تجنّب ذلك؛ وقال إنّه اضطرّ إلى خفض يوم العمل إلى ستّ ساعات، من أجل رفع معنويات الرجال الذين بدا عليهم أنّهم لم يكونوا يعملون بالمردوديّة نفسها التي عملوا بها أيّام كين ابن عمّه؛ وقال إنّ العمّال أصبحوا كسالى ومهملين، لأنّهم كانوا منهكين بسبب انضباط الإدارة السابقة القاسي؛ وقال إنّه لم يستطع أن يحول دون استقالة بعض المشرفين وكبار العمّال، أولئك الرجال الذين

عملوا بالشركة لمدّة تراوحت بين عشرة أعوام وعشرين عامًا؛ لم يستطع كذلك تجنّب بعض الاحتكاك بين عمّاله وموظّفي الإشراف الجدد، على الرغم من أنّ الرجال الجدد كانوا أكثر ليبراليّة من جلّادي العبيد القدامى. وقال إنّها مسألة إعادة تكييف فقط. وقد ذكر أنّه لا يستطيع المساعدة في ذلك، إذا كانت الحمولة المخصّصة لشركة تاجارت العابرة للقارّات قد سلّمت، عشيّة تسليمها المقرّرة، إلى مكتب الإغاثة العالميّة لشحنها إلى شعب دولة إنجلترا؛ لقد كان الأمر طارئًا، وكان شعب إنجلترا يتضوّر جوعًا، بعد أن أغلقت جميع مصانعهم، ولم تكن الآنسة تاجارت متعقّلة ولم تتفهّم أنّ المسألة مجرّد تأخير بيوم واحد فقط.

كان يومًا واحدًا فقط من التأخير، لكنّه تسبّب في ثلاثة أيّام تأخير في مدى عمل قطار الشحن رقم 386، الذي يربط كاليفورنيا بنيويورك ويوفّر لها إمدادات بتسعة وخمسين عربة من الخسّ والبرتقال. كان قطار الشحن رقم 386 ينتظر، وهو مركون على انحيازٍ في محطّات الفحم، الوقودَ الذي لم يصل. وحين وصل القطار إلى نيويورك، كان لا بدّ من إلقاء الخسّ والبرتقال في النهر الشرقيّ، لأنّ الشحنة انتظرت دورها لفترة طويلة ببيوت الشحن في كاليفورنيا، مع قطع جداول القطارات وإيقاف تشغيل المحرّكات، بتوجيه قانونيّ يضبط حجم القطار بعدم تجاوز ستّين عربة. لم يلاحظ أحدٌ باستثناء أصدقائهم وشركاء التجارة أنّ ثلاثة من مزارعي البرتقال في ولاية كاليفورنيا أنهوا أعمالهم التجاريّة وغادروا ذلك الميدان، فضلا عن مغادرة اثنين من مزارعي الخسّ في وايدي امبريال. ولا أحد أيضا لاحظ إغلاق مقرّ لجنة نيويورك لأنّها كانت مدينة بالكثير من المال لشركة السباكة، وبسبب تاجر الجملة الذي كان يزوّد تلك الشركة بأنابيب الرصاص. وقالت الصحف إنّه عندما كان الناس يتضوّرون جوعًا، لم يكن يتعيّن على المرء أن يشعر بالقلق إزاء إخفاقات الشركات التجاريّة التي كانت مجرّد مشاريع خاصّة أنشئت من أجل الربح والمصلحة الخاصّة.

ولم يصل الفحم الذي شحنه مكتب الإغاثة العالميّة عبر المحيط الأطلسيّ إلى دولة إنجلترا الشعبيّة، لأنّ راجنار استولى عليه.

في المرّة الثانية التي تأخّرت فيها شركة داناغر للفحم عن تسليم الوقود إلى شركة تاجارت العابرة للقارّات، منتصفَ كانون الثاني/ يناير، زمجر ابن عمّ داناغر عبر الهاتف قائلًا إنّه لم يستطع تجنّب ذلك، فمناجمه أغلقت لمدّة ثلاثة أيّام، بسبب نقص زيت التشحيم في الآلات. فتأخّر توريد الفحم إلى شركة تاجارت العابرة للقارّات مدّةَ أربعة أيّام.

ثمّ إنّ السيّد كوين، مالك شركة كوين لمحامل الكرات التي انتقلت سابقًا من ولاية كونيتيكت إلى ولاية كولورادو، انتظر قطار الشحن الذي كان ينقل طلبه من معدن ريردن لمدّة أسبوع. وعند وصول القطار، أُغلقت أبواب مصنع شركة كوين.

لم يتعقّب أحدٌ سبب إغلاق شركة المحرّكات في ولاية ميشيغان ، التي كانت تنتظر شحنةً من محامل الكرات، بينما كانت آلاتها خاملة، وعمّالها عاطلين وهم يتمتّعون بأجور كاملة؛ ولا تعقّب أحد سبب إغلاق المنشرة الشهيرة في ولاية أوريغون، التي انتظرت قدوم محرّك جديد لها؛ أو إغلاق ساحة الخشب في ولاية ايوا لأنّها تركت من دون إمدادات؛ أو إفلاس مقاول البناء في ولاية إلينوي الذي فشل في الحصول على خشبه في الوقت المحدّد، فوجد كلّ عقوده ملغاة واضطرّ مَن اشتروا منازلَه إلى التجوّل عبثًا في الطرق التي اجتاحتها الثلوج بحثًا عن تلك المنازل التي لم تعد موجودة في أيّ مكان.

ثمّ إنّ العاصفة الثلجيّة التي حلّت في نهاية كانون الثاني / يناير أغلقت الممرّاتِ عبر جبال روكي، وارتفع مستوى الثلج على الجدران البيضاء إلى علوّ ثلاثين قدمًا عبر الخطّ الرئيسيّ لشركة تاجارت العابرة للقارّات. وفي غضون الساعات القليلة الأولى من انطلاقهم في العمل، استسلم الرجال الذين حاولوا مسح المسار وتنظيفه، لقد انهارت الجرّافات الدوّارة واحدةً تلو أخرى. وتمّ الاحتفاظ بالجرّافات قيد الإصلاح والصيانة غير المستقرّة لمدّة عامين فقط من فترة استغلالها. ولم يتمّ تسليم الجرّافات الجديدة، لأنّ صانعها استقال وغادر بعد عجزه عن الحصول على الصلب الذي يحتاج إليه من شركة أورين بويل.

وحوصرت ثلاثة قطارات متّجهة غربًا في خطّ جانبيّ بمحطّة وينستون، في أعلى جبال روكي، حيث يعبر الخطّ الرئيسيّ لشركة تاجارت عبر الركن الشماليّ الغربيّ من ولاية كولورادو. وظلّت هناك طيلة خمسة أيّام، بعيدةً عن متناول أيّ مساعدة. لم تستطع القطارات الاقترابَ منها في زمن العاصفة. وتعطّلت آخر الشاحنات التي صنعها لورانس هاموند على الدرجات المتجمّدة من الطرق السريعة الجبليّة. لقد أُرْسِلَت أفضل الطائرات التي صنعها دوايت ساندرز في السابق، ولكنّها لم تبلغ محطّة وينستون؛ إذ اهترأت بعد مرحلة مجابهة العاصفة.

كان الركّاب المحاصرون على متن القطارات ينظرون إلى أضواء أكواخ مدينة وينستون من خلال أمواج الثلوج المتشابكة. لكنّ الأضواء اختفت في ليلة اليوم الثاني وبحلول مساء اليوم الثالث، كانت الأضواء والحرارة والأطعمة قد وزّعت على متن القطارات. وفي فترات هدوء العاصفة القصير، عندما اختفت تلك الشبكة البيضاء وتركت وراءها سكونًا باهتًا أسود يدمج أرضًا بلا ضوء بسماء بلا نجوم، كان بإمكان الركّاب رؤية لسان صغير من اللهب يترنّح في مهبّ الريح على بعد أميال عديدة باتّجاه الجنوب. إنّها شعلة آبار وايت للنفط.

وبحلول صباح اليوم السادس، عندما تمكّنت القطارات من التحرّك وشرعت تجوب منحدرات ولايات يوتا، ونيفادا، وكاليفورنيا، لاحظ قادة القطارات المداخن الخامدة والأبواب المغلقة لمصانع السكك الجانبيّة الصغيرة، التي لم تكن مغلقة في آخر جولة لهم.

حينها، كتب الصحفيّ بيرترام سكودر: العواصف هي فعل مقدّر من الله، ولا يمكن أن نحمّل أيّ شخص المسؤوليّة الاجتماعيّة عن الطقس.

وقد سمحت حصص الفحم، التي أنشأها ويسلي ماوتش، بتدفئة المنازل لمدّة ثلاث ساعات في اليوم. ولم يكن هناك خشب ليحرق، ولا معدن لصنع مواقد جديدة، ولا أدوات لاختراق جدران المنازل لتجهيزها بالمنشآت الجديدة. وكبدائل مؤقّتة لبدع صنعت من الآجر والعلب الزيتيّة، اضطرّ الأساتذة إلى حرق كتب مكتباتهم، وأحرق

مزارعو الفاكهة أشجار بساتينهم بحثًا عن الدفء. فكتب بيرترام سكودر: الحرمان يعزّز روح الشعب، ويصوغ الفولاذ الناعم للانضباط الاجتماعيّ. فالتضحية هي الإسمنت الذي يوحّد الطوب البشريّ في الصرح العظيم للمجتمع.

وقال فرانسيسكو دانكونيا في مقابلة صحفيّة: إنّ الأمّة التي كانت تمسك ذات يوم بالعقيدة القائلة إنّ العظمة تتحقّق بالإنتاج، يقال لها الآن إنّها تتحقّق عن طريق القذارة، ولكنّ مثل هذا الكلام لم يُنْشَر.

أمّا الازدهار الوحيد في الأعمال التجاريّة، في ذلك الشتاء، فشهدته صناعة الملاهي والترفيه. إذ انتزع الناس قروشهم من الرمال المتحرّكة لميزانيّاتهم الغذائيّة وبحثوا عن الدفء، وكذا ضحّوا بوجباتهم من أجل الاحتشاد في دور السينما، ومن أجل الهروب لبضع ساعات من الحالة الحيوانيّة التي أنزلتهم إلى الدرك الأسفل قصد تحقيق مشغل وحيد أرعبهم هو الاستجابة إلى احتياجاتهم الفظّة. وفي كانون الثاني/ يناير، أُغلقت جميع دور السينما والنوادي الليليّة وصالات البولينغ بأمرٍ من ويسلي ماوتش، لغرض الحفاظ على الوقود. فكتب بيرترام سكودر: المتعة ليست ضروريّة للوجود.

وقال الدكتور سيمون بريتشيت لطالبة شابّة انهارت في موجة من التنهّدات الهستيريّة المفاجئة في منتصف المحاضرة: يجب أن تتعلّمي اتّخاذ موقف فلسفيّ. كانت الفتاة قد عادت لتوّها من بعثة للمتطوّعين لإغاثة مستوطنة تقع على ضفاف البحيرة العليا؛ وقد رأت أمًّا تحمل جثّة ابنها الذي مات جوعا. فقال الدكتور بريتشيت: لا وجود لأشياء مطلقة، والواقع ليس سوى وهمٍ. فكيف عرفت تلك المرأة أنّ ابنها مات؟ وكيف تعرف أنّه كان موجود أصلا؟

وازدحم الناس ذوو العيون المتوسّلة والوجوه اليائسة في الخيام، حيث بكى الإنجيليّون، في شماتة مظفّرة بأنّ الإنسان غير قادر على التعامل مع الطبيعة، وأنّ علمه كان مجرّد زيف، وأنّ عقله فاشلٌ، وأنّه كان يحصد العقاب على خطيئة الكبرياء، لثقته في فكره الخاصّ، وأنّ الإيمان بقوّة الأسرار الصوفيّة وحدَه يستطيع أن يحميه من تشقّق السكك الحديديّة أو من انفجار آخر إطار بعجلات شاحنته الأخيرة. فصرخوا بأنّ

الحبّ هو مفتاح الأسرار الصوفيّة، ونادوا بالحبّ والتضحية ونكران الذات من أجل احتياجات الآخرين.

لقد ضحّى أورين بويل، في تعبير عن نكران الذات لتلبية احتياجات الآخرين، إذ باع عشرة آلاف طن من الأشكال الفولاذيّة الهيكليّة التي كانت مخصّصة للسكك الحديديّة لشركة جنوب المحيط الأطلسيّ إلى مكتب الإغاثة العالميّة، وشحنها إلى شعب ألمانيا. كان قرارا صعبا، ذلك ما قاله بنظرة ناعمة باهتة صائبة، لرئيس شركة جنوب المحيط الأطلسيّ المنكوب والمذعور. ولكنّني قدّرت حقيقة أنّ شركتهم غنيّة، في حين أنّ شعب ألمانيا يُعاني حالة من البؤس لا توصف. لذلك تصرّفت وفقًا لمبدإ أنّه ينبغي أن نضع الحاجة الملحّة على رأس كلّ الأولويّات. وفي حالة الشكّ، يجب أخذ الضعفاء بعين الاعتبار أكثر من الأقوياء. وكان رئيس شركة جنوب المحيط الأطلسيّ قد سمع بأنّ صديق أورين بويل الأكثر قيمةً في واشنطن له صديق بوزارة التموين في الدولة الألمانيّة. ولكن سواء أكان ذلك هو دافع بويل أم مبدأ التضحية، فلا أحد يستطيع الجزم، ولم يكن هناك أيّ فرق: فلو كان بويل قدّيسًا مؤمنا بعقيدة نكران الذات، لكان عليه أن يفعل بالضبط ما فعله. هذا ما أسكت رئيس شركة جنوب الأطلسيّ؛ فلم يتجرّأ على الاعتراف بأنّه يهتمّ لأمر سككه الحديديّة أكثر من الاهتمام بشعب ألمانيا؛ ولم يتجرّأ على فتح جدال ضدّ مبدإ التضحية.

كانت مياه نهر المسيسيبي ترتفع طوال شهر يناير، فازداد منسوبها بسبب العواصف، وقد دفعتها الرياح نحو تيّار طاحن لا يهدأ في مواجهة تيّار آخر وكلّ ما يعرقل سبيلهم. وفي ليلة من الأمطار الثلجيّة في الأسبوع الأوّل من شباط/ فبراير، انهار جسر نهر المسيسيبي في جنوب المحيط الأطلسيّ تحت قطار ركّاب. فسقطت قاطرة المحرّك وأوّل خمس عربات إلى أسفل، وانهارت معها العوارض داخل إعصار أسود مائيّ امتدّ على مسافة ثمانين قدمًا. ولم يصمد في القناطر الثلاث الأولى من الجسر سوى عربات قليلة.

لا يمكنك الحصول على الكعكة الخاصّة بك والسماح لجارك بأكلها أيضًا، قال فرانسيسكو دانكونيا. وكان غضب التنديدات التي أطلقها أصحاب الأصوات العامّة

ضدّه أكبر من قلقهم من الرعب الذي وقع في النهر.

وقد ذاع الخبر بأنّ كبير سائقي قطار شركة جنوب المحيط الأطلسيّ، بعد أن تملّكه اليأس من فشل الشركة في الحصول على الصلب الذي تحتاج إليه في تعزيز الجسر، قد استقال قبل ستّة أشهر، وقال للشركة إنّ الجسر غير آمنٍ. وقد كتب رسالةً إلى أكبر صحيفة في نيويورك، محذّرًا الجمهور من ذلك؛ لكنّ الرسالة لم تنشر. وكذا ذاع الخبر بأنّ القناطر الثلاث الأولى من الجسر قد صمدت لأنّها عُزِّزت بدعائم هيكليّة من معدن ريردن؛ ولكن خمسمائة طن من المعدن كانت هي كلّ ما يمكن لشركات السكك الحديديّة الحصول عليه بموجب قانون الحصّة العادلة.

وقد أفضت النتيجة الوحيدة للتحقيقات الرسميّة إلى إدانة جسرين عابرين لنهر المسيسيبي، ينتميان إلى خطوط سكك حديديّة أصغر. أحد الخطوط لم يعد يعمل، أمّا الأخرى فقد أغلقت الخطّ الفرعيّ، وحطّمت سكّته واتّخذت مسارًا إلى جسر المسيسيبي من شركة تاجارت العابرة للقارّات؛ وكذلك فعلت شركة جنوب الأطلسيّ.

لقد بُنِي جسر تاجارت العظيم في قرية بيدفورد، من ولاية إلينوي من قبل ناثانيل تاجارت. وكان قد حارب الحكومة لسنوات، لأنّ المحاكم، بناءً على شكوى من الشاحنين عبر النهر، حكمت بأنّ السكك الحديديّة منافسةٌ مدمّرة للشحن بالسفن، وهكذا فهي تمثّل تهديدًا للصالح العامّ، وبأنّ جسور السكك الحديديّة عبر المسيسيبي ممنوعة لأنّها تمثّل معرقلًا ماديًّا. فأمرت المحاكم ناثانيل تاجارت بهدم جسره وحمل ركّابه عبر النهر عن طريق العبّارات. وفي تلك المعركة فاز بأغلبيّة صوت واحدٍ في المحكمة العليا. ويمثّل جسره الآن الرابط الرئيسيّ الوحيد المتبقّي للحفاظ على طرفي القارّة معًا. وقد سنّ سليله الأخير أكثر المبادئ صرامة في الشركة وهو أنّه يمكن إهمال أيّ شيء آخر، باستثناء جسر تاجارت، لأنّه سيحافظ دائمًا على شكله الخالي من العيوب.

لم يصل الفولاذ الذي شحنه مكتب الإغاثة العالميّة عبر المحيط الأطلسيّ إلى شعب

ألمانيا. فقد استولى عليه راجنار، لكن لم يسمع بالخبر أيّ أحد من خارج المكتب، لأنّ الصحف توقّفت منذ فترة طويلة عن ذكر أنشطة راجنار.

ولم يبدأ الناس في طرح الأسئلة وسماع الإشاعات إلّا بعد أن بدأ الجمهور يلاحظ النقص المتزايد، ثمّ الاختفاء النهائيّ من الأسواق لأجهزة من قبيل المكاوي الكهربائيّة والمحمّصات والغسّالات وجميع الأجهزة الكهربائيّة. وسمعوا أنّه لم تتمكّن أيّ سفينة محمّلة بنحاس شركة دانكونيا من الوصول إلى أيّ ميناء بالولايات المتّحدة الأمريكيّة؛ ولم تستطع النجاة من قراصنة راجنار.

وفي إحدى ليالي الشتاء الضبابيّة، وعلى الواجهة البحريّة، كان البحّارة يتهامسون فيما بينهم بأنّ راجنار يستولي دائما على شحنات سفن الإغاثة، ولكن لم يسبق أن لمس شحنات النحاس. كان يغرق سفن دانكونيا بحمولاتها ويترك الطواقم تهرب في قوارب النجاة، فيستقرّ النحاس إلى قاع المحيط. وقد أذاع البحّارة أنّ ذلك الرجل يمثّل أسطورةً مظلمة تتجاوز قدرة الرجال على تفسيرها، ولكن لا أحد استطاع أن يجد سببًا يفسّر عدم استيلاء راجنار على النحاس.

وفي الأسبوع الثاني من شباط/ فبراير، ولغرض حفظ الأسلاك النحاسيّة والطاقة الكهربائيّة، منع توجيه تشغيل المصاعد فوق الطابق الخامس والعشرين. وكان لا بدّ من إخلاء الطوابق العليا من المباني، وبقيت ألواح غير مطليّة لقطع السلالم. وبموجب تصريح خاصّ، تمّ منح استثناءات على أساس الحاجة الأساسيّة لعدد قليل من المؤسّسات التجاريّة الكبرى والفنادق الأكثر حداثة. وقُطِع الاتّصال بقمم المدن.

لم يكن سكّان نيويورك على بيّنة من أحوال الطقس. فكانت العواصف مجرّد مصدر إزعاج أدّى إلى إبطاء حركة المرور وتكوين البرك في مداخل المحلّات التجاريّة المضاءة ببهاءٍ. ومشى الناس وهم يواجهون الرياح، مرتدين معاطف المطر والفراء والنعال المسائيّة، وشعروا بأنّ العاصفة كانت مثل عنصر دخيل على المدينة. وفي مواجهة هبوب الثلوج التي اجتاحت الشوارع الضيّقة، شعر الناس برعب خافت أنّهم كانوا هم الدخلاء المؤقّتين وأنّ الرياح لديها الحقّ الكامل في الطريق.

لن يحدث ذلك أيّ فرق بالنسبة إلينا الآن، دعك من ذلك الأمر يا هانك، لا يهمّ، هذا ما قالته داغني عندما أخبرها ريردن بأنّه لم يكن قادرًا على تسليم السكك الحديديّة في موعدها. وقال إنّه لم يتمكّن من العثور على مورّد للنّحاس. انس الأمر يا هانك، فلم يجبها. لم يستطع نسيان أنّ هذا الأمر هو الفشل الأوّل لشركة ريردن للفولاذ.

وفي مساء الخامس عشر من فبراير، تصدّعت لوحة بمفصل السكك الحديديّة فتسبّبت في خروج قاطرة المحرّك عن المسار، على بعد نصف ميل من محطّة مدينة وينستون، بولاية كولورادو، من قسم كان من المقرّر أن يعاد مدّه بسكك حديديّة جديدة. فتنهّد وكيل محطّة وينستون وأرسل في طلب طاقم مع رافعة؛ كان ذلك حادثًا واحدًا من بين حوادث كثيرة بسيطة كانت تقع في قسمه كلّ يومين أو أقلّ، لذلك صار متعوّدًا على مواجهة مثل هذه الحوادث.

في ذلك المساء، رفع ريردن طوق معطفه، وأمال قبّعته المنخفضة فوق عينيه، والثلوج تنجرف وترتفع إلى ركبتيه. كان يتسكّع داخل منجم فحم مهجور، بسبب حضوره الاضطراريّ إلى ولاية بنسلفانيا، للإشراف على تحميل الفحم المختلس في الشاحنات التي وفّرها. لم يكن أحدٌ يملك المنجم، ولا أحد يستطيع تحمّل تكلفة العمل به. لكنّ شابًّا بصوت فظّ وعينين غاضبتين داكنتين، جاء من مستوطنة أصابتها المجاعة، نظّم عصابة من العاطلين عن العمل وعقد صفقة مع ريردن لتسليم الفحم. كانوا ينقّبون ليلًا، ويخزّنون الفحم في قنوات خفيّة، ويتقاضون رواتبهم نقدًا. كانوا هم وريردن يتاجرون بدافع رغبة شرسة في البقاء على قيد الحياة، كانوا يعقدون صفقات من دون عقود أو حماية، ودون أيّ شيء آخر سوى التفاهم المتبادل والمراعاة المطلقة التي لا ترحم حتّى أدنى كلمة واحدة معيّنة. لم يكن ريردن يعرف حتّى اسم ذلك الزعيم الشابّ. كان يراقبه أثناء مهمّة تحميل الشاحنات، وفكّر في أنّ ذلك الصبيّ لو ولد قبل جيل آخر، لكان صناعيًّا كبيرًا؛ لكنّه، وهو على هذا الوضع الآن، قد ينهي حياته القصيرة كمجرم عاديّ في بضع سنوات أخرى.

وفي ذلك المساء، كانت داغني حاضرة في اجتماع مجلس إدارة شركة تاجارت. لقد

جلسوا حول طاولة مصقولة في غرفة المجلس التي لم تكن دافئة بشكل كافٍ. إنّهم الرجال الذين استندوا في أمنهم، لعقود من حياتهم المهنيّة، إلى الحفاظ على وجوههم خاليةً من التعبير، بكلمات غير حاسمة وملابس لا تشوبها شائبة، ملقاة خارج البلوزات الممتدّة على بطونهم، وبشالات حول رقابهم مثل الجروح، وبصوت سعالهم الذي قطع حديثهم خلال المناقشة في أحيان كثيرة مثل حشرجة مدفع رشاش.

لاحظت داغني أنّ جيم فقد سلاسة أدائه المعتاد. فقد جلس ورأسه منجذب إلى كتفيه، وظلّت عيناه تندفعان بسرعة كبيرة لتتحوّلا من وجه إلى آخر.

جلس رجل من واشنطن بينهم على الطاولة نفسها. لم يكن أحد يعرف وظيفته أو لقبه بالضبط، ولكن لم يكن ذلك ضروريًّا، فهم يعرفون أنّه ذراعهم اليمنى في واشنطن. كان اسمه السيّد ويذربي، ولديه صدغ رماديّ، ووجه طويل حادّ وفمٌ يبدو كما لو أنّه يُضطَرّ إلى تمديد عضلات وجهه من أجل إبقائه مغلقًا؛ لقد أعطى ذلك الفم إيحاءً بالبدائيّة على ملامح وجهه. لم يعرف المديرون ما إذا كان حاضرًا بوصفه ضيفًا أو مستشارا أو مسيّرًا للمجلس؛ بل إنّهم فضّلوا عدم معرفة ذلك.

قال الرئيس: أظنّ أنّ المشكلة الرئيسيّة التي تواجهنا هي أنّ مسار خطّنا الرئيسيّ يبدو في حالة يرثى لها، كي لا أقول حرجة..

وتوقّف عن الكلام، ثمّ أضاف بحذرٍ: في حين أنّ السكك الحديديّة الجيّدة الوحيدة التي نملكها هي جون جالت، أعني خطّ ريونورتي

وبنفس نبرة الانتظار الحذر من أن يلتقط شخص آخرُ المعنى المقصود من كلماته، قال رجل آخر:

ـ إذا أخذنا نقصنا الحادّ في المعدّات بعين الاعتبار، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّنا سندع تلك المعدّات تهلك في خدمة خطّ فرعيّ يعمل بالخسارة..

ثم توقّف ولم يذكر ما سيحدث إذا فكّروا في ذلك الأمر. ثمّ قال رجل شاحب ونحيف وذو شارب أنيق:

ـ يبدو أنّ خط ريونورتيي أصبح عبئًا ماليّا قد لا تكون الشركة قادرة على تحمّله.. أعني، إلّا إذا أُجرِيت بعض التعديلات التي..

توقّف عن الكلام، ونظر إلى السيّد ويذربي الذي بدا كما لو أنّه لم يلاحظ الأمر.

قال رئيس مجلس الإدارة: أعتقد، يا جيم، أنّك تستطيع توضيح الصورة أكثر للسيّد ويذربي.

لا يزال صوت تاجارت يحتفظ بنعومة الأداء، ولكنّها كانت تشبه نعومة قطعة من القماش امتدّت بإحكام على جسم زجاجيّ مكسور، فأظهرت حوافّه الحادّة:

ـ أعتقد أنّ من المتعارف عليه بشكل عامّ أنّ العامل الرئيسيّ الذي يؤثّر في كلّ شركة للسكك الحديديّة بالبلاد هو المعدّل غير العاديّ للإخفاقات التجاريّة. هذا إذا أدركنا جميعًا أنّه أمر مؤقّت، لكن مادام هذا الأمر مستمرًّا حتّى الوقت الراهن، فإنّ ذلك سيجعل حالة السكك الحديديّة تقترب من مرحلة يمكن وصفها بأنّها يائسة. وعلى وجه التحديد، فإنّ عدد المصانع التي أغلقت في جميع أنحاء أراضي نظام شركة تاجارت العابرة للقارّات كبير إلى درجة أنّه دمّر هيكلنا الماليّ بأكمله. فالمناطق والتقسيمات التي كانت دائمًا تجلب لنا عائداتنا الأكثر ثباتًا، تظهر الآن خسارة تشغيليّة فادحة. ولا يمكن الحفاظ على جدول زمنيّ للقطارات موجّهٍ إلى حجم كبير من الشحن في خصوص ثلاثة شاحنين، والحال أنّهم كانوا في السابق سبعة. ولا يمكننا، على الأقلّ، أن نقدّم لهم الخدمة نفسها... ليس وفق... رسومنا الحاليّة.

ثمّ ألقى نظرة خاطفة على السيّد ويذربي، لكنّ هذا الثاني لم يبدُ منتبها إليه. ثمّ قال تاجارت، بنبرة حادّة:

ـ يبدو لي أنّ ما اتّخذه شاحنونا موقفٌ غير عادل. لقد اشتكى معظمهم من منافسيهم وأقرّوا إجراءات محلّيّة مختلفة للقضاء على المنافسة في مجالاتهم الخاصّة. الآن، معظمهم يمتلكون أسواقهم الخاصّة، ومع ذلك يرفضون أن ندرك أنّ السكك الحديديّة لا يمكنها أن تعطي مصنعًا وحيدًا أسعارَ الشحن التي جعلت نقل إنتاج منطقة بأكملها

أمرًا ممكنًا. نحن نذير قطاراتنا لهم بالخسارة، ومع ذلك اتّخذوا موقفًا ضدّ أيّ... رفع في نسب الرسوم.

قال السيّد ويذربي بلطف، وبتقليد جيّد لدهشة جيم: ضدّ أيّ رفع؟ أكان هذا فعلا الموقفَ الذي اتّخذوه!

قال الرئيس بنبرة تضجّ ذعرًا: إذا صحّت بعض الشائعات، التي أرفض ائتمان جانبها.

قال السيّد ويذربي بسرور: أعتقد، يا جيم، أنّه سيكون من الأفضل لنا ألّا نكتفي بذكر موضوع رفع نسب الرسوم.

ردّ تاجارت على عجل: لست بصدد اقتراح زيادة فعليّة في هذا الوقت.. لقد أشرت إليها فقط لتقريب الصورة.

قال رجل طاعن في السنّ بصوت مرتعش: ولكن يا جيم، اعتقدت أنّ براءتك، أعني صداقتك مع السيّد ماوتش سوف تؤمّن...

وتوقّف عن الحديث، لأنّ الآخرين كانوا ينظرون إليه بحدّة، لتوبيخه على خرق قانون غير مكتوب: على المرء ألّا يذكر فشلا من هذا النوع، وألّا يناقش الطرق الغامضة لصداقات جيم القويّة أو سبب فشلها.

قال السيّد ويذربي بأسلوب بسيط وسهل: الحقيقة هي أنّ السيد ماوتش أرسلني إلى هنا لمناقشة طلب نقابات السكك الحديديّة الزيادةَ في الأجور ومطالبة الشاحنين بخفض نسب رسومهم.

قال ذلك بنبرة حازمة، وإن كان يعلم أنّ كلّ هؤلاء الرجال يعرفون ذلك الأمر، وأنَّ المطالب قد نوقشت في الصحف لعدّة أشهر؛ ولكنّه يعلم أنّ مصدر الرهبة في عقول هؤلاء الرجال لا يكمن في الحقيقة التي يعلمونها، ولكن في تسميتها، كما لو أنّ الحقيقة لم تكن موجودة، ولكنّ كلماته حملت سلطةً لتجعلها موجودة. كان يعلم أنّهم ينتظرون لمعرفة ما إذا كان سيمارس تلك السلطة؛ فجعلهم يعلمون أنّه سيفعل ذلك.

كان وضعهم يستدعي صيحات الفزع والاحتجاج؛ لكن لم يحدث أيّ شيء من ذلك؛ ولم يجبه أحد. ثمّ قال جيمس تاجارت بنبرة عصبيّة تهدف إلى نقل الغضب، لكنّها أوحت فقط بعدم اليقين:

ـ لن أبالغ في ذكر أهمّيّة السيّد بازي واتس من المجلس الوطنيّ للشاحنين. لقد أحدث الكثير من الجلبة وقدّم الكثير من مآدب العشاء الباهظة الثمن في واشنطن، لكنّني لا أنصح بأخذ الأمر على محمل الجدّ.

قال السيّد ويذربي: أوه، أنا لا أعلم ذلك.

ـ اسمع يا رجل، أعلم أنّ ويسلي رفض رؤيته في الأسبوع الماضي.

ـ هذا صحيح. ويسلي رجل مشغول جدًّا.

ـ وأنا أعلم أنّ جين لوسون حين أقام تلك الحفلةَ الكبيرة قبل عشرة أيّام، وحضر الجميع هناك بالفعل، لم يستدع بازي واتس.

قال السيّد ويذربي بهدوء: هذا ما عليه الأمر إذَن.

ـ لذلك لن أراهن على السيّد بازي واتس. ولن أدعه يقلقني.

قال السيّد ويذربي: ويسلي رجل محايد، رجل يكرّس عمله للواجب العامّ. إنّه يضع مصالح البلاد فوق أيّ اعتبار آخر.

ثمّ نهض تاجارت؛ لقد كان ذلك البيان من أسوإ علامات الخطر التي واجهها. ثمّ أضاف ويذربي:

ـ يا جيم، لا أحد يستطيع أن ينكر أنّ ويسلي يكنّ لك تقديرًا خاصّا، لأنّك رجل أعمال مستنير، ومستشار قيّم وأحد أقرب أصدقائه الشخصيّين.

فتوجّهت عينا تاجارت إليه بسرعة، كان الأمر لا يزال ينذر بالسوء.

ـ لكن لا أحد يستطيع أن يقول إنّ ويسلي سيتردّد في التضحية بمشاعره وصداقاته الشخصيّة، حين يتعلّق الأمر برفاه عامّة الناس.

ظلّ وجه تاجارت خاليًا؛ وسبب رعبه كان متأتّيًا من الأشياء التي لم يسمح لها بأن تصل إلى التعبير عبر الكلمات أو عبر تقاسيم عضلات وجهه. كان رعبه متأتّيًا من كفاحه ضدّ فكرة غير مُعتَرَف بها، فقد لخّص هو نفسه الشعب لفترة طويلة وفي كثير من القضايا المختلفة، إلى درجة أنّه كان يعلم ما يعنيه إذا نقل هذا العنوان السحريّ وذلك اللقب المقدّس الذي لم يجرؤ أحد على معارضته، بالإضافة إلى رفاهيته، إلى شخص بازي واتس.

سأله جيمس تاجارت: أنت لا تعني أنّني أقدّم مصالحي الشخصيّة على الرفاه العامّ، أليس كذلك؟

ردّ السيّد ويذربي: بالطبع لا، بالتأكيد لا. ليس أنت يا جيم من يقدّم مصالحه الخاصّة على حساب مصالح الناس. فموقفك العامّ وتفهّمك للظروف معروفان بشكل جيّد. لهذا السبب يتوقّع ويسلي أن تنظر إلى كلّ جانب من جوانب الصورة.

أجابه تاجارت وكأنّه وقع في الفخّ: نعم، بالطبع.

ـ حسنًا، فلننظر أوّلًا إلى موقف النقابات من ذلك الأمر. ربّما ليس بوسعك أن تقدّم أيّ زيادة، ولكن كيف يمكن أن يعيش العمّال في وقت بلغت فيه تكلفة المعيشة مستويات قياسيّة؟ يجب أن يأكلوا، أليس كذا؟ ويأتي ذلك أوّلًا، ولا نملك خيارًا، إمّا السكك الحديديّة وإمّا فلا.

كان في نبرة السيّد ويذربي نوعٌ من الصواب الحكيم، كما لو أنّه يتلو الصيغة المطلوبة لنقل معنى آخر واضح لهم جميعا؛ لقد كان ينظر مباشرة إلى تاجارت، في تركيز خاصّ وغير معلن. ثمّ أضاف:

ـ يوجد ما يناهز مليون عضو في نقابات السكك الحديديّة، ويعيلون جميعا عائلاتهم وأقاربهم الفقراء.. فمن منّا ليس لديه أقارب فقراء هذه الأيّام؟ ويصل عدد الأصوات إلى حوالي خمسة ملايين صوت، أعني شخصًا. وعلى ويسلي أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار وأن يفكّر في نفسيّاتهم. وبعد ذلك، ينظر في أمر عامّة الناس. لقد حُدّدت

الأسعار التي تتقاضونها في وقت كان فيه الجميع يجنون المال. ولكن حسب الطريقة التي تسير بها الأمور الآن، فقد أصبحت تكلفة النقل عبئًا لا يستطيع أحد تحمّله. فالناس يشتكون بشأن هذا الموضوع في جميع أنحاء البلاد.

وأخذ يتطلّع مباشرة إلى تاجارت الذي لم يكد ينظر إليه، ثمّ استرسل في الكلام:

ـ يوجد الكثير منهم وبأعداد فظيعة يا جيم. إنّهم ليسوا سعداء في الوقت الحاليّ بشأن هول أشياء كثيرة. وأيّ حكومة من شأنها أن تخفض رسوم السكك الحديديّة ستجعل أناسا كثيرين ممتنّين لها.

كان ردّ الصمت يشبه حفرة عميقة إلى درجة أنّه لا يمكن سماع أيّ صوت من الأشياء تنهار وصولا إلى قاعها. ويعلم تاجارت، كما علموا جميعًا، أنّ أيّ دافع مغرض من شأنه جعل السيّد ماوتش مستعدًّا دائمًا للتضحية بصداقاته الشخصيّة.

خيّم الصمت على داغني وهيمنت عليها حقيقة أنّها لا تريد قول ذلك، فقد جاءت إلى هنا مصمّمة على عدم الكلام، ولكنّها لم تستطع مقاومة الأمر فأطلقت صوتًا قاسيًا جدًّا:

ـ ألم تحصلوا أيّها السادة على كلّ ما كنتم تطالبون به خلال كلّ هذه السنوات؟

كانت السرعة التي انتقلت بها عيونهم إليها إجابةً غير طوعيّة على صوت غير متوقّع، ولكنّ السرعة التي تحرّكوا بها بعيدًا للنظر إلى الطاولة، والجدران، وأيّ مكان باستثنائها، كانت الإجابة الواعية على معنى تلك الأصوات.

وفي صمت اللحظة الموالية، شعرت باستيائهم مثل النشاز الذي يثخن هواء القاعة. كانت تعلم أنّ استياءهم لم يكن موجّهًا إلى السيّد ويذربي، ولكن ضدّها شخصيًّا. كان بوسعها تحمّل ذلك الاستياء لو أنّهم لم يجيبوا على سؤالها، ولكنّ ما جعلها تشعر بضيق مقزّز طال معدتَها هو التظاهر بتجاهلها، ثمّ الإجابة وفق الطريقة الخاصّة بهم.

قال الرئيس، من دون أن ينظر إليها، وبصوتٍ غير ملتزم وعلنيّ لكنّه في الآن نفسه هادف بشكل عامّ: لقد سار الأمر على ما يرام، وكان من شأن كلّ شيءٍ أن يعمل على

ما يرام، لولا الأشخاص الخطأ في مواقع السلطة، من أمثال بازي واتس وتشيك موريسون.

قال الرجل النحيف ذو الشارب: أوه، أنا لست قلقًا بشأن تشيك موريسون، فهو بالفعل لا يملك أيّ اتّصالات على مستوى أعلى. تينكي هو لواي هو السمّ.

ردّ رجل بدين كان بينهم يرتدي شالًا أخضر حول رقبته: لا أرى أنّ الصورة بهذه القتامة. فكلّ من جودنفي وباد هازلتون قريبان جدًّا من ويسلي، وإذا كان تأثيرهما هو السائد، فسنكون على ما يرام. ومع ذلك، فإنّ كيب تشالمرز وتينكي هو لواي يمثّلان خطرًا كبيرًا.

قال تاجارت: يمكنني أن أتكفّل بأمر كيب تشالمرز.

في القاعة، كان السيّد ويذربي هو الشخص الوحيد الذي لم يمانع في النظر إلى داغني، ولكنّه كلّما وقعت نظراته عليها لا يلاحظ أيّ شيء، كما لو أنّها كانت في القاعة الشخصَ الوحيدَ الذي لم يره.

قال السيّد ويذربي، وهو يحدّق في تاجارت: أعتقد أنّك تستطيع تقديم معروف للسيّد ويسلي.

ـ السيّد ويسلي يعرف أنّه يستطيع الاعتماد عليّ دومًا.

ـ حسنًا، فكرتي هي التالية: إذا رفعتم في الأجور كما طالبت بذلك النقابات، فقد نتخلّى عن مسألة خفض الرسوم في الوقت الحاليّ.

ردّ تاجارت بنبرة تشبه الصراخ: لا أستطيع فعل ذلك! لقد اتّخذ التحالف الوطنيّ للسكك الحديديّة موقفًا بالإجماع ضدّ الزيادة في الأجور والتزم كلّ عضوٍ بهذا القرار.

قال السيّد ويذربي بهدوء: هذا هو بالضبط ما أعنيه، فويسلي يحتاج إلى دقّ إسفين في موقف التحالف. فإذا خرجت شركة للسكك الحديديّة مثل شركة تاجارت العابرة للقارّات عن هذا الإجماع، فإنّ الشركات الأخرى ستحذو حذوها. وإذا فعلت ذلك فستساعد السيّد ويسلي كثيرًا، وهو سيقدّر ذلك كثيرًا.

ـ لكن، بربّك يا رجل! سأكون بهذا عرضة لمساءلة المحكمة وفقًا لقواعد التحالف!

ـ ابتسم السيّد ويذربي: أيّ محكمة؟ دع ويسلي يتكفّل بهذا الأمر.

ـ لكن اسمع يا رجل، نحن نعلم جيّدا أنّنا لا نستطيع تحمّل أيّ زيادة في الأجور!

ردّ السيّد ويذربي بتجاهل: هذه مشكلة عليك أن تحلّها.

ـ كيف أستطيع حلّها؟

ـ لا أعلم، تلك هي وظيفتك، وليست وظيفتنا. فأنت لست بحاجة إلى الحكومة كي تشير عليك بكيفيّة تسيير السكك الحديديّة الخاصّة بك، أليس كذلك؟

ـ لا، بالطبع لا! ولكن..

ـ مهمّتنا هي فقط أن نرى الناس يحصلون على أجور عادلة ووسائل نقل لائقة. وعليك أن تتولّى زمام الأمور. ولكن، بطبيعة الحال، إذا كنت تقول إنّك لا تستطيع القيام بهذه المهمّة، لماذا إذَن..

ـ صرخ تاجارت على عجل: لم أقل ذلك.. لم أقله على الإطلاق!

ردّ السيد ويذربي بسرور: جيّد، فنحن نعلم أنّك تملك القدرة على إيجاد طريقة للقيام بذلك.

كان السيّد ويذربي ينظر إلى تاجارت؛ الذي كان من جهته ينظر إلى داغني. قبل أن يضيف:

ـ حسنًا، لقد كانت مجرّد فكرة... هي مجرّد فكرة، ولك أن تدرسها أكثر. فأنا مجرّد ضيف هنا ولا أريد التدخّل في شؤونكم الداخليّة. لقد كان الغرض من هذا الاجتماع هو مناقشة وضع... الخطوط الفرعيّة في ما أعتقد؟

ردّ رئيس المجلس متنهّدًا: نعم، لكم الكلمة الآن، فإذا كان لدى أيّ شخص اقتراح بنّاء فليقدّمه...

لكن لا أحد أدلى بأيّ اقتراح، فأضاف:

ـ أعتقد أنّ الصورة واضحة للجميع.. يبدو أنّ من الثابت لدينا أنّنا لا نستطيع الاستمرار في تحمّل نفقات تشغيل بعض خطوط فروعنا... وخطّ ريونورتيي على وجه الخصوص... وهكذا، يبدو أن هناك شكلًا من أشكال العمل يجب أن نقوم به...

ـ قال الرجل النحيف ذو الشارب بصوت واثق على نحوٍ غير متوقّع: أعتقد أنّنا يجب أن نسمع الآن رأي الآنسة تاجارت.

وانحنى إلى الأمام بنظرة بارعة من الأمل المشرق. وبما أنّ داغني لم تجبه، بل اكتفت بالالتفات إليه، سألها: ماذا يمكن أن تقولي يا آنسة تاجارت؟

ـ لا شيء.

ـ عذرا، ماذا قلت؟

ردّت داغني بهدوء وبصوت واضح: كلّ ما كان عليّ قوله وَرَدَ في التقرير الذي قرأه جيم عليك.

ـ لكنّك لم تقدّمي أيّ توصيات.

ـ ليس لديّ ما أوصي به.

ـ ولكن، على كلّ حال، بصفتك نائب رئيسنا التنفيذيّ، فلديك مصلحة حيويّة في سياسات هذه الشركة.

ـ لا أملك أيّ سلطة على سياسات هذه الشركة.

ـ أوه، لكنّنا نأخذ آراءك بعين الاعتبار.

ـ ليس لديّ أيّ آراء.

ـ ردّ بنبرة رسميّة سلسة: يا آنسة تاجارت، لا يمكنك الفشل في إدراك أنّ فروعنا تعاني من عجز كارثيّ، وأنّنا نتوقّع منك جَعْلَهَا تستعيد عافيتها.

ـ كيف؟

ـ لا أعلم، هذه مهمّتك، لا مهمّتنا.

ـ لقد ذكرت في تقريري الأسبابَ التي تجعل ذلك مستحيلًا الآن. وإذا كانت هناك حقائق أخرى تجاهلتها، فيرجى منكم ذكرها.

ـ أوه، لا أعلم. نتوقّع منك أن تجدي طريقة مّا لجعل ذلك ممكنًا. مهمّتنا فقط أن نرى حَمَلة الأسهم يحصلون على أرباح عادلة. الأمر متروك لك لبلوغ ذلك. فأنت لا تريدين منّا أن نعتقد أنّك غير قادرة على القيام بهذه المهمّة و..

ـ أنا غير قادرة على القيام بذلك.

فتح الرجل فمه لكنّه لم يجد شيئا آخر ليقوله، فنظر إليها في حيرة، متسائلا لماذا فشلت الصيغة التي انتهجها.

ـ سألها الرجل ذو الشال الأخضر: يا آنسة تاجارت، هل أشرت في تقريرك إلى أنّ حالة خطّ ريونورتيي كانت حرجة؟

ـ لقد ذكرت أنّه بات ميؤوسا منه.

ـ على هذا الأساس، ما هو الإجراء الذي تقترحينه؟

ـ لا أقترح شيئًا.

ـ هل أنت تتهرّبين من المسؤوليّة؟

ـ أجابته باتّزان: وماذا تظنّ أنّك بصدد فعله؟

ثمّ خاطبتهم جميعا:

ـ هل تريدون منّي أن أنكر أنّ المسؤولية هي مسؤوليّتكم، وأنّ سياساتكم اللعينة هي التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه؟ حسنا، ها أنا أقول لكم ذلك.

ـ قال رئيس مجلس الإدارة متضرّعًا: آنسة تاجارت، يا آنسة تاجارت، لا ينبغي أن تكون هناك أيّ مشاعر قاسية بيننا. هل ما يهمّ الآن هو تحديد المسؤول؟ لا نريد أن نتشاجر بشأن أخطاء الماضي ويجب علينا جميعا أن نعمل معًا عملَ فريقٍ لإنقاذ شركة سككنا من هذه الأزمة.

ثمّ إنّ رجلًا ذا شعر رماديّ ينتمي إلى عائلة أرستقراطيّة نبيلة نظر إلى داغني، كان قد بقي صامتا طوال النقاش تعلوه نظرة من المعرفة المريرة الهادئة التي توحي بأنّ الأداء كلّه كان عقيما. نظر إليها على نحوٍ كان يمكن أن يبدو تعاطفًا لو أنّه لم يشعر ببقايا أمل. قال، وهو يرفع صوته بما يكفي ليخون ملاحظة من السخط التي تسيطر عليه:

ـ سيّدي الرئيس، إذا كنّا نروم النظر في الحلول العمليّة، فأودّ اقتراح مناقشة القيود المفروضة على طول قطاراتنا وسرعتها. وهي من بين إحدى الممارسات، بل أكثرها كارثيّة. إنّ إلغاء الخطّ لن يحلّ جميع مشاكلنا، لكنّه سيحدث تخفيفًا هائلًا. ومع النقص الحادّ في المحرّكات الدافعة والنقص المروّع في الوقود، فمن الجنون إرسال قاطرة بمحرّك تجرّ ستّين عربة في حين يمكنها سحب مائة، ولتأخذ أربعة أيّام على المدى الذي يمكن أن يتمّ في ثلاثة. أقترح أن نحصي عدد الشاحنين الذين تسبّبنا في إفلاسهم والمقاطعات التي دمّرناها بسبب الأعطاب والنقص والتأخير في النقل، ثمّ نحن..

قاطعه السيّد ويذربي بنبرة لاذعة: لا تفكّر في ذلك، ولا تحاول أن تحلم بأيّ إلغاءات. فلن نأخذه بعين الاعتبار ولن نفكّر حتّى في الاستماع إلى أيّ حديث بشأن هذا الموضوع.

ـ سأل الرجل ذو الشعر الرماديّ بهدوء: سيّدي الرئيس، هل يمكنني الاستمرار في توضيح وجهة نظري؟

أشرع الرئيس يديه بابتسامة ناعمة، كدليل على عجزه وأجابه: لا، سيكون ذلك غير عمليّ.

قال جيمس تاجارت: أعتقد أنّ من الأفضل أن نقتصر على مناقشة وضع خطّ ريونورتيي.

ثمّ خيّم صمت طويل على القاعة. والتفت الرجل ذو الشال الأخضر إلى داغني، فسألها بحزن وحذر:

ـ يا آنسة تاجارت، هل بإمكانك القول إنّه —وهذا مجرّد سؤال افتراضيّ— لو كانت

المعدّات المستخدمة الآن على خطّ ريونورتيي متاحةً، فإنّها ستسدّ احتياجات حركة المرور عبر القارات؟

ـ طبعا هذا سيساعد.

قال الرجل ذو الشارب: إنّ سكة حديد خطّ ريونورتي لا مثيل لها في أيّ مكان من البلاد ولا يمكن شراؤها بأيّ ثمن. لدينا ثلاثمائة ميل من المسار، ممّا يعني أكثر من أربعمائة ميل من السكك الحديديّة النقيّة بمعدن ريردن في ذلك الخطّ. هل بإمكانك القول، يا آنسة تاجارت، إنّنا لا نستطيع تضييع تلك السكك الحديديّة الفائقة في فرع لم يعد يحمل أيّ حركة مرور رئيسيّة بعد الآن؟

ـ هذا الأمر يعتمد عليك في أن تصدر حكمًا بشأنه.

اسمحوا لي بأن أطرح الأمر على هذا النحو: هل سيكون من المفيد أن تتاح تلك السكك الحديديّة لخطّنا الرئيسيّ الذي هو في حاجة ماسّة إلى الإصلاح؟

ـ هذا بالتأكيد سيساعد.

سألها الرجل بصوت مرتجف: يا آنسة تاجارت، هل يمكنك الجزم أنّه قد بقي لدينا، على إثر هذه العواقب، أيّ من الشاحنين على خطّ ريونورتيي؟

ـ يوجد فقط تيد نيلسن مدير شركة نيلسن للمحرّكات. لا أحد غيره.

ـ هل يمكنك الجزم أنّ تكاليف تشغيل خطّ ريونورتيي يمكن استخدامها لتخفيف الضغط الماليّ على بقيّة النظام؟

ـ هذا سيساعد طبعًا.

ـ إذَن، كما تقول نائبة الرئيس...

ثمّ توقّف، فانتظرته لإنهاء كلامه وأخذت تنظر صوب وجهه، لكنّه قال: حسنًا؟

ـ ما هو سؤالك؟

ـ كنت أقصد بقولي... حسنا، بما أنّك نائبة رئيس التشغيل، ألا تمتلكين بعض

الاستنتاجات التي تريدين الإدلاء بها؟

نهضت داغني وأخذت تنظر إلى الوجوه التي حول الطاولة وقالت:

يا سادة، لا أعلم أيّ نوع من الاحتيال الذاتيّ يجعلكم تتوقّعون أنّني سأتحمّل المسؤوليّة مادمت أنا من سيعلن القرار الذي تنوون اتّخاذه. ربّما تعتقدون أنّه إذا كان صوتي هو من سيوجّه الضربة الأخيرة، فهذا سيجعلني القاتل المتورّط، لأنّكم تدركون أنّ هذا هو آخر عمل من أعمال القتل الطويلة الأمد. لا أستطيع أن أتصوّر ما يمكنكم التفكير في إنجازه بتمثيليّة من هذا النوع، ولن أساعدكم على أدائها. أنتم من ستؤدّون الضربة الأخيرة، مثلما فعلتم بالضربات الأخرى.

وهمّت بالخروج. فنهض الرئيس وطلب منها بعجز: ولكن يا آنسة تاجارت.. من فضلك اجلسي. يرجى مواصلة المناقشة، والتصويت الذي لن يكون لي صوت فيه. سأمتنع عن التصويت. سأقف موقف المتفرّج، إذا كنت ترغبين في ذلك، ولكن فقط من موقع الموظّف. لن أتظاهر بأنّني أيّ شيء آخر.

فابتعدت مرّة أخرى، لكنّ صوت الرجل ذي الشعر الرماديّ هو الذي أوقفها: يا آنسة تاجارت، هذا ليس سؤلًا رسميًّا، إنّه فقط فضول شخصيّ، ولكن هل ستخبرينني برأيك حول نظام شركة تاجارت العابرة للقارّات؟

أجابته بلطف، وهي تنظر إليه: لقد توقّفت عن التفكير في أيّ مستقبل أو أيّ نظام للسكك الحديديّة. أنوي الاستمرار في تشغيل القطارات مادام تشغيلها لا يزال ممكنًا. ولا أعتقد أنّ الأمر سيدوم أطول من ذلك بكثير.

ابتعدت عن الطاولة، وتوجّهت إلى النافذة، لتقف جانبًا وتدعهم يستمرّون من دونها.

نظرت إلى المدينة. وكان جيم قد حصل على التصريح الذي سمح لهم باستخدام الطاقة الكهربائيّة إلى أعلى مبنى تاجارت. من ارتفاع القاعة، بدت المدينة وكأنّها بقايا أنقاض مستوية بالأرض، بعدد قليل من الشرائط النادرة والوحيدة من الزجاج المضاء

التي لا تزال ترتفع من خلال الظلام في السماء.

لم تستمع إلى أصوات الرجال الذين يقفون خلفها. لم تكن تعلم كم ستستغرق الشذرات المكسورة لنضالهم من وقت للمرور أمامها، تلك الأصوات التي تحثّ ويدفع بعضُها بعضًا، في محاولة للتراجع والرحيل وترك شخص مّا يدفع إلى الأمام لخوض معركة لا لتأكيد إرادة المرء، وإنّما للضغط على ضحيّة غير راغبة في معركة يكون القرار فيها معلنًا بوضوح لا من قبل الفائز، ولكن من قبل الخاسر:

ـ يبدو لي... أعتقد أنّه... يجب أن يكون.. حسب رأيي... لو افترضنا... أنا أقترح فقط... أنا لا ألّح، بل... إذا اعتبرنا كلا الجانبين... حسب رأيي، ومما لا شكّ فيه... يبدو لي أنّ الحقيقة التي لا لبس فيها...

لم تكن تعلم من كان يصدر كلّ تلك الأصوات، لكنّها سمعته حين نطق بالقرار:

ـ... وهكذا، أنا أنتهي إلى القول إنّه يجب إغلاق خط جون جالت.

وكانت داغني تعتقد أنّ شيئا مّا هو الذي جعله يدعو الخطّ باسمه الحقيقي.

ـ كان عليك أن تتحمّلي هذا الأمر أيضًا منذ أجيال مضت. كان الأمر صعبًا عليك، بالسوء نفسه، لكنّك لن تدعيه يوقفك. هل كان الأمر بالسوء نفسه والقبح ذاته حقًّا؟ لا يهمّ، إنّها أشكال مختلفة، لكنّ الألم واحد، ولن يوقفك الألم، مهما يكن الألم الذي ستتحمّلينه.. لن يوقفك أيّ شيء، ولن تستسلمي.. لقد واجهتِه وذلك هو النوع الذي كان عليَّ أن أواجهه. لقد قاتلت ويجب عليّ أن أقاتل... لقد نجحت في فعل ذلك.. سأحاول...

سمعت الهدوء الشديد لكلمات التفاني في ذهنها، ومرّ الوقت قبل أن تدرك أنّها كانت تتحدّث إلى جدّها المتوفَّى نات تاجارت.

وكان الصوت الموالي الذي سمعته هو صوت السيّد ويذربي: انتظروا لحظة يا أولاد. هل تتذكّرون أنّكم بحاجة إلى الحصول على إذن قبل إغلاق خطّ الفرع؟

صرخ تاجارت بذعر علنيّ: يا إلهي، ماذا تقول يا رجل! بالتأكيد لن تكون هناك أيّ

مشكلة بشأن..

ـ لن أكون متأكّدًا من ذلك. لا تنسَ أنّك تقدّم خدمة عامّة للناس ومن المتوقّع أن توفّر وسائل النقل، سواء لكسب المال أو لغير ذلك.

ـ لكنّك تعلم أنّه من المستحيل!

ـ حسنًا، هذا المقترح جيّد بالنسبة إليك، وسيحلّ مشكلتك، إذا أغلقت هذا الخطّ.. ولكن ماذا سيحلّ بنا؟ حين تترك ولاية بأكملها مثل كولورادو دون وسائل نقل.. أيّ نوع من المشاعر العامّة ستثير؟ الآن، بالطبع، إذا أعطيت ويسلي شيئًا في المقابل، لتحقيق التوازن، وإذا منحت النقابات زيادات في الأجور...

ـ لا أستطيع! لقد تعهّدت أمام التحالف الوطنيّ!

ـ تعهّدتَ؟ حسنًا، تصالح مع نفسك. فنحن لا نريد أن نجبر هذا التحالف، بل نحن نفضّل كثيرا أن تتمّ الأمور طوعًا. ولكن هذه أوقات صعبة، ومن الصعب التنبّؤ بما سيحدث. ومع إفلاس الجميع وانخفاض الإيرادات الضريبيّة، فإنّنا – نظرًا إلى حقيقة امتلاكنا أكثرَ من خمسين في المائة من سندات تاجارت – قد نضطرّ إلى الدعوة إلى دفع سندات السكك الحديديّة خلال ستّة أشهر.

صرخ تاجارت: ماذا؟!

ـ أو في أيّ وقت قريب.

ـ لكن لا يمكنكم فعل هذا! يا إلهي، لا تستطيعون!! لقد اتّفقنا أن يدوم الوقف الاختياريّ مدّة خمس سنوات! لقد كان عقدًا والتزامًا! وكنّا نعوّل على ذلك!

ـ التزام؟ هل أنت من الطراز القديم يا جيم؟ لا توجد أيّ التزامات ما عدا ضرورة اللحظة. وكان المالكون الأصليّون لهذه السندات يعتمدون على دفعها أيضًا.

انفجرت داغني ضاحكةً. لم تستطع إيقاف نفسها فكانت تضحك ملء شدقيها، ولم تستطع مقاومة الضحك، فهي لم تتمكّن من تفويت هذه الفرصة للانتقام لإليس وايت، وأندرو ستوكتون، ولورانس هاموند، وكلّ الآخرين. فقالت، وقد أعياها

الضحك:

ـ شكرا، يا سيّد ويذربي!

نظر السيد ويذربي إليها في دهشة. وسألها ببرود: ماذا؟

ـ كنت أعرف أنّه سيتعيّن علينا دفع ثمن تلك السندات بطريقة أو بأخرى. ونحن بصدد الدفع.

قال الرئيس بحدّة: يا آنسة تاجارت ألا تعتقدين في قولي لك إنّ ذلك غير مجدٍ؟ فالحديث عمّا كان سيحدث لو تصرّفنا بشكل مختلف ليس سوى تكهّنات نظريّة صِرف. ولا يمكننا الانغماس في الكلام النظريّ، بل علينا التعامل مع الواقع العمليّ في الوقت الراهن.

ردّ السيّد ويذربي: بالفعل، يجب أن تكونوا عمليّين. نحن الآن نعرض عليكم هذه المبادلة. أنتم تضحّون ببعض الأشياء من أجلنا ونحن سنبادلكم هذه التضحية بأحسن منها. أنتم تمنحون النقابات الزيادات في أجورهم ونحن نمنحكم الإذن بإغلاق خطّ ريونورتيي.

ردّ جيمس تاجارت، بصوت مختنق: حسنًا.

ظلّت داغني واقفة عند النافذة، فسمعتهم يصوّتون على قرارهم. ثمّ سمعتهم يعلنون أنّ خطّ جون جالت سينتهي في مدى ستّة أسابيع، بتاريخ 31 مارس. وقالت في نفسها إنّها مجرّد مسألة مرور اللحظات القليلة المقبلة، اعتني بنفسك في غضون اللحظات القليلة المقبلة، وبعد ذلك اعتني بنفسك في اليوم الموالي، وبعد مرور القليل من الزمن سيكون الأمر أسهل؛ وبعد فترة ستتجاوزين كلّ شيء.

وأوّل مهمّة منحتها لنفسها في اللحظات القليلة الموالية هي أن ترتدي معطفها وتكون أوّل من يغادر القاعة. ثمّ كانت مهمّة ركوب المصعد والنزول إلى أسفل رفقة الصمت طوال مبنى تاجارت. ثمّ كانت مهمّة عبور الردهة المظلمة.

وفي منتصف الرواق، توقّفت. كان هناك رجل متّكئ على الحائط، في انتظار الهادف،

وكانت هي هدفه، لأنّه كان ينظر إليها مباشرة. لم تتعرّف عليه منذ اللحظة الأولى، لأنّها شعرت باليقين من أنّ الوجه الذي رأته لا يمكن أن يكون هناك في تلك الردهة وفي تلك الساعة.

قال بهدوء: مرحبا سبيكة.

أجابته، وهي تتلمّس طريقها نحو مسافة كبيرة كانت على ملكها ذات يوم: مرحبًا فريسكو.

ـ هل قتلوا جون جالت أخيرًا؟

فناضلت لتنزّل اللحظة منزلتها من نظام تسلسل الزمن. كان السؤال ينتمي إلى الحاضر، لكنّ الوجه الرصين جاء من تلك الأيّام على التلّة بجانب نهر هودسن حين كان يستطيع فهم كلّ ما يعنيه سؤالها.

سألته: وكيف علمت بأنّهم سيفعلون ذلك الليلة؟

ـ كان من الواضح منذ أشهر أن تكون تلك الخطوة هي التالية في اجتماعهم المقبل.

ـ لماذا جئت إلى هنا؟

ـ لأرى كيف ستتولّين الأمر.

ـ هل كنت ترغب في السخرية بشأن هذا الموضوع؟

ـ لا يا داغني، لا أريد أن أسخرمن هذا الموضوع.

لم ترَ أيّ تلميح إلى التسلية في وجهه، ولكنّها أجابته بثقة: لا أعلم كيف سأتقبّل الأمر.

ـ أنا أعلم.

ـ كنت أتوقّع ذلك، كنت أعلم أنّهم يجب أن يفعلوا ذلك، والمسألة الآن هي مجرّد مرور إلى مرحلة التنفيذ.

أمسك بها من ذراعها وقال: دعينا نذهب إلى مكان يمكننا أن نشرب فيه شيئًا معًا.

ـ فرانسيسكو، لماذا لا تسخر منّي؟ لقد كنت دائما تسخر من هذا الخطّ.

ـ سأفعل... وسأضحك غدا عندما أراك تتدبّرين أمر العمل والتفاصيل. ليس الليلة.

ـ ولِمَ لا تضحك وتسخر هذه الليلة؟

ـ هيّا بنا، فأنت لست في حالة تسمح لك بالتحدّث عن ذلك.

ـ أنا..

أرادت أن تحتجّ، لكنّها قالت: لا، أعتقد أنّني لست كذلك فعلا.

قادها إلى الشارع، فوجدت نفسها تسير بصمت في الوقت المناسب على إيقاع ثابت من خطواته، وأصابعه تمسك ذراعها بسلاسة وحزم. ثمّ أشار إلى سيّارة أجرة وفتح الباب لها. فأطاعته من دون أسئلة، ولكنّها شعرت بالارتياح، مثل سبّاحٍ يتوقّف عن المقاومة. كان مشهد رجل يتصرّف بثقة، يشبه حزام نجاة أُلقي به إليها في لحظة نسيت فيها الأمل في وجوده. ولم يكن الارتياح في تسليم المسؤوليّة، بل بسبب رؤية رجل قادر على تحمّلها.

قال، وهو ينظر إلى مشاهد المدينة تمرّ أمام عينيه من خلال نافذة سيّارة الأجرة: داغني، فكّري في أوّل إنسان فكّر في صنع عارضة فولاذيّة. كان يعرف ما رآه، وما اقتنع به وما أراده. فلم يقل: (يبدو لي) ولم يتلقّ أوامر من أولئك الذين يقولون (حسب رأيي).

فضحكت، متسائلة عن دقّته: لقد خمّنت طبيعة الشعور المقزّز الذي اعتراها، ذلك الشعور بأنّها في مستنقع ويجب عليها أن تهرب منه. ثمّ قال فرانسيسكو:

ـ انظري من حولك، مدينة تشبه الشكل المتجمّد للشجاعة البشريّة، شجاعة أولئك البشر الذين فكّروا لأوّل مرّة في صناعة كلّ قفل وكلّ مسمار وكل مولّد للطاقة. لقد تمتّعوا بالشجاعة لا لقول (يبدو لي) ولكن (إنّه)... مخاطرة المرء بحياته من أجل حكمه ومبدئه. لست وحدك يا داغني. هؤلاء البشر موجودون وكانوا موجودين على

الدوام. قديما كان الإنسان يجثم في الكهوف تحت رحمة أيّ وباء وأيّ عاصفة. هل يمكن لرجال من أمثال أولئك الذين هم في مجلس الإدارة الخاصّ بك أن يخرجوا البشريّة من تلك الكهوف ويوصلوها إلى هذا المكان؟

ـ يا إلهي، طبعا لا!

ـ ثمّ انظري إلى من معك فهو دليلك على أنّ نوعًا آخر من البشر موجود في العالم.

قالت بشغف: بالتأكيد.

ـ فكّري في هذا النوع من البشر ودعك من رجال مجلس إدارتك. وانسي أمرهم.

ـ فرانسيسكو، أين هو الآن.. ذلك النوع الآخر من البشر؟

ـ هؤلاء البشر ليسوا مرغوبًا فيهم الآن.

ـ أريدهم. يا إلهي، كم أريدهم!

ـ عندما تنطلقين في الفعل، ستجدينهم.

لم يسألها عن خطّ جون جالت، ولم تتحدّث هي عنه، حتّى جلسا على طاولة في كشك مضاء بشكل خافت ورأت جذع كأس بين أصابعها. لم تكد تلاحظ كيف جاءا إلى هناك، فالمكان كان هادئا ومكلفًا مثل ملاذ سرّيّ. رأت وجود طاولة صغيرة لامعة تحت يدها، ومقعدا دائريًّا مغلّفًا بالجلد خلف كتفيها، وكوّة زرقاء داكنة لمرآة حجبت عنهما رؤية أيّ شعور بالمتعة أو الألم جاء الآخرون إلى هناك لإخفائه. كان فرانسيسكو يتمايل على الطاولة وهو ينظر إليها فشعرت كما لو أنّها هي أيضًا تتمايل أمام عينيه الثابتتين. لم يتحدّثا عن الخطّ، لكنّها قالت فجأة وهي تنظر إلى السائل في كأسها:

ـ أنا بصدد تذكّر الليلة التي قيل فيها لنات تاجارت إنّه سيضطرّ إلى التخلّي عن الجسر الذي هو بصدد بنائه. فمشروع الجسر الذي سيعبر نهر المسيسيبي كان بحاجة ماسّة إلى المال، ولأنّ الناس كانوا خائفين من الجسر، فقد وصفوه بأنّه مشروع غير عمليّ. وفي ذلك الصباح، قيل له إنّ مخاوف أصحاب القارب البخاريّ النهريّ رفعوا دعوى ضدّه، للمطالبة بتدمير جسره باعتباره تهديدًا للصالح العامّ. كانت هناك ثلاث

قناطر للجسر الذي بني وتقدّم عبر النهر. وفي اليوم نفسه، هاجم حشد محلّيّ الهيكل وأضرم النار في السقالات الخشبيّة. فهجره عمّاله؛ بعضهم غادر لأنّهم كانوا خائفين، وبعضهم تلقّى رشوة من قبل أصحاب الباخرة، ومعظمهم غادروا لأنّهم لا يملكون مالًا لدفعه لهم منذ أسابيع. وطوال ذلك اليوم، ظلّ يتلقّى كلمة مفادها أن الرجال الذين اشتركوا في شراء أسهم سكّة حديد شركة تاجارت العابرة للقارّات كانوا يلغون اشتراكاتهم الواحد منهم تلو الآخر. وعند المساء، حضرت لرؤيته لجنةٌ تمثّل مصرفَين كانا أمله الأخير في الدعم. لقد كان قابعًا هناك، في موقع البناء بجانب النهر، في عربة السكك الحديديّة القديمة حيث يعيش، وكان الباب مفتوحًا على منظر الخراب الأسود، ببقايا خشبيّة لا تزال تدخّن بالموقد الفولاذيّ الملتوي. وكان قد تفاوض للحصول على قرض من تلك المصارف، ولكنّ العقد لم يُوقَّع. قالت له اللجنة إنّه يجب عليه التخلّي عن جسره، لأنّ من المؤكد أن يخسر الدعوى، وسيُؤمَر بهدم الجسر بحلول الوقت الذي يكتمل فيه البناء. وقالت إنّه إذا كان مستعدًّا للتخلّي عنه، ونقل ركّابه عبر النهر على متن العبّارات، كما تفعل السكك الحديديّة الأخرى، فإنّ العقد سيظلّ قائمًا وسيحصل على المال لمواصلة خطّه غربًا على الشاطئ الآخر؛ وإذا لم يفعل ذلك، فإنّ القرض سيلغى. فماذا كان جوابه حين سألوه. لم ينبس بكلمة واحدة، ثمّ التقط العقد، ومزّقه، سلّمهم إيّاه وخرج. ثمّ سار بالجسر، على طول القناطر، وصولًا إلى آخر عارضة. ثمّ جثا على ركبتيه ليلتقط الأدوات التي تركها رجاله وبدأ في إزالة الحطام المتفحّم بعيدًا عن الهيكل الفولاذيّ. فرآه كبيرُ مهندسيه هناك، وهو يحمل فأسًا بيده، وحده فوق النهر الواسع، مع غروب الشمس خلفه في تلك المنطقة الغربيّة حيث كان خطّه يسير. لقد عمل هناك طوال الليل، وبحلول راودته فكرة بخصوص خطّة لما سيفعله للعثور على الرجال المناسبين لإقناعهم بأهمّيّة الجسر، وجمع الأموال، ومواصلة تشييده.

تحدّثت داغني بصوت منخفض، وهي تنظر إلى أسفل صوب بقعة الضوء التي كانت برّاقة في السائل بينما أصابعها تدير جذع كأسها من حين إلى آخر. لم تظهر أيّ

عاطفة:

ـ فرانسيسكو... إن هو استطاع العيش وتجاوز تلك الليلة، فبأيّ حقّ تتوجّب عليّ الشكوى والتذمّر؟ وهل من المهمّ السؤال عمّا أشعر به الآن؟ فجدّي بنى ذلك الجسر ويجب أن أحمل المشعل عنه. فأنا لا أستطيع أن أدع خطّ جون جالت يواجه المصير نفسه الذي واجهه جسر جنوب المحيط الأطلسيّ... لا، هذا هراء، ولكن سأخبرك بما أشعر به: أيّ إنسان يعلم ما شعر به نات تاجارت في تلك الليلة، أيّ إنسان يعيش الآن هو قادر على معرفة ذلك، سأخونه إن سمحت بوقوع ذلك الأمر... وأنا لا أستطيع.

ـ داغني، لو كان نات تاجارت على قيد الحياة بيننا الآن، فماذا كان له أن يفعل؟

أجابته لاإراديًّا، بضحكة مكتومة سريعة ومريرة: لم يكن ليصمد ولو لحظة! لا، بل سيفعل شيئًا. وسيجد وسيلة لمحاربتهم.

ـ كيف؟

ـ لا أعلم.

ثمّ لاحظت بعض توتّر وحذر في الطريقة اليقظة التي نظر بها إليها وهي تميل إلى الأمام فسألها:

ـ يا داغني، رجال مجلس الإدارة الخاصّ بك لا يضاهون نات تاجارت، أليس كذلك؟ إنّهم لا يتمتّعون بأيّ فرص للفوز بأيّ شكل من أشكال المسابقات، ولا يوجد شيء يجعله يخاف منهم، فلا عقل، ولا إرادة، ولا قوّة عند حفنة منهم تعادل جزءًا من قدراته.

ـ لا، بالطبع لا.

ـ إذَن، لماذا كانت سلالة عائلة نات تاجارت هي من يصنع العالم، على مدار تاريخ البشر، وتنتصر دائمًا، لكنّها تخسر دائمًا أمام رجال المجلس؟

ـ أنا... لا أعلم.

كيف يستطيع رجالٌ يخشون أن يكون لديهم رأيٌ غير متحفّظ حول الطقس محاربةَ نات تاجارت؟ كيف يمكن أن ينتهزوا إنجازه إذا كان قد اختار الدفاع عنه؟ يا داغني، جدّك قاتل بكلّ سلاح ممكن، ما عدا أهمّ سلاح. لم يكن بإمكانهم الفوز، إذا كنّا – نحن وبقيّتنا – لم نهبهم العالم.

ـ نعم، أنت وهبتهم إيّاه. مثلما فعل إليس وايت وفعل كين داناغر. أمّا أنا فلن أفعل ذلك.

قال مبتسما: ومن بنى خطّ جون جالت لهم؟

أجابته بهدوء: لقد فعلت.

ـ بغية الوصول إلى هذا النوع من النهاية؟

ـ طبعًا بالنسبة إلى الرجال الذين لم يصمدوا ولن يقاتلوا، بل استسلموا.

ـ ألا ترين أنّه لم تكن ثمّة نهاية أخرى ممكنة؟

ـ لا.

ـ كم من الظلم أنت مستعدّة لمواجهته؟

ـ بقدر ما أنا قادرة على القتال.

ـ وماذا ستفعلين الآن وغدًا؟

قالت بهدوء، وهي تنظر إليه مباشرة بنظرة فخر خافت مؤكّدةً على هدوئها: سأشرع في هدمه.

ـ ماذا ستهدمين؟

ـ خطّ جون جالت. سأشرع في هدمه على أحسن وجه بيدي وعقلي وتعليماتي الخاصّة. سأنتظر لحظة غلقه، ثمّ سأبدأ عمليّة الهدم واستخدام قطعه لتعزيز المسار العابر للقارّات. ثمّة عمل كثير للإنجاز. مثل هذا العمل سيبقيني مشغولة كامل الوقت..أنت تعلم أنّني أتطلّع إلى ذلك. أنا سعيدة لأنّني سأفعل ذلك وهذا هو السبب

في أنّ نات تاجارت عمل طوال كلّ تلك الليلة فقط للحفاظ على الاستمرار. ليس الأمر بهذا السوء طالما أنّ هناك شيئًا يمكن للمرء فعله. وسأعرف، على الأقلّ، أنّني أنقذ الخطّ الرئيسيّ.

سألها بهدوء شديد، بينما تساءلت هي عن الشيء الذي جعلها تشعر بأنّه بدا كما لو أنّ مصيره الشخصيّ متعلّق بجوابها: وماذا لو كان الخطّ الرئيسي هو الذي يستوجب التفكيك؟

ـ في هذه الحالة سأسمح لآخر قاطرة بأن تدهسني! لا. سيكون ذلك فقط بدافع الشفقة الذاتيّة. لا لن أفعل ذلك.

قال بلطفٍ: أعلم أنّك لن تفعلي ذلك، ولكنّك تتمنّين لو أنّك تستطيعين فعله.

ـ نعم.

ابتسم دون أن ينظر إليها؛ كانت ابتسامته ساخرة، لكنّها ابتسامة من وحي الألم، أمّا السخرية فكانت موجّهة إلى ذاته. فتساءلت عن الشيء الذي جعله متأكّدًا من ذلك؟ لكنّها كانت تعرف تعابير ملامح وجهه جيّدًا إلى درجة أنّها ستعرف دائمًا ما يشعر به، على الرغم من أنّها لم تعد قادرة على تخمين أسبابه. واعتقدت أنّها كانت تدرك تعابير ملامح وجهه أيضًا لأنّها تعرف كلّ شبر من جسده، بما أنّها لا تزال قادرة على رؤية ذلك الجسد، وبما أنّها أدركت فجأة أنّها أصبحت تعي ملامح ذلك الجسد تحت ملابسه، على بعد أمتار قليلة في حميميّة الكشك المزدحم. فالتفت لينظر إليها، وقد حملت عيناه بعض تغيير مفاجئ جعلها متأكّدة من أنّه يعرف ما كانت تفكّر فيه. فنظر بعيدًا والتقط كأسه.

قال: حسنًا، لنشرب على نخب نات تاجارت.

ـ وعلى نخب سيباستيان دانكونيا؟

سألته، ثمّ ندمت على ذلك السؤال، لأنّه بدا كأنّما طُرح من قبيل السخرية التي لم تكن تنويها.

لكنّها لاحظت نظرة غريبة، بوضوح مشرق في عينيه. فأجابها بحزم، وبابتسامة فخر خافت للتأكيد على ثباته: نعم، وعلى نخب سيباستيان دانكونيا.

ارتعشت يدها قليلًا فاندلقت بضع قطرات على مربّع الدانتيل الورقيّ الذي تمدّد على البلاستيك المظلم فوق الطاولة. ولاحظت أنّه أفرغ كأسه دفعة واحدة، ولكنّ حركةَ يده الفظّةَ القصيرةَ جعلتها تبدو مثل لفتة تعهّد رسميّ.

وفكّرت فجأةً في أنّه منذ اثني عشر عامًا كانت تلك المناسبة هي المرّة الأولى التي جاءها فيها بمحض إرادته واختياره.

كان يتصرّف بثقة كما لو أنّه يمسك بزمام الأمور وينقل ثقته إليها كي يسمح لها باستعادة ثقتها، ولم يمنحها أيّ وقت لتتساءل عن وجوب وجودهما هناك معًا. الآن شعرت، بشكل غير متوقّع، أنّ مقاليد الأمور التي كان يمسك بها قد اختفت. لم يكن الأمر سوى صمت بضع لحظات فارغة وخطوط عريضة ثابتة لجبينه وعظام وجنتيه وفمه، بينما كان يجلس ووجهه بعيدٌ عنها، لكنّها شعرت كما لو أنّه هو الذي يكافح الآن من أجل شيء مّا عليه استعادته.

وتساءلت عن هدفه في تلك الليلة، ولاحظت أنّه، ربّما، يكون قد أنجز ذلك الهدف: فقد حملها في أسوإ لحظة، ثمّ إنّ معرفة وجود كائن ذي ذكاء وقّادٍ يسعى إلى فهمها منحها دفاعًا ضدّ اليأس لا يقدَّر بثمن. لكن لماذا أراد أن يفعل ذلك؟ لماذا اهتمّ بساعة يأسها بعد كلّ سنوات العذاب التي تسبّب لها فيها؟ لماذا كان يهتمّ بكيفيّة تقبّلها لحدث نهاية خطّ جون جالت؟ فلاحظت أنّ ذلك هو السؤال الذي لم تطرحه عليه في بهو مبنى تاجارت.

واعتقدت أنّ ذلك كان هو الرابط بينهما: وأنّها لن تندهش أبدًا لو أتاها حين تكون في أمسّ الحاجة إليه، وأنّه سيعرف دائما زمن مدّ العون. كان ذلك هو الخطر: لأنّها ستثق به، حتّى إن عرفت أنّه لا يمكن أن يكون إلّا نوعا جديدا من أنواع الحيل، وحتّى إن تذكّرت أنّه سيخون دائما أولئك الذين يثقون به.

جلس، متّكئًا إلى الأمام وذراعاه متقاطعتان على الطاولة، متطلّعًا إلى الأمام مباشرة. وقال فجأة من دون أن يلتفت إليها:

ـ أنا بصدد التفكير في السنوات الخمس عشرة التي كان على سيباستيان دانكونيا أن ينتظر فيها المرأة التي أحبّها. لم يعلم ما إذا كان سيلقاها مجدّدًا، وما إذا كانت ستنجو... وما إذا كانت ستنتظره. لكنّه يعلم أنّها لا تستطيع العيش في ظلّ معركته وأنّه لا يستطيع الاتّصال بها وجلبها إليه حتّى يفوز. لذلك انتظر، حاملًا حبّه في مكان الأمل الذي لم يكن له الحقّ في حمله. ولكن حين حملها بين ذراعيه عبر عتبة منزله، كأوّل سيّد في آل دانكونيا، كان يعلم أنّه انتصر في المعركة، وأنّهما أصبحا حرّين، وأن لا شيء يهدّدهما، ولا شيء سيؤذيهما مجدّدًا.

وفي أيّام سعادة داغني وفرانسيسكو العاطفيّة، لم يعطها تلميحا ولو للحظة واحدة بأنّه سيفكّر فيها بوصفها السيّدة دانكونيا، فتساءلت عمّا إذا كانت تعلم ما تعني له. ولكنّ اللحظة انتهت برعشة غير مرئيّة. فهي لن تصدّق أنّ السنوات الاثنتي عشرة الماضية يمكن أن تسمح بالأشياء التي حسبتها ممكنةً. كانت تظنّ أن ذلك هو الفخّ الجديد.

سألته بصوتها الثابت: فرانسيسكو، ماذا فعلت بهانك ريردن؟

بدا مذهولًا من الأمر الذي جعلها تفكّر في ذلك الاسم في تلك اللحظة، فسألها: ولماذا تسألين؟

قال لي ذات مرّة إنّك الرجل الوحيد الذي يحبّه، لكن حين رأيته آخر مرّة، قال إنّه سيقتلك في أوّل لقاء يجمعك به.

ـ ألم يخبرك عن السبب؟

ـ لا.

ـ ألم يخبرك بشيء عن ذلك؟

ـ لا.

فرأته يبتسم بغرابة، ابتسامةً من الحزن والامتنان والشوق. ثمّ أضافت:

ـ حذّرته من أنّك ستؤذيه عندما قال لي إنّك الرجل الوحيد الذي يحبّه.

وجاءت كلماته وكأنّها انفجار مفاجئ:

ـ لقد كان الإنسان الوحيد – باستثناء إنسان آخر طبعًا– الذي بإمكاني أن أهبه حياتي!

ـ ومن هو الإنسان الآخر الذي قد تهبه حياتك؟

ـ الإنسان الذي أملكه.

ـ ماذا تعني؟

رفع رأسه، كما لو أنّه قال أكثر ممّا كان ينوي، ولم يجب.

ـ ماذا فعلت بريردن؟

ـ سأخبرك بذلك في وقت لاحق، لكن ليس الآن.

ـ هل هذا ما تفعله دائما بأولئك الذين... يمثّلون قدرا كبيرا من الأهمّيّة بالنسبة إليك؟

نظر إليها بابتسامة صدق مضيء من البراءة والألم، ثمّ قال بلطف: أتعلمين أنّني أستطيع القول إنّ ذلك هو ما يفعلونه دائما بالنسبة إليّ؟ وأضاف: لكنّني لن أفعل. فالأفعال –والمعرفة– لي.

وقف، ثمّ قال: ألا يجدر بنا؟ دعيني أقلّك إلى منزلك.

نهضت وهي تحمل معطفها. كان معطفًا واسعًا فضفاضًا، فأخذه بيديه ليغلّف جسدها. شعرت بذراعه لا تزال تطوّق كتفيها للحظة أطول ممّا كان يجب. ثمّ نظرت إليه مجدّدًا. كان يقف بشكل غريب وثابت، يحدّق باهتمام إلى أسفل صوب الطاولة. وأثناء نهوضهما، وكانا قد نظّفا الحصائر من الدانتيل، لاحظت وجود نقوش محفورة على البلاستيك في أعلى الطاولة. وقد بذل الناس محاولات لمحوها، لكنّها ظلّت قائمة،

مثل الصوت المنقوش ليأس بعض السكارى المجهولين: من هو جون جالت؟

وبحركة غضب فظّة، نفضت غبار الحصيرة مرّة أخرى لتغطية الكلمات. فضحك فرانسيسكو بكتمان وقال: يمكنني الإجابة على ذلك السؤال. أستطيع أن أخبرك من هو جون جالت.

ـ حقًّا؟ يبدو أنّ الجميع يعرفونه، لكنّ كلّ قصّة يخبرونني بها لا تشبه الأخرى.

ـ ورغم ذلك فهي كلّها قصص صحيحة. كلّ القصص التي سمعتها عنه هي بالفعل صحيحة.

ـ حسنا، ما هي قصّتك؟ ومن هو هذا الرجل؟

ـ جون جالت هو بروميثيوس الذي غيّر رأيه بعد قرون مزّقته فيها النسور كعقاب لأنّه سرق النار من الآلهة ليهديها إلى البشر، لقد فكّ أغلاله وسحب ناره حتّى بلغ اليوم الذي يسحب فيه البشر نسورهم.

***

اجتاحت مجموعةٌ من العوارض منحنياتٍ واسعةً حول زوايا الجرانيت، متشبّثة بسفوح جبال كولورادو. مشت داغني على روابط السكك، ووضعت يديها في جَيبَيْ معطفها، وعيناها تنظران في المسافة التي لا معنى لها أمامها؛ وحدها الحركة المألوفة المتمثّلة في إجهاد خطواتها على التباعد بين الروابط أعطتها الإحساس المادّيّ بفعل يتعلّق بالسكة الحديديّة.

وانتشرت غمامة تشبه القطن الرماديّ، لم تكن ضبابًا ولا غيومًا، وقد عُلِّقت في حشوات قذرة بين السماء والجبال، ممّا جعل السماء تبدو وكأنّها مركبة قديمة تنثر حشوها أسفل جوانب القمم. غطّى الثلج قشرة الأرض، لكنّه لم يكن ثلج الشتاء ولا ثلج الربيع. وبقيت شبكة من الرطوبة عالقةً في الهواء، فشعرت داغني بوخز جليديّ على وجهها من حين إلى آخر، لم يكن من قبيل قطرة من قطرات المطر ولا ندفةً ثلجيّة. وبدا الطقس مرعوبًا من اتّخاذ موقف فتشبّث على نحوٍ غير إلزاميّ بنوع من أنواع

منتصف الطريق؛ فتذكّرت طقس مجلس الإدارة. بدا الضوء مستنزفًا ولم تستطع معرفة ما إذا كان الوقت ظهرًا أم مساء يوم 31 مارس. لكنّها متأكّدة تمامًا من أنّه يوم 31 مارس؛ كان أمرًا مؤكّدًا لا مفرّ منه.

لقد سبق لها أن جاءت إلى كولورادو مع هانك ريردن، لشراء أيّ آلات لا يزال من الممكن العثور عليها في المصانع المغلقة. وكان الأمر أشبه ببحث عاجل عبر الهيكل الغارق لسفينة كبيرة قبل أن تختفي بعيدًا عن متناول اليد. كان بإمكانهما أن يسندا المهمّة إلى الموظّفين، لكنّهما جاءا مدفوعين كليهما بالدافع المستتر نفسه. لم يتمكّنا من مقاومة الرغبة في حضور تشغيل القطار الأخير، حيث لا يمكن للمرء أن يقاوم الرغبة في إلقاء التحيّة الأخيرة من خلال حضور جنازة، حتّى بمعرفة أنّه مجرّد عمل من أعمال التعذيب الذاتي.

وكانا بصدد شراء الآلات من مُلّاك مشكوك في أمرهم، مشكوك في تورّطهم في مبيعات غير شرعيّة، حيث لا أحد يستطيع أن يعلم من له حقّ التصرّف في الممتلكات العظيمة الميّتة، ولن يخطر ببال أحدٍ الطعن في المعاملات. لقد اشتريا كلّ ما يمكن نقله من مصنع نيلسن للمحرّكات لصاحبه تيد نيلسن الذي استقال واختفى بعد أسبوع من الإعلان عن إغلاق الخطّ.

شعرت وكأنّها كانت تنقّب في القمامة، ولكنّ نشاط تصيد الآلات جعلها قادرة على تحمّل ما مضى من أيّام قليلة. وعندما اكتشفت أنّه لم يبقَ لها من الوقت إلّا ثلاث ساعات خالية من النشاط قبل مغادرة القطار الأخير، قرّرت التنزّه في الريف، هربًا من سكون البلدة. فسارت عشوائيًّا عبر مسارات جبليّة ملتوية، وحدها بين الصخور والثلوج، في محاولة لاستبدال الفكر بالحركة، وهي تدرك أنّها اضطرّت إلى اجتياز ذلك اليوم من دون التفكير في الصيف حين ركبت قاطرة المحرّك بالقطار الأوّل. لكنّها وجدت نفسها تسير مرّة أخرى على طول الطريق من خطّ جون جالت، وكانت تعلم أنّها تنوي ذلك، وأنّها قد خرجت لذلك الغرض.

لقد فكّكوا المسار الفرعيّ وقطعت أوصاله بالفعل. لم تكن هناك أضواء إشارات،

ولا مفاتيح تبديل، ولا أسلاك هاتفيّة، ولا شيء سوى مجموعة طويلة من الشرائط الخشبيّة التي تُركت على الأرض، مجرّد سلسلة من الروابط دون سكك حديديّة، مثل بقايا عمود فقريّ، وكوصيٍّ وحيد حارس لها، عند معبر درجة مهجور، كان هناك عمود بأذرع مائلة يقول: قف. انتبه. اسمع

حين قدمت إلى المصنع، كان هناك نقش عالٍ على البلاط اللّامع لجداره الأماميّ يعلن: روجر مارش للأجهزة الكهربائيّة. فقالت في نفسها إنّه اسم الرجل الذي أراد أن يقيّد نفسه إلى مكتبه حتّى لا يترك هذا المصنع. ظلّ المبنى سليمًا، مثل جثّة أغلقت عينيها في تلك اللحظة ولا يزال المرء ينتظر رؤيتها مفتوحة مرّة أخرى. شعرت بأنّ الأضواء ستشعل في أيّ لحظة خلف صفائح النوافذ الكبيرة، تحت السقوف المسطّحة الطويلة. ثمّ رأت أنّ أحد الأجزاء كان مكسورًا، مثقوبًا بحجر بسبب طيش بعض المعتوهين الصغار، ورأت ساقًا طويلة جافّة لنبتة ضارّة ترتفع من درج المدخل الرئيسيّ. فاندفعت داغني وقد صدمتها كراهية عمياء مفاجئة كموجة من التمرّد ضدّ وقاحة نموّ تلك النبتة الضارّة بالمكان، ومعرفة ماهية العدوّ في ذلك الاستكشاف، ثمّ جثت على ركبتيها واقتلعت تلك النبتة من جذورها. ثمّ، بقيت راكعة على درج المصنع المغلق، تتأمّل الصمت الواسع للجبال وأغصان الأشجار والغسق، فقالت في نفسها: وماذا ستفعلين؟

لم يكد الظلام يحلّ حين وصلت إلى نهاية روابط السكك التي أدّت بها إلى بلدة مارشفيل. وكانت مارشفيل هي نقطة نهاية الخطّ للأشهر العديدة الماضية؛ ولكن الخدمة إلى حدود تقاطع وايت توقّفت منذ فترة طويلة؛ وكذا أُعلن عن التخلّي عن مشروع استصلاح الدكتور فيريس في ذلك الشتاء.

كانت أنوار الشارع مضاءةً، معلّقة في الفضاء عند التقاطعات، في خطّ طويل ومتناقص من الكرات الصفراء فوق شوارع بلدة مارشفيل الخالية. وأوصدت جميع أبواب أفضل المنازل، تلك المنازل الأنيقة، القويّة البنية وذات التكلفة المتواضعة، وقد بنيت واعتُنِي بها على نحوٍ جيّد، وكانت هناك لافتات باهتة كتب عليها "للبيع" مثبّتة

على أسوار حدائقها الخاصّة. لكنّها رأت أضواء في نوافذ المباني الرخيصة والغارقة التي اكتسبت، خلال سنوات قليلة، التداعي الفوضويّ للأحياء الفقيرة؛ كانت منازل الناس الذين لم يتحرّكوا، أولئك الذين لا تصل نظرتهم أبدًا إلى ما بعد أسبوع واحدٍ. وشاهدت جهاز تلفزيون جديد كبير في غرفة مضاءة من منزل بسقف متداعٍ وجدران مشقّقة. وتساءلت عن المدّة التي كانوا يتوقّعونها كي تظلّ شركات الطاقة الكهربائيّة في كولورادو موجودة. ثمّ هزّت رأسها: لم يكن هؤلاء الناس يعلمون مطلقًا بوجود شركات الطاقة أصلًا.

اتّسم الشارع الرئيسيّ في مارشفيل بالنوافذ السوداء للمحلّات التجاريّة التي أصبحت خارج نطاق العمل. واعتقدت، وهي تنظر إلى علامات المتاجر، أنّ جميع المحلّات الفاخرة قد اختفت؛ ثمّ ارتعدت، حين تأمّلت الأشياء التي تسمّى الآن رفاهية، وفكّرت في مدى وجود تلك الأشياء وطريقة وجودها، حين كانت سابقًا متاحة لأفقر الناس، فأصبحت من الكماليّات، أشياء من قبيل: التنظيف الجافّ، والأجهزة الكهربائيّة، ومحطّة الوقود، وصيدليّات الأدوية، ومحلّات الألعاب. فالمتاجر الوحيدة التي بقيت مفتوحة كانت محلّات البقالة والصالونات.

كانت منصّة محطّة السكك الحديديّة مزدحمةً. وبدت أضواء القوس الساطعة وكأنّها تلتقط لمعانها من الجبال، فتعزل وتركّز الضوء على المنصّة، مثل مسرح صغير كانت به حركة مكشوفة عارية على مرأى من الصقائل غير المرئيّة التي ترتفع في محيط الليل الشاسع. كان الناس ينقلون الأمتعة، ويجمعون أطفالهم، ويساومون في نوافذ التذاكر، والذعر الخانق في طريقتهم يوحي بأنّ ما يريدون فعله حقًّا هو السقوط على الأرض والصراخ من هول الرعب. كان رعبهم يشبه الهروب من الذنب: لم يكن من طينة الخوف المتأتّي من الفهم، بل من رفضهم للفهم.

وقف القطار الأخير عند الرصيف، وقد شكّلت نوافذه سلسلة طويلة معزولة من الضوء. وكان بخار القاطرة يلهث بتوتّر عبر العجلات، من دون أن يكون به صوت الفرح المعتاد للطاقة المنبعثة من أجل العدو؛ بل كان يرافقه صوت نفس لاهثٍ يخشى

المرء أن يسمعه ويخشى أكثر التوقّف عن سماعه. وفي نهاية النوافذ المضاءة، رأت النقطة الحمراء الصغيرة لفانوس معلّق على عربتها الخاصّة. ووراء الفانوس، لم يكن هناك شيء سوى الفراغ الأسود.

لقد حُمِّل القطار بأقصى طاقته، وكانت الملاحظات الصاخبة للهستيريا الصادرة عن تداخل الأصوات تشبه نداءات التوسّل داخل فضاء الدهاليز والممرّات. وبعض الناس لم يغادروا، بل وقفوا في فضول مبتذل، يشاهدون العرض؛ لقد جاؤوا، كما لو أنّهم كانوا يعلمون أنّ هذا هو الحدث الأخير الذي سيشهدونه في مجتمعهم، وربّما في حياتهم.

مشت على عجلٍ عبر الحشد، في محاولة لعدم النظر إلى أيّ شخص. فالبعض يعرف من هي، لكنّ معظمهم لا يعرفونها. ثمّ رأت امرأة عجوز ترتدي شالا خشنًا على كتفيها وتجاعيدها توحي بصراع رافقها مدى حياتها من أجل العيش فانعكس على بشرة وجهها المتشقّقة؛ كانت نظرة المرأة نداءً ميؤوسًا منه للحصول على مساعدة. وكان هناك شابّ غير حليق، بنظّارتين ذواتَي حوافّ ذهبيّة، يجلس على صندوق تحت ضوء القوس، ويصرخ في الوجوه التي كانت تتنقّل أمامه: ماذا يقصدون بعدم وجود أعمال! انظروا إلى هذا القطار! إنّه مليء بالركّاب! هناك الكثير من الأعمال! كلّ ما في الأمر أنّهم لا يحقّقون أرباحًا، لهذا السبب هم يتركونكم تهلكون، تلك الطفيليّات الجشعة! ثمّ هرعت امرأة شعثاء إلى داغني، ملوّحة بتذكرتين وهي تصرخ بشيء عن الموعد الخطإ المسجّل على التذاكر. لقد وجدت داغني نفسها تدفع الناس دفعًا للخروج من الطريق، وتناضل من أجل الوصول إلى نهاية القطار، لكنّ رجلًا هزيلًا، بعينين جاحظتين توحيان بسنوات من الشرّ والعدم، هرع إليها، وهو يصرخ: كلّ شيء على ما يرام بالنسبة إليك، لديك معطف جيّد وعربة خاصّة، لكنّك لن تقدّمي لنا مزيدا من القطارات، أنت وكلّ الأنانيّين.. ثم توقّف فجأة عن الكلام، وأخذ ينظر إلى الرجل الذي كان وراءها. شعرت بيد تمسك بمرفقها: إنّه هانك ريردن. فأمسك بذراعها وقادها نحو عربتها؛ ولكنّها عندما تذكّرت ملامح وجه ذلك الرجل النحيف،

استوعبت السبب الذي جعل أولئك الناس يقفون في طريقها هي وريردن. وعند نهاية المنصّة، وقف رجل بدينٌ شاحب الوجه يواسي امرأة تبكي: هكذا كان الأمر دائمًا في هذا العالم. لن تكون هناك فرص للفقراء، إلّا إذا تمّ تدمير الأغنياء وظلّت شعلة آبار نفط وايت عاليًا فوق المدينة، معلّقة في الفضاء المظلم مثل كوكب غير مُكيّف، تتمايل في مهبّ الريح.

دخل ريردن إلى عربتها، بينما بقيت هي على درج الردهة، فتسبّبت في تأخير الابتعاد النهائيّ للقطار. ثمّ سمعت: على الجميع أن يكونوا على متن القطار! فنظرت إلى الناس الذين بقوا على المنصّة كما ينظر المرء إلى أولئك الذين يشاهدون رحيل قارب النجاة الأخير.

وقف قاطع التذاكر في الأسفل، عند أوّل الدرج، بفانوس في يده وساعة في اليد الأخرى. فنظر إلى الساعة، ثمّ إلى وجهها. فأجابته بتأكيد صامت من إغلاق عينيها وإمالة رأسها. ثمّ رأت فانوسه يدور في الهواء، بينما كانت تنتقل بعيدًا، لقد سهّلت عليها رؤية هانك ريردن أوّل هزّة من العجلات، على القضبان المصنوعة من معدن ريردن، عندها سحبت الباب ودخلت إلى عربتها.

***

عندما اتّصل جيمس تاجارت بهاتف ليليان ريردن من نيويورك قائلًا: لماذا تسألين، لا يوجد سبب خاصّ لمكالمتي، فقط كنت سأسألك عن أحوالك وعمّا إذا جئت إلى المدينة، فأنا لم أرك منذ زمن طويل وفكّرت فقط في أن نتناول الغداء معًا في المرّة القادمة عندما تكونين في نيويورك فعلمت أنّه قد خطر بباله بعض الأسباب الخاصّة جدًّا.

أجابته بكسل: أوه، دعني أفكّر في الأمر، ما اليوم الذي حدّدته؟ الثاني من نيسان/ أبريل؟ اسمح لي بأن أنظر في روزنامة أنشطتي، قد تسألني عن السبب، لأنّه يتصادف مع بعض التسوّق الذي سأقوم به في نيويورك غدًا، لذلك سأكون سعيدة بالسماح لك بادّخار أموالي للغداء.

كان يعلم أنّه ليس لديها أيّ تسوّق تقوم به، وأنّ مأدبة الغداء ستكون الغرض الوحيد من رحلتها إلى المدينة.

التقيا في مطعم متميّز، ومكلف جدًّا، بل كان أكثر من متميز، إلى درجة أنّ الصحف لم تذكره في أعمدة الشائعات. لم يكن المكان ينتمي إلى أنواع المطاعم التي يحرص جيمس تاجارت دائما على الظهور فيها للدعاية الشخصيّة، فاستنتجت أنّه لم يُرِد أن يراهما الناس معًا.

وقابلته بوجه تعلوه تسلية نصفها تلميح ونصفها الآخر أسرار، واستمعت إليه وهو يتحدّث عن أصدقائهما والمسرح والطقس، فحصّن نفسه بعناية إذ ذكر المواضيع التافهة وغير المهمّة. لقد جلست برشاقة على غير استقامة، كما لو أنّها منحنية إلى الخلف، تستمتع بعدم جدوى أدائه وحقيقة أنّه أعدّ ذلك اللقاء لمصلحتها. وانتظرت بفضول صبور لاكتشاف هدفه.

قالت: يا جيم، أعتقد أنّك تستحقّ تشجيعا أو ميداليّة أو أيّ شيء من هذا القبيل، لحفاوتك وبشاشتك الملحوظة، على الرغم من كلّ المتاعب والفوضى التي كنت تواجهها. ألم تغلق أفضل فرع من السكك الحديدية الخاصّة بك؟

ـ أوه، إنّها مجرّد نكسة ماليّة طفيفة، لا شيء أكثر من ذلك. على المرء أن يتوقّع عمليّات تقليص في النفقات في وقت كهذا. بالنظر إلى الحالة العامّة للبلاد، نحن نبلي بلاءً حسنًا. وأفضل من الجميع.

أضاف متجاهلًا: إلى جانب ذلك، إنّها مسألة تقدير لما إذا كان خطّ ريونورتيي هو أفضل فرع لدينا أم لا. وحدها أختي تؤمن بذلك، لأنّه كان مشروعها المفضّل.

التقطت نبرة من المتعة في كلامه تطمس ملامح من مقاطع صوته. فابتسمت وقالت: أدرك ذلك.

وبالنظر إليها من تحت جبهته المنخفضة، كما لو أنّه يؤكّد لها توقُّع فهمها، سألها تاجارت: كيف تقبّل الأمر؟

ـ من؟

ـ زوجك.

ـ أيّ أمر؟

ـ إغلاق ذلك الخطّ.

ابتسمت بمرح وقالت: يا جيم، توقّعاتك جيّدة بقدر جودة توقّعاتي، وحتّى توقّعي هو في الحقيقة جيّد جدًّا.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أنت تعلم كيف كان زوجي سيتقبّل الأمر، تماما كما تعلم كيف كانت أختك ستتقبّله. إذَن، فسحابتك لها بطانة فضّيّة مزدوجة، أليس كذلك؟

ـ ماذا كان يقول لك في الأيّام القليلة الماضية؟

ـ لقد سافر بعيدًا إلى ولاية كولورادو وبقي لأكثر من أسبوع، لذلك أنا..

ثمّ توقّفت عن الكلام، فبدأت الإجابة بشكل عامّ، على الرغم من أنّها لاحظت أنّ سؤال تاجارت كان محدّدًا جدًّا بينما بدت نبرته عاديّة جدّا، فأدركت أنّه قد أوحى بالملاحظة الأولى المؤدّية إلى الغرض من مأدبة الغداء، وكان ذلك في الوقت نفسه، لقد توقّفت بإيجازٍ للحظة، ثمّ أنهت كلامها، محافظة على النهج العامّ نفسه: لذلك أنا لا أعلم. لكنّه سيعود في أيّ يومٍ.

ـ هل بإمكانك القول إنّ موقفه هو من النوع الذي يمكن أن يوصف بالموقف المتمرّد؟

ـ لماذا تقول هذا يا جيم، فأنت تقلّل من شأنه!

ـ كان من المأمول أن تكون الأحداث قد علّمته حكمة اتّباع منهج أكثر نضجًا.

لقد استمتعت بإبقائه في شكٍّ بشأن فهمها، فقالت ببراءة: أوه نعم، سيكون من الرائع إذا جعله أيّ أمر يتغيّر.

ـ إنّه يصعّب الأمور على نفسه.

ـ كان دائمًا كذلك.

ـ لكنّ الأحداث طالتنا جميعا، بل ستجعلنا نزداد مرونة على مستوى التفكير عاجلًا أم آجلًا.

ـ لقد سمعت بخصائص عديدة تُنسَب إليه، لكنّ (المرونة) ليست منها.

ـ حسنًا، الأمور تتغيّر وكذلك هي الحال بالنسبة إلى الإنسان. وفي نهاية المطاف، فإنّ قانون الطبيعة هو الذي يفرض على الحيوانات أن تتكيّف مع بيئتها. وأودّ أن أضيف أنّ القدرة على التكيّف هي إحدى الخصائص التي صارت مطلوبة في الوقت الحاضر بسبب القوانين البشريّة. نحن نمرّ بوقت عصيب جدًّا، وأنا أكره أن أراك تعاني من عواقب موقفه المتعنّت. لا أحبّ أن أراك في هذا النوع من الخطر الذي يتّجه إليه زوجك.

أجابته بلطف: هذا لطف منك يا جيم.

كان ينثر جمله ببطءٍ حذرٍ، ويوازن بين الكلمة والتجويد حتّى يكون خطابه أكثر وضوحًا. أرادها أن تفهم، لكنّه لم يردها أن تفهم تمامًا، لأنّ جوهر تلك اللّغة الحديثة، التي تعلّم أن يحذقها بخبرة، هو ألّا يترك لنفسه أو للآخرين أن يفهموا أيّ شيء حتّى جذور الموضوع.

لم يكن بحاجة إلى كلمات كثيرة لفهم السيّد ويذربي. ففي رحلته الأخيرة إلى واشنطن، ناشد السيّدَ ويذربي أنّ أيّ خفض لرسومات السكّك الحديديّة سيكون بمثابة الضربة القاضية؛ وقد منحت زيادات في الأجور، ولكن مازالت الصحافة تعلن طلبات خفض رسومات النقل، وكان تاجارت يعلم ما يعنيه، إذا كان السيّد ماوتش لا يزال يسمح لهم بالاستماع إليهم؛ كان يعلم أنّ السكّين لا يزال متأهّبًا ليوضع على رقبته. ولم يجبه السيّد ويذربي على مناشداته، ولكنّه قال متكهّنا: إنّ ويسلي تواجهه مشاكل كثيرة صعبة. فإذا كان يجب عليه إعطاء الجميع جرعة تنفّس، من الناحية

الماليّة، فإنّه يجب عليه أيضًا وضع تلك العمليّة في إطار برنامج طارئ معيّن. لكنّك تدرك جحيم العناصر غير التقدّميّة في البلاد وما قد تثيره حول هذا الموضوع. فرجل من أمثال ريردن لا يُريد أن يحقّق المزيد من الأعمال المثيرة. سيعطي ويسلي الكثير لأيّ شخص يمكنه إبقاء ريردن في الطابور. لكن أعتقد أنّ هذا شيء لا أحد يستطيع أن يصل إليه على الرغم من أنّني قد أكون مخطئًا. قد تكون أعلم منّي يا جيم، لأنّ ريردن صديق لك، يحضر حفلاتك الخاصّة وما إلى ذلك من مناسبات.

وعندما عاد إلى نظر نحو ليليان عبر الطاولة، قال تاجارت: أعتبر أنّ الصداقة أثمن شيء في الحياة، وسأكون حزينًا إذا لم أعطك دليلي على ذلك.

ـ لكنّني لم أشكّ في ذلك قطّ.

فخفض تاجارت من صوته في نبرة تحذير مشؤوم: أعتقد أنّه يجب أن أقول لك، كمعروف بين الأصدقاء، وإن كان الأمر سرًّا، إنّ موقف زوجك يناقش في مستويات عالية جدًّا. أنا متأكّد من أنّك تدركين ما أعنيه.

وحسب اعتقاد تاجارت ذلك هو السبب الذي جعله يكره ليليان ريردن، فهي تعرف اللعبة، لكنّها لعبتها وفق تغييرات غير متوقّعة منها. كان من بين ما يخالف جميع قواعده هو أن تنظر إليه فجأة، وتضحك قبالة وجهه – وبعد كلّ تلك الملاحظات التي تبيّن أنّها فهمت القليل منها فقط – تقول بصراحة تبيّن أنّها فهمت أكثر من اللّازم: لماذا يا عزيزي تستفيض في الشرح، بالطبع أنا أفهم جيّدًا ما تعنيه. تعني أنّ الغرض من هذا الغداء الممتاز ليس معروفًا أردت أن تقدّمه لي، بل معروفًا أردت الحصول عليه منّي. وتقصد أنّك أنت من هو واقع في الخطر ويمكن أن تستخدم هذا المعروف لنيل امتياز عظيم من أجل التجارة في المستويات العليا. وأنت تعني أنّك تذكّرني بوعد تسليمك البضائع.

ردّ بغضب: إنّ هذا النوع من الأداء الذي قدّمه في محاكمته لم يكن ما أسمّيه تسليم البضائع. لم يكن ما دفعتني إلى توقّعه.

قالت بهدوء: أوه يا إلهي، بالتأكيد لم يكن كذلك. لكن يا عزيزي، هل توقّعت منّي أن أدرك أنّه بعد أدائه ذلك لن يكون مشهورًا جدًّا في المستويات العليا؟ هل تعتقد حقًّا أنّ ما كنت ستقوله يمثّل خدمة سرّيّة؟

ـ لكن هذا صحيح. لقد سمعتهم يناقشون موضوع زوجك، لذلك فكّرت في أن أخبرك به.

ـ أنا متأكّدة من أنّ هذا صحيح. أعلم أنّهم سيناقشون موضوعه وأعلم أيضًا أنّه إذا كان هناك أيّ شيء يمكن لهم فعله به، فإنّهم لن يتوانوا في ذلك. يا عزيزي، ألن يكونوا سعداء بفعل ذلك! لهذا أعلم أنّه هو الوحيد بينكم الذي لا يواجه أيّ خطر في هذه اللحظة. أعلم أنّهم هم الذين يخافون منه، ألا ترى بوضوح أنّني أفهم جيّدًا كلّ ما تعنيه يا عزيزي؟

ـ حسنا، إذا كنت تعتقدين أنّك تفهمينني، فيجب أن أقول لك إنّني من جانبي لا أفهمك على الإطلاق ولا أعرف ما أنت بصدد فعله.

ـ لماذا تقول هذا؟ أنا فقط أضع الأمور في نصابها الصحيح، كي تدرك أنّني أعرف كم كنت في حاجة إليّ. والآن بما أنّ الأمر واضح ومباشر، من جانبي سأقول لك الحقيقة: لم أخنك، بل فشلت فقط. بخصوص أدائه في المحاكمة كنت أتوقّع أداءً أقلّ. وكنت أملك سببا وجيها يدعم توقّعي. لكنّ خطأً مّا وقع ولم أكن أعرفه وأنا أحاول معرفة ذلك. وعندما سأعرف، سأفي بوعدي. ثمّ عليك أن تكون حرًّا في تحمّل المسؤوليّة الكاملة، وتقول لأصدقائك في المستويات العليا إنّك أنت من حطّم سلاح زوجي.

ردّ بعصبية: ليليان، لقد قصدت ذلك حين أشرت إلى أنّني حريص على إعطائك دليلًا على صداقتي، لهذا إذا كان هناك أيّ شيء يمكنني القيام به لكي أردّ لك الجميل فأنا مستعدّ لذلك.

قالت وهي تضحك: لا يوجد أيّ شيء. أعلم أنّك قصدت ذلك، لكن لا يوجد

شيء يمكنك أن تفعله من أجلي ولا أيّ معروف من أيّ نوع ولا أيّ مبادلة. أنا حقًّا امرأة لا تفقه المبادلات التجاريّة، ولا أبحث عن مقابل لعملي. أنت تعاني من حظّ سيّئ يا جيم وعليك فقط أن تبقى تحت رحمتي.

ـ إذَن لماذا تكبّدت عناء القدوم إلى هنا؟ وماذا أَفَدْتَ منه؟

قالت مبتسمة: لقد حصلت على هذا الغداء، أن أراك فقط هنا وأعلم أنّه كان عليك أن تأتي لمقابلتي.

تدفّقت شرارة الغضب من عيني تاجارت، ثمّ ضاقت جفونه ببطء وانحنى مجدّدًا في كرسيّه، لكن سرعان ما استعاد وجهه علامات الارتياح. وحتّى من داخل ذلك الوحل غير المعلن، وغير المسمّى، كان قادرًا على إدراك أيّ واحد من تلك القيم هو أكثر اعتمادًا على الآخر.

حين افترقا عند باب المطعم، ذهبت إلى جناح ريردن في فندق واين - فوكلاند، حيث كانت تقيم من حين إلى آخر في فترات غيابه. كانت تجوب الغرفة لمدّة نصف ساعة تقريبًا، بطريقة تأمّل متأنّية. ثمّ التقطت الهاتف بحركة سلسة، ولكن بنفس هادف لقرار توصّلت إليه فجأة. اتّصلت بمكتب ريردن في المطاحن وسألت الآنسة إيفز عن الزمن الذي تتوقّع فيه عودته. فردّت الآنسة إيفز بصوت واضح ومهذّب: سيكون السيّد ريردن في نيويورك غدا، سيصل على متن القطار المُذَنَّب.

ـ غدًا؟ هذا رائع. هلّا أسديت لي معروفًا يا آنسة إيفز؟ اتّصلي من فضلك بجيرترود في المنزل وأخبريها أنّني لن أعود للعشاء. فأنا سأقضي الليلة في نيويورك.

أغلقت الخطّ، ولمحت ساعتها واتّصلت ببائع الزهور بفندق واين ـ فوكلاند وقالت:

ـ أنا زوجة هانك ريردن وأودّ منك تسليم باقتين من الورود لغرفة استقباله على متن القطار المذنّب... نعم، اليوم، بعد ظهر اليوم، عندما يصل القطار المذنّب إلى شيكاغو... لا، من دون أيّ بطاقة.. الزهور فقط... شكرًا جزيلًا.

ثمّ اتّصلت هاتفيًّا بجيمس تاجارت: جيم، هل تستطيع أن توفّر لي تصريح عبور خاصّ لدخول منصّة الركاب؟ أريد أن أستقبل زوجي في المحطّة غدًا.

تردّدت بين الاتّصال ببالف يوبانك وبيرترام سكودر، فاختارت بالف يوبانك، وهاتفته، وحدّدت موعدًا معه لتناول عشاء ذلك المساء والاستمتاع بالعرض الموسيقيّ الذي سيتخلّله. ثمّ ذهبت للاستحمام، واستلقت في حوض من الماء الدافئ بغية الاسترخاء، وأخذت تطالع مجلّة متخصّصة في قضايا الاقتصاد السياسيّ.

كان الوقت متأخرا بعد الظهيرة حين اتّصل بها بائع الزهور قائلًا: لقد أخبرنا مكتبنا في شيكاغو بأنّهم لم يتمكّنوا من تسليم الزهور للسيّد هانك، لأنّه لم يكن على متن القطار المذنّب.

سألته: هل أنت متأكّد؟

ـ متأكّد تمامًا يا سيّدة ريردن. لقد اكتشف موظّفنا في محطّة شيكاغو أنّه لا توجد مقصورة في القطار محجوزة باسم السيّد ريردن. فراجعنا مكتب شركة تاجارت العابرة للقارّات في نيويورك للتأكّد من هذا الأمر، وقيل لنا إنّ اسم السيّد ريردن ليس مدرجًا على قائمة المسافرين على متن القطار المذنّب.

ـ فهمت... من فضلك أَلغِ هذه الطلبيّة... شكرًا.

جلست عابسةً بالقرب من الهاتف للحظة، ثمّ عاودت الاتّصال بالآنسة إيفز وقالت: أرجو أن تسامحيني لأنّني كنت مشتّتة الذهن قليلًا، يا آنسة إيفز، لقد كنت على عجل ولم أدوّن أي شيء ممّا قلتِه لي سابقا، فوجدت نفسي في ريبة الآن ممّا أخبرتني به. هل قلت لي إنّ السيد ريردن سيعود غدًا؟ وعلى متن القطار المذنّب؟

ـ نعم، يا سيّدة ريردن، هذا بالضبط ما قلته.

ـ ألم تسمعي عن أي تأخير أو تغيير في برنامج عمله؟

ـ ولماذا هذا السؤال، بالتأكيد لا. في الواقع، لقد تحدّثت مع السيد ريردن قبل حوالي ساعة. اتّصل بي هاتفيًّا من المحطّة في شيكاغو، وذكر لي أنّه مضطرّ إلى إنهاء المكالمة

والإسراع بالعودة على متن القطار المذنّب، لأنّه كان على وشك المغادرة.

ـ فهمت. شكرًا لك.

قفزت من وقع الدهشة بمجرّد أن وضعت سماعة الهاتف وأنهت المكالمة ثمّ تمالكت نفسها. وبدأت تجوب الغرفة بسرعة، فكانت خطواتها الآن متوتّرة على غير إيقاع. ثمّ توقّفت، لقد خطرت ببالها فكرة مفاجئة. ربّما كان هناك سبب واحد فقط يجعل الرجل يحجز القطارات تحت اسم مستعار، إذا لم يكن يسافر بمفرده.

وأخذت عضلات وجهها تطلقُ بانسياب بطيء ابتسامةً من الارتياح، لقد كانت تلك فرضيّة خارج توقّعاتها.

***

كانت ليليان ريردن واقفةً بمنصّة المحطّة الجانبيّة، في منتصف المسافة على طول القطار، تراقب نزول الركّاب من القطار المذنّب. لقد رسم فمها ملامح ابتسامة؛ ولكنّ في عينيها اللتين تعوزهما الحياة بريقًا من النشاط ؛ كانت تجول ببصرها من وجه إلى آخر، بتمايل من رأسها يشبه الحرص المحرج لتلميذة. وتوقّعت رؤية ملامح وجه ريردن وعشيقته تتأبّط ذراعه، حين يراها واقفة هناك.

كانت تتطلّع إلى كلّ امرأة شابّة جميلة تخطو درج القطار. فكان مشهدًا صعبًا جدًّا: ففي غضون لحظة وبعد الأعداد القليلة الأولى، بدا القطار وكأنّه قد انفجر على شكل طابور أغرق المنصّة بتيّار قويّ جارف اجتاحها في اتّجاه واحد، كما لو أنّه سحب من فراغ؛ كانت ليليان لا تكاد تميّز الأشخاص المنفصلين بعضهم من بعض. وكانت أضواء المنصّة أكثر توهّجًا من إنارة القطار، تلتقط ذلك الشريط في الظلمة الزيتيّة المعفّرة. فاحتاجت ليليان إلى جهد للوقوف بسكون ومواجهة ضغط الحركة الخفيّ.

كانت أوّل نظرة تلقيها على ريردن وسط الحشد بمثابة الصدمة، إذ لم تنتبه إلى خروجه من عربته، لكنّه كان هناك، يسير في اتّجاهها من مكان بعيد على مسافة طول القطار. كان بمفرده يسير بسرعته الهادفة المعتادة، ويداه في جيْبَيْ معطفه الخشن. لم

يكن يرافق أيّ امرأة، أو أيّ رفيق من أيّ نوع ما عدا حمّالا يسرع حذوه بحقيبة أدركت أنّها حقيبته.

وفي خضمّ خيبة أمل لا تصدّق، نظرت بشكل محموم صوب أيّ جسد أنثويّ يمكن أن يتركه وراءه. فأيقنت أنّها ستدرك اختياره. لكنّها لم ترَ أيّ شيء. ثمّ لاحظت أنّ آخر عربة في القطار كانت خاصّةً، وأنّ الشخص الذي يقف على بابها، ويتحدّث إلى مسؤول المحطّة - شخص لا يرتدي شالًا من فرو المنك أو أيّ وشاح، وإنّما يرتدي معطفًا رياضيًّا خشنًا شدّد على الميزة المتفرّدة لجسد نحيل في هيئة واثقة بوصفه صاحب تلك المحطّة ورئيسها. كانت داغني تاجارت. ففهمت ليليان ريردن القصّة.

ـ ليليان ما خطبك؟

سمعت صوت ريردن، ثمّ شعرت بيده تمسك بذراعها، فرأته ينظر إليها كما ينظر المرء إلى كيان في حالة طوارئ مفاجئة. كان ينظر إلى وجهها الخالي ونظرتها غير المركّزة بسبب الخوف.

ـ ماذا حدث؟ وماذا تفعلين هنا؟

ـ أنا... مرحبا يا هانك... لقد جئت فقط لمقابلتك... لا يوجد سبب خاص... أردت فقط أن ألتقي بك.

اختفى الرعب من ملامح وجهها، لكنّها تحدّثت بصوت غريب: أردت أن أراك، لقد اجتاحني اندفاع مفاجئ لم أستطع مقاومته، لأنّ...

ـ ولكنّك تبدين... مريضة.

ـ لا... لا، ربّما شعرت بالإغماء، فالمكان مختنق هنا... ولم أستطع مقاومة المجيء، لأنّه جعلني أتذكّر الأيّام التي كنت تسعد فيها برؤيتي... لقد كانت لحظة وهم لإعادة بناء ذاتي...

بدت الكلمات تبدو وكأنّها درس حفظته عن ظهر قلب. كانت تعلم أنّ عليها التحدّث، بينما عقلها يناضل من أجل فهم المعنى الكامل لاكتشافها. فكانت الكلمات

جزءًا من الخطّة التي نَوَتْ استخدامها، إذا كانت قد قابلته بعد أن وجد الورود في مقصورته. لم يجبها ولكنّه ظلّ يراقبها بعبوس.

ـ لقد افتقدتك يا هانك. أدرك ما أنا بصدد الاعتراف به، ولكنّني لا أتوقّع أنّ هذا الأمر لم يعد يعني لك أيّ شيء.

لم تكن هذه الكلمات تتناسب مع ملامح وجهها المشدودة، وشفتيها اللتين تحرّكتا بجهد، وعينيها اللتين حافظتا على نظرة خاطفة بعيدة عنه إلى أسفل على طول المنصّة، ثمّ أضافت:

ـ أردت... أردت فقط أن أفاجئك.

ورافقت كلامها بنظرة من الدهاء التي كانت تعلو ملامح وجهها. فأمسكها من ذراعها، لكنّها سحبته مجدّدًا، بقليل من الحدّة.

ـ ألن تقول لي أيّ كلمة يا هانك؟

ـ وماذا كنت ترغبين في أن أقول؟

ـ هل تكره استقبالي لك إلى هذا الحدّ، هل تكره وجود زوجتك في المحطّة لترحّب بك؟

ثمّ نظرت إلى أسفل المنصّة، وكانت داغني تاجارت تتّجه صوبهما؛ لكنّه لم يراها. فقال: دعينا نذهب.

سألته وهي لا ترغب في التحرّك: وهل تكرهه؟

ـ ماذا أكره؟

ـ هل تكره لقائي؟

ـ لا، أنا لا أكرهه. أنا فقط لا أفهمه.

ـ أخبرني عن رحلتك. أنا متأكّدة من أنّك قضّيت رحلة ممتعة جدًّا.

ـ دعك من هذا الأمر، يمكننا التحدّث عنه في المنزل.

ردّت بنبرة حادّة: ومتى حظيت أصلًا بفرصة منك للحديث في المنزل؟

كانت تنطق كلماتها بلامبالاة، كما لو أنّها تودّ تمطيطها لملء الوقت، لسبب مّا لم تستطع تحديده، ثمّ أضافت:

ـ كنت آمل أن أقتنص لحظات قليلة من اهتمامك -مثل هذه اللحظات- بين القطارات والمواعيد التجاريّة وجميع تلك المسائل المهمّة التي تعقدها ليل ونهار، كلّ تلك الإنجازات العظيمة مثل... مرحبًا، يا آنسة تاجارت!

ثمّ التفت ريردن. لقد كانت داغني تمرّ بجانبهما، لكنّها توقّفت. وقالت وهي تتوجّه إلى ليليان، منحنية بوجه يخلو من أيّ تعبير: كيف حالك يا ليليان.

ردّت ليليان وهي تبتسم: أنا آسفة جدًا يا آنسة تاجارت. أرجو أن تعذريني، لأنّني لا أعرف كيف ينبغي أن تكون التعزية في مثل هذه الوقائع.

ثمّ تنبّهت إلى أنّ داغني وريردن لم يتبادلا التحيّة، وأضافت:

ـ يبدو أنّك كنت عائدة من مناسبة يمكن وصفها، في الواقع، بالجنازة، أليس كذلكَ؟

ارتسمَ خطٌّ خافتٌ على وجهِ داغني من أثرِ الدهشة والازدراء. ثمّ أمالت رأسها بقصد السماح لها بالمغادرة وسارت بعيدا عنهما.

لمحت ليليان بحدّة وجه ريردن. فنظر إليها بلامبالاة.لم تقل شيئًا. وعندما التفت لينصرف تبعته دون أن تنبس بأيّ كلمة. وفي طريقهما إلى فندق واين فوكلاند بقيت صامتة في سيّارة الأجرة، بوجه نصف مائل ملتفتًا بعيدًا عنه. لقد كان متأكّدًا، وهو ينظر إلى العناصر الملتوية من فمها المشدود، أنّ بعض العنف غير المعتاد كان يستعر بداخلها. لم يعتد قطّ منها أن تبدي عواطف قويّة من أيّ نوع.

والتفتت لمواجهته حين كانا وحيدين في غرفته. فسألته: إنّها هي إذَن؟

لم يكن يتوقّع ذلك السؤال. فنظر إليها، كما لو أنّه لم يفهم السؤال جيّدًا، ثمّ أضافت:

ـ عشيقتك هي داغني تاجارت، أليس كذلك؟

لكنّه لم يجبها. فاسترسلت في الكلام:

ـ لقد علمت صدفةً أنّه لم يكن لك أيّ مقصورة محجوزة باسمك في ذلك القطار. لذلك أدركت أين قضّيت آخر أربع ليال. هل تريد أن تعترف بذلك أم تريد منّي أن أرسل محقّقين ليستجوبوا طاقم قطارها وخدم منزلها؟ هل عشيقتك هي داغني تاجارت؟

أجابها بهدوء: نعم.

فالتوى فمها ليصدر ضحكة قبيحة، لكنّها كانت تحدّق فيه: كان يجب عليّ أن أعرف ذلك. كان يجب عليّ أن أخمّن. لهذا السبب لم ينجح الأمر!

سألها في حيرة جوفاء: ما الأمر الذي لم ينجح؟

تراجعت، كما لو أنّها تذكّر نفسها بوجوده: هل كان لديك- عندما زارت منزلنا في الحفلة – هل كان لديك، حينها...

ـ لا، لم يحدث ذلك حينها.

قالت: سيّدة الأعمال العظيمة، التي تخال نفسها فوق اللوم والضعف الأنثويّ. ذات العقل العظيم الذي لا يولي الجسدَ أيّ اهتمام... السوار...

وصاحبها مظهر ثابت جعل الأمر يبدو كما لو أنّ الكلمات أُسقِطَت عن طريق الخطإ من فيضٍ بخاطرها: هذا ما كانت تعنيه لك. وهذا هو السلاح الذي منحتك إيّاه.

ـ إذا كنتِ حقًّا تعنين ما تقولين، فإنّها كذلك.

ـ هل تعتقد أنّني سأسمح لك بالإفلات من فعلتك هذه؟

ـ ابتعدي..؟

كان ينظر إليها بريبة، وبفضول باردٍ مدهش.

قالت دون أن تتمّ كلامها: لهذا السبب، أثناء محاكمتك..

ـ ماذا عن محاكمتي؟

قالت وهي ترتجف: أنت تعلم، بالطبع، أنّني لن أسمح لهذا أن يستمرّ.

ـ وما علاقة ذلك بمحاكمتي؟

لن أسمح لك بأن تحصل عليها. لن تحصل عليها، بل بإمكانك أن تحصل على أيّ شخص إلّا داغني.

سألها برويّة: ولماذا؟

ـ لن أسمح لك بذلك! سوف تتخلّى عن هذا الأمر! سوف تتخلّى عنها، سوف تتركها، لن تراها مجدّدًا.

ـ ليليان، إذا كنت ترغبين في مناقشة ذلك، فهناك شيء واحد ينبغي أن تقتنعي به وهو أنّه لا شيء على وجه الأرض سيجعلني أتخلّى عن هذا الأمر.

ـ لكنّني أطالبك بذلك!

ـ قلت لك إنّه يمكنك المطالبة بأيّ شيء غيره.

رأى نظرة ذعر غريبة تتعاظم في عينيها: لم تكن نظرة تنمّ عن الفهم، بل عن رفض باتٍّ للفهم، كما لو أنّها تريد تحويل عنف عاطفتها إلى حاجز من الضباب، أو أنّها كانت تأمل في ألّا يعميها ذلك الحاجز عن رؤية الواقع، بل أن يجعل عماها الواقع يختفي من الوجود.

ـ لكن لديّ الحقّ في المطالبة بذلك! فأنا أملك حياتك! إنّها ملكي، وأنت أقسمت على ذلك. لقد أقسمت على تحقيق سعادتي ولم تقسم على تحقيق سعادتك الخاصّة، أقسمت على تحقيق سعادتي فقط! فماذا قدّمت لي؟ أنت لم تعط أيّ شيء، ولم تضحِّ بأيّ شيء، ولم تكن قطّ مهتمًّا بأيّ شيء غير نفسك، وعملك، وطواحينك، وموهبتك، وعشيقتك! ماذا عنّي؟ فأنا أحتفظ بحقّ أن أكون المطالبة الأولى بذلك! وأنا أقدّمه للمجموعة! أنت الحساب الذي أملكه!

دفعتها ملامح وجهه إلى بلوغ أعلى الدرجات الصاعدة من صوتها، وأطلقت عقيرتها بالصراخ، إلى حدّ بلوغ الرعب. فما كانت بصدد رؤيته، ليس من قبيل الغضب أو الألم أو الذنب، إنّه العدوّ الواحد المنيع: اللّامبالاة.

صرخت قائلة: هل فكّرت بي؟ هل فكّرت بما تفعله بي؟ ليس لك الحقّ في الاستمرار، إذا كنت تعلم أنّك تزجّ بي في الجحيم كلّما نِمْتَ مع تلك المرأة! فأنا لا أستطيع تحمّل ذلك، ولا أستطيع أن أتحمّل لحظة واحدة من معرفة ذلك! هل ستضحّي بي تلبية لرغبتك الحيوانيّة؟ هل أنت شرّير وأنانيّ إلى هذا الحد؟ هل يمكنك شراء متعتك مقابل معاناتي؟ هل تستمع وأنت تمارس عليّ كلّ هذه العذابات؟

لم يكن يشعر بأيّ شيء، لقد لاحظ الشيء الذي رآه بإيجاز في الماضي، وهو يراه الآن في القبح الكامل لعدم جدواه: مشهد مناشدات الشفقة المقدّمة على شكل كراهية مزمجرة، كتهديدات ومطالب. فقال بهدوء شديد:

ـ ليليان، سأحظى بها، حتّى لو أخذت حياتك.

سمعت ذلك الكلام، بل وسمعت حتّى أكثر ممّا كان هو على استعداد لمعرفته وسماعه في كلماته. وكانت الصدمة، بالنسبة إليه، عندما لاحظ أنّها لم تعد تصرخ أثناء الإجابة، بل رآها، بدلًا من ذلك، تنكمش وتستعيد هدوءها، فقالت بضعف:

ـ ليس لك الحقّ...

حاصرها العجز المحرج لكلمات شخص يعرف أنّ كلماتها لا معنى لها.

قال: ومهما تكُن مطالبك، فلا يمكن لأيّ كائن بشريّ أن يطالب كائنًا آخر بأن يمحو نفسه من الوجود.

ـ إلى هذه الدرجة هي مهمّة بالنسبة إليك؟

ـ بل وأكثر من ذلك بكثير.

استعاد وجهها نظرة التأمّل، ولكنّها كانت نظرة ماكرة. ثمّ ظلّت صامتة.

ـ ليليان، أنا سعيد لأنّك تعرفين الحقيقة. الآن يمكنك أن تختاري وفق فهم كامل للمسألة. يمكنك طلب الطلاق، أو ربّما تطلبين منّا أن نبقى كما نحن. هذا هو الخيار الوحيد الذي لديك. هذا كلّ ما يمكنني تقديمه لك. وأظنّك تعلمين أنّني أريد الطلاق لكنّني لا أطالب بالتضحيات. لا أعلم أيّ نوع من الراحة يمكنك أن تجديه في زواجنا، ولكن إذا كنت تجدين الراحة في الاستمرار، فأنا لن أطلب منك التخلّي عنه. لا أعلم السبب الذي يجعلك ترغبين في التمسّك بي الآن، وأنا لا أعلم ما أعنيه لك، كما لا أعرف ما الذي تسعين وراءه. فما هو شكل السعادة الذي تريدينه؟ ما الذي ستحصلين عليه من حالة أرى أنّها لا تطاق لكلّ منا؟ فوفقًا لكلّ معاييري كان يجب عليك طلب الطلاق منذ زمن بعيد. ووفقًا للمعايير ذاتها، فإنّ الحفاظ على زواجنا سيكون احتيالًا فاسدًا. لكنّ معاييري ليست ملكك. فأنا لا أفهم معاييرك، ولن أستوعبها أبدًا، ولكنّني سأقبلها. فإذا كانت هذه هي طريقة حبّك لي، وإذا كان حملك لاسم زوجتي سيهبك شكلا من أشكال الرضا، فأنا لن آخذه منك. أنا الذي نقض وعده وخالف كلمته لذلك سأكفّر عن هذا إلى الحدّ الممكن. أنت تعلمين، بالطبع، أنّه يمكنني شراء أحد هؤلاء القضاة العصريّين والحصول على الطلاق في أيّ وقت يحلو لي. لكنّني لن أفعل ذلك. وسأحافظ على كلمتي، إذا كنت ترغبين في ذلك، ولكن هذا هو الشكل الوحيد الذي يمكنني الاحتفاظ به. الآن، الخيار خيارك ولكن إذا اخترت أن تحتفظي بي، فيجب عليك ألّا تتحدّثي معي عنها، ويجب ألّا تظهري لها أنّك تعلمين بأمرنا، وإذا التقيت بها في المستقبل، فيجب ألّا تنقّبي في ذلك الجزء من حياتي.

وقفت ساكنة، تنظر إليه، بهيئة جسدها المترهّل والفضفاض، وكأنّ إهماله كان شكلًا من أشكال التحدّي. ثم قالت وهي تضحك:

ـ الآنسة داغني تاجارت... المرأة الخارقة التي لم يكن بوسع زوجة عاديّة متوسّطة أن تنافسها. المرأة التي لا تهتمّ بشيء غير الأعمال التجاريّة، والتي تعامل الرجال معاملة رجل لرجل. المرأة ذات الروح العظيمة التي وقعت في حبالك فقط من أجل عبقريّتك ومطاحنك ومعدنك!

ثمّ ضحكت وأضافت:

ـ كان يجب أن أعلم أنّها مجرّد عاهرة تريدك بالطريقة نفسها التي تشتهيك بها أيّ عاهرة أخرى، لأنّك خبير في شؤون السرير تمامًا كما أنت في شؤون المعادن. إنّها تقدّر ذلك أفضل منّي، لأنّها تعبد الخبرة من أيّ نوع، وبما أنّها على الأرجح قد وضعت يدها على كلّ قسم في سككها الحديديّة...

ثمّ توقّفت عن الكلام، لأنّها رأت للمرّة الأولى في حياتها، نوعَ النظرة التي تنذر بأنّ الرجل قادر على القتل. لكنّه لم يكن ينظر إليها، فلم تتأكّد ممّا إذا كان يراها على الإطلاق أو يسمع كلامها أصلًا.

كان يسمع صوته الخاصّ يقول كلماتها، ويردّدها على مسامع داغني في غرفة النوم التي تخترقها خطوط الشمس في منزل إليس وايت. كان بصدد رؤية وجه داغني، من خلال الليالي التي قضّاها سابقًا معها، وفي تلك اللحظات التي كان جسده يغادر فيها جسدها، فتبقى مستلقية بنظرة من التألّق تعني أكثر من الابتسامة، نظرة الشباب في الصباح الباكر، نظرة الامتنان لحقيقة وجود المرء. وكان يرى وجه ليليان، كما رآه في السرير بجانبه، وجه لا حياة فيه بعينين مراوغتين، وبعض السخرية الضعيفة على شفتيها ونظرة تقاسم بعض الذنب البغيض. فرأى المجرم والضحيّة. لقد رأى فحش ترك العجز يُمسك بنفسه على أنّها فضيلةٌ ولعنة قوّة العيش على أنّها خطيئة. رأى، بوضوح الإدراك المباشر، وفي صدمة لحظة واحدة، البشاعةَ الرهيبة لتلك التي كانت في يوم من الأيّام اعتقاده الخاصّ.

كانت مجرّد لحظة، ومجرّد قناعة من دون كلمات، أو معرفة مُدركة بوصفها شعورًا، تركت بلا ختم من عقله. فأعادته الصدمة إلى رؤية ليليان وسماع صوت كلماتها. فبدت له فجأةً كحضور غير ذي أهمّيّة أو كوجود غير منطقيّ كان لا بدّ له من التعامل معه في الوقت الراهن.

قال: ليليان يجب ألّا تتحدّثي معها عنّي. وإذا فعلت ذلك مرّة أخرى، فسأجيبك كما يفعل أيّ سفاح، سوف أضربك أنت وأيّ شخص آخر ينبس باسمها أمامي.

قالت وهي تنظر إليه: هل ستفعل ذلك حقًّا؟

قال بهدوء، وفي دهشة منهكة: كنت أعتقد أنّك ستكونين سعيدة باكتشاف الحقيقة. واعتقدت أيضًا أنّك تفضّلين معرفة الحقيقة. إن أنا خنتك، فذلك لم يكن بثمن بخس، ولم يحدث مع فتاة هامشيّة، بل مع أظهر وأهمّ شعور في حياتي.

قالت: أوه، كم أنت أحمق لعين!

ظلّ صامتًا. ثمّ استعادت رباطة جأشها، وقالت:

ـ أعتقد أنّك تنتظر جوابي؟ لا، أنا لن أطلّقك. لا تأمل أبدًا في ذلك وسوف نستمرّ كما نحن، إذا كان هذا هو ما عرضته عليّ وإذا كنت تعتقد أنّه يمكن أن يستمرّ، فانظر ما إذا كنت تستطيع الاستهزاء بجميع المبادئ الأخلاقيّة وتفلت من العقاب!

لم يستمع إليها وهي تمدّ يدها لحمل معطفها، وتخبره بأنّها ستعود إلى منزلهما. لم يكد يلاحظ ذلك عندما أغلق الباب خلفها. ثمّ وقف بلا حراك، يعتريه شعورٌ لم يعشه من قبل. كان يعلم أنّه يجب أن يتأمّل فيه لاحقًا، لتدبّره وفهمه، ولكن في الوقت الراهن لم يكن يريد شيئًا سوى تأمّل ما شعر به.

كان شعورًا بالحرّيّة، كما لو أنّه يقف وحيدًا وسط بريّة غنّاء، بذاكرة وحيدة، وهي أنّه تخلّص من عبء كان يمزّق كتفيه. كان شعورًا بالخلاص الهائل وبمعرفة أنّه لم يعد مهتمًّا بما شعرت به ليليان، أو ما عانته أو ما حدث لها، بل وأكثر من ذلك: لا فقط أنه لم يعد يهمّه، ولكن المعرفة البريئة الساطعة بأنّه لم يكن من الضروريّ أن يهتمّ.

الفصل السادس

المعدن المعجزة

سأل ويسلي ماوتش بنبرة يمتزج فيها الغضب بالخوف: ولكن هل بإمكاننا أن نفلت من ذلك الأمر؟

لم يجبه أيّ أحد من الحاضرين. كان جيمس تاجارت جالسًا على حافّة كرسيّ، بلا حراك، ينظر إليه من تحت جبهته. ثمّ ضرب أورين بويل على منفضة السجائر ضربةً شرسة، هزّت الرماد قبالة سيجاره. فابتسم الدكتور فلويد فيريس. أمّا السيّد ويذربي فطوى شفتيه ويديه. وتوقّف فريد كينان، رئيس نقابة اتّحاد العمّال الأمريكيّ، عن التجوّل الحثيث في أرجاء المكتب، وجلس على عتبة النافذة مكتوف اليَدَيْن. أمّا يوجين لوسون، الذي كان قد جلس منحنيًا إلى أسفل، فكان شارد الذهن يُعيد ترتيب باقة الزهور على طاولة زجاجيّة منخفضة، ثمّ رفع بدنه باستياء وأخذ يراقبهم. ثمّ جلس ماوتش على مكتبه، وهو يمسك بورقة في قبضة يده.

أجاب يوجين لوسون: يبدو لي أنّها ليست الطريقة المناسبة لطرح الإشكال. يجب ألّا ندع الصعوبات المبتذلة تعرقل شعورنا بأنّها خطّة نبيلة تقتضيها فقط الرفاهية العامّة. إنّها من أجل الصالح العامّ والناس في أمسّ الحاجة إليها. بما أنّ الحاجة تأتي في المقام الأوّل، فإنّه ليس علينا أن نهتمّ بأيّ شيء آخر.

لم يعترض أحدٌ أو يعقّب على كلامه؛ وبدا الأمر كما لو أنّ لوسون جعل مواصلة النقاش أمرًا صعبًا. لكنّ الرجل الصغير الذي جلس دون انفعال في أفضل كرسيّ

بالقاعة، كان سعيدًا لأنّ الجميع يتجاهلونه، وإن كان يدرك تمام الإدراك أنّ أيًّا منهم لم ينتبه إلى وجوده، فكان يتطلّع إلى لوسون، ثمّ إلى ماوتش، ثمّ قال ببشاشة رشيقة: عليك بهذا المخطّط يا ويسلي. اضبط إيقاعه واكْسِهِ حلّة ثمّ أشر على أولادك في سلك الصحافة بأن يهتفوا به، ولا داعي إلى القلق.

ردّ ماوتش مكتئبا: حاضر يا سيّد طومسون.

وكان السيّد طومسون، رئيس الدولة، رجلًا قليلَ الظهور، ففي أيّ مجموعة من ثلاثة أشخاص، كان شخصه هو الأقلّ تميزًا بينهم، وعندما يكون بمفرده فهو يثير مجموعة خاصّة به، تتألّف من عدد لا يحصى من الأشخاص الذين يشبهونه. لم تكن البلاد تعرف صورةً واضحة لما قد يبدو عليه هذا الرجل: فقد ظهرت صوره على أغلفة المجلّات بشكل متكرّر مثل صور أسلافه في المنصب، ولكنّ الناس لم يكونوا متأكّدين تمامًا من الصور التي كانت له أو تلك التي كانت صورًا لـكاتب بريد أو عامل ذي ياقات بيضاء، ترافق مقالات عن الحياة اليوميّة للشخصيّات غير المتميّزة سوى أنّ أطواق السيّد طومسون كانت ذابلة عادة. كان يملك كتفين عريضتين، وجسدًا هزيلا، وشعرًا غزيرا، وفمًا واسعًا، وكان يبدو أحيانا وكأنّه قد ناهز الأربعين، ويبدو أحيانا أخرى كأنّه في الستينات من العمر. ووفقًا للسلطات الرسميّة الهائلة التي بحوزته، فإنّه كان يخطّط بلا توقّف لتوسيعها، لأنّ هذا ما كان متوقّعا منه من قبل أولئك الذين دفعوه إلى السلطة. كان لديه دهاء المغفّل والطاقة المحمومة للكسول. والسرّ الوحيد لصعوده في الحياة هو حقيقة أنّه كان نتاجًا للحظة يعرفها ولا يطمح إلى أيّ شيء آخر.

قال جيمس تاجارت بنبرة عدائيّة، وهو يتوجّه بالكلام إلى ويسلي ماوتش: من الواضح أنّه يجب اتّخاذ إجراءات وتدابير جذريّة. لا يمكننا أن نترك الأمور تسير على هذا المنوال لفترة أطول.

قال أورين بويل: خذ الأمور بكلّ بساطة، يا جيم.

ـ هناك شيء مّا يجب فعله، بل وفعله بأكبر سرعة ممكنة.

قال ويسلي ماوتش مقاطعًا: لا تنظروا إليّ هكذا، فأنا لا أستطيع منع ذلك. لا أستطيع منع ذلك إذا رفض الناس التعاون معي. فأنا مقيّد وأحتاج إلى سلطات أوسع.

وكان ماوتش قد استدعاهم جميعًا إلى واشنطن، بوصفهم أصدقاء ومستشارين شخصيّين، لحضور مؤتمر خاصّ وغير رسميّ حول الأزمة الوطنيّة. ولكن، عند مشاهدته، لم يتمكّنوا من تقرير ما إذا كان سلوكه متعجرفًا أو متذمّرًا، وما إذا كان يهدّدهم أو يتوسّل مساعدتهم.

قال السيّد ويذربي على نحوٍ رسميّ بنبرة إحصائيّة في صوته: الحقيقة هي أنّ معدّل فشل الأعمال التجاريّة، في فترة الاثني عشر شهرًا المنصرمة في الأوّل من هذا العام، تضاعف بالمقارنة مع فترة الاثني عشر شهرًا السابقة. ومنذ أوّل هذا العام، تضاعفت ثلاث مرّات.

قال الدكتور فيريس: تأكّد من أنّهم يعتقدون أنّه كان خطأهم الخاصّ.

ردّ ويسلي ماوتش، وقد اندفعت عيناه صوب فيريس: هاه؟

أجابه الدكتور فيريس: كيفما كانت أفعالك لا تعتذر لهم، بل اجعلهم يشعرون بالذنب.

قاطعه ماوتش: أنا لا أعتذر! فأنا لستُ مخطئا، بل أحتاج إلى سلطات أوسع.

قال يوجين لوسون وهو يلتفت بعنف إلى الدكتور فيريس: ولكن هذا خطؤهم. إنّهم يفتقرون إلى الروح الاجتماعيّة. وهم يرفضون الاعتراف بأنّ الإنتاج ليس خيارًا خاصًّا، بل واجبا علنيّا. وبغضّ النظر عن الظروف، فهم لا يملكون الحقّ في الفشل. يجب أن يستمرّوا في الإنتاج. إنّه ضرورة اجتماعيّة. فعمل الإنسان ليس مسألة شخصيّة، بل مسألة اجتماعيّة. ولا يوجد شيء اسمه مسألة شخصيّة أو حياة شخصيّة. وهذا ما يجب أن نجبرهم على تعلّمه.

ردّ الدكتور فيريس بابتسامة طفيفة: جين لوسون يدرك ما أتحدّث عنه، على الرغم من أنّه لا يملك أدنى فكرة عمّا يفعله.

سأله لوسون بصوت مرتفع: وماذا تقصد بكلامك هذا؟

أمره ويسلي ماوتش قائلا: تجاوز هذا الأمر.

قال السيّد طومسون: أنا لا تهمّني الإجراءات التي ستتّخذها يا ويسلي، ولا تهمّني شكاوى رجال الأعمال أيضًا. كلّ ما يهمني هو أن تكون الصحافة في صفّنا.

قال ماوتش: الصحافة في صفّي.

- فأيّ صحفيّ يفتح فاه في الوقت غير المناسب قد يضرّنا أكثر من عشرة من أصحاب الملايين الساخطين.

قال دكتور فيريس: هذا صحيح يا سيّد طومسون. ولكن هل يمكنك تسمية أيّ صحفيّ يعلم بذلك الأمر؟

قال السيّد طومسون وقد بدا مسرورا: لا أعتقد.

قال الدكتور فيريس: أيًّا كان نوع الرجال الذين نعتمد عليهم ونخطّط لهم، فهناك مقولة شهيرة من الطراز القديم قد ننسى استحضارها: يجب على المرء الاعتماد على الحكماء والصادقين. غير أنّنا لا يتعيّن علينا أن نوليهم أهمّيّة كبيرة لأنّ الزمن قد عفا عليهم.

نظر جيمس تاجارت إلى النافذة. كانت هناك بقع زرقاء في السماء فوق شوارع واشنطن الفسيحة، بقع من اللون الأزرق الباهت في منتصف أبريل، وعدد قليل من الحزم الضوئيّة التي تخترق الغيوم. وكان هناك نصب تذكاريّ يلمع من بعيدٍ، وقد تأثّر بأشعّة الشمس: كانت مِسَلَّة بيضاء طويلة، نصبت لذكرى الرجل الذي اقتبس عنه الدكتور فيريس تلك المقولة، الرجل الذي تسمّى هذه المدينة باسمه. فالتفت جيمس تاجارت، وأخذ ينظر بعيدًا.

قال لوسون بصوت عالٍ وبائس: أنا لا تعجبني ملاحظات الأستاذ.

قال ويسلي ماوتش: حافظ على هدوئك. فالدكتور فيريس لا يتحدّث عن النظريّة، بل عن الممارسة.

قال فريد كينان: حسنًا، إذا كنتم تريدون التحدّث عن الناحية العمليّة، فدعوني أخبركم بأنّه لا ينبغي أن نقلق على وضعيّة رجال الأعمال في وقت كهذا. فما يجب أن نفكّر فيه هو الوظائف. والمزيد من الوظائف للناس. فوفقا لتقارير جميع نقاباتي، فإنّ كلّ إنسان يعمل في هذا الوطن يطعم خمسة أشخاص عاطلين، من دون احتساب مجموعة من أقاربه الجائعين. وإذا كنتم تريدون نصيحتي. أوه، أعلم أنّكم لن تلجئوا إليها، لكنّها مجرّد فكرة، فأصدروا أمرًا إلزاميًّا بإضافة ثلث الرجال العاطلين، على سبيل المثال، إلى سوق الشغل في هذا البلد.

صاح تاجارت: يا إلهي! هل أنت مجنون؟ فنحن لا نكاد نتمكّن من تلبية كشوف الرواتب كما هي! ولا يوجد عمل كافٍ للناس لدينا الآن! زيادة الثلث؟ ليس بوسعنا توظيفهم فلا فائدة ترجى منهم في أيّ عمل كان!

قال فريد كينان: من ذا الذي يهتمّ بالفائدة التي ستجنيها من توظيفهم؟ إنّهم بحاجة إلى وظائف. الحاجة على أرس كلّ الأولويات، أليس كذلك؟ وليست أرباحك.

صاح تاجارت على عجل: إنّها ليست مسألة أرباح! فأنا لم أذكر أيّ شيء عن الأرباح. وأنا لم أعطك أيّ سبب لإهانتي. إنّه مجرد سؤال عن المكان الذي سيوفّر لنا المال لدفع رواتب رجالك حين تكون نصف قطاراتنا فارغةً، إذ لا يوجد ما يكفي من الشحن لملء عربة الترولي.

ثمّ تباطأ صوته فجأة فأخذ شكل نبرة من التفكير الحذر: ومع ذلك، فنحن نفهم محنة العمّال، وأرى أنّه يمكننا زيادة عدد العمال إذا سمح لنا بمضاعفة أسعار الشحن، والتي..

صاح أورين بويل: وهل فقدت صوابك؟ فأنا على وشك الإفلاس بسبب رسومات الشحن التي تفرضها علينا الآن، بل وأرتجف في كلّ مرّة تدخل فيها عربة شحن ملعونة أو تخرج من طواحيني، إنّها تجعلني أنزف حتّى الموت، ولا يمكنني تحمّل ذلك الأمر، وأنت تريد مضاعفة رسوم الشحن؟

قال تاجارت ببرود: ليس ضروريًّا إن كنت تستطيع تحمّل زيادة الرسوم أم لا. بل يجب أن تكون على استعداد لتقديم بعض التضحيات. فالشعب بحاجة إلى السكك الحديديّة. والحاجة تأتي في المقام الأوّل وفوق أرباحك.

صاح أورين بويل: وعن أيّ أرباح تتحدّث؟ ومتى حقّقت أيّ أرباح؟ لا أحد يستطيع أن يتّهمني بإدارة شركة ربحيّة! وما عليك سوى إلقاء نظرة على ميزانيّتي العموميّة، ثمّ إلقاء نظرة على حجوزات بعض المنافسين لي، الذين لديهم جميع العملاء، وجميع الموادّ الخام، وجميع المزايا التقنيّة ويحتكرون الاستفادة من الصيغ السرّيّة، بعد ذلك أخبرني من هو المستفيد؟! لكن، بالطبع، فعامّة الناس بحاجة إلى السكك الحديديّة، وربّما يمكنني استيعاب زيادة معيّنة في الرسومات، إذا ما كنت سأحصل - وهي مجرّد فكرة - على إعانة تنتشلني لأتجاوز مصاعب العام أو العامين الموالين، لأثبّت خطواتي و...

صاح السيّد ويذربي وكأنّه فقد صوابه: ماذا؟ تطالب بالدعم مجدّدًا؟ كم عدد القروض التي تحصّلت عليها منّا وكم من التمديدات والتعليقات والإيقافات الاختياريّة استفدت منها؟ وأنت لم تسدّد قرشًا واحدًا، ومع إفلاس جميع الأولاد وانهيار إيرادات الضرائب، من أين تتوقّع أن نحصل على المال لكي نقدّم لك دعمًا؟

قال بويل ببطء: هناك أناس لم يفلسوا. يا رفاق، لا ينبغي أن تسمحوا بانتشار الحاجة والخصاصة والبؤس في جميع أنحاء البلاد مادام هنا أناس لم يفلسوا بعد.

صاح ويسلي ماوتش: لا يمكنني المساعدة! لا يمكنني فعل أيّ شيء حيال ذلك! أنا أحتاج إلى سلطات أوسع!

لم يتمكّنوا من معرفة ما دفع السيّد طومسون إلى حضور ذلك المؤتمر بالذات. لقد قال القليل، لكنّه استمع باهتمام. وبدا الأمر كما لو أنّه كان هناك شيء أراد تعلّمه، والآن يبدو وكأنّه قد تعلّمه. فنهض وابتسم بمرح وقال: تفضّل يا ويسلي. امض قدمًا في تنفيذ الأمر رقم 298-10 ولن تواجهك أيّ مشاكل على الإطلاق.

فنهض الجميع بخضوع متردّد كئيب. ثمّ نظر ويسلي ماوتش إلى ورقته، ثمّ قال بنبرة صوت نابية: إذا كنت تريد منّي المضي قدمًا، فسيتعيّن عليك إعلان حالة الطوارئ العامّة بالبلاد.

ـ سأعلن ذلك في أيّ وقت تكون فيه مستعدًّا.

ـ هناك بعض الصعوبات التي..

ـ سأترك الأمر لك. تدبّر أمرك بالطريقة التي تريدها، هذا الأمر هو جزء من وظيفتك. وأطلعني على المسوّدة الأوليّة غدًا أو في اليوم الذي يليه، لكن لا تزعجني بشأن التفاصيل. سألقي خطابا على الراديو بعد نصف ساعة.

تتمثّل الصعوبة الرئيسية في أنّني لست متأكّدًا ممّا إذا كان القانون يمنحنا بالفعل السلطة لتطبيق أحكام معيّنة في الأمر رقم 289-10. أخشى أن تقود هذه الأحكام إلى احتجاجات.

ـ أوه، لقد أصدرنا الكثير من قوانين الطوارئ التي إذا بحثت بداخلها، فمن المؤكّد أنّك ستجد أشياء تغطّي مثل هذه الأمور.

ثمّ التفت السيّد طومسون إلى الآخرين بابتسامة ودودة وقال: سأترككم يا رفاق لتسوية هذه الأمور. أقدّر قدومكم إلى واشنطن لمساعدتنا. وقد سعدتُ لرؤيتكم.

ثمّ انتظروا حتّى أغلق الباب من بعده، واستعادوا أماكنهم؛ لكنّهم لم ينظروا بعضهم إلى بعض.

لم يسمعوا من قبل بنصّ رقم 289-10، لكنّهم كانوا يعلمون ما يحتوي عليه. لقد علموا بذلك منذ فترة طويلة، بتلك الطريقة الخاصّة التي تتكوّن من الحفاظ على أسرار الذات وترك العلم بها دون أن يترجم إلى كلمات. بالطريقة نفسها، تمنّوا الآن أن يتمكّنوا من عدم سماع كلمات الأمر التوجيهيّ وتجنّب لحظات كتلك التي يتمّ فيها ابتكار جميع التقلّبات المعقّدة في أذهانهم.

كانوا يرغبون في أن يدخل التوجيه حيّز التنفيذ ويصبح ساري المفعول. وتمنّوا أن

يُنَفَّذ بلا كلمات، حتّى لا يضطرّوا إلى معرفة أنّ ما كانوا يفعلونه هو ما كان عليه نصّ ذلك الأمر. لم يعلن أحد من قبل أنّ الأمر التوجيهيّ رقم 289-10 كان الهدف النهائيّ لجهوده. ومع ذلك، وعلى مدى أجيال ماضية، عمل الناس على جعل ذلك ممكنًا، وعلى مدى أشهر ماضية، تمّ إعداد كلّ حكم من خلال عدد لا يحصى من الكلمات والمقالات والخطب والمقالات الافتتاحيّة بأصوات هادفة صاحت بغضب إذا ذكر أحدهم غرضهم منها.

قال ويسلي ماوتش: الصورة الآن هي كالتالي: كانت الحالة الاقتصاديّة للبلاد في العام السابق أفضل من العام الماضي، وفي العام الماضي أفضل ممّا هي عليه في الوقت الحاضر. ومن الواضح أنّنا لن نتمكّن من البقاء على قيد الحياة عامًا آخر إذا حافظنا على نسق التقدّم نفسه. لذلك، يجب أن يكون هدفنا الوحيد الآن هو الحفاظ على هذا المخطّط. أن نقف بثبات لكي نخطو خطواتنا لتحقيق الاستقرار التامّ. لقد فشل مشروع التحرير الاقتصاديّ. لذلك، من الضروريّ وجود ضوابط أكثر صرامةً. وبما أنّ الناس غير قادرين وغير راغبين في حلّ مشاكلهم طواعية، فيجب أن يضطرّوا إلى فعل ذلك.

ثمّ توقّف عن الكلام مؤقّتًا، والتقط الورقة، ثمّ أضاف بنبرة أقلّ رسميّة: الجحيم الذي وصل إليه هذا الأمر الذي نتحدّث عنه هو أنّه بإمكاننا الاستمرار في الوجود في مكاننا وحيث وصلنا، لكنّنا لا نستطيع التحرّك! لذلك يجب أن نصمد وعلينا أن نجعل هؤلاء الأوغاد يقفون مكتوفي الأيدي!

انجذب رأسه إلى كتفيه، وكان ينظر إليهم بغضب رجل يعلن أنّ مشاكل البلاد تمثّل إهانة شخصيّة له. وكان الكثير من الناس الذين يبحثون عن النِعم يخافون منه لأنّه يتصرّف الآن كما لو أنّ غضبه كان حلًّا لكلّ شيء، أو أنّ غضبه كان جبّارًا قاهرًا، أو أنّ كلّ ما عليه فعله هو الغضب. ومع ذلك، واجهه الرجال الذين جلسوا في نصف دائرة صامتة أمام مكتبه غير متأكّدين ممّا إذا كان وجود الخوف في القاعة هو عاطفتهم الخاصّة، أو أنّ الجسد المنحني خلف المكتب أثار ذعر فأر محاصر.

كان لويسلي ماوتش وجهٌ طويلٌ وعريضٌ وجمجمة مسطّحة زادت تسريحة شعره من استوائها. كانت شفته السفلى مثل مصباح تائه، وبدا بؤبؤ عينيه ذو اللون البنّيّ الفاتح مثل صفار البيض الملطّخ تحت بياض غير شفّاف بالكامل. تحرّكت عضلات وجهه فجأة، ثمّ اختفت الحركة، ولم تنقل أيّ تعبير. لم يرَ أحد منه حتّى ابتسامة.

ينحدر ويسلي ماوتش من عائلة لم تكن تعرف الفقر ولا الثروة ولا التميّز لأجيال عديدة. ومع ذلك، فقد تمسّكت بتقليد خاصّ بها: تقاليد التربية في الجامعات، وبالنتيجة احتقار الناس الذين كانوا في الأعمال التجاريّة. لطالما كانت شهادات العائلة معلّقة على الحائط بطريقة اللوم على العالم، لأنّ الشهادات لم تنتج تلقائيًّا المكافآت المادّيّة لقيمتها الروحيّة والمعنويّة المشهود لها. من بين أقارب الأسرة العديدين، كان هناك عمّ واحد غنيّ. وقد تزوّج بأمواله حين ترمّل في سنّ الشيخوخة، واختار تبنّي ويسلي كرفيقه المفضّل من بين عدد من أبناء إخوته وبناتهم، لأنّ ويسلي كان الأقلّ تميّزًا من بين الجميع، وهكذا، اعتقد العمّ يوليوس أنّه الأكثر أمانًا. لم يكن العمّ يوليوس يهتمّ بالأشخاص الرائعين. ولا اهتمّ أيضا بمشكلة إدارة أمواله، لذلك سلّم المهمّة إلى ويسلي. وبحلول الوقت الذي تخرّج فيه ويسلي من الكلّيّة، لم تبق أموال لإدارتها. فألقى العمّ يوليوس باللوم على دهاء ويسلي وصرخ بأنّ ويسلي كان متآمرًا عديم الضمير. ولكن لم تكن هناك أيّ مكائد في الأمر؛ لأنّ ويسلي لم يقل فقط أين ذهبت تلك الأموال. وفي زمن الدراسة الثانويّة، كان ويسلي ماوتش من أسوإ الطلّاب بل وحسد بشغف كلّ الذين كانوا أفضل منه. ثمّ علّمته الكلّيّة أنّه لم يكن عليه أن يحسدهم على الإطلاق. وبعد التخرّج، حصل على وظيفة في قسم الإعلانات بشركة صنعت دواء وهميًّا لعلاج الذرة. وحقّق الدواء مبيعات مبهرة، فارتقى ويسلي في السلّم المهنيّ ليصبح رئيس ذلك القسم. ثمّ قرّر التخلّي عن الإعلان لذلك الدواء ليتولّى مسؤوليّة الإعلان عن دواء مرمّم للشعر، ثمّ الإعلان عن حمّالات للصدر حاصلة على براءة اختراع، ثمّ الإعلان عن صابون جديد، ثمّ تحمّل مسؤوليّة الإشهار لمشروب غازيّ، ثمّ أصبح نائب رئيس قسم الإعلانات بشركة للسيّارات. لقد حاول بيع السيّارات كما

لو أنّها تشبه دواء الذرة الوهميّ، فلم تُبَعْ منها أيّ سيّارة. وألقى باللوم على عدم كفاية ميزانيّته الإعلانيّة. وكان رئيس شركة السيّارات هو الذي أوصى به ريردن. وكان ريردن هو الذي قدّمه إلى واشنطن، ريردن، الذي لم يكن يعرف أيّ معيار للحكم على أنشطة رجله في واشنطن. وكان جيمس تاجارت هو الذي منحه شرف البدء في العمل بمكتب التخطيط الاقتصاديّ والموارد الوطنيّة مقابل خيانة ريردن من أجل مساعدة أورين بويل وأيضًا مقابل تدمير دان كونواي. ومنذ ذلك الحين، ساعد الناس ويسلي ماوتش على التقدّم، للسبب نفسه الذي دفع العمّ يوليوس: كانوا أناسًا اعتقدوا أنّ الرداءة هي الأمان. وقد لُقِّن الرجال الذين جلسوا الآن أمام مكتبه أنّ قانون السببيّة خرافة وأنّه يجب على المرء التعامل مع وضع اللحظة دون النظر في سببها. وبحلول تلك اللحظة، استنتجوا أنّ ويسلي ماوتش كان رجلًا يتمتّع بمهارة فائقة وماكرة، إذ كان الملايين يتطلّعون إلى السلطة، لكنّه هو الذي يحقّقها. لم يخطر ببالهم معرفة أنّ ويسلي ماوتش كان الصفر عند نقطة التقاء القوى التي أطلق لها عنان تدمير بعضها بعضًا.

قال ويسلي ماوتش: هذه مجرّد مسوّدة تقريبيّة للأمر التوجيهيّ رقم289-10 التي لخّصتها أنا وجين وويذربي على شكل رؤوس أقلام لتقدّم لكم الفكرة العامّة. نريد أن نستمع إلى آرائكم واقتراحاتكم وما إلى ذلك بصفتكم ممثّلي النقابات والصناعة والنقل والمهن.

فنزل فريد كينان من عتبة النافذة وجلس على ذراع كرسيّ. وبصق أورين بويل عقب مؤخّرة سيجاره. وأخذ جيمس تاجارت ينظر إلى يديه. ومن بين الجميع كان الدكتور فيريس هو الوحيد الذي بدا مرتاح البال.

وانطلق ويسلي ماوتش في قراءة الورقة: باسم الرفاه العامّ، وحمايةً لأمن الناس، وتحقيقًا للمساواة الكاملة والاستقرار الشامل، وطوال فترة الطوارئ الوطنيّة تقرّر ما يلي:

1ـ يجب على جميع العمّال وأصحاب الأجور والموظّفين من أيّ نوع أن يتمسّكوا بوظائفهم من الآن فصاعدًا ولا يجوز لهم ترك العمل أو فصلهم أو تغيير عملهم وكلّ

مخالفة لهذا الأمر تعرّض صاحبها لعقوبة السجن. تُحَدَّد العقوبة من قبل مجلس الاتّحاد، ويُعَيَّن هذا المجلس من قبل مكتب التخطيط الاقتصاديّ والموارد الوطنيّة. ويجب على جميع الأشخاص الذين بلغوا سنّ الحادية والعشرين أن يرفعوا تقاريرهم إلى مجلس الاتّحاد، الذي سيكلّفهم، حسب رأيه، بخدماتهم التي تخدم مصالح الأمّة على أفضل وجه.

2ـ من الآن فصاعدا، تظلّ جميع المنشآت الصناعيّة والتجاريّة والأعمال مهما كانت طبيعتها قيدَ التشغيل، ولا يجوز لأصحاب هذه المنشآت تركها أو مغادرتها أو التقاعد أو إغلاق أو بيع أو نقل أعمالهم، وكلّ مخالفة تقع تحت طائلة عقوبة تأميم منشآتهم وجميع ممتلكاتهم.

3ـ يجب تسليم جميع براءات الاختراع وحقوق التأليف والنشر المتعلّقة بكلّ الأجهزة والاختراعات والصيغ والعمليّات والأعمال من أيّ نوع كانت إلى الدولة هديّةَ طوارئ وطنيّة عن طريق شهادات الهدايا ليتمّ التوقيع عليها طواعية من قبل أصحاب جميع براءات الاختراع وحقوق التأليف والنشر. ثمّ يجيز مجلس الاتّحاد استخدام هذه البراءات وحقوق التأليف والنشر لجميع المتقدّمين، على قدم المساواة ودون تمييز، من أجل القضاء على الممارسات الاحتكاريّة، والتخلّص من المنتجات المتقادمة، وإتاحة أفضل ما يمكن للدولة. ولا يجوز استخدام أيّ علامات تجاريّة أو أسماء تجاريّة أو عناوين محميّة بحقوق التأليف والنشر. ويجب أن يُعرّف كلّ منتج سابق حاصل على براءة اختراع باسم جديد ويباع من قبل جميع الشركات المصنّعة تحت الاسم نفسه، ويتمّ اختيار هذا الاسم من قبل مجلس الاتّحاد. ويتمّ إلغاء جميع العلامات التجاريّة والأسماء التجاريّة الخاصّة بموجب هذا الأمر.

4ـ لا يجوز إنتاج أو اختراع أو تصنيع أو بيع أيّ أجهزة أو اختراعات أو منتجات أو بضائع جديدة غير موجودة في السوق حاليًّا. ويعلّق مكتب براءات الاختراع وحقوق التأليف والنشر جميع نشاطاته بموجب هذا الأمر.

5ـ يجب على كلّ مؤسّسة أو منشأة أو شركة أو شخص يعمل في أيّ إنتاج من أيّ

نوع كان، أن ينتج من الآن فصاعدًا الكمّيّة نفسها من البضائع التي أنتجها أو سينتجها خلال السنة الأساسيّة لا أكثر ولا أقلّ. والسنة التي ستعرّف بالسنة الأساسيّة أو سنة القياس هي السنة التي ستنتهي بتاريخ هذا الأمر. ويتمّ تغريم الإنتاج الزائد أو الناقص، وتحدّد هذه الغرامات من قبل مجلس الاتّحاد.

6ـ يجب على كلّ شخص من أيّ عمر أو جنس أو فئة أو دَخْل أن ينفق من الآن فصاعدًا المبلغَ نفسه من المال على شراء السلع في السنة التي أنفقها خلال السنة الأساسيّة لا أكثر ولا أقلّ. وكلّ إفراط أو نقص في الشراء، يعرّض صاحبه إلى غرامة ماليّة تحدّد من قبل مجلس الاتّحاد.

7ـ يتمّ تجميد جميع الأجور والأسعار والمرتّبات والأرباح وأسعار الفائدة وأشكال الدخل من أيّ نوع كانت، حسب أرقامها الحاليّة اعتبارًا من تاريخ هذا الأمر.

8ـ جميع الحالات الناشئة عن القواعد غير المنصوص عليها بشكل محدّد في هذا الأمر، يتمّ تسويتها وتحديدها من قبل مجلس الاتّحاد، الذي ستكون قراراته نهائيّة.

كانت هناك، لدى الرجال الأربعة الذين كانوا يستمعون، بقايا من كرامة الإنسان، جعلتهم يجلسون ساكنين ويشعرون بالمرض لمدّة دقيقة واحدة.

ثمّ بادر جيمس تاجارت بالحديث أوّلًا. فكان صوته منخفضًا، ولكن به شدّة ارتجاف لصراخ لاإراديّ:

ـ حسنًا، لمَ لا؟ لماذا يجب أن يحصلوا على هذا الامتياز بينما نحرم نحن منه؟ لماذا يجب أن يقفوا فوقنا؟ فلو كتب علينا الهلاك، فتأكّدوا من أنّنا سنهلك جميعًا. دعونا إذَن نتأكّد من أنّنا لم نترك لهم أيّ فرصة في البقاء!

قال أورين بويل وقد فقد صبره وتملّكه الرعب وهو ينظر إلى تاجارت: ما تقوله عن خطّة عمليّة جدًّا ستفيد الجميع هو أمر مضحك جدًّا.

ضحك الدكتور فيريس، بينما كانت عينا تاجارت تبدوان في قمّة التركيز، فقال بصوت عالٍ:

ـ نعم، بالطبع. إنّها خطّة عمليّة جدًّا. بل إنّها ضروريّة وعمليّة وعادلة وستحلّ مشاكل الجميع. وستعطي الجميع فرصة للشعور بالأمان وفرصة للراحة.

قال يوجين لوسون مبتسمًا: خطّة ستوفّر الأمن للناس. الأمن هو كلّ ما يبحث عنه الناس. إذا كانوا يريدون ذلك، فلماذا لا يمتلكونه؟ أليس السبب الذي يمنعهم هو مجرّد اعتراض حفنة من الأغنياء؟

ردّ الدكتور فيريس بتكاسل: ليس الأغنياء هم من يعترضون. فالغنيّ يسيل لعابه للأمن أكثر من أيّ نوع آخر من الحيوانات، ألم تكتشف ذلك بعد؟

قاطعه لوسون: حسنًا، ومن يعترض إذَن؟

ابتسم الدكتور فيريس بشكل واضح دون أن يردّ على لوسون الذي أضاف:

ـ فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم! ولماذا يجب أن نقلق بشأنهم؟ فعلينا أن ندير العالم من أجل الصغار. فالذكاء هو الذي تسبّب في كلّ مشاكل البشريّة. إنّ عقل الإنسان هو أصل كلّ الشرور. إنّه يوم هيمنة القلب. ويجب أن ينصبّ اهتمامنا على دعم الضعيف والوديع والمريض والمتواضع. إنّ الكبار هم هنا لخدمة أولئك الذين ليسوا كذلك. وإذا رفضوا القيام بواجبهم الأخلاقيّ، فعلينا إجبارهم على فعل ذلك. سابقًا كان عصر العقل، لكنّنا تجاوزناه الآن. هذا عصر الحبّ.

صرخ جيمس تاجارت: اخرس!

حدّق فيه الجميع. ثمّ قال أورين بويل وهو يرتجف: ما خطبك، يا جيم؟

ـ قال تاجارت: لا شيء، لا شيء على الإطلاق... يا ويسلي اطلب من هذا الرجل أن يصمت، هل بإمكانك فعل هذا؟

ـ قال ماوتش بشكل غير مريح: لكنّني فشلت في رؤية..

ـ أَبْقِه فقط صامتًا. فلسنا مضطرّين إلى الاستماع إليه، أليس كذلك؟

ـ لِمَ لا، لكن..

ـ فلنتجاوز هذا الأمر، ولنستمرّ في النقاش.

قال لوسون: ما هذا؟ أنا مستاء من هذا الأمر. أنا مستاء جدًّا.

لكنّه توقّف عن الكلام، لأنّه لم يرَ أيّ دعم من الوجوه التي كانت تحيط به، لقد كان فمه يتدلّى في تعبير عن الكراهية.

قال تاجارت بحرارة: فلنواصل نقاشنا.

سأله أورين بويل، محاولًا ألّا يعرف الخطب الذي يعاني منه: ما خطبك؟

قال الدكتور فيريس ببطء وبنوع غريب من التشديد، وكأنّه يعلم أنّه كان يسمّي ما هو غير مسمّى في جميع أذهانهم: العبقريّة خرافة يا جيم، لا وجود لشيء اسمه العقل. فذهن الإنسان هو نتاج اجتماعيّ. إنّه وليد مجموع التأثيرات التي يلتقطها من حوله. فلا أحد يخترع أيّ شيء، وإنّما يعكس فقط ما يطفو في الجوّ الاجتماعيّ. العبقريّ هو مخزّن جشع للأفكار التي تنتمي بحقّ إلى المجتمع الذي يسرقها منه. فأيّ فكرة هي سرقة. وإذا تخلّصنا من الثروات الخاصّة، فسيكون لدينا توزيع أكثر عدالة للثروة. أمّا إذا تخلّصنا من العبقريّة، فسيكون لدينا توزيع أكثر عدالة للأفكار.

سأله فريد كينان: هل نحن هنا لنتحدّث عن الأعمال التجاريّة أم إنّنا هنا لنتبادل المزاح؟

فالتفتوا إليه جميعًا. كان رجلًا يتمتّع بضخامة جسديّة، لكنّ في وجهه خاصيّة مدهشة تتضمّن خطوطًا مرسومة بدقّة رفعت زوايا فمه في تلميح دائم لابتسامة عقلانيّة حكيمة. لقد كان يجلس على ذراع الكرسيّ، واضعًا يديه في جَيْبَيْه، وينظر إلى ماوتش بنظرة مبتسمة تشبه نظرة شرطيّ متشدّد إلى الص. فقال له:

ـ كلّ ما عليّ قوله هو أنّ من الأفضل لك توظيف رجالي في إدارة مجلس الاتّحاد. ومن الأفضل لك التأكّد من قيامك بذلك، أو سأنسف النقطة الأولى وألقي بها في الجحيم.

قال ماوتش بنبرة جافّة: أعتزم بالطبع أن يكون لديّ ممثّل عن النقابات في هذا

المجلس، بالإضافة إلى ممثّل للصناعة والمهن وكلّ القطاعات الهامشيّة لـ...

ردّ فريد كينان في الآن نفسه: لا قطاعات هامشيّة، فقط ممثّلين عن النقابات لا غير.

صاح أورين بويل: ما هذا بحقّ الجحيم! إنّه تكديس للأوراق، أليس كذلك؟

قال فريد كينان: بالتأكيد.

ـ لكنّ ذلك سيعطيك قبضة خانقة على كلّ عمل في البلاد!

ـ وما هي، في رأيك، غايتي من ذلك؟

صاح بويل: هذا غير عادل! ولن أحتمل سماعه! ليس لك الحقّ! أنت..

قال كينان ببراءة: الحقّ؟ وهل نحن بصدد التحدّث عن الحقوق؟

ـ ولكنّني أعني، في نهاية المطاف، وجود بعض حقوق الملكيّة الأساسيّة التي...

ـ اسمع يا صديقي، أنت تريد النقطة الثالثة، أليس كذلك؟

ـ حسنًا، أنا..

ـ من الأفضل أن تبقي فاك مغلقًا بشأن حقوق الملكيّة من الآن فصاعدًا.

قال الدكتور فيريس: يا سيّد كينان، لا يجب أن ترتكب الخطأ القديم المتمثّل في رسم تعميمات واسعة. يجب أن تكون سياستنا مرنة. إذ لا توجد مبادئ مطلقة..

أجاب فريد كينان: احتفظ بهذا الكلام لجيم تاجارت يا دكتور، فأنا أعرف ما أتحدّث عنه. وذلك لأنّني لم أذهب إلى الكلّيّة قطّ.

ردّ بويل: أنا أعترض على أسلوبك الديكتاتوريّ...

قال كينان وهو يدير له بظهره: اسمع، يا ويسلي، أبنائي النقابيّين لن تعجبهم النقطة الأولى. لكن لو تمكّنت من إدارة الأمور، فسأجعلهم يتقبّلونها. أما إذا لم يكن كذلك، اتّخذ فقط قرارك وسترى النتائج.

قال: حسنًا.

صاح تاجارت: بحقّ المسيح يا ويسلي، ماذا عنّا؟

قال كينان: ستأتي إليّ عندما تحتاج إلى صفقة لإصلاح المجلس. لكنّني سأدير ذلك المجلس أنا وويسلي.

صاح تاجارت مجدّدا: وهل تعتقد أنّ البلاد ستؤيّد ذلك؟

ردّ كينان: توقّف عن المزاح ولا تخادع نفسك. البلاد؟ لو لم تكن هناك أيّ مبادئ – وأعتقد أنّ الدكتور على صواب، لأنّه بالتأكيد لا وجود لأيّ منها – ولو لم تكن هناك أيّ قواعد لهذه اللعبة وكان الأمر يتعلّق فقط بالسؤال عمّن يسرق مَن، فإنّ عليكم ألّا تنسوا يا شباب أنّني أمتلك أصواتًا أكثر من مجموعكم، فعدد العمّال يفوق بكثير عدد أرباب العمل!

قال تاجارت بغطرسة: إنّك تتّخذ موقفًا مضحكًا بشأن إجراء لم يُصمَّم، في نهاية المطاف، من أجل المصلحة الأنانيّة للعمّال أو أرباب العمل، ولكن من أجل الصالح العامّ للجمهور.

ردّ كينان بشكل ودّي: حسنًا، دعني أخاطبك بأسلوبك ذاته. من هو الجمهور؟ إذا كنت تعني الكيف، فإنّ المقصود هنا ليس أنت يا جيم، ولا أورين بويل. وإذا كنت تعني الكمّ، فمن المؤكّد أنّ المقصود هنا هو أنا، لأنّ المقدار الأكبر من الأصوات هو ما يقف خلفي.

ثمّ اختفت ابتسامته، وأضاف بنظرة مريرة: لن أقول فقط إنّني أعمل من أجل رفاهية شعبي، فأنا أعرف أنّني لست كذلك. أعرف أنّني أُعبّد الطريق للفقراء نحو العبوديّة، وهذا كلّ ما في الأمر. وهم يعلمون ذلك أيضًا. لكنّهم يعلمون أنّني سأضطّر إلى أن أجود عليهم بين فينة وأخرى ببعض الفتات إذا كنت أرغب في الاحتفاظ بابتزازي، أمّا إذا اختاروا البقاء معكم فإنّه لن تكون لديهم أدنى فرصة إلّا في الدخول إلى جهنّم. لهذا السبب، فإذا وجب عليهم أن يكونوا تحت طائلة أيّ سوط، فإنّهم سيفضّلون أن أحمله أنا لا أنتم، لأنّكم أيّها الأوغاد يا من يسيل لعابهم، ودموعهم،

وترقّ أفواههم بالكلام المعسول الصادق عن المصلحة العامّة! هل تعتقدون أنّ خارج أسوار الكلّيّة التي ربّت المخنثين منكم توجد قرية واحدة سخيفة يمكنكم خداعها؟ أنا مبتزّ، لكنّني أعرف ذلك وأبنائي في النقابات يعرفون ذلك، وهم يعرفون أنّ ابتزازي سيؤتي ثماره وسأنال مكافأتي. لا بسبب طيبة قلبي، ولن أنال سنتًا أكثر ممّا أستطيع أن أحمل، ولكن على الأقلّ يمكنهم الاعتماد عليّ كثيرًا. بالتأكيد، هذا يجعلني مريضًا في بعض الأحيان، وهو يجعلني مريضًا في الوقت الحاليّ، لكنّني لست من بنى هذا النوع من العالم، بل أنتم من فعلتم ذلك. لهذا فأنا ألعب اللعبة كما أعددتها وسألعبها مادامت ستستمرّ، وهذا الواقع لن يدوم طويلًا لأيّ منّا!

ثمّ نهض. ولم يجبه أحد. فترك عينيه تجولان ببطء من وجه إلى آخر إلى أن توقّف عند ويسلي ماوتش. فسأله: هل سأحصل على إدارة ذلك المجلس يا ويسلي؟

ردّ ماوتش بسرور: إنّ اختيار الموظّفين المحدّدين مجرّد تفاصيل فنّيّة. وأفترض أنّنا سنناقش أنا وأنت هذا الأمر لاحقًا؟

فأدرك جميع من كان في القاعة أنّ ذلك يعني أنّ الإجابة هي بالإيجاب، فقال كينان:

حسنًا يا صديقي.

ثمّ عاد إلى النافذة، وجلس على العتبة وأشعل سيجارة. ولسبب غير معلن، كان الآخرون ينظرون إلى الدكتور فيريس، كما لو أنّهم يبحثون عن التوجيه. فقال الدكتور فيريس بسلاسة:

لا تنزعجوا من الخطابة. فالسيّد كينان خطيب بارع، لكنّه لا يملك أيّ إحساس بالواقع العمليّ. إنّه غير قادر على التفكير الجدليّ.

ثمّ خيّم على القاعة صمت آخر، إلى أن تحدّث جيمس تاجارت فجأة:

ـ أنا لا أهتمّ بهذا الأمر. ولا يهمّني مادام سيتعيّن عليه الإبقاء على الأمور ثابتةً. فكلّ شيء يجب أن يبقى كما هو، تمامًا كما هو. ولن يُسمح لأحدٍ بتغيير أيّ شيء ما عدا..

ثمّ التفت بحدّة إلى ويسلي ماوتش وأضاف: ويسلي، وفقًا للنقطة الرابعة، سيتعيّن

علينا إغلاق جميع أقسام البحث والمختبرات التجريبيّة والمؤسّسات العلميّة. وجميع المؤسّسات الأخرى من هذا النوع يجب منعها.

ردّ وسلي عليه: نعم، هذا صحيح. لم أفكّر في الأمر. سيتعيّن علينا التمسّك ببعض الخطط بشأن ذلك.

تناول قلمًا رصاصًا وخطّ بعض الأمور على هامش ورقته. وقال جيمس تاجارت:

ستنتهي المنافسة المبدّدة وسنتوقّف عن التدافع لنضرب بعضنا ببعض ونقود أنسفنا إلى العدم والمجهول. فلا داعي إلى القلق بشأن الاختراعات الجديدة التي تزعج السوق. ولن نضطرّ إلى ضخّ الأموال في التجارب غير المجدية لمجاراة المنافسين الشرسين.

قال أورين بويل: نعم. لا ينبغي السماح لأحدٍ بإسراف المال على الجديد حتّى يكون لدى الجميع الكثير من القديم. أغلق جميع مختبرات البحث اللعينة. وكلّما كان ذلك أسرع، كان أفضل.

قال ويسلي ماوتش: نعم، سنغلقها كلّها.

سأله فريد كينان: وهل ستغلقون أيضا معهد الدولة للعلوم؟

أجابه ماوتش: أوه، لا! فهذا أمر مختلف. إنّها مؤسّسة حكوميّة، بالإضافة إلى كونها مؤسّسة غير ربحيّة. وستكون كافية لرعاية التقدّم العلميّ كلّه.

قال الدكتور فيريس: ستكون كافية تمامًا.

سأله فريد كينان: وماذا سيحدث لجميع المهندسين والأساتذة وما إلى ذلك، عندما تغلق كلّ تلك المختبرات؟ ماذا سيفعلون من أجل لقمة العيش، مع تجميد جميع الوظائف والشركات الأخرى؟

ردّ عليه ويسلي ماوتش: أوه، هل سندرجهم في برامج الإغاثة يا ويذربي؟

قال السيّد ويذربي: لا، ولماذا؟ فعددهم لا يكفي لإثارة الشغب. هم قلّة قليلة، فلا

تهتمّ بهم.

قال ماوتش، متوجّهًا إلى الدكتور فيريس: أفترض أنّك ستتمكّن من استيعاب بعضهم يا فلويد؟

أجابه الدكتور فيريس ببطء: فقط البعض، أقصد أولئك الذين يبدو ن تعاونهم.

سأله فريد كينان: وماذا عن البقيّة؟

قال ويسلي ماوتش: سيتعيّن عليهم الانتظار حتّى يجد مجلس الاتّحاد بعض الأعمال لهم.

وماذا سيأكلون أثناء انتظارهم؟

قال ويسلي ماوتش متجاهلًا: لا بدّ من وجود بعض الضحايا في أوقات الطوارئ الوطنيّة. لا يمكن أن نمدّ يد العون للجميع.

صرخ تاجارت فجأة متحدّيًا سكون القاعة: لدينا الحقّ في القيام بذلك! فنحن بحاجة إليه، أليس كذلك؟ لدينا الحقّ في حماية مصدر رزقنا!

لم يبدِ أحدٌ اعتراضا على كلامه، فاستمرّ بقوّة: سنكون بأمان للمرّة الأولى منذ قرون. سيعرف الجميع مكانهم ووظائفهم، ولن نكون تحت رحمة أيّ ذراع طائش بفكرة جديدة. فلا أحد سيدفعنا إلى الخروج من العمل أو ينهب أسواقنا أو يقهرنا أو يجعلنا مهجورين. لن يأتي أحد إلينا لتقديم بعض الأدوات الجديدة اللعينة ويضعنا في المكان المناسب لنقرّر ما إذا كنّا سنفقد قميصنا إذا اشتريناه، أو أنّنا سنفقد قميصنا إذا لم نفعل ذلك ولكنّ شخصا آخر يفعله! لن نقرّر ولن نسمح لأحد أن يقرّر أيّ شيء. سيتمّ تحديده مرّة واحدة وإلى الأبد. لقد تمّ اختراع ما يكفي لتأمين راحة الجميع، فلماذا يُسمح لهم بمواصلة الاختراع؟ لماذا يجب أن نسمح لهم بتفجير الأرض من تحت أقدامنا؟ ولماذا يجب أن نبقى في حالة من الشكّ الأبديّ؟ فقط بسبب قلّة من المغامرين الطموحين. هل يجب أن نضحّي برضا البشريّة جمعاء من أجل جشع قلّة من غير الملتزمين؟ نحن لسنا بحاجة إليهم على الإطلاق. أتمنّى أن نتخلّص من عبادة البطل!

الأبطال؟ إنّهم لم ينتجوا شيئًا سوى الأذى طوال التاريخ. لقد أبقوا على الجنس البشريّ يدير سباقًا وحشيًا، من دون أيّ مهلة للتنفس، أو أيّ راحة، أو أيّ أمان. نركض للّحاق بهم... دائمًا، بلا نهاية... وحين نوشك على اللحاق بركبهم، نجدهم سبقونا بسنوات... هم لم يتركوا لنا أيّ فرصة... لم يتركوا لنا أيّ فرصة على الإطلاق... كانت عيناه تتحرّكان بلا كللٍ. ثمّ نظر إلى النافذة، لكنّ نظرته كانت متعجّلة، لأنّه لم يكن يرغب في رؤية المسلّة البيضاء على بعد مسافة. ثمّ أضاف: لقد انتهينا منهم. لقد فزنا. هذا هو عصرنا وعالمنا. سنحصل على الأمن لأوّل مرّة منذ قرون، ولأوّل مرّة منذ بداية الثورة الصناعيّة!

قال فريد كينان: حسنًا، أعتقد أنّ هذه هي الثورة الصناعيّة المضادّة.

قاطعه ويسلي ماوتش قائلًا: إنّ ما تتفوّه به هراء مضحك! ليس مسموحًا لنا بقول ذلك لعموم الناس.

لا تقلق يا أخي، فأنا لن أقول ذلك للجمهور.

قال الدكتور فيريس: إنّها مغالطة كاملة. بل إنّه بيان بدافع الجهل. لقد اعترف كلّ خبير منذ فترة طويلة بأنّ الاقتصاد المخطّط له يحقّق أقصى قدر من الكفاءة الإنتاجيّة وأنّ المركزيّة تؤدّي إلى التصنيع الفائق.

قال بويل: بل المركزيّة تدمّر آفة الاحتكار.

ردّ كينان: وكيف يتمّ ذلك مجدّدًا؟

لم يستوعب بويل نبرة السخرية، فأجابه بجدّيّة: إنّ المركزيّة تدمّر آفة الاحتكار. لأنّها تؤدّي إلى دمقرطة الصناعة. إنّها تجعل كلّ شيء متاحًا للجميع. فالآن، على سبيل المثال، وفي مثل هذا الوقت، عندما يكون هناك نقص حادّ في خام الحديد، هل هناك أيّ معنى لإهدار المال والعمل والموارد الوطنيّة على صنع الفولاذ القديم، وعندما يكون هناك معدن أفضل بكثير يمكن أن يصنّع؟ معدن يريده الجميع، ولكن لا يمكن لأحد الحصول عليه. هل هذا اقتصاد جيّد وسيحقّق الكفاءة الاجتماعيّة السليمة أو

أيّ عدالة ديمقراطيّة؟ لماذا لا يسمح لي بتصنيع هذا المعدن؟ ولماذا لا يحصل عليه الناس عندما يحتاجون إليه؟ فقط بسبب الاحتكار الخاصّ لفرد واحد أنانيّ. هل يجب أن نضحّي بحقوقنا من أجل مصالحه الشخصيّة؟

ردّ فريد كينان: فلنتجاوز هذا الموضوع يا أخي. لقد اطّلعت على كلّ ذلك في الصحف نفسها التي قرأتها.

لا يعجبني موقفك.

قال بويل بلهجة مفاجئة وبنظرة، لو حدثت في حانة، لألهبت عراكًا بالأيادي. ثمّ جلس باستقامة ليدعم كلامه بأعمدة من الفقرات المكتوبة على ورق أصفر اللون، كان يستحضرها في ذهنه:

ـ في وقت الحاجة العامّة الملحّة، هل نهدر الجهد الاجتماعيّ على تصنيع المنتجات القديمة؟ هل علينا أن ندع الكثيرين يبقون للحاجة بينما يحجب عنّا قليلون أفضلَ المنتجات والأساليب المتاحة؟ هل يجب أن توقفنا خرافة حقوق براءات الاختراع؟

ـ أليس من الواضح أنّ الصناعة الخاصّة غير قادرة على التعامل مع الأزمة الاقتصاديّة الحاليّة؟ فعلى سبيل المثال، إلى متى سنتحمّل هذا النقص الشائن في معدن ريردن؟ إذ هناك طلب عامّ ملحّ عليه، وهو ما فشل ريردن في توفيره.

ـ ومتى سنضع حدًّا للظلم الاقتصاديّ والامتيازات الخاصّة؟ ولماذا يجب أن يكون ريردن هو الوحيد الذي يحظى بحقّ تصنيع هذا المعدن؟

قال أورين بويل: لم يعجبني موقفك يا رجل. مادمنا نحترم حقوق العمّال، فإنّ علينا أيضًا أن نحترم حقوق الصناعيّين.

ردّ كينان ببطء: عن أيّ حقوق وعن أي صناعيّين تتحدّث؟

قال الدكتور فيريس على عجل: أنا أميل إلى القول إنّ النقطة الثانية هي الأكثر أهمّيّة على الإطلاق في الوقت الحاضر. يجب أن ننهي هذا العمل الغريب للصناعيّين الذين يتقاعدون ثمّ يختفون. يجب أن نوقفهم. إنّهم يخرّبون اقتصادنا بأكمله.

سأل تاجارت بعصبيّة: لماذا يفعلون ذلك؟ وإلى أين يذهبون جميعًا؟

قال الدكتور فيريس: لا أحد يعلم. لم نتمكّن من العثور على أيّ معلومات أو تفسير. ولكن يجب إيقاف هذا النزيف. ففي أوقات الأزمات، تكون الخدمة الاقتصاديّة للأمّة في المرتبة ذاتها التي تحظى بها الخدمة العسكريّة. وأيّ شخص يتخلّى عنها يجب أن يعتبر فارًّا. لقد أوصيت بعقوبة الإعدام على هؤلاء الرجال، لكنّ ويسلي لن يوافق عليها.

قال فريد كينان بصوت غريب وبطيء: خذ الأمور ببساطة يا فتى.

ثمّ جلس فجأة بثبات وبشكل مثاليّ، وثنى ذراعيه، ثمّ نظر إلى فيريس بطريقة جعلت مشهد القاعة التي اقترح فيها فيريس القتل يبدو فجأةً وكأنّه حقيقيّ، فقال:

ـ لا تدعني أسمعك تتحدّث عن أيّ عقوبة إعدام في الصناعة.

فتجاهله دكتور فيريس. فردّ ماوتش على عجل:

ـ يجب علينا ألّا نصل إلى التطرّف. فنحن لا نريد أن نخيف الناس. بل نريدهم أن يصطفّوا إلى جانبنا. وعلى رأس مشاكلنا الكبرى هو... هل سيقبلون هذا الأمر على الإطلاق؟

قال دكتور فيريس: نعم، إنّهم سيفعلون.

قال يوجين لوسون: أنا قلق قليلًا بشأن النقطتين الثالثة والرابعة. فلا بأس في الحصول على براءات الاختراع، فلا أحد سيدافع عن الصناعيّين. لكنّي قلق بشأن تولّي حقوق التأليف والنشر، فهذا سيثير عداء المثقّفين. وهو لعمري أمرٌ خطير. إنّها مسألة روحيّة. ألا تعني النقطة الرابعة أنّه لن تؤلّف وتنشر كتبًا جديدة من الآن فصاعدًا؟

قال ماوتش: طبعًا، إنّها تعني ذلك تمامًا. لكنّنا لا نستطيع أن نستثني أعمال نشر الكتب. إنّها صناعة مثل أيّ صناعة أخرى. وعندما نقول (لا منتجات جديدة) فهذا يعني (لا منتجات جديدة).

ـ لكنّها مسألة روحيّة.

ـ نحن لا نتدخّل في فؤاد أيّ شخص. ولكنّك عندما تطبع كتابًا على الورق، فإنّه سيصبح سلعة مادّيّة، وإذا منحنا استثناء لسلعة واحدة، فلن نتمكّن من الاحتفاظ بالسلع الأخرى التي تنتظر في الطابور، ولن نتمكّن من جعل أيّ شيء ثابتًا.

ـ نعم هذا صحيح. لكن..

قال الدكتور فيريس: لا تكن أحمق يا يوجين. فأنت لا تريد بعض الاختراقات المتردّدة للخروج بأطروحات من شأنها أن تدمّر برنامجنا بأكمله، أليس كذلك؟ فلو زفرت بكلمة (رقابة) الآن، فسيعلو صراخهم جميعًا منادين بالقتل الدمويّ. إنّهم ليسوا على استعداد لذلك حتّى الآن. ولكن إذا تركت مسألة الروح وشأنها وصيّرتها مسألة مادّيّة بسيطة، أي مسألة لا علاقة لها بالأفكار، ولكنّها مجرّد مسألة ورق وحبر ومكابس طباعة، فستحقّق غرضك بسلاسة أكبر. وستحرص على عدم طباعة أيّ شيء خطير أو سماعه. وهكذا، لن يناضل أحدٌ من أجل قضيّة مادّيّة.

ـ نعم، ولكن ... لا أعتقد أنّ المؤلّفين سيعجبهم هذا الأمر.

سأله ويسلي ماوتش: وهل أنت واثق من هذا الأمر؟ لا تنسَ أنّه في ظلّ النقطة الخامسة، سيتعيّن على الناشرين نشر كتب عديدة كما فعلوا في السنة الأساسيّة. ونظرًا إلى أنّه لن تكون هناك كتب أخرى جديدة، فسيتعيّن عليهم إعادة طبع بعض الكتب القديمة التي سيضطرّ الجمهور إلى شرائها. إذ توجد كتب عديدة قيّمة جدًّا لم تحظ بفرصة عادلة على الإطلاق.

قال لوسون: أوه.

توقّف عن الكلام إذ تذكّر أنّه رأى ماوتش يتناول الغداء مع بالف يوبانك قبل أسبوعين. ثمّ هزّ رأسه وعبس: مازلت أشعر بالقلق، فالمثقّفون هم أصدقاؤنا. ولا نريد أن نفقدهم. يستطيعون التسبّبَ لنا في متاعب كثيرة.

قال فريد كينان: لن يتسبّبوا في أيّ شيء. إنّ مثقفيك هم أوّل من سيصرخون عندما يكون العالم آمنًا، وهم أوّل من سيغلقون أفواههم عند رؤية أوّل علامة للخطر. هم

يقضون سنوات يلعنون الرجل الذي يطعمهم، ويلعقون يد الرجل الذي يصفع وجوههم. ألم يقدّموا كلّ دولة في أوروبا، واحدة تلو أخرى، إلى لجان الحمقى، مثل اللجان الموجودة هنا؟ ألم يصرخوا وهم يديرون ظهورهم لإغلاق كلّ صفّارات الإنذار المعدّة ضدّ السرقة وخلع كلّ قفل للحمقى؟ هل سمعت أيّ زقزقة منهم منذ ذلك الحين؟ ألم يصرخوا بأنّهم أصدقاء العمّال؟ فهل سمعتهم يرفعون أصواتهم تنديدًا بالعصابات المتسلسلة، وبمعسكرات العبيد، وباستغلال العمّال، وبالوفيّات بسبب الإسقربوط في دول أوروبا الشعبيّة؟ لا، لكنّك ستسمعهم يخبرون البائسين الذين ضربوا بالسياط أنّ المجاعة هي الرخاء، وأنّ العبودية هي الحرّيّة، وأنّ غرف التعذيب محبّةٌ أخويّة، وأنّه إذا لم يفهمهم البائسون، فالذنب عندئذ ذنبهم، لأنّهم هم من يعانون، وأنّ الجثث المتهرئة في أقبية السجون هي المسؤولة عن كلّ مشاكلهم وليس الزعماء الخيّرون! والقادة المثقّفون؟ قد ينبغي عليك القلق بشأن أيّ سلالة أخرى من البشر، ولكن لا تقلق بشأن المثقّفين المعاصرين: فهم قادرون على ابتلاع أيّ شيء. وأنا لا أشعر بأمان كبير حيال أصغر جرذ رصيف في اتّحاد رجال الأعمال منذ فترة طويلة، فمن المحتمل أن يتذكّر فجأة أنّه إنسان، وبعد ذلك لن أتمكّن من إبقائه في الطابور. أمّا حين يتعلّق الأمر بالمثقّفين؟ فهذا هو الشيء الوحيد الذي نسوه منذ فترة طويلة. وأعتقد أنّه هو الشيء الوحيد الذي كانت تربيتهم وتعليمهم يهدفان إلى جعلهم يضعونه طيّ النسيان. فافعل ما شئت بالمثقّفين فسوف يتقبلونه برحابة صدر.

قال الدكتور فيريس: لأوّل مرّة أتّفق مع السيّد كينان. وأتّفق مع وقائعه وحقائقه، إن لم أقل إنّني تساورني المشاعر نفسها. فلا داعي إلى القلق بشأن المثقّفين يا ويسلي. وما عليك سوى وضع عددٍ قليل منهم على كشوف المرتّبات الحكوميّة وإرسالهم للتبشير وإلقاء الخطب بالتحديد عن النوع الذي ذكره السيّد كينان. امنحهم رواتب مريحة إلى حدّ مّا وألقابا عالية جدًّا وسوف ينسون حقوق النشر وسيقومون بعمل أفضل بكثير من الذي ستقوم به فرق كاملة من ضبّاط إنفاذ القانون.

قال ماوتش: بالتأكيد، أنا أعلم ذلك.

ردّ الدكتور فيريس بعناية: إنّ القلق الذي يساورني آتٍ من جهة أخرى. يا ويسلي، فقد تواجهون بعض المشاكل بشأن (شهادة الهديّة الطوعيّة).

قال ماوتش على نحو كئيب: أعلم ذلك. هذه هي النقطة التي أردت من طومسون مساعدتنا فيها. لكن أعتقد أنّه لا يستطيع. إذ ليس لدينا في الواقع السلطة القانونيّة للاستيلاء على براءات الاختراع. أوه، هناك الكثير من البنود في عشرات القوانين التي يمكن تمطيطها لكي نغطّيها تقريبًا، ولكنّها لا تعالجها تمامًا. سيكون لدى أيّ زعيم قويّ يرغب في إجراء حالة اختبار لنا فرصة جيّدة جدًا للتغلّب عليها. وهكذا، علينا أن نحافظ على مظهر من الشرعيّة، وإلّا فلن يتقبّلها الناس.

ردّ الدكتور فيريس: بالضبط، فمن المهمّ جدًّا أن تسلّم لنا هذه البراءات طوعًا. حتّى وإن كان هناك قانون يسمح بالتأميم المباشر، وسيكون من الأفضل الحصول عليها كهديّة. نحن نريد أن نترك للناس وهمَ أنّهم ما زالوا يحتفظون بحقوق الملكيّة. ومعظمهم سيبدون تعاونًا وسيوقّعون على شهادات الهدايا. وما عليك سوى إحداث الكثير من الجلَبة حول كونها واجبًا وطنيًّا وأنّ أيّ شخص يرفض فهو أمير الجشع، وحينها سيوقّعون. ولكن...

ردّ ماوتش بنبرة عصبيّة واضحة: أعلم هذا الأمر وسيكون هناك، على ما أعتقد، عدد قليل من الأوغاد من الطراز القديم هنا وهناك سيرفضون التوقيع، لكنّهم لن يكونوا بارزين بما يكفي لإحداث ضجيج، ولن يسمع أحدٌ عن ذلك، وسينقلب جماعتهم وأصدقاؤهم ضدّهم لأنّهم أنانيّون. لذلك لن يتسبّبوا لنا في أيّ مشكلة. سنأخذ براءات الاختراع فقط، على أيّة حال هؤلاء الناس لن يمتلكوا الجرأة أو المال لكي يحاولوا اختبار عزيمتنا. ولكن...

ثمّ توقّف عن الكلام، بينما انحنى جيمس تاجارت على كرسيّه وأخذ يراقبهم. لقد بدأ يستمتع بالمحادثة.

قال الدكتور فيريس: نعم، أنا أفكّر أيضًا في هذا الموضوع. وبالضبط في زعيم معيّن قادر على تفجيرنا إلى أشلاء. فمن الصعب معرفة ما إذا كنّا سنستعيد تلك الأشلاء أم

لا. وحده الله يعلم ما يمكن أن يحدث في وقت هستيريّ مثل حاضرنا وفي وضع دقيق مثل هذا الوضع الراهن. فأيّ شيء يمكن أن يخلّ بتوازن كلّ شيء وباستطاعته تفجير الأعمال كلّها. وإذا كان هناك من يريد فعلَ ذلك، فهو سيفعله. سيفعل وسيستطيع فعله لأنّه يعرف القضيّة الحقيقيّة، ويعرف الأشياء التي يجب ألّا تقال، ولن يخشى قولها. إنّه يعرف السلاح الخطير والمميت. إنّه خصمنا الأكثر دمويّةً.

سأله لوسون: من هو؟

فتردّد الدكتور فيريس ثمّ تجاهل الأمر وأجاب: الإنسان غير المذنب.

حدّق لوسون بذهول وقال: ماذا تقصد؟ ومن الذي تتحدّث عنه؟

ابتسم جيمس تاجارت. وقال الدكتور فيريس:

ـ أعني أنّه لا توجد وسيلة لنزع سلاح أيّ إنسان، إلّا من خلال جعله يشعر بالذنب. فإذا سرق إنسان سنتًا واحدًا، فيمكنك أن تفرض عليه العقوبة المخصّصة لمن يسطو على بنك وسيتقبّلها. بل وسيتحمّل أيّ شكل من أشكال البؤس، وسيشعر بأنّه لا يستحقّ أفضل من ذلك. وإذا لم يكن هناك ما يكفي من الذنب في العالم، فيجب أن نزرعه. وإذا علّمنا إنسانًا أنّ من الشرّ النظرَ إلى زهور الربيع وصدّقنا ثمّ فعل ذلك، فسنكون قادرين على أن نفعل به ما نشاء. لأنّه لن يدافع عن نفسه، ولن يشعر بأنّه يستحقّ ذلك، بل ولن يقاتل. ولكن أنقذنا من الإنسان الذي يرقى إلى مستوى معاييره الخاصّة. أنقذنا من الإنسان ذي الضمير النقيّ. إنّه الإنسان الذي سيهزمنا.

سأله تاجارت، بصوت واضح: هل أنت بصدد الحديث عن هانك ريردن؟

كان ذلك هو الاسم الوحيد الذي لم يرغبوا في نطقه، فأصابهم الصمت المباشر. فسأله الدكتور فيريس بحذرٍ: وماذا لو كنت أنا المعنيّ بذلك؟

ردّ تاجارت: لا شيء. لو كنتَ كذلك، لأخبرتك بأنّني أستطيع تسليم هانك ريردن لكم. بل وسأجبره على التوقيع.

ومن خلال قواعد لغتهم غير المنطوقة، علموا جميعًا – من نبرة صوته – أنّه لم يكن

يخادع.

ردّ ويسلي ماوتش وهو يلهث: يا إلهي، يا جيم! لا تخبرني بأنّك تمكّنت من فعل ذلك!

قال تاجارت: طبعا، حتّى إن أصبت بالذهول لمّا بلغتني أخباره الفظيعة. لم أتوقّع ذلك. بل توقّعت أيّ شيء ماعدا ذلك.

ردّ ماوتش بحذر: أنا سعيد لسماع هذا. إنّها معلومة بنّاءة. وقد تكون في الواقع قيّمة جدًّا.

ردّ تاجارت بسرور: قيّمة طبعًا. فمتى تخطّط لتطبيق هذا الأمر التوجيهيّ؟

ـ أوه، علينا أن نتحرّك بسرعة. إذ لا نريد أن يتسرّب أيّ خبر عنه. وأتوقّع منكم جميعًا أن تبقوا هذا الأمر سرًّا بيننا. وأودّ أن أقول إنّنا سنكون جاهزين لعرضه عليهم في مدى أسبوعين.

ـ ألا تعتقد أنّ من المستحسن - قبل تجميد جميع الأسعار - تعديل مسألة رسوم السكك الحديديّة؟ كنت أفكّر في بالزيادة فيها. ستكون زيادة صغيرة ولكنّها ضروريّة جدًّا.

قال ماوتش: سنناقش أنا وأنت ذلك الأمر على حدة، وقد يتمّ ترتيب الأمر.

ثمّ التفت إلى الآخرين؛ كان وجه بويل مرتخيًا. ثمّ أضاف ماوتش: مازالت هناك تفاصيل كثيرة يتعيّن العمل عليها، لكنّني متأكّد من أنّ برنامجنا لن يواجه أيّ صعوبات كبيرة.

كان يقلّد نبرة الخطاب العامّ وطريقته؛ فبدا نشِطًا ومبهجًا تقريبًا، ثمّ استرسل في الكلام: يجب أن تتوقّعوا بقعًا خشنة. وإذا لم ينجح أحد الأشياء، فسنحاول تجربة شيء آخر. التجربة والخطأ هما القاعدة العمليّة الوحيدة للعمل. فنحن سنستمرّ في المحاولة، وإذا ظهرت أيّ صعوبات على السطح، فتذكّروا أنّها مجرّد صعوبات مؤقّتة فقط بسبب حالة الطوارئ الوطنيّة.

سأله كينان: أخبرني، كيف ستنتهي حالة الطوارئ إذا كان كلّ شيء سيظلّ ثابتًا؟

ردّ ماوتش وقد نفد صبره: لا تكن نظريًا. علينا أن نتعامل مع الوضع الراهن. لا تقلق بشأن التفاصيل الصغيرة، مادامت الخطوط العريضة في سياستنا واضحة. ستكون لدينا السلطة وسنتمكّن من حلّ أيّ مشكلة والإجابة على أيّ سؤال.

قال فريد كينان وهو يضحك: ومن هو جون جالت؟

صرخ تاجارت: لا تقل ذلك!

قال كينان: لديّ سؤال أودّ طرحَه حول النقطة السابعة التي تنصّ على أنّ جميع الأجور والأسعار والمرتّبات وحصص الفوائد والأرباح وما إلى ذلك سيتمّ تجميدها من تاريخ إنفاذ هذا الأمر. فهل ستشمل الضرائب أيضًا؟

فصرخ ماوتش قائلًا: أوه لا! وكيف سيمكننا معرفة الاعتمادات الماليّة التي سنحتاج إليها في المستقبل؟

كان كينان يبتسم فقاطعه ماوتش قائلًا:

ـ حسنًا؟ وماذا عنها؟

ردّ كينان: لا شيء. كنت أسأل فقط.

فانحنى ماوتش إلى كرسيّه وقال: يجب أن أقول لكم جميعًا إنّني أقدّر قدومكم إلى هنا وتشريفنا بآرائكم. لقد كانت مفيدة جدًّا.

ثمّ انحنى إلى الأمام للنظر في تقويم مكتبه وظلّ يدرسه للحظة، وهو يلعب بقلم رصاص. ثمّ أنزل القلم، وحدّد موعدًا برسم دائرة حوله: ثمّ أضاف:

ـ سيدخل الأمر التوجيهيّ رقم 289-10 حيّز التنفيذ في صباح الأوّل من مايو.

فأومأ الجميع بالموافقة. ولم ينظر أحد منهم إلى من كان بجواره. ثمّ نهض جيمس تاجارت، ومشى نحو النافذة وسحب الستار لينظر إلى المسلّة البيضاء.

***

اندهشت داغني، في لحظتها الأولى من الاستيقاظ، حين وجدت نفسها تنظر إلى أبراج المباني غير المألوفة قبالة سماء زرقاء فاتحة متوهّجة. ثمّ لاحظت ثنايا غرزة ملتوية بجوربها الرقيق في ساقها، فشعرت بانقباض عضلات خصرها، وأدركت أنّها كانت مستلقية على أريكة في مكتبها، وكانت الساعة تشير إلى السادسة والربع صباحًا وقد أضفت أشعّة الشمس الأولى بحوافّ فضّيّة على شكل صور ظلّيّة لناطحات السحاب خارج النافذة. وآخر شيء تذكّرته هو استلقاؤها على الأريكة بقصد إصابة قسط من الراحة لمدّة عشر دقائق، حينها كانت النافذة يعمّها الظلام والساعة تشير إلى الثالثة والنصف فجرًا.

ثمّ التفّت لتنهض على قدميها، فشعرت بإرهاق هائلٍ. وبدا المصباح المضاء على المكتب، فوق أكوام الورق التي كانت مهمّتها الشاقّة وغير المكتملة عديمة الجدوى أمام توهّج نور الصباح. فحاولت ألّا تفكّر في العمل لبضع دقائق أطول، بينما جرّت نفسها عبر مكتبها إلى دورة المياه الخاصّة بها وتركت حفنة من الماء البارد تمرّ فوق وجهها.

فزال الإرهاق وقتَ عودتها إلى المكتب. وبغضّ النظر عن الليلة التي سبقتها، فداغني لم تكن تعرف لماذا تشعر في الصباح بصعود الإثارة الهادئة التي تتحوّل إلى طاقة تشدّ جسدها وتجعلها شغوفة بالعمل. ثمّ نظرت إلى المدينة. كانت الشوارع لا تزال خاليةً، فجعلتها تبدو أوسع، وأمام النظافة البرّاقة لهواء الربيع بدت الشوارع وكأنّها تنتظر الوعد بكلّ العظمة التي ستتشكل من خلال النشاط الذي كان على وشك التدفّق عبرها. وأعلن التقويم على بعد مسافة: الأوّل من مايو.

جلست بمكتبها، مبتسمة في تحدٍّ لوظيفتها البغيضة. لقد كرهت التقارير التي كان عليها أن تنهي قراءتها، ولكن هذا هو عملها، وهذه شركتها للسكك الحديديّة، وهذا الصباح صباحها. ثمّ أشعلت سيجارة، معتقدةً أنّها ستنهي تلك المهمّة قبل الفطور. وأطفأت المصباح وسحبت الأوراق إلى الأمام.

كانت هناك تقارير من المديرين العامّين في المناطق الأربع لنظام شركة تاجارت،

تصرخ صفحاتها المكتوبة بيأسٍ بسبب تعطّل المعدّات. وكان هناك تقرير عن وجود حطام على الخطّ الرئيسي بالقرب من محطّة وينستون، بولاية كولورادو. وكانت هناك الميزانيّة الجديدة لقسم التشغيل، والميزانيّة المنقّحة على أساس زيادة الرسومات التي حصل عليها جيم في الأسبوع الماضي. لقد حاولت خنق تأجيج مزيدٍ من اليأس وهي تطالع ببطء أرقام الميزانيّة: إذ تمّ إجراء جميع تلك الحسابات على افتراض أنّ حجم الشحن سيظلّ دون تغيير وأنّ الزيادة ستجلب لهم إيرادات إضافيّة بحلول نهاية العام؛ فعلمت أنّ حمولة الشحن ستستمرّ في التقلّص، وأنّ الزيادة لن تحدث فرقًا كبيرًا، وبحلول نهاية ذلك العام ستكون خسائرها أكبر من السابق.

وعندما نظرت من فوق الصفحات، شعرت بهزّة صغيرة من الدهشة أثناء مشاهدتها الساعةَ وهي تشير إلى التاسعة وخمس وعشرين دقيقة صباحًا. لقد كانت على دراية تامّة بصوت الحركة والأصوات المعتادة في قاعة الانتظار بمكتبها، إذ وصل موظّفوها لبدء يوم عملهم؛ وتساءلت لماذا لم يدخل أحدٌ مكتبَها ولماذا ظلّ هاتفها صامتًا؟ كقاعدة يوميّة، كان يجب أن يكون هناك اندفاع للعمل في تلك الساعة. ثمّ نظرت إلى تقويمها، كانت هناك ملاحظة بأنّ مسبك ماكنيل للسيّارات في شيكاغو سيتّصل بها عند الساعة التاسعة صباحًا في ما يتعلّق بعربات الشحن الجديدة التي كانت شركة تاجارت العابرة للقارّات تنتظرها منذ ستّة أشهر.

ثمّ ضغطت على مفتاح جهاز الاتّصال بين المكاتب لتتّصل بسكرتيرتها. فأجابها صوت الفتاة بلهجة ذهول: آنسة تاجارت! هل أنت هنا في مكتبك؟

ـ لقد نمت مجدّدًا هنا الليلة الماضية. لم أكن أنوي ذلك، لكنّني فعلت. هل تلقّيت اتّصالًا من مسبك ماكنيل للسيّارات؟

ـ لا يا آنسة تاجارت.

ـ إذا اتصلوا، صِلِيهِمْ بي فورًا.

ـ حسنا يا آنسة تاجارت.



وبعد إغلاق جهاز الاتّصال بين المكاتب، تساءلت عمّا إذا كانت تتهيّأ أو أنّ شيئًا غريبًا في صوت الفتاة: فقد بدا متوترًا بشكل غير طبيعيّ.

شعرت بالدوار الخفيف بسبب الجوع واعتقدت أنّها يجب أن تنزل للحصول على فنجان من القهوة، ولكن ما يزال هناك تقرير لرئيس المهندسين ينتظر إنهاءه، لذلك أشعلت سيجارةً أخرى.

خرج رئيس المهندسين ليتفقّد الطريق، ويشرف على إعادة بناء المسار الرئيسيّ باستخدام سكك الحديد المصنوعة من معدن ريردن والمأخوذة من أشلاء خطّ جون جالت؛ لقد اختارت داغني الأقسام التي هي في حاجة إلى الإصلاح بشكل عاجل. وعندما فتحت تقريره، قرأت - بصدمة لا تصدّق - أنّه توقّف عن العمل في القسم الجبليّ من وينستون، كولورادو. لقد أوصى رئيس المهندسين بتغيير الخطط فكتب في تقريره يقول: أقترح أن يتمّ استخدام السكة الحديديّة المخصّصة لوينستون، بدلًا من ذلك، لإصلاح مسار فرع واشنطن إلى ميامي. وقدّم أسبابه: لقد حدث انحراف في ذلك الفرع الأسبوعَ الماضي، وتأخّر السيّد تينكي هولواي من واشنطن، الذي كان يسافر مع مجموعة من الأصدقاء لمدّة ثلاث ساعات، وقد تمّ إبلاغ رئيس المهندسين بأنّ السيّد هو لواي قد أعرب عن استيائه الشديد. رغم أنّه من وجهة نظر تكنولوجيّة بحت– كما ذكر تقرير كبير المهندسين – يمكن القول إنّ سكّة حديد فرع ميامي كانت في حالة أفضل من تلك الموجودة في قسم وينستون، لكن على المرء أن يتذكّر، من وجهة نظر اجتماعيّة، أنّ فرع ميامي كان أكثر أهمّيّة لفئة حركة الركاب؛ لذلك، اقترح كبير المهندسين أنّه يمكن إبقاء خطّ وينستون في الانتظار لفترة أطول قليلًا، وأوصى بالتضحية بقسم غامض من المسار الجبليّ من أجل فرع حيث لا تستطيع شركة تاجارت العابرة للقارّات خلق انطباع غير مواتٍ.

كانت تقرأ، وتشطب بوضع علامات غاضبة بقلم رصاص على هوامش الصفحات، معتقدة أنّ واجبها الأوّل في ذلك اليوم، وقبل أيّ شيء آخر، هو إيقاف ذلك الضرب من الجنون.

ثمّ رنّ الهاتف. فسألت وهي ترفع السمّاعة: نعم، من المتّصل؟ هل هو مسبك ماكنيل للسيّارات؟

فردّ صوت سكرتيرتها: لا، بل هو السيّد فرانسيسكو دانكونيا.

نظرت إلى حال الهاتف، لحظة صدمة قصيرة وقالت: حسنًا. افسحي له الخطّ.

كان الصوت الذي سمعته في الجهة المقابلة هو صوت فرانسيسكو. فقال: أرى أنّك في مكتبك كالعادة. جاء صوته ساخرًا وقاسيًا ومتوتّرًا.

ـ وأين تتوقّعني أن أكون؟

ـ وهل أعجبك الإيقاف الجديد؟

ـ أيّ إيقاف؟

ـ إيقاف العقول عن العمل.

ـ ما الذي تتحدّث عنه؟

ـ ألم تطّلعي على صحف اليوم؟

ـ لا.

وحصل انقطاع في المكالمة. ثمّ عاد صوته ببطء، فأصبح تدريجيًا أكثر حدّة: من الأفضل إلقاء نظرة على الصحف يا داغني.

ـ حسنا.

ـ سأتّصل بك لاحقا.

أغلقت الهاتف وضغطت على مفتاح جهاز الاتّصال فوق مكتبها. وقالت لسكرتيرتها: أحضري لي أيّ جريدة.

ردّت السكرتيرة بعبوس: حسنًا يا آنسة تاجارت.

كان إيدي ويلرز هو من أحضر الجريدة إلى مكتبها. وكان معنى ملامح وجهه يشبه النغمة نفسها التي التقطتها في صوت فرانسيسكو: الإشعار المسبق ببعض الكوارث

التي لا يمكن تصوّرها.

ـ لم يكن أيّ منّا يريد أن يكون أوّل من يخبرك بهذا.

قال تلك الجملة بهدوء شديد ثمّ خرج. وحين نهضت من مكتبها، بعد لحظات قليلة، شعرت بأنّها تتحكّم بالكامل في بدنها لكنّها لا تعي وجود جسدها. لقد شعرت بارتفاع قدميها وبدا لها أنّها وقفت مستقيمة، ولم تلمس الأرض. كان هناك وضوح غير طبيعيّ حول كلّ شيء في القاعة، ومع ذلك لم تكن ترى شيئًا من حولها، لكنّها تعلم أنّها ستتمكّن من رؤية خيط العنكبوت إذا كان الغرض منها يتطلّب ذلك، تمامًا كما ستتمكّن من السير مثل النائم الماشي على طول حافّة السقف. لم تستطع معرفة أنّها كانت تنظر إلى القاعة بعينَي شخص فقد القدرة على الشكّ، وما بقي له هو بساطة تصوّر واحد وهدف واحد. وعلى الرغم من أنّها شعرت بسكون هادئ غير مألوف بداخلها فإنّها لم تكن تعلم أنّ الشيء الذي بدا عنيفًا جدًّا هو قوّة اليقين الكامل، وأنّ الغضب الذي هزّ جسدها، ذلك الغضب الذي جعلها جاهزة، بعاطفة اللّامبالاة نفسها، لأن تقتل أو تموت، كان حبّها للاستقامة، ذلك الحبّ الوحيد الذي وهبته كلّ سنوات حياتها.

فخرجت من مكتبها باتّجاه البهو وهي تمسك الجريدة في يدها. كانت تعلم، وهي تعبر قاعة الانتظار، أنّ وجوه موظّفيها تحوّلت لتنظر إليها، ولكن بدا أنّهم كانوا على بعد سنوات عديدة منها.

كانت تسير في البهو، وتتحرّك بسرعة ولكن دون جهد، بالشعور نفسه بمعرفة أنّ قدميها كانتا لا تكادان تلامسان الأرض لكنّها على الأرجح لم تشعر بهما. لم تكن تعرف عدد القاعات التي عبرتها للوصول إلى مكتب جيم، أو ما إذا كان هناك أيّ شخص في طريقها. كانت فقط تعرف الاتّجاه الذي يجب اتّخاذه، وكان الباب مفتوحًا للدخول والسير صوب مكتبه.

كانت الجريدة مطويّة لحظة وقوفها أمامه. فألقت بها على وجهه، فلطمت خدّه وسقطت على السجّادة. ثمّ قالت:

ـ سأقدّم استقالتي يا جيم. ولن أعمل عبدًا أو سائقًا للعبيد.

وغادرت لكنّها لم تسمع صوت اللهاث وراءها؛ لقد صدر مع صوت إغلاق الباب خلفها. ثمّ عادت إلى مكتبها، وعبرت قاعة الانتظار بعد أن أشارت إلى إيدي بأن يتبعها إلى الداخل. فقالت بصوتها الهادئ والواضح: لقد استقلت.

فأومأ في صمت. ثمّ أضافت:

ـ لا أعلم حتّى الآن ما سأفعله في المستقبل. سأرحل لأفكّر في الأمر وأقرّر. إذا كنت تريد أن تتبعني، فسأكون في كوخ وودستوك.

كان هذا الكوخ عبارة عن مقصورة صيدٍ قديمة في غابة من جبال بيركشاير، التي ورثتها عن والدها ولم تزرها منذ سنوات.

ـ قال إيدي هامسًا: أودّ أن أتبعك، وأريد أن أستقيل، و... أنا لا أستطيع. إذ لا يمكنني أن أجبر نفسي على فعل ذلك.

ـ إذَن هل بإمكانك أن تسدي إليّ معروفًا؟

ـ بالطبع، وبكلّ سرور.

ـ لا تتواصل معي بشأن السكك الحديديّة. فلا أريد سماع أيّ خبر عنها. ولا تخبر أحدًا عن مكاني ما عدا هانك ريردن. وإذا سألك عنّي، فأخبره عن المقصورة وكيفيّة الوصول إليها. لكن لا تخبر أيّ شخص آخر. لا أريد أن أرى أيّ شخص.

ـ حسنًا.

ـ هل تعدني بذلك؟

ـ بالطبع، وبكلّ تأكيد.

ـ وعندما أقرّر ما سيتعيّن عليّ فعله، سأعلمك.

ـ سأنتظرك.

ـ هذا كلّ شيء يا إيدي.

كان يعلم أنّ كلّ كلمة قِيسَت جيّداً، وأنّه لا يمكن قول أيّ شيء آخر بينهما في تلك اللحظة. فأمال رأسه، فسمح له بقول الباقي من كلامه، ثمّ خرج من المكتب.

ثمّ لاحظت أنّ تقرير رئيس المهندسين مازال ملقًى على مكتبها، فظنّت أنّه كان عليها أن تأمره باستئناف العمل فورًا في قسم وينستون، ثمّ تذكّرت أنّ تلك لم تعد مشكلتها بعد الآن. لم تشعر بأيّ ألم. لقد عرفت أنّ الألم سيأتي لاحقًا وأنّه سيكون بمثابة عذاب ممزّق وموجع، وأنّ خدر تلك اللحظة كان بمثابة راحة لها، ليس بعد ذلك الأمر، ولكن قبله، لجعلها مستعدّةً لتحمّله. وقالت في نفسها: ولكن هذا لا يهمّ. وإذا كان ذلك هو المطلوب منّي، فسأتحمّله.

ثمّ جلست إلى مكتبها واتّصلت هاتفيّا بريردن في مصانعه في بنسلفانيا. فقال: مرحبا يا أعزّ الناس.

قالها بكلّ بساطة ووضوح، وكأنّه أراد أن يقولها لأنّها حقيقيّة وصحيحة، إذ كان يحتاج إلى التمسّك بمفاهيم الواقع والصواب.

ـ هانك، لقد استقلت.

قال، وكأنّه يتوقّع هذا الأمر: فهمت.

ـ لم يأتِ أحد لأخذي، ولا أيّ مدمّر، ربّما لم يكن هناك أيّ مدمّر في نهاية المطاف. لا أعلم ما سأفعله بعد استقالتي، ولكن يجب أن أبتعد، حتّى لا أرى أيّ واحد منهم لفترة من الوقت. ثمّ سأقرّر. أعرف أنّه لا يمكنك الذهاب معي الآن.

ـ لا. لديّ أسبوعان يتوقّعون فيهما منّي التوقيع على شهادة الهديّة. أريد أن أكون هنا عندما تنتهي فيها هذه المهلة.

ـ هل تحتاج إليّ أثناء هذين الأسبوعين؟

ـ لا. يبدو أنّ أمرك يزداد سوءاً أكثر منّي. ولا تملكين أيّ سبيل لمواجهتهم، أمّا أنا فأملك أكثر من سبيل. أعتقد أنّني سعيدٌ لأنّهم فعلوا ذلك. فالأمر واضح ونهائيّ. لا تقلقي بشأني. خذي قسطًا من الراحة واستريحي من كلّ شيء.

ـ حسنًا.

ـ إلى أين ستذهبين؟

ـ إلى الريف. إلى كوخ أملكه في بيركشاير. إذا كنت تريد رؤيتي، سيخبرك إيدي ويلرز بطريقة الوصول إلى هناك. سأعود خلال أسبوعين.

ـ هل بإمكانك أن تسدي إليّ معروفًا؟

ـ حسنًا.

ـ لا تعودي حتّى آتي إليك.

لكنّني أريد أن أكون هنا عندما يقع ذلك.

ـ اتركي هذا الأمر لي.

ـ فمهما فعلوا بك، فأنا أريدهم أن يفعلوا بي أيضًا الشيء نفسه.

اتركي لي هذا الأمر يا أعزّ الناس، ألا تفهمين؟ أعتقد أنّ أكثر ما أريده الآن هو الشيء نفسه الذي تريدينه: عدم رؤية أيّ واحد منهم. ولكن يجب أن أبقى هنا بعضَ الوقت. لذلك سيساعدني إذا علمت أنّك، على الأقلّ، بعيدة عن متناول أيديهم. أريد أن أُبقي نقطة واحدة نظيفة في ذهني لأتّكئ عليها. سيستغرق الأمر بعض الوقت فقط، وبعد ذلك سوف آتي إليك. هل تفهمين؟

ـ نعم يا حبيبي، إلى اللقاء. سأشتاق إليك.

كان من السهل عليها الخروج من مكتبها إلى أسفل القاعات الممتدّة في شركة تاجارت العابرة للقارّات. مشت، متطلّعةً إلى الأمام، وخطواتها تتقدّم بإيقاع النهايات غير المنقطعة وغير المستعجلة. كان وجهها متماسكًا ومحافظًا على شكل من أشكال الدهشة والقبول والراحة.

كانت تسير عبر صالة المحطّة. فرأت تمثال تاجارت. لكنّها لم تشعر بأيّ ألمٍ أو أيّ لوم، توهّج فقط حبّها له، ذلك الشعور بأنّها ستنضمّ إليه، لا بعد الموت، ولكن في كلّ

ما كانت عليه حياته.

***

كان أوّل رجل استقال من شركة ريردن للفولاذ هو توم كولبي، رئيس عمّال الدرفلة، ورئيس اتّحاد عمّال الصلب بالشركة. لقد قضّى مدّة عشر سنوات، وهو يسمع الناس يدينونه في جميع أنحاء البلاد، لأنّه كان الممثّل النقابيّ للشركة ولأنّه لم ينخرط في أيّ صراع عنيف مع الإدارة. وقد كان هذا صحيحًا: لم تكن هناك ضرورة للصراع على الإطلاق؛ فريردن كان يدفع لهم معدّل أجورٍ أعلى من أيّ معدّل نقابيّ في البلاد، وهو ما طالب به - وحصل عليه - كأفضل قوّة عاملة لا يمكن العثور عليها في أيّ مكان آخر.

وعندما أخبره توم كولبي بأنّه سيستقيل، أومأ ريردن برأسه دون تعليق أو أسئلة.

أضاف كولبي بهدوء: لن أعمل في ظلّ هذه الظروف، ولن أساعد في إبقاء الرجال يعملون. هم يثقون بي. وأنا لن أكون لهم مثل عنزة يهوذا التي تقودهم إلى زريبة الماشية.

سأله ريردن: ومن أين ستكسب لقمة العيش؟

ـ لقد وفّرت ما سيكفيني لمدّة عام تقريبًا.

ـ وبعد ذلك؟

تجاهله كولبي. فتذكّر ريردن الصبيّ ذا العينين الغاضبتين، الذي كان يستخرج الفحم ليلًا مثل المجرمين. وتذكّر جميع الطرق المظلمة، والأزقّة، والساحات الخلفيّة للبلاد، حيث سيتبادل أفضل رجال الدولة خدماتهم مقابل مقايضة الأدغال، ومقابل وظائف الصدفة، وفي المعاملات غير المسجّلة. ثمّ فكّر في نهاية تلك الطريق.

كان توم كولبي يبدو وكأنّه يعرف ما كان يفكّر فيه ريردن فقال: سينتهي بك المطاف بجانبي يا سيّد ريردن. هل ستوقّع على شهادة تسليم عقلك لهم؟

ـ لا.

ـ ثمّ ماذا سيحدث بعد ذلك؟

فتجاهله ريردن. راقبت عينا كولبي السيّد ريردن لحظة، كانتا شاحبتين وتحملان نظرة مكرٍ ودهاء في وجه دبغه الفرن بتجاعيد محفورة بالسخام. ثمّ أضاف:

ـ لقد كانوا يخبروننا منذ سنوات بأنّ الأمر بيني وبينك يا سيّد ريردن. لكنّه ليس كذلك. إنّ أورين بويل وفريد كينان يقفان ضدّك وضدّي.

ـ أعلم ذلك.

وحده مكتب ريردن لم تدخله الممرّضة اللطيفة، كأنّما شعرت بأنّه مكان لا تملك الحقّ في دخوله. فانتظر الصبيّ دائما للحصول على لمحة من ريردن في الخارج. وقد ربطه الأمر التوجيهيّ بوظيفته، بصفته ممثّل هيئة رقابيّة رسميّة للإفراط أو النقص في الإنتاج بالمطاحن. أوقف ريردن، بعد بضعة أيّام، في زقاق بين صفوف أفران الموقد المفتوح. كان هناك مظهر غريب من الشراسة على وجه الصبيّ.

قال: يا سيّد ريردن، أردت أن أخبرك بأنّك إذا كنت تريد صبّ عشرة أضعاف حصّة من معدن ريردن أو من الفولاذ أو من حديد الزهر أو من أيّ شيء، وتهريبها إلى أيّ مكان ولأيّ شخص بأيّ ثمن، فامض قدمًا ولا تخف. سأتدبّر كلّ شيء. سأتلاعب بالدفاتر، وسأزيّف التقارير، وسأحصل على شهود الزور، وسأدلّس الشهادات الخطّيّة، وسأدلي بشهادة الزور، لذلك لا داعي إلى القلق، فلن تكون هناك أيّ مشكلة!

سأله ريردن وهو يبتسم: ولماذا تريد أن تفعل ذلك الآن؟

ـ لأنّني أريد، لمرّة واحدة في حياتي، أن أفعل شيئًا أخلاقيًّا.

ـ هذه ليست الطريقة المناسبة لتكون ذا خلق.

بدأ ريردن كلامه ثمّ توقّف فجأة، مدركًا أنّ ذلك كان هو الطريق، والطريقة الوحيدة المتبقّية، واعيا بعدد تقلّبات الفساد الفكريّ التي كان على هذا الصبيّ أن يكافح من أجل اكتشافه المهمّ.

قال الصبيّ بخجل: أعتقد أنّ تلك لم تكن الكلمة المناسبة التي أعنيها. فأنا أعلم أنّها كلمة خانقة من الطراز القديم. ليس هذا ما قصدته. بل قصدت.. يا سيّد ريردن، ليس لهم الحقّ في فعل ذلك!

ـ فعل ماذا؟

ـ أخذ معدن ريردن بعيدًا عنك.

قال ريردن، وهو يبتسم: انس الأمر، فلا وجود لأمر مطلق. ولا توجد أيّ حقوق.

ـ أعرف أنّ تلك الأمور لا توجد. لكنّ... ما أعنيه هو أنّهم لا يستطيعون فعل ذلك.

قال ريردن وهو يبتسم: ولمَ لا؟

ـ لا توقّع على شهادة الهديّة، يا سيّد ريردن! من حيث المبدأ لا توقّع عليها.

ـ لن أوقّعها. لكن لا توجد أيّ مبادئ.

ـ أعلم أنّه لا توجد أيّ مبادئ.

كان يتلو الكلام بجدّيّة تامّة، وبصدقِ طالبٍ واعٍ: أعلم أنّ كلّ شيء نسبيّ، فلا أحد يستطيع أن يعلم أيّ شيء أو أنّ العقل وهم ولا توجد أيّ حقيقة. لكنّني أتحدّث فقط عن معدن ريردن. فلا توقّع يا سيّد ريردن سواء استنادًا على الأخلاق أو اللّاأخلاق، أو وفقًا للمبادئ أو اللّامبادئ، لا توقّعها فقط، لأنّ توقيعها ليس فعلا صائبًا!

لم يذكر أحدٌ آخر موضوعَ الأمر التوجيهيّ بحضور ريردن. وكان الصمت هو الجانب الجديد المخيّم على المطاحن. فلم يتحدّث معه الرجال عندما كان يظهر في ورش العمل، ولاحظ أنّهم لم يتحدّثوا في ما بينهم. ولم يتلقّ مكتب شؤون الموظّفين أيّ استقالات رسميّة. لكن في كلّ صباح، فشل رجل أو اثنان في الظهور ولم يظهرا مجدّدًا. وعندما أجريت التحقيقات وتوجّهت نحو منازلهم وجدوا أنّ المنازل مهجورة وأنّ الرجال غادروا. ولم يُبلّغ مكتب شؤون الموظّفين عن حالات الفرار تلك حسب التوجيهات المطلوبة؛ وبدلًا من ذلك، بدأ ريردن يرى وجوهًا غير مألوفة بين العمّال، بوجوه مشدودة مقهورة لعاطلين عن العمل منذ فترة طويلة، واستمع إليهم وهُم

يُنادَى عليهم بأسماء الرجال الذين استقالوا، فلم يطرح أيّ سؤال.

لقد خيّم الصمت في جميع أنحاء البلاد. لم يكن ريردن يعرف عدد الصناعيّين الذين تقاعدوا واختفوا في الأوّل والثاني من مايو، تاركين مصانعهم ليُسْتَوْلَى عليها. كان يعرف عدد عشرة من بين عملائه، ومنهم ماكنيل صاحب مسبك ماكنيل للسيّارات في شيكاغو. لم يكن يملك طريقة للاستعلام عن الآخرين. ولم ترد تقارير في الصحف. بل امتلأت الصفحات الأولى من الجرائد فجأة بقصص عن فيضانات الربيع وحوادث المرور ونزهات المدارس واحتفالات الذكرى السنويّة للزفاف الذهبيّ.

وخيّم الصمت في منزله أيضًا. لقد غادرت ليليان في إطار رحلة عطلة إلى فلوريدا في منتصف أبريل. أذهلته بمثل تلك النزوة التي لم يتمكّن من تفسيرها؛ كانت أوّل رحلة تؤدّيها بمفردها منذ زواجهما. وتجنّبه فيليب بنظرة من الذعر. وحدّقت فيه والدته في حيرة يشوبها اللوم. لم تقل شيئًا، لكنّها استمرّت في البكاء أثناء حضوره، وأشار أسلوبها إلى أنّ دموعها هي أهمّ جانب يجب مراعاته في أيّ كارثة كانت تشعر بأنّها على وشك الاقتراب.

وفي صباح الخامس عشر من مايو، جلس بمكتبه، ينظر من فوق إلى انتشار الطواحين، فشاهد ألوان الدخان تتصاعد في السماء الزرقاء الصافية. كانت هناك طفرات من الدخان الشفّاف، مثل موجات الحرارة غير المرئيّة، ولكنّها كانت للهياكل التي ارتعشت خلفها؛ كانت هناك شرائط من الدخان الأحمر، وأعمدة بطيئة من اللون الأصفر، ولوالب خفيفة عائمة من اللون الأزرق والملفّات السميكة الضيّقة التي تتدفّق بسرعة والتي تشبه المسامير الملتوية من الساتان المخضّبة باللون الورديّ لأم اللؤلؤ بسبب شمس الصيف.

رنّ الجرس بمكتبه، وأعلن صوت الآنسة إيفز: الدكتور فلويد فيريس يودّ رؤيتك، من دون موعد يا سيّد ريردن.

على الرغم من شكليّاتها الصارمة، قالت بنبرة صارمة: هل أطرده؟

كانت هناك حركة خافتة من الدهشة على وجه ريردن، لا تكاد تتجاوز خطّ اللّامبالاة: لم يكن يتوقّع ذلك المبعوث بعينه. فأجاب بإنصاف: اطلبي منه الدخول.

لم يبتسم الدكتور فيريس وهو يسير نحو مكتب ريردن، وكلّ ما اعتراه هو نظرة توحي بأنّ ريردن يعلم جيّدًا أنّ لديه سببًا وجيهًا للابتسام، وهكذا سيمتنع عن أن يكون واضحًا.

جلس أمام المكتب، دون أن ينتظر إذنًا بالجلوس؛ كان يحمل حقيبة، وضعها على ركبتيه؛ وكان يتصرّف كما لو أنّ الكلمات غير ضروريّة، لأنّ ظهوره في ذلك المكتب قد أوضح كلّ شيء.

وجلس ريردن يراقبه بصمت. فقال الدكتور فيريس، بنبرة بائع يدلي بمجاملة خاصّة لحريف:

ـ لقد جئت للحصول على توقيعك يا سيّد ريردن، بما أنّ الموعد النهائيّ للتوقيع على شهادات الهدايا الوطنيّة سينتهي اليوم في منتصف الليل.

ثمّ توقّف فجأة عن الكلام، فقال ريردن:

ـ استمرّ في الحديث، فكلّي آذان صاغية.

قال الدكتور فيريس: حسنًا، أفترض أنّ عليّ شرح الأمر لك، إنّنا نرغب في الحصول على توقيعك في وقت مبكّر من هذا اليوم من أجل الإعلان عن الحدث في بثّ إخباريّ وطنيّ. على الرغم من مرور برنامج الهدايا بسلاسة تامّة، ما يزال هناك عدد قليل من الأفراد العنيدين الذين رفضوا التوقيع. إنّها فئة صغيرة حقًّا، وبراءات اختراعها ليست ذات قيمة عالية، ومع ذلك ينبغي أن يوقّعوا التزامًا بالأمر التوجيهيّ. نحن نعتقد أنّهم ينتظرون خطوتك في هذا الموضوع. لأنّك تحظى بشعبيّة كبيرة، أكبر ممّا تتصوّر. لذلك، فإنّ الإعلان الذي ستوقّع عليه سينهي آمال المقاومة الأخيرة. وبحلول منتصف الليل، ستتقاطر علينا آخر التوقيعات. وبالنتيجة إكمال البرنامج في الموعد المحدّد.

قال ريردن: واصل حديثك، فأنت لم تنهِ كلامك بعدُ.

ـ كما تعلم -وكما بيّنت في محاكمتك- ينبغي أن نحصل على كلّ تلك الممتلكات بموافقة الضحايا.

ثمّ فتح الدكتور فيريس حقيبته، وأضاف: ها هي شهادة الهديّة يا سيّد ريردن. لقد حرّرناها وكلّ ما عليك هو التوقيع عليها.

فبدت قطعة الورق، التي وضعها أمام ريردن، وكأنّها شهادة جامعيّة صغيرة، بنصّ مطبوع بخطّ من الطراز القديم وقد أُدخِلت عليها التفاصيل بواسطة آلة كاتبة. جاء في الأمر أنّ هانك ريردن، بموجب هذه الشهادة، نقل للأمّة جميع الحقوق في السبائك المعدنيّة المعروفة الآن باسم معدن ريردن، وهي سبائك سيتمّ تصنيعها من الآن فصاعدًا من قبل جميع الذين يرغبون في ذلك، وستحمل اسم (المعدن المعجز)، كما اختاره ممثّلو الشعب. وبإلقاء نظرة خاطفة على الورقة، تساءل ريردن عمّا إذا كان ذلك الأدب من قبيل السخرية المتعمّدة، أم تقديرًا منخفضًا جدًّا لذكاء ضحاياهم، ممّا جعل مصمّمي تلك الورقة يطبعون النصّ عبر رسم خافت لتمثال الحرّيّة.

فتحرّكت عيناه ببطء صوب وجه الدكتور فيريس وقال:

ـ ما كان لك أن تأتي إلى هنا لو أنّك لم تملك أوراقًا يمكنك استعمالها ضدّي، فما هي أوراقك؟

ردّ الدكتور فيريس: بالطبع أتوقّع منك أن تفهم ذلك. هذا هو السبب في عدم وجود تفسيرات مطوّلة.

ثمّ فتح حقيبته مجدّدًا، وأضاف: هل ترغب في رؤية أوراقي؟ لقد أحضرت بعض العيّنات.

وبطريقة المحتال في لعب الورق الذي يستطيع عمل مروحة طويلة من البطاقات بضغطة واحدة من اليد، نشر أمام ريردن خطًّا من الصور الفوتوغرافيّة اللامعة. كانت صورًا من سجلّات الفنادق وباحات السيّارات، مع كتابة من خطّ يد ريردن بأسماء السيّد والسيّدة ج. سميث.ثمّ قال الدكتور فيريس بهدوء:

ـ أنت تعرف هذا الأمر طبعًا، لكنّك قد ترغب في معرفة ما إذا كنّا نعرف ذلك أيضًا، وأنّ السيّدة ج. سميث هي الآنسة داغني تاجارت.

لم يجد شيئًا يجب ملاحظته في وجه ريردن، الذي لم يتحرّك بغية الانحناء على الصور، لكنّه جلس لينظر إليها باهتمام شديد، كما لو أنّه كان، من منظور المسافة، يكتشف شيئًا عنها لم يكن يعرفه. فقال الدكتور فيريس:

ـ نملك الكثير من الأدلّة الإضافيّة الأخرى.

وألقى على المكتب صورة من فاتورة صائغ قلادة الياقوت. ثمّ أضاف:

ـ لن تهتمّ برؤية شهادات المحلّفين من بوّابي النزل وموظّفي الليل، فهي لا تحتوي على أيّ شيء جديد بالنسبة إليك، باستثناء عدد الشهود الذين يعرفون أين قضّيت لياليك في نيويورك آخر سنتين. لا يجب أن تلوم هؤلاء الناس كثيرا. إنّها سمة مثيرة للاهتمام أن يبدأ الناس في الخوف من قول الأشياء التي يريدون قولها، ويخافون، عند الاستجواب، من التزام الصمت بشأن الأشياء التي يفضّلون عدم نطقها أبدًا. هذا أمرٌ متوقّع، لكنّك ستندهش إذا عرفت مَن أمدّنا بالإرشاد الأصليّ.

قال ريردن: أعرف ذلك.

لم تحمل نبرة صوته أيّ ردّ فعل. فالرحلة إلى فلوريدا لم تعد بعد الآن غير قابلة للتفسير بالنسبة إليه.

قال الدكتور فيريس: لا يوجد شيء ضمن أوراقي يمكن أن يؤذيك شخصيًّا. كنّا نعلم أنّ أيّ شكل من أشكال الأذى الشخصيّ لن يجعلك تستسلم أبدًا. لذلك، أقول لك بصراحة إنّ هذا لن يؤذيك على الإطلاق. ولن يضرّ الآن إلّا الآنسة تاجارت.

كان ريردن ينظر إليه مباشرة، لكنّ الدكتور فيريس كان يتساءل عن السبب الذي يجعل هذا الوجه الهادئ يلتفت لينظر بعيدًا صوب مسافة أكبر وأكبر.

قال الدكتور فيريس: إذا خرجت قضيّتك إلى العلن، وإذا لاكها الخبراء في فنّ التشويه من أمثال الصحفيّ بيرترام سكودر، فإنّها لن تؤثّر إطلاقا على سمعتك. لأنّ

مثل هذه الفضائح متوقّعة على الدوام من أيّ رجل. وفي الواقع، هذه الفضيحة ستعزّز سمعتك. بل ستمنحك هالة من التألّق الرومانسيّ في أوساط النساء، أمّا في أوساط الرجال، فإنّها ستمنحك نوعًا معيّنًا من الهيبة، لأنّك حقّقتَ فتحًا غير عاديّ. ولكن في خصوص الآنسة تاجارت وسمعتها ونظرات الناس إليها، سأترك لك أن تتخيّل عواقب هذه الفضيحة عليها.

لم يشعر ريردن بشيء سوى سكون كبير ووضوح أكبر. كان الأمر كما لو أنّ بعض الأصوات تخبره بصرامة: هذا هو الوقت المناسب- فالمشهد مضاء - فلتنظر الآن. فوقف عاريًا في النور العظيم، وكان ينظر بهدوء، وبجدّية، مجرّدًا من الخوف والألم والأمل، ولم يبق له من شيء سوى الرغبة في المعرفة.

كان الدكتور فيريس مندهشًا من سماعه وهو يقول ببطء، وبنبرة نزيهة لعبارة مجرّدة لا يبدو أنّها موجّهة إلى مستمعه: لكن كلّ حساباتك ترتكز على حقيقة أنّ الآنسة تاجارت امرأة فاضلة، وليست المرأة الوقحة التي قد تنعتها بالعاهرة.

قال الدكتور فيريس: نعم، بالطبع.

ـ وهذا يعني لي أكثر بكثير من علاقة غير رسميّة.

ـ بالطبع، وبكلّ تأكيد.

ـ إذا كانت صورك ستظهرني والآنسة داغني على أنّنا من حثالة المجتمع، فإنّ أوراقك لن تنفع كثيرًا.

ـ لا، لن تفعل ذلك.

ـ وإذا كانت علاقتنا هي الفساد الذي ستعلنه، فلن تكون هناك طريقة لإيذائنا.

ـ لا.

ـ سنكون خارج سلطتك.

ـ في الواقع نعم.

لم يكن ريردن يخاطب الدكتور فيريس، بل يرى طابورًا طويلًا من الرجال يمتدّ عبر القرون من أفلاطون إلى اليوم، والدكتور هو وريثه ومنتجه الأخير، أستاذ غير كفء بملامح قوّاد مرافق لبغيّ بروح سفّاح دمويّ.

قال الدكتور فيريس: عرضت عليك ذات مرّة فرصة للانضمام إلينا، لكنّك رفضت. يمكنك الآن أن ترى العواقب. فكيف يعتقد رجل بذكائك أنّه قادر على الفوز في اللعب المباشر، لا أستطيع أن أتخيّل ذلك.

ردّ ريردن بالتجرّد نفسه كما لو أنّه لم يكن يتحدّث عن نفسه: لكن لو أنّني انضممت إليك، فما الشيء الذي سأجده يستحقّ النهب عند أورين بويل؟

ـ أوه بحقّ الجحيم، يوجد دائمًا ما يكفي من مصّاصي الدماء لمصادرتهم في هذا العالم!

ـ مثل الآنسة تاجارت؟ مثل كين داناغر؟ مثل إليس وايت؟ أو مثلي؟

ـ مثل أيّ إنسان لا يرغب أن يكون عمليًّا.

ـ هل تقصد أنّه ليس من العمليّ أن تعيش على الأرض؟ أليس كذلك؟

لم يكن يعلم ما إذا كان الدكتور فيريس قد ردّ عليه، لأنّه لم يعد يسمعه. كان يرى وجه أوريل بويل النابض، بشقوق صغيرة تشبه عينَي خنزير، ووجهَ السيّد موين العجينيّ بعينيه اللتين تبتعدان عن أيّ متحدّث وأيّ حقيقة، كان يراهما تمرّان من خلال حركات متقطّعة في أداء روتينيّ لقرد تعلّم التقليد وفقًا للتعوّد العضليّ، قرد يؤدّي حركات من أجل تصنيع معدن ريردن، دون معرفة ولا قدرة على معرفة ما حدث في المختبر التجريبيّ لشركة ريردن للفولاذ خلال عشر سنوات من التفاني الشغوف بعد جهد رهيب. كان من المناسب أن يطلقوا الآن على تلك السبائك اسم (المعدن المعجزة). والمعجزة هي الاسم الوحيد الذي يمكن أن يعطى لتلك السنوات العشر وإلى تلك المَلَكَة التي أنجبت معدن ريردن. كانت المعجزة هي كلّ ما يمكن أن يكون عليه المعدن في أعينهم، نتاج سبب مجهول وغير معروف، شيء في الطبيعة لا يمكن

تفسيره، ولكن يجب الاستيلاء عليه مثل الحجر أو الأعشاب، وهم يتساءلون: هل سندع الأغلبيّة الساحقة تبقى في عوز وحاجة بينما القليل يحجبون عنّا أفضل المنتجات والأساليب المتاحة؟

كان يخاطب بصوت عالٍ طابورَ البشر الممتدّ عبر القرون: لو أنّي لم أعلم أنّ حياتي تعتمد على ذهني وجهدي، ولو أنّي لم أجعل هدفي الأخلاقيّ الأعلى هو ممارسة أفضل جهد لي وعلى أكمل وجه، وممارسة قدرة ذهني من أجل دعم حياتي وازدهارها، لما وجدتم شيئًا تنهبونه منّي، ولا شيء لدعم وجودكم. فأنتم لا تستغلّون ذنوبي لإيذائي، ولكنّكم تستغلّون فضائلي، لأنّ حياتكم تعتمد عليها، ولأنّكم تحتاجون إليها، بل لأنّكم لا تسعون إلى تدمير إنجازاتي بل الاستيلاء عليها.

وتذكّر صوت قوّاد العِلْمِ وهو يقول له: نحن طلاّب سلطة ونعنيها. أمّا أنتم أيّها الزملاء فلستم إلّا مجرّد مقامرين، ولكنّنا نعرف الخدعة الحقيقيّة. نحن لسنا طلّاب سلطةٍ، قال ريردن وهو يخاطب روح أسلاف القوّاد بداخله، ولم نكن نعيش من خلال ما ندينه. فنحن نعتبر القدرة الإنتاجيّة فضيلة، ونسمح لدرجة فضيلة الإنسان بأن تكون مقياسَ مكافأته. لم نستفد من الأشياء التي اعتبرناها شرّيرة، ولم نطلب وجود لصوص البنوك من أجل إدارة بنوكنا، أو اللصوص من أجل إعالة منازلنا، أو القتلة من أجل حماية حياتنا. لكنّكم تحتاجون إلى منتجات قدرة الإنسان، في حين تدّعون أنّ القدرة الإنتاجيّة شرٌّ أنانيّ وتحوّلون درجة إنتاجيّة الإنسان إلى مقياس لخسارته. لقد عشنا بما اعتبرناه صالحًا وعاقبنا ما اعتبرناه شرًّا. أمّا أنتم فتعيشون على ما تندّدون به على أنّه شرّ وتعاقبون ما تعرفون أنّه جيّد.

ثمّ تذكّر صيغة العقوبة التي سعت ليليان إلى فرضها عليه، وهي الصيغة التي اعتبرها وحشيّة جدًّا على نحوٍ لا يمكن تصديقه، ورأى ذلك الآن في تطبيقها الكامل، كنظام فكريّ، وطريقة حياة منتشرة على النطاق العالميّ. هذه إذَن هي الصيغة: العقوبة التي تتطلّب فضيلة الضحيّة وقودًا لجعلها تعمل، فاختراعه معدنَ ريردن سيستخدم سببًا لمصادرته، وشرف داغني وعمق شعورهما المتبادل سيستخدم كأداة للابتزاز،

ذلك الابتزاز الذي يكون فيه الفاسدون محصّنين، مثلما يحصل في دول أوروبا الشعبيّة، حيث يُحتجز الملايين من البشر في عبوديّةٍ بسبب رغبتهم في العيش، ومن خلال طاقتهم التي استنزفت في العمل الجبريّ، عن طريق قدرتهم على إطعام أسيادهم عبر نظام الرهائن، وحبّهم لأطفالهم أو زوجاتهم أو أصدقائهم، وعن طريق الحبّ والقدرة والسعادة كعلف للتهديدات وطعم للابتزاز، بالحبّ المرتبط بالخوف، والقدرة على العقاب، والطموح إلى المصادرة، والابتزاز بوصفه قانونًا، والهروب من الألم، وليس السعي إلى المتعة، بوصفه حافزًا وحيدًا على الجهد ومكافأة الإنجاز الوحيد مثل البشر الذين يتمّ استعبادهم وفقًا لأيّ قوّة حيّة يمتلكونها وأيًّا كانت المتعة التي وجدوها في الحياة. كانت تلك هي الشفرة التي قبلها العالم وكان مفتاح تلك الشفرة هو: ربط حبّ الإنسان للوجود بدائرة من التعذيب، بحيث لا يخشى سوى الإنسان الذي لا يملك ما يقدّمه، فحتّى الفضائل التي جعلت الحياة ممكنةً والقيم التي أعطتها المعنى أصبحت عوامل لتدميرها، فأصبحت أفضل أداة لألم المرء، وأصبحت حياة الإنسان على الأرض غير عمليّة.

قال صوت الرجل الذي لم يستطع أن ينساه: قانونكم هو شفرة الحياة إذَن، فماذا عنهم؟

فقال ريردن في نفسه: لماذا قبلها العالم؟ كيف يأتي الضحايا ليعاقبوا قانونًا أعلن أنّهم مذنبون بحقيقة الوجود؟ ثمّ أصبح عنف الضربة الداخليّة بمثابة السكون الكلّيّ لجسده وهو جالس يتأمّل في رؤية مفاجئة: ألم يفعل هو أيضًا ذلك؟ ألم يعطَ عقابًا على قانون الإدانة الذاتيّة؟ ثمّ فكّر في داغني وعمق الشعور بينهما... وتذكّر الابتزاز الذي من شأنه أن يجعل الفاسد حصينًا... ألم يطلق عليه بنفسه سابقًا صفة الفساد؟ ألم يكن هو أوّل من ألقى عليها كلّ الإهانات التي تسعى الحثالة البشريّة إلى التهديد بإلقائها في الأماكن العامّة الآن؟ ألم يتقبّل أعلى سعادة وجدها على الإطلاق بوصفها ذنبًا؟

كان صوت الرجل الذي لم يستطع أن ينساه يقول: أنت يا من لم يسمح بتسرّب واحد في المائة من الشوائب في سبيكة من المعدن، لماذا سمحت بتسرّبها في قانونك

الأخلاقيّ؟

قال الدكتور فيريس: حسنًا يا سيّد ريردن؟ هل تفهمني الآن؟ هل سنحصل على المعدن أم تريدنا أن نجعل غرفة نوم الآنسة تاجارت مكان عرض للعموم؟

لم يكن يرى الدكتور فيريس. بل رأى -في الوضوح العنيف الذي كان بمثابة أضواء تُمزّق كلّ لغز مفتوح أمامه- اليومَ الذي التقى فيه داغني أوّل مرّة.

كان ذلك بعد بضعة أشهر من تولّيها منصب نائبة رئيس شركة تاجارت العابرة للقارّات. كان يسمع بريبة، لبعض الوقت، الشائعات بأنّ شركة السكك الحديديّة تلك تدار من قبل شقيقة جيم تاجارت. وفي ذلك الصيف، عندما ازداد استياؤه من تأخّر شركة تاجارت والتناقضات التي عانت منها بشأن طلبيّة السكك الحديديّة المصنوعة من المعدن الجديد، تلك الطلبيّة التي أبقت شركة تاجارت المطالبة بها، بلا تغيير أو انسحاب، نصحه أحدهم بأنّه إذا كان يرغب في الحصول على أيّ مغزى أو عمل من شركة تاجارت العابرة للقارّات، فمن الأفضل له التحدّث إلى شقيقة جيم. فاتّصل بمكتبها لتحديد موعد وأصرّ على الحصول عليه بعد ظهر اليوم نفسه. فقالت سكرتيرتها إنّ الآنسة تاجارت ستكون في موقع بناء القطع الجديد بعد ظهر ذلك اليوم، في محطّة ميلفورد بين نيويورك وفيلادلفيا، لكنّها ستكون سعيدة لرؤيته هناك إذا رغب في ذلك. فذهب إلى ذلك الموعد وبداخله استياء كبير؛ فجلّ سيّدات الأعمال اللواتي قابلهنّ لم يُعجِبْنه، وكان يشعر بأنّ العمل بالسكك الحديديّة هو من بين الأعمال التي لم تصمّم للمرأة، وتوقّع رؤية وريثة مدلّلة تستخدم اسمها وجنسها بديلًا من القدرة، بحواجبها المنمّصة، وأنوثتها المفرطة، مثل أيّ مديرة تنفيذيّة لأحد المتاجر الكبرى.

وحين نزل من آخر عربة من قطار طويلٍ، بعيدًا عن منصّة محطّة ميلفورد، كانت هناك فوضى عارمة من الخطوط الجانبيّة، وعربات الشحن، والرافعات والمعاول البخاريّة من حوله، تنحدر من المسار الرئيسيّ أسفل منحدر واد حيث كان الرجال يمهّدون الطريق لوضع قطع جديدة. فبدأ يسير بين المسارات الجانبيّة نحو مبنى

المحطّة. ثمّ توقّف.

رأى فتاة تقف فوق كومة من الآلات على عربة شحن. كانت تنظر إلى الوادي، ورأسها مرفوع، وخصلات من الشعر المشوّشة تتماوج في مهبّ الريح. كانت بدلتها الرماديّة العادية مثل غلاف رقيق من المعدن على جسم نحيل يواجه انتشار الفضاء والسماء التي تغمرها أشعّة الشمس. وكانت هيئتها توحي بخفّة ودقّة غير واعية بنفسها من الثقة بالنفس النقيّة بالكبرياء. كانت تراقب العمل، بنظرة صارمة وهادفة، هي نظرة كفاءة تدلّ على أنّها تستمتع بوظيفتها الخاصّة. فبدت وكأنّها في مكانها ولحظتها وعالمها الخاصّ، أو كأنّ المتعة هي حالتها الطبيعيّة. وكان وجهها تجسيدًا حيًّا لذكاء وقّاد نشط، لوجه فتاة يافعة بفم امرأة، بدت غير مدركة لجسدها إلّا كأداة مشدودة جاهزة لخدمة هدفها بأيّ طريقة ترغب فيها.

لو أنّه سأل نفسه لحظةً، في وقت سابق، عمّا إذا كان يحمل في ذهنه صورةً لما يريد أن تبدو عليه أيّ امرأة، لأجاب أنّه لا يحمل أيّ صورة مسبّقة؛ غير أنّه عرف بعد رؤيتها، أنّ تلك هي الصورة وأنّه كان يحملها لسنوات. لكنّه لم ينظر إليها نظرته إلى أيّ امرأةٍ. لقد نسي أين كان وأيّ أمر جاء من أجله، فتملّكه إحساس طفل صغير بالفرحة أثناء اللحظة الآتية، تلك الفرحة غير المتوقّعة وغير المكتشفة، وتملّكته دهشة لإدراك ندرة مشهد أحبّه حقًّا، أحبّه بقبول كامل ومن أجل ذاته، كان ينظر إليها بابتسامة خافتة، كما لو أنّه ينظر إلى تمثال أو أحد المناظر الطبيعيّة الخلاّبة. وما شعر به كان مجرّد متعة بصريّة، وأنقى متعة جماليّة عاشها على الإطلاق.

ثمّ رأى عامل تبديلٍ يمرّ، فسأله وهو يشير إليها: من تكون تلك المرأة؟

ردّ الرجل وهو يستأنف سيره: إنّها داغني تاجارت.

شعر ريردن حينها بغصّة كما لو أنّ الكلمات ظلّت عالقة داخل حنجرته. وشعر أيضًا ببداية تيّار يقطع أنفاسه للحظة، ثمّ نزل ببطء إلى أسفل جسده، حاملًا في أعقابه إحساسًا بالثقل، ثقلٍ مستنزفٍ لم يترك له أيّ قدرة سوى واحدة. كان على وعي - بوضوح غير طبيعيّ - بالمكان واسم المرأة وكلّ ما ينطوي عليه، ولكنّ كلّ ذلك انحسر

في حلقة خارجيّة وأصبح ضغطًا تركه وحيدًا في المركز، بوصفه معنى تلك الحلقة وجوهرها، وكان واقعه الوحيد هو الرغبة -الآن وهناك فوق عربة الشحن وهي عرضة للشمس- في أن تكون تلك المرأة له قبل نطق أيّ كلمة بينهما، وأن يكون ذلك هو الفعل الأوّل للقائهما، لأنّه سيعبّر عن كلّ شيء، ولأنّهما قد اكتسباه منذ فترة طويلة.

أدارت رأسها بحركة انحناء بطيئة، فالتقت عيونهما، فتوقّفت داغني عن الحركة. لقد أيقن أنّها ترى طبيعة نظرته، وأنّها كانت مأسورة بها، ومع ذلك لم تشغل نفسها بتسميتها. ثمّ التفتت فرآها تتحدّث إلى رجل يقف بجانب عربة الشحن، وهو يُدوّن بعض ملاحظات.

ثمّ صدمه وقوع أمرين معًا: عودته إلى واقعه الطبيعيّ، والتأثير المدمّر للشعور بالذنب. شعر بلحظة اقتراب من ذلك النوع الذي قد لا يشعر به أيّ إنسان بشكل كامل فيبقى على قيد الحياة: شعور بكراهية الذات الأكثر فظاعة، لأنّ جزءًا منه رفض قبوله وجعله يشعر بالذنب. لم يكن ذلك تطوّرًا للكلمات، ولكنّه كان الحكم الفوريّ لعاطفة، وهو الحكم الذي قال له: تلك إذَن، هي طبيعته، وتلك هي فساده، وأخبره بأنّ الرغبة المخزية التي لم يتمكّن من قهرها كانت ردًّا على المنظر الوحيد للجمال الذي وجدَه، وبأنّ تلك الرغبة صاحبها عنفٌ لم يكن يدرك أنّه ممكن، وبأنّ الحرّيّة الوحيدة الباقية له الآن كانت لإخفاء ذلك الشعور واحتقار نفسه، ولكن مع عدم التخلّص منه أبدًا مادام هو وتلك المرأة على قيد الحياة.

لم يكن يعلم كم من الوقت استغرق وقوفه هناك أو حجم الدمار الذي خلّفته فترة الزمن تلك. كلّ ما استطاع الحفاظ عليه هو إرادة تقرير أنّها يجب ألّا تعرف ذلك أبدًا.

انتظر حتّى نزلت على الأرض بعد أن غادر الرجل صاحب الملاحظات، ثمّ اقترب منها وقال ببرود:

ـ آنسة تاجارت؟ أنا هانك ريردن.

ـ أوه!

توقّفت قليلا كأنّها تستريح، ثمّ أضافت: كيف حالك يا سيّد ريردن.

كان يعلم، لكنّه لم يعترف بذلك لنفسه، أنّ تلك الاستراحة جاءت بما يعادل شعوره الخاصّ: كانت سعيدة لأنّ الوجه الذي قابلها، فأعجبت به، هو لرجل يمكنها أن تنبهر به. وعندما شرع في التحدّث معها عن الأعمال التجاريّة، جاء أسلوبه أكثر قسوة وفظاظةً ممّا كان يبديه لأيّ من زبائنه الذكور.

الآن، وبالتحوّل من النظر إلى ما علق بذاكرته من فتاة عربة الشحن إلى رؤية شهادة الهدايا الملقاة على مكتبه، شعر كما لو أنّ الاثنتين التقتا في صدمة واحدة، ودمجتا كلّ الأيّام والشكوك التي عاشها بينهما. وبوهج الانفجار، في لحظة رؤية للخلاصة النهائيّة، أدرك الإجابة على جميع أسئلته.

وأخذ يتأمّل فقال في نفسه: هل أنا مذنب؟ أنا مذنب أكثر ممّا كنت أعلم، وأكثر ذنبًا ممّا اعتقدتُ في ذلك اليوم، أنا مذنب بخطيئة الشرّ الدامغة بل بأفضل ذنب لعين. لقد لعنت حقيقة أنّ عقلي وجسدي كانا يمثّلان وحدةً، وأنّ جسدي استجاب لقيم عقلي. لقد لعنت حقيقة أنّ الفرح هو جوهر الوجود والقوّة الدافعة لكلّ كائن حيّ، وأنّ حاجة المرء إلى جسده مساويةٌ لهدف روحه، وأنّ جسدي لم يكن وزنًا للعضلات الجامدة، بل أداةً قادرة على إعطائي تجربةً من الفرح الفائق لتوحيد لحمي وروحي. تلك القدرة، التي كنت ألعنها على أنّها مخزية، تركتني غير مبالٍ بالفاسقات، لكنّها منحتني رغبتي الوحيدة في الردّ على عظمة المرأة. تلك الرغبة، التي كنت ألعنها على أنّها فاحشة، لم تأتِ من رؤية جسدها، ولكن من معرفة أنّ الشكل الجميل الذي رأيته لم يعبّر عن الروح التي كنت أراها، فليس جسدها هو ما أردت، ولكن شخصها، لم تكن الفتاة ذات الملابس الرماديّة هي التي عليّ امتلاكها، بل المرأة التي تدير شركة سكك الحديد.

ولكنّني لعنت قدرة جسدي على التعبير عمّا شعرت به، ولعنت أعلى إشادة يمكن أن أعطيها إيّاها وهي في الحقيقة إهانةٌ لها تمامًا كما لعنوا قدرتي على ترجمة عملٍ ذهنيّ إلى معدن ريردن، وتمامًا كما لعنوا قوّتي في تحويل المادّة لخدمة احتياجاتي. لقد قبلت

بقانونهم وآمنت به، وقد علّموني أنّ قيم روح المرء يجب أن تبقى شوقًا عاجزًا، لا يترجم في العمل أو في الواقع، في حين أنّ حياة الجسد يجب أن تعيش في بؤس، مثل أداء مهينة لا معنى لها، وأولئك الذين يحاولون الاستمتاع به يجب أن يوصفوا بأنّهم أدنى شأنًا.

لقد كسرت قانونهم، لكنّني وقعت في الفخّ الذي قصدوه، فخّ قانون وضع لأخرقه. لم أفتخر بتمرّدي، فأخذته على أنّه ذنب، ولم ألعنهم، بل لعنت نفسي، ولم ألعن قانونهم، بل لعنت الوجود، وأخفيت سعادتي على أنّها سرٌّ مخزٍ. كان يجب أن أعيشها بصراحة بوصفها حقنًا، أو أن أتّخذها زوجةً لي كما كانت في الحقيقة. لكنّني وصفت سعادتي بالشرّ وجعلتها تتحمّلها مثل هذا العار. وما يريدون فِعْلَه بها الآن، فعلته أنا أوّلًا. لقد جعلت الأمر ممكنًا.

فعلت ذلك باسم الشفقة على أكثر امرأةٍ محتقرة كنت أعرفها. ذلك أيضًا كان قانونهم وأنا قبلت به وكنت أعتقد أنّ شخصًا واحدًا مدين بالواجب للآخر من دون دفع ثمن ذلك في المقابل. كنت أعتقد أنّ من واجبي أن أحبّ امرأة لم تعطني شيئًا، وخانت كلّ شيء عشت من أجله، فطالبت بسعادتها مقابل سعادتي. وكنت أعتقد أنّ الحبّ هديّةٌ ثابتةٌ وأنّ مجرّد منحه ينفي الحاجة تمامًا مثل اعتقادهم أنّ الثروة ملكيّة ثابتة يمكن الاستيلاء عليها وحملها من دون بذل مزيد من الجهد. كنت أعتقد أنّ الحبّ هبةٌ، وليس جائزة يمكن اكتسابها تمامًا مثل اعتقادهم أنّ من حقّهم المطالبة بثروة غير مكتسبة، وكما يعتقدون أنّ حاجتهم هي المطالبة بأخذ طاقتي، اعتقدت أنّ تعاستها كانت مطالبة بحياتي. ومن أجل الشفقة، وليس العدالة، تحمّلت عشر سنوات من التعذيب الذاتيّ. ووضعت الشفقة بمستوى أعلى من ضميري، وهذا هو جوهر ذنبي. لقد ارتكبت جريمتي عندما قلت لها: وفق كلّ معيار من معاييري، سيكون الحفاظ على زواجنا بمثابة احتيال فاسد. لكنّ معاييري ليست ملكًا لك. وأنا لا أفهم معاييرك، ولن أفهمها، ولكنّي سأتقبّلها.

ها هي، تستلقي على مكتبي، تلك المعايير التي قبلتها دون فهم، ها هي طريقة حبّها

لي، ذلك الحبّ الذي لم أصدّقه قطّ، بل حاولت أن أستغني عنه. هنا هو المنتج النهائيّ لما هو غير مكتسب. اعتقدت أنّ من المناسب لها أن ترتكب الظلم، مادمتُ الوحيد الذي سيعاني. ولكن لا شيء يمكن أن يبرّر الظلم. وهذا هو العقاب لقبول ما اعتبرته خيارًا سليمًا، لكنّه الشرّ البشع المحرق للذات. لقد ظننت أنّي سأكون الضحيّة الوحيدة، لكنّي ضحّيت بأنبل امرأة واستبدلت بها امرأة حقيرة. فحين يتصرّف المرء وفقًا للشفقة بدلًا من العدالة، فإنّه يعاقب الصالح من أجل الشرّير؛ وحين ينقذ المرء المذنبين من المعاناة، فإنّه يجبر الأبرياء على تجرّعها. فلا مفرّ من العدالة، ولا شيء يمكن أن يكون غير مكتسب وغير مدفوع الأجر في الكون، سواء أكان مادّةً أم روحًا. وإذا لم يدفع المذنب الثمن، فإنّ البريء هو الذي يتوجّب عليه الدفع.

أنا لم أُصفع من قبل ناهبي الثروة الصغار، بل أنا مَن صفعت نفسي بنفسي. هم لم ينزعوا سلاحي، بل أنا من ألقيته. هذه معركة لا يمكن خوضها إلّا بأيادٍ نظيفة طاهرة، لأنّ قوّة العدوّ الوحيدة هي في قروح ضمير المرء، لقد قبلت بمدوّنة أخلاقيّة جعلتني أعتبر قوّة يدي خطيئة ووصمة عارٍ.

ـ هل سنحصل على المعدن يا سيّد ريردن؟

وانطلاقًا من شهادة الهدايا على مكتبه، جال بنظره إلى ذكرى الفتاة على متن عربة الشحن. وسأل نفسه عمّا إذا كان يستطيع أن يسلّم كائنًا مشعًّا، رآه في تلك اللحظة، إلى ناهبي العقل وسفّاحي الصحافة. هل يمكنه الاستمرار بالسماح للبريء بتحمّل العقوبة؟ هل كان بإمكانها السماح لنفسها بأن تكون في موقف مثل موقفه؟ هل يمكنه الآن أن يتحدّى قانون العدوّ، عندما يكون العار متربّصًا بها، من غير أن يطاله، وعندما يتمّ إلقاء الوحل عليها، وليس عليه، وعندما يكون عليها أن تقاتل، ويكون هو بمنأى عن ذلك؟ هل يمكن أن يدع وجودها يتحوّل إلى جحيم، ولا تكون لديه طريقة لمشاركتها العناء؟

جلس بثبات وهو ينظر إليها. فقال أحبّك، للفتاة التي كانت على متن عربة الشحن، ونطق بصمتٍ الكلمات التي حملت معنى تلك اللحظة قبل أربع سنوات، والشعور

بالسعادة الجليلة التي تنتمي إليها تلك الكلمات، على الرغم من أنّ تلك هي الطريقة التي كان عليه أن يقولها بها للمرّة الأولى.

ثمّ نظر إلى أسفل في شهادة الهديّة. وقال في نفسه: يا داغني، أنت لن تدعيني أفعل ذلك إذا علمت بما يحدث، وستكرهينني بسبب ذلك إذا أدركت الأمر، لكن لا يمكنني أن أدعك تسدّدين ديوني. فالخطأ كان خطئي ولن تنالي العقوبة نيابةً عنّي. حتّى إن لم يبق لي أيّ شيء آخر الآن، فلديّ الكثير: رؤية الحقيقة، تحرّري من ذنبهم، قدرتي الآن على الوقوف بلا ذنب أمام ذاتي، معرفتي بأنّني على حقّ، تمامًا وللمرّة الأولى، وتمسّكي بالوفاء للوصية الوحيدة التي لن أخلّ بها أبدًا وهي أن أكون الرجل الذي يدفع بطريقته الخاصّة.

أنا أحبّك، قالها مجدّدًا للفتاة التي كانت على متن عربة الشحن، وشعر وكأنّ ضوء شمس ذلك الصيف يلامس جبهته، أو أنّه كان يقف أيضًا تحت سماء مفتوحة فوق أرض دون عائق، ولم يتبقّ له من شيء سوى ذاته.

سأله الدكتور فيريس: حسنًا يا سيّد ريردن، هل ستوقّع؟

فانتقلت عينا ريردن إليه. لقد نسي أنّ فيريس كان هناك، ولم يعلم ما إذا كان فيريس يتحدّث أو يجادل أو ينتظر بصمت.

قال ريردن: أوه، هذا؟

ثمّ التقط قلمًا، ودون أن يلقي أيّ نظرة ثانية، وبحركة يسيرة من مليونير يوقّع شيكًا، ووقّع اسمه عند سفح تمثال الحرّيّة ودفع شهادة الهديّة عبر المكتب.

الفصل السابع
وقف الأدمغة اختياريًّا

ـ أين كنت طوال هذا الوقت؟

سأل إيدي ويلرز صديقَه العاملَ وهما يجلسان في الكافتيريا الموجودة بالطابق الأرضيّ، وأضاف، بابتسامةٍ كانت بمثابة نداء واعتذار واعتراف باليأس:

ـ أوه، أعرف أنّني مَن بقي بعيدًا عن هذا المكان مدّة أسابيع.

بدت الابتسامة وكأنّها جهد طفل مشلول يتلمّس طريقه لإيماءة لم يعد يستطيع القيام بها، ثمّ أضاف:

ـ لقد جئت إلى هذا المكان مرّة واحدة، قبل أسبوعين تقريبًا، لكنّك لم تكن هنا في تلك الليلة. كنت أخشى أن تذهب... فالكثير من الناس يختفون دون إشعار. لقد سمعت أنّ هناك المئات منهم يتجوّلون في جميع أنحاء البلاد وأنّ الشرطة اعتقلتهم لتخلّيهم عن وظائفهم، ويُطلق عليهم اسم "الفارّون من الخدمة"، لكن هناك الكثير منهم ولا يوجد غذاء لإطعامهم في السجن، لذلك لم يعد أيّ أحد يهتمّ بهم. لقد سمعت أنّ الهاربين يتجوّلون فقط، ويقومون بأعمال عابرة أو أسوأ منها – فمن يستطيع توفير أيّ وظائف عابرة هذه الأيّام؟ إنّنا نخسر أفضل رجالنا، من النوع الذي عمل بالشركة لمدّة عشرين عامًا أو أكثر. لماذا كان عليهم أن يُقيّدوهم بالسلاسل والأغلال في وظائفهم؟ هؤلاء الرجال لم يكونوا ينوون المغادرة، ولكنّهم الآن يغادرون بسبب أدنى خلاف، وكلّ ما يفعلونه هو مجرّد إسقاط أدواتهم والخروج، في

أيّ ساعة من ساعات النهار أو الليل، وتركنا نواجه جميع أنواع الأعطال والاختناقات. أولئك الرجال الذين اعتادوا النهوض باكرًا والقفز من الأسرّة، للالتحاق بالعمل كلّما كانت السكك الحديديّة في حاجة إليهم... يجب أن تدرك معادن البشر الذين نحصل عليها لملء الوظائف الشاغرة. فبعضهم لئيم جدًّا، لكنّهم يخافون من خيالاتهم. والبعض الآخر هم من الحثالة التي لم أتصوّر أنّها ما تزال موجودة. إنّهم يحصلون على وظائف ويدركون أنّنا لا يمكن أن نطردهم بمجرّد مباشرتهم للعمل، لذلك هم يعلنون بكلّ وضوح أنّهم لا يعملون مقابل راتب، بل ولا ينوون فعل ذلك. إنّهم من النوع الذي يحبّ هذا الوضع، هم يحبّون الأشياء كما هي عليه الآن. هل يمكنك أن تتخيّل وجودَ بشر يحبّون ذلك؟ حسنًا، إنّهم موجودون... لا أعتقد أنّني أصدّق هذا الأمر.. وكلّ ما يحدث لنا في هذه الأيّام. إنّه يحدث بشكل جيّد، لكنّني لا أصدّق وقوعه. ومازلت أرى أنّ الجنون حالةٌ لا يستطيع فيها الشخص أن يجزم في خصوص ما هو واقعيّ. حسنًا، ما هو واقعي الآن هو الجنون، وإذا قبلتُ ذلك على أنّه واقعيّ، فيجب عليّ أن أفقد صوابي، أليس كذلك؟ أستمرّ في العمل وأظلّ أخبر نفسي بأنّ هذه هي شركة تاجارت العابرة للقارّات. وأستمرّ في انتظار عودة داغني لتفتح الباب في أيّ لحظة يا إلهي، لا يفترض بي أن أقول ذلك!.. ماذا؟ هل علمت بذلك؟ كنت تعلم أنّها رحلت؟ إنّهم يحتفظون به سرًّا لكن أعتقد أنّ الجميع يعرفون الأمر، فقط لا أحد من المفترض أن يقول ذلك. إنّهم يخبرون الناس بأنّها في إجازة، فهي لا تزال مدرجة بوصفها نائبة رئيسنا المسؤول عن غرفة العمليّات. وأعتقد أنّي أنا جيم الوحيدان اللذان يعرفان أنّها استقالت إلى الأبد. فجيم خائف حدّ الموت من أن يوظّف أصدقاؤه في واشنطن تلك النقيصة ضدّه، خصوصًا إذا شاع خبر استقالتها. ومن المفترض أن يكون الأمر كارثيًّا على الروح المعنويّة العامّة، إذا استقال أيّ شخص بارز، وجيم لا يريدهم معرفة أنّ لديه أحد الفارّين في عائلته... لكن هذا ليس كلّ شيء. فجيم خائف من أنّ حاملي الأسهم، والموظّفين وكلّ من نتعامل معه، سيفقدون آخر ثقتهم في شركة تاجارت العابرة للقارّات إذا علموا أنّ داغني رحلت. الثقة! قد تعتقد أنّ مثل هذه القيمة لم تعد تهمّ الآن، حيث لا يوجد شيء يمكن لأيّ منهم القيام

به حيال ذلك. ومع هذا، فجيم يدرك أنّ علينا المحافظة على بعض مظاهر العظمة التي مثّلتها شركة تاجارت العابرة للقارّات سابقًا. وهو يعلم أنّ آخرها ذهب معها... لا، لا يعرفون أين هي... نعم، إلّا أنا، ولكنّني لن أخبرهم بمكانها. فأنا الوحيد الذي يعرف... نعم، لقد كانوا يحاولون معرفة ذلك. لقد حاولوا ابتزازي بكلّ الوسائل الممكنة، ولكن لا فائدة، فأنا لن أخبر أحدًا... يجب أن ترى عجل البحر المدرّب الذي يشغل الآن مكانها بوصفه نائب الرئيس الجديد للتشغيل. بالتأكيد، لدينا واحد.. أي يمكن أن تقول إنّنا حصلنا على نائب ولم نحصل عليه في آن واحد لأنّ حضوره مثل غيابه. إنّه مثال حيّ لكلّ ما يفعلونه اليوم.. فكلّ شيء الآن يستقيم ولا يستقيم في الوقت نفسه. اسمه كليفتون لوسي، وهو من موظّفي جيم الشخصيّين... شابّ مشرق، تقدّميّ عمره سبع وأربعين سنة، وصديق لجيم. وهو لا يضاهي داغني في شيء، لكنّه يجلس في مكتبها وكلّنا نعلم أنّ هذا هو نائب الرئيس الجديد للتشغيل. إنّه يعطي الأوامر.. أي أنّه يتطلّع إلى القيام بذلك، لكن لا أحد لاحظ في الواقع أنّه يُصدِر أي أمر. إنّه يعمل بجدّ للتأكّد من أنّه لا يمكن أن يُلصق به أيّ قرار أبدًا، حتّى لا يُلام على أيّ شيء. كما ترى، هدفه ليس تشغيل السكك الحديديّة، ولكن تحمّل الوظيفة. إنّه لا يريد تشغيل القطارات، بل يريد إرضاء جيم. بل إنّه لا يهتمّ بما إذا كان هناك قطار واحد يتحرّك أم لا، مادام يستطيع تركَ انطباعٍ جيّد لدى جيم والأولاد في واشنطن. حتّى الآن، تمكّن السيّد كليفتون لوسي من تأطير رجلين: مساعد ثالث شابّ، ومهمّته عدم إعادة بثّ أيّ أمر لم يعطه السيّد لوسي قطُّ؛ ومدير الشحن، ومهمّته إصدار أيّ أمر يعطيه السيّد لوسي، إلّا أن مدير الشحن لم يتمكّن من إثبات ذلك. لقد طُرِدَ الرجلان رسميًّا، بحكم من مجلس الاتّحاد... وعندما تسير الأمور على ما يرام – في مدّة لا تزيد عن نصف ساعة – يقوم السيّد لوسي بإشارة إعلاميّة في كلّ مرّة لتذكيرنا بأنّ 'هذه ليست أيّام الآنسة تاجارت'. وفي أوّل علامة على المتاعب، يدعوني إلى مكتبه ويسألني – عرضًا، وسط هذيان غير ذي صلة – هلّا تخبرني بما كانت الآنسة تاجرت تفعل في مثل هذه الحالة الطارئة، فأخبره ما أستطيع إلى ذلك سبيلا. ثمّ أقول في نفسي إنّها شركة تاجارت العابرة للقارّات... فهناك آلاف الأرواح في

عشرات القطارات التي يتعلّق مصيرها بقراراتنا. وأثناء حالات الطوارئ، كان السيّد لوسي يفقد صوابه فيكون وقحًا معي.. فأدرك أنّه ليس في حاجة إليّ. لقد جعلها نقطة انطلاق لتغيير كلّ ما اعتادت داغني القيام به، في كلّ النواحي التي لا تهمّ، لكنّه كان حذرًا جدًّا لعدم تغيير أيّ شيء مهمّ. والمشكلة الوحيدة تكمن في أنّه لا يستطيع دائما تمييز المهمّ ممّا هو دونه... ففي أوّل يوم له بمكتب داغني، أخبرني بأنّ وضع صورة نات تاجارت على الحائط ليس بالفكرة الجيّدة قائلا: (ينتمي نات تاجارت إلى الماضي المظلم، عصر الجشع والأنانيّة، وهو بالتحديد لا يعتبر رمزًا لسياساتنا التقدّمية الحديثة، لذلك فإنّ مثل تلك الصورة يمكن أن تترك انطباعًا سيّئا لدى الناس إذ قد يشتبهون في أنّني مثله) فكان ردّي: (لا، لن يتمكّنوا من فعل ذلك).. لكنّني أزلت الصورة من حائطه... ماذا تقول؟.. لا، داغني لا تعرف أيًّا من ذلك. لم أتواصل معها ولا مرّة واحدة فهي من أوصتني بألّا أفعل ذلك... الأسبوع الماضي، كنت على وشك المغادرة. كان ذلك بسبب قطار السيّد تشيك الخاصّ. فالسيّد تشيك موريسون من واشنطن، ومهما يكن منصبه اللعين، فقد عزم على الذهاب في جولة خطابيّة يجوب خلالها أنحاء البلاد كلّها للحديث عن الأمر التوجيهيّ وبناء الروح المعنويّة للشعب، إذ خرجت الأمور عن السيطرة بشكل جنونيّ في كلّ مكان. وطالب بقطار خاصّ، لنفسه ولجماعته، قطار يحتوي على عربة للنوم، وعربة صالون، ومطعم به حانة وصالة. وقد منحه مجلس الاتّحاد الإذنَ بالسفر بسرعة مائة ميل في الساعة لأنّ تلك الرحلة كانت، كما قال الحكّام، غير ربحيّة. حسنًا، هذا صحيح إنّها مجرّد رحلة لمحادثة الناس عن الاستمرار في تحطيم ظهورهم من أجل تحقيق الأرباح ومن أجل دعم الرجال المتفوّقين عقليًّا بعدم صنع أيّ شيء. حسنًا، ومشاكلنا انطلقت عندما طلب السيّد تشيك موريسون محرّك ديزل لقطاره، ولم يكن بوسعنا إعطاؤه أيًّا منها، فكلّ قاطرات الديزل التي نملكها كانت تعمل في مساراتها، إمّا تجرّ قطار المذنّب أو تجرّ قطارات الشحن عبر القارّات، ولم تكن هناك أيّ قاطرة احتياطيّة في أيّ مكان بنظام الشركة، إلّا.. حسنًا، لقد كان ذلك استثناءً ولم أكن أنوي ذكره، ما فعله السيّد كليفتون لوسي.. أقام السيّد لوسي الدنيا ولم يقعدها، وأخذ يصرخ بأنّه لن يتمكّن من رفض طلب السيّد

تشيك موريسون. ولا أعلم من الأحمق الذي أخبره في النهاية بوجود قاطرة بمحرّك ديزل احتياطيّة احتُفِظ بها في محطّة وينستون، في ولاية كولورادو، عند مصبّ النفق. فأنت تعرف الطريقة التي تتعطّل بها محرّكات الديزل في الوقت الحاضر، إنّها تلفظ آخر أنفاسها... بإمكانك فهم سبب احتفاظنا بقاطرة ديزل إضافيّة مركونة في النفق. لقد شرحت الأمر للسيّد لوسي، فهدّدته، وناشدته، وأخبرته بأنّ داغني كانت تفرض علينا قاعدة شديدة الصرامة بألّا تترك محطّة وينستون أبدًا من دون قاطرة ديزل إضافيّة. فأخبرني بأن أتذكّر أنّ الأمر لا يعود إلى الآنسة تاجارت... وأنّ تلك القاعدة كانت مجرّد هراء، لأنّه لم يحدث أيّ شيء في كلّ تلك السنوات، لذلك كان من الممكن أن تستمرّ محطّة وينستون في العمل من دون قاطرة الديزل لبضعة أشهر، وأنّه لن يقلق بشأن بعض الكوارث النظريّة في المستقبل، في حين كنّا نواجه حقيقة عمليّة، وكارثة فورية تتمثّل في الحصول على قاطرة للسيّد تشيك موريسون الغاضب منّا. حسنًا، لقد تحصّل قطار تشيك الخاصّ على قاطرة الديزل. لكنّ المشرف على قسم ولاية كولورادو استقال. فمنح السيّد لوسي تلك الوظيفة لصديق مقرّب منه. لقد أردت أن أستقيل إذ لم يحصل لي في كلّ حياتي المهنيّة أن بلغت رغبتي في الاستقالة ذاك الحدّ لكنّني لم أستقل... لا، لم أسمع منها شيئًا. لم أسمع منها أيّ كلمة منذ أن غادرت فلماذا تستمرّ في استجوابي بشأنها؟ لا عليك. لن تعود. لا أعلم ما الذي أتمنّاه. لا شيء، على ما أعتقد. أنا أباشر العمل يومًا بعد يوم فقط، وأحاول ألّا أتطلّع إلى المستقبل. في البداية، كنت آمل أن ينقذنا شخص مّا. وظننت أنّه قد يكون هانك ريردن، لكنّه استسلم. لا أعرف ما فعلوه به لجعله يوقّع، لكنّني أعلم أنّه كان شيئًا فظيعًا. كان أغلبهم يعتقدون كذلك. فالجميع يهمسون حول هذا الموضوع، متسائلين عن نوع الضغط الذي مُورِس عليه... لا، لا أحد يعرف. لم يدلِ بأيّ تصريحات علنيّة ورفض رؤية أيّ شخص... لكن، اسمع، سأخبرك بشيء آخر أشاعه الجميع بشأنه. انحنِ واقتربْ أكثر، هلّا فعلت ذلك؟ لا أريد أن أتكلّم بصوت عال جدًّا. يقولون إنّ أورين بويل كان، في ما يبدو، على معرفة بذلك الأمر التوجيهيّ منذ فترة طويلة مسبّقة، لأسابيع أو أشهر، لأنّه بدأ، بهدوء وسرّيّة، في إعادة بناء أفرانه لإنتاج معدن ريردن، في أحد مصانعه الأقلّ إنتاجًا

للصلب، وهو مكان غامض قليلًا يقع على ساحل ولاية ماين. وكان على استعداد لبدء صبّ المعادن لحظة ابتزاز ريردن على توقيع الورقة، أعني شهادة الهديّة. ولكن.. اسمع في الليلة التي سبقت بدء العمل، كان رجال بويل يسخّنون الأفران في ذلك المكان على الساحل، عندما سمعوا صوتًا، ولم يعرفوا ما إذا كان يأتي من طائرة أوراديو أو أحد أنواع مضخّمات الصوت، ولكنّه كان صوت رجل قال إنّه سيمهلهم عشر دقائق للخروج من المكان. خرجوا وبدؤوا في المغادرة، لأنّ صوت الرجل قال إنّه راجنار دانسكولد. وخلال نصف ساعة، دمّرت مطاحن بويل وسويت بالأرض. لقد دُمِّرت ومُحِقَت بالكامل ولم تبق منها أيّ لبنة واقفة. يقولون إنّها دمّرت بواسطة مدافع بحريّة بعيدة المدى، من مكان مّا على المحيط الأطلسيّ. لم يرَ أحد سفينة راجنار دانسكولد... هذا ما يهمس به الناس. طبعًا لم تنشر الصحف أيّ كلمة عن هذا الحدث. أمّا الأولاد في واشنطن فقالوا إنّها مجرّد إشاعة انتشرت من قبل دعاة الذعر... لا أعرف إن كانت القصّة صحيحة ولكن أعتقد أنّها كذلك، بل وآمل أن تكون كذلك... أتعلم، عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، كنت أتساءل كيف يمكن لأيّ رجل أن يصبح مجرمًا، لم أستطع فهمَ ما يجعل ذلك ممكنًا. الآن.. الآن أنا سعيد لأنّ راجنار دانسكولد نسف تلك المطاحن. بارك الله فيه، فلا تدعهم يجدوه، أيًّا كان وأينما كان! ... نعم، هذا ما شعرت به. حسنًا، إلى أيّ مدى هم يعتقدون أنّ الناس سيتقبّلون هذا الوضع؟ لا أجد الأمر سيّئا جدًّا في النهار، لأنّني أستطيع أن أبقي نفسي مشغولا بالعمل ولا أشغل بالي بالتفكير في أيّ شيء، لكن في الليل أقع فريسة للرعب. لم أعد أنام، بل أبقى ممدّدًا على الفراش مستيقظا لساعات... نعم! إذا كنت تريد أن تعرف ذلك... نعم، هذا لأنّني قلق عليها! فأنا خائف حدّ الموت بسببها، لأنّ كوخ وودستوك، من حيث هو مكان، مجرّد حفرة صغيرة بائسة على بعد أميال من كلّ شيء، ومنتجع تاجارت أبعد بعشرين ميلا، عشرين ميلا من دربٍ ملتوٍ في غابة مهجورة نائية. كيف سأعرف ما قد يحدث لها هناك، فهي وحدها، ومع هذا النوع من العصابات التي تتجوّل في جميع أنحاء البلاد في هذه الليالي.. فقط من خلال أجزاء مقفرة من البلاد مثل بيركشاير؟ أعلم أنّه لا يجب عليّ التفكير في الأمر، فأنا أعرف أنّها

تستطيع الاعتناء بنفسها، فقط أتمنّى لو أنّها تهاتفني لأطمئنّ عليها. أتمنّى لو أستطيع الذهاب إلى هناك لكنّها طلبت منّي ألّا أفعل ذلك فأعلمتها بأنّني سأنتظر عودتها. أنا سعيد بوجودك هنا الليلة، فهذا الأمر سيساعدني كثيرًا، فالتحدّث إليك و... فقط رؤيتك هنا يشعرني بالاطمئنان لأنّك لن تختفي مثلما اختفى الآخرون، أليس كذلك؟ ماذا؟ الأسبوع القادم؟ ستأخذ إجازتك وكم ستستغرق؟ كيف تحجز عطلة بشهر كامل؟ أتمنّى أن أتمكّن من فعل ذلك أيضًا.. أخذ إجازة لمدّة شهر على نفقتي الخاصّة. لكنّهم لن يسمحوا لي بذلك... حقًّا؟ أنا أحسدك... لم أكن لأحسدك منذ بضع سنوات، لكن الآن أريد أن أبتعد.. الآن أحسدك.. إذا كنت قد تمكّنت من أخذ شهرٍ إجازةً في كلّ صيف لمدّة اثني عشر عامًا.

***

كان طريقًا مظلمًا، لكنّه يقود إلى اتّجاه جديد. مشى ريردن من مطاحنه متوجّها، لا نحو منزله، ولكن نحو مدينة فيلادلفيا. كانت مسافة كبيرة بالقياس إلى قطعها مشيًا، لكنّه أراد أن يفعل ذلك الليلة، كما فعله في كلّ مساء الأسبوع الماضي. لقد شعر بالسلام في ظلام الريف الخالي، بلا شيء غير الأشكال القاتمة للأشجار من حوله، مع عدم وجود حركة سوى حركة جسده والأغصان التي تتمايل في مهبّ الريح، بلا أضواء سوى الشرر البطيء لليراعات يومض من خلال الأسيجة. فكانت تلك المدّة بين المطاحن والمدينة فرصة لأخذ قسط من الراحة.

لقد انتقل من منزله إلى شقّة في فيلادلفيا. ولم يقدّم أيّ تفسير لوالدته ولفيليب، ولم يقل أيّ شيء سوى أنّهما يستطيعان البقاء في المنزل إذا رغبا في ذلك، وأنّ الآنسة إيفز ستتكفّل بكلّ فواتيرهما. طلب منهما أن يخبرا ليليان، عندما تعود، بألّا تحاول رؤيته. وقد كانا يحدّقان فيه بصمت وذعر.

كان قد سلّم محاميه شيكًا موقّعًا على بياض وقال له: احصل لي على الطلاق. وفق أيّ أساس وبأيّ ثمن. لا يهمّني أيّ وسائل ستستعملها، وعدد قضاتهم الذين بوسعك شراؤهم أو ما إذا كنت ستجد أنّ من الضروري ترتيب أيّ تلفيق لزوجتي. افعل ما

يحلو لك ولكن لا يجوز أن تكون هناك نفقة أو أيّ تسوية عقّاريّة. نظر إليه المحامي بتلميح من ابتسامة حكيمة وحزينة، كما لو أنّ ذلك حدثٌ كان حصوله متوقَّعًا منذ فترة طويلة. ثمّ أجابه: حسنًا يا هانك يمكن أن يتمّ ذلك. لكنّ الأمر سيستغرق بعض الوقت. فردّ هانك: افعل ذلك في أسرع وقت ممكن.

لم يسأله حول توقيعه على وثيقة الهديّة. لكنّه لاحظ أنّ الرجال في المطاحن كانوا ينظرون إليه بنوع من الفضول، كما لو أنّهم توقّعوا العثور على بعض الندوب من التعذيب على جسده.

لم يشعر بشيء، لا شيء سوى الإحساس بشفق مريح، مثل انتشار الزبد فوق معدن منصهر، عندما يقشّر ويبتلع الطفرة الرائعة الأخيرة من التوهّج الأبيض بداخله. لم يشعر بشيء تجاه فكرة اللصوص الذين يتسابقون الآن لتصنيع معدن ريردن. لقد كانت رغبته في الاحتفاظ بحقّه في ذلك وفخره بأن يكون بائعه الوحيد هي شكل احترامه لزملائه الرجال، وإيمانه بأنّ التجارة معهم كانت عملا من أعمال الشرف. لكنّ الإيمان والاحترام والرغبة قيم اندثرت في هذا العصر. فلم يعد يهتمّ بما صنعه الرجال، وما باعوه، ومن أين اشتروا معدنه أو ما إذا كان أيّ منهم سيعرف أنّه هو مالكه الأصليّ. كانت الأشكال البشريّة التي تتحرّك أمامه في شوارع المدينة أشياء مادّيّة دون أيّ معنى. وكان الريف حقيقيًّا، بالظلام الذي يمحو كلّ آثار النشاط البشريّ، فلم يترك سوى الأرض التي لم تطأها أيّ قدم، الأرض التي كانت سابقًا في قبضة يده.

كان يحمل مسدّسًا في جيبه، مثلما نصحه رجال الشرطة عبر راديو سيّارتهم التي كانت تقوم بدوريّات على الطرق؛ لقد حذّروه من أنّه لا وجود في تلك الأيام لطريق آمن بعد حلول الظلام. فأدرك، بلمسة من التسلية والزهو، أنّه قد توجد حاجة أكثر إلى السلاح في المطاحن، ولكن ليس في طمأنينة الوحدة والليل؛ فما الذي يمكن أن يأخذه منه بعض المتشرّدين الجائعين، مقارنة بما أخذه الرجال الذين ادّعوا أنّهم حُماته؟

مشى بسرعة وبلا جهد، يغمره شعور باسترخاءٍ مَردُّه إلى شكل من أشكال نشاط طبيعيّ. واعتقد أنّ تلك كانت فترة تدريبه على العزلة؛ فكان عليه أن يتعلّم العيش

دون أيّ وعي بالناس، ذلك الوعي الذي يشلّه الآن بشعور من الاشمئزاز. لقد بنى ثروته ذات مرّة بيدين خاويتَين، ولكن الآن كان عليه أن يعيد بناء حياته، ولكن هذه المرّة بروح خاوية.

اعتقد أنّه يمنح نفسَه فترة قصيرة من الوقت للتدريب، وبعد ذلك سيطالب بقيمة لا تضاهيها قيمة أخرى ممّا تبقّى عنده، تلك الرغبة التي ظلّت نقيّة وكاملة: بأنّه سيذهب إلى داغني. وقد نمت وصيّتان في ذهنه، إحداهما كانت واجبًا، والأخرى رغبة عاطفيّة. أمّا الوصية الأولى فهي البدء بالسماح لها بمعرفة سبب استسلامه للناهبين، أمّا الثانية فليقول لها الكلمات التي كان ينبغي عليها أن تسمعها في لقائهما الأوّل، وكان ينبغي عليه أن يقولها ببهو منزل إليس وايت.

لم يكن يوجد شيء يرشده سوى ضوء النجوم الصيفيّة القويّة، وهو يسير، لكنّه استطاع أن يتبيّن الطريق السريعة وبقايا سياج حجريّ أمامه، عند زاوية مفترق طرق ريفيّ. لم يكن للسياج ما يحميه لفترة أطول، فقط انتشار الأنقاض، وشجرة الصفصاف التي كانت تنحني على الطريق، وأبعد من ذلك بمسافة، كان هناك خراب مزرعة بضوء النجوم يظهر من خلال سقفها.

مشى، معتقدًا أنّه حتّى ذلك المشهد لا يزال يحتفظ بقوّة تمنحه قيمة، لقد أعطاه الوعد بمنحه امتدادا طويلا من الفضاء من دون أن يعيقه أيّ تدخل البشريّ.

وفجأة برز أمامه رجلٌ في الطريق. لا شكّ أنّه جاء من وراء شجرة الصفصاف، ولكنّ قدومه كان سريعًا إلى درجة بدا معها كأنّه ظهر من منتصف الطريق السريعة. امتدّت يد ريردن إلى المسدّس في جيبه، لكنّه توقّف: لقد كان يعلم – من خلال ما بدا عليه الجسم الواقف في العراء من فخر، ومن خلال خطّ الكتفين المستقيم في مواجهة السماء المضاءة بالنجوم– أنّ الرجل لم يكن قاطع طريق. وعندما سمع الصوت، عرف أنّ الرجل ليس متسوّلًا.

ـ أودّ أن أتحدّث إليك يا سيّد ريردن.

كان الصوت يحمل القدر الكافي من الحزم والوضوح والمجاملة الخاصّة المميّزة للرجال الذين اعتادوا على إعطاء الأوامر.

قال ريردن: تفضّل، بشرط ألّا تطلب منّي أيّ مساعدة أو مالٍ.

كانت ملابس الرجل خشنةً، ولكنّها لائقة بكفاءة. كان يرتدي سروالًا داكنًا وسترة تقي من الرياح زرقاء داكنة مغلقة بإحكام عند رقبته، ممّا زاد في طول خطوط جسده الطويل النحيل. وكان يرتدي قبّعة زرقاء داكنة، وكلّ ما يمكن رؤيته في الليل هو يداه ووجهه وبقعة من الشعر الأشقر الذهبيّ على صدغه. لم يكن يحمل أيّ سلاح، فقط رزمة ملفوفة في كيس الخيش، بحجم كرتونة سجائر.

قال: لا، يا سيّد ريردن، لن أطلب منك المال، بل أودّ أن أعيده إليك.

ـ هل تقصد أنّك ستعيد لي مالًا؟

ـ نعم.

ـ أيّ مال؟

ـ مبلغ بسيط مقابل دين كبير جدًّا.

ـ هل هو ملكك؟

ـ لا، ليس لي. هو مجرّد مبلغ رمزيّ، ولكن أريدك أن تقبله بوصفه دليلًا على أنّنا إذا عشنا، أنا وأنت، لفترة أطول بما فيه الكفاية، فإنّ كلّ دولار من هذا الدَّين سوف يعود إليك.

ـ أيّ دين؟

ـ المال الذي أُخِذ منك بالقوّة.

ثمّ مدّ الطرد إلى ريردن فاتحًا كيس الخيش. رأى ريردن ضوء النجوم يسري كالنار على سطح مرآة ناعمة. فأدرك، من خلال ثقلها وملمسها، أنّ ما كان الرجل يحمله هو سبيكة من الذهب الصلب. فنظر من خلال السبيكة إلى وجه الرجل، فوجده قاسيًا

وأقلّ كشفًا من سطح المعدن.

سأله ريردن: من أنت؟

ـ صديق مَن لا صديق له.

ـ هل جئت إلى هنا لتمنحني هذا المال؟

ـ نعم.

ـ هل تعني أنّه كان عليك مطاردتي في الليل، وفي طريق معزول، لا لتسرقني، بل لتمنحني سبيكة من الذهب؟

ـ نعم.

ـ لماذا؟

ـ عندما يتمّ السطو في وضح النهار من خلال فرض عقوبات باسم تطبيق القانون، كما هي الحال اليوم، فإنّ أيّ فعل شرف أو استردادٍ يجب أن يكون مخفيًّا تحت الأرض.

ـ ما الذي جعلك تعتقد أنّني سأقبل هديّة من هذا النوع؟

ـ إنّها ليست هديّة يا سيّد ريردن. إنّه مالُكَ الخاصّ، لكن لديّ معروف واحد أتمنّى أن تسديه لي، وهو مجرّد طلبٍ، وليس شرطًا، لأنّه لا يمكن أن يكون هناك شيء اسمه خاصّيّة مشروطة. فالذهب ذهبك، لذلك أنت حرّ في استخدامه كما يحلو لك. لكنّني خاطرت بحياتي لأحضره لك الليلة، لذا أطلب منك، وهي خدمة تقدّمها، أن تحفظه للمستقبل أو تنفقه على نفسك لا على أيّ شيء آخر سوى راحتك ومتعتك. فلا تفرّط فيه، وقبل كلّ شيء، لا تستثمره في عملك.

ـ لماذا؟

ـ لأنّني لا أريد أن يستفيد منه شخص آخر غيرك. وإلّا، سأكون قد أخلفت العهد الذي أخذته على نفسي منذ زمن بعيد، مثلما أفعل هذه الليلة وأنا أخرق كلّ قاعدة وضعتها لنفسي وهي تمنع عليّ التحدّث إليك.

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد جمع هذا المال لك منذ فترة طويلة. لكنّني لم أكن أنوي رؤيتك أو إخبارك عنه أو تقديمه لك حتّى وقت لاحق.

ـ إذَن لماذا فعلتَ هذا؟

ـ لأنّني لم أعد أستطيع تحمّله أكثر من ذلك.

ـ تحمّل ماذا؟

ـ لقد ظننتُ أنّي رأيت كلّ شيء يمكن للمرء أن يراه وأنّه لا يوجد شيء لا أستطيع تحمّل رؤيته. لكن عندما أخذوا منك معدن ريردن، كان ذلك أكثر من اللّازم، حتّى بالنسبة إليّ. أعلم أنّك لا تحتاج إلى هذا الذهب في الوقت الحاضر، فما تحتاج إليه هو العدالة، ومعرفة أنّ هناك رجالًا يهتمّون بالعدالة.

كافح من أجل عدم الاستسلام لعاطفة شعر بازديادها من خلال حيرته، تجاوز كلّ شكوكه، فحاول ريردن دراسة تقاسيم وجه الرجل، والبحث عن أحد الأدلّة لمساعدته على الفهم. ولكن لم يكن للوجه أيّ تعبير، ولم يتبدّل ولو مرّة واحدة بينما كان يتحدّث؛ ولكن بدا الأمر كما لو أنّ الرجل فقد القدرة على الشعور منذ فترة طويلة، وما تبقّى منه هو السمات الوحيدة التي بدت عنيدة وميّتة. وبرعشة من الدهشة، وجد ريردن نفسه يفكّر في أنّه لم يكن وجه رجل، ولكن وجهًا من وجوه ملائكة الثأر.

سأله ريردن: لماذا كنت تهتمّ بشأني؟ وماذا أعني لك؟

ـ أكثر بكثير من أيّ سبب يجعلك تشكّ. ولدي صديق أنت تعني له أكثر بكثير ممّا ستعلمه. كان مستعدّا ليمنحك أيّ شيء، وأن يقف بجانبك اليوم، لكنّه لا يستطيع القدوم إليك، لذلك جئت نيابةً عنه.

ـ أيّ صديق؟

ـ أفضّل عدم تسميته.

ـ هل قلت إنّك قضّيت وقتًا طويلًا في جمع هذا المال من أجلي؟

قال وهو يشير إلى الذهب: لقد جمعت أكثر من ذلك بكثير. أحمله باسمك وسأحوّله إليك عندما يحين الوقت. هذه السبيكة مجرّد عيّنة، ومجرّد دليل على أنّه موجود. وإذا وصلت إلى اليوم الذي تجد فيه نفسك مسلوبًا من آخر ثروتك، أريدك أن تتذكّر أنّك تملك حسابًا مصرفيًّا كبيرًا.

ـ عن أيّ حساب تتحدّث؟

ـ إذا حاولت التفكير في جميع الأموال التي أخذت منك بالقوّة، فتذكّر أنّ في حسابك مبلغًا كبيرًا

ـ كيف جمعتها؟ ومن أين أتى هذا الذهب؟

ـ لقد أُخذ من أولئك الذين سرقوك.

ـ ومن الذي أخذه؟

ـ أنا الذي أخذته.

ـ ومن أنت؟

ـ راجنار دانسكولد.

نظر ريردن إليه لحظة طويلة، وبثبات، ثمّ ترك الذهب يسقط من يديه.

لم تتبعه عينا راجنار دانسكولد إلى الأرض، ولكنّهما ظلتا ثابتَتين تنظران إلى ريردن دون أن تتبدّل ملامح وجهه.

هل كنت تفضّل أن أكون مواطنًا يحترم القانون يا سيّد ريردن؟ إذا كان الأمر كذلك، فما هو القانون الذي يجب أن ألتزم به؟ هل هو التوجيه رقم 289-10؟

ـ راجنار دانسكولد ...

قال ريردن، كما لو أنّه كان يرى كامل العقد الماضي، أو أنّه كان يبحث في فداحة جريمة انتشرت خلال عشر سنوات واختزلت في كلمتين.

ـ انظر بعناية أكبر يا سيّد ريردن. فلم يبق لنا اليوم سوى أسلوبين للعيش: إمّا أن نكون اللصوص فنسرق الضحايا المنزوعي السلاح، أو أن نكون الضحيّة الذي يعمل لصالح ناهبيه. أمّا أنا فلم أختر أن أكون أيًّا منهما.

ـ لقد اخترت أن تعيش عن طريق القوّة مثل بقيّتهم.

ـ نعم، بصراحة وعلانية إذا جاز التعبير. فأنا لا أسرق الرجال المربوطين المقيّدين والمكمّمين، ولا أطالب ضحاياي بمساعدتي، ولا أقول لهم إنّني أتصرّف من أجل مصلحتهم. فأنا أخاطر بحياتي في كلّ لقاء مع الرجال، ولديهم فرصة لمواجهة أسلحتهم وعقولهم ضدّ أسلحتي وعقلي في معركة عادلة. هل قلت عادلة؟ أنا ضدّ القوّة المنظّمة، والمدافع، والطائرات، والبوارج في القارّات الخمس. وإذا كان الحكم الأخلاقيّ هو ما ترغبون في نطقه يا سيّد ريردن، فمن هو الرجل ذو الأخلاق العليا: أنا أو ويسلي ماوتش؟

ردّ ريردن بصوت منخفض: لا أملك أيّ جواب عن هذا السؤال.

ـ لماذا يجب أن تكون مصدومًا يا سيّد ريردن؟ أنا فقط أمتثل للنظام الذي أنشأه زملائي البشر. فإن كانوا يعتقدون أنّ القوّة هي الوسيلة المناسبة للتعامل في ما بينهم، فسأعطيهم ما يطلبون. وإن هم اعتقدوا أنّ الغرض من حياتي هو خدمتهم، فدعهم يحاولوا فرض عقيدتهم. وإن اعتقدوا أنّ عقلي ملك لهم، فدعهم يأتوا لأخذه.

ـ لكن أيّ نوع من الحياة اخترت؟ وإلى أيّ هدف تهب عقلك؟

ـ أهبه لخدمة قضيّتي التي أحبّ.

ـ أيّ قضيّة؟

ـ العدالة.

ـ وهل تخدم العدالة حين تكون قرصانًا؟

ـ سأخدمها بالعمل من أجل اليوم الذي لن أكون فيه قرصانًا.

ـ أيّ يوم هذا؟

اليوم الذي ستكون فيه حرًّا في تحقيق الربح من معدن ريردن.

ردّ عليه ريردن وهو يحاول أن يتمالك نفسه من الضحك: يا الله! هل هذا هو طموحك؟

لم تتغيّر ملامح وجه راجنار. قال: إنّه كذلك.

ـ وهل تتوقّع أنّك ستعيش لترى ذلك اليوم؟

ـ نعم، ألن تفعل ذلك أيضا؟

ـ لا.

ـ إذَن ما الذي تتطلّع إليه يا سيّد ريردن؟

ـ لا شيء.

ـ وما الذي تعمل من أجله؟

ـ لماذا تسأل عن ذلك؟

ـ لأجعلك تفهم لماذا أنا لا أشبهك.

ـ لا تتوقّع منّي أن أوافق على سلوك مجرم مثلك.

ـ لا أتوقّع ذلك. ولكن توجد بعض الأشياء التي أريد أن أساعدك على رؤيتها.

ـ حتّى لو كانت الأشياء التي قلتها صحيحة، لماذا اخترت أن تكون قاطع طريق؟ ولماذا لم تغادر ببساطة مثل..

ثمّ توقّف. فبارد راجنار بمواصلة كلامه قائلا: مثل إليس وايت، وأندرو ستوكتون ومثل صديقك كين داناغر؟

ـ نعم!

ـ وهل توافق على ذلك؟

ـ أنا..

ثمّ توقّف عن الكلام. لقد صدمته كلماته الخاصّة. وكانت الصدمة التي أتت بعد ذلك هي رؤيته ابتسامةَ دانسكولد: كان الأمر أشبه برؤية أوّل خضرة ربيعيّة على أسطح منحوتة لجبل من الجليد. فأدرك ريردن فجأةً، وللمرّة الأولى، أنّ وجه دانسكولد أكثر من وسيم، وأنّه يمثل الجمال المذهل للكمال الجسديّ، بملامح الفخر الصلبة، وبفم جبّار متعالٍ كفم تمثال فايكنج.. ومع ذلك لم ينتبه إليه، تقريبًا كما لو أنّ صرامة الوجه الميّتة منعت صلافة التقدير. لكنّ الابتسامة بدَت مفعمة بالحياة على نحو بارع.

ـ أنا لا أقرّ بذلك يا سيّد ريردن. لكنّني اخترت مهمّة خاصّة بي. فأنا أطارد رجلًا أريد تدميره. لقد مات منذ قرون عديدة، ولكن حتّى يتمّ القضاء على آخر أثر له في عقول الناس، لن نجد عالمًا لائقًا نعيش فيه.

ـ أيّ رجل؟

ـ روبن هود.

نظر ريردن إليه بدهشة، من دون فهم. ثمّ أضاف راجنار:

ـ روبن هود كان الرجل الذي يسرق الأغنياء ويعطي للفقراء. حسنًا، أنا الرجل الذي يسرق الفقراء ويعطي للأغنياء أو أنا، على وجه الدقّة، الرجل الذي يسرق من الذين ينهبون الفقراء ويعطي مجدّدًا للأغنياء المنتجين.

ماذا تعني؟ أفصح.

ـ إذا كنت تتذكّر القصص التي قرأتها عنّي في الجرائد، قبل أن تتوقّف الصحافة عن نشرها، فأنت تعلم أنّني لم أسرق سفينة خاصّة ولم أسلب أيّ ممتلكات خاصّة. ثمّ إنّي لم أسرق سفينة عسكريّة قطّ، لأنّ الغرض من الأسطول العسكريّ الذي دفع الشعب ثمنه هو حماية المواطنين من العنف وهي الوظيفة المنوطة بعهدة الحكومة. لكنّني صادرت كلّ ناقلة نهب وقعت أمام فوّهة بندقيّتي، كلّ سفينة إغاثة حكوميّة، أو أيّ

سفينة دعم، أو قروض، أو هدايا، وكلّ سفينة تحمل بضائع مأخوذة بالقوّة من بعض الرجال لمنفعة غير مدفوعة الأجر وغير مكتسبة للآخرين. لقد استوليت على القوارب التي أبحرت تحت راية الفكرة التي أحاربها، الفكرة التي تقول إنّ الحاجة هي المعبود المقدّس الذي يتطلّب التدنيس البشريّ، وإنّ حاجة بعض الناس هي نصل المقصلة الذي يعلّق على رقاب الآخرين، وإنّ علينا جميعًا أن نعيش بأعمالنا، وآمالنا، وخططنا، وجهودنا تحت رحمة اللحظة التي تنزل فيها تلك المقصلة علينا، وإنّ مدى قدرتنا هو مدى الخطر الذي يحدق بنا، على نحوٍ تؤدّي فيه النجاة برؤوسنا إلى أسفل تلك الكتلة، في حين سيهبنا الفشل الحقّ في النجاة من حبل المشنقة. هذا هو الرعب الذي خلّده روبن هود بوصفه مثلًا أعلى للعدالة. إذ يقال إنّه حارب الحكّام الناهبين وأعاد المسروقات إلى الذين تعرّضوا للسرقة، ولكن هذا ليس معنى الأسطورة التي نجت. فيُذكر، لا بوصفه بطلًا للممتلكات، بل بطلًا للحاجة، لا بوصفه مدافعًا عن الذين تعرّضوا للسرقة، بل بوصفه واهبًا للفقراء. وهو ما يزال موشومًا في ذاكرة الناس على أنّه أوّل رجل اكتسب هالة الفضيلة عبر ممارسة الصدقة بثروة لم يكن يملكها، ومن خلال التخلّي عن البضائع التي لم يكن ينتجها، وعبر جعل الآخرين يدفعون ثمن ترف شفقته. هو الرجل الذي أصبح رمز الفكرة التي تقول إنّ مصدر الحقوق هي الحاجة، وليس الإنجاز، وإنّه لا يتوجّب علينا الإنتاج، بل فقط أن نريد، وإنّ المكتسب لا يخصّنا، لكنّ غير المكتسب ملك لنا. وأصبح مبّررا لكلّ إنسان رديء، غير قادر على كسب رزقه بعرق الجبين، ليطالب بسلطة التصرّف في ممتلكات أفضليّته، بإعلان استعداده لتكريس حياته لمن هم أدنى منه على حساب سرقة رؤسائه. تلك هي أسوء المخلوقات؛ الطفيليّ المزدوج الذي يعيش على قروح الفقراء ودماء الأغنياء، ليعتبره الناس مثالًا أعلى في الأخلاق. وقد أوصلنا هذا إلى عالمٍ كلّما زاد إنتاج الإنسان فيه، اقترب من فقدان جميع حقوقه، حتّى، إذا كانت قدرته كبيرة بما فيه الكفاية، أصبح مخلوقًا بلا حقّ يُسلَّم فريسة لأيّ مُطالِب، في حين أنّه من أجل وضعه فوق كلّ الحقوق، والمبادئ، والأخلاق، يوضع حيث يسمح له بأيّ شيء، بما في ذلك حتّى النهب والقتل، وكلّ ما يجب عليه القيام به هو أن يكون في الحاجة والخصاصة. ألا تتساءل

لماذا ينهار العالم من حولنا؟ هذا ما أحاربه يا سيّد ريردن حتّى يتعلّم البشر أنّ من بين جميع الرموز البشريّة، يمثّل روبن هود هو أكثر البشر لاأخلاقيّة وأكثرهم احتقارًا، ولن تشيع العدالة في الأرض، ولن تتبقّى للبشريّة أيّ وسيلة للبقاء على قيد الحياة.

استمع ريردن وقد انتابه شعور بالتخدّر. ولكنّه شعر تحت تأثير الخدر بعاطفةٍ تشبه اندفاع البذور الأوّل وهي تخترق التراب، عاطفة لم يستطع تحديد شيء منها سوى أنّها بدت مألوفة وضاربة في القدم، مثل شيء جرّبه وتخلّى عنه منذ فترة طويلة.

ـ يا سيّد ريردن، أنا في حقيقة الأمر شرطيّ. ومن واجب الشرطيّ حماية الناس من المجرمين، الذين يستولون على الثروة بالقوّة. ومن واجب الشرطيّ أيضا استرداد الممتلكات المسروقة وإعادتها إلى أصحابها. ولكن عندما تصبح السرقة هي غاية القانون، فإنّ واجب الشرطيّ ليس الحماية، بل نهب الممتلكات. من ثمّ، فكلّ خارج عن القانون، والحال هذه، هو شرطيّ. إنّ الشحنات التي استرجعتها مقابل الذهب بعتها بعضَ زبائني في هذا الوطن. زد على ذلك، أنّني بعت شحناتي للمهرّبين والتجّار في السوق السوداء بدول أوروبا. وهل تعرف شروط الوجود في تلك الدول؟ بما أنّ الإنتاج والتجارة –ما عدا العنف – وقع تصنيفهما قانونيًّا على أنّهما جريمتان، فإنّهم لم يكن لأفضل الرجال في أوروبا أيّ خيار آخر سوى أن يصبحوا مجرمين. ويُحتفظ بسائقي العبيد في تلك الدول بمقاليد السلطة من خلال هبات وصدقات لزملائهم الناهبين في البلدان التي لم تستنزف بعد بالكامل تمامًا مثل هذا البلد. أمّا أنا فلا أدع تلك الصدقات تصل إليهم. فأبيع السلع للذين يخرقون القانون في أوروبا، بأعلى الأسعار التي يمكنني الحصول عليها، وأصرّ على أن يكون الدفع ذهبًا، فالذهب هو القيمة الموضوعيّة، ووسيلة الحفاظ على ثروة المرء ومستقبله. ولا يُسمح لأحدٍ بجني الذهب في أوروبا ما عدا أصدقاء الإنسانيّة الذين يحملون السياط، والذين يزعمون أنّهم ينفقونه من أجل رفاه ضحاياهم. هذا هو الذهب الذي يحصل عليه زبائني المهرّبون ليدفعوه لي. كيف؟ بالطريقة نفسها التي استخدمها للحصول على البضائع. ثمّ أعيد الذهب إلى أولئك الذين سرقت منهم البضائع مثلك يا سيّد ريردن، وإلى

رجال آخرين من أمثالك.

أدرك ريردن طبيعة العاطفة التي نسيها. إنّها العاطفة التي شعر بها وهو في سنّ الرابعة عشرة، وتحصّل على أوّل راتب له فأخذ يتفحّص الشيك. وعاوده الشعور نفسه عندما بلغ سنّ الرابعة والعشرين، حين أصبح مشرفًا على مناجم الخام، وتكرّر عندما وضع اسمه بنفسه بوصفه مالكًا للمناجم على أوّل طلبيّة له للحصول على معدّات جديدة من أفضل المصانع في ذلك الوقت، مصنع القرن العشرين للمحرّكات، عاطفة من الإثارة الرسميّة، والفرحة، والشعور بالفوز بمكانته في عالم كان يحترمه وكَسْب الاعتراف من الرجال الذين كان معجبًا بهم. وعلى مدى عقدين تقريبا، كانت تلك العاطفة مدفونةً تحت جبل من الركام، وقد أضافت السنوات طبقة أخرى فوق طبقة رماديّة من الازدراء، والسخط، ورفضه النظر من حوله وإلى أولئك الذين يتعامل معهم، وألّا يتوقّع أيّ شيء من البشر ويحافظ -كرؤية خاصّة به داخل الجدران الأربعة لمكتبه- على معنى العالم الذي كان يأمل في نهوضه. ومع ذلك، حدث اختراق مجدّدًا من تحت الحطام، لشعور بتسارع الفائدة، والاستماع إلى صوت العقل المتنوّر، الذي من خلاله يمكن للمرء أن يتواصل ويتعامل ويعيش. لكنّه كان صوت قرصان يتحدّث عن أعمال العنف، ويقدّم له هذا البديل لعالمه الذي يتميّز بالعقل والعدالة. فلم يكن باستطاعته قبوله؛ فلا يمكن له أن يفقد أيّ بقايا من رؤيته التي لا يزال يحتفظ بها. فاستمع، متمنيًا أن يتمكّن من الفرار، ومع ذلك كان يدرك أنّه لا يريد تفويت أيّ كلمة من كلام ذلك القرصان.

ـ لقد أودعت الذهب في أحد البنوك، بنك بمعيار الذهب يا سيّد ريردن، في حساب الرجال الذين هم أصحابه الشرعيّون. إنّهم رجال ذوو قدرة فائقة حقّقوا ثرواتهم بالجهد الشخصيّ في التجارة الحرّة، ولم يوظّفوا أيّ إكراه، أو مساعدة من الحكومة. إنّهم الضحايا الكبار الذين ساهموا أكثر من غيرهم وعانوا من أسوإ ظلم. أسماؤهم مسجّلة في كتابي عن الاسترداد. وكلّ حمولة من الذهب أستعيدها تقسّم عليهم وتودَع في حساباتهم.

ـ ومن هم؟

ـ أنت واحد منهم يا سيّد ريردن. لا أستطيع حساب كلّ الأموال التي نُهبت منك من خلال الضرائب الخفيّة، وفي الوقت الضائع، وفي الجهد الضائع، وفي الطاقة المستهلكة للتغلّب على العقبات المصطنعة. لا أستطيع حساب المبلغ، ولكن إذا كنت ترغب في رؤية حجمه، فانظر من حولك. انظر إلى حجم البؤس الذي يشيع الآن في هذا البلد الذي كان مزدهرًا في يوم من الأيّام، وانظر أيضًا إلى حجم الظلم الذي عانيت منه. فإذا رفض الرجال سداد الدَّين الذي يدينون لك به، فهذه هي الطريقة التي سيدفعون بها ثمنه. ولكن هناك جزء واحد من الدَّين الذي احتسبته ودوّنته على السجلّ. هذا هو الجزء الذي جعلت من هدفي جمعَه وإعادتَه إليك.

ـ وما هو هذا الجزء؟

ـ ضريبة الدخل الخاصّة بك يا سيّد ريردن.

ـ ماذا؟

ـ ضريبة الدخل الخاصّة بك على مدى السنوات الاثنتي عشرة الماضية.

ـ وهل تنوي ردّ ذلك؟

ـ بالكامل وبالذهب يا سيّد ريردن.

فانفجر ريردن ضاحكا، ولكنّه ضحك مثل صبيّ صغير أثناء تسلية بسيطة بمتعة لا تصدَّق وقال: يا إلهي! أنت شرطيّ وجامع إيرادات داخليّة أيضًا؟

ردّ بحدّة: نعم.

ـ أنت لست جادًّا في كلامك، أليس كذلك؟

ـ وهل يبدو لك أنّني أمزح؟

ـ لكن هذا غير معقول!

ـ وهل سيكون منافيًا للعقل أكثر من الأمر التوجيهيّ رقم 289-10؟

ـ ما تقوله ليس حقيقيًّا أو ممكنًا!

ـ وهل يجب أن يكون الشرّ فقط هو الأمر الحقيقيّ والممكن؟

ـ لكن...

ـ هل تعتقد، يا سيّد ريردن، أنّ الموت والضرائب هما اليقين الوحيد المتاح لدينا؟ حسنًا، لا يوجد شيء يمكنني فعله بشأن الأمر الأوّل، لكن إذا رفعت عبء الأمر الثّاني، قد يدرك البشر العلاقة بين الاثنين، وكم ستكون الحياة أطول وأكثر سعادة للذين سيتمتّعون بالقدرة على تحقيقها. قد يتعلّمون التمسّك، لا بالموت والضرائب، بل بالحياة والإنتاج بوصفهما قيمتين مطلقتَين لهما وقاعدتين لمدوّنتهم الأخلاقيّة.

نظر ريردن إليه، وقد اختفت منه الابتسامة. فلاحظ أنّ تلك القامة الطويلة النحيلة التي تغلّفها السترة الواقية من الرياح، وهي سترة تؤكّد خفّة الحركة العضليّة المدرّبة، تشبه أحد عمّال الطريق السريعة؛ وأنّ ذلك الوجه المرمريّ الصارم يشبه وجه أحد القضاة العادلين؛ وأنّ الصوت الجافّ والواضح يشبه صوت أحد المحاسبين الأكفاء.

ـ فاللصوص لم يكونوا الوحيدين الذين احتفظوا بسجلّات عنك يا سيّد ريردن. وأنا كذلك دوّنت في ملفّاتي، نسخًا من كلّ عائدات ضريبة الدخل الخاصّة بك على مدى السنوات الاثنتي عشرة الماضية، فضلا عن عائدات جميع زبائني الآخرين. فأنا لديّ أصدقاء في بعض الأماكن المدهشة، وهم يمدّونني بالنسخ التي أحتاج إليها. وأنا أقسّم المال بين عملائي بما يتناسب مع المبالغ التي نستولي عليها، وقد دفعت معظم حساباتي الآن لأصحابها. وحسابك هو أكبر واحد لم أسوِّه بعدُ. ويومَ تكون مستعدًّا للمطالبة به، يومَ أعرف أنّه لن يعود أيّ قرش منها لدعم اللصوص، سأحوّل حسابك إليك. وحتّى ذلك الحين..

ثمّ نظر إلى سبيكة الذهب على الأرض وقال: التقطها يا سيّد ريردن. إنّها ليست مسروقة. إنّها ملكك.

لكنّ ريردن لم يتحرّك ولم يردّ بأيّ إجابة، ولم ينظر إلى أسفل.

ـ وفي البنك ذهبٌ كثير محفوظ باسمك.

ـ أيّ بنك؟

ـ هل تتذكّر ميداس موليغان من شيكاغو؟

ـ نعم، بالطبع.

ـ كلّ حساباتي مودعة في بنك موليغان.

ـ لكن لم يعد لبنك موليغان في شيكاغو أيّ وجود.

ـ ليس في شيكاغو.

ـ وأين هو إذَن؟

ـ ستعرف ذلك عمّا قريب يا سيّد ريردن، لكن ليس الآن. يجب أن أخبرك بأنّني المسؤول الوحيد عن هذا التعهّد وبأنّها مهمّتي الشخصيّة. ولا أحد متورّط في ذلك إلّا أنا والرجال في طاقم سفينتي. ليس لأيّ مصرفيّ دورٌ في هذه المهمّة ما عدا الاحتفاظ بالمال الذي أودعه في البنك. وكثيرون من أصدقائي لا يوافقون على الوجهة التي اخترتها. ولكنّنا جميعًا نختار طرقًا مختلفة لخوض المعركة نفسها، وهذه هي طريقتي الخاصّة في فعل ذلك.

ابتسم ريردن بازدراءٍ وقال: ألست واحدًا من هؤلاء المؤثّرين الملعونين الذين يقضون وقتهم في مشروع غير ربحيّ ويخاطرون بحياتهم فقط لخدمة الآخرين؟

ـ لا، يا سيّد ريردن. أنا أستثمر وقتي من أجل مستقبلي الخاصّ عندما نكون أحرارًا وعلينا أن نبدأ في إعادة البناء من تحت الأنقاض، أريد أن أرى العالم يولد من جديد في أسرع وقت ممكن. فإذا توفّر رأس المال آنذاك لأفضل رجالنا وأكثرهم إنتاجًا فإنّ ذلك سيوفّر علينا سنوات كثيرة، وربّما قرونًا من تاريخ البلاد. لا تسألني عمّا كنتَ تعنيه لي؟ أنت تمثّل لي كلّ ما يعجبني في هذا العالم، وكلّ ما أريد أن أكونه يوم يكون للأرض مكانٌ لمثل هذه الحالة من الوجود، وكلّ ما أريد التعامل معه حتّى لو كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني التعامل بها معك وتكون ذات فائدة لك في الوقت

الحاضر.

همس ريردن: ولماذا؟

ـ لأنّ حبّي الوحيد، والقيمة الوحيدة التي أهتمّ بالعيش من أجلها، هي تلك التي لم يحبّها العالم، ولم تحصد قطُّ الاعتراف أو الأصدقاء أو المدافعين عنها، وهي القدرة البشريّة. هذا هو الحبّ الذي أخدمه، وإذا كان يجب عليّ أن أفقد حياتي دفاعًا عنها فلن أتوانى في بذل حياتي من أجلها؟

واستمرّ راجنار في الكلام بلا انفعال:

ـ أردتك أن تعرف هذا. أردتك أن تعرف الآن، عندما يبدو لك أنك مهجور في قاع حفرة بين المخلوقات البشريّة التي هي كلّ ما تبقّى من هذا النوع من الكائنات الحيّة. أردتك أن تعرف، في أكثر ساعات يأسك، أنّ يوم الخلاص أقرب بكثير ممّا تعتقد، وأنّه يوجد سبب خاصّ وحيد جعلني أتحدّث إليك وأقول لك سرّي قبل الوقت المناسب. هل سمعت بما حدث لمصانع الصلب التابعة لأوريل بويل على ساحل ولاية ماين؟

ـ نعم، وإن كنت لا أعرف ما إذا كان ذلك صحيحًا.

ـ لقد حدث ذلك في الحقيقة، وأنا من فعلها. لن أترك السيّد بويل يصنّع معدن ريردن على ساحل ماين ولن يصنّعه في أيّ مكان، لا هو ولا أيّ شخص آخر يعتقد أنّ ذلك الأمر التوجيهيّ يعطيه الحقّ في استغلال الجهود العقليّة للمبتكرين. وكلّ من سيحاول إنتاج هذا المعدن، سيجد أفرانه في مهبّ الريح، وستفجّر آلاتُه، وتُحطَّم شحناتُه، وأشياء كثيرة سوف تحدث لأيّ إنسان يحاول ذلك، وسيقول الناس إنّ لعنةً حلّت بذلك، وقريبًا لن يكون في البلاد أيّ عامل قد يدخل أيّ مصنع سينتج معدن ريردن. وإذا كان الرجال من أمثال بويل يعتقدون أنّ القوّة هي كلّ ما يحتاجون إليه لاستغلال أفكار الناس، فدعهم يَرَوْا ما سيحدث عندما يختار أحدهم اللجوء إلى القوّة. يا سيّد ريردن، أردت منك أن تعرف أنّه لن يستطيع أيٌّ منهم إنتاج المعدن الخاصّ بك ولن يكسبوا أيّ فلس منه.

ولأنّه شعر برغبة في الضحك مثلما ضحك عند سماع أخبار حريق آبار نفط وايت، وانهيار شركة دانكونيا للنحاس، فقد عرف أنّه إذا فعل ذلك، فإنّ الشيء الذي يخشى وقوعه لن يشعره بالراحة هذه المرّة، وأنّه لن يرى مطاحنه مجدّدًا. فتراجع ريردن لحظة، وأبقى شفتيه مغلقتين كي لا تلفظا أيّ صوت. وعندما انتهت اللحظة، قال بهدوء، وبصوت حادّ: خذ ذهبك وغادر، فأنا لا أقبل مساعدةً تأتي من مجرم.

لم يظهر وجه دانسكولد أي ردّ فعل، ثمّ قال: لا أستطيع إجبارك على قبول سبيكة الذهب يا سيّد ريردن، لكنّي لن أستعيدها. يمكنك أن تتركها حيث هي إذا رغبتَ في ذلك.

ـ أنا لا أريد مساعدتك ولا أقبل حمايتك. ولو أنّ لي الآن هاتفًا، لاتّصلت بالشرطة. وسأفعل ذلك إذا حاولت الاقتراب منّي مرّة أخرى. سأفعل ذلك دفاعًا عن النفس.

ـ أنا أفهم بالضبط ما تعنيه.

ـ أنت تعلم ذلك. ولأنّني استمعت إليك، ولأنّك رأيتني متلهّفًا لسماع ذلك فإنّني لم ألعنك كما يجب. ولا يمكنني أن ألعنك أو ألعن أيّ شخص آخر. إذ لم تتبقَّ للبشر معايير يعيشون وفقها، لذلك لا يهمّني أن أحكم على أيّ شيء يفعلونه اليوم أو على الطريقة التي يحاولون عبرها تحمّل ما لا يطاق. وإذا كانت تلك هي طريقتك، فسأدعك تذهب إلى الجحيم، ولكن لا أريد أيّ جزء من هذا المال. لا من موقع الملهم لك ولا من موقع الشريكك، ولا تتوقّع منّي أن أقبل حسابك المصرفيّ إذا كان موجودًا أصلًا. أنفقه على شراء درع إضافيٍّ لنفسك، لأنّني سأبلّغ الشرطة عن هذا وسأوفّر لهم كلّ دليل يستطيعون من خلاله تعقّبك.

لم يتحرّك دانسكولد ولم يقدّم أيّ إجابة. وكان هناك قطار شحن يمرّ في مكان مّا على بعد مسافة في الظلام، لكنّهما لم يتمكّنا من رؤيته، بل سمعَا نبضات صليل العجلات تملأ الصمت، فبدا قريبًا كما لو أنّه قطارٌ غير مجسّد، اختُصِر في سلسلة طويلة من الأصوات كانت تمرّ على مسامعهما في الليل.

قال ريردن: هل أردت أن تساعدني في أكثر ساعة يأس أمرّ بها؟ إذا كنتُ أُحضِرتُ إلى هنا ليكون المدافع الوحيد عنّي هو أحد القراصنة، فإنّه ما عاد يعنيني أن يدافع عنّي أيّ أحدٍ بعد الآن. أنت تتحدّث ببعض بقايا لغة الإنسان فيك. وباسم ذلك سأقول لك إنّه لم يعد لي أيّ أمل، ولكن لديّ معرفة بأنّه عندما تأتي النهاية، سأكون قد عشت بمعاييري الخاصّة، حتّى وإن كنت الوحيد الباقي الذي سيثبت صلاح تلك المعايير. سأكون قد عشت في العالم الذي بدأت فيه وسأنزل في آخره. ولا أعتقد أنّك تريد أن تفهمني، ولكن..

وتعرّضا لشعاع من الضوء بعنفٍ يشبه عنفَ صفعةٍ جسديّةٍ. لقد ابتلع صليل القطار هديرَ محرّك سيّارة ولم يسمعا اقترابها وهي تجتاح المكان من الطريق الجانبيّ من وراء المزرعة. لم يكونا في مسار السيّارة، ومع ذلك سمعا صرير الفرامل خلف المصباحين الأماميّين، وهي تجذب شكلًا غير مرئيّ لتتوقّف. قفز ريردن أوّلًا، وبشكل لاإراديّ، إلى الوراء فوجد الوقت للتعجّب من رفيقه، ومن سرعة ضبط النفس لدى دانسكولد الذي لم يتحرّك. كانت سيّارة شرطة، وقد توقّفت بجانبهما. فانحنى السائق قائلًا: أوه، إنّه أنت يا سيّد ريردن!

ثمّ لمس قبّعته بأصابعه، وقال: مساء الخير يا سيّدي.

ـ مرحبًا.

هكذا ردّ ريردن، وهو يصارع نفسه للسيطرة على نبرة التعبير عن المفاجأة غير الطبيعيّة التي تهيمن على صوته.

كانا اثنين من رجال الشرطة في دوريّة أمنيّة يجلسان بمقعد السيّارة الأماميّ، وكانت على وجهيهما ملامح شديدة لهدف دقيق، ولم يكن وقوفهما بما هو مألوف من نيّة ودّيّة في الدردشة.

ـ يا سيّد ريردن، هل جئت إلى هنا من المطاحن سالكًا طريق إيدجوود، ثمّ مرورًا بدرب بلاكسميث كوف؟

ـ نعم، ولماذا؟

ـ هل صادف أن رأيت رجلًا في أيّ مكان من هذه الأنحاء، رجلًا غريبًا يتحرّك وهو في عجلة من أمره؟

ـ أين؟

ـ سيكون ذلك إمّا سيرًا على الأقدام أو في حطام سيّارة مضروبة بمحرّك بمليون دولار

ـ أيّ رجل؟

ـ رجل طويل ذو شعر أشقر.

ـ ومن يكون؟

ـ لن تصدّق ذلك لو أخبرتك يا سيّد ريردن، فهل رأيته؟

لم يكن ريردن على علم بأسئلته الخاصّة، بل كان يدرك حقيقةً مذهلةً هي أنّه قادرٌ على فرض كتم أصواتٍ تودّ عبور أحد الحواجز داخل حلقه. فأخذ ينظر مباشرة إلى الشرطيّ. لكنّه شعر كما لو أنّ تركيز عينيه تحوّل إلى رؤية جانبيّة، وما رآه بوضوح أكثر كان وجه دانسكولد يراقبه دون أيّ انفعال عضليّ. رأى ذراعي دانسكولد عالقتَين بفتور عند جانبيه، بيدين مسترخيتين بلا إشارة أو نيّة في الوصول إلى أيّ سلاح، وترك ذلك الجسم الطويل القامة أعزل كما لو أنّه كان عرضة لفرقة الإعدام. ولاحظ ريردن، في الضوء، أنّ وجه دانسكولد يوحي بأنّه أصغر سنًّا ممّا اعتقد وأنّ العينين كانتا زرقاوين بلون السماء. وانتبه إلى أنّ الخطر الذي يتعرّض له هو إلقاء نظرة مباشرة على دانسكولد، فأبقى عينيه على الشرطيّ، وعلى أزرار النحاس في زيّ الشرطيّ الأزرق، ولكنّ الموضوع الذي شغل باله، بقوّة أكثر من تصوّره البصريّ، هو جسد دانسكولد، ذلك الجسد العاري تحت الملابس، ذلك الجسد الذي سيُمحَق من الوجود. لم يستمع لكلماته الخاصّة، لأنّه ظلّ يسمع ترديد جملة واحدة في ذهنه، دون سياق، سوى الشعور بأنّه الشيء الوحيد الذي يهمّه في العالم: إذا كان عليَّ أن أفقد حياتي، فمقابل أيّ غرض

أفضل يمكن لي أن أهبها؟

ـ هل رأيته يا سيّد ريردن؟

ـ ردّ ريردن: لا، لم أره.

فتجاهله الشرطيّ متأسفًا، وأحكم قبضة يديه على المقود وقال: ألم تلتق برجل يبدو مشبوهًا؟

ـ لا.

ـ ولا أيّ سيّارة غريبة تمرّ بجانبك على الطريق؟

ـ لا.

مدّ الشرطيّ يده ليدير مفتاح تشغيل السيّارة ثمّ قال: لقد أذاعوا خبرًا ونشروه على خمس مقاطعات بأنّه شوهد الليلة على الشاطئ. ليس من المفترض أن نذكر اسمه لك، لأنّنا لا نريد تخويف الناس، لكنّه رجل تبلغ قيمة رأسه ثلاثة ملايين دولار مكافأةً من جميع أنحاء العالم.

ثمّ أدار الشرطيّ مفتاح تشغيل السيّارة فهدر المحرّك وتماوج في الهواء بصوت أزيز صافٍ، وعندما انحنى الشرطيّ الثاني إلى الأمام كان ينظر إلى الشعر الأشقر تحت قبّعة دانسكولد. فسأله: ومن ذلك الشخص يا سيّد ريردن؟

ردّ ريردن: إنّه حارسي الشخصيّ الجديد.

ـ أوه! يا سيّد ريردن، إنّه إجراء وقائيّ معقول في مثل هذه الأوقات العصيبة. ليلة سعيدة يا سيّدي.

تحرّكت السيّارة إلى الأمام، وتقلّص نور مصابيحها الخلفيّة الحمراء على الطريق. فلاحظ دانسكولد أنّ السيّارة ذهبت، ثمّ ركّز بصره بشكل واضح على يد ريردن اليمنى. فأدرك أنّ ريردن واجه رجال الشرطة ويده اليمنى تمسك بالمسدّس في جيبه وأنّه كان مستعدًّا لاستخدامه.

ثمّ فتح أصابعه وسحب يده من جيبه على عجل. فابتسم دانسكولد. كانت ابتسامة تسلية متألّقة، وضحكًا صامتًا لروح واضحة وشابّة في لحظة سَعِدَ بعيشها. وعلى الرغم من أنّ الاثنين لا يتشابهان، فإنّ الابتسامة جعلت ريردن يفكّر في فرانسيسكو دانكونيا.

قال راجنار دانسكولد: أنت لم تكذب حين قلت إنّني حارسك الشخصيّ، فهذا ما أنا عليه وما أستحقّ أن أكون في نواحٍ عديدةٍ وأكثر ممّا يمكن أن تعلم في الوقت الحاضر. شكرا جزيلا يا سيّد ريردن، وإلى أن نلتقي مجدّدًا في وقت أقرب بكثير ممّا آمل فيه.

رحل قبل أن يتمكّن ريردن من الإجابة. اختفى وراء السياج الحجريّ، على نحو مفاجئ وصامت مثلما أتى. وعندما التفت ريردن للنظر من خلال حقل المزرعة، لم يكن هناك أيّ أثر له أو أدنى علامة للحركة بأيّ مكان في الظلام.

وقف ريردن على حافّة طريق فارغ، في انتشار وحدة أوسع ممّا كانت عليه من قبل. ثمّ رأى جسمًا ملفوفًا في كيس الخيش، ملقًى عند قدميه، بزاوية مكشوفة متلألئة في ضوء القمر، بلون شعر القرصان. فانحنى، والتقطه ثمّ مشى.

***

انهال كيب تشالمرز باللعن والسبّ حين تمايل القطار واندلق شرابه على سطح الطاولة. ثمّ انحنى إلى الأمام ومرفقه غارقٌ في بقعة الشراب فقال:

ـ يا إلهي، اللعنة على هذه السكك الحديديّة! فما خطب مسارهم؟ كنت أعتقد أنّهم سينفقون قليلًا ممّا لديهم من مال، كي لا نتعرّض لعثرة مثل هذه، نبدو وكأنّنا مزارعين في عربة من القشّ!

لم يتولَّ رفاقه الثلاثة عناء الإجابة. كان الوقت متأخّرًا، فظلّوا في الصالة لأنّهم ببساطة كانوا يحتاجون إلى بذل جهد للانسحاب إلى مقصوراتهم. بدت أضواء الصالة مثل الثقوب الواهية في ضباب من دخان السجائر المختلط برائحة الكحول. كانت عربة خاصّة، طالب بها تشالمرز وحصل عليها لرحلته؛ وكان يجرّها قطار المذنّب وهي

تتأرجح مثل ذيل عصبيّ لحيوان، بينما يلتفّ القطار المذنّب خلال منحنيات الجبال.

قال كيب تشالمرز، وهو يحدّق بتحدٍّ صارخ في رجل صغير رماديّ البشرة كان ينظر إليه من دون اهتمامٍ: سأقوم بحملة لتأميم السكك الحديديّة.. هذا سيكون لوح المنصّة الخاصّة بي. إذ يجبُ أن تكون لديّ منصّة من الخشب. فأنا لا أحبّ جيم تاجارت، فهو يبدو مثل المحار المسلوق. فلتذهب السكك الحديديّة إلى الجحيم! لقد حان الوقت لنتولّى مسؤوليّتها.

قال الرجل الذي كان أمامه: اذهب إلى سريرك، إذا أردت أن تبدو مثل كائن بشريّ مناسب لحضور التجمّع الكبير غدًا.

ـ هل تعتقد أنّنا سننجح؟

ـ عليك أن تفعل ذلك.

ـ أعلم أنّه يجب عليّ أن أنجح. لكن لا أعتقد أنّنا سنصل إلى هناك في الوقت المحدّد. فهذا الحلزون اللعين، الذي يفترض به أن يكون قطارًا خاصًّا، قد تأخّر بساعات عديدة.

ردّ الرجل بتشاؤم، وبلهجة رتيبة عنيدة: عليك أن تصل إلى هناك يا كيب.

ـ اللعنة عليك، ألا تفترض أنّني أعرف ذلك؟

كان كيب تشالمرز ذا شعر أشقر مجعّد وفم بلا شكل. ينحدر من عائلة شبه غنيّة وشبه متميّزة، لكنّه سخر من الثروة والتميّز بطريقة تنطوي على أنّ الأرستقراطيّ من ذوي المراتب العليا هو وحده الذي يمكنه السماح لنفسه بمثل هذه الدرجة من اللّامبالاة الساخرة. وكان قد تخرّج من كلّيّة متخصّصة في تربية هذا النوع من الأرستقراطيّة. وقد علّمته الكلّيّة أنّ الغرض من الأفكار هو خداع أولئك الذين هم أغبى من أن يفكّروا. وكان قد شقّ طريقه في واشنطن بفضل قدرته التي تشبه قدرات السنّور في التسلّق من مكتب إلى آخر، ومن حافّة إلى أخرى في مبنى متداعٍ. لقد صُنّف على أنّه شبه قويّ، لكنّ أسلوبه جعل عامّة الناس يعتقدون أنّه ليس أقلَّ من ويسلي

ماوتش، بل لا يختلف عنه كثيرا.

ولأسباب تتعلّق باستراتيجيته الخاصّة، قرّر كيب تشالمرز دخول السياسة الشعبيّة والترشّح للانتخابات بصفة مشرّع عن ولاية كاليفورنيا، على الرغم من أنّه لا يعرف شيئًا عن تلك الولاية باستثناء صناعة السينما والنوادي الشاطئيّة. وكان مدير حملته الانتخابيّة قد أنجز العمل التمهيديّ، وتشالمرز الآن في طريقه لمواجهة ناخبيه المستقبليّين للمرّة الأولى في تجمّع سيتمّ الإعلان عنه في سان فرانسيسكو مساء الغد. وكان المدير يريد منه أن يبدأ قبل يوم واحد من موعد ذلك التجمّع، ولكنّ تشالمرز بقي في واشنطن لحضور حفل تعارفٍ واستقلّ آخر قطار ممكن. ولم يبد أيّ قلق بشأن التجمّع حتّى ذلك المساء، عندما لاحظ أنّ قطار المذنّب تأخّر بستّ ساعات.

لم يكترث رفاقه الثلاثة لمزاجه، ولكنّهم أحبّوا مشروبه الكحوليّ. كان ليستر تاك، مدير حملته الانتخابيّة رجلًا صغير الجثّة وكبيرًا في السنّ وله وجه يبدو كما لو أنّه تلقّى لكمات ولم ينتفض مطلقًا. لقد اشتغل، لبعض الأجيال في وقت سابق، بمهنة المحاماة ينوب عن لصوص المتاجر وعن الناس الذين تعرّضوا لحوادث الشغل في الشركات الغنيّة؛ أمّا الآن فقد وجد أنّه يمكنه القيام بأفضل من ذلك من خلال تمثيل رجال من أمثال كيب تشالمرز.

كانت لورا برادفورد هي عشيقة تشالمرز الحاليّة؛ وكان يحبّها لأنّ سلفه الذي سبقه إلى حبّها هو ويسلي ماوتش. كانت ممثّلة سينمائيّة شقّت طريقها المهنيّ من لاعبة مختصّة مميّزة إلى نجمة تفتقر إلى الكفاءة، لا عن طريق معاشرة المديرين التنفيذيّين في الأستوديو معاشرةً جنسيّة، بل عن طريق اختصار المسافات الطويلة بمعاشرة البيروقراطيّين. وأثناء المقابلات الصحفيّة لم تكن تتحدّث إلّا عن الاقتصاد، بدلًا من الحديث عن عالم الجمال، بأسلوب عدوانيّ لا يليق إلّا بصحيفة شعبيّة من الدرجة الثالثة، ولا تتوانى في تأكيد أنّ مساعدة الفقراء أمر واجب علينا.

كان جيلبرت كيث وورثينغ قد حلّا ضيفَين على تشالمرز. وجيلبرت روائيّ بريطانيّ ذو شهرة عالميّة، نال الشهرة قبل ثلاثين عامًا؛ ومنذ ذلك الحين، لم ينزعج أيّ أحدٍ من

مطالعة ما كتبه، غير أنّ الجميع يعتبرونه أديبًا كلاسيكي التوجّه. وكان ينظر إليه أيضًا على أنّه عميق التحليل عندما يهتمّ بالإفصاح عن أشياء من قبيل الحرّيّة. كان يقول: دعونا نتوقّف عن الحديث في موضوع الحرّيّة. فالحرّيّة قيمة مستحيلة. إذ لا يمكن للإنسان أن يتحرّر من آفات مثل الجوع والبرد والأمراض والحوادث المادّيّة. ولا يمكنه أبدًا التحرّر من طغيان الطبيعة. فلماذا يعترض على طغيان الديكتاتوريّة السياسيّة؟ وعندما وضعت كلّ أوروبا الأفكارَ التي بشّر بها قيدَ التنفيذ، انتقل جيلبرت للعيش في أمريكا. وعلى مرّ السنين، زاد ترهّل أسلوبه في الكتابة مثل ترهّل جسده. وعند بلوغه السبعين، أصبح شيخًا عجوزًا بدينًا أعاد زراعة شعره. وكان كيب تشالمرز قد دعاه، لأنّه يبدو متميّزًا. أمّا ورثينغ فقد قدم لأنّه لم يكن يملك مكانا آخر يذهب إليه.

قال كيب تشالمرز: لعن الله أصحاب هذه السكك الحديديّة! إنّهم يفعلون ذلك عمدًا. فهم يريدون تخريب حملتي الانتخابيّة. وأنا لا يمكنني التفويت في هذا التجمّع! تدخّل وافعل أيّ شيء، يا ليستر!

ردّ ليستر تاك: لقد حاولت.

أثناء نزوله في محطّة القطار الأخيرة، ومن خلال إجراء مكالمة هاتفيّة عبر خطوط المسافات الطويلة، حاول ليستر العثور على أيّ وسيلة للنقل الجوّي لإكمال رحلتهم؛ ولكن لم تكن هناك رحلات جوّيّة تجاريّة مقرّرة في اليومين المواليين.

ـ إذا لم يوصلوني إلى هناك في الوقت المحدّد، فسأقتلع فروة رؤوسهم، بل سأقتلع أيضًا سكك حديدهم! هل يمكن أن نأمر سائق القطار اللعين بالإسراع؟

ـ لقد أخبرته بذلك ثلاث مرّات.

ـ سوف أفصله عن العمل، فهو لم يقدّم شيئًا سوى الكثير من الأعذار حول كلّ مشاكلهم التقنيّة الفوضويّة. أنا أنتظر منهم نقلًا سريعًا، لا أعذارا. إذ لا يمكنهم معاملتي مثل أيّ واحد من ركّابهم العاديّين. أنا أتوقّع منهم أن يوفّروا لي النقل الملائم

متى شئت ونحو أيّ وجهة أختارها. ألا يعلمون أنّني هنا على متن هذا القطار؟

قالت لورا برادفورد: إنّهم يعلمون ذلك الآن. اخرس يا كيب، فأنت تتسبّب في إزعاجي.

أعاد تشالمرز ملء كأسه، وكانت العربة تهتزّ من حين إلى آخر، والأواني الزجاجيّة تصدر زنينًا خافتا على رفوف الحانة. وظلّت بقع السماء المضاءة بالنجوم المتسلّلة عبر النوافذ تتمايل بشكل متشنّج، وبدا الأمر كما لو أنّ النجوم تتأرجح بعضها ضدّ بعض. لم يتمكّنوا من رؤية أيّ شيء وراء الفسحة الزجاجيّة من نوافذ المراقبة في مؤخّرة العربة، باستثناء هالات صغيرة من الفوانيس الحمراء والخضراء التي تميّز الجزء الخلفيّ من القطار، وباستثناء امتداد قصير من السكك الحديديّة يهرب منهم صوب الظلام. وكان هناك جدار من الصخور يسابق القطار، أمّا النجوم فكانت تحجب أحيانًا في فاصل مفاجئ وجيز يقع عاليًا فوقها هو قمم جبال كولورادو.

قال جيلبرت: الجبال ... إنّ مشهدًا من هذا النوع قد يجعل الواحد منّا يشعر بتفاهة الإنسان. وماذا تمثّل هذه السكك الحديديّة وكلّ هذه الأشياء التي يفخر الإنسان ببنائها مقارنة مع هذه العظمة الأبديّة؟ إنّها لا تمثّل سوى خيط رقيق على ثوب من ثياب الطبيعة. فلو شاءت إحدى تلك الصخور العملاقة من الجرانيت أن تنهار، لأمكنها إبادة هذا القطار كلّه.

سألته لورا برادفورد، دون إبداء أيّ اهتمام خاصّ: ولماذا ينبغي أن تنهار؟

قال كيب تشالمرز: أعتقد أنّ هذا القطار اللّعين يسير ببطء. هؤلاء الأوغاد يتباطؤون، على الرغم ممّا قلته لهم!

ردّ ليستر تاك: حسنًا... إنّها الجبال، وكما تعلم..

ـ فلتحلّ اللعنة على هذه الجبال! في أيّ يوم من الأيّام نحن، يا ليستر؟ فمع كلّ هذه التغييرات اللعينة في الوقت، لا أستطيع أن أجزم في أيّ..

قال ليستر تاك متنهّدًا: إنّه السابع والعشرون من مايو.

ردّ جيلبرت: لا، بل هو الثامن والعشرون من مايو.

ثمّ أضاف وهو ينظر إلى ساعته: لقد مضت الآن 12 دقيقة على منتصف الليل.

صاح تشالمرز: على هذا الأساس، فموعد التجمّع هو اليوم؟

ردّ ليستر تاك: بالتأكيد.

ـ لن ننجح في الوصول في الوقت المحدّد! نحن..

سأله جيلبرت بعصبيّة: هل السكك الحديديّة الخاصّة بك آمنة؟

ردّ كيب تشالمرز: بالتأكيد! نحن نتحكّم في الكثير من القواعد واللوائح والضوابط القانونيّة التي لن يجرؤ هؤلاء الأوغاد على تجاوزها ليصل بهم الحدّ إلى تَرْكِنَا بلا أمان! ما هي المسافة التي ما تزال تنتظرنا، يا ليستر؟ وأين سيتوقّف القطار؟

ـ لن يكون هناك أيّ توقّف حتّى نصل سولت لايك سيتي.

ـ أعني، ما هي المحطّة الموالية؟

أخرج ليستر تاك خارطة متّسخة، كان يعود إليها من حين إلى آخر منذ حلول الظلام. ثمّ قال: محطّة وينستون، بولاية كولورادو

فمدّ كيب تشالمرز يدَه لشرب كأس أخرى. وقالت لورا برادفورد:

ـ لقد ذكر لي تينكي هو لواي قولَ ويسلي إنّك إذا لم تفز في هذه الانتخابات، فإنّ مستقبلك السياسيّ سينتهي.

ثمّ تمدّدت على كرسيّها، وأخذت تنظر بجانب تشالمرز، وتتفحّص وجهها في مرآة على جدار الصالة. كانت تشعر بالملل وكان من دواعي سرورها أن تثير غضبه العاجز.

ـ أوه، هل قال هذا حقًّا؟

ـ اه هاه. ويسلي لا يريد نجاح أيّ مرشّح آخر سواك في الوصول إلى الهيئة التشريعيّة. وإذا لم تربح، فإنّ ويسلي سيتألّم كثيرًا. وقال تينكي..

ـ اللعنة على ذلك الوغد! فمن الأفضل له الاهتمام بشؤونه الخاصّة!

لا أعلم، ولكنّ ويسلي يحبّه كثيرًا. لو كان تينكي هو لواي مكانَك لما سمح لقطار بائسٍ أن يجعله يتغيّب عن اجتماع مهمّ. فهم لن يجرؤوا على مواجهته.

جلس كيب تشالمرز يحدّق في كأسه وقال بصوت منخفض: سأجعل الحكومة تستولي على جميع السكك الحديديّة.

ردّ جيلبرت:حقًّا! لا أرى أيّ سبب لعدم قيامك بذلك منذ زمن بعيدٍ. فعلى وجه الأرض، هذه هي الدولة المتخلّفة الوحيدة التي تسمح بالملكيّة الخاصّة للسكك الحديديّة.

ردّ كيب تشالمرز: حسنًا، نحن نودّ اللحاق بكم.

ـ إنّ بلدكم ساذج جدًّا. وإنّها لمفارقة تاريخيّة عجيبة. كلّ هذا الحديث عن الحرّيّة وحقوق الإنسان، لم أسمع به منذ أيّام جدّي الأكبر. إنّه ليس سوى ترفٍ لفظيٍّ للأغنياء. ففي نهاية الأمر، لا فرق بين أن يكون مصدر رزقهم تحت رحمة صناعيّ أو رحمة بيروقراطيّ.

ـ زمن الصناعيّين ولّى. وهذا هو زمن...

ثمّ حدثت هزّة عنيفة فشعروا كما لو أنّ الهواء داخل العربة حطّمهم ودفعهم إلى الأمام بينما توقّفت الأرض تحت أقدامهم. فألقي بتشالمرز على السجّادة، وألقي بجيلبرت عبر سطح الطاولة، وانفجرت الأضواء. وتحطّمت الكؤوس على الرفوف، وأصدر فولاذ الجدران صريرًا قويًّا كأنّه على وشك التمزّق، ورافقت هذا الحدث هزّةٌ أخرى طويلة وبعيدة تسرّبت مثل التشنّج من خلال عجلات القطار.

وعندما رفع تشالمرز رأسَه، رأى أنّ العربة توقّفت وكانت سليمة وصامدة، ولكنّه سمع أنين رفاقه وأطلقت لورا برادفورد صرختَها الأولى من الهستيريا. فأخذ يزحف إلى باب المدخل، فتحه بعنف، وهوى أسفل الدرج. وبعيدًا أمامه، على جانب المنحنى، رأى المصابيح الكاشفة المتحرّكة وتوهّجًا أحمر في بقعة حيث لم يستطع إدراك المكان المناسب لقاطرة المحرّك. فتعثّر في الظلام، واصطدم بأجسام كانت شبيهة بملابس

تلوح بمشاعل صغيرة عقيمة تشبه مشاعل مباريات كرة القدم. وفي مكان مّا على طول الخطّ، رأى رجلًا بمصباحٍ يدويّ فأمسك بذراعه. إنّه قاطع التذاكر بالقطار.

لهث تشالمرز: ماذا حدث؟

أجابه الكمساري بدم بارد: لقد حدث انقسام بالسكة الحديديّة، وحادت قاطرة المحرّك عن المسار.

ـ خارج المسار؟

ـ بجانبه.

ـ وهل قتل... أيّ شخص؟

ـ لا، سائق القطار بخير. ولم يصب إلّا رجل الإطفاء.

ماذا تعني بانقسام في السكة الحديديّة؟

كانت لوجه الكمساري نظرة غريبة: عابسة، ومتجهّمة ومهمومة. ثمّ أجابه بنوع غريب من التأكيد: لقد أصبحت السكك الحديديّة بالية يا سيّد تشالمرز، ولاسيّما على المنحنيات.

ـ ألم تعلموا أنّها كانت بالية؟

ـ طبعًا، كنّا نعلم.

ـ حسنًا، ولماذا لم تُسْتَبدَل؟

ـ كانت سَتُسْتَبْدَل، ولكنّ السيّد لوسي ألغى ذلك.

ـ ومن هو السيّد لوسي؟

ـ هو الرجل الذي لا يشغل منصب نائب رئيسنا التشغيليّ.

فتساءل تشالمرز لماذا بدا الكمساري ينظر إليه كما لو أنّ الكارثة كانت خطأه.

ـ حسنا... حسنا، ألن تعيدوا القاطرة إلى المسار مجدّدًا؟

ـ يكفي النظر إليها، لنعرف أنّ هذه القاطرة لن تعاد إلى أيّ مسار.

ـ لكن... ولكنّها يجب أن تنقلنا!

ـ لا يمكنها فعل ذلك.

شعر تشالمرز فجأةً بأنّه لا يرغب في رؤية المشاعل المتحرّكة القليلة وأصوات الصراخ الباهتة ولا يريد أن ينظر إلى ما وراءها، من ظلمة عارمة للجبال، وصمت مئات الأميال غير المأهولة، والشريط المحفوف بالمخاطر غير المستقرّ من الحافّة المعلّقة بين جدار من الصخور والهاوية. فأمسك ذراع الكمساري بقوّة.

ـ لكن... ولكن ماذا سنفعل؟

ـ ذهب سائق القطار ليتّصل بمحطّة وينستون.

ـ يتّصل؟ كيف؟

ـ يوجد هاتف على بعد ميلين من الطريق.

ـ وهل سيُخرجوننا من هنا؟

ـ بالطبع سيفعلون.

ـ ولكن.. إلى متى سننتظر؟

ردّ الكمساري: لا أعلم.

استمع المشغّل الليليّ لمحطّة وينستون إلى رسالة الهاتف، فألقى السمّاعة ونزل الدرج على عجلٍ وهرع ليوقظ وكيل المحطّة من سريره. ووكيل المحطّة هذا رجل أجشّ خشن عبوس عُيِّن في هذه المهمّة قبل عشرة أيّام، بأمر من المشرف على القسم الجديد. لقد تعثّر بذهول عند سماعه الخبر، لكنّه كان مستيقظًا عندما وصلت كلمات المشغّل إلى دماغه.

ـ ماذا؟ القطار المذنّب؟.. حسنًا، لا تقف هكذا مكتوف اليَدَين! اتّصل بسيلفر سبرينغز!

فاستمع المرسل الليليّ بمقرّ قسم سيلفر سبرينغز إلى الرسالة، ثمّ اتّصل هاتفيًّا بديف ميتشوم، المشرف الجديد على قسم كولورادو.

لهث ميتشوم، ويده تضغط على سمّاعة الهاتف عند أذنه، وقدماه تضربان الأرض:
- القطار المذنّب؟ ماذا تقول؟ حادت قاطرة المحرّك وانتهى أمرها؟ قاطرة محرّك الديزل؟

ـ نعم يا سيّدي.

ـ يا إلهي! يا إلهي! ماذا سنفعل؟ حسنًا، أرسل قطار رفع الحطام.

ـ لقد فعلت.

ـ اتّصل بالمشغّل في شيروود ليوقف حركة المرور كلّها.

ـ لقد فعلت.

ـ وماذا لديك على ورقة جداول القاطرات؟

ـ قطار الجيش الخاصّ للشحن المتّجه غربًا. لكنّه لن يصل إلى المكان إلّا بعد حوالي أربع ساعات، والوقت متأخّر جدًّا.

ـ سأكون هناك على الفور... انتظر، اسمع، أخرج بيل، وساندي وكلارنس بحلول وقت وصولي إلى هناك. سندفع الثمن غاليًا هذه الليلة!

كان ديف ميتشوم يشتكي دائمًا من الظلم، لأنّه، وكما يقول، يعاني دومًا من الحظّ السيّئ. وكان يتحدّث دومًا عن مؤامرة الزملاء الكبار، الذين لم يمنحوه فرصة قطُّ، لكن لم يحدّد ما كان يقصده بـ"الزملاء الكبار". وكانت أقدميّة الخدمة موضوع الشكوى المفضّل عنده ومعياره الوحيد للقيمة. كان قد عمل في قطاع السكك الحديديّة لفترة أطول من فترات رجالٍ كثيرين تقدّموا في السلّم المهنيّ على الرغم من التحاقهم بها بعدَه، فقال إنّ ذلك دليل على ظلم النظام الاجتماعيّ، لكن دون أن يحدّد ما يقصده بـ"النظام الاجتماعيّ". لقد عمل في الكثير من شركات السكك الحديديّة، لكنّه لم يعمّر طويلا مع أيّ واحدة منها. لم يكن لدى أرباب عمله أيّ أخطاء محدّدة

لتوجيه الاتّهام إليه، لكنّهم عادة ما يخفّفون الأعباء عن كاهله ببساطة لأنّه كان يقول في أحيانٍ كثيرة: لم يخبرني أحدٌ بذلك! لم يكن يعلم أنّه مدين بوظيفته الحاليّة لصفقةٍ بين جيمس تاجارت وويسلي ماوتش: حصل ذلك عندما تبادل تاجرت مع ماوتش سرّ الحياة الخاصّة لشقيقته، وقايضه بزيادة في رسومات الشحن، وجعله ماوتش يقوم بإكراميّة إضافيّة، من خلال قواعدهم العرفيّة للمساومة، والتي تتكوّن من الضغط على كلّ واحد يمكنه الخروج من أيّ تجارة معيّنة. وكانت هذه الإكراميّة الإضافيّة هي ديف ميتشوم، وهو صهر كلود سلاجينهوب، الذي كان رئيسًا لجمعيّة أصدقاء التقدّم العالميّ، وهؤلاء يعتبرهم ماوتش أصحابَ تأثير فعّال على الرأي العامّ. وقد أسند جيمس تاجارت إلى كليفتون لوسي مهمّةَ العثور على وظيفة لميتشوم. فعيّن لوسي ميتشوم بأوّل وظيفة عثر عليها -المشرف على قسم كولورادو- عندما استقال الرجل الذي كان يحملها دون سابق إنذار. لقد استقال الرجل عندما أعطيت القاطرة الاحتياطيّة، ذات محرّك الديزل بمحطّة وينستون، لقطار تشيك موريسون الخاصّ.

ـ ماذا سنفعل؟

صرخ ديف ميتشوم، وأسرع، بعد أن ارتدى نصف ثيابه وهو يترنّح وقد غلبه النوم، إلى مكتبه حيث ينتظره رئيس المراسلين ومدير القطار ورئيس عمّال المحرّكات.

وظلّ الرجال الثلاثة صامتين من دون أيّ جواب. لقد كانوا رجالًا في منتصف العمر لكن بسنوات عديدة من الخبرة في خدمة السكك الحديديّة. وقبل شهر، كانوا سيتطوّعون للإدلاء بنصائحهم في أيّ حالة طوارئ؛ لكنّهم بدؤوا في تعلّم أنّ الأمور تغيّرت وأنّ من الخطر التحدّث.

ـ ماذا سنفعل؟

ردّ بيل برنت كبير المراسلين: ثمّة شيء واحدٌ مؤكّدٌ. لا يمكننا إرسال قطار إلى النفق بمحرّك يعمل بالفحم.

فبدت ملامح عينَي ديف ميتشوم متجهّمةً. كان يعلم أنّ تلك الفكرة هي الوحيدة

التي دارت بخلدهم، وتمنّى لو أنّ برانت لم يصرّح بها.

ـ سألهم بغضب: حسنًا، ومن أين سنحصل على قاطرة ديزل؟

قال رئيس عمّال الطريق: لا يمكننا فعل ذلك.

ـ ولكن لا يمكننا أن نبقى مكتوفي الأيدي، والقطار المذنّب سيظلّ ينتظر بجانب المسار طوال الليل!

ـ قال مدير القطار: يبدو أنّنا سنضطرّ إلى فعل ذلك. وما فائدة الحديث عن هذا يا ديف؟ أنت تعلم أنّه لا توجد قاطرة ديزل في أيّ مكان بهذا القسم

ـ يا إلهي، كيف يتوقّعون منّا أن نحرّك القطارات دون محرّكات؟

قال رئيس عمّال الطريق: لو كانت الآنسة تاجارت موجودة لما تركتنا هكذا، لكنّ السيّد لوسي يتوقّع منّا القيام بذلك.

سأله ميتشوم، بلهجة من التوسّل لطلب معروف: ألا توجد أيّ قاطرة عابرة للقارّات مجدولة هذه الليلة، ومزوّدة بأيّ نوع من أنواع محرّكات الديزل؟

ردّ بيل برنت بعناد: أوّل قاطرة قادمة ستكون رقم 236، ثمّ قاطرة الشحن السريع القادمة من سان فرانسيسكو، وهي من المقرّر أن تصل محطّة وينستون في السابعة وثماني عشرة دقيقة صباحًا. وهذه هي أقرب قاطرة ديزل في هذه اللحظة. لقد تحقّقت من ذلك.

ـ وماذا عن قطار الجيش الخاصّ؟

ـ الأفضل ألّا نفكّر في هذا الأمر يا ديف. فلذاك القطار قوّة تتفوّق على كلّ منافسيه في الخطّ، بما في ذلك القطار المذنّب، وهذا بأمرٍ من الجيش. لأنّهم يشتغلون في وقت متأخّر، كما هي الحال الآن، فقد تتعرّض عربات الشحن للنار مرّتين يوميًّا. إنّهم يحملون ذخائر لترسانات الساحل الغربيّ، والأفضل أن نصلّي لكي لا يوقفهم أيّ شيء بقسمك. وإذا كنت تعتقد أنّ حادث القطار المذّنب أمرٌ هيّن ويسهل السيطرة عليه، فاعلم أنّه لا يمثّل شيئًا أمام ما سيعترضنا لو حاولنا إيقاف قطار الجيش الخاصّ.

فالتزموا الصمت. كانت النوافذ مفتوحةً على ليلة الصيف. وكان بإمكانهم الاستماع إلى رنين الهاتف في مكتب المرسل بالطابق السفليّ. وكانت أضواء الإشارة تغمز فوق الساحات المهجورة التي مثّلت ذات يوم نقطة تقسيم مزدحمة.

ثمّ نظر ميتشوم نحو ورشة إصلاح القاطرات، حيث تظهر ظلال سوداء لعدد قليل من المحرّكات البخاريّة التي لا تكاد ترى من خلال الضوء الخافت.

قال ميتشوم: النفق..

ردّ مدير القطار بنبرة قاسية: النفق يبلغ طوله ثمانية أميال.

تدارك ميتشوم أمره قائلًا: خطر ببالي ذلك، لا غير.

ردّ برنت بهدوء: من الأفضل لك ألّا تفكر في ذلك.

ـ ولكنّني لم أقل شيئًا.

سأله رئيس عمّال الطريق ببراءة كبيرة: وما فحوى الحديث الذي أجريته مع ديك هو رتون قبل أن يستقيل؟ ألم يحدّثك ذلك المتشرّد بشيء عن نظام التهوية الخاصّ بالنفق؟ ألم يخبرك بأنّ هذا النفق من الصعب أن يكون آمنا في الوقت الحاضر حتّى على القاطرات ذات محرّكات الديزل؟

ردّ عليه ميتشوم: لماذا تثير هذه النقطة بالذات؟ فأنا لم أقل شيئًا.

وكان ديك هو رتون، كبير مهندسي القسم، قد استقال بعد ثلاثة أيّام من وصول ميتشوم.

أجابه رئيس عمّال الطريق ببراءة: لقد ذكرتُ ذلك فقط بشكل عرضيّ.

قال بيل برنت، وهويدرك تمام الإدراك أنّ ميتشوم سيماطل لمدّة ساعة أخرى بدلًا من اتّخاذ قرار: اسمع يا ديف.. أنت تعرف أنّ هناك شيئًا واحدًا فقط يتوجّب القيام به وهو إيقاف القطار المذنّب في محطّة وينستون حتّى الصباح، وانتظار القطار رقم 236، فنأخذ منه قاطرة الديزل ونردفها بالقطار المذنّب لتجرّه عبر النفق، ثمّ نسمح للقطار

المذنّب بأن يستبدل بها قاطرةً تشتغل بأفضل موقد للفحم يمكننا توفيره في الجانب الآخر من النفق.

ـ ولكن هذا الحلّ سيجعلها متأخّرة، فكم من الوقت سيضيع؟

قال برنت بتجاهل: اثنتا عشرة ساعة أو ثماني عشرة ساعة. من يدري؟

ـ ثماني عشرة ساعة للقطار المذنّب؟ هذا لم يحدث من قبل!

ـ كلّ هذه الحوادث التي وقعت الليلة لم تقع من قبل.

لكنّهم في نيويورك سيلقون كلّ اللوم علينا!

فتجاهله برنت. لوحدّثته قبل شهر عن مثل هذه الأمور، لاعتبرها ظلمًا لا يمكن تصورّه؛ أمّا اليوم، فهو يشهد موقفًا أفضل من ذلك.

ـ قال ميتشوم على نحوٍ بائس: أعتقد... أنّه ما من قرار آخر أمامنا يمكن اتّخاذه.

قال برنت: هذا صحيح يا ديف.

ـ يا إلهي! لماذا حلّت بنا هذه الكارثة؟

ـ ومن هو جون جالت؟

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف ليلًا عندما سَحَبَ القطارَ المذنّبَ محرّكُ تبديل قديمٍ، ثمّ أوقف بمسار جانبيّ من محطّة وينستون. وكان كيب تشالمرز ينظر بغضب وريبة صوب الأكواخ القليلة على سفح جبل مقفرٍ وصوب السقيفة القديمة للمحطّة.

صاح ميتشوم: ما الذي يفعلونه الآن؟ لماذا يتوقّفون هنا؟

ومع عودة الحركة والسلامة، تحوّل رعبه إلى غضب. فشعر تقريبا كما لو أنّه خُدِع بعد أن جعلوه يمرّ بخوف لم يكن ضروريًّا البتّة. كان رفاقه لا يزالون يتشبّثون بطاولات الصالة؛ ولم يخلدوا للنوم من هول ما وقع.

قال الكمساري مجيبًا على سؤاله: تسألني إلى متى ستظلّ الحال على ما هي عليه؟

حسنًا، حتّى الصباح يا سيّد تشالمرز.

حدّق فيه تشالمرز مذهولًا وقال: هل سنظلّ واقفين هنا حتّى الصباح؟

ـ نعم يا سيّد تشالمرز.

ـ هنا؟

ـ نعم.

ـ ولكن لديّ تجمّع بسان فرانسيسكو في المساء!

فلم يجبه الكمساري. ثمّ أضاف:

ـ لماذا؟ لماذا علينا أن نقف؟ لماذا بحقّ الجحيم؟ ماذا حدث؟

ثمّ أجابه ببطء، وبصبر، وبازدراء مهذّب، وقدّم له سردًا دقيقًا للوضع. ولكن قبل سنوات، درس كيب تشالمرز في المدرسة الثانويّة للغات، والمدرسة الثانويّة، والكلّيّة، أنّ الإنسان لا يحتاج إلى العيش بالعقل ولن يحتاج إلى ذلك.

صرخ كيب تشالمرز: اللعنة على نَفَقِكُم هذا! وهل تعتقدون أنّي سأسمح لكم بإيقافي هنا بسبب نفق بائس؟ هل تريدون تدمير الخطط الوطنيّة الحيويّة بسبب نفق؟ أخبر سائق القطار بأنّني يجب أن أكون في سان فرانسيسكو بحلول هذا المساء وأنّه يجب أن يوصلني إلى هناك في الوقت المحدّد!

ـ كيف؟

ـ هذا عملك، وليس عملي!

ـ لا توجد طريقة لتحقيق ذلك.

ـ إذن ابحثوا عن وسيلة، لعنة الله عليك!

لم يجبه الكمساري. فأضاف:

ـ هل تعتقدون أنّني سأسمح لمشاكلكم التكنولوجيّة البائسة بالتداخل مع القضايا الاجتماعيّة الحاسمة؟ ألا تعرفون من أكون؟ أخبر سائق القطار بأن يتحرّك، إذا كان

لا يزال يقدّر وظيفته!

ـ سائق القطار يمتثل للأوامر التي تلقاها.

ـ اللعنة على تلك الأوامر! أنا من يعطي الأوامر هذه الأيام! قل له أن يقلع مباشرة.

ـ ربما من الأفضل لك التحدّث مع وكيل المحطة يا سيد تشالمرز. فأنا لا أملك أي سلطة لكي أوفيك بجواب شاف.

استشاط تشالمرز غضبا، وقفز متوجها للحديث مع وكيل المحطة. فقال ليستر توك بصعوبة: أخبرني يا كيب... ربما يكون ذلك صحيحًا ... وربما لا يمكنهم فعل ذلك.

قاطعه تشالمرز: يمكنهم إذا كان عليهم فعل ذلك!

ثم سار بحزم نحوالباب. لقد تعلم، منذ سنوات في الكلية، أنّ الوسيلة الوحيدة الفعّالة لدفع الرجال إلى العمل هي الخوف.

وفي المكتب المتداعي بمحطة وينستون، واجه تشالمرز رجلًا نائمًا بمظاهر جامدة بالية ومعه صبي صغير خائف جالس بمكتب عامل الهاتف. لقد استمعا، بذهول وصمت، إلى تيار من الألفاظ النابية لم يسبق لهما أن سمعوها من أي عصابة.

قال تشالمرز: كيفية عبور القطار للنفق ليست مشكلتي، بل مشكلتكم، وعليكم تدبّر حل لها!ولكن إذا لم توفّروا لي قاطرة بمحرّك ولم تشرعوا في تشغيل القطار، فودعوا وظائفكم وهذا الخط الحديدي الملعون بالكامل!

لم يسمع وكيل المحطة أبدًا عن كيب تشالمرز ولم يعرف طبيعة منصبه. لكنّه كان يعلم أنّ هذا هو اليوم الذي كان فيه الرجال المجهولون في مواقع غير محدّدة يمتلكون سلطة غير محدودة وسلطة الحياة والموت. فقال بامتعاض:

ـ الأمر ليس بيدنا يا سيد تشالمرز. فنحن هنا لا نصدر الأوامر. الأوامر تصدر عن قسم سيلفر سبرينغز. وافترض أنّه يجب عليك الاتصال بالسيد ميتشوم و...

ـ ومن هو السيد ميتشوم؟

ـ إنه مشرف القسم في سيلفر سبرينغز، وأفترض أنّه يجب عليك أن ترسل إليه برقية..

ـ هليجب أن أزعج نفسي بالحديث مع مجرّد مدير قسم؟! سأرسل برقية إلى جيم تاجارت.. هذا ما سأفعله!

قبل أن يتاح لوكيل المحطة وقت لاسترداد أنفاسه، التفت تشالمرز إلى الصبي ليأمره، قائلًا: أنت.. خذ هذه البرقية وأرسلها في الحال!

لقد كانت برقية لم يكن وكيل المحطة ليقبلها منذ شهر من أي راكب؛ فقواعد العمل تنهيه عن فعل ذلك؛ لكنّه لم يعد واثقا من أي قواعد. كما كُتب في البرقية:

(إلى السيد جيمس تاجرت، بمدينة نيويورك. لقد وقع إيقافي في القطار المذنّب بمحطّة وينستون، في ولاية كولورادو، بسبب عدم كفاءة رجالك الذين يرفضون إعطائي قاطرة بمحرّك. لدي تجمّع في سان فرانسيسكو في المساء، تجمعٌذوأهمية وطنية عليا. وإذا لم يتحرّك قطاري فورًا، فلتنتظر العواقب. كيب تشالمرز).

وبعد أن نقل الصبي نص البرقية عبر خطوط الاتصال التي امتدت من عمود لآخر عبر القارة كأوصياء على مسار شركة تاجارت، وبعد عودة كيب تشالمرز إلى عربته منتظرا الجواب. اتصل وكيل المحطة بديف ميتشوم، الذي كان صديقه، وقرأ له نص البرقية. فسمع ميتشوم وهويئن في الإجابة.

ـ يا ديف، يجب أن أخبرك بأنّ هذا السيد لم يسمع به أحد من قبل، ولكن ربما يكون شخصًا مهمًا.

ردّ ميتشوم وهويتذمّر: لا أدري، لا أعلم! كيب تشالمرز؟ ألم يسبق لك رؤية اسمه في الصحف طوال الوقت، فهو له صلة مباشرة مع جميع الأولاد على أعلى مستوى. أنا لا أعلم من هو بالتحديد ولكن إذا كان من واشنطن، فلا يمكننا المخاطرة. ماذا سنفعل؟

لا يجب علينا أن نخاطر، هكذا فكّر عامل التشغيل بشركة تاجرت في نيويورك، ثم

نقل نص البرقية عبر الهاتف إلى منزل جيمس تاجرت. وفي نيويورك كانت الساعة توشك أن تشير إلى السادسة صباحًا. لقد استيقظ جيمس تاجرت من نوم متقطّع في ليلة مضطربة. فاستمع إلى الهاتف بوجهه مرتخٍ. وشعر بالخوف نفسه الذي شعر به وكيل محطة وينستون، ودفعه إلى استنتاج السببً نفسه.

فاتصل جيم بمنزل كليفتون لوسي. وصب جام غضبه عليه وهويخاطبه بعنف عبر الهاتف، ذلك الغضب الذي لم يقدر التعبير عنه في وجه كيب تشالمرز:

ـ قمبشيء ما!أنا لا أهتم بما ستفعله، إنّها وظيفتك، وليست وظيفتي، ولكن احرص على أن يمرّ هذا القطار! ما الذي يجري بحق الجحيم؟ لم أسمع قط عن توقفالقطار المذنّب عن العمل! هل هذه هي الطريقة التي تدير بها القسم الخاص بك؟ إنّه لأمر جيّد أن يضطر الركاب المهمّون إلى إرسال برقيات إلي! على الأقل، عندما أدارت أختي المكان، كانت تعالج الأمر ولم تكن لتوقظني في منتصف الليل بعد وقوع أي حادث في ولاية أيوا، أعني ولاية كولورادو!

قال كليفتون لوسي بسلاسة وبلهجة تُوازِن بين الاعتذار والطمأنينة والدرجة المناسبة من الثقة الحريصة: أنا آسف للغاية يا جيم، إنّه مجرد سوء فهم. إنّه خطأ غبي لشخص ما. لا تقلق، سأهتم بالأمر. كنت في الواقع نائما، لكنّني سأعلج هذا المشكل في الحال.

لم يكن كليفتون لوسي نائما. بل كان قد عاد للتومن جولة في النوادي الليلية، برفقة شابة. فطلب منها الانتظار وسارع إلى مكاتب شركة تاجارت العابرة للقارات. لم يستطع أي من موظفي الليل الذين رأوه هناك أن يجزموا لماذا اختار الظهور شخصيًا، لكنّهم لم يستطيعوا أيضًا أن يعلنوا بأنّ زيارته كانت غير ضرورية. فاندفع يدخل إلى بعض المكاتب ويخرج منها، فشاهده الكثير من الناس وأعطاهم انطباعًا عن نشاط كبير. ثم كانت النتيجة المادية الوحيدة هي برقية أمر مرّت عبر الأسلاك إلى ديف ميتشوم، المشرف على قسم كولورادو، تقول:اعط قاطرة للسيد تشالمرز فورًا. وأرسل القطار المذنّب بأمان وبدون تأخير غير ضروري. وإذا كنت غير قادر على أداء

واجباتك، فسأحمّلك المسؤوليّة أمام مجلس الاتّحاد. كليفتون لوسي.

وبعد ذلك اتّصل كليفتون لوسي بصديقته لتلتحق به، وتوجّه إلى منزل ريفي للتأكّد من أنّه لن يتمكّن أحدٌ من العثور عليه في الساعات القليلة القادمة.

كان المرسل في سيلفر سبرينغز مرتبكًا من برقيّة الأمر التي سلّمها إلى ديف ميتشوم، لكنّ ديف ميتشوم فهمه. كان يعلم أنّه لم يتلقَّ في حياته المهنيّة بالسكك الحديديّة برقيّة أمر مثل تلك وبتلك العبارات من قبيل إعطاء قاطرة للركّاب؛ كان يعلم أنّ ما طُلب منه هو مجرّد عرض تمثيليّ، يريدون أن يكون فيه كبش فداء.

سأله مدير القطار: ما الأمر يا ديف؟

لم يجب ميتشوم. ثمّ رفع سمّاعة الهاتف، بيدَين مرتعشتَين وهو يتوسّل الوصول إلى عامل الاتّصالات بشركة تاجارت في نيويورك. فبدا وكأنّه حيوان وقع في فخٍّ.

وعندما اتّصل بعامل نيويورك طلب منه أن يربطه بخطّ منزل السيّد كليفتون لوسي. فحاول عامل الاتّصال، لكن دون جدوى. ترجّاه أن يعيد المحاولة ويتّصل بكلّ رقم يخطر بباله، ويمكن العثور من خلاله على السيّد لوسي. فوعده المشغّل بذلك، ثمّ أغلق ميتشوم الهاتف وأنهى المكالمة، لكنّه علم أنّه من غير المجدي الانتظار أو التحدّث إلى أيّ شخص في قسم السيّد لوسي.

ـ ما الأمر يا ديف؟

سلّمه ميتشوم الأمر، فرأى من خلال نظرة على وجه مدير القطار أنّ الفخّ كان سيّئًا جدًّا. فاتّصل بالمقرّ الإقليميّ لشركة تاجارت العابرة للقارّات في منطقة أوماها بولاية نبراسكا، وطلب التحدّث إلى المدير العامّ للمنطقة. كان هناك صمتٌ قصيرٌ في الخطّ، ثمّ أخبره صوت مشغّل أوماها أنّ المدير العامّ قد استقال واختفى منذ ثلاثة أيّام بسبب مشكلة بسيطة مع السيّد لوسي. ثمّ طلب التحدّث إلى مساعد المدير العامّ المسؤول عن منطقته؛ لكنّ المساعد كان خارج المدينة حتّى نهاية الأسبوع ولم يكن بالإمكان الوصول إليه.

صرخ ميتشوم: صِلْني بشخص آخر.. أيّ شخص من أيّ إقليم! بحقّ المسيح، صِلْنِي بأيّ شخصٍ يخبرني ماذا أفعل!

وصلوه برجلٍ كان يشغل منصب مساعد المدير العامّ في منطقة آيوا-مينيسوتا.

قاطع هذا الرجل ميتشوم وهو لا يزال يدلي بأوّل كلماته: ماذا تقول؟ في محطّة وينستون، بولاية كولورادو؟ لماذا تتّصل بي؟.. لا، لا تخبرني بما حدث، لا أريد أن أعرف ذلك! قلت لك لا! لا! لست بحاجة إلى أن تورّطني في هذا المشكل ولستَ مضطرًّا إلى أن تشرح لي ذلك ولماذا فعلت أو لم تفعل أيّ شيء حيال ذلك. إنّها ليست مشكلتي! كان يجب عليك أن تتّصل ببعض المسؤولين التنفيذيّين في المنطقة، فلماذا اخترتني وما الذي يجب عليّ فِعْلُهُ بقسم ولاية كولورادو؟ أوه ما هذا الجحيم، قلت لك لا أعلم. تصرّف واتّصل بكبير سائقي القطارات وتحدّث إليه في الأمر!

أجابه كبير سائقي القطارات بالمنطقة الوسطى وقد عيل صبره: نعم؟ ماذا؟ مَن المتّصل؟

ردّ ميتشوم في عجل ليشرح الأمر. وعندما سمع كبير سائقي القطارات أنّه لم تكن هناك قاطرة ديزل قاطعه وقال: إذن أوقف القطار، بالطبع!

لكنّه عندما سمع عن السيّد تشالمرز، قال بصوت خافتٍ مهزوم:... كيب تشالمرز؟ من واشنطن؟... حسنًا، لا أعلم، إنّها مسألة يقرّرها السيّد لوسي وحين قال ميتشوم: السيّد لوسي أمرني بمنحه القاطرة وترتيب الأمر، لكن... فقاطعه كبير سائقي القطارات بارتياح كبير قائلًا: افعل إذَن بالضبط ما أمرك به السيّد لوسي! وأغلق الخطّ.

وضع ديف ميتشوم سمّاعة الهاتف بحذرٍ ولم يعد يصرخ. وبدلًا من ذلك، استدار بكرسيّه، كما لو أنّه كان يريد أن يتسلّل. ثمّ جلس يتأمّل طلبَ السيّد لوسي لفترة طويلة.

ولمح بشكل خاطف أرجاء الغرفة. فلاحظ أنّ عون الاتّصالات كان مشغولًا بهاتفه، وأنّ مدير القطار ومدير عمّال الطريق كانا هناك، لكنّهما تظاهرا بأنّهما لا

ينتظرانه. وودّ لو يعود بيل برنت، كبير المراسلين، إلى منزله. لكنّ بيل برنت كان واقفًا في الزاوية يراقبه.

وكان بيل برنت رجلًا قصيرًا ونحيلًا وذا كتفَين عريضَتَين. وكان في الأربعين من عمره، لكنّه يبدو أصغر سنًّا. كان يتمتّع بوجه شاحب يشبه وجه عامل مكتبيّ والسمات القاسية والهزيلة لرعاة البقر. لقد كان أفضل مراسل يعمل بالنظام.

ثمّ نهض ميتشوم فجأةً وصعد إلى مكتبه عبر الدرج، ممسكًا برقيّة لوسي في يده.

لم يكن ديف ميتشوم يفهم جيّدًا مشاكل الهندسة والنقل، لكنّه يفهم رجالًا من أمثال كليفتون لوسي. لقد استوعب نوع اللعبة التي كان المسؤولون التنفيذيّون في نيويورك يلعبونَها، وفهم ما يفعلونه به الآن. لكنّ البرقيّة لم تأمره بإعطاء السيّد تشالمرز قاطرةً بمحرّك يشتغل بالفحم، بل ذكرت مجرّد كلمة 'محرّك'. وإذا كان هذا هو الوقت المناسب للإجابة على الأسئلة، أَفَلَنْ يقع السيّد لوسي في لهيب سخط الصدمة لأنّه كان يتوقّع أن يعلم مشرف القسم أنّ محرّك الديزل هو فقط المعنيّ بهذا التدبير؟ لقد ورد في برقيّة الأمر أنّه يجب إرسال القطار المذنّب 'بأمان'. ألم يكن مشرف القسم يتوقّع أن يعرف ما هو آمن؟ 'ودون تأخير غير ضروريّ'. فما هو التأخير غير الضروريّ؟ وإذا كان هناك احتمال لحدوث كارثة كبرى، فهل يعتبر التأخير لمدّة أسبوع أو شهر ضروريًّا؟

اعتقد ميتشوم أنّ المديرين التنفيذيّين في نيويورك لم يهتمّوا به. فهم غير مبالين بما إذا كان السيّد تشالمرز قد وصل إلى اجتماعه في الوقت المحدّد، أو بما إذا كانت كارثة غير مسبوقة ستحلّ بسككهم؛ فهم يهتمّون فقط بألّا يلقى عليهم اللوم. فإذا واصل إيقاف القطار، فإنّهم سيجعلونه كبش الفداء لإرضاء غضب السيّد تشالمرز؛ أمّا إذا أرسل القطار ولم يصل إلى بوّابة النفق الغربيّة، فسيلقون باللوم على كفاءته؛ وسيدّعون أنّه تصرّف وفق ما يخالف أوامرهم. وفي كلتا الحالتين، ماذا يمكنه أن يثبت؟ ولمن؟ فلا يمكن للمرء أن يثبت شيئًا لمحكمة ليس لديها سياسة معلنة، ولا إجراءات محدّدة، ولا قواعد أدلّة، ولا مبادئ ملزمة. وهي محكمة مثل مجلس الاتّحاد، تعلن أنّ الرجال

مذنبون أو أبرياء على النحو الذي تراه مناسبًا دون أيّ معيار للذنب أو البراءة.

لم يكن ديف ميتشوم يعرف شيئًا عن فلسفة القانون؛ لكنّه يعلم أنّه عندما لا تكون المحكمة ملزمةً بأيّ قواعد، فإنّها ليست ملزمة بأيّ حقائق، ومن ثم فإنّ جلسة الاستماع لن تكون مسألة عدالة، بل مسألة رجال، ولن يعتمد مصيرك على ما قدّمتَ من أفعال أو ما لم تقدّم، بل على مَن تعرف مِن الناس أو مَن لا تعرف. فسأل نفسه عن فرص النجاة التي سيحظى بها في مثل هذه الجلسة في مواجهة رجال من قبيل السيّد جيمس تاجارت، والسيّد كليفتون لوسي، والسيّد كيب تشالمرز وأصدقائهم الأقوياء.

لقد أمضى ديف ميتشوم حياته وهو يتملّص من ضرورة اتّخاذ أيّ قرار؛ كان يفعل ذلك منتظرًا الأوامر حول ما ينبغي القيام به. وكلّ ما سمح به الآن لدماغه هو أنين طويل وساخط ضدّ الظلم. لقد اعتقد أنّ القدر خصّه بفرصةٍ غير عادلة من الحظّ السيّئ: تمّ تأطيره من قبل رؤسائه على الوظيفة الجيّدة الوحيدة التي لم يشغلها على الإطلاق. ولم يُعلَّم قطُّ فهمَ أنّ الطريقة التي حصل بها على تلك الوظيفة والإطار، كانت أجزاء لا يمكن فصلها كلّ على حِدَةٍ.

عندما نظر في برقيّة أمر لوسي، اعتقد أنّ بإمكانه تدبّر أمر القطار المذنّب، ووصلَ عربة السيّد تشالمرز بمحرّك وإرسالها إلى النفق بمفرده. لكنّه هزّ رأسه قبل تكوين الفكرة بالكامل: كان يعلم أنّ هذا سيجبر السيّد تشالمرز على التعرّف إلى طبيعة الخطّة؛ وأنّ السيّد تشالمرز سيرفض هذه الفكرة؛ وسيستمرّ في طلب قاطرة بمحرّك آمنٍ وبمزيد من ذلك، وهذا يعني أنّه سيتعيّن على ميتشوم، تحمّل المسؤوليّة، والاعتراف بالمعرفة الكاملة بالخطر، والوقوف في العلن وتحديد الطبيعة الدقيقة للوضع، وهو الفعل الوحيد الذي استندت إليه سياسة تهرّب رؤسائه، وهو مفتاح لعبتهم.

لم يكن ديف ميتشوم من الرجال الذين يتمرّدون على خلفيّاتهم الاجتماعيّة أو يشكّكون في مبادئ المسؤولين الأخلاقيّة. ولم يكن الاختيار الذي وقع عليه هو التحدّي، ولكن الامتثال لسياسة رؤسائه. كان بإمكان بيل برنت أن يتغلّب عليه في أيّ مسابقة للتكنولوجيا، ولكنْ في هذا الموقف بالذات وجد نفسه أمام سعي يمكنه

فيه التغلّب على بيل برنت من دون جهد. ففي السابق كان هناك مجتمع يحتاج فيه البشر إلى مواهب بيل برنت الخاصّة، إن هم رغبوا في البقاء، لكنّ ما يحتاجون إليه الآن هو موهبة ديف ميتشوم.

جلس ديف ميتشوم إلى الآلة الكاتبة لسكرتيرته، وبواسطة إصبعين، كتب بعناية أمرًا إلى مدير القطار وأمرًا آخر إلى رئيس عمّال الطرق. أمر في الأوّل مدير القطار باستدعاء فوريّ لطاقم القاطرة، لغرض وصفه فقط بأنّه «**حالة طوارئ**»؛ أمّا الأمر الثاني فطلب فيه من رئيس عمّال الطرق أن يرسل إلى محطّة وينستون أفضلَ قاطرة متوفّرة بمحرّك سريع، من أجل الاستعداد للمساعدة الطارئة.

ثمّ وضع نسخًا كربونيّة من الطلبات في جيبه، وفتح الباب، ووجّه صرخة نداء حادّة إلى المرسل الليليّ وسلّمه الأمرين للرجلين في الطابق السفليّ. كان المرسل الليليّ صبيًّا صغيرًا واعيًا يثق في رؤسائه، ويعلم أنّ الانضباط هو القاعدة الأولى للأعمال بالسكك الحديديّة. لقد اندهش من رغبة ميتشوم في إرسال أوامر مكتوبة إلى موظّفين هما على مسافة درج واحد من مكتبه، لكنّه لم يطرح أيّ سؤال في هذا الخصوص.

انتظر ميتشوم بعصبيّة. وبعد فترة، رأى خيال رئيس الطريق وهو يمشي عبر الساحات نحو ورشة القاطرات. فشعر بالارتياح: فالرجلان لم يصعدا إلى مكتبه لمواجهته شخصيًّا. لقد فهما الأمر وكانا سيؤدّيان دورهما في اللعبة كما كان هو يؤدّيه.

وسار رئيس عمّال الطريق عبر الفناء، وهو ينظر إلى الأرض. كان يفكّر في زوجته وطفلَيه والمنزل الذي أمضى كلّ حياته ليمتلكه. وكان على علمٍ بما يفعله رؤساؤه، فتساءل عمّا إذا كان ينبغي عليه طاعتهم. لم يكن خائفًا من فقدان وظيفته. وبثقة رجل كفء، كان يعلم أنّه إذا تشاجر مع ربّ العمل، فسيكون في وسعه دومًا العثور على عمل آخر. لكنّ خوفًا شديدًا ينتابه الآن. إذ لم يكن لديه الحقّ في ترك العمل أو البحث عنه؛ فإذا ما تحدّى ربّ العمل، فسيتمّ تسليمه إلى سلطة دامغة لمجلس واحد، وإذا حكم المجلس ضدّه، فهذا يعني الحكم عليه بالموت البطيء بالمجاعة، وهذا يعني أيضًا منعه من أيّ عمل. كان يعلم أنّ المجلس سيحكم عليه. وكان يعلم أنّ مفتاح الغموض

المتقلّب في قرارات المجلس المتناقضة هو قوّة السحب السرّيّة. فما هي الفرصة التي سيحظى بها في مواجهة السيّد تشالمرز؟ كان هناك زمن تطلّبت فيه المصلحة الذاتيّة لأصحاب العمل أن يمارس عمله بأقصى قدرته. لكن الآن، لم تعد القدرة هي المطلوبة. وكان هناك زمن يُطلب منه فيه بذل قصارى جهده ومكافأته وفقًا لذلك. أمّا الآن، فلا يمكنه إذا حاول اتّباع ضميره أن يتوقّع شيئًا سوى العقاب. كان هناك زمن توقّع منه أن يفكّر فيه. أمّا الآن، فهم لم يريدوا منه أن يفكّر، هم يريدون منه أن يطيعهم فقط. ما عادوا يرغبون في أن يكون له ضمير بعد الآن. ثمّ لماذا يرفع صوته؟ ومن أجل مَن؟ ثمّ فكّر في الركّاب، في ثلاثمائة راكب على متن القطار المذنّب. وفكّر في طِفْلَيْه. كان له ابنٌ في المدرسة الثانويّة وابنة شابّة بعمر تسعة عشر عامًا، وكان فخورًا بها بشدّة، إذ اعتُرِف بها على أنّها أجمل فتاة في المدينة. وسأل نفسه عمّا إذا كان بإمكانه تسليم طِفْلَيْه لمصير أطفال العاطلين عن العمل، كما رآهم في المناطق الموبوءة، في المستوطنات حول المصانع المغلقة وعلى طول خطوط السكك الحديديّة المتوقّفة. لقد رأى، في رعب مذهل، أنّ الاختيار الذي كان عليه أن يتّخذه يقع الآن بين حياة طِفْلَيْه وحياة الركّاب على متن القطار المذنّب. وصراع من هذا النوع لم يكن ممكنًا من قبل. فمن خلال حماية سلامة الركّاب، يحصل على أمن طِفْلَيْه. وهو يخدم أحدهما بخدمة الآخر؛ ولم يكن هناك تضارب في المصالح، ولا يستدعي الأمر أيّ ضحايا. وإذا أراد إنقاذ الركّاب الآن، فعليه أن يضحّي بِطفْلَيه. لقد تذكّر بذكاء الخُطَبَ التي سمعها عن جمال التضحية بالنفس، وعن فضيلة التضحية بأعزّ الناس من أجل الآخرين. ولم يكن يعلم شيئًا عن فلسفة الأخلاق؛ لكنّه تعلّمها فجأةً، لا عن طريق الكلمات، بل في شكل ألم غامض وغاضب ووحشيّ، وتعلّم أنّه إذا كانت هذه فضيلة، فهو لا يريد أيّ جزء منها.

ثم دخل ورشة القاطرات وأمر بإعداد قاطرة كبيرة قديمة تعمل باحتراق الفحم لتكون جاهزة للالتحاق بمحطّة ونستون.

ثمّ وصل مدير القطار إلى مكتب المراسل لاستعمال الهاتف، واستدعاء طاقم قاطرة المحرّك حسب الطلب. لكنّ يده توقّفت ما إن رفع السمّاعة. لقد صدم فجأة بأنّ

استدعاءه للرجال قد يكون سببًا في وفاتهم، وأنّ حياة العشرين شخصًا الذين جاءت أسماؤهم في الورقة التي كانت أمامه، ستنتهي بوفاة اثنين على الأقلّ بسبب اختياره. وراوده إحساس بالبرد لا أكثر ولا أقلّ. لم يكن يشعر بالقلق، بل شعر فقط بحيرة عابرة. لم تكن وظيفته دعوة الناس إلى الموت؛ بل الاتّصال بهم لكسب رزقهم. وكان يعتقد أنّ ذلك أمر غريب. ومن الغريب أكثر أن تتوقّف يده. والأمر الذي جعلها تتوقّف يشبه شيئًا كان لا بدّ له أن يشعر به منذ عشرين عامًا، لكنّه اعتقد أنّ الغريب في الأمر هو شعوره بذلك قبل شهر واحد فقط، وليس منذ مدّة طويلة.

كان في الثامنة والأربعين من عمره. لم تكن له عائلة، ولا أصدقاء، أو أيّ روابط مع أيّ كائن حيّ في العالم. ومهما تكن قدرة التفاني التي يمتلكها، أي تلك القدرة التي يبدّدها الآخرون في مشاغل عشوائيّة عديدة، فإنّه قد وهبها بالكامل لشخص أخيه الصغير، ذاك الذي يصغره بخمسة وعشرين عامًا، والذي كان قد ربّاه وعلّمه مثل ابنه. لقد أرسله إلى كلّيّة العلوم التكنولوجيّة، وكان يعلم، مثلما هي الحال مع جميع أساتذة أخيه، أنّ هذا الصبيّ يتمتّع بالذكاء والعبقريّة. وبنفس التفاني ذي المسار الواحد مثل شقيقه، لم يهتمّ الصبيّ بأيّ شيء سوى دراسته، ولم يخصّص هواياته للرياضة أو الحفلات أو الفتيات، بل كرّس حياته فقط لرؤية الأشياء التي كان سيبتكرها من موقع المخترع. ثمّ تخرّج من الكلّيّة والتحق بمختبر أبحاث يهتمّ اهتمامًا عظيمًا بالكهرباء في ولاية ماساتشوستس، وبراتب غير عاديّ لا يتناسب مع عمره.

ثمّ تذكّر مدير القطار أنّ ذلك اليوم هو الثامن والعشرون من مايو، وأنّه بتاريخ 1 مايو أُصدِر الأمر التوجيهيّ رقم 289-10، وأنّ في مساء يوم 1 مايو/ أيار بلغه خبر انتحار شقيقه.

سمع مدير القطار حينها أنّ ذلك القانون ضروريّ لإنقاذ البلاد. ولم يكن يعلم ما إذا كان ذلك صحيحًا أم لا. إذ لم تكن لديه طريقة لمعرفة ما هو ضروريّ لإنقاذ البلاد. لكنّه كان مدفوعًا بشعور لا يستطيع التعبير عنه، فدخل إلى مكتب رئيس التحرير بالصحيفة المحلّيّة وطالبهم بنشر قصّة وفاة شقيقه. يجب أن يعرف الناس ذلك، كان

هذا كلّ ما يمكنه تقديمه على أنّه سبب. ولم يقدر على توضيح أنّ الروابط الذهنيّة المكدّسة في عقله قد شكّلت الاستنتاج الخالي من الكلمات وأنّه إذا تمّ ذلك بإرادة الشعب، فيجب على الناس أن يعرفوا؛ ولم يصدّق أنّه سيفعل ذلك لو علموا بالأمر. لكنّ رئيس التحرير رفض؛ لقد صرّح أنّ مثل تلك القصّة ستضرّ بمعنويّات البلاد.

لم يكن مدير القطار يعرف شيئًا عن الفلسفة السياسيّة. لكنّه كان يعلم أنّ تلك هي اللحظة التي فقد فيها كلّ الاهتمام بحياة أيّ إنسان أو بلد، أو موت أيّ منهما.

كان يعتقد، وهو يحمل سمّاعة الهاتف، أنّه ربّما يجب عليه تحذير الرجال الذين كان على وشك الاتّصال بهم بعدما وثقوا به. لكن لم يخطر ببالهم قطّ أنّه يمكن إرسالهم إلى وفاتهم عن درايةٍ. لكنّه هزّ رأسه وقال في نفسه: كانت هذه مجرّد فكرة قديمة، فكرة العام الماضي، من بقايا الزمن الذي وثق أيضًا فيه. لا يهمّ الآن. كان دماغه يعمل ببطءٍ، وكأنّه يسحب أفكاره من الفراغ حيث لم تستجب أيّ عاطفة لتحفيزها؛ كان يتوقّع حصول مشكلة إذا حذّر أيّ شخص، وسيكون هناك نوع من القتال، وهذا ما يحتّم عليه بذل بعض الجهد لكي يبدأ القتال. لقد نسي الشيء الذي من أجله أثار بداية هذا النوع من القتال. هل هي الحقيقة؟ أم العدالة؟ أم حبّه لشقيقه؟ فلم يرغب في بذل أيّ جهد. كان مرهقًا واعتقد أنّه إذا حذّر جميع الرجال المدرجين في قائمته، فلن يكون هناك مَن سيدير ذلك المحرّك. وهكذا فإنّه سينقذ حياة شخصين ومعهم ثلاث مائة شخص على متن القطار المذنّب. لكن لا شيء تجاوب مع تلك الأرقام التي كانت في ذهنه؛ لأنّه كان ينظر إلى (الحياة) على أنّها مجرّد كلمة بلا معنى.

فرفع سمّاعة الهاتف إلى أذنه، واتّصل برقمين، واستدعى مهندسًا ورجل إطفاء لتقديم تقرير فوريّ عن العمل.

ثمّ غادرت قاطرة المحرّك رقم 306 إلى محطّة وينستون، عندما نزل ديف ميتشوم إلى الطابق السفليّ. أمرهم قائلًا: جهّزوا لي عربة تعقّبٍ، سأذهب إلى فيرماونت.

وفيرماونت هي محطّة صغيرة، تقع على بعد عشرين ميلًا شرق الخطّ. فأومأ الرجال برؤوسهم دون أن يطرحوا أيّ سؤال. ولم يكن بيل برنت بينهم. ثمّ دخل ميتشوم

مكتب برنت. وكان هذا الثاني جالسًا هناك بصمت في مكتبه، وبدا كما لو أنّه ينتظره.

قال ميتشوم: أنا ذاهب إلى فيرماونت. كانت لديهم قاطرة ديزل هناك قبل أسبوعين.. ولعلّها تحتاج إلى إصلاحات طارئة أو شيء من هذا القبيل... وأنا ذاهب لأرى ما إذا كان بإمكاننا استخدامها.

ثمّ توقّف عن الكلام، لكنّ برنت لم يقل شيئًا. فأضاف ميتشوم دون أن ينظر إليه:

ـ إنّ الطريقة التي تتراكم بها الأشياء توحي بأنّه لا يمكننا الاستمرار في إيقاف القطار حتّى الصباح. علينا أن ننتهز الفرصة. وأعتقد الآن أنّ قاطرة الديزل تلك ستفي بالغرض، ولكن هذا هو آخر ما يمكننا تجربته. لذلك إذا لم تسمع منّي أيّ ردّ خلال نصف ساعة، فوقّع على الطلب وأرسل القطار المذنّب مجرورًا بالقاطرة رقم 306.

قال برنت بهدوء: لا.

ـ ماذا تعني بـ'لا'؟

ـ لن أفعل ذلك.

ـ ماذا تقصد بأنّك لن تفعل ذلك؟ هذا أمر!

قال برنت بيقين وثبات:

ـ لن أفعل ذلك.

ـ هل ترفض الانصياع لأمري؟

ـ نعم، أنا أرفض.

ـ ولكن ليس لديك الحقّ في الرفض! ولن أجادل في ذلك. هذا ما قرّرته، إنّها مسؤوليّتي وأنا لا أطلب رأيك. فمهمّتك هي أن تطيع أوامري.

ـ هل بوسعك أن توجّه إليّ هذا الأمر كتابيًّا؟

ـ لماذا تطلب منّي ذلك، لعنك الله، هل أنت تلمّح إلى أنّك لا تثق بي؟ أنت..؟

ـ ولماذا عليك الذهاب إلى فيرماونت يا ديف؟ ألا يمكنك الاتّصال بهم هاتفيًّا بشأن قاطرة الديزل؟

ـ لن تعلّمني كيف أؤدّي عملي! ولن تجلس هناك لتسألني! سوف تبقي فمك مغلقًا وتفعل ما أمرتك به أو سأعطيك فرصة للتحدّث... إلى مجلس الاتّحاد!

كان من الصعب فكّ رموز العواطف في وجه برنت، ذلك الوجه الذي يشبه وجه راعي البقر، لكنّ ميتشوم رأى شيئًا يشبه ذعرًا لا يصدّق، كان الأمر فقط مروّعًا من خلال مشهد خاصّ به، ولا كلمات تقدر على وصفه، ولم يكن لديه أيّ نوع من الخوف، ولا نوع الخوف الذي كان ميتشوم ينتظره.

عرف برنت أنّه في صباح الغد ستكون المشكلة هي كلمته في مقابل كلمة ميتشوم. وأنّ هذا الثاني سينكر أنّه أعطى الأمر، وسيعرض دليلًا مكتوبًا على أنّ قاطرة المحرّك رقم 306 أُرْسِلَت إلى محطّة وينستون فقط 'للوقوف'، وسيقدّم شهودًا على أنّه ذهب إلى فيرماونت بحثًا عن قاطرة ديزل؛ ويدّعي أنّ الأمر صدر من بيل برين، كبير المراسلين، وأنّ كلّ المسؤولية ملقاة على عاتقه. ولن تكون قضيّة صعبة جدًّا، بل ولن تكون قضيّة عسيرة الدرس، لكنّها ستكون كافية لمجلس الاتّحاد، الذي تنسجم سياسته فقط مع سياسة عدم السماح بدراسة أيّ شيء عن كثب. وعلم برنت أنّ بإمكانه المساهمة في اللعبة نفسها وتمرير الطعم إلى ضحيّة أخرى، وكان يعلم أنّ لديه العقول الكافية لإنجاح خطّته، وأنّه يفضّل الموت على فعل ذلك.

لم يكن مشهد ميتشوم هو الذي جعله يجلس في حالة من الذعر. فهو يدرك أن لا أحد يمكنه الاتّصال به لفضح هذا الأمر وإيقافه، إذ لا يوجد أيّ إنسان في مرتبة أعلى منه في أيّ مكان على الخطّ، من ولاية كولورادو، مرورًا بمدينة أوماها وامتدادًا إلى مدينة نيويورك. فكانت ردودهم كلّهم متقاربة، وقالوا الشيء نفسه، فمنحوا ميتشوم القيادة والطريقة. كان ديف ميتشوم هو الذي ينتمي الآن إلى تلك السكك الحديديّة، أمّا بيل برنت فلم يكن كذلك.

وبما أنّ بيل برنت جمع الاستنتاجات من خلال إلقاء نظرة على بعض الأرقام المدوّنة

في الأوراق، وكذا من خلال تعقّب المسار الكامل لأيّ قسم، فقد أصبح قادرًا الآن على رؤية حياته كلّها والثمن الكامل للقرار الذي اتّخذه. هو الذي لم يقع في الحبّ حتّى تخطّى صغره. لقد كان بسنّ السادسة والثلاثين عندما وجد المرأة التي يريدها. وظلّا مخطوبين أربع سنوات؛ واضطرّ إلى الانتظار لأنّه كان لديه أمّ يعولها وأخت أرملة لها ثلاثة أطفال. ولم يكن يخاف من الأعباء، لأنّه يعرف قدرته على تحمّلها، ولم يتحمّل أيّ التزام ما لم يتأكّد من قدرته على الوفاء به. لقد انتظر، وادّخر نقوده، ووصل الآن إلى الزمن الذي شعر فيه بالحرّيّة في أن يكون سعيدًا. كان سيتزوّج خلال أسابيع قليلة، وبالتحديد في يونيو القادم. لقد فكّر في الأمر وهو يجلس بمكتبه، وينظر إلى ديف ميتشوم، لكنّ الفكرة لم تثر فيه أيّ تردّد، بل مشاعر بعيدة المدى من الندم والحزن البعيد، لأنّه يدرك قدرتَه على أن يجعلها جزءًا من تلك اللحظة.

لم يكن بيل برنت يعرف شيئًا عن نظريّة المعرفة. لكنّه يعلم أنّ الإنسان يجب أن يعيش بمفهومه العقلانيّ للواقع، وأنّه لا يستطيع التصرّف ضدّه أو الهروب منه أو إيجاد بديل له، وأنّه لا توجد طريقة أخرى ليعيشه.ثمّ نهض وقال:

ـ صحيح أنّه ما دمت أتولّى هذه الوظيفة، فإنّه لا يمكنني عصيان أوامرك. ولكن يمكنني ألّا أمتثل لأوامرك إذا استقلت. لذلك اعتبرني مستقيلا.

ـ ماذا؟

ـ أنا مستقيل اعتبارًا من هذه اللحظة.

ولكن ليس لديك الحقّ في المغادرة أيّها الوغد اللعين! ألا تعرف ذلك؟ ألا تعلم أنّني سألقى بك في السجن بسبب ذلك؟

ـ إذا كنت تريد أن ترسل إليّ مأمور الشرطة في الصباح، فسأكون في المنزل. لن أحاول الهرب، فليس لي مكان آخر أذهب إليه.

كان طول ديف ميتشوم يبلغ ستّ أقدام، ويتمتّع ببنية جسديّة تمامًا مثل بنية الملاكمين، لكنّه وقف يرتجف من الغضب والرعب أمام جسد بيل برنت الرقيق. ثمّ

قال:

ـ لا يمكنك المغادرة! ثمّة قانون يجرّم الاستقالات! ثمّة قانون! لا يمكنك أن تعصي أوامري! ولن أطردك! ولن أسمح لك بمغادرة هذا المبنى الليلة!

قال برنت وهو يسير باتّجاه الباب: هل ستكرّر هذا الأمر الذي ألقيته عليّ أمام الآخرين؟ إذا قلت لا فأنا مستقيل.

وعندما فتح الباب، سدّد ميتشوم لكمة إلى برنت حطّمت وجهه وأسقطته أرضًا. وقف مدير القطار ومدير عمّال الطريق عند المدخل المفتوح. وصرخ ميتشوم:

ـ لقد ترك العمل! لقد استقال هذا الوغد الرعديد في هذا الوقت العصيب! إنّه مخالف للقانون وجبان!

وأثناء بذله جهدًا بطيئا للنهوض من الأرض، ومن خلال غشاوة الدم المتدفّق من عينيه، نظر بيل برنت إلى الرجلين. لقد رأى أنّهما استوعبا الأمر، لكنّه رأى فيهما وجوه الرجال ذوي الآفاق المسدودة الذين لا يريدون أن يفهموا، ولم يرغبوا في التدخّل، بل كرهوه على الفور لوضعهم تحت الأضواء باسم العدالة. فلم يقل شيئًا، ثمّ نهض وخرج من المبنى.

تجنّب ميتشوم النظر إلى الآخرين. فنادى المراسل الليليّ:

ـ أنت أيّها الصبي، تعالَ إلى هنا. يجب أن تتولّى الأمر في الحال.

ومع إغلاق الباب، كرّر للصبيّ قصّة الديزل في فيرماونت، كما سردها على برنت، وأمره بإرسال القطار المذنّب مجرورًا بقاطرة المحرّك رقم 306 إذا لم يسمع منه الصبيّ أيّ جديد خلال نصف ساعة. ولم يكن الصبيّ في وضع يسمح له بالتفكير أو التحدّث أو فهم أيّ شيء. كان ينظر إلى الدم الذي يسيل على وجه بيل برنت، معبودِه المفضّل. ثمّ أجاب بنبرة حادّة: حاضر سيّدي.

وغادر ديف ميتشوم إلى فيرماونت، معلنًا ذلك أمام كلّ رجل بالساحة، وكلّ عامل تبديل وكلّ عامل نظافة رآه في الأفق، بينما كان يستقلّ عربة التعقّب التي اتّجه إليها

بحثًا عن قاطرة ديزل للقطار المذنّب.

ثمّ جلس المراسل الليليّ بمكتبه، يراقب الساعة والهاتف، ويصلّي لله بأن يرنّ الهاتف ويسمح له بالاستماع إلى السيّد ميتشوم. لكن مرّت نصف الساعة في صمت، ولم يبقَ هناك سوى ثلاث دقائق، فشعر الصبيّ برعب لم يستطع تفسيره، باستثناء أنّه لا يريد إرسال ذلك الأمر. والتفت ناحية مدير القطار ومدير عمّال الطريق، وسألهما بتردّد:

ـ لقد أعطاني السيّد ميتشوم أمرًا قبل مغادرته، لكنّني أتساءل عمّا إذا كان يجب عليّ إرساله، لأنّني... لا أراه أمرًا صائب. هو قال..

التفت مدير القطار بعيدًا؛ ولم يشعر بالشفقة: كان الصبي بنفس عمر أخيه. فقاطعه رئيس الطريق قائلًا:

ـ افعل ما أخبرك به السيّد ميتشوم. فليس من المفترض أن تفكّر..

ووقعت المسؤوليّة التي تجنّبها جيمس تاجارت وكليفتون لوسي الآن على عاتق صبيّ يرتجف من الحيرة. لقد تردّد، ثمّ دعم شجاعته بفكرة أنّ المرء لا يجب أن يشكّ في حسن نيّة مديري السكك الحديديّة وكفاءتهم.

وبما يمتلكه رجال سكّة الحديد من دقّة واعية، ولحظةَ أنهت عقارب الساعة نصف الساعة، وقّع اسمه على البرقيّة التي تأمر القطار المذنّب بالمضيّ قدمًا بالاستعانة بقاطرة المحرّك رقم 306، ونقل الأمر إلى محطّة وينستون.

فارتجف وكيل المحطّة في وينستون عندما نظر إلى الأمر، لكنّه لم يكن الرجل الذي يتحدّى السلطة. فأخبر نفسه بأنّ النفق قد لا يكون خطرًا كما يعتقد. فقال في نفسه إنّ أفضل سياسة هذه الأيّام هي عدم التفكير.

وعندما سلّم موصّلَ القطار المذنّب وسائقَه نسختَيهما من الأمر، نظر المراسل ببطء في أرجاء الغرفة، من وجه إلى وجه، ولفّ قطعة الورق، ووضعها في جيبه وخرج دون أن ينبس بأيّ كلمة.

وقف سائق القطار ينظر إلى الورقة لحظةً ثمّ رماها وقال: لن أفعل ذلك. إذا بلغ

الأمر حدًّا تتلقّى فيه السكك الحديدة مثل هذه الأوامر، فإنّني لن أعمل فيها. أدرجني في قائمة المستقيلين.

صرخ وكيل المحطّة: ولكن لا يمكنك المغادرة! سيقبضون عليك بسبب ذلك!

قال سائق القطار: لهم ذلك إذا عثروا عليّ.

وخرج من المحطّة نحو ظلام الليل الجبليّ الشاسع. وكان سائق القطار، الذي أحضر القاطرة رقم 306 من قسم سيلفر سبرنقز، يجلس في زاوية الغرفة. وقال وهو يضحك: إنّه جبان.

فالتفت إليه وكيل المحطّة وقال: هل بإمكانك أن تفعل ذلك يا دجو؟ هل ستقود القطار المذنّب؟

كان دجو سكوت في حالة سُكْر. لقد مرّت على رجال سكك الحديد أزمانٌ تحال فيها تقارير بتُهَم الإخلال بالواجب وعقوبة تصل إلى الطرد على أيّ شخص تبدو عليه علامات السُكْرِ. لكن دجو سكوت كان شخصًا ذا امتيازات ويعاملونه معاملة خاصّة. لقد فُصِل قبل ثلاثة أشهر بسبب مخالفة قواعد السلامة، ممّا تسبّب في حادث تحطّم كبير؛ لكنّه أعيد إلى وظيفته قبل أسبوعَين بأمر من مجلس الاتّحاد. كان صديقًا لفريد كينان؛ يحمي مصالحه في نقابته، لا ضدّ أرباب العمل، بل ضدّ أعضاء النقابة.

ردّ دجو سكوت: بالتأكيد، سأقود القطار المذنّب. وسأكمل عبور النفق إن سرت بالسرعة الكافية.

وبقي رجل الإطفاء بالقاطرة رقم 306 في عربة محرّكه. ثمّ نظر إلى أعلى بشكل غير مريح عندما جاؤوا لتحويل عربة محرّكه إلى مؤخّرة المذنّب؛ نظر إلى أضواء النفق الحمراء والخضراء، معلّقةً على بعد مسافة تفوق عشرين ميلًا من المنحنيات. لكنّه كان عاملًا هادئًا ولطيفًا، ممّا جعل منه رجل إطفاء جيّد ولم يكن لديه أيّ أمل في الارتقاء إلى مستوى قيادة القطارات؛ وكانت عضلاته القويّة هي رصيده الوحيد. كان على يقينٍ من أنّ رؤساءه يعلمون ما يفعلونه، لذلك لم يغامر بطرح أيّ أسئلة.

وقف الموصّل عند الطرف الخلفيّ من القطار المذنّب. فنظر إلى أضواء النفق، ثمّ إلى السلسلة الطويلة لنوافذ قطار المذنّب. لقد أضيء عدد قليل منها، ولكنّ معظمها لم يظهر غير توهّج أزرق ضعيف للمصابيح الليليّة التي تحجب الستائر المنخفضة. وظنّ أنّه يجب أن يوقظ الركّاب ويحذّرهم. لقد مرّت الشركة بزمنٍ وَضَعَ كلّ عاملٍ بها سلامة الركّاب فوق سلامته، لا بسبب حبّه لبني جلدته من البشر، ولكن لأنّ تلك المسؤوليّة كانت جزءًا من وظيفته، التي قبلها ووجد فخرًا في تحقيقها. أمّا الآن، فهو يشعر باللّامبالاة والازدراء، بل بغياب أدنى رغبة في إنقاذهم. وكان يعتقد أنّ هؤلاء الناس طالبوا بالأمر التوجيهيّ رقم289-10 وقبلوا به واستمرّوا في العيش وهم يبتعدون يوميًّا تهرّبًا من نوع الأحكام التي كان مجلس الاتّحاد يمرّرها على الضحايا العزّل. فلماذا لا يبتعد عنهم الآن؟ فإذا أنقذ حياتهم، فلن يتقدّم أحدهم للدفاع عنه عندما يدينه مجلس الاتّحاد بتهمة عصيان الأوامر، وإثارة الذعر، وتأخير السيّد تشالمرز. لم يكن يرغب في أن يكون شهيدًا من أجل السماح للناس بالانغماس بأمانٍ في شرّهم غير المسؤول.

وعندما حانت اللحظة، رفع فانوسه وأشار إلى سائق القطار بالبدء.

قال كيب تشالمرز لـليستر تاك مزهوًّا بالانتصار، ما إن اهتزّت العجلات تحت أقدامهما وسيرها إلى الأمام: ألا ترى؟ الخوف هو الوسيلة العمليّة الوحيدة للتعامل مع الناس.

وضغط الموصّل على دوّاسة السرعة لتلتحق العربة الأخيرة بالركب. فلم يعد أحد يرى القطار وهو ينزل على درجات الجانب الآخر. لقد انزلق واختفى في ظلام الجبال.

وكان هناك رجل تبديل يستعدّ للضغط على المفتاح الذي سيرسل قطار المذنّب من انحيازه إلى المسار الرئيسيّ. نظر إلى القطار وهو يتّجه ببطء نحوه. فكان يشبه كرة بيضاء متوهّجة مع شعاع يمتدّ عاليًا فوق رأسه، فشعر برعدة متشنّجة ترتجف عبر السكّة تحت قدميه. كان يعلم أنّه لا يجب عليه الضغط على مفتاح التبديل. وتذكّر أحداث الليلة، التي وقعت قبل عشر سنوات، عندما خاطر بحياته أثناء وقوع طوفان

هائل من أجل إنقاذ قطار من الانجراف. لكنّه يعلم أنّ الزمن تغيّر. وفي اللحظة التي ضغط فيها على المفتاح ولاحظ رعشة المصباح الأماميّ بشكل جانبيّ، عرف أنّه سيكره وظيفته طوال بقيّة حياته.

وانفصل القطار المذنّب عن خطّه الجانبيّ وتحوّل إلى خطّ رفيع ومستقيم، وظلّ يسير على طول الجبال، بشعاع المصباح الأماميّ مثل ذراع ممتدّة تشير إلى الطريق، وكانت منحنيات الزجاج المضاءة في قاعة المراقبة هي التي تنهي تشغيله.

كان بعض ركّاب القطار المذنّب مستيقظين. وعندما بدأ القطار في الصعود بالتفافٍ، رأوا مجموعة صغيرة من أضواء محطّة ونستون في الجزء السفليّ من الظلام خلف نوافذهم، ثمّ شاهدوا الظلمة نفسها، ولكن بأضواء حمراء وخضراء من خلال ثقب النفق على الحافّة العلويّة من زجاج النوافذ. وظلّت أضواء محطّة وينستون تتضاءل كلّما ظهرت؛ واستمرّ ثقبُ النفق الأسودُ في النموّ بشكل أكبر. كان الحجاب الأسود يخيّم على النوافذ في بعض الأحيان، فيعتّم الأضواء، ثمّ تسرّب ذلك الدخان الثقيل من المحرّك المحترق بالفحم.

عندما اقترب من النفق، رؤوا، على حوافّ السماء في أقصى الجنوب، في فراغ من الفضاء والصخور، بقعةً من النار الحيّة الملتوية في مهبّ الريح. فلم يعرفوا ماهيتها ولم يهتمّوا أصلًا بمعرفتها.

يقال إنّ الكوارث مجرّد صدف، وثمّة مَن قال إنّ ركّاب قطار المذنّب ليسوا مذنبين أو مسؤولين عن الشيء الذي حدث لهم.

فالرجل الذي كان في غرفة النوم "أ"، بالعربة رقم 1، هو أستاذ في علم الاجتماع وكان يقول إنّ القدرة الفرديّة ليست لها أيّ عواقب، وإنّ الجهد الفرديّ لا طائل منه، وإنّ الضمير الفرديّ رفاهية غير مجدية، وإنّه لا وجود للعقل أو الشخصيّة الفرديّة أو أيّ إنجاز للإنسان، وإنّ كلّ شيء يتحقّق بشكل جماعيّ، وإنّ ما يهمّ هو الجماهير وليس الفرد.

أمّا الرجل الذي كان بالمقصورة الخاصّة رقم7، بالعربة رقم 2، فهو صحفيّ. لقد كتب أنّ من المناسب والأخلاقيّ استخدام الإكراه من أجل قضيّة عادلة، وكان يعتقد أنّ له الحقّ في إطلاق العنان لممارسة القوّة البدنيّة والمادّيّة على الآخرين لتدمير الحياة، وخنق الطموحات، وكبت الرغبات، وخرق الإدانات، والسجن، وأعمال السلب، وجرائم القتل، ومن أجل كلّ ما اختاره ليعبّر عن فكرته الخاصّة في خصوص القضيّة العادلة، والتي يجب ألّا تكون فكرةً، لأنّه لم يعرّف قطُّ ما اعتبره 'خيرًا'، لكنّه ذكر فقط أنّه أحسّ بشعور غير مقيّدٍ بأيّ معرفة، إذ اعتبر أنّ العاطفة تتفوّق على المعرفة واعتمد فقط على نواياه الحسنة وعلى قوّة البندقيّة.

وكانت المرأة التي استقلّت المقصورة الخاصة رقم10، بالعربة رقم 3، معلّمة طاعنة في السنّ تشتغل بإحدى المدارس. قضّت جلّ حياتها في تحويل أطفال فصولها العاجزين إلى جبناء بائسين، من خلال تعليمهم أنّ إرادة الأغلبيّة هي المعيار الوحيد للخير والشرّ، وأنّ الأغلبيّة قد تفعل أيّ شيء تريده، وأنّ عليهم ألّا يؤكّدوا شخصيّاتهم الخاصّة، بل أن يفعلوا ما يفعله الآخرون.

أمّا الرجل الذي حجز الغرفة 'ب' المعدّة للاستقبالات الرسميّة، بالعربة رقم 4، فكان ناشرًا لجريدة مشهورة. وهو يعتقد أنّ البشر أشرار بطبعهم وغير مؤهّلين للحرّيّة، وأنّ غرائزهم الأساسيّة، إذا تُركت من دون رادعٍ، فستتسبّب في الكذب والسرقة وقتل بعضهم بعضًا. وهكذا، يجب أن يُحكم الناس عن طريق الأكاذيب والسطو والقتل، وهي خصال لا بدّ أن تكون الامتياز الحصريّ للحكّام، لغرض إجبار البشر على العمل، وتعليمهم أن يكونوا أخلاقيّين وإبقائهم داخل حدود النظام والعدالة.

وكان الرجل الذي يرقد في غرفة النوم 'هـ'، بالعربة رقم 5، رجل أعمال قد استحوذ على منجم للخام بمساعدة قرض حكوميّ، وبموجب قانون تكافؤ الفرص.

أمّا الرجل الذي حجز الغرفة 'أ' المعدّة للاستقبالات الرسميّة، بالعربة رقم 6، فكان أحد المستثمرين الماليّين وقد حقّق ثروة من خلال شراء سندات السكك

الحديديّة المجمّدة ودفع أصدقائه في واشنطن إلى رفع التجميد عنها.

أمّا الرجل الذي يجلس في المقعد رقم 5، بالعربة رقم 7، فكان عاملًا. وهو يعتقد أنّ له الحقّ في العمل، سواء أراد صاحب العمل ذلك أو لا.

وكانت المرأة في المقصورة الخاصّة رقم 6، بالعربة رقم 8، أستاذة محاضرة اعتقدت أنّ صفة المستهلكة تمنحها الحقّ في النقل، سواء أراد أصحاب السكك الحديديّة توفيره أو لا.

وكان الرجل في المقصورة الخاصّة رقم 2، بالعربة رقم 9، أستاذًا للعلوم الاقتصاديّة، ومن بين الذين دعوا إلى إلغاء الملكيّة الخاصّة، موضّحًا أنّ الذكاء لا يلعب أيّ دور في الإنتاج الصناعيّ، وأنّ عقل الإنسان مشروط بالأدوات المادّيّة، فيمكن لأيّ شخص تشغيل مصنع أو خطّ سكّة حديد وأنّ الأمر ليس سوى مسألة استيلاء على الآلات.

أمّا المرأة في غرفة النوم 'د'، بالعربة رقم 10، فهي أمٌّ أخلدت طفليها للنوم بالسرير فوقها، بعد أن حضنتهما وحمتهما من الظلمة الحالكة والصدمات؛ هي أُمٌّ كان زوجها يشغل منصبًا حكوميًّا بتوجيهات تنفيذيّة، فدافعت عن تلك القوانين بالقول: لا أكترث بأمر تلك القوانين فهي معدّة خصّيصًا لإلحاق الأذى بالأغنياء فقط. وفي نهاية المطاف، يجب ألّا أفكّر إلّا في أطفالي.

وكان الرجل في المقصورة الخاصّة رقم 3، بالعربة رقم 11، عُصابيًّا قليلًا ومُتَقَلِّبَ المزاج. لقد كتب مسرحيّات صغيرة رخيصة أدخل فيها بعض الألفاظ النابية، كرسالة اجتماعيّة، وأدرج بجبنٍ القليلَ من البذاءة مفادُها أنّ جميع رجال الأعمال كانوا أوغادًا.

وكانت المرأة في الغرفة رقم 9، بالعربة رقم 12، ربّة منزل تعتقد أنّ لها الحقّ في انتخاب السياسيّين، الذين لا تعرف عنهم شيئًا، للسيطرة على الصناعات العملاقة التي لم تكن على علم بها.

أمّا الرجل في غرفة النوم 'ف'، بالعربة رقم 13، فكان محاميًا. لقد قال: أمّا أنا،

فسأجد طريقة للتوافق مع أيّ نظام سياسيّ.

وأمّا الرجل الذي حجز غرفة النوم 'أ'، بالعربة رقم 14، فكان أستاذًا للفلسفة. وكان يعلّم المسافرين أنّه لا وجود للعقل، فكيف عرفتم أنّ النفق خطير؟ إذا كان لا يوجد شيء اسمه حقيقة، فكيف يمكنكم إثبات وجود النفق؟ حين لا يوجد أيّ منطق فلماذا تدّعون أنّ القطارات لا يمكنها التحرّك دون قوّة دافعة؟ وحين لا توجد أيّ مبادئ فلماذا يجب عليكم الالتزام بقانون السببيّة؟ وحين لا توجد أيّ حقوق فلماذا يجب ألّا يقيَّد البشر بوظائفهم بالقوّة؟ لا وجود للأخلاق.. وما هو الأخلاقيّ في إدارة السكك الحديديّة؟ فنحن نعلم أنّنا لا نعلم شيئًا.. ولماذا تعارضون أوامر رؤسائكم؟ حين لا يمكننا أبدًا أن نكون على يقين من أيّ شيء.. وكيف تعرفون أنّكم على حقّ؟ فأنتم لا تريدون المخاطرة بأعمالكم، أليس كذلك؟

وكان الرجل الذي حجز الغرفة 'ب' المعدّة للاستقبالات الرسميّة، بالعربة رقم 15، ثريًّا ورث ثروته كبيرة، وظلّ يكرّر: لماذا يجب أن يكون ريردن الوحيد الذي يسمح له بتصنيع معدن ريردن؟

أمّا الرجل في غرفة النوم "أ"، بالعربة رقم 16، فكان إنسانيًّا فقال: وماذا تقصدون ببشر ذي قدرات خاصّة؟ لا أبالي بهم ولا بالسبب الذي يجعلهم بتلك القدرات، ولا ولا يهمّني ما إذا أُجبروا على المعاناة. يجب أن يعاقبوا من أجل دعم غير الأكفاء. وبصراحة، لا يهمّني ما إذا كان هذا عادلًا أم لا. فأنا فخور بعدم الاهتمام بمنح أيّ عدالة للقادرين حين يتعلّق الأمر برحمة المحتاجين.

كان كلّ هؤلاء الركّاب مستيقظين. ولم يكن على متن القطار أيّ إنسان لم يشاركهم في واحدة من أفكارهم أو في جلّها. وعندما دخل القطار النفق، كانت شعلة آبار وايت آخر شيء رأوه على وجه الأرض.

الفصل الثامن

باسم حبّنا

لامست الشمس قممَ الشجر على منحدر التلّ، وبدت فضيّةً تميل إلى زرقة تعانق لون السماء. وقفت داغني بباب الكوخ، وقد لامست جبهتها أشعّة الشمس الأولى، وانتشرت أميال من الغابات تحت قدميها. وتدرّجت ألوان أوراق الشجر المظلّلة للطريق أسفلها من الفضّيّ إلى الأخضر فالأزرق الدخانيّ. وتسلّل الضوء إلى أسفل من خلال الأغصان وانعكس إلى أعلى في طفرات مفاجئة عندما اصطدم بكتلة من السرخس فأصبحت مصدرًا للأشعّة الخضراء. لقد منحها المشهد متعة رؤية حركة الضوء عبر السكون حيث لا شيء آخر يمكن أن يتحرّك.

لقد وضعت علامة على تاريخ ذلك اليوم، مثلما كانت تفعل كلّ صباح على الورقة التي ثبّتتها في جدار غرفتها. كان تقدّم التواريخ على تلك الورقة هو الحركة الوحيدة في سكون أيّامها، مثل السجلّ الذي يحتفظ به السجين في جزيرة مقفرة غير مأهولة. وفي ذلك الصباح أشار التاريخ إلى 28 مايو.

كانت تنوي أن تؤدّي تلك التواريخ إلى هدف معيّن، لكنّها لم تستطع تحديد ما إذا كانت قد حقّقت ذلك الغرض أم لا. لقد أتت إلى هنا من أجل ثلاث غايات مفروضة؛ الراحة وتعلّم العيش من دون السكك الحديديّة، والتخلّص من الألم. 'أبعدي الألم عن دربك'، تلك كانت الكلمات التي استخدمتها وهي تأمر نفسها. لقد شعرت كما لو أنّها مقيّدة برجلٍ غريب جريح مهدّد بالموت ويمكن أن يصاب في أيّ لحظة بعد أيّ

هجوم قد يغرقها في صراخه. لم تشعر بالشفقة على ذلك الغريب، وإنّما شعرت فقط بنفاد الصبر والازدراء. وكلّ ما كان عليها فعله هو محاربة ذلك الغريب وتدميره، ثمّ سيكون طريقها واضحًا لتقرّر ما تريد فعله، لكنّ قتال الغريب لم يكن أمرًا سهلًا.

كانت مهمّة الراحة أسهل. إذ اكتشفت أنّها تحبّ العزلة؛ استيقظت في الصباح يحدوها شعورٌ بالثقة الغامرة وكلّ الخير، ذلك الشعور بأنّها يمكن أن تغامر وتكون مستعدّة للتعامل مع كلّ ما وجدته. لقد عاشت توتّرًا مزمنًا في المدينة لأنّها كانت تريد تحمّل صدمة الغضب والسخط والاشمئزاز والازدراء. والخطر الوحيد الذي يتهدّدها هنا هو الألم البسيط لأيّ حادث جسديّ؛ فبدا الأمر بريئًا وسهلًا بالقياس إلى تعقيدات المدينة.

كان الكوخ بعيدًا عن أيّ طريق يستعمله المسافرون. لقد ظلّ على الحالة نفسها تمامًا كما تركه والدها. فكانت تعدّ وجباتها على موقد الحطب وتجمع الخشب من سفوح التلال. ونظّفت الخمائل من تحت جدرانها، وأعادت تشكيل السقف وطلاء الأبواب وإطارات النوافذ. لقد غمرت الأمطار والأعشاب الطفيليّة والخمائل الممشى الذي كان في السابق مسارًا متدرّجًا يعلو التلّ من الطريق إلى الكوخ. أعادت بناءه، ونظّفت المدرّجات، وأعادت وضع الأحجار، ودعمت ضفاف الأرض الليّنة بجدران من الصخور. وكان من دواعي سرورها أن تستنبط أنظمة معقّدة من الروافع والبكرات قُدّت من القصاصات القديمة من الحديد والحبال، لتحريك كتل الصخور التي تتجاوز بكثير قوّتَها الجسديّة. وزرعت بضعة بذور من زهور أبو خنجر وزهور نجوم الصباح، إلى أن لاحظت انتشارًا بطيئًا لبعض الزهور الأولى فوق الأرض وتسلّقَ أخرى جذوعَ الأشجار، وشاهدت نموّها وراقبت حركتها.

لقد منحها العمل الهدوءَ الذي كانت تحتاج إليه؛ فلم تلاحظ كيف بدأت أول ماذا. بدأت من دون نيّة واعية، لكنّها رأت أنّ الأمور تتطوّر بفضل نشاط يديها، ممّا دفعها إلى التقدّم باتّجاه الأمام، ومنحها شعورًا بالشفاء. ثمّ أدركت أنّ ما تحتاج إليه هو الحركة بغاية تحقيق هدفٍ، بغضّ النظر عن مدى صغره أو وفق أيّ شكل سينجز، ذلك

الشعور بأنّ النشاط يسير خطوة بخطوة إلى نهاية مختارة عبر فترة زمنيّة. وكان نشاط طهي الطعام مثل دائرة مغلقة، مكتملة ومختلفة، لا تؤدّي إلى أيّ شيء. لكنّ أعمال بناء الممشى كانت نشاطًا حيًّا، بطريقة لم تسمح لأيّ يومٍ أن ينقضي خلفها، ولكنّ كلّ يوم كان يحتوي على كلّ ما سبقه من أنشطة، وكلّ يوم اكتسب خلوده من كلّ غدٍ ناجح. لقد اعتقدت أنّ الدائرة هي الحركة المناسبة للطبيعة المادّيّة، إذ قيل إنّه لا يوجد سوى حركة دائريّة في الكون الجامد من حولنا، ولكن الخطّ المستقيم هو وسام الإنسان، ذلك الخطّ المستقيم للتجريد الهندسيّ الذي يصنع الطرقات والقضبان والجسور، ذلك الخطّ المستقيم الذي يقطع مع اعتباطيّة الطبيعة المنحنية في منحها حركة هادفة من البداية إلى النهاية. وكانت تعتقد أنّ طهي الطعام يشبه تغذية محرّك قاطرة بالفحم من أجل تشغيل أكبر. ولكن أن تغذّي بالفحم محرّك قاطرة ليس أمامها أيّ مسار لتقطعه، ألا يعتبر فعل تعذيب غبيّ؟ وكانت تعتقد أيضًا أنّه ليس من المناسب أن تكون حياة الإنسان دائرة مغلقةً، أو سلسلة من الدوائر المتساقطة مثل الأصفار خلفه، بل يجب أن تكون حياته خطًّا مستقيمًا مفعمًا بالحركة من هدف إلى هدف أبعد، وكلّ هدف يؤدّي إلى هدف آخر وإلى خلاصة واحدة متزايدة، مثل رحلة عبر مسار السكّة الحديديّة، من محطّة إلى محطّة. ثمّ قالت في نفسها بشدّة هادئة عندما كانت تكتم أنفاس الغريب الجريح وصراخه: توقّفي عن هذا الهذيان ولا تفكّري فيه، بل انظري بعيدًا. لقد أعجبك بناء هذا المسلك فلا تنظري إلى ما وراء تلك التلّة.

لقد تنقّلت بالسيّارة مرّات عديدة إلى متجر بمدينة وودستوك، الذي كان على بعد عشرين ميلًا، لشراء حاجياتها من الطعام. وكانت مدينة وودستوك عبارة عن تجمّع سكنيّ صغير لهياكل في حالة احتضار شُيِّدَت منذ أجيال مضت لبعض الأسباب وانقطع فيها الرجاء منذ زمن بعيدٍ، إذ لا توجد سكّة حديديّة تمدّها بالأغذية، وكانت مدينة بلا كهرباء. لم تكن شيئًا سوى طريق سريعة لمنطقة يهدّدها الفراغ سنة بعد سنة.

والمتجر الوحيد كان كوخًا خشبيًّا، بزوايا أكلتها العناكب وبرقعة متعفّنة في منتصف الأرضيّة، أكلتها الأمطار التي تسرّبت من خلال الأسس المشقّقة. وكانت صاحبة

المتجر امرأةً بدينة وشاحبة، تتحرّك بجهد، ولكنّها تبدو غير مبالية بتعبها. كان مخزون الطعام عندها يتكوّن من علب ذات علامات باهتة أكلها الغبار، وبعض الحبوب، وبعض الخضروات المتعفّنة في صناديق قديمة خارج الباب.

سألتها داغني ذات مرّة: لماذا لا تبعدي هذه الخضروات عن أشعّة الشمس؟ فنظرت المرأة إليها بدهشة، وكأنّها غير قادرة على فهم إمكانيّة مثل ذلك السؤال. وأجابتها بلا مبالاة: لقد كانت دائما هناك.

وفي طريق العودة إلى الكوخ، لاحظت داغني سيول تيّار نهري جبليّ يسقط بقوّة ضارية أسفل جدار من الجرانيت الخالص، وكان رذاذه يتدلّى مثل ضباب قوس قزح في مواجهة الشمس. لقد ظنّت أنّه يمكن للمرء بناء محطّة للطاقة الكهرومائيّة هناك، محطّة كبيرة بما يكفي لتوفير الطاقة لكوخها ولمدينة وودستوك، ويمكن أن تزيد من إنتاجيّة تلك المدينة، فأشجار التفّاح القويّة التي شاهدتها بمثل تلك الأعداد غير العاديّة والتي كانت تنمو بكثافة هائلة بسفوح الجبال، هي بقايا بساتين، فقالت في نفسها: ماذا لو أنّ أحدهم طالب باستغلالها، ثمّ بنى كشكا صغيرا بجانب أقرب محطّة للسكك الحديديّة، ألا تتوقّفين عن هذا الهذيان!

أثناء رحلتها الموالية إلى مدينة وودستوك، أخبرتها صاحبة المتجر: لا كيروسين اليوم، لقد أمطرت السماء في ليلة الخميس، وعندما تمطر، لا تستطيع الشاحنات عبور ممرّ فيرفيلد، فالطريق موحلة والشاحنات قد تغرق. للأسف لن تعود شاحنة الكيروسين بهذه الطريقة حتّى الشهر القادم.

ـ لكن إذا كنتم تعرفون أنّ الطريق تغرق كلّما أمطرت، فلماذا لا تصلحونه؟

أجابتها المرأة: الطريق كانت دومًا على هذا النحو.

وفي طريق العودة، توقّفت داغني عند قمّة التلّة ونظرت إلى أسفل صوب أميال من الأرياف. لقد نظرت إلى ممرّ فيرفيلد حيث طريق تلك المقاطعة تلتفّ خلال تربة المستنقعات تحت مستوى نهرٍ محاصر في أخدود بين تلّيتن. واعتقدت أنّه سيكون من

البسيط بعث طريق من خلال تلك التلال، عبر بناء الطريق على الجانب الآخر من النهر. فالناس في وودستوك ليس لديهم ما يفعلونه ولكنّها يمكنها تعليمهم، وأخذت تخاطبهم في أغوار ذاتها: شقّوا طريقًا مباشرًا إلى الجنوب الغربيّ، ووفّروا الكثير من الأميال، ثمّ اربطوا تلك الطريق بطريق الولاية السريعة على مستوى مستودع الشحن. ثمّ استدركت وقالت في نفسها: توقّفي عن هذا الهذيان!

الآن، وضعت جانبًا مصباحها الذي كان يعمل بالكيروسين واستغنت عنه، ثمّ جلست في كوخها وسط العتمة تستمع إلى موسيقى راديو صغير محمول على ضوء شمعة خافت. فكانت تتصيّد الحفلات الموسيقيّة السمفونيّة من خلال البحث السريع عبر أثير موجات الراديو فتغيّر محطّة الإذاعة كلّما اشتعلت المقاطع الخشنة لبثّ الأخبار؛ فهي لا ترغب في سماع أيّ أخبار عن المدينة.

لا تفكّري في شركة تاجارت العابرة للقارّات، هذا ما قالته في نفسها عند أوّل ليلة لها في الكوخ، لا تفكّري فيها إلى أن تصبحي قادرةً على سماع تلك الكلمات تنطق كما لو أنّها كانت شركة جنوب الأطلس أو الشركة المتّحدة للفولاذ. ولكن مرّت الأسابيع دون أن يندمل الجرح.

لقد بدا لها الأمر كما لو أنّها تحارب قسوة عقلها غير المتوقّعة. كانت مستلقية على السرير، تحاول أن تنام، لكنّها وجدت نفسها تفكّر فجأةً في أنّ حزام النقل بمحطّة كولينغ في مدينة ويلوبيند، بولاية إنديانا، قد تآكل، وكانت قد رأته من خلال نافذة سيّارتها في رحلتها الأخيرة، وكان لا بدّ لها من إخبارهم بذلك أو فإنّهم.. وبعد ذلك كانت ستجلس وتطلق عقيرتها بالصياح قائلة: أوقفي هذا الهذيان، ثمّ ستتوقّف عن الصراخ لكنّها ستبقى مستيقظة بقيّةَ تلك الليلة.

كانت تجلس عند باب الكوخ مع غروب الشمس تشاهد حركة أوراق الشجر وهي تتمايل مع أشعّة الغسق، ثمّ تراقب شرارة اليراعات ترتفع من العشب وتومض وتتوقّف في كلّ زاوية مظلمة. كانت تومض ببطء، كما لو أنّها تحمل تحذير اللحظة. كانت تشبه أضواء الإشارات التي تومض في الليل فوق المسار. ثمّ قالت في نفسها:

توقّفي عن التفكير في كلّ هذا!

تلك كانت الأوقات التي لم تستطع فيها إيقاف كلّ ما تخشاه، تلك الأوقات التي لم تقدر فيها على الوقوف، مثلما يحدث أثناء الألم الجسديّ، من دون حدود لتمييزه من آلامها العقليّة. كانت تسقط على أرضيّة الكوخ أو على أرض الغابة وتجلس بلا حراك، وتضغط بوجهها على كرسيّ أو صخرة، وتقاوم حتّى لا تدع نفسها تصرخ بصوت عالٍ: فيبدو أمامها خطّان للسكك الحديديّة يندفعان صوب نقطة واحدة على مسافة بعيدة. والجزء الأماميّ لقاطرة المحرّك يقطع عباب الفضاء بعيدًا عن طريق حرفين يرمزان إلى شركتها، وصوت نقر العجلات في إيقاع شديد تحت أرضيّة عربتها، وتمثال نات تاجارت في ردهة المحطّة. كانت تكافح كي لا تعرف كلّ تلك الأشياء أو تشعر بها. لقد أصبح جسدها جامدًا ولكن بسبب حركة وجهها الطاحنة في مواجهة ذراعها، كانت تجذب أيّ قوّة احتفظ بها وعيها من خلال التكرار الصامت والعاديّ للكلمات: فلتنتهي هذا الأمر.

وتخلّلت تلك الأوقات فترات طويلة من الهدوء، تمكّنت خلالها من مواجهة مشكلتها بالوضوح اللطيف الذي يشبه تقييم أيّ مشكلة هندسيّة. لكنّها لم تجد أيّ جواب. وكانت تعلم أنّ شوقها اليائس إلى السكك الحديديّة سيختفي إذا أقنعت نفسها بأنّ ذلك مستحيل أو غير مناسب. لكنّ الشوق ولد من اليقين بأنّ الحقيقة والحقّ كانا في صفّها، وأنّ العدوّ كان غير عقلانيّ وغير واقعي، وأنّها لم تستطع أن تسطر لنفسها هدفا آخر أو تستدعي الحبّ لتحقيقه، بينما ضاع إنجازها الصحيح، لا بسبب قوّة عظمى، بل بسبب شرّ مقزّز غزاها عن طريق العجز.

لقد ظنّت أنّه يمكنها التَّخلّي عن السكّة الحديديّة. ويمكن أن تجد الرضا هنا، في تلك الغابة؛ لكنّها ستبني الممشى، ثمّ تصل إلى الطريق أدناه، ثمّ تعيد بناء الطريق، ثمّ تصل إلى صاحبة المتجر بمدينة وودستوك وستكون تلك هي النهاية، وسيكون الوجه الأبيض الفارغ الذي يتأمّل الكون في حالة من الفتور الراكد هو الحدّ الذي ستضعه لكلّ جهدها. فلماذا؟ ثمّ سمعت نفسها تصرخ بصوت عالٍ. لم يكن هناك جواب.

ثمّ قالت في نفسها ابقي هنا حتّى تحصلي على جواب، فأنت ليس لك مكان آخر تذهبين إليه، ولا يمكنك التحرّك، أو البدء في تقدير حقّ المرور... حتّى تعرفي ما يكفي لاختيار محطّة نهائيّة.

وتخلّلت تلك الفترة أمسيات طويلة وصامتة كانت فيها العاطفة هي التي تجعلها تجلس بثبات وتنظر إلى المسافة التي لا يمكن الوصول إليها بعيدًا عن الضوء الباهت صوب الجنوب، فتشعر بالوحدة من دون هانك ريردن. كانت تريد رؤية وجهه المتعنّت، ذلك الوجه الواثق الذي ينظر إليها بابتسامةٍ. لكنّها أدركت أنّها لا تستطيع رؤيته حتّى لحظة كسب معركتها. فلا بدّ لابتسامته أن تكون مستحقّة، لأنّها كانت مخصّصة للخصم الذي استبدل قوتّها وحوّلها ضدّه، ولم تكن موجّهة إلى البائس المتألّم الذي سيطلب الراحة في تلك الابتسامة. وهكذا فإنّه سيدمّر معناها. إنّ ريردن بإمكانه أن يساعدها على العيش؛ لكنّه لن يستطع مساعدتها في تحديد الهدف الذي ترغب في العيش من أجله.

لقد شعرت بلمسة خافتة من القلق منذ الصباح عندما وضعت علامة على تاريخ 15 مايو في تقويمها الزمنيّ. وأجبرت نفسها على الاستماع إلى نشرات الأخبار من حين إلى آخر. لكنّها لم تسمع أيّ ذكر لاسمه. كان خوفها عليه هو رابطها الأخير بالمدينة. فاستمرّت في إرسال عينيها إلى الأفق صوب الجنوب وصوب الطريق عند سفح التلّ. فوجدت نفسها تنتظر قدومه، وتنتظر سماع هدير محرّك سيّارته. لكنّ الصوت الوحيد الذي أعطاها بدايةَ أملٍ عقيمة في بعض الأحيان هو الصخب المفاجئ لرفرفة أجنحة أحد الطيور الكبيرة وهو يندفع من بين أغصان الأشجار نحو السماء.

كان هناك ارتباط آخر بالماضي، هو بمثابة سؤال لا يزال ينتظر جوابًا، ويتعلّق بكوينتين دانيلز والمحرّك الذي كان يحاول إعادة بنائه. فبحلول الأوّل من يونيو ستدين له بشيكه الشهريّ. فهل يجب أن تخبره بأنّها استقالت، وأنّها لم تعد بحاجة إلى ذلك المحرّك ولا بحاجة إلى العالم؟ هل يجب أن تخبره بأن يتوقّف ويترك بقايا المحرّك لتختفي في الصدإ ضمن كومة النفايات غير المرغوب فيها مثل تلك التي وجدته فيها؟

لكنّها لم تستطع إجبار نفسها على فعل ذلك. فالأمر بدا أصعب من مغادرة شركة السكك الحديديّة. واعتقدت أنّ ذلك المحرّك لم يكن يربطها بالماضي، بل هو رابطها الأخير بالمستقبل. وبدا إعدامه كأنّه فعل لا يشبه القتل، بل يشبه الانتحار. وسيكون أمرها بوقف إعادة بنائه بمثابة توقيعها على أنّه لم يعد يوجد أيّ مسعى لبلوغ محطّة نهائيّة.

لكنّ هذا ليس صحيحا، قالت في نفسها وهي تقف على باب كوخها، صباح ذلك اليوم من 28 مايو. فمن الخطإ الاعتقاد بأنّه ليس في المستقبل مكانٌ لتحقيق إنجاز عقلانيّ فائق. ولا يمكن أن يكون أمرًا صحيحًا أبدًا. وبغضّ النظر عن مشكلتها، سيلازمها ذلك الاعتقاد الراسخ بأنّ الشرّ غير طبيعيّ ومؤقّت. لقد شعرت بذلك على نحوٍ أكثر وضوحًا من أيّ وقت مضى في ذلك الصباح: إنّ قبح رجال المدينة وقبح معاناتها كانت حوادث عابرة، في حين أنّ الشعور المبتسم بالأمل داخلها عند رؤية غابة مغمورة بالشمس، والشعور بالوعد غير المحدود، هو الشعور الدائم والحقيقيّ.

وقفت عند الباب وهي تدخّن سيجارة. وفي الغرفة التي خلفها، كان الراديو يصدر أصواتًا لسمفونيّة من زمن جدّها. لم تكد تستمع، حتّى أصبحت واعية بانسياب الأوتار التي يبدو أنّها تعزف بتناغم واضح مع انبعاث الدخان المنحني ببطء من سيجارتها، ومع حركة ذراعها المنحنية التي تحرّك السيجارة إلى شفتيها من حين إلى آخر. فأغلقت عينيها ووقفت ثابتة، وهي تشعر بأشعّة الشمس على جسدها. لقد اعتقدت أنّ هذا هو الإنجاز، للاستمتاع بتلك اللحظة، حتّى لا تترك أيّ ذكرى للألم تُقَلِّص من قدرتها على الشعور كما تحسّ الآن؛ ومادامت تستطيع الحفاظ على ذلك الشعور، فسيكون لديها الوقود لتستمرّ.

لم تكد تعلم بالضوضاء الخافتة التي جاءت من خلال الموسيقى، مثل الخدش الذي يصيب السجلّ القديم. وأوّل شيء وصل إلى وعيها كان الهزّة المفاجئة من يدها لرمي السيجارة جانبًا. لقد جاء في اللحظة نفسها التي أدركت فيها أنّ الضجيج كان يزداد بصوت أعلى وأنّه صوت هدير محرّك. ثمّ عرفت أنّها لم تعترف لنفسها بمدى رغبتها في

سماع ذلك الصوت ومدى انتظارها هانك ريردن بيأس. فسمعت ضحكتها الخاصّة. كان الصوت منخفضًا وحذرًا على نحوٍ متواضع، كما لو أنّه لا يريد إزعاج هيكل المعدن الدوّار، فبات من الواضح، وممّا لا شكّ فيه، أنّه هدير سيّارة صاعدة بالطريق الجبليّ.

لم يكن بوسعها رؤية الطريق، فالزاوية الوحيدة التي تستطيع النظر منها هي الحقل الصغير الممتدّ تحت قوس الأغصان عند سفح التلّة، ولكنّها شاهدت السيّارة تصعد شيئًا فشيئًا، وأدركت الجهد الجبّار الذي يبذله المحرّك أثناء صعود المدرّجات وصوت احتكاك الإطارات على المنحنيات.

ثمّ توقّفت السيّارة تحت قوس الأغصان. فلم تتعرّف داغني عليها، لأنّها ليست من نوع هاموند سوداء اللون، بل كانت طويلة رماديّة ذات سقف قابل للطيّ والإزالة. ثمّ شاهدت السائق يخرج منها: كان رجلًا لا يمكن أن يكون وجوده هنا ممكنًا، إنّه فرانسيسكو دانكونيا.

فشعرت داغني بصدمة لم تكن من قبيل خيبة الأمل، لكنّها أشبه بشعور يعلن أنّ خيبة الأمل ستكون الآن غير مهمّة. كان إحساسًا بالحرص على السكون الرسميّ الغريب واليقين المفاجئ بأنّها ستواجه اقتراب شيء غير معروف وذي أهمّيّة بالغة.

وكانت سرعة تحرّكات فرانسيسكو تحمله نحو التلّ بينما يرفع رأسه ليلقي نظرة إلى أعلى، عند باب الكوخ، ثمّ توقّف. لم تستطع تبيّن التعبير الذي يرتسم على ملامح وجهه. ثمّ وقف لحظة طويلةً بلا حراك وقد رفع وجهه. ثمّ بدأ بالنزول من أعلى التلّ.

شعرت -وتقريبا كما لو أنّها كانت تتوقّع هذا الأمر- أنّ ذلك مشهدٌ مستوحًى من مشاهد طفولتهما. كان قادمًا نحوها، من دون ركض، بل يتحرّك إلى أعلى بنوع من التلهّف المنتصر الواثق. ثمّ قالت في نفسها: لا، هذا لم يحدث في أيّام طفولتنا، بل ربّما سيتحقّق في المستقبل، كما كان لها أن تراه آنذاك في الأيّام التي انتظرته فيها. بدت نظرة دقيقة إلى صباح كان يمكن أن يصلا إليه لو تحقّقت رؤيتها إلى الحياة، ولو أنّهما سارا بالطريقة نفسها التي كانت متأكّدة جدًّا من نجاحها. وقفت بلا حراك تنظر إليه وهي

متعجّبة، متّخذةً تلك اللحظة لا باسم الحاضر، بل كترحيب بماضيهما.

وعندما دنا منها بما فيه الكفاية، وأصبحت تستطيع أن تتبيّن ملامح وجهه، رأت نظرةً تعكس تلك البهجة المضيئة التي تتجاوز الإجلال بإعلان البراءة العظيمة لرجل خفيف الظلّ. كان يبتسم ويُصفّر ببعض الموسيقى التي بدت تتدفّق مثل الطيران الطويل الناعم الصاعد لخطواته. وبدا اللحن مألوفا بالنسبة إليها، فشعرت بأنّه ينتمي إلى تلك اللحظة، رغم أنّها شعرت أيضًا بوجود شيء غريب يخصّ ذلك اللحن، شيء مهمٍّ يستدعي الفهم، إلّا أنّها لم تستطع التفكير فيه الآن.

ـ مرحبًا سبيكة!

ـ مرحبًا فريسكو!

ومن خلال الطريقة التي تطلّع بها إليها، وحركةِ جفنيه السريعة أثناء إغلاق عينيه، وسحبِه الخاطف لرأسه وهو يحاول بجهدٍ أن يلتفت إلى الخلف ويقاوم عبر إرخاء شفتيه بضمورٍ، في لمحة نصفها يبتسم ونصفها الآخر عاجز، ثمّ من خلال قسوة مفاجئة أظهرتها ذراعاه عندما عانقها، عرفت أنّ كلّ ما قام به من أفعال كان لاإراديّا، وأنّه لم يقصد القيام بها. وإنّما كانت أفعالًا بمثابة حقٍّ لا يقاوم لكلّ منهما.

لم تكن الطريقة التي أمسكها بها من قبيل ذاك العنف اليائس ولا الضغط المؤلم لتقبيل فمها، ولا حتّى ذلك الاستسلام المبهج لجسده وهو يلامس جسدها، وكلّ ما لحق ذلك من أفعال لم يشكّل متعة اللحظة- كانت تعرف أنّه لا يوجد جوع جسديّ قد يجعل أيّ إنسان يتصرّف على هذا النحو- لكنّها عرفت أنّ كلّ ما قد يجلب لها المتعة هو ذلك البيان من رجلٍ ودّت لو تسمعه فيكون أعظم اعتراف بالحبّ. وبغضّ النظر عمّا فعله لتحطيم حياته، فهو لا يزال فرانسيسكو دانكونيا الذي كانت فخورة بالانتماء إلى سريره، وبغضّ النظر أيضًا عن الخيانات التي عانت منها في ذلك العالم، فإنّ نظرتها إلى الحياة كانت صحيحة، وبعضها غير قابل للتدمير، وجزء منها ما يزال بداخل فرانسيسكو. وكان الردّ أن استجاب جسدها لجسده فأمسكته بذراعيها وقبّلته واعترفت برغبتها، وباحت باعتراف لطالما منحته إيّاه.

ثمّ تذكّرت بقيّة سنواته معها بطعنةٍ من الألم عندما علمت أنّه كلّما عظمت شخصيّته، كان ذنبه أكثر فظاعة في تدمير تلك اللحظة. فانسحبت بعيدًا عنه، وهزّت رأسها، وقالت ردًّا على كلّ منهما: لا.

وقف ينظر إليها وقد نزع سلاحه، ثمّ ابتسم وقال: ليس بعدُ. فلديك أشياء كثيرة تسامحينني عليها أوّلًا. لكن يمكنني الآن أن أخبرك بكلّ شيء.

لم يسبق لها أن سمعت مثل هذا الضعف الذي يغشى صوته. كان يصارع نفسه لاستعادة السيطرة، وفي ابتسامته ما يشبه لمسة اعتذار، مثل اعتذار طفل يتوسّل الصفح والغفران، ولكنّ صوته حمَل أيضًا تسلية البالغين، ذلك التصريح الضاحك بأنّه لا داعي إلى إخفاء مقاومته، لأنّه كان يصارع سعادته بلا ألمٍ.

تراجعت عنه، بعد أن شعرت كما لو أنّ العاطفة ألقت بها على الرغم من إرادة وعيها الخاصّ، وانهالت عليها الأسئلة. إنّها تلاحقها الآن، وتتلمّس طريقها نحوها لتأخذ شكل كلمات.

ـ لماذا يا داغني، كلّ هذا التعذيب الذي عانيت منه، هنا، خلال الشهر الماضي... أجيبي بصراحة... هل تعتقدين أنّه كان بإمكانك تحمّله قبل اثني عشر عامًا؟

أجابته: لا.

ثمّ سألته: ولماذا تسأل عن ذلك؟

ـ لأستردّ اثني عشر عامًا من حياتي، تلك الأعوام التي لن أندم عليها.

سألته: وماذا تعني بذلك؟ ومن الذي أخبرك بأنّني أتعذّب هنا؟

ـ ألم تستوعبي بعد، يا داغني، أنّ بوسعي معرفة أيّ شيء عن ذلك العذاب؟

ـ كيف يمكنك ذلك يا فرانسيسكو؟ أيّ لحن كنت تدندنه بصفيرك عند قدومك من التلّ؟

ـ لماذا كنت أصفّر ذلك اللحن؟ لا أعلم.

ـ لقد كان الكونشرتو الخامس لريتشارد هالي، أليس كذلك؟

ـ أوه...

بدا فرانسيسكو مندهشًا، فابتسم لكي يسلّي نفسه، ثمّ أجاب بشكل حادٍّ: سأجيبك عن ذلك لاحقًا.

ـ كيف عرفتَ مكاني؟

ـ سأخبرك بذلك أيضًا.

ـ هل أجبرت إيدي على البوح.

ـ لم أرَ إيدي منذ أكثر من عام.

ـ كان الوحيد الذي يعلم بالمكان الذي لذت إليه.

ـ ليس إيدي من أخبرني.

ـ لم أكن أرغب في أن يجدني أيّ أحد.

أخذت تنظر إليه ببطء، فلاحظت أنّ عينيه تتأمّلان الممشى الذي بنته، والزهور المزروعة في كلّ مكان حولها، وسقف كوخها الجديد. فضحك، كما لو أنّه فهم ما فَعَلَتْه وكأنّ تلك الأفعال قد ألحقت به الأذى. فقال:

ـ ما كان عليك البقاء هنا لمدّة شهر. يا إلهي، لم يكن عليك فعل كلّ هذا! إنّه بمثابة فشلي الأوّل، في وقت لم أكن أريد أن أفشل فيه. لكن لم أعتقد أنّك مستعدّة لتقديم الاستقالة ولو أنّي عرفت ذلك لراقبتُك ليلًا نهارًا.

ـ حقًّا؟ ولماذا؟

ـ أجاب وهو يشير إلى التغييرات التي أحدثتها في الكوخ: لأجنّبك كلّ هذه المشاقّ.

ردّت بصوت منخفض: فرانسيسكو.. إذا كنت قلقًا بشأن عذابي، ألا تعلم أنّني لا أريد أن أسمعك تتحدّث عن ذلك، لأنّه..

ثمّ توقّفت عن الكلام، لأنّه لم يسبق لها أن اشتكت من شيء طوال كلّ تلك السنين،

ثمّ أضافت: لا أريد أن أسمع ذلك؟

ـ أَلِأَنّني الرجل الذي لا يملك الحقّ في التحدّث عن ذلك؟ يا داغني، إذا كنت تعتقدين أنّني لا أعرف كم آذيتُك، فدعيني أخبرك عن السنوات التي... لكنّ الأمر انتهى. أوه، يا حبيبتي، لقد انتهى كلّ شيء!

ـ هل انتهى فعلًا؟

ـ سامحيني، يجب عليّ ألّا أقول ذلك. ولن أفعل حتّى تقوليه أنت.

كان يحاول السيطرة على صوته، ولكنّ نظرة السعادة بدت خارجة عن إرادته.

ـ هل أنت سعيد لأنّني فقدت كلّ شيء عشت من أجله؟ حسنًا، سأقولها، إذا كان هذا ما جئت لسماعه: فأنت أوّل شيء فقدته، هل تروق لك الآن رؤية أنّني فقدت البقيّة؟

نظرت مباشرة إلى وجهه، فضاقت عيناه بسبب جدّيّتها الكبيرة. كانت نظرتها تحمل نوعًا من أنواع التهديد، وعلمت أنّه بغض النظر عمّا تعنيه له تلك السنوات، فإنّ كلمة "تسلية" هي الكلمة الوحيدة التي ليس لها الحقّ في نطقها.

سألها: وهل تعتقدين ذلك حقًّا؟

همست: لا...

ـ يا داغني، لا يمكننا أبدا أن نفقد الأشياء التي نعيش من أجلها. يتعيّن علينا فقط تغيير شكلها في بعض الأحيان إذا ما ارتكبنا خطأ، لكنّ الهدف يبقى كما هو، أمّا الأشكال فهي من صنعنا.

ـ هذا ما كنت أقوله لنفسي على مدى شهر. ولكن لا يوجد طريق مفتوح أمام أيّ هدف مهما كان.

فلم يجبها. جلس على صخرة بجانب باب الكوخ، وظلّ يراقبها وكأنّه لا يريد تفويت أيّ ردّ فعل قد يبدو على تقاسيم وجهها. ثمّ سألها:

ـ ما رأيك الآن في الرجال الذين استقالوا واختفوا؟

تجاهلته بابتسامة خافتة من الحزن العاجز، وجلست على الأرض بجانبه وقالت:

ـ هل تعلم أنّني كنت أعتقد في وجود أحد الأشرار المدمّرين الذين أجبروا أولئك الرجال على الاستقالة. لكن أظنّ أنّه لا وجود لذلك المدمّر. ولقد مررت ببعض اللحظات، خصوصًا في الشهر الماضي، تمنّيت فيها تقريبًا أن يقصدني أيضًا ذلك المدمّر. ولكن لم يأت أحد.

ـ ولا أحد؟

ـ لا أحد. كنت أعتقد أنّه هو من أعطاهم سببًا لا يمكن تصوّره لجعلهم يخونون كلّ شيء يحبّونه. لكنّ ذلك لم يكن ضروريًّا. فأنا أعرف طبيعة شعورهم. ولا يمكنني إلقاء اللوم عليهم بعد الآن. لكنّ ما لا أعرفه هو كيف كان وجودهم بعد ذلك، إذا كان أيّ منهم لا يزال موجودًا على قيد الحياة.

ـ هل تشعرين بأنّك خنت شركة تاجارت العابرة للقارّات؟

ـ كلّا. أنا.. أشعر بأنّني كنت سأخونها لو واصلت العمل فيها.

ـ بالطبع.

ـ وإن أنا وافقتُ على خدمة أولئك اللصوص، فإنّ من كنتُ سأخونه ...هو نات تاجارت. لكنّني لم أستطع. لم أستطع السماح لإنجازه وإنجازي بأن ينتهيا وقد صرنا لصّين مثلهم، كأنّ ذلك هدفنا النهائيّ.

ـ بالتأكيد لا يمكنك فعل ذلك. لكن ألا تسمّين هذا لامبالاة؟ ألا تعتقدين أنّك تحبّين السكك الحديديّة أقلّ ممّا كنتِ عليه قبل شهر؟

ـ أعتقد أنّني سأضحّي بعام واحد من حياتي فقط لخدمة خطّ سكك الحديد... لكن لا يمكنني العودة إلى تلك الشركة.

ـ إذَن أنت تدركين طبيعة ما شعر به جميع أولئك الرجال الذين استقالوا، وما الذي

أحبّوه عندما استسلموا.

سألته وهي تحني رأسها من دون أن تنظر إليه: فرانسيسكو، لماذا سألتني عمّا إذا كان بإمكاني التخلّي عنها قبل اثني عشر عامًا؟

ـ وهل تعرفين في أيّ ليلة أفكّر الآن؟

همست: نعم..

ـ كانت تلك الليلة التي تخلّيت فيها عن شركة دانكونيا للنحاس.

فحرّكت رأسها ببطء وبجهد طويل لإلقاء نظرة عليه. كان لوجهه التعبير الذي رأته في صباح ذلك اليوم الموالي، قبل اثني عشر عامًا: بمظهر الابتسامة، على الرغم من أنّه لم يكن يبتسم، ذلك المظهر الهادئ للانتصار على الألم، مظهر فخر الرجل بالمبلغ الذي دفعه وبما جعل الأمر يستحقّ الدفع.

قالت: لكنّك لم تتخلّ عنها ولم تستسلم. فأنت مازلت رئيس شركة دانكونيا للنحاس، هي فقط لا تعني لك أيّ شيء الآن.

ـ إنّها تعني لي الآن ما عنته لي في تلك الليلة.

ـ إذن، كيف يمكنك أن تتركها تتفتّت؟

ـ داغني، أنت محظوظة أكثر منّي، فشركة تاجارت العابرة للقارّات قطعة حسّاسة مرهفة من الآلات الدقيقة. وهي لن تستمرّ، من دونك، طويلًا. ولا يمكن تشغيلها عن طريق عمالة من العبيد. فهم سيدمرونها بشكل رحيم ولن تضطرّي إلى رؤيتها وهي تخدم اللصوص. لكنّ استخراج النحاس عمل بسيط جدًّا. وكان يمكن لشركة دانكونيا للنحاس أن تستمرّ في العمل لأجيال من اللصوص والعبيد، بفظاظة وبؤس وحماقة، ولكن كان يمكن لها أن تستمرّ أكثر وتساعدهم على الاستمرار. فكان عليّ أن أدمّرها بنفسي.

ـ ما الذي تفعله؟

- أنا بصدد تدمير شركة دانكونيا للنحاس، بوعيٍ وعن قصدٍ، عن طريق مخطّطاتي الخاصّة. يجب أن أخطّط لها بعناية وأعمل بجدّ كما لو كنت أنتج الثروة -حتّى لا أدعهم يلاحظون ذلك فيوقفونني، وحتّى لا أسمح لهم بالاستيلاء على المناجم إلى أن يفوت الأوان. فكلّ الجهد والطاقة التي كنت آمل أن أنفقها على شركة دانكونيا للنحاس، أنفقها فقط... كي لا أجعلها تنمو. سأدمّر كلّ جزء أخيرٍ منها وكلّ قرش من ثروتي وكلّ أونصة من النحاس يمكنها إطعام اللصوص. لن أتركها كما وجدتها سأتركها كما وجدها سيباستيان دانكونيا، ثمّ دعيهم يحاولوا العيش من دونه أو من دوني!

صرخت: فرانسيسكو! كيف سمحت لنفسك بأن تفعل ذلك؟

أجابها بهدوء: بفضل نعمة الحبّ الذي يشبه حبّك لشركة جدّك. فحبّي لشركة دانكونيا للنحاس هو حبّ للروح التي كانت هذه الشركة تمثّل شكلها. كانت.. وفي يوم مّا، ستكون مجدّدًا.

جلست بلا حراك، تحاول فهم جميع الآثار المترتّبة عمّا فهمته الآن، وكأنّها مخدّرة من وقع الصدمة. وفي الصمت انطلقت أنغام الموسيقى السمفونيّة من الراديو، وانتهى إلى مسامعها إيقاع الأوتار مثل وقع الخطوات البطيء الرسميّ، بينما كانت تناضل لترى التقدّم الكامل للأحداث التي وقعت لمدّة اثني عشر عامًا وتُرَاجِعَه: فرأت ذلك الصبيّ المعذّب الذي طلب الحضن منها، ثمّ ذلك الرجل الذي جلس على أرضيّة غرفة الاستقبال وهو يلعب بالكرات ويضحك على تدمير الصناعات العظيمة، ورأت الرجل الذي صرخ، حبيبتي، لا أستطيع! حين رفض مدّ يد العون إليها، ورأت أيضًا الرجل الذي شرب كأس نبيذ، في مقصورة ضئيلة الإضاءة بغرفة الحانة، على نخب السنوات التي كان على سباستيان دانكونيا الانتظار فيها...

- فرانسيسكو ... من بين كلّ التوقعات التي حاولت أن أرسمها عنك.. لم أفكّر في ذلك مطلقًا... لم أفكر قطّ أنّك أحد هؤلاء الرجال الذين استقالوا.

- بل كنت أوّل المستقلين.

ـ ولكنّي اعتقدت أنّهم يختفون دائما...

ـ حسنًا، ألم أختفِ أنا أيضًا؟ ألم يكن ذلك أسوأ ما اقترفته في حقّك عندما جعلتك تنظرين إلى فتى مستهتر رخيص لم يكن فرانسيسكو دانكونيا الذي كنت تعرفينه؟

همست: طبعا ... الأسوأ هو أنّني لم أستطع تصديق ذلك... بل لم أصدّق... لم أكن أتحدّث عن فرانسيسكو دانكونيا كلّما رأيتك..

ـ أنا أدرك ذلك. وأدرك تأثير الأمر عليك. لقد حاولت مساعدتك على الفهم، ولكن كان من السابق لأوانه إخبارك. داغني، لو أخبرتك ـ في تلك الليلة أو في اليوم الذي وقعت فيه لعنة مناجم سان سيباستيان- بأنّني لم أكن متسكّعًا بلا هدف، وأنّ ما كنت أفعله هو التسريع في تدمير كلّ شيءٍ قدّسناه معًا، وهو تدمير شركة دانكونيا للنحاس وشركة تاجارت العابرة للقارّات وشركة وايت للنفط وشركة ريردن للفولاذ، فهل كان من السهل عليك أن تتقبّلي الأمر؟

همست: من الصعب الجزم، فأنا لست متأكّدة من أنّني كنت سأتقبّل الأمر، حتّى الآن. فالتبرّؤ والتنازل ليس من طبعك أو طبعي... ولكن يا فرانسيسكو.. إذا كان هذا هو سرّك، فبحقّ الجحيم كيف تقبّلت أن أكون..

ـ أوه، طبعا يا عزيزتي، أنتِ كنت أسوأ طرف في ذلك السرّ!

كانت صرخة يائسة، رافقها صوت ضحك واعتراف بكلّ معاناة أراد أن يكنسها من ذاكرته. ثمّ أمسك بيدها وقبّلها، وحاول أن يخفي ملامح وجهه كي لا تكتشف الحالة التي كان عليها في كلّ تلك السنوات، وأضاف:

ـ إذا كان ما أفعله الآن نوعًا من التكفير عن الذنب، وإن كنت أدرك أنّه ليس كذلك... صحيح أنّني جعلتك تعانين، لكن هذه هي الطريقة التي دفعت بها الثمن... من خلال معرفة ما كنت أفعله بك ومعرفة أنّني اضطررت إلى فعل ذلك... وواصلت الانتظار، انتظرت كي... ولكن انتهى الأمر.

ثمّ رفع رأسه مبتسمًا، ونظر إليها بغموض فرأت نظرة حنان تعلو تقاسيم وجهه،

فأوحت إليها باليأس الذي رآه فيها.

ـ داغني، لا تفكّري في ذلك. لن أتّخذ أيّ معاناةٍ عذرًا. فمهما كان السبب، فقد كنت أعلم ما أفعله وأدرك أنّني آذيتك بشدّة. سأحتاج إلى سنوات للتعويض عن ذلك. انسي ما.. ما لم أقله. من بين كلّ الأشياء التي يجب أن أخبرك بها، هذا ما كنت سأقوله في نهاية المطاف.

لكنّ عينيه، وابتسامته، وقبضة أصابعه على معصمها كانت تقول ذلك ضدّ إرادته.
ـ لقد تحمّلت الكثير، وهناك الكثير الذي يجب عليك تعلّمه لفهمه حتّى تندمل كلّ ندبة من التعذيب لم يكن عليك تحمُّلها. وكلّ ما يهمّ الآن هو أنّك حرّة ومن حقّك التعافي من كلّ هذه الجروح. نحن أحرار، فكلانا تحرّرنا من اللصوص، ونحن بعيدون عن متناولهم.

ردّت بهدوء وبصوت كئيب: وهذا ما جاء بي إلى هنا لأحاول فهمه. لكنّني لم أتمكّن من ذلك. يبدو أنّ من الخطإ الجسيم تسليم العالم للصوص، ومن الخطإ الجسيم أيضًا أن نعيش تحت رحمتهم. غير أنّني لا أستطيع الاستسلام ولا العودة. ولا يمكنني العيش بلا عمل أو العمل كعبد. لطالما اعتقدت أنّ أيّ نوع من أنواع المعارك فعلٌ صائب، وأنّ القيام بأيّ شيء أمرٌ ملائمٌ ما عدا التنازل. لست متأكّدة من أنّه يحقّ لنا، أنا وأنت، الاستقالة في حين يجب علينا أن نواجههم، لكن لا توجد طريقة للمواجهة. ففي كلتا الحالتين هو استسلام إذا غادرنا، واستسلام إذا بقينا. لم أعد أعرف الصواب بعد الآن.

ـ تحقّقي من فرضيّاتك يا داغني، فالتناقضات غير موجودة.

ـ ولكن لا يمكنني العثور على أيّ إجابة. إذ لا يمكنني إدانتك بسبب ما اقترفته يداك، ولكنّني أشعر بالذعر والإعجاب في الوقت ذاته. فأنت وريث آل دانكونيا، الذي كان يستطيع تجاوز جميع أسلافه بفضل يده الخارقة التي أنتجت وأبدعت، لكنّك اختزلت قدرتك التي لا مثيل لها في مهمّة التدمير. وأنا ألعب بالحجارة المرصوفة بالحصى وأعيد بناء لوح السقف الخشبيّ للكوخ، كان نظام السكك الحديديّة العابرة

للقارّات ينهار على أيدي بعض اللوبيات المشوّهة خلقيًا، في حين كنت من النوع الذي يحدّد مصير العالم. وإذا كان هذا هو ما سمحنا به لأنفسنا، فلا شكّ أنّه حصل بسبب ذنبنا الخاصّ، لكنّني لا أستطيع تحديد طبيعة خطئنا.

طبعا يا داغني، الذنب كان ذنبنا.

ـ أَلِأَنّنا لم نعمل بجدّ كافٍ؟

ـ بل لأنّنا عملنا بجدّ، ولم نتقاض منهم سوى القليل.

ـ ماذا تعني؟

ـ نحن لم نطالب قطّ بالثمن الذي يدين لنا العالم به، وتركنا أفضل مكافآتنا تذهب إلى أسوإ البشر. لقد ارتكب الخطأ منذ قرون، من قبل **سباستيان دانكونيا ونات تاجارت** ومن قبل كلّ إنسان أطعم العالم ولم يتلقَّ أيّ شكر. ما عدتِ تعرفين ما هو عين الصواب بعد الآن؟ فالصمود ليس معركة على الأشياء المادّيّة. إنّها أزمة أخلاقيّة، بل هي أعظم ما واجهه العالم وقد تكون الأزمة الأخيرة. فعصرنا هو ذروة عصور الشرّ. ويجب علينا أن ننهيه مرّة وإلى الأبد، أو نهلك نحن أنصار العقل. لقد كان ذنبنا هو أنّنا أنتجنا ثروة العالم، لكنّنا تركنا أعداءنا يكتبون مدوّنته الأخلاقيّة.

ـ لكنّنا لم نقبل قطّ بقوانينهم. لقد عشنا بمعاييرنا الخاصّة.

ـ نعم، ودفعنا فديةً على ذلك! فدية شملت المادّة والروح. لقد ضحّينا بالمال، الذي كسبه أعداؤنا على نحو غير مستحق. وضحّينا بالشرف، الذي كنّا نستحقه، ولكن لم ننله. هذا هو ذنبنا الذي كنّا على استعداد لدفعه. لقد أبقينا البشريّة على قيد الحياة، ومع ذلك سمحنا للناس بأن يحتقرونا ويعبدوا مدمّرينا. لقد سمحنا لهم بعبادة أصحاب عدم الكفاءة والوحوش، ومتقبّلي المال غير المكتسب وموزّعيه. وسمحنا بقبول العقاب، لا جزاءً على ذنوبنا، ولكن نقمة على فضائلنا، خنّا قيمنا الأخلاقيّة وجعلنا قيمهم ممكنة. يا داغني، إنّ لهم أخلاق الخاطفين، فهم يستخدمون حبّك للفضيلة كرهينة. إنّهم يدركون أنّك ستتحمّلين أيّ شيء من أجل العمل والإنتاج، لأنّك

تعلمين أنّ الإنجاز هو أسمى هدف أخلاقيّ للإنسان، وأنّه لا يمكن أن يوجد من دونه، وأنّ حبّك للفضيلة هو حبّك للحياة. إنّهم يعتمدون عليك لتحمّل أيّ عبء، وهم يفعلون ذلك لتشعري بأنّه لا يوجد جهد كبير في خدمة حبّك. يا داغني، أعداؤك يدمّرونك بقوّتك الخاصّة. فكرمك وقدرتك على التحمّل هما أداتاهما الوحيدتان. واستقامتك غير المتبادلة هي السند الوحيد الذي يملكونه ضدّك. إنّهم يعرفون ذلك ولكنّك تجهلينه. وسيأتي اليوم الذي تكتشفين فيه أنّه هو الشيء الوحيد الذي يخشونه. يجب أن تستفيدي من الدروس، ولن تتحرّري منهم حتّى تفعلي ذلك. ولكن عندما تفعلين، ستصلين إلى تلك المرحلة من الغضب الشرعيّ الذي ستفجّرين به كلّ سكة حديديّة في شركة تاجارت العابرة للقارّات، بدلًا من السماح لها بخدمتهم!

ردّت داغني منتحبةً: ولكن أن أترك لهم الشركة! أن أتخلّى عنها... أن أتخلّى عن شركة تاجارت العابرة للقارّات... حين تكون ... هذه الشركة بمثابة الكائن الحيّ.

ـ كانت في الماضي على هذا النحو، لكن لم يعد الأمر كذلك. اتركيها لهم فهي لن تنفعهم. دعيها تذهب فنحن لا نحتاج إليها. ويمكننا إعادة بنائها أمّا هُم فلا يمكنهم فعل ذلك. سنبقى على قيد الحياة من دونها، أمّا هم فلن يكونوا قادرين على ذلك.

ـ لكنّ الأمر وصل بنا إلى الاستقالة والاستسلام!

ـ يا داغني، لقد أطلق علينا قتلة الروح البشريّة لقب «الماديّين»، نحن الوحيدين اللذين نعرف كم هي قليلةٌ قيمةُ تلك الأشياء المادّيّة ومعناها، لأنّنا نحن من نخلق قيمتها ومعناها. إذ يمكننا التخلّي عن تلك الأشياء لفترة قصيرة، من أجل أن نستبدل بها شيئًا أكثر قيمة. نحن نمثّل الروح، أمّا السكك الحديديّة، ومناجم النحاس، ومصانع الصلب، وآبار النفط فهي الجسد. إنّها كائنات حيّة تنبض ليل نهار مثل قلوبنا، لأداء الوظيفة المقدّسة لدعم الحياة البشريّة، وستظل كذلك ما بقيت هي جسدنا، وما بقيت هي التعبير والمكافأة وخصائص الإنجاز. ومن دوننا، فهي مجرّد جثث ومنتجها الوحيد هو السمّ، وليس الثروة أو الغذاء، سمّ التفكّك الذي يحوّل البشر إلى جحافل من الزبّالين. داغني، تعلّمي كيفيّة فهم طبيعة قوّتك الخاصّة

وستفهمين المفارقة التي تشاهدينها الآن من حولك. لست مضطرّة إلى الاعتماد على أيّ ممتلكات مادّيّة، بل تلك الممتلكات هي التي تعتمد عليك، لأنّك أنت من أوجدها، وأنت من تمتلكين أداة الإنتاج الوحيدة. أينما كنت، ستتمكّنين دائمًا من الإنتاج. لكنّ اللصوص -من خلال نظريّتهم المعلنة- في حاجة ماسّة إلى المادّة العمياء. لماذا لا تأخذين كلامهم حجّةً ضدّهم؟ فهم بحاجة إلى سكك الحديد والمصانع والمناجم والمحرّكات، ولكن لا يمكنهم صنعها أو تشغيلها. فما فائدتهم من استخدام سكك الحديد من دونك؟ ومن يتحمّل أعباءها مجتمعة؟ ومن يبقيها على قيد الحياة؟ ومن يستطيع إنقاذها مرارًا وتكرارًا؟ هل كان أخوك جيمس؟ من أطعمه؟ ومن أطعم اللصوص؟ ومن أنتج أسلحتهم؟ ومن أعطاهم الوسائل لاستعبادك؟ إنّه المشهد المستحيل لمن هم أقزام غير أكفاء ويسيطرون على المنتجات العبقريّة، فمن جعل مثل هذا المشهد ممكنًا؟ ومن الذي دعم أعداءك، أولئك الذين وضعوا الأغلال في يديك، ودمّروا كلّ إنجازاتك؟

ثمّ انتصبت داغني واقفةً باستقامة في حركة تشبه الصرخة الصامتة. فنهض فرانسيسكو على نحوٍ مفاجئ مثل زنبرك مفكوك، وقال بصوت انتصار لا يرحم:

ـ إنّها بداية إدراكك للحقيقة، أليس كذلك؟ داغني! اتركي لهم تلك السكك الحديديّة، واتركي لهم جميع القضبان الصدئة والدعائم المتعفّنة والمحرّكات المحطّمة، ولكن لا تتركي لهم عقلك! لا تتركي لهم عقلك! فمصير العالم يعتمد على هذا القرار!

ثمّ صدر صوت مذعور لمذيع بالراديو يشبه صوت حاملٍ في المخاض، وقطع البثّ على إيقاع أوتار السيمفونيّة قائلا: سيّداتي وسادتي، نقطع هذا البثّ لنقدّم لكم نشرة إخباريّة خاصّة. لقد وقعت أكبر كارثة في تاريخ السكك الحديديّة في الساعات الأولى من الصباح على الخطّ الرئيسيّ من **شركة تاجارت العابرة للقارّات**، في محطّة وينستون، بولاية كولورادو، أدّت إلى هدم نفق تاجارت الشهير!

فبدا صراخها يشبه الصرخات التي اندلعت في اللحظة الأخيرة في ظلام النفق. أمّا فرانسيسكو فاحتفظ بصوته في داخله خلال بقيّة البثّ، إذ هرعا كلاهما إلى الراديو في

الكوخ ووقفا، يتقاسمان الرعب، وعيناها تحدّقان في الراديو، بينما عيناه تراقبان وجهها.

ـ لقد تمّ الحصول على تفاصيل القصّة من **لوقا بيل**، رجل إطفاء الخطوط الرئيسيّة الفاخرة للقطار المذنّب بشركة تاجارت، وقد وُجِد فاقدًا الوعيَ في البوّابة الغربيّة للنفق هذا الصباح، ويبدو أنّه الناجي الوحيد من الكارثة. ومن خلال بعض المخالفات المذهلة لقواعد السلامة في ظروف لم تُحدَّد بالكامل بعدُ تمَّ إرسال القطار المذنّب، المتّجه غربًا إلى سان فرانسيسكو، إلى النفق مع قاطرة بخاريّة تعمل بحرق الفحم. ونفق تاجارت هذا، هو عبارة عن ثقب يبلغ طوله ثمانية أميال، يقطع قمّة جبال الروكي ويعتبر إنجازًا هندسيًّا لا يضاهيه أيّ شيء في عصرنا، تمّ بناؤه بواسطة الحفيد **ناثانيل تاجارت** في العصر العظيم لمحرّك الديزل الكهربائيّ النظيف بلا دخان. لم يكن نظام التهوية في النفق مصممًا للدخان الثقيل أو أيّ أدخنة من القاطرات التي تشتغل باحتراق الفحم، وكان من المعلوم لكلّ موظّف بالسكك الحديديّة في المنطقة أنّ إرسال قطار إلى النفق بمثل تلك القاطرة يعني الموت بسبب اختناق الجميع على متنها. وفي مخالفة لهذه القاعدة أُصدر الأمر بانطلاق سير القطار المذّنب. ووفقًا لرجل الإطفاء الناجي من هذه الكارثة، فقد بدأ الشعور بآثار الأدخنة عندما كان القطار على بعد حوالي ثلاثة أميال داخل النفق. لقد ترك سائق القطار جوزيف سكوت الخانق على مصراعيه، في محاولةٍ يائسة لاكتساب السرعة، لكن المحرّك القديم البائس لم يكن متلائمًا مع وزن القطار الطويل والمرتفع في المسار. وأثناء مواجهة الدخان السميك، لم يكد سائق القطار ورجل الإطفاء تمكّنان من دفع المراجل البخاريّة المتسرّبة بسرعة تصل إلى أربعين ميلا في الساعة عندما قام بعض الركّاب، من دون شكّ بسبب ذعر الاختناق، بسحب سلك فرامل الطوارئ. ويبدو أنّ الهزة المفاجئة للتوقّف حطّمت خرطوم الهواء الخاصّ بالمحرّك، إذ تعذّر بدء تشغيل القطار مجدّدًا. لقد كانت هناك صرخات قادمة من العربات. وكان الركّاب يكسرون النوافذ. فناضل سائق القطار سكوت بشكلٍ محموم لتشغيل المحرّك، لكنّه انهار بسبب الأدخنة. فقفز الإطفائيّ بيل

من المحرّك وركض. كان على مرأى من البوّابة الغربيّة، عندما سمع دويّ الانفجار، وهو آخر شيء يتذكّره. ولقد جُمِعَتْ بقيّة القصّة من موظّفي السكك الحديديّة في محطّة ونستون. ويبدو أنّ هناك قطار شحن خاصًّا تابعًا للجيش، كان متّجهًا غربًا، على متنه حمولة ثقيلة من المتفجّرات، لم يتمّ تحذيره من وجود قطار المذنّب بالمسار أمامه. لقد واجه كلا القطارين تأخيرات وانتهى أجل وصولها. ويبدو أنّ قطار الشحن الخاصّ بالجيش تلقّى أوامر بالمضيّ قدمًا بغضّ النظر عن الإشارات، لأنّ نظام إشارة النفق كان خارج الخدمة. ويقال إنّه على الرغم من أنظمة السرعة، وبالنظر إلى الأعطال المتكرّرة لنظام التهوية، فقد كان العرف الضمنيّ بين جميع سائقي القطارات هو السير بأقصى سرعة أثناء وجودهم في النفق. ويبدو أنّ القطار المذنّب تعطّل بعد النقطة التي أنشئ فيها منحنى حادّ داخل النفق. ويعتقد أنّ جميع من كانوا على متنه ماتوا في ذلك الوقت. ومن المشكوك فيه أنّه كان لسائق قطار الشحن الخاصّ -وهو يمرّ بذلك المنحنى بسرعة ثمانين ميلًا في الساعة- أن يرى في الوقت المناسب نافذة المراقبة لآخر عربة بالقطار المذنّب، والتي كانت مضاءة بشكل ساطع عندما غادرت محطّة وينستون. وما هو معلوم حتّى الآن هو أنّ قطار الشحن الخاصّ قد ارتطم بالجزء الخلفيّ من القطار المذنّب. وقد طال انفجار الشحنة الخاصّة بعض النوافذ في مزرعة على بعد خمسة أميال وأسقط كتلًا صخريّة على النفق فلم تتمكّن فرق الإنقاذ من التدخّل بعد الوصول إلى مسافة ثلاثة أميال من المكان الذي كان فيه القطار. ولا يُتوقّع العثور على أيّ ناجين، أو أنّه يمكن إعادة بناء نفق تاجرت.

وقفت داغني بثباتٍ. وبدت كأنّها ترى بعيدًا عمّا حدث في كولورادو، باستثناء الغرفة من حولها، فهي لم تكن تراها. كان بحركتها السريعة المفاجئة نوعٌ من التشنّج. والتفت بعقلانيّة النائم الماشي لتلتقط حقيبة يدها، كما لو أنّها هي الشيء الوحيد الموجود أمامها فاستولت عليه، ثمّ توجّهت صوب الباب وركضت.

صرخ فرانسيسكو: داغني!لا تعودي إليهم!

لم يكن للصرخة ما يكفي من قوّة كي تصل إليها، وكأنّه يتّصل بها عبر أميال بينه

وبين جبال كولورادو.

ثمّ ركض خلفها، وأمسك بها من مرفقيها وصرخ: لا ترجعي يا داغني! باسم أيّ شيء مقدّس عزيز عليك لا تعودي إلى هناك!

بدت وكأنّها تجهل من هو. فبقياس القوّة البدنيّة، كان يمكنه كسر عظام ذراعيها من دون جهد. ولكنّها أظهرت قوّةَ كائنٍ حيّ يقاتل من أجل الحياة، فسلّت نفسها بعنف إلى درجة أنّها ألقت به فاختلّ توازنه لحظةً. وعندما استعاد توازن قدميه، كانت هي تجري على التلّة، وتركض كما ركض هو على صوت صفّارة الإنذار في مطاحن ريردن. كانت تجري باتّجاه سيّارتها.

***

كانت رسالة استقالته موضوعة على الطاولة التي تقف أمامه، وقد جلس جيمس تاجرت يحدّق فيها، وهو منحنٍ بكراهية. شعر كما لو أنّ عدوّه كان قطعة من الورق، وليست الكلمات الموجودة عليها، بل الورقة والحبر الذي أعطى تلك الكلمات بعدًا مادّيًا. لطالما اعتبر الأفكار والكلمات غير حاسمة، ولكنّ الشكل المادّيّ هو الذي جعله يقضّي حياته دائما في الهروب منه: أي الهروب من الالتزام.

لم يكن قد قرّر الاستقالة، ففي الحقيقة لم يعتقد أنّه سيفعل ذلك؛ لقد أملى الرسالة بدافع حدّده لنفسه فقط وهو أنّه سيستعملها إذا بدا له أنّها شكل من أشكال الحماية. لكنّه لم يوقّعها بعدُ، وكانت تلك هي حمايته في وجه حماية أخرى. لقد وجّه الكراهية إلى كلّ ما جعله يشعر بأنّه لن يتمكّن من الاستمرار في تمديد هذه العمليّة لفترة أطول.

لقد تلقّى نبأ الكارثة في الساعة الثامنة من صباح اليوم. وبحلول الظهر، وصل إلى مكتبه. فأخبره حدسه، الذي استشفّه من أسبابٍ كان يعرفها لكنّه بذل كلّ جهده لتجنّب معرفتها، بأنّه يجب أن يكون هناك هذه المرّة.

فالناس الذين كانوا من بين أوراقه المميّزة -في لعبة يعرف كيف يلعبها- قد رحلوا. وكان كليفتون لوسي متحصّنًا وراء تصريح لطبيب أعلن أنّ السيّد لوسي يعاني من

حالة مرضيّة تمسّ القلب ممّا يجعل من المستحيل إزعاجه في الوقت الحاضر. وقد قيل إنّ أحد مساعدي تاجارت غادر إلى بوسطن في الليلة الماضية، وقيل أيضًا إنّه تمّ استدعاء الآخر بشكل غير متوقّع إلى مستشفى غير مسمّى ووضع إلى جانبه أبٌ لم يشكّ أحدٌ على الإطلاق في أنّه والده. ولم يكن هناك أيّ جواب في منزل كبير سائقي القطارات. وبالإضافة إلى ذلك تعذّر العثور على نائب الرئيس المسؤول عن العلاقات العامّة.

وأثناء قيادة سيّارته عبر الشوارع في اتّجاه مكتبه، رأى تاجارت الأحرف السوداء للعناوين الرئيسيّة بالصحف. وعندما كان يسير في ممرّات شركة تاجارت العابرة للقارّات، استمع إلى صوت الراديو في مكتب أحد الموظّفين، وهو نوع الصوت الذي يتوقّع المرء سماعه في زوايا الشوارع غير المضاءة: كان يصرخ مطالبًا بتأميم السكك الحديديّة.

كان يسير عبر الممرّات، بوقع شديد لكي يلاحظ الموظّفون وجوده، وبعجلة لكي لا يتمّ إيقافه فتنهال عليه الأسئلة. ثمّ أغلق باب مكتبه، وأمر سكرتيره بعدم قبول أيّ شخص أو أيّ مكالمة هاتفيّة وإخبار جميع القادمين بأنّ السيد تاجارت مشغول.

ثمّ جلس بمكتبه وحيدًا، وقد أحاط به رعب الفراغ. فشعر وكأنّه محاصرٌ في قبو جوفيّ وأنّ القفل لا يمكن أبدًا كسره مجدّدًا، وكأنّه عُرض على مرأى من المدينة بأكملها أدناه، وعلى أمل أن يستمرّ القفل مغلقًا إلى الأبد. كان عليه أن يكون هناك في ذلك المكتب. وكان مطلوبًا منه أن يجلس مكتوف اليدَيْن وينتظر. ينتظر أن ينزل المجهول عليه ويحدّد أفعاله، وكان مصدر الرعب متأتّيًا من أمرين؛ الأمر الأوّل هو هوية من سيأتي طلبًا لزيارته، والثاني حقيقة أن لا أحد جاء للقائه ولا أحد أخبره بما عليه أن يفعل.

ثمّ رنّت الهواتف في المكتب الخارجيّ، فبدت وكأنّها صرخات لطلب المساعدة. فنظر إلى الباب وهو يشعر بالانتصار الحادّ على فكرة أنّ كلّ تلك الأصوات هُزِمت من قبل شخصيّة سكرتيره المسالم، وهو شابّ خبير لا يتقن شيئًا سوى فنّ التهرّب، الذي

مارسه بمرونة عرجاء يحملها إنسانٌ لاأخلاقيّ. كانت الأصوات، كما اعتقد تاجارت، قادمة من ولاية كولورادو، ومن كلّ مركز بنظام تاجارت، ومن كلّ مكتب يحيط به المبنى. وكان في مأمن مادام غير مضطرّ إلى سماعها.

كانت عواطفه قد انسحبت داخله في كرة ثابتة صلبة وغير شفّافة، ومن الصعب اختراقها من قبل الناس الذين يديرون نظام شركة تاجرت؛ فهؤلاء كانوا مجردّ أعداء يجب خداعهم. أمّا اللسعات الأكثر حدّة من الخوف فكان مصدرها طريقة تفكير رجال مجلس الإدارة. لكنّ رسالة استقالته كانت بمثابة هروبه من النار، وتركهم عالقين فيها. أمّا مصدر خوفه الأكبر فكان طريقة تفكير رجال واشنطن. لأنّهم إذا اتّصلوا به، فعَلَيه أن يجيب. وحينها سيعرف سكرتيره الليّن الأصواتَ التي تلغي أوامره وتحلّ محلّها. لكن لا أحد اتّصل من واشطن.

لقد اخترقه الخوف على شكل تشنّجات من حين إلى آخر، وترك فمه جافًّا. لم يكن يعرف ما يخيفه، بل عرف أنّ مصدر خوفه ليس ما يمثّله مكبّر الصوت اللّاسلكيّ من تهديد. فما مرّ به من صوت مزمجر شبيه بالرعب الذي عاشه، لأنّه توقّع أن يشعر به، كان رعب الواجب، بشيء يتماشى مع موقعه، مثل بدلات مصمّمة بشكل جيّد ومثل خطب مآدب الغداء. ولكن في ظلّ تلك الظروف، كان يشعر بأمل ضئيل ومتسلسل وسريع مثل مسار الصرصور: فإذا اتّخذ هذا التهديد شكلا واضح المعالم، فإنّه سيحلّ كلّ شيء، وينقذه من اتّخاذ القرار، ومن التوقيع على الرسالة... فهو لم يعد رئيسًا لشركة تاجارت العابرة للقارّات بعد الآن، ولكن لن يحلّ محلّه أيّ شخص آخر... ولا أيّ شخص آخر...

جلس، ينظر إلى مكتبه، ويبعد عينيه وعقله عن التركيز. فبدا الأمر كما لو أنّه كان منغمسًا في غمامة من الضباب، يكافح من أجل عدم وصوله إلى غاية محدّدة، فالغاية الموجودة لها هويّة؛ ويمكنه أن يبقي تلك الهويّة خارج الوجود عن طريق رفض التعرّف عليها.

لم يفحص الأحداث في ولاية كولورادو، ولم يحاول فهم أسبابها، ولم ينظر في

عواقبها، بل إنّه لم يفكّر فيها مطلقًا. وكانت كرة العاطفة المعرقلة مثل الكتلة الفيزيائيّة الجاثمة على صدره، تملأ وعيه، وتريحه من مسؤوليّة التفكير. وكانت الكرة بمثابة الكراهية، تلك الكراهية التي كانت إجابته الوحيدة، وواقعه الوحيد. تلك الكراهية التي كانت بلا موضوع أو هدف، أو سبب، أو بداية أو نهاية. تلك الكراهية التي يدّعي أنّها ضدّ الكون بوصفها مبرّرًا وحقًّا وقيمة مطلقة.

استمرّ رنين الهواتف يخترق الصمت. وقد علم أنّ تلك الصيحات التي تطلب المساعدة لم تكن موجّهة إليه، بل إلى كيان سرق شكله. وكانت الصيحات الآن تجتثّ ذلك الشكل بعيدًا عنه، لكنّه شعر وكأنّ الرنين لم يعد أصواتًا بل أصبح سلسلة من الندوب تطال جمجمته. وبدأت غاية الكراهية تأخذ شكلها النهائيّ، كما لو أنّها استدعيت بقرع الأجراس. وانفجرت الكرة الصلبة بداخله وقذفته بشكل أعمى صوب الفعل.

فهرع خارج القاعة، في تحدٍّ لجميع الوجوه من حوله، وأخذ يركض أسفل القاعات إلى إدارة التشغيل وإلى غرفة الانتظار من مكتب نائب رئيس التشغيل.

كان باب المكتب مفتوحًا، فرأى انعكاس السماء في بلّور النوافذ العظيمة وراء مكتب فارغ. ثمّ رأى من خلال الثقب الزجاجيّ الموظّفينَ في غرفة الانتظار من حوله، ورأسَ إيدي ويلرز الأشقرَ. فقصده مباشرةً، وفتح الباب الزجاجيّ، ومن العتبة وعلى مرأى ومسمع كلّ من كان بالقاعة، صرخ:

ـ أين هي داغني؟

نهض إيدي ويلرز ببطء، وظلّ ينظر إلى تاجارت بنوع غريب من الفضول المطيع، وكأنّ ما رآه هو إحدى الظواهر التي لم يسبق لها مثيل من بين كلّ الأشياء التي شهدها في السابق. ثمّ انتهى بعدم الإجابة عن سؤاله.

ـ أين هي داغني؟

ـ لا أستطيع إخبارك.

ـ أنصت إليّ جيّدًا، أيّها الفتى الشرّير العنيد، فهذا ليس وقت الاحتفال! إذا كنت تحاول أن تجعلني أصدّق أنّك لا تعرف مكانها، فأنا لا أصدّقك! أنت عل علم بالأمر وسوف تخبرني، أو سأبلّغ عنك مجلس الاتّحاد! وسأقسم لهم أنّك تعرف ذلك، ثمّ حاول بعد هذا أن تثبت لهم أنّك لا تعرف!

كانت في صوت إيدي نبرةٌ خافتةٌ من الدهشة حينما أجاب: لم أحاول قطّ الإشارة إلى أنّني لا أعرف مكانها يا جيم، فأنا أعرف مكانها ولكنّني لن أخبرك.

فارتفع صياح تاجارت إلى نبرة الصارخ العاجز الذي يعترف بسوء التقدير: وهل تدرك ما تقول؟

ـ ولماذا تسأل؟ أدرك طبعا كلّ ما أقول.

قال وهو يشير بيديه إلى مَن في القاعة: وهل أنت قادرٌ على تكرراه.. على هؤلاء الشهود؟

فرفع إيدي صوته قليلا، فازداد في الدقّة والوضوح أكثر من ازدياده في الحدّة: أنا أعرف مكانها ولكنّني لن أخبرك.

ـ أنت تعترف أنّك شريك في الجريمة وأنّك ساعدت أحد الفارّين وحرّضته؟

ـ نعم، إذا كان هذا ما كنت ترغب تسميته.

ـ لكنّها جريمة! إنّها جريمة ضدّ الأمّة. ألا تعلم ذلك؟

ـ لا.

ـ هذا الأمر منافٍ للقانون!

ـ نعم.

ـ إنّها حالة طوارئ وطنيّة! وليس لديك الحقّ في أيّ أسرار خاصّة! أنت تحجب معلومات حيويّة! وأنا رئيس هذه الشركة وآمرك بأن تدلّني على مكانها، ولا يمكنك أن تعصي أمري! إنّها جريمة عقوبتها السجن! ألا تفهم؟

ـ نعم.

ـ هل ترفض طاعتي؟

ـ حسنًا أنا أرفض فعلا إخبارك بمكانها.

لقد مكّنت سنوات الخبرة تاجارت من القدرة على مشاهدة أيّ جمهور من حوله، من دون أن يظهر لهم فعل ذلك. فرأى وجوه الموظفين المشدودة والمطبقة، وجوهًا لم تكن لحلفائه. حمل الجميعُ نظرة يأسٍ، باستثناء وجه إيدي ويلرز الذي كان بمثابة قنّ إقطاعيّ لشركة تاجارت العابرة القارّات، وهو الوحيد الذي بدا بمنأى عن الكارثة. لقد نظر إلى تاجارت بنظرة ضميرٍ لا حياة له يحمله طالب أكاديميّ يواجه مجالًا معرفيًّا لم يرغب قطّ في دراسته.

صاح تاجارت: وهل تدرك أنّك خائن؟

سأله إيدي بهدوء: خائن لمن؟

ـ خائن للشعب! إنّها لخيانة أن تحمي هاربًا. إنّها خيانة اقتصاديّة! فواجب إطعامك للناس يأتي في المقام الأوّل، وفوق أيّ اعتبار آخر! وكلّ سلطة عامّة تقول هذا! ألا تعرف ذلك؟ ألا تدرك ما الذي سيفعلونه بك؟

ـ ألا ترى أنّني لا أهتمّ بذلك؟

ـ أوه، أنت لا تهتمّ؟ سأنقل هذا الكلام إلى مجلس الاتّحاد! وثمّة شهود سيؤكّدون ذلك.

ـ لا تهتمّ بالشهود يا جيم ولا تقحمهم في هذا الأمر. فأنا سأكتب كلّ ما قلته، وسأوقّعه، ويمكنك أن تأخذه إلى المجلس.

وبدا الانفجار المفاجئ في صوت تاجارت وكأنّه تلقّى صفعة:

ـ ومن أنت لكي تقف في وجه الحكومة؟ ومن أنت أيّها الجرذ الصغير البائس لتحكم على السياسات الوطنيّة؟ هل تعتقد أنّ الوطن يملك ما يكفي من الوقت لكي

تزعجه بآرائك ورغباتك؟ سألقّنكم درسًا.. لكم جميعًا! كلّكم أيّها المدلّلون، المترفون، يا معشر الكتبة الأقزام! ستتعلّمون أنّ هذه ليست أيّام نات تاجارت!

لم يقل إيدي شيئًا على الفور، فبقيا واقفين يتبادلان النظرات ويفصل بينهما المكتب. وقد شوّه وجه تاجارت الشعور بالرعب، أمّا إيدي فظلّ هادئًا جدًّا. لقد آمن جيمس تاجارت بوجود إيدي ويلرز؛ أمّا إيدي فلم يؤمن قطّ بوجود جيمس تاجارت.

صرخ تاجارت: وهل تعتقد أنّ الأمّة ستهتمّ برغباتك أو رغباتها؟ فمن واجبها أن تعود! ومن واجبها أن تعمل! فما يعنينا هو ما إذا أرادت أن تعمل أم لا؟ فنحن بحاجة إليها!

ـ وهل أنت بحاجة إليها فعلًا يا جيم؟

كانت لـتاجارت بداهةٌ تخصّ حفاظه على ذاته، وقد دفعته إلى التراجع بعيدا لبعض الخطوات عن صوت تلك النغمة خاصّة، واللهجة الهادئة جدًّا، في صوت إيدي ويلرز. لكنّ إيدي لم يقم بأيّ خطوة، بل ظلّ واقفًا دون حراك خلف مكتبه، بطريقة توحي بالتقاليد المتحضرّة لمكتب الأعمال.

قال إيدي: لن تجدها، وهي لن تعود. وأنا سعيد بأنّها لن تعود. يمكنك أن تتصوّر جوعًا، وأن تغلق السكك الحديديّة، وأن تزجّ بي في السجن، ويمكنك أيضًا أن تطلق النار عليّ. كلّ هذه الأمور لم تعد تعنيني في شيء. إنّني لن أدلّك على مكانها. حتّى لو رأيت البلاد تنهار بأكملها، لن أدلّك عليها. ولن تجدها. أنت..

واستدارا فجأةً عند سماع صوت فتح باب المدخل. لقد شاهدا داغني وهي تقف عند العتبة.

كانت ترتدي ثوبًا قطنيًّا مجعّدًا، وشعرها أشعث بسبب ساعات طويلة من قيادة السيّارة. ثمّ توقّفت لمدّة وجيزة ألقت من خلالها نظرة خاطفة عل كلّ ما كان حولها، كما لو أنّها تستعيد المكان، ولكن لم تكن في عينيها نظرةٌ توحي بالتعرّف على الأشخاص. اكتفت نظرتها باجتياح القاعة، كما لو أنّها تقوم بجرد سريع للأشياء

المادّيّة. أمّا وجهها فلم يكن ذلك الوجه المألوف، لقد تقدّم في السنّ، لا بسبب تقاسيمه، ولكن بسبب المظهر العاري الذي جرّد من كلّ السمات ما عدا القسوة.

ومع ذلك، كان أوّل ردّ فعل لكلّ من تاجارت وإيدي، قبل الصدمة أو التساؤل، عاطفة واحدة عبرت القاعة مثل نفسٍ من الارتياح. فكلّ وجوههم خالجها الإحساس ذاته إلّا وجهًا واحدًا، هو وجه إيدي ويلرز، الذي كان هادئًا منذ لحظة، ثمّ انهار فوضع وجهه إلى الأسفل على مكتبه؛ ولم يصدر أيّ صوت، ولكنّ حركات كتفيه أوحت بأنّه كان يجهش بالبكاء.

لم يعط وجهها أيّ علامة بالتعرّف على أيّ أحد، بلا أيّ تحيّة، كما لو أنّ وجودها كان حتميًّا ولم تنبس بأيّ كلمة. ثمّ ذهبت مباشرة إلى باب مكتبها، وعبرت أمام مكتب سكرتيرتها، وقالت بصوت مثل صوت آلة الأعمال، صوت لم يكن بالوقح أو اللطيف: اطلبي من إيدي أن يلتحق بمكتبي.

وكان جيمس تاجارت أوّل من تحرّك، وكأنّه يخشى أن يدعها تغيب عن بصره. فهرع وراءها، وصرخ: لم أستطع منع الكارثة! وبعد ذلك، أحسّ بأنّ الحياة تدبّ في جسده من جديد، فصرخ مجدّدًا: كان خطأك! أنت مَن فعل ذلك! أنت من يتحمّل المسؤوليّة لأنّك غادرت!

وتساءل عمّا إذا كانت صرخته وهمًا داخل أذنيه. لأنّ وجهها ظلّ خاليًا من أيّ تعبير، لكنّها التفتت إليه، وبدت كما لو أنّ الأصوات قد وصلت إليها، ولكن لم تصلها الكلمات، ولا معناها. وللحظة أحسّت كأنّ جيمس غير موجود في مكتبها.

ثمّ لاحظ تغييرًا طفيفًا في ملامح وجهها، بمجرّد إشارةٍ إلى إدراك وجود بشريّ من حولها، لكنّها كانت تنظر إلى من يقف وراءه، فاستدار فرأى أنّ إيدي ويلرز دخل المكتب.

كانت هناك آثار دموع في عيني إيدي، لكنّه لم يبذل أيّ محاولة لإخفائها. لقد وقف مستقيمًا، كما لو أنّ الدموع أو أيّ إحراج أو أيّ اعتذار لا صلة لها بهما.

قالت داغني: اتّصل هاتفيًّا برايان وأخبره بأنّني عدت إلى هنا، ثمّ دعني أتحدّث إليه.

وكان رايان هو المدير العامّ للمنطقة الوسطى للسكك الحديديّة. فوجّه إليها إيدي تحذيرًا بعدم الإجابة على الفور، ثمّ قال بصوت متوازن مثل صوتها:

ـ لقد غادرنا رايان يا داغني. لقد استقال في الأسبوع الماضي.

لم يلاحظا وجود جيمس، كما لم يلاحظا وجود الأثاث من حولهما. ثمّ إنّها لم تمنحه حتّى الاعتراف بأن تأمره بالخروج من مكتبها. وظلّ مثل المشلول، غير متأكّد من طاعة عضلاته، فاستجمع قوّته وانسحب. لكنّه كان متأكّدًا من أوّل شيء عليه القيام به، فأسرع إلى مكتبه لإتلاف رسالة استقالته.

لم تلاحظ داغني خروجه، لأنّها كانت تنظر إلى إيدي الذي سألته: هل السيّد نولاند موجود؟

ـ لا، لقد غادر هو أيضًا.

ـ وأندروز؟

ـ لقد غادر كذلك.

ـ وماجواير؟

ـ غادر هو أيضًا.

ثمّ استمرّ بهدوء في تلاوة قائمة أولئك الذين كان يعرف أنّها ستطلب حضورهم، وكلّ من هي في أمسّ الحاجة إليه في تلك الساعة، أولئك الذين استقالوا واختفوا خلال الشهر الماضي. فاستمعت من دون دهشة أو انفعال، كما يستمع المرء إلى قائمة الإصابات في معركة هلك فيها الجميع ولا فرق بين الأسماء التي تقع أوّلًا. وعندما انتهى، لم تعلّق، لكنّها سألته:

ـ ماذا أنجزتم منذ هذا الصباح؟

ـ لا شيء.

ـ لا شيء؟

ـ داغني، أيّ فتى مكتب كان بإمكانه إصدار أوامر هنا منذ هذا الصباح، والجميع كانوا سيطيعونه. ولكن حتّى الأولاد بالمكتب يعرفون أنّ من سيبادر بالخطوة الأولى اليوم سيكون مسؤولا عن المستقبل والحاضر والماضي. عندما يبدأ بتمرير المسؤوليّة، فهو لن ينقذ النظام، وسيفقد وظيفته بمجرّد حلول الوقت الذي أنقذ فيه قسما واحدًا. لذلك لم نفعل أيّ شيء. لقد توقّف الأمر وتعطّل كلّ شيء. وأيًّا كان التحرّك، فسيكون مبنيًّا على تخمينٍ أعمى لأيّ شخص خارج الخطّ، لأنّه لن يعرف ما إذا كان يتحرّك أو يتوقّف. لقد أوقفت بعض القطارات في المحطّات، بينما سار البعض الآخر في انتظار أن يتمّ إيقافه قبل أن يصل إلى كولورادو. ومهما يكن ما سيقرّره المراسلون المحلّيّون فإنّ مدير المحطّة في الطابق السفليّ ألغى جميع حركة المرور العابرة للقارّات لهذا اليوم، بما في ذلك القطار المذنّب هذه الليلة. ولا أعلم ما فعله المدير في سان فرانسيسكو، فكلّ ما لدينا هو عمل طاقم التحطيم في النفق فقط، وهم لم يقتربوا من الحطام إلى حدود اللحظة،لا أعتقد أنّهم سيفعلون ذلك.

ـ اتّصل بمدير المحطّة في الطابق السفليّ وأخبره أن يضع فورًا جميع القطارات العابرة للقارّات مجدّدا على الجدول الزمنيّ، بما في ذلك القطار المذنّب، ثمّ عد إلى هنا. وعندما عاد، وجدها تنحني على الخرائط التي نشرتها على الطاولة، فتحدّثت إليه بينما كان يُدوّن ملاحظات سريعة:

ـ عليكم بتسيير جميع القطارات المتّجهة غربًا من جنوب مدينة كيربي، بولاية نبراسكا، انطلاقًا من مسار التحفيز إلى مدينة هاستينغز، ومن مسار منطقة كانساس الغربيّة إلى مدينة لوريل، بولاية كانساس، ثمّ إلى مسار جنوب المحيط الأطلسيّ في مدينة جاسبر، بولاية أوكلاهوما. ومن الغرب على المحيط الأطلسيّ الجنوبيّ إلى مدينة فلاغستاف، بولاية أريزونا، ومن الشمال على المسار من مدينة فلاغستاف هو مديل إلى مدينة إلجين، بولاية يوتا، ومن الشمال إلى مدينة ميدلاند، باتّجاه الشمال الغربيّ على مسار السكك الحديديّة بجبال واساتش إلى مدينة سولت ليك سيتي. لقد أصبحت

محطّة السكك بجبال واساتش مهجورة وبات عرض السكّة الحديديّة ضيّقًا جدًا، فاحرص على شرائها واجعل انتشار السكك يصل إلى المعيار المتعارف عليه. وإذا كان المالكون خائفين من أن يكون البيع غير قانونيّ، فادفع لهم ضعف المال وامض قدمًا في العمل. أنبّهك أيضًا إلى أنّه لا توجد سكّة حديديّة بين مدينة لوريل، بولاية كانساس، ومدينة جاسبر، بولاية أوكلاهوما، وعلى مسافة ثلاثة أميال، ولا توجد سكك بين مدينتي إلجين وميدلاند، بولاية يوتا، ستناهز المسافة خمسة أميال ونصفًا وقد وضعت السكك الحديديّة، ولتبدأ أطقم البناء في العمل مباشرة. ويجب تجنيد كلّ رجل محلّيّ متاح، ودفع ضعف الأجور القانونيّة، ثلاث مرّات إن لزم الأمر، أو أيّ شيء يطلبونه من أجل إنهاء المهمّة في أسرع وقت ممكنٍ. أمّا بخصوص السكك الحديديّة، فاقتلعوا الخطوط الجانبيّة بمحطّة مدينتي وينستون وسيلفر سبرينغز، بولاية كولورادو، وفي مدينة ليدز، بولاية يوتا، وفي مدينة بنسون، بولاية نيفادا. وإذا قدم أيّ من المتواطئين المحلّيّين في مجلس الاتّحاد لوقف العمل، فامنح السلطة لرجالنا المحليّين، الذين تثق بهم، لرشوتهم. ولا تمرّر ذلك من خلال قسم المحاسبة، وابعثه لي، فأنا من سيدفع. وإذا اعترضتهم أيّ عراقيل في بعض الحالات، فأخبر هؤلاء الجواسيس بأنّ التوجيه رقم 289-10 لا ينصّ على أوامر محلّيّة، وأنّه لا بدّ من وجود أمرٍ قضائيّ موجّه إلى مقر شركتنا، وأنّ عليهم أن يقاضوني أنا شخصيًّا إذا رغبوا في إيقافنا.

ـ وهل هذا سيتمّ فعلًا؟

ـ كيف لي أن أعرف؟ وكيف يمكن لأيّ شخص أن يعرف؟ ولكن بحلول الوقت الذي يفكّون فيه مضامين القرار ويقرّرون ما يحلو لهم سنكون قد انتهينا من بناء مسارنا.

ـ واضح.

ـ سأراجع القائمات وأعطيك أسماء رجالنا المحلّيّين لتولّي المسؤولية، وأخبرك بها إذا كانوا لا يزالون هناك. وعندما يصل القطار المذنّب الليلة إلى مدينة كيربي، بولاية نبراسكا، سيكون المسار جاهزًا. وسيضيف ذلك حوالي ستًّا وثلاثين ساعة إلى الجدول

العابر للقارّات، ولكن على الأقلّ سيكون هناك جدول عابر للقارّات. اطلب منهم إذن إخراج ملفّات الخرائط القديمة لطريقنا كما كان قبل أن يبني حفيد نات تاجارت النفقَ.

ـ ماذا تقولين..؟

لم يرفع صوته، لكنّ فعل التقاط أنفاسه كَسَرَ العاطفة التي كان يريد تجنّبها. ولم تتغيّر ملامح وجهها، ثمّ قالت بنبرة لطيفة:

ـ أحتاج إلى الخرائط القديمة التي كانت تعتمد في تسيير القطارات قبل بناء النفق. سنعود إلى العمل يا إيدي. دعنا نأمل في التمكّن من ذلك. لكنّنا لن نعيد بناء النفق، فلا توجد طريقة لتحقيق ذلك الآن. لكنّ الخطّ المنحدر القديم الذي عبر جبال الروكي لا يزال هناك ويمكن استصلاحه. سيكون فقط من الصعب الحصول على السكك الحديديّة لهيكلته وعلى الرجال لإنجاز ذلك، ولا سيّما الرجال.

كان يدرك، منذ البداية، أنّها لاحظت دموعه وأنّها لن تدع ذلك الأمر يمرّ مرور الكرام، على الرغم من أنّ صوتها الواضح ووجهها الحازم لا ينبئان بذلك. كانت داغني تتعاطف معه لكن دون أن تملك القدرة على التعبير عن هذه العاطفة. ومع ذلك، كانت تحسّ به، ولو ترجم إحساسها إلى كلمات فهي ستقول: أنا أعلم وأفهم، وسأشعر بالتعاطف والامتنان، لو كنّا على قيد الحياة ونشعر بالحرّيّة، لكنّنا لسنا أحرارًا، أَلَيْسَ كذلك يا إيدي؟ نحن على كوكب ميّت مثل القمر، حيث يجب أن نتحرّك، ولكن لا نجرؤ على التوقّف من أجل القليل من المشاعر وإلّا سنكتشف أنّه لا يوجد هواء نتنفّسه.

قالت: أمامنا اليوم وغدًا لبدء الأمور. سأغادر إلى كولوراد ومساء الغد.

ـ إذا كنت ترغبين في السفر، فسيتعيّن عليك استئجار الطائرة. فطائرتك الخاصّة لا تزال في الورشة، لأنّهم لم يتمكّنوا من الحصول على قطع غيارها.

ـ لا، سأسافر بالقطار. يجب أن أرى الخطّ، ولهذا الغرض سأستقلّ القطار المذنّب

غدًا.

وبعد ساعتين، وفي فترة وجيزة بين المكالمات الهاتفيّة البعيدة، طرحت عليه فجأة أوّل سؤالٍ لا يتعلّق بالسكك الحديديّة: ماذا فعلوا بهانك ريردن؟

كان إيدي يتهرّب من الجواب، وأخذ ينظر بعيدًا، ثمّ أجبر نظراته على العودة إلى رؤيتها، وأجاب: لقد استسلم ووقّع شهادة الهدايا الخاصّة بهم في اللحظة الأخيرة.

قالت بنبرة لا تشي بالصدمة أواللوم:

- أوه... وهل سمعت أيّ شيء عن كوينتين دانيلز؟

ـ لا.

ـ ألم يبعث لي أيّ إرساليّة أو رسالة؟

ـ لا.

لقد خمّن الشيء الذي كانت تخافه وذكّره بمسألة لم يرد إخبارها بها:

ـ داغني، ثمّة مشكلة أخرى تتزايد في جميع أنحاء النظام منذ أن غادرت بتاريخ الأوّل من مايو. إنّها القطارات المجمّدة.

ـ القطارات المجمّدة؟

ـ ثمّة قطارات متروكة على الخطوط، بعد أن اختفى طاقمها بالكامل. هم فقط يغادرون القطار ويختفون. ولا يقدمون أيّ تحذير أو أيّ سبب خاصّ، والأمر أشبه بالوباء، يصيب الرجال فجأة فيغادرون. وهذا الأمر يحدث أيضا على خطوط شركات السكك الحديديّة الأخرى. ولا أحد يستطيع تفسير ذلك. ولكنّني أعتقد أنّ الجميع يدركون أنّ الأمر التوجيهيّ هو الذي يدفعهم إلى ذلك. إنّه شكل من أشكال الاحتجاج. يحاولون الاستمرار ثمّ يصلون فجأةً إلى لحظة لا يستطيعون فيها تقبّل الأمر لفترة أطول. فما الذي يمكن أن نفعله إزاء هذه المعضلة؟حسنًا، ومن هو جون جالت؟

أومأت برأسها في تمعّنٍ دون أن تُبدي أيَّ دهشة. ثمّ رنّ الهاتف فقال صوت سكرتيرتها: يا آنسة تاجارت، إنّه ويسلي ماوتش يتّصل من واشنطن.

تصلّبت شفتاها قليلًا، وكأنّما أصابتها لسعة حشرة على نحوٍ مفاجئٍ وقالت:

ـ لا شكّ أنّه يريد التواصل مع أخي.

ـ لا يا آنسة تاجرت، إنّه يرغب في الحديث إليك.

ـ حسنًا. صِلِيهِ بالخطّ.

فخاطبها ويسلي ماوتش بنبرة ترحيب تشبه أسلوب التحيّة في حفلات الاستقبال الخاصة: آنسة تاجرت، كنت سعيدًا جدًّا عندما سمعت أنّك استعدت صحّتك وأردت أن أرحّب بك شخصيًّا. أعلم أنّ صحّتك تتطلّب راحة طويلة وأنا أقدّر الوطنيّة التي جعلتك تقطعين إجازتك القصيرة في هذه الحالة الطارئة الرهيبة. وأردت أن أؤكّد لك أنّه يمكنك الاعتماد على تعاوننا في أيّ خطوة تجدينها ضروريّة الآن. إنّنا مستعدّون لأن نقدّم لك الدعم والمساعدة اللازمين. وإذا وُجِدَت أيّ استثناءات خاصّة قد تطلبينها، فيرجى التأكّد من إمكانيّة منحها.

تركته يتحدّث، على الرغم من أنّه توقّف أكثر من مرّة توقّفًا صغيرًا ليحفّزها على الإجابة. وعندما أصبحت توقّفاته طويلة بما فيه الكفاية، قالت:

ـ سأكون مضطرّةً إلى فعل ذلك إذا سمحت لي بالتحدّث إلى السيّد ويذربي.

ـ لمَ لا؟ بطبيعة الحال، يا آنسة تاجارت، في أيّ وقت ترغبين... لماذا... أي... هل هذا يعني الآن؟

ـ نعم، الآن.

ـ حسنًا يا آنسة تاجارت.

وعندما كان صوت السيّد ويذربي على الخطّ، بدا حذرًا: حسنا يا آنسة تاجارت، ما الخدمة التي يمكن أن أسديها لك؟

ـ يمكنك إخبار رئيسك بأنّه إذا كان لا يريد منّي الاستقالة مرّة أخرى، مادام يعلم أنّي فعلت ذلك، فإنّ عليه ألّا يتّصل بي أو يتحدّث معي. وإذا أرادت عصابتكم أن تخبرني بأيّ شيء فدعهم يرسلوك أنت لإخباري وسأتحدّث إليك شخصيًّا، لكن ليس معه. قد تخبره بأنّ سببي هو ما فعله بهانك ريردن عندما كان على جدول رواتب ريردن، وإذا كان الجميع قد نسوا ذلك فأنا لم أنسَ ولن أفعل؟

ـ يا آنسة تاجارت، من واجبي مدّ يد العون للسكك الحديديّة في أيّ وقت.

بدا السيّد ويذربي كما لو أنّه يحاول تجنّب الالتزام بعد أن سمع ما سمعه، ولكن فجأة أبدى ملاحظة اهتمام تسلّلت إلى صوته، وطلب ببطء مدروس ودهاء حذر:

ـ يا آنسة تاجارت، هل عليّ استنتاج أنّك ترغبين في التعامل معي حصرًا في جميع المسائل الرسميّة؟ وهل لي أن أعتبر ذلك جزءا من سياستك الخاصّة؟

فضحكت ضحكة قاسية وجيزة، وقالت: تابع حديثك. يمكنك إدراجي على أنّني ملكيّة حصريّة لك، واستخدامي بوصفي عنصرًا خاصًّا يمكن أن تجذبه متى شئت، مثلما يمكنك التصرّف في أعمالي بجميع أنحاء واشنطن. لكنّني لا أعرف ما هو الخير الذي ستجنيه من ذلك، لأنّني لن ألعب اللعبة، فأنا لن أتبادل أيّ إكراميّات، وكلّ ما عليّ فعله ببساطة هو البدء في خرق قوانينكم الخاصّة من الآن، ويمكنكم اعتقالي حين تشعرون أنّ بوسعكم فعل ذلك.

ـ أعتقد أنّك تملكين فكرة قديمة عن القانون يا آنسة تاجارت. لماذا نتحدّث عن قوانين جامدة لا يمكن خرقها؟ فقوانيننا الحديثة مرنة ومفتوحة على التأويل وفقًا... للظروف.

ـ لقد أصبحت مرنة الآن إذَن، لأنّني وسكك حديدي لم نعد نواجه أيّ كوارث أكثر ممّا واجهنا من قبل.

ثمّ أغلقت الخطّ، وقالت لإيدي، في نبرة تقدير نسبيّ للأشياء المادّيّة بمكتبها: سيتركوننا وشأننا لبعض الوقت.

بدا أنّها لم تلاحظ التغييرات في مكتبها: غياب صورة نات تاجارت، وطاولة القهوة الزجاجيّة الجديدة التي عرض فيها السيّد لوسي، لمصلحة الزوّار، عرضًا لأعلى المجلّات الإنسانيّة التي تحمل عناوين مقالات على أغلفتها.

ثمّ سمعت -بنظرة منتبهة إلى آلة مُعدَّة للتسجيل، من دون أن تبدي أيّ ردّة فعل- رواية إيدي عمّا فعله شهر واحد بالسكك الحديديّة. واستمعت إلى تقريره عمّا خمّنه عن أسباب الكارثة. ثمّ واجهت، بمظهر الانفصال نفسه، سلسلةً من الرجال الذين دخلوا مكتبها ثمّ خرجوا منه بخطوات متسارعة وأيدٍ تتخبّط في إيماءات زائدة. فاعتقد ويلرز أنّها أصبحت منيعة من أيّ شيء. ولكن فجأة -بينما كانت تسرع صوب المكتب، لتملي عليه قائمة من الموادّ التي أزيلت من المسار وأين يمكن أن تحصل عليها بشكل غير قانونيّ- توقّفت ونظرت إلى أسفل في المجلّات على طاولة القهوة وكانت عناوينها الرئيسيّة تقول: الضمير الاجتماعيّ الجديد ـ واجبنا تجاه المحرومين ـ الحاجة مقابل الجشع. وبحركة واحدة من ذراعها، تلك الحركة المفاجئة والمتفجّرة من الوحشيّة الجسديّة المطلقة، على نحوٍ لم يره عندها من قبل، كنست المجلّات من فوق الطاولة وتابعت، بصوتٍ يتلو قائمةً من الشخصيّات دون انقطاع، كما لو أنّه لا توجد أيّ صلة بين عقلها وعنف جسدها.

في وقت متأخّر من الظهيرة، أصابتْ لحظة انفراد وخصوصيّة في مكتبها، فاتّصلت بهانك ريردن.

ذكرت اسمها لسكرتيرته. ومن خلال طريقة كلامه، سمعت التلهّف الذي انتابه عندما استولى على السمّاعة: داغني؟

ـ مرحبًا يا هانك، لقد عدت.

ـ أين؟

ـ في مكتبي.

لقد سمعت الأشياء التي لم يقلها، في لحظة الصمت التي انتابته على الخطّ ثمّ قال:

ـ أعتقد أنّ من الأفضل أن أبدأ على الفور في رشوة الناس للحصول على الخام لأنطلق في صبّ السكك الحديديّة الخاصّة بك.

ـ نعم، وبأكثر قدر تستطيع توفيره وليس من الضروريّ أن تكون مصنوعة من معدن ريردن، إذ يمكن أن تكون..

وكان الانكسار في صوتها وجيزًا جدًّا، فلم يشعر به، ولكنّ ما أوحى به صوتها هو الفكرة التي تقول: دعنا من السكك الحديديّة المصنوعة من معدن ريردن ولنعد إلى زمن ما قبل الصلب الثقيل، أو ربّما العودة إلى زمن القضبان الخشبيّة مع شرائط من الحديد. ثمّ أضافت:

ـ يمكن أن يكون من الصلب، أو أيّ كتل، أو أيّ شيء يمكن أن تعطيني إيّاه.

ـ حسنًا. هل تعلمين يا داغني أنّني سلّمتهم معدن ريردن؟ لقد وقّعت على شهادة الهدايا.

ـ نعم، أنا أعلم ذلك.

ـ لقد استسلمت.

ـ ومن أنا لألومك؟ وهل تعتقد أنّني سألومك؟

لم يجبها، فأضافت: هانك، لا أعتقد أنّهم يهتمّون بما إذا بقي على وجه الأرض قطارٌ أو فرنٌ منفجر. بينما نحن نهتمّ، لذلك فهم يحتجزوننا بسبب حبّنا لتلك الأشياء، وسنظلّ ندفع الثمن ما وُجِدت فرصة واحدة للحفاظ على عجلة واحدة على قيد الحياة والتحرّك وفق سمة الذكاء البشريّ. سوف نتمسّك بحبّنا ونوقفه على قدميه مثل طفلنا الغارق. وعندما يبتلعه الفيضان، سننزل بالعجلة الأخيرة وآخر قياس منطقيّ. أدرك الثمن الذي سندفعه، لكنّ التكلفة غير مهمّة بعد الآن.

ـ أعلم ذلك.

ـ لا تخف عليّ يا هانك، سأكون على ما يرام بحلول صباح الغد.

ـ لن أخاف عليك أبدًا يا عزيزتي، أراك الليلة.

الفصل التاسع

وجه بلا ألم أو خوف أو ذنب

عندما دخلت داغني غرفةَ جلوسها أثار انتباهَها الصمتُ الذي يخيّم على شقّتها والثبات المثاليّ للأشياء فيها. لقد بقيت تمامًا كما تركتها قبل شهر. فاعتراها شعور بالارتياح والوحشة معًا. ومنحها الصمت وهم الخصوصيّة والملكيّة، وذكّرها منظر الأشياء بأنّها كانت تحافظ على لحظة لم تتمكّن من استعادتها، لأنّها لم تتمكّن من محو الأحداث التي وقعت منذ ذلك الحين.

كانت لا تزال هناك بقايا من ضوء النهار وراء النوافذ. لقد غادرت المكتب في وقت مبكّر عكس ما خطّطت له، لأنّها لم تكن تملك الجهد للقيام بأيّ مهمّة يمكن تأجيلها حتّى الصباح. وكان هذا الفعل جديدًا عليها، إلى درجة أنّها تجد الآن شعورا بكونها في المنزل وهي في شقّتها أكثر من شعورها بذلك وهي في مكتبها.

استحمّت، ووقفت لدقائق طويلة خالية من أيّ نشاط، تسمح للمياه بالانسياب على جسدها، ولكنّها خرجت على عجلٍ عندما أدركت أنّ ما أرادت التطهّر منه ليس غبار السفر من الريف، بل الشعور الذي انتابها في المكتب.

ثمّ ارتدت ملابسها وأشعلت سيجارة ودخلت إلى غرفة المعيشة، لتقف عند النافذة، وتنظر إلى المدينة، مثلما وقفت ونظرت إلى الريف في بداية هذا اليوم.

وقالت إنّها ستهب عامًا آخر من حياتها لخدمة السكك الحديديّة. لقد عادت مجدّدا إلى الشركة؛ ولكنّ ما تشعر به الآن في الشقّة لم يكن سرور العمل، بل هو فقط السلام الواضح والبارد لقرارٍ تمّ التوصّل إليه، وسكون ألم غير معترف به.

كانت الغيوم قد غطّت السماء ونزلت كضباب يخيّم على الشوارع، كما لو أنَّ السَّماء تجتاح المدينة. كانت ترى جزيرة مانهاتن بأكملها، بشكلها المثلّث الطويل الذي تحوّل إلى محيط غير مرئيّ. فبدت كأنّها مقدّمة سفينة غارقة؛ ولكنّ عددا قليلًا من المباني الشاهقة لا يزال يرتفع فوقها مثل الأقماع، أمّا البقيّة فكانت تختفي تحت لفائف رماديّة زرقاء، نازلةً ببطءٍ في البخار والفضاء. فقالت في نفسها هكذا غرقت تماما مثل أطلانتس، المدينة التي غرقت في المحيط، وجميع الممالك الأخرى التي اختفت، تاركة الأسطورة نفسها تتداولها جميع لغات البشر، ومخلّفةً الشوق والحنين ذاتَيْهما.

كان ينتابها الإحساس نفسه الذي انتابها ذات ليلة ربيعيّة حين سقطت في المكتب المتداعي لخطّ جون جالت، بجانب نافذة تواجه زقاقًا مظلمًا. كانت تحسّ عالمها الخاصّ الذي لن تصل إليه أبدًا، وتراه... وقالت في نفسها: أنتِ، أيّ كائن كنتِ، يا من أحببتكِ دائمًا ولم أجدكِ قطُّ، أنتِ التي توقّعت أن أراها في نهاية القضبان وراء الأفق، والتي شعرتُ بوجودها دائمًا في شوارع المدينة ورغبتُ في بناء عالمها، إن حبّي لكِ هو الذي جعلني أتحرّك، حبّي ورجائي أن أصل إليكِ وأتمنّى أن أصلك إليك عن جدارة واستحقاق يوم أقف أمامك وجهًا لوجه. الآن أعلم أنّني لن أجدكِ أبدًا، وأنّه لن يتمّ الوصول إلى تلك الصورة أو عيشها، ولكنّ ما تبقّى من حياتي لا يزال لكِ، وسأواصل العيش باسمك، على الرغم من أنّني لن أدرك ذلك الاسم أبدًا، وسأستمرّ في خدمتكِ، على الرغم من أنّني لن أفوز بكِ أبدًا، وسأستمرّ محاولةً تحقيقك عن جدارة يوم ألتقيكِ، وإن كنتُ أدرك أنّني لن ألتقيك...

لم تقبل داغني قطُّ بقلّة الرجاء واليأس، لكنّها وقفت عند النافذة، وتوجّهت إلى المدينة الضبابيّة، فكان تفانيها الذاتيّ في الحبّ بلا مقابل.

رنّ جرس الباب. فالتفتت بدهشة غيرَ مبالية بفتح الباب، لكنّها علمت أنّ عليها الانتباه، وعندما رأت أنّ الطارق هو فرانسيسكو دانكونيا لم تشعر بأيّ صدمة أو انفعال، بل فقط الصفاء الكئيب من ثباتها، فرفعت رأسها لمواجهته، بحركة بطيئة ومتعمّدة، وكأنّها تخبره بأنّها اختارت موقفها وأنّها اختارت أن تصمد في العراء.

كانت ملامح وجهه توحي بأنّه كان جادًّا وهادئًا؛ لقد اختفى مظهر السعادة، ولم يعد ذلك المستهتر الذي يحبّ التسلية. بدا الأمر وكأنّ كلّ الأقنعة تعطّلت، فبدا مباشرًا ومنضبطًا بإحكام، وعازمًا على غرض مّا، وأصبح مثل رجلٍ قادر على معرفة جدّيّة العمل، كما توقّعت منه أن يبدو على هذا النحو ذات مرّة. لم يكن قطُّ يبدو أكثر جاذبيّة مثلما كان في تلك اللحظة، وأحسّت بشكل مفاجئ أنّه لم يكن ذلك الرجل الذي هجرها، بل الرجل الذي هجرته.

ـ داغني هل يمكنك التحدّث عن ذلك الأمر الآن؟

ـ نعم، إذا كنت ترغب في ذلك. ادخل.

ألقى فرانسيسكو نظرة خاطفة، لفترة وجيزة، على غرفة معيشتها. وجال بعينيه في أرجاء منزلها الذي لم يدخله قطُّ، ثمّ عادت عيناه لتنظرا إلى داغني. كان يراقبها باهتمامٍ. وبدا أنّه يعرف أنّ بساطة أسلوبها الهادئة هي الأسوأ من بين جميع الإشارات إلى غرضه، وأنّ الأمر كان يشبه انتشار الرماد حيث لا يمكن إحياء وميض من الألم، وحتّى الألم كان يمكن أن يكون شكلًا من أشكال النّار.

ـ اجلس يا فرانسيسكو.

ظلّت واقفة أمامه، وكأنّها سمحت له عن وعيٍ بأن يرى أنّها لا تملك ما تخفيه، ولا حتّى تعب هيئتها، والثمن الذي دفعته ذلك اليوم وإهمالها للسعر.

قال: لا أعتقد أنّني أستطيع الآن جَعْلَكِ ترجعين عن قرارك. لكن إذا كانت هناك فرصة واحدة، فيجب أن أغتنمها.

قالت: لا توجد أدنى فرص. ما الغاية من ذلك يا فرانسيسكو؟ فأنت استسلمت. وما الفرق الذي سيحدثه عندك سواء هلكتُ في السكك الحديديّة أو بعيدًا عنها؟

ـ أنا لم أتخلّ عن المستقبل.

ـ أيّ مستقبل؟

ـ اليوم الذي سيهلك فيه اللصوص وننجو نحن.

ـ إذا كانت شركة تاجرت العابرة للقارّات ستهلك مع اللصوص، فأنا مستعدّة للهلاك معها.

لم يرفع عينيه عن وجهها ولم يردّ. فأضافت دون تفكير: اعتقدت أنّني أستطيع العيش من دونها، لكنّني لا أستطيع. ولن أعيش التجربة نفسها مجدّدًا. هل تذكر يا فرانسيسكو ما اعتقدناه، عندما بدأنا، من كون الخطيئة الوحيدة على الأرض هي أن تفعل الأشياء بشكل سيّئ؟ ومازلت أصدّق ذلك... لا يمكنني أن أبقى مكتوفة اليدَين وأكتفي بالنظر إلى ما اقترفوه في النفق. ولا يمكنني أن أقبل بكلّ الأشياء التي قبلوا بها جميعًا. فرانسيسكو، هذا هو الشيء الذي اعتقدنا أنّه في غاية الوحشيّة، أنا وأنت! الاعتقاد بأنّ الكوارث قدر طبيعيّ، ويجب تحمّلها وعدم مكافحتها. فأنا لا أستطيع أن أرضخ لواقع الحال. وحتّى لو بقي خطّ سكّة حديد واحد يعمل، فأنا من سأديره.

ـ من أجل الحفاظ على عالم اللصوص؟

ـ من أجل الحفاظ على القطاع الأخير من عالمي.

ردّ ببطء: أدرك السبب الذي يجعل المرء يحبّ عمله. وأعلم ما تعنيه لك مهمّة تشغيل القطارات. لكنّك لن تديريها إذا كانت فارغة. فماذا ترين عندما تفكّرين في قطار متحرّك يا داغني؟

نظرت داغني إلى المدينة من النافذة وقالت:

ـ إنّي أرى حياة إنسان ربّما كان سيهلك في تلك الكارثة، لكنّه سيتجنّب الكارثة المقبلة التي سأمنعها، إنسان يتمتّع بعقل عنيد وطموح غير محدود، ويحبّ حياته... من نوع البشر الذي كنّا عليه عندما بدأنا أنا وأنت. لكنّك استسلمت، أمّا أنا فلا أستطيع الاستسلام.

ـ سألها بنبرة لطيفة جدًّا: وهل تعتقدين أنّه لا يزال بإمكانك خدمة هذا النوع من البشر وتمثيله عن طريق تشغيل السكك الحديديّة؟

ـ نعم.

ـ حسنًا يا داغني لن أحاول إيقافك مادُمتِ تؤمنين بذلك، فلا شيء يمكن أن يوقفك أو ينبغي له ذلك. وستتوقّفين يوم تكتشفين أنّ عملك قد لا يخدم حياة ذلك الإنسان، وأنّه بالعكس يدمّرها.

قالت بنبرة تضجّ دهشة ويأسًا: فرانسيسكو! أنت تفهم ذلك، وأنت تعرف ما أعنيه بهذا النوع من البشر، وأنت تراه أيضًا!

ردّ ببساطة وهو يجول ببصره في أرجاء الغرفة: أوه نعم.. ولماذا يجب أن تندهشي؟ لقد قلتِ إنّنا كنّا، أنا وأنت، ننتمي ذات زمنٍ إلى ذلك النوع الإنسانيّ، وما نزال كذلك، لكنّ أحدنا خانه.

قالت بصرامة: طبعًا أحدنا خان هذا النوع الإنسانيّ. لا يمكننا خدمته من خلال التنازل.

ـ كما لا يمكننا خدمته من خلال المصالحة مع مدمّريه.

ـ أنا لم أتصالح معهم. هم يحتاجون إليّ وهم يدركون ذلك. لذلك سأتعامل معهم لكن وفق شروطي الخاصّة، بل سأجعلهم يقبلونها.

ـ من خلال ممارسة لعبة سيحصلون فيها على فوائد مقابل إيذائك؟

ـ إذا كان بإمكاني إبقاء شركة تاجارت العابرة للقارّات حيّةً، فهي الفائدة الوحيدة التي أريدها. لن أهتمّ إذا جعلوني أدفع فدية لهم. دعهم يملكوا ما يريدون مادمتُ سأملك السكك الحديديّة.

قال وهو يبتسم: وهل تؤمنين بذلك؟ وهل تعتقدين أنّ حاجتهم إليك ستحميك منهم؟ وهل تعتقدين أيضًا أنّك تستطيعين مَنْحَهُم ما يريدون؟ لا، فأنت لن تستقيلي حتّى تَرَيْ، بأمّ عينيك وبصيرتك، الأمرَ الذي يريدونه حقًّا. ألا تعلمين يا داغني أنّنا تعلّمنا أن نترك ما لله لله وما لقيصر لقيصر. وربّما سمح الله لهم بذلك. لكنّ الإنسان الذي تعلنين أنّنا نخدمه لا يسمح بهذا. فهو لا يسمح بالولاء المنقسم، ولا يسمح لك

بحرب بين عقلك وجسدك، ولا بفجوة بين قيمك وأفعالك، ولا يدين بأيّ تكريم لقيصر، بل ولا يسمح أصلا بوجود أيّ من القياصرة.

ردّت بهدوء: كنت أعتقد لمدّة اثني عشر عامًا أنّ من غير المعقول أن يأتي يوم يتوجّب عليّ فيه أن أتوسّل مغفرتك وأنا جاثية على ركبتيّ. أمّا الآن فأعتقد أنّ من الممكن لي فعل ذلك. فلو بدا أنّك على حقّ، فسوف أفعل ذلك. ولكنّي لن أفعله حتّى حلول ذلك الحين.

ـ ستفعلين فعل ذلك، ولكن دون جثوٍّ على ركبتيك.

كان ينظر إليها، كما لو أنّه يرى جسدها وهي تقف أمامه، على الرغم من أنّ عينيه كانتا موجّهتين إلى وجهها، فأخبرتها نظرته بشكل التكفير والاستسلام الذي كان يراه في المستقبل. ورأت الجهد الذي بذله للنظر بعيدًا، وأمله في ألّا ترى نظرته أو تفهمها، وفي ألّا تدرك صراعه الصامت، وقد خانه التوتّر ببعض العضلات تحت بشرة وجهه، ذلك الوجه الذي كانت تعرف تقاسيمه جيّدًا.

ـ من الآن إلى ذلك الحين تذكّري يا داغني أنّنا أعداء. لم أرد أن إخبارك بهذا، لكنّك أوّل شخص كاد أن يصعد إلى الجنّة ويعود إلى الأرض. لقد فكّرت مليًّا في الأمر لذلك عليك أن تعلمي هذا بوضوح، فأنت مَن أُقاتلُ، ولَيسَ جيمس أَو ويسلي ماوتش. أنت مَن يجب أن أهزمه. أنا خارج لإنهاء كلّ الأشياء التي هي أغلى ما تملكين الآن. فبينما تكافحين من أجل إنقاذ شركة تاجارت العابرة للقارّات، سأعمل أنا على تدميرها. فلا تطلبي منّي مساعدة أو مالًا لأنّك تعرفين أسبابي الآن، وقد تكرهينني كما يبدو ذلك من موقفك، لكن يجب عليّ أن أقوم بعملي.

رفعت رأسها قليلًا، ولم يكن هناك تغيير ملموس في هيئتها، ولم يكن هناك أكثر من وعيها بجسدها وما كان يعنيه بالنسبة إليه، ولكن أثناء مدّة نطقها بجملة واحدة من المرأة، وقفت بإيحاء من التحدّي أظهره التباعد الضعيف بين كلماتها: وماذا سيجلب لك هذا العداء؟

فنظر إليها، بتفهّم تامّ، لكنّه لم يعترف أو ينكر الاعتراف الذي أرادت أن تلتقطه منه. وأجابها: هذا لا يعني أيّ أحدٍ سواي.

كانت هي مَن ضَعُفَ. لكنّها أدركت، وهي تقول ذلك، أنّ ذاك القرار لا يزال أكثر قسوة. فقالت: أنا لا أكرهك. لقد حاولت القيام بذلك لسنوات، لكنّني لن أفعله مجدّدًا أبدًا، بغضّ النظر عمّا يفعله أيّ منّا.

ردّ بصوت منخفض، كي لا تسمع الألم، لكنّها شعرت به في داخلها كما لو أنَّه تمّ بتأمّلٍ مباشر منه: أنا أعرف ذلك.

صرخت قائلة: فرانسيسكو! كيف يمكنك أن تنجز ما قرّرت إنجازه؟

ـ بفضل نعمة حبّي.. ومن أجل الإنسان الذي لم يهلك أثناء كارثتك، ولن يهلك أبدًا.

فوقفت صامتة للحظة، كما لو أنّها تعترف له بالتقدير والاحترام، ثمّ قال لها:

ـ أتمنّى أن أجنّبك ما ستمرّين به. لكنّي لا أستطيع. على كلّ واحد منّا أن يقطع الطريق وفق خطواته الخاصّة حتّى وإن كانت الطريق نفسها.

ـ وإلى أين تقودنا هذه الطريق؟

فابتسم، كما لو أنّه يغلق بهدوءٍ باب الأسئلة التي لن يجيب عليها، فقال: إلى أطلانتس.

سألته بذهول: إلى ماذا؟

ـ ألا تتذكّرين تلك المدينة المفقودة التي لا يمكن أن تدخلها إلّا أرواح الأبطال؟

كانت الصلة التي شدّت انتباهها فجأةً تكافح في ذهنها منذ الصباح، مثل القلق الخافت ولم يكن لديها وقت للتعرّف عليها. كانت تعرف ذلك، لكنّها لم تفكّر إلّا في مصيره وقراره الشخصيّ، فقد فكّرت فيه على أنّه يتصرّف بمفرده. أمّا الآن فتذكّرت خطرًا أوسع، واستشعرت ما للعدوّ الذي ستواجهه من شكل واسع وغير محدّد.

فقالت ببطء: وأنت واحد منهم، أليس كذلك؟

ـ ممّن؟

ـ هل كنت في مكتب كين داناغر؟

قال وهو يبتسم: لا.

ـ هل يوجد في الواقع –وحسب علمك – أحد المدمّرين الطلقاء في العالم؟

ـ بالطبع.

ـ من يكون؟

ـ أنتِ.

فتجاهلته؛ لكنّ وجهها ازداد قسوة فقالت: وماذا عن الرجال الذين استقالوا، هل هم أحياء أم أموات؟

ـ إنّهم موتى، إذا كان هذا هو ما يشغلك. لكن سيكون هناك عصر نهضة ثانٍ في العالم وسوف أنتظره.

ـ لا! لا، لا تنتظرني!

ـ سأنتظرك دائمًا، بغضّ النظر عمّا سيفعله أيّ واحد منّا.

ثمّ سمعا صوت دوران مفتاح في قفل باب المدخل. وفُتِح الباب ودخل هانك ريردن. توقّف لفترة وجيزة عند العتبة، ثمّ سار ببطء في غرفة المعيشة، ويده تضع المفتاح في جيبه. كانت داغني تدرك أنّه رأى وجه فرانسيسكو قبل أن يرى وجهها. ثمّ نظر إليها، لكنّ عينيه عادتا إلى فرانسيسكو، كما لو أنّه الوجه الوحيد الذي قدر على رؤيته الآن.

كانت داغني خائفة من النظر إلى وجه فرانسيسكو. لقد بذلت جهدًا لتسحب نظرتها بتثاقلٍ على طول منحنى بضع خطوات، وكأنّها كانت تسحب كتلة تتجاوز قوّتها. ارتفع فرانسيسكو بقدميه، كما لو أنّه لم يكن على عجلة من أمره، بتلقائيّة آل

دانكونيا المدرّبة على قانون المجاملة. لم يكن هناك شيء يمكن أن يراه ريردن في وجهه. لكنّ ما رأته فيه كان أسوأ ممّا خشيت.

سأله ريردن، بنبرة قد يستخدمها المرء أثناء القبض على أحد الصعاليك في غرفة النوم: ماذا تفعل هنا؟

ردّ فرانسيسكو: أرى أنّه ليس من حقّي أن أطرح عليك السؤال ذاته.

قال ريردن: هل بإمكانك الإجابة على سؤالي؟

قالت داغني: هانك، إن كنت ترغب في طرح أيّ أسئلة فينبغي أن توجّهها إليّ.

لم يبد أنّ ريردن يراها أو يسمعها فكرّر: هل بإمكانك الإجابة على سؤالي؟

قال فرانسيسكو: هناك إجابة واحدة فقط يحقّ لك المطالبة بها، وهكذا سأجيبك بأنّ ما خطر ببالك ليس سبب وجودي هنا.

ردّ ريردن: ثمّة سبب واحد فقط لوجودك في منزل أيّ امرأة، وأعني بذلك أيّ امرأة. هل تعتقد أنّني أصدّق أيّ اعتراف سيصدر منك أو أيّ شيء ستقوله لي؟

ـ لقد أعطيتك أسباب عدم الثقة بي، ولكن لا تقحم الآنسة تاجارت في تلك الشكوك.

ـ لا تقل لي إنّك ستحظى بأيّ فرصة هنا، فهذا لم يكن ولن يكون. كنت أعرف الأمر. ولكن قدّرت أنّه يجب عليّ أن أجدك هنا في أوّل...

ـ قالت داغني: هانك، إذا كنت تتّهمني...

ـ يا إلهي، يا داغني، أنا لا أتّهمك بأيّ شيء! لكن يجب ألّا أراك وأنت تتحدّثين إليه، ويجب ألّا تتعاملي معه بأيّ شكل من الأشكال. فأنت لا تعرفينه كما أعرفه أنا.

ثمّ التفت إلى فرانسيسكو، وقال: وما الذي تبحث عنه؟ هل تسعى إلى إدراجها في نوع من أنواع فتوحاتك أو...

ـ صرخ فرانسيسكو بشكل لاإراديّ: لا!

قال ريردن: لا؟ إذَن هل أنت هنا من أجل مسألة عملٍ؟ هل أنت هنا لتنصب فخًا كما فعلت بي؟ أيّ نوع من أنواع الاحتيال تخطّط له هنا؟

قال: هدفي ... لم يكن ... مسألة عمل.

ـ وماذا كان إذَن؟

ـ إذا كنت لا تزال تهتمّ بتصديقي، فأستطيع أن أقول لك فقط إنّه لا ينطوي على أيّ... خيانة من أيّ نوع.

ـ وهل تعتقد أنّ بإمكانك مناقشة الخيانة في حضوري؟

ـ سأجيبك في يوم من الأيّام، لكن ليس الآن.

ـ أنت لا ترغب في أن أذكّرك بذلك الأمر، أليس كذا؟ لقد بقيت بعيدًا عنّي منذ ذلك الحين، أليس كذا؟ ألم تتوقّع رؤيتي هنا؟ لم تكن تريد أن تواجهني؟

لكنّه يعرف أنّ فرانسيسكو كان يواجهه أكثر من مواجهة أيّ أحد آخر في تلك الأيّام، والتقت عيونهما مباشرة، بملامح لا انفعال فيها ولا دفاع ولا نداء، ملامح مصمّمة عل تحمّل كلّ ما هو قادمٌ. فلاحظ نظرة مفتوحة على شجاعة لا حدّ لها، فكان ذلك وجه الرجل الذي أحبّه، الرجل الذي يراه دومًا غير مذنب، فوجد نفسه يقاتل في مواجهة معرفة أنّ ذلك الوجه لا يزال بالسمات نفسها، بغضّ النظر عن كلّ شيء، وبغضّ النظر عن الشهر الذي قضّاه وهو يحنّ إلى رؤية داغني، ثمّ أضاف:

ـ لماذا لا تدافع عن نفسك، إذا لم يكن لديك شيء تخفيه؟ لماذا أنت هنا؟ ولماذا ذهلت عندما رأيتني أدخل؟

ـ صرخت داغني، لكنّها تراجعت إلى الخلف لأنّها تعرف أنّ العنف هو أخطر عنصر ينبغي تجنّبه في تلك اللحظة: هانك، توقّف عن هذا الهراء!

فالتفت الرجلان إليها. فقال فرانسيسكو بهدوء: اسمحي لي بأن أكون الشخص الذي يجيب.

قال ريردن: قلت لك يا داغني إنّني آمل ألّا أراه مجدّدًا. أنا آسف إذا كان يجب أن تقع مثل هذه الأشياء هنا. ولا يعنيك ذلك، لكن ثمّة شيء يجب أن يدفع ثمنه.

قال فرانسيسكو بجهد: إذا كان ذلك هو... الغرض الذي ترمي إليه، ألم... تحقّقه بعد؟

قال ريردن: ما خطبك؟ وهل هذه هي طريقتك في طلب الرحمة؟

أجابه فرانسيسكو بعد أن استجمع كلّ قواه: نعم ... إذا كنت ترغب في ذلك.

ـ وهل رحمتني أنت عندما كنت تمسك بمستقبلي بين يديك؟

ـ أعذرك، فلك ما شئت من المبرّرات التي تجعلك تفكّر في الأمر على هذا النحو. لكن بما أنّ هذا الأمر لا يتعلّق بالآنسة تاجارت... فهل تسمح لي الآن بالمغادرة؟

ـ لا، وهل تريد التهرّب من الموضوع مثل كلّ هؤلاء الجبناء؟ هل تريد الهرب؟

ـ سوف آتي إلى أيّ مكان تحدّده وفي أيّ وقت تريده. ولكن أودّ ألّا نناقشه بحضور الآنسة تاجارت.

ـ ولم لا؟ أريد أن يكون بحضورها، لأنّ هذا هو المكان الذي لم يكن لديك الحقّ في المجيء إليه. ولم يبق لي شيء يحميني منك، فأنت قد أخذت منّي أكثر ممّا أخذه اللصوص، لقد دمرّت أيّ شيء وقعت عليه يداي، ولكن هذا المكان هو الشيء الوحيد الذي لا ينبغي أن تمتدّ إليه قدماك.

كان يعرف أنّ الغياب الصلب للعاطفة في وجه فرانسيسكو هو أقوى دليل على حضور العاطفة، والدليل على وجود بعض الجهد غير الطبيعيّ تحت السيطرة. كان يعرف أنّ هذا تعذيبٌ وأنّ ريردن مدفوعٌ بشكل أعمى من قبل شعور يشبه متعة الجلّاد، إلا أنّه لا يقدر الآن على معرفة ما إذا كان ذلك تعذيبًا لفرانسيسكو أم لنفسه. ثمّ أضاف:

ـ أنت أسوأ من اللصوص، لأنّك تخون مع سابقيّة إضمار وترصد، وعن وعي تامّ. لا أعرف ما هو شكل الفساد الذي يدفعك، ولكن أريدك أن تتعلّم أنّ هناك أشياء

بعيدة عن متناولك، أو بعيدة عن طموحك أو أحقادك.

ـ ليس لديك شيء... يبرّر خوفك منّي ... الآن.

ـ أريدك أنّ تتعلّم ألّا تفكّر فيها، وألّا تنظر إليها، أو تقترب منها. ومن بين كلّ الرجال، يجب عليك أنت بالذات ألّا تظهر عند حضورها.

كان يعلم أنّه مدفوعٌ بغضب يائس من شعوره الخاصّ تجاه هذا الرجل، وأنّ هذا الشعور لا يزال يعيش في داخله، وأنّ عليه أن يغضب ويدمّر مثل هذا الشعور.

– مهما يكُن دافعك، فيجب عليها أن تكون محميّة من أيّ اتّصال بك.

ـ قال فرانسيسكو: وإذا أقسمت لك بشرفي..

ثمّ توقّف عن الكلام. فضحك ريردن وقال:

ـ أعرف ما تعنيه بقسمك وشرفك الذي كنت تردّده دائمًا باسم المرأة الوحيدة التي كنت...

ثمّ توقّف. وخطا نحو فرانسيسكو؛ وسأله وهو يشير إلى داغني، بصوت منخفض وغريب على عكس عادة صوته، كما لو أنّه لم يأت منه ولم يكن موجّها إلى كائن حيّ: هل هذه هي المرأة التي تحبّ؟

أغمض فرانسيسكو عينيه. ثمّ صرخت داغني قائلةً:

ـ لا تسأله عن ذلك!

ـ هل هذه هي المرأة التي تحبّها؟

أجابه فرانسيسكو، وهو ينظر إليها: نعم.

فارتفعت يد ريردن وارتدّت فصفعت وجه فرانسيسكو. ثمّ دوّت صرخة من داغني. وعندما تمكّنت من الرؤية مجدّدًا –بعد لحظة شعرت فيها وكأنّ الضربة لطمت خدّها– كانت يدا فرانسيسكو أوّل شيء رأته. كان وريث آل دانكونيا مرميًّا إلى الخلف قبالة الطاولة، ممسكًا بالحافّة وراءه، لا لإسناد نفسه، بل لإيقاف يديه. ثمّ رأت

السكون الجامد لجسده، الذي سحبه باسقامة كبيرة لكنّه بدا مكسورًا، بزوايا طفيفة غير طبيعيّة لخصره وكتفيه، وكانت ذراعاه متصلّبتين ومائلتين إلى الخلف. وقف كما لو أنّ الجهد الذي بذله في عدم التحرّك قلبَ قوّة عنفه ضدّ نفسه، وكأنّ الحركة التي قاومها كانت تمرّ عبر عضلاته كآلام التمزّق. ثمّ رأت أصابعه المتشنّجة تكافح من أجل النهوض بسرعة إلى حافّة الطاولة، وتساءلت أيّهما سيكسر أوّلًا، خشب الطاولة أم عظام الرجل.

وعندما انتقلت عيناها إلى وجه فرانسيسكو، لم ترَ أيّ علامة على النضال، فقط جلدُ صدغه كان مشدودًا وخدّاه وقد تقلّصَا إلى الداخل، وكانا على ما يبدو أكثر تجوّفا من المعتاد. لقد جعلت الصفعة وجهه يبدو عاريًا، نقيًّا وشابًّا. أمّا داغني فشعرت بالرعب لأنّها كانت ترى في عينيه الدموع التي لم تنهمر هناك. كانت عيناه رائعتين وجافّتين. وكان ينظر إلى ريردن، لكنّ رؤيته ليست موجّهة إليه. وبدا وكأنّه يواجه حضورًا آخر في الغرفة، كما لو أنّ نظرته تقول: إذا كان هذا ما تطلبه منّي، فحتّى هذا هو لك، لك أن تقبله وعليّ أن أتحمّله، ولا أملك أكثر من هذا في داخلي لأقدّمه لك، ولكن اسمح لي بأن أكون فخورًا إذ عرفت أنّني أستطيع تقديم الكثير. لقد رأت فرانسيسكو – بنبض شريان واحد تحت جلد حنجرته، وزبد من اللون الورديّ في زاوية فمه– وهو يحمل نظرة من التفاني المفرح الذي كان تقريبًا ابتسامةً، فعلمت أنّها تشهد أعظم إنجاز لفرانسيسكو دانكونيا.

وعندما شعرت بأنّها ترتجف وسمعت صوتها، بدت وكأنّها تواجه آخر صدى لصراخها في فضاء الغرفة، وأدركت كم كانت اللحظة وجيزة بين صوتها وصوت الصفعة الوحشيّ وصوت صراخها الموجّه إلى ريردن:

هل تحميني منه؟ ولماذا لم تفعل ذلك منذ زمن طويل...

ـ لا تفعل!

تحرّك رأس فرانسيسكو ليحميها، فقد أمسك انقطاع صوته المفاجئ بكلّ عنفه، فلم يشأ إطلاق العنان لبطشه. فعلمت أنّ ذلك بمثابة الأمر الذي يجب أن يطاع.

التفت فرانسيسكو إلى ريردن بلا حراك من خلال انحناء رأسه ببطء. فرأت يديه قد تركتا حافّة الطاولة فتحرّرتا باسترخاء مريح. وكان ريردن هو الذي يراه الآن، ولم يكن هناك شيء بوجه فرانسيسكو سوى علامات استنفاد الجهد، لكنّ ريردن عرف فجأة كم كان يحبّ ذلك الرجل.

قال فرانسيسكو بهدوء: في حدود معرفتك.. أنت على حقّ.

وهمّ بالمغادرة من دون أن يتوقّع أيّ إجابة. وانحنى لداغني، بطريقة بدت كبادرة بسيطة لأخذ الإذن بالخروج من ريردن، وكبادرة استجابة لها. ثمّ غادر المكان.

وظلّ ريردن يتابع خروج فرانسيسكو. هو يعلم -دون سياق وبيقين مطلق- أنّه كان سيَهَب حياته كاملةً من أجل السلطة التي كانت ستمنعه من ارتكاب الفعل الذي ارتكبه.

عندما التفت إلى داغني، بدا وجهه مستنزفًا ومنفتحًا ومنتبهًا وباهتًا، كما لو أنّه لم يكن يشكّك في وعد الكلمات التي قطعتها على نفسها، بل ينتظر قدومها.

انتابت كلَّ جسدها رعدةٌ من الشفقة، وانتهت بحركة هزّ رأسها. لم تكن تعرف إلى أيّ الرجلين كانت الشفقة موجّهةً، لكنّها جعلتها غير قادرة على الكلام فهزّت رأسها مرارًا وتكرارًا، كما لو أنّها تحاول يائسة أن تنفي شيئًا من معاناة واسعة غير شخصيّة جعلتهما معًا ضحيّتيها.

قال ريردن: إذا كان يوجد شيء يجب أن يقال فتفضّلي.

كان الصوت الذي أدلت به مزيجًا من الضحك والأنين. لم يحمل رغبةً في الانتقام، ولكنّه كان تعبيرًا عن شعور يائس بالعدالة التي قادت مرارة قطع صوتها، عندما صرخت، فرمت الكلمات بوعي صوب وجهه: ألم تكن تريد معرفة اسم ذلك الرجل الآخر؟ الرجل الذي نمت معه؟ الرجل الذي كان معي أوّلًا؟ لقد كان فرانسيسكو دانكونيا!

رأت قوّة الصفعة حين نظرت إلى وجهه وقد اجتاحه الفراغ. فعلمت أنّها إذا كانت

العدالة هي هدفها، فقد حقّقتها، لأنّ تلك الصفعة أسوأ من تلك الطريقة التي كان سيتعامل بها معها.

ثمّ شعرت بالهدوء فجأةً، حين أدركت أنّ كلماتها كان لا بدّ لها من قولها. واختفى شعور اليأس الذي انتابها مثل ضحيّة عاجزة، فهي لم تعد ضحيّة، بل كانت واحدة من المتسابقين، وعلى استعداد لتحمّل مسؤوليّة الفعل. وقفت أمام وجهه، في انتظار أيّ إجابة سيختار أن يعطيها إيّاها، لتشعر تقريبًا كما لو أنّ دورها هو أن تتعرّض للعنف.

لم تعرف شكلَ التعذيب الذي كان يقاومه، أو ما رآه يُدمّر بداخله، فترك رؤيته لنفسه. لم تكن هناك أيّ علامة على الألم لإعطائها أيّ تحذير، ولكن بدا كما لو أنّه كان مجرّد رجل يقف بثباتٍ وسط الغرفة، ممّا يجعل وعيه يدرك حقيقة أنّه يرفض الاستيعاب. ثمّ لاحظت أنّه لم يغيّر من هيئة وقفته، وأنّ يديه كانتا متحرّرتين من الجانبين بأصابع نصف مستعدّة كما كانت لفترة طويلة، وبدا لها أنّها يمكن أن تشعر بالتخدير الثقيل من توقّف الدم في أصابعه، وكان هذا هو الدليل الوحيد على معاناته والذي أوحى إليها بأنّ ذلك التخدير لم يترك أيّ قوّة فيه ليشعر بأيّ شيء آخر، ولا حتّى بوجود جسده. فانتظرت حتّى اختفت شفقتها لتتحوّل إلى نوع من أنواع الاحترام.

ثمّ رأت عينيه تتحرّكان ببطء من وجهها إلى أسفل جسدها، وعرفت نوع التعذيب الذي اختار الآن تجربته، لأنّها كانت نظرة من طبيعة لم يستطيع إخفاءها عنها. كانت تعرف أنّه يراها الآن كما لو أنّها في السابعة عشرة من عمرها، ويراها مع المنافس الذي يكرهه، ويراهما معًا كما سيكونان الآن، مشهدًا لا يستطيع تحمّله أو مقاومته. لقد رأت قدرته على السيطرة تسقط من وجهه، لكنّه لم يهتمّ بها إذا كان يسمح لها برؤيته، فوجهه كان مباشرا وعاريًا، لأنّه لا يوجد الآن شيء لتستشفّه فيه سوى عنف غير عارٍ، يشبه في جزء منه طعم الكراهية.

أمسكها من كتفيها، فشعرت بأنّها مستعدّة لقبول أن يقتلها الآن أو يضربها حتّى تفقد الوعي. ولحظة شعورها باليقين من أنّه فكّر في ذلك، شعرت بأنّ جسدها قد ألقي

عليه وفمه يسقط على فمها، بوحشيّةٍ أكثر ممّا كان يسمح به فعل الضرب.

وجدت نفسها، في رعب، تلتوي بجسدها لمقاومته، وفي ابتهاج، تلفّ ذراعيها حوله، وتمسكه، وتسمح لشفتيها بجلب الدم إليه، وهي تعلم أنّها لم تشتهيه من قبل مثلما كان في تلك اللحظة.

وعندما ألقى بها إلى الأسفل على الأريكة، علمت، من إيقاع نبضات جسده، أنّ فعله يعلن انتصاره على منافسه واستسلام غريمه له. كان الأمر بمثابة غزوه لذلك الرجل عن طريق جسدها. فشعرت بوجود فرانسيسكو من خلال عقل ريردن، وشعرت كما لو أنّها تستسلم لكلا الرجلين، تستسلم لما كانت قد عبدته في كليهما، وما حملاه من قواسم مشتركة، ومن جوهر شخصيّة جعلت من حبّها لكلّ منهما فعل ولاء لكليهما. وكانت تعرف أيضًا أنّ ذلك هو نوع تمرّده على العالم من حولهما، وضدّ عبادة الانحطاط، وضدّ العذاب الطويل لأيّامه المهدورة ونضاله غير الخفيف، ذلك ما أراد تأكيده، وحدَه وهي معه في نصف الظلام العالي في الفضاء فوق مدينة من الأنقاض، ليحتفظ به كآخر ممتلكاته.

بعد ذلك، بقيا ثابتين، ووجهه على كتفها. واستمرّ انعكاس لافتة كهربائيّة بعيدة تخفق وفق ومضات باهتة على السقف فوق رأسها.

مدّ يديه ليمسك يدها ورفعها ومرّر أصابعها على وجهه ليترك فمه يرتاح على راحة كفّها لحظةً، وبكلّ لطف إلى درجة أنّها شعرت بدافعه أكثر من شعورها بلمسته.

بعد فترة، نهضت، ومدّت يدها لأخذ سيجارة، ثمّ وضعت السيجارة في فمها وأشعلتها، ثمّ أمسكت بها ومدّتها إليه بحركة خفيفة من يدها، فأومأ لها، وكان لا يزال يجلس نصف ممدود على الأريكة، فوضعت السيجارة بين شفتيه وأشعلت سيجارة أخرى لنفسها. لقد أحسّت بشعور كبير من السلام بينهما، وقد أكّدت حميميّة الإيماءات غير المهمّة قيمة الأشياء التي لم تكن تقال بينهما. واعتقدت أنّ كلّ شيء قيل، لكنّها علمت أنّ ما قيل كان ينتظر الاعتراف.

لقد لاحظت أنّ عينيه كانتا تتحرّكان صوب باب المدخل بين حين وآخر وتظلّ شاخصة فيه للحظات طويلة، كما لو أنّه لا يزال يرى الرجل الذي غادر.

ـ قال بهدوء: كان يمكنه أن يصدمني بالسماح لي بمعرفة الحقيقة، في أيّ وقت شاء. فلماذا لم يفعل ذلك؟

فتجاهلته، وأشرعت يديها في لفتة من الحزن العاجز، لأنّهما كانا يعرفان الإجابة. فسألته: لقد كان يعني لك الكثير. أليس كذلك؟

ـ بالفعل إنّه يعني لي الكثير.

انتقلت نقطتا النار في عَقِبَي سيجارتَيهما ببطء إلى رؤوس أصابعهما، مع اتّقاد صغير من توهّج عرضيّ وانهيار ليّن من الرماد مثّل الحركة الوحيدة في الصمت، عندما رنّ جرس الباب. كانا يعلمان أنّه ليس الرجل الذي يتمنّيان ولكنّهما لم يتمكّنا من الأمل في رؤية عودته، وعبست بغضب مفاجئ وهي تذهب لفتح الباب. استغرق الأمر لحظة لتتذكّر أنّ الطيف المهذّب الذي رأته ينحني لها، على نحو غير مؤذٍ، بابتسامة قياسيّة من الترحيب كان مساعد مدير الشقق السكنيّة.

ـ مساء الخير يا آنسة تاجارت. نحن سعداء جدًّا لرؤيتك مرّة أخرى بيننا. لقد جئت للتوّ في الخدمة وسمعت أنّك عدت وأردت أن أحيّيك شخصيًّا.

ردّت وهي واقفة عند الباب: شكرًا لك.

ـ لديّ رسالة جاءتك قبل حوالي أسبوع يا آنسة تاجارت. بدا الأمر كما لو أنّه قد يكون مهمًّا، لكن بما أنّني وجدت عبارة 'شخصيّ' مكتوبة على الظرف فمن الواضح أنّه لم يكن من المفترض إرسالها إلى مكتبك، وإلى جانب ذلك، فعمّال العمارة لا يعرفون عنوانك، لذلك لم يعلموا إلى أين يرسلونها، فاحتفظت بها في خزانتنا وفكّرت في تسليمك إيّاها شخصيًّا

لقد كتب على الظرف الذي سلّمها إيّاه: مسجّل -البريد الجويّ- التسليم الخاصّ- شخصيّ. أمّا عنوان الباعث فهو: كوينتن دانيلز، معهد يوتا للتكنولوجيا، مدينة أفتون،

ولاية يوتا.

ـ أوه... شكرًا لك.

لاحظ مساعد المدير أنّ صوتها تحوّل من نبرة منخفضة إلى همسٍ، ذلك التستّر المهذّب عن طريق الدهشة، ولاحظ أيضًا أنّها وقفت تنظر إلى اسم المرسل لفترة أطول بكثير ممّا كان ضروريًّا، لذلك كرّر لها تمنّياته الطيّبة، ثمّ غادر.

فتحت الظرف بينما كانت تسير نحو ريردن، وتوقّفت في وسط الغرفة لقراءة الرسالة. كانت مكتوبة على ورق رفيع، فكان بإمكان ريردن رؤية المستطيلات السوداء للفقرات من خلال الأوراق الشفّافة، وكان بإمكانه أيضًا رؤية وجهها وهي تقرأ الرسالة.

كان يتوقّع ذلك، وبحلول الوقت الذي رآى فيه أنّها أنهت قراءة الرسالة: شاهدها وهي تهرع إلى الهاتف، ثمّ سمع دوّامة عنيفة من الاتّصالات الهاتفيّة وصوتها يقول بإلحاحٍ وهي ترتجف: خطوط المسافات الطويلة، من فضلك... أيّها المشغل، أودّ الحصول على رقم خطّ بولاية يوتا لمعهد التكنولوجيا في أفتون، يوتا!

ـ سألها ريردن وهو يقترب منها: ما خطبك؟

ففتحت الرسالة ونشرتها، من دون أن تنظر إليه، وعيناها مثبّتتان على الهاتف، كما لو أنّها كانت تودّ إجبار الهاتف على الردّ.



جاء في الرسالة:

(عزيزتي الآنسة تاجرت:

لقد ناضلت لمدّة ثلاثة أسابيع، ولم أعد أرغب في القيام بالمهمّة، وأعلم مدى الصدمة التي ستصحب هذا القرار، كما أعلم كلّ حجّة يمكنك تقديمها لي، لأنّني وجّهت الحجج ذاتها إلى نفسي، ولكن أوّد إخبارك بأنّني سأستقيل.

لا أستطيع العمل بموجب أحكام القانون التوجيهي رقم289-10 - ولكن ليس للسبب الذي قصده مشرّعوه. أعلم أنّ إلغاءهم كلَّ البحوث العلميّة لا يعني لعنةً لك

أو لي، وأنّك تريدين منّي أن أستمرّ. لكن عليّ أن أستقيل، لأنّني لم أعد أرغب في النجاح.

لا أريد أن أعمل في عالم يعتبرني عبدًا. ولا أريد أن أكون مهمًا في عيون الناس. وإذا نجحت في إعادة بناء المحرّك، فلن أدعك تضعينه في خدمتهم. فضميري لن يحتمل أن يُستَخْدَم أيّ شيء ينتجه عقلي لجلب رفاهيتهم.

أعلم أنّنا إذا نجحنا، فسيكونون متلهّفين جدًّا لمصادرة المحرّك. ومن أجل هذا الاحتمال، علينا أن نقبل بأن نكون في موقف المجرمين، أنا وأنت، ونعيش تحت التهديد بالقبض علينا في أيّ لحظة على هواهم. وهذا هو الشيء الذي لا يمكنني تحمّله، حتّى لو كنت قادرًا على تقبّل الباقي كلّه: فمن أجل أن نمنحهم منفعة لا تُقَدَّرُ بثمنٍ، يجب أن نكون شهداء للبشر الذين –ما عدا نحن– لم يكن بوسعنا أن نتصوّر وجودهم. لعلّي سامحت البقيّة، ولكن عندما أفكّر في ذلك، أقول: قد يكونون ملعونين، وسأراهم جميعًا يموتون من الجوع، وأنا منهم، بدلًا من أن أسامحهم على ذلك أو أسمح به!

وكي أخبرك بالحقيقة الكاملة، فأنا أريد أن أنجح، في حلّ سرّ المحرّك، أكثر من أيّ وقت مضى. لذلك سأستمرّ في العمل عليه من أجل تحقيق متعتي الخاصّة مادمتُ على قيد الحياة. ولكن إذا نجحت في حلّه، فسوف يظلّ سرًّا خاصًّا. ولن أفرج عنه لأيّ استخدام تجاريّ. لذلك، لا يمكنني أخذ أموالك بعد الآن. ومن المفترض أن تكون النزعة التجاريّة خسيسة، لذلك يجب أن يوافق جميع هؤلاء الناس على قراري، فقد تعبتُ من مساعدة أولئك الذين يحتقرونني.

لا أعرف كم من الوقت سأستمرّ أو ماذا سأفعل في المستقبل. أمّا في الوقت الحاضر، فإنّني أنوي البقاء في عملي بهذا المعهد. ولكن إذا كان ينبغي على أيّ من أمنائها أو أعوان الاستقبال تذكيري بأنّني ممنوع قانونيًّا من العمل وأنّه يجب عليّ التوقّف عن أن أكون عامل الحراسة هنا، فسوف أستقيل.

لقد منحتني أعظم فرصة، وإذا كنتُ أوجّه إليك الآن ضربة موجعة، فلعلّه يتوجّب عليّ طلب السماح منك. وأعتقد أنّك تحبّين عملك بقدر ما أحببت عملي، لذلك

ستعلمين أنّ قراري لم يكن من السهل اتّخاذه، ولكن كان عليّ أن أتّخذه.

لقد انتابني شعور غريب أثناء كتابة هذه الرسالة. فأنا لا أنوي أن أموت، لكنّني أتخلّى عن العالم، وما أكتبه يبدو وكأنّه رسالة انتحار. لذلك أريد أن أقول إنّه من بين جميع الأشخاص الذين عرفتهم، أنت الشخص الوحيد الذي سأشعرُ بالأسفِ على تركه خلفي.

صديقك المخلص كوينتين دانيلز)

وعندما نظر ريردن إليها من خلال ورقة الرسالة، أنصت إليها وهي تردّد، كما سمعها من خلال كلمات الخطوط المكتوبة، تقول بصوتها المرتفع بنبرة اليأس في كلّ مرّة:

ـ استمرّ في الاتّصال أيّها المشغّل!.. رجاءً الاستمرار في معاودة الطلب!

ـ سألها ريردن: بمَ ستخبريه ولاسيّما أنّك لا تملكين حججًا مقنعة؟

ـ لن أحظى بفرصة أخرى لأخبره! لقد غادر الآن. الرسالة كتبت قبل أسبوع. وأنا متأكّدة من رحيله. لقد أوقعوه في الفخّ وألقوا القبض عليه.

ـ من قبض عليه؟

ـ نعم، يا عامل التشغيل، سأبقي الخطّ مفتوحًا، واصل المحاولة!

ـ ماذا ستقولين له إن أجاب؟

ـ سأتوسّل إليه أن يستمرّ في أخذ أموالي، دون قيد أو شرط، حتّى تتوفّر له الوسائل للاستمرار! وسأعده بأنّه إذا نجح وتمكّن من ذلك، ونحن بعدُ في عالم اللصوص، لن أطلب منه أن يعطيني المحرّك أو حتّى أن يخبرني بسرّه. ولكن إذا أصبحنا أحرارًا بحلول ذلك الوقت...

ـ إذا كنّا أحرارًا...

ـ كلّ ما أريده الآن هو ألّا يستسلم ويختفي مثل... كلّ الآخرين. لن أسمح لهم

بالحصول عليه. وإذا لم يفت الأوان.. يا إلهي، لا أريدهم أن يحصلوا عليه!.. نعم، أيّها المشغل، حاول الاتّصال به مجددا.

ـ وما فائدة هذا الأمر، حتّى لو استمرّ في العمل؟

ـ هذا كلّ ما أرجوه أن يفعله، فقط ألّا يتوقّف عن العمل. قد لا نحظى أبدًا بفرصة لاستخدام هذا المحرّك في المستقبل. لكن أريد أن أعرف أنّه في مكان مّا من العالم لا يزال هناك عقل كبير يبدع. ثمّة فرصة في المستقبل... فإذا تمّ التخلّي عن هذا المحرّك مرّة أخرى، فلن يبقى أمامنا شيء سوى ستارنسفيل.

ـ نعم، أعرف ذلك.

وظلّت تحمل سمّاعة الهاتف وتضغط بها على أذنها، وقد تصلّبت ذراعها بقسوة بسبب الجهد الذي تبذله لكي لا ترتعش يدها. وانتظرت، بينما كان ريردن يسمع، في صمت، النقرَ العقيم لإجراء المكالمة التي لم يتمّ الردّ عليها حتّى الآن.

ـ قالت: لقد غادر، لقد قبضوا عليه. فمدّة أسبوع أطولُ بكثير ممّا يحتاجون إليه. لا أعلم كيف يحصلون على معلوماتهم في الوقت المناسب، لكن هذا...

أشارت إلى الرسالة، ثمّ أضافت: كان هذا وقتهم، وما كان لهم أن يفوّتوه.

ـ من؟

ـ العملاء المدمّرون.

ـ هل أصبحت تؤمنين بأنّهم موجودون حقًّا؟

ـ نعم.

ـ هل أنت جادّة؟

ـ لقد التقيت بواحد منهم.

ـ من؟

ـ سأخبرك لاحقًا، فأنا لا أعرف من هو قائدهم، لكنّي سأكتشف ذلك في أحد

الأيّام. سأكتشف ذلك وسأكون ملعونة إذا سمحت لهم...

انقطعت عن اللهاث؛ فلاحظ التغيير في ملامح وجهها في اللحظة التي سبقت سماعه نقرةَ رفعٍ لجهاز استقبالٍ بعيد صاحَبَه صوت رجل يقول في الهاتف:

ـ مرحبا.

ـ دانيالز! هل هذا أنت؟ هل ما تزال على قيد الحياة؟ هل ما تزال هناك؟

ـ لماذا كلّ هذه الأسئلة؟ نعم، مازلتُ هنا. هل هذه أنتِ يا آنسة تاجارت؟ ما خطبك؟

ـ لقد...اعتقدت أنّك غادرت.

ـ أوه، أنا آسف، لقد سمعت رنين الهاتف للتوّ، وكنت في الخارج، في الجزء الخلفيّ، أجمع بعض الجزر.

ـ قالت وهي تضحك بارتياح هستيري: الجزر؟

ـ هناك ركن خصصّته لزراعة بعض الخضراوات. كان موقفًا للسيّارات بالمعهد. هل تتّصلين من نيويورك يا آنسة تاجارت؟

ـ نعم، لقد تلقّيت رسالتك للتوّ. لم أكن بالشقّة... لقد سافرت بعيدًا وعدت الآن.

ـ قال بهدوء: أوه... يا آنسة تاجارت، ليس عندي ما أضيف بخصوص هذا الموضوع.

ـ قل لي هل كنت تخطّط للمغادرة؟

ـ لا.

ـ أنت لم تكن تخطّط للمغادرة؟

ـ لا، إلى أين سأغادر؟

ـ هل تنوي البقاء في المعهد؟

ـ نعم.

ـ إلى متى؟ إلى أجل غير مسمّى؟

ـ نعم على حدّ علمي.

ـ هل اقترب منك أحد وحدّثك عن أيّ أمر؟

ـ بشأن ماذا؟

ـ بشأن المغادرة.

ـ لا، ومن تظنين أنّه سيزورني؟

ـ اسمع يا دانيلز، لن أحاول مناقشة رسالتك عبر الهاتف. لكن يجب أن أتحدّث إليك شخصيًّا وأنا قادمة لرؤيتك، سأصل إلى هناك في أقرب وقت ممكن.

ـ لا أريدك أن تفعلي ذلك يا آنسة تاجارت. لا أريدك أن تتكبّدي كلّ هذا العناء الذي قد يكون بلا جدوى.

ـ هلّا منحتني فرصة؟ فأنت لست مجبرًا على تغيير رأيك، ولا يجب عليك أن تلزم نفسك بأيّ شيء. امنحني فقط جلسة استماع. إن أردتُ أن آتي، فهي مخاطرتي، وأنا سأتحمّل العواقب. هناك أشياء أريد أن أقولها لك، وأنا أطلب منك فقط أن تمنحني فرصة لأسرّ لك بها

ـ أنت تعرفين أنّني سأمنحك دائما تلك الفرصة يا آنسة تاجارت.

ـ سأغادر فورًا، سأتوجّه إلى ولاية يوتا في الحال.. لكن هناك شيء واحد أريدك أن تعدني به: هل ستعدني بأن تنتظرني؟ وهل ستعدني بأن تكون هناك عندما أصل؟

ـ لماذا؟ بالطبع يا آنسة تاجرت. إلّا إذا متّ أو حدث شيء خارج إرادتي، ولكن لا أتوقّع أن يحدث ذلك.

ـ ما عدا الموت، هل ستنتظرني مهما حدث؟

ـ بالطبع.

ـ أقسم بشرفك أنّك ستنتظرني؟

ـ نعم،أعدك بأنني سأنتظرك.

ـ شكرًا لك، ليلة سعيدة.

ـ ليلة سعيدة يا آنسة تاجارت.

أنزلت السمّاعة والتقطتها مرّة أخرى بنفس اكتساح يدها وطلبت بسرعة رقمًا آخر.

ـ إيدي؟ اطلب منهم أن يجهّزوا لي القطار المذنّب... نعم، القطار المذنّب المعدّ لهذه الليلة. أعطهم أوامر بأن يلحقوا عربتي الخاصّة به، ثمّ تعال إلى هنا، إلى منزلي على الفور.

ثمّ نظرت إلى ساعتها. وأضافت: إنّها الثامنة واثنتي عشرة دقيقة. مازالت لديّ ساعة لأجهّز نفسي ولا أعتقد أنّني سأستغرق الكثير من الوقت في ذلك. سأحدّثك لاحقًا بعد أن أحزم أمتعتي.

ثمّ أغلقت داغني الخطّ والتفتت إلى ريردن. فقال لها: هل ستسافرين الليلة؟

ـ يجب عليّ أن أسافر.

ـ أظن أنّه يجب عليك القيام بذلك فعلًا. لكن أليس عليك الذهاب، على أيّ حال، إلى كولورادو؟

ـ نعم، لقد كنت أنوي المغادرة ليلة الغد لكن أعتقد أنّ إيدي يمكنه الاعتناء بمكتبي، ومن الأفضل أن أبدأ الآن. سيستغرق منّي الأمر ثلاثة أيّام... بل سيستغرق الآن خمسة أيّام للوصول إلى يوتا. يجب أن أسافر بالقطار، هناك أشخاص يجب أن أراهم على الخطّ... ولا يمكن تأخير ذلك أيضًا.

ـ كم ستبقي في كولورادو؟

ـ من الصعب معرفة ذلك.

ـ ستتّصلين بي عندما تصلين، أليس كذلك؟ وإن طالت مدّة غيابك، فسألتحق بك إلى هناك.

كان هذا هو التعبير الوحيد الذي يمكن أن يمنحه للكلمات التي رغب بشدّة في قولها لها، وانتظر المناسبة ليقولها، بل إنّه جاء إلى هنا ليقولها، وقد رغب الآن في نطقها أكثر من أيّ وقت مضى، لكنّه كان يعلم أنّها يجب ألّا تقال في تلك الليلة.

ومن خلال التوتّر الخافت والرسميّ في نبرة صوته عرفت أنّ ذلك كان تعبيرًا عن قبوله لاعترافها، واستسلامه، ومغفرته. فسألته:

ـ وهل باستطاعتك مغادرة المطاحن؟

ـ سيستغرق الأمر منّي بضعة أيّام لترتيب الأمر، لكن يمكنني، على كلّ حال، فعل ذلك.

كان يدرك ما تقرّه كلماتها، وتعترف به، عندما قالت: هانك، لماذا لا تقابلني في كولورادو خلال أسبوع؟ فإذا أقلعت بطائرتك، سنصل إلى هناك في الوقت نفسه، ثمّ نعود معًا.

ـ حسنًا... يا أعزّ الناس.

***

كانت تملي قائمة من التعليمات بينما تسير في غرفة نومها وتجمع ملابسها وتحزم حقيبتها على عجل. وكان ريردن قد غادر؛ بينما جلس إيدي ويلرز قرب منضدة ملابسها، يُدوّن الملاحظات. وبدا أنّه يعمل بأسلوبه المعتاد من الكفاءة التي لا يمتدّ إليها الشكّ، كما لو أنّه لا يعرف شيئًا عن زجاجات العطور وصناديق مساحيق التجميل، وكأنّ منضدة الملابس طاولةٌ والغرفة ليست سوى مكتبٍ.

قالت وهي تلقي الملابس الداخليّة في الحقيبة:

ـ سأتّصل بك من شيكاغو، وأوماها، وفلاغستاف، وأفتون.. إذا احتجت إليّ في مواعيد أخرى، فاستدع أيّ مشغل للخطّ، ووجّه إليه الأوامر بإعلامي في القطار.

ـ سألها بلطف: بالقطار المذنّب؟

ـ طبعًا! بالقطار المذنّب.

ـ حسنًا.

ـ لا تتردّد في الاتّصال بي إذا اضطُررت إلى ذلك.

ـ حسنًا، ولكن لا أعتقد أنّني سأضطّر إلى الاتّصال بك.

ـ سنتدبّر أمورنا. وسنعمل عبر التواصل من خلال هاتف الخطوط البعيدة، تمامًا كما فعلنا عندما توقّفنا.

سألها بهدوء:

ـ هل عندما كنّا نبني خطّ جون جالت؟

فنظر أحدهما إلى الآخر، لكنّهما لم يقولا شيئًا آخر. فسألته:

ـ ما هو آخر تقرير وصلك من طواقم البناء؟

ـ كلّ شيء يجري على قدم وساق. لقد تلقّيتُ خبرًا، بعد أن غادرت المكتب، بأنّ عصابات مدرّجات الجبال بدأت في العمل بالمدن مثل لوريل، بولاية كانساس، ومدينة جاسبر، بولاية أوكلاهوما. والسكّة الحديديّة في طريقها إليهم من قسم سيلفر سبرينغز. سيكون كلّ شيء على ما يرام. وكان أصعب شيء يستوجب العثور عليه هو..

ـ الرجال؟

ـ نعم الرجال الذين يجب أن توكل إليهم المسؤوليّة. لقد واجهنا مشكلة في الغرب، على مدى مدينة إلجين إلى مدينة ميدلاند. فكلّ الرجال الذين كنّا نعتمد عليهم رحلوا ولم أجد أحدًا قادرًا على تحمّل المسؤوليّة في خطّنا ولا في أيّ مكان آخر. حتّى إنّني حاولت الحصول على دان كونواي، ولكن...

ـ دان كونواي؟

ـ نعم، فعلت ذلك وحاولت الحصول على خدماته. هل تتذكّرين كيف كان يثبّت

السككَ الحديديّةَ بإتقانٍ، بمعدّل خمسة أميال في اليوم بذاك الجزء من البلاد؟ أعلم أنّ لديه أسبابه ليكره جسارتنا، لكن ما الذي يهمّ الآن؟ لقد وجدته. إنّه يعيش في مزرعة بولاية أريزونا. واتّصلت به، وتوسّلت إليه أن ينجدنا، وأن يتولّى المسؤوليّة لليلة واحدة فقط، وبناء خمسة أميال ونصف من المسار. خمسة أميال ونصف يا داغني، تلك هي المسافة التي نحن عالقون في إنجازها، وهو أعظم من يبني السكك الحديديّة اليوم! قلت له إنّني أطلب منه أن يفعل ذلك كبادرة إحسان لنا، إن فعل ذلك طبعًا. أتعلمين، أعتقد أنّه فهمني، فهو لم يكن غاضبًا بل بدا حزينًا. لكنّه رفض في الأخير وقال إنّه يجب على المرء ألّا يحاول إعادة الناس من القبور... ثمّ تمنّى لي حظًّا وافرًا. أعتقد أنّه كان يعني ذلك، ولا أحسبه من بين أولئك الذين أسقطتهم الأيادي المدمّرة. بل أظن أنّه أفلس وحطّم نفسه بنفسه.

ـ نعم، أعلم أنّه فعل ذلك بنفسه.

ثمّ لاحظ إيدي هيئة وجهها فسحب نفسه على عجل، وقال: أوه، لقد وجدنا أخيرًا رجلًا يكون المسؤول في مدينة إلجين.

ثمّ أضاف بلهجة الواثق من نفسه: لا تقلقي، سيتمّ بناء المسار قبل وقت طويل من وصولك إلى هناك.

فنظرت إليه وهي تبتسمّ، ثمّ فكّرت في عدد المرّات التي قالت فيها له هذه الكلمات والشجاعة اليائسة التي كان يحاول الآن أن يبعثها فيها ليقول: لا تقلقي. فالتقط نظرتها، بعد أن فهمها، وأتت إجابته في شكل ابتسامة كانت بها لمسة اعتذار محرج.

ثمّ عاد إلى دفتر ملاحظاته، وشعر بالغضب من نفسه، لقد أحسّ بأنّه خالف وعده غير المعلن، وقال في نفسه: لا تصّعب عليها الأمور. لم يكن ينبغي عليه إخبارها بأمر دان كونواي؛ ولم يكن ينبغي عليه أن يقول لها أيّ شيء لتذكير كليهما على حدّ سواء باليأس الذي يشعران به. وتساءل عمّا يواجهه من مشكلٍ، فقد ظنّ أنّ من غير المبرّر أن ينحرف انضباطه لمجرّد أنّ المكان غرفةٌ وليس مكتبًا.

استرسلت في الكلام، وهو ينصت إليها، وينظر إلى أسفل في دفتره، ويدوّن بعض التعليقات المختصرة من حين إلى آخر. ولم يسمح لنفسه بالنظر إليها مجدّدًا.

تركت باب خزانتها مفتوحًا، ثمّ نزعت علّاقة الملابس من إحدى البدلات وطوت البدلة بسرعة، بينما استمرّ صوتها يسرد التعليمات على إيدي بدقّةٍ غير مستعجلة. أمّا إيدي فلم يرفع نظره إلى أعلى. كان واعيًا بحضورها فقط عن طريق الصوت. وكان يعتقد أنّه يعرف خطأه؛ فهو لا يريدها أن تتركه، ولا يريد أن يفقدها مرّة أخرى بعد لحظات وجيزة جدًّا من لمّ الشمل. ولكن أن يقحم شعوره الشخصيّ بالوحدة في وقتٍ يعلم فيه مدى حاجة السكك الحديديّة بولاية كولورادو إليها، كان عملًا من أعمال عدم الولاء الذي لم يرتكبه من ذي قبل، فأحسّ بشعور مبهم وموحش بالذنب.

ـ قالت: أرسل توجيهات بأن يتوقّف القطار المذنّب عند كلّ نقطة تقسيم، وأن يعدّ جميع المشرفين على الأقسام تقريرًا عن...

ألقى نظرة خاطفةً، ثمّ توقّفت نظرته ولم يسمع باقي الكلمات. لقد رأى ثوب رجلٍ معلّقًا في الجزء الخلفيّ من باب الخزانة المفتوح، ثوبًا أزرق داكنًا طرّزت الأحرف الأولى من اسمه (هـ – ر) بالأبيض على جيب الصدر.

فتذكّر أين رأى ذلك الثوب من قبل، وتذكّر الرجل الذي كان يواجهه عبر مائدة الفطور في فندق واين فوكلاند، وتذكّر ذلك الرجل القادم، دون سابق إنذار، إلى مكتبها في وقت متأخّر من ليلة عيد الشكر، وأدرك أنّه كان ينبغي عليه أن يعرف ذلك، فهزّه شعور يشبه حدوث رجّتين جوفيّتين تحت الأرض لزلزال واحد: لقد انتابه شعور بالرغبة في الصراخ وقول لا! بوحشيّة، إلى درجة أنّ الصراخ، وليس المشهد، أسقط كلّ دعامة بداخله. لم تكن صدمة الاكتشاف، بل الصدمة الأكثر فظاعة لما اكتشفه بنفسه.

وتمسّك بفكرة واحدة وهي أنّه يجب ألّا يدعها ترى ما لاحظه أو ما فعلته به تلك الملاحظة. شعر بإحساس من الإحراج المضخّم إلى حدّ التعذيب الجسديّ؛ بمثابة الرعب من انتهاك خصوصيّتها مرّتين: من خلال معرفة سرّها والكشف عن سرّه

الخاصّ. فانحنى إلى أسفل أكثر على دفتر ملاحظته وركّز على غرضه المباشر وهو إيقاف القلم الرصاص عن الاهتزاز.

ـ ... لا يزال أمامنا بناء خمسين ميلًا من المسارات الجبليّة، ولا يمكننا الاعتماد على أيّ شيء ما عدا الموادّ التي نملكها.

ـ قال بصوت مهموس: عذرًا لم أسمع ما قلت.

ـ قلت أريد تقريرًا من جميع المشرفين على كلّ شبر من السكك الحديديّة وكلّ قطعة من المعدّات المتاحة في أقسامهم.

ـ حسنًا

ـ سوف أتشاور مع كلّ واحد منهم على حدة. وسأقابلهم في عربتي على متن القطار المذنّب.

ـ حسنًا.

ـ أرسل وعدًا – على نحو غير رسميّ – بأنّه يمكن لسائقي القطارات تعويض زمن توقّف القطارات من خلال السير بسرعة سبعين ميلًا أو ثمانين أو حتّى مائة في الساعة، أو القيام بأيّ شيء يحلو لهم كلّما دعتهم الحاجة إلى ذلك، وأنّني سوف... إيدي؟

ـ نعم، حسنًا.

ـ إيدي، ما خطبك؟

كان عليه أن ينظر إلى أعلى، ليواجهها بيأسٍ، كان عليه أن يكذب للمرّة الأولى في حياته: أنا ... أخشى من المتاعب التي سنواجهها مع القانون.

ـ انسَ الأمر، ألا ترى أنّه لم يتبقّ أيّ قانون؟ فكلّ شيء مباحٌ الآن.. وفي الوقت الحاليّ نحن مَن نفرض شروطنا.

وعندما كانت مستعدّة وجاهزة للرحيل، حمل حقيبتها إلى سيّارة الأجرة، ثمّ إلى أسفل منصّة محطّة تاجارت ومن ثمّ إلى عربة مكتبها، التي كانت تقع في آخر القطار

المذنّب. ثمّ وقف على المنصّة، ورأى اهتزاز القطار وهو يتحرّك إلى الأمام وشاهد العلامات الحمراء على الجزء الخلفيّ من عربتها وهي تنزلق ببطء بعيدا عنه في الظلام الطويل من نفق الخروج. وعندما رحلوا، شعر بما يشعر به المرء بسبب فقدان حلم لم يدرك قيمته إلّا بعد ضياعه.

كان عدد قليل من الناس على المنصّة من حوله، ويبدو أنّهم يتحرّكون بوعي ذاتيّ مجهد، كما لو أنّ الشعور بالكارثة قد تشبّث بالقضبان والعوارض فوق رؤوسهم. كان يعتقد بلامبالاة أنّ الناس عادوا، بعد قرن من الأمان، ينظرون إلى حدث رحيل القطار بوصفه حدثًا ينطوي على مقامرة بالأرواح.

ثمّ تذكّر أنّه لم يتناول العشاء، ولم يشعر بأيّ رغبة في تناول الطعام، ولكنّ الكافيتريا بالطابق تحت الأرض في محطّة تاجارت كانت تمثّل له منزلًا أكثر من مكعّب الفضاء الفارغ الذي يعتقد أنّه شقّته الآن. لذلك سار إلى الكافيتريا، لأنّه لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه.

كانت الكافيتريا شبه مهجورة، لكن أوّل شيء رآه، وهو يدخل، كان عمودًا رقيقًا من الدخان يتصاعد من سيجارة العامل، الذي جلس وحيدًا على الطاولة في زاوية مظلمة.

لم يلاحظ إيدي ما وضعه على صينيّته، وحملها إلى طاولة العامل، وقال: مرحبًا، ثمّ جلس ولم يقل شيئًا آخر. ونظر إلى الأواني الفضّيّة المنتشرة أمامه، وتساءل عن الغرض منها، وتذكّر استخدام الشوكة وحاول أداء حركات الأكل، لكنّه وجد أنّها خارج سلطته. وبعد فترة، نظر إلى أعلى ورأى أنّ عيني العامل كانتا تدرسانه بانتباه.

قال إيدي:

ـ لا، لا عليك، لا يوجد شيء. إنّها مشكلتي... أوه نعم، لقد حدثت أمور كثيرة، ولكنّ ذلك لا يحدث فارقًا الآن؟.. نعم، لقد عادت... ماذا أيضًا؟ تريدني... أن أخبرك عن حدث عودتها؟.. وكيف عرفتَ أنّها عادت؟ أوه حسنًا، أعتقد أنّ الشركة

كلّها علمت بذلك خلال الدقائق العشر الأولى... لا، لا أعرف ما إذا كنت سعيدًا بعودتها... بالتأكيد، وقالت إنّها ستنقذ السكك الحديديّة لمدّة سنة أخرى أو شهر... ماذا تريدُ منّي أن أقول؟... لا، لم تفعل ذلك، ولم تخبرني بالأشياء التي تعوّل عليها، ولم تخبرني أيضًا بما تعتقد أو تشعر... حسنًا، كيف كان شعورها حسب ظنّك؟ إنّه شعور بالجحيم... حسنًا، وبالنسبة إليّ أيضًا! فقط، نوعي من الجحيم هو خطئي الخاصّ... لا. لا شيء. لا أستطيع التحدّث عن ذلك... التحدّث؟ لا يجب حتّى أن أفكّر في الأمر، يجب عليّ أن أوقفه، أعني أن أوقف التفكير فيها.

وظلّ صامتًا وتساءل لماذا جعلته عينا العامل -وهما تبدوان دائمًا وكأنّهما تبصران كلّ شيء بداخله- يشعر بعدم الارتياح في تلك الليلة. ثمّ ألقى نظرة خاطفة على الطاولة، ولاحظ أعقاب سجائر كثيرة بين بقايا الطعام على طبق العامل.

ـ سأله إيدي: هل تعاني أنت أيضًا من مشكلة مّا؟ أوه، لقد استنتجت ذلك فقط بما أنّك جلست هنا لفترة طويلة هذه الليلة، أليس كذلك؟.. هل كنت تنتظرني؟ ولماذا يجب عليك أن تنتظرني؟.. كما تعلم، لا أعتقد أنّك تهتمّ بما إذا رأيتني أم لا، فأنت لا تكترث برؤيتي أو رؤية أيّ شخص آخر. لقد كنتَ تبدو كاملا معتدًّا جدًّا بنفسك، وهذا هو السبب الذي يجعلني أحبّ أن أتحدّث إليك، لأنّني شعرت بأنّك تفهمني دائما، ولكن لا شيء يمكن أن يلحق بك أيّ ضرر.. كنت تبدو كما لو أنّه لا يوجد على الإطلاق شيء يمكن أن يصيبك بالأذى، وهذا ما يجعلني أشعر بالحرّيّة، كما لو... كما لو أنّه لا يوجد ألم في العالم... هل تعرف ما الغريب في وجهك؟ تبدو كما لو أنّك لم تعرف الألم أو الخوف أو الذنب... أنا آسف لأنّني تأخّرت الليلة إذ كان عليّ أن أودّعها.. لقد غادرت للتوّ، على متن القطار المذنّب... نعم، الليلة، الآن... نعم، لقد رحلت... نعم، كان قرارًا مفاجئًا... كانت تنوي المغادرة ليلة الغد، لكن حدث شيء غير متوقّع فاضطرّت إلى الذهاب على الفور... نعم، إنّها ذاهبة إلى ولاية كولورادو، ثمّ بعد ذلك... إلى ولاية يوتا. أوّلًا... لأنّها حصلت على رسالة من كوينتن دانيلز تخبرها بأنّه سيغادر، والشيء الوحيد الذي لن تتخلّى عنه هو المحرّك. أنت تذكر،

المحرّك الذي أخبرتك عنه، والبقايا التي وجدتها... دانيلز؟ إنّه عالم الفيزياء الذي كان يعمل في العام الماضي بمعهد يوتا للتكنولوجيا، في محاولة لحلّ سرّ المحرّك وإعادة بنائه... لماذا تنظر إليّ هكذا؟ لا، لم أخبرك عنه من قبل لأنّه كان سرًّا. كان مشروعًا سرّيًّا خاصًّا بها، وما الفائدة التي كنت ستجنيها لو أخبرتك به سابقًا؟ أعتقد أنّني أستطيع التحدّث عن ذلك الآن، لأنّه استقال. نعم، لقد أخبرها بأسبابه وقال إنّه لن يهب أيّ شيء ينتجه عقله لعالم يعتبره عبدًا. وقال أيضًا إنّه لن يكون شهيدًا للناس في مقابل منحهم فائدة لا تقدّر بثمن... ما الذي يضحكك؟... توقّف عن ذلك، هلّا توقّفت؟ لماذا تضحك هكذا؟... السرّ كلّه؟ ماذا تعني بالسرّ كلّه؟ لم يجد سرّ المحرّك بأكمله، إذا كان هذا ما قصدته، لكنّه بدا أنّه على ما يرام، وكان يتمتّع بفرصة جيّدة للتوصّل إلى حلّ. الآن ضاع كلّ شيء. إنّها تسرع وتريد أن تتوسّل إليه، وتثنيه عن قراره، وتجعله يستمرّ، ولكن أعتقد أنّ محاولتها ستكون عديمة الفائدة. إذ يبدو أنّ العمّال في هذه الآونة بمجرّد أن يتوقّفوا، لن يعودوا مرّة أخرى. لا أحد منهم لديه... لا، لم أعد أكترث بذلك، لقد تكبّدنا الكثير من الخسائر إلى درجة أنّني تعوّدت على مثل هذه الظواهر والآفات... بالطبع لا! لا يتعلّق الأمر بمدى تحمّلي استقالةَ دانيالز، وإنّما.. دعك من هذا. لا تسألني عنه. فالعالم كلّه ينهار، وهي ما تنفكّ تقاتل لإنقاذه، وأنا أجلس هنا ألعنها من أجل شيء ليس لي الحقّ في معرفته... لا! هي لم تفعل شيئًا لتُلعَن عليه، لا شيء، بالإضافة إلى ذلك، لا يتعلّق الأمر بسكّة الحديد... فلا تكترث بهذا الأمر، لأنّ هذا ليس صحيحًا. إنّني لا ألعنها بل ألعن نفسي، إنّها... اسمع، لطالما علمت أنّك تحبّ شركة تاجارت العابرة للقارّات كما أحبّها أنا أيضًا، وأنّها تعني شيئًا مميّزًا لك، شيئًا شخصيًّا، ولهذا السبب أحببتَ أن أتحدّث عنها. لكن هذا -الشيء الذي أخبرتك به اليوم- لا علاقة له بالسكك الحديديّة. وليس مهمًّا بالنسبة إليك، فلا تكترث.... إنّه شيء لم أكن أعرفه عنها، هذا كلّ شيء... لقد نشأت معها وظننت أنّي كنت أعرفها جيّدًا، لكن للأسف يبدو أنّني لم أكن كذلك...لا أعلم ما الذي كنت أتوقّعه منها إذ خِلْتُ أنها لا تملك حياة خاصّة من أيّ نوع وأنّها لم تكن على علاقة بأيّ رجل. فهي لم تكن، بالنسبة إليّ، مجرّد شخص ولا... مجرّد امرأة. بل كانت تعني لي عالم

سكّة الحديد كلّه ولم أعتقد أنّ أيّ شخص يملك الجرأة على النظر إليها... حسنًا، وهذا يصبّ في صالحي بالشكل الصحيح. لا عليك.... قلت لك دعك من هذا الأمر! لماذا تستجوبني هكذا؟ إنّها فقط حياتها الخاصّة، فما الذي يعنيك فيها؟.. بربّك دعك منه! ألا ترى أنّني لا أستطيع التحدّث عن ذلك؟... لم يحدث شيء.. أنا فقط.. أوه، لماذا أكذب؟ لا أستطيع الكذب عليك، يبدو أنّك ترى كلّ شيء دائمًا، إنّه أسوأ من محاولة الكذب على نفسي!... لقد كذبت على نفسي إذ لم أكن أعرف ما شعرت به تجاهها. لماذا افتعلت شماعة سكّة الحديد إذَن؟ أنا منافق فاسد، لو كانت السكة الحديديّة هي كلّ ما قصدته لما صدمتني هكذا ولا كان لي أن أشعر بالرغبة في قتله... ما خطبك هذه الليلة؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟ وما خطبنا جميعًا؟ لماذا لم يبق أيّ شيء سوى البؤس لأيّ شخص؟ لماذا نعاني كثيرًا؟ لم يكن من المفترض أن نفعل ذلك. لطالما اعتقدت أنّنا سنكون سعداء... ماذا نفعل؟ ماذا خسرنا؟ منذ عام، لم أكن لألعنها لإيجاد شيء أرادته. لكنّني أعلم أنّه محكوم علينا جميعًا.. وهي كلّ ما تبقّى لي... كان من الرائع جدًّا أن تكون على قيد الحياة، وكانت فرصة رائعة، لم أكن أعلم أنّني أحببت تلك الفرصة وأنّ ما عشته هو حبّنا وحبّها وحبّي وحبّك أيضًا... لكنّ العالم بصدد الهلاك ولا يمكننا إيقافه. لماذا ندمّر أنفسنا؟ ومن سيخبرنا بالحقيقة؟ ومن سينقذنا؟ أوه، ومن هو جون جالت؟!.. لا، لا فائدة من ذلك... لماذا يجب أن أشعر بأيّ شيء؟ نحن لن نعمّر طويلًا، فلماذا يجب أن أهتمّ بما فعلته داغني؟ ولماذا يجب أن أهتمّ بأنّها كانت تعاشر هانك ريردن؟.. يا الله!.. ما خطبك؟ لا تذهب! إلى أين أنت ذاهب؟

الفصل العاشر

علامة الدولار

جلست عند نافذة القطار، وقد مالت برأسها إلى الخلف، وودّت لو ألّا تضطرّ إلى التحرّك مرّة أخرى.

مرّت أعمدة التلغراف وهي في سباق تتخطّى النافذة، ولكنّ القطار بدا تائهًا في فراغ بين امتداد لون المروج البنّيّ وانتشار الغيوم الرماديّة الصلب الباهت. وكان الشفق يستنزف السماء من دون أن يجرح غروب الشمس، ولكن بدا الأمر أشبه بتلاشي الجسم الهزيل في عمليّة استنفاد قطراته الأخيرة من الدم والنور. وكان القطار ذاهبًا غربًا، كما لو أنّه يُجذبُ أيضًا لمتابعة الأشعّة الغارقة بهدوء كي يختفي من الأرض. فجلست ساكنة، لا تشعر برغبة في مقاومته.

كانت تتمنّى ألّا تسمع صرير العجلات. فهي تقرع في إيقاع متساوٍ، بتشديدٍ على كلّ ضربة رابعة.. ومن خلال القعقعة السريعة في تدافع الهروب بلا جدوى، بدا لداغني أنّ إيقاع صرير العجلات يشبه خطوات تحرّك العدوّ نحو هدف لا يمكن إيقافه.

لم تشهد ذلك من قبل، ولم تعش مثل هذا الشعور بالتوجّس على مرأى من المرج، ذلك الشعور بأنّ السكك الحديديّة لم تكن سوى خيطٍ هشٍّ ممتدٍّ عبر فراغ هائل، مثل عصبٍ بالٍ على استعداد للتمزّق. ولم تكن تتوقّع أبدًا، وهي التي شعرت وكأنّها القوّة

الدافعة على متن القطار، أنّها ستجلس الآن وكلّها رجاء، مثل طفل، أن يتحرّك هذا القطار، وألّا يتوقّف، وأن يوصلها إلى هناك في الوقت المحدّد، متمنّية ذلك، لا كفعل إرادة، بل مثل نداء موجّه إلى المجهول.

ثمّ تأمّلت الفرق الذي أحدثه شهر واحد. كانت قد رأته على وجوه الناس في المحطّات. فعمّال المسار والتبديل وعمّال تنظيف الساحات الذين كانوا دائمًا في استقبالها، في أيّ مكان على طول الخطّ، بابتسامة البهجة وهم يتباهون بأنّهم يعرفونها، ها هم الآن يواجهونها وقد بدت عليهم علامات التصلّب والتحجّر، وهم يديرون وجوههم بحذرٍ ووجوم. كانت تريد أن تعتذر منهم: ليس أنا من فعل ذلك بكم! ثمّ تذكّرت أنّها قبلت الأمر، وأنّ لهم الحقّ الآن في كرهها، وأنّها قبلت بالعبوديّة، بل وبأن تسوق العبيد، وكذلك كلّ إنسان في البلاد، فالكراهية هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يشعر به البشر الآن بعضهم تجاه بعض.

وقد وجدت الطمأنينة، لمدّة يومين، عند رؤية المدن التي تمرّ بها عبر نافذتها، والمصانع، والجسور، والعلامات الكهربائيّة، واللوحات الإعلانيّة التي تضغط على أسطح المنازل، والتجمهر القاتم والنشِط في الشرق الصناعيّ.

لكنّ المدن تُركت وراءها. والقطار يغوص الآن في براري ولاية نبراسكا. لقد رأت الأشكال الوحيدة التي كانت عبارة عن بيوت زراعيّة في المناطق الشاغرة. ولكنّ الانفجار الكبير للطاقة في الشرق، قبل أجيال، تناثر مثل الدفق الناطع من خلال الفراغ؛ فذهب البعض، ولكنّ البعض الآخر لا يزال يعيش. اندهشت عندما اجتاحت أضواء بلدة صغيرة عربتَها، ثمّ اختفت، وتركت العربة أكثر قتامةً ممّا كانت عليه. فلم تشأ داغني التحرّك لتشغيل الضوء. بل جلست بثباتٍ تراقب المدن النادرة. وكلّما تسلّل شعاع كهربائيّ أومضت الأنوار لفترة وجيزة في وجهها، فكانت مثل تحيّة اللحظات العابرة.

رأت المصانع وهي تعبر أمام عينيها من خلال النافذة، وقد كتب على جدران هياكلها المتواضعة، وفوق أسطح السخام، وأسفل المداخن الرفيعة، وعلى منحنيات

عربات الشحن: حصادات رينولدز – شركة ميسي للإسمنت – مصنع كوينلان وجونز لعلف البرسيم المركّب – مصنع كراوفورد للمراتب والأثاث المنزليّ – مصنع بنجامين وايلي للحبوب والأعلاف – تلك الكلمات التي رفعت مثل الأعلام في فضاء السماء المظلم، والأشكال الثابتة للحركة، والجهد، والشجاعة، والأمل، وتلك الآثار التي تدلّ على مدى ما أنجزه البشر بحدود فراغ الطبيعة، أولئك البشر الذين كانوا وسط السابق أحرارًا في إنجاز ما شاؤوا. رأت أيضًا المنازل التي بُنيت في خصوصيّة على نحو متناثر، والمحلّات الصغيرة، والشوارع الواسعة المجهّزة بالإنارة الكهربائيّة، مثل عدد قليل من النبضات المضيئة المتقاطعة بمساحة مظلمة من الأراضي المقفرة. لقد رأت أشباحًا بين بقايا المدن والهياكل العظمية للمصانع ذات المداخن المتداعية وجثث المحلّات التجاريّة ذات الأجزاء المكسورة والأعمدة المائلة وقد ثُبِّت بها بعض أشلاء من الأسلاك. رأت بريقًا مفاجئًا، ومشهدًا نادرًا لمحطّة وقود وجزيرة بيضاء متلألئة من الزجاج والمعادن تحت كتلة ضخمة داكنة من الفضاء والسماء. رأت مخروطًا للمثلّجات مصنوعًا من الأنابيب المشعّة، وهو معلّق فوق زاوية الشارع، وحطام سيّارة، وصبيًّا صغيرا يجلس في ركن القيادة، وفتاة تخرج بفستان أبيض يتماوج بفعل هبوب رياح الصيف. لقد ارتجفت من أجلهما وقالت في نفسها: لا أستطيع أن أنظر إليكما، أنا التي تعلم الحاجة التي تمنعكما من التمتّع بشبابكما وسِحْرِ هذا المساء، وكم سيكلّفكما شراء تلك السيّارة ومخروط المثلّجات. ثمّ رأت، على حافّة ما وراء تلك البلدة، مبنًى متوهّجًا بطبقات من الضوء الأزرق الشاحب، ذلك الضوء الصناعيّ الذي تحبّه، بخيالات آلات تبدو من نوافذها ولوحة إعلانيّة في الظلام فوق سقفها. وفجأة وقع رأسها على ذراعها، وجلست ترتجف وتصرخ بلا صوت وتشكو أمرها إلى الليل، وإلى نفسها، وإلى أيّ شيء إنسانيّ في أيّ كائن حيّ: لا تدعي الأمور تفلت من بين يديك!.. لا تدعيها تفلت!..

ثمّ قفزت من الذعر وأشعلت الضوء. وظلّت ساكنةً، تناضل لاستعادة السيطرة على نفسها، وهي تعلم كلّ العلم أنّ مثل تلك اللحظات تمثّل أكبر خطر عليها. كانت

أضواء البلدة تمرّ أمامها، واستوت نافذتها الآن مستطيلًا فارغًا، فسمعت في صمت، تطوّر إيقاع القعقعة الرابعة لعجلات القطار، مثل تحرّك خطوات العدوّ المتنقّل، بلا عجل أو توقّف.

كانت في حاجة ماسّة إلى رؤية بعض النشاط الحيّ، لذلك قرّرت ألّا تطلب العشاء في عربتها، وتذهب إلى العشاء سيرًا على الأقدام. كما لو أنّها كانت تكبت وحدتها وتسخر منها، ثمّ عاد الصوت إلى ذهنها: لكنّك لن تديري القطارات إذا كانت فارغة. انسي الأمر! قالت في نفسها بغضب، وهي تسير على عجل إلى باب عربتها.

أدهشَها، وهي تقترب من رواقها، سماعُ أحد الأصوات على مقربة منها. وعندما سحبت الباب، سمعت صيحة: اِنْزِلْ، عليك لعنة الله!

لقد اتّخذ أحد الشيوخ الصعاليك من زاوية رواقِها ملجأً له. وكان يجلس على الأرض، وهيئته تشير إلى أنّه لم يبق لديه قوّة للوقوف أو الاهتمام بأن يقع القبض عليه. كان ينظر إلى قاطع التذاكر، بعينَين شاخصتَين، وواعيتَين تمامًا، ولكن خاليتَين من أيّ ردّ فعل. كان القطار يتباطأ نظرًا إلى وجود مسافة سيّئة من المسار، وقد فتح قاطع التذاكر الباب فسمح بدخول عاصفة باردة من الرياح، وكان يلوّح في الفراغ السريع المظلم، ويأمر: عليك بالنزول! انزل مثلما صعدت أو سأركلك وأرميك من رأسك أوّلا!

لم تكن في وجه الصعلوك ملامح دهشة أو أيّ علامات احتجاج، أو غضب، أو أمل؛ لقد بدا كما لو أنّه وقع التخلّي عنه منذ فترة طويلة ولم يحظ بأيّ تقدير من أيّ عمل بشريّ. فتحرّك بطاعةٍ لينهض، ويده تتلمّس صعودًا على طول المسامير المثبّتة بجدار العربة. فرأته وهو ينظر إليها تارةً وينظر بعيدًا تارةً أخرى كما لو أنّها مجرّد قطعة جامدة أخرى مثبّتة بالقطار. ويبدو أنّه لم يكن على بيّنة من شخصها، ولا حتّى على بيّنة من شخصه. كان على استعداد غير مبالٍ للامتثال لأيّ أمر حتّى وإن كان يعني، في حالته، موتًا مؤكّدًا.

ثمّ رأت قاطع التذاكر، فلم تجد في ملامح وجهه سوى الحقد الأعمى للألم، نتيجة

شيء من غضب مكبوت منذ فترة طويلة كان سينفجر على أوّل شيء متاح، تقريبًا من دون وعي بهويّة الكائن. لم يعد أيّ واحدٍ من الرجلين يمثّل للآخر بشرًا، بعد الآن.

كانت بدلة الصعلوك عبارة عن كتلة قماشيّة قاسية جدًّا لامعة برُقع كثيرة خيطت بدقّة في ثوبٍ بالٍ يتوقّع المرء أن يتشقّق مثل الزجاج. لكنّها انتبهت إلى طوق قميصه: كان أبيض ناصعًا من كثرة الغسيل المتكرّر ولا يزال يحافظ على مظهر ملائم. لقد نجح في النهوض على قدميه بعسرٍ، وكان ينظر بلامبالاة إلى الفجوة السوداء المفتوحة على أميالٍ من البرّيّة غير المأهولة حيث لا يمكن لأحدٍ رؤية أيّ جسد أو يسمع أيّ صوت لإنسان مشوّه، ولكنّ الحركة الوحيدة التي شغلت باله هي إحكام قبضته على صرّة صغيرة قذرة، كما لو أنّه يريد أن يتأكّد من عدم فقدانها أثناء القفز من القطار.

كان ذلك الطوق المغسول وحركة مسك الصرّة هما آخر ممتلكاته – حركة الشعور بالملكيّة – التي جعلتها تشعر بعاطفة مثلّت تطورًا مفاجئًا ومحترقًا بداخلها. فقالت: انتظر، فالتفت الرجلان إليها.

ـ قالت لقاطع التذاكر: دعه ينزل ضيفًا عندي.

ثمّ فتحت بابها أمام الصعلوك، وأمرته بالدخول، فتبعها، مطيعًا بالذهول نفسه عندما كان على وشك طاعة قاطع التذاكر.

وقف في منتصف عربتها، وهو يحمل صرّته، وينظر حوله بنظرة ثاقبة، ثمّ أمرته بالجلوس. فأطاعها ونظر إليها، كما لو أنّه ينتظر أوامر أخرى. كان به نوع من أنواع الكرامة في أسلوبه وسلوكه، وصدق الاعتراف الصريح بأنّه لم يكن لديه أيّ ادّعاء يرفعه، أو أيّ نداء يقدّمه، أو أيّ أسئلة يطرحها، وأنّه الآن راضٍ بكلّ ما حدث له، وهو على استعداد لقبوله.

يبدو أنّه كان في أوائل الخمسينات من عمره؛ ولكنّ هيكله العظميّ وارتخاء بدلته يوحيان بأنّه كان قويّ البنية في السابق. أمّا عيناه اللتان أظهرتا اللّامبالاة فلم تُخفِيا تمامًا الذكاء الوقّاد فيهما، ولكنّ التجاعيد التي عمّت تقاسيم وجهه سجّلت بعض المرارة

التي يعاني منها، غير أنّها لم تمح تمامًا حقيقة أنّ وجهه يتمتّع بلطف وطيبة غريبة توحي بالصدق.

ـ سألته: منذ متى لم تذق شيئًا؟

ـ ردّ: منذ أمس على ما أعتقد.

فضغطت على جرس البوّاب وأمرته بإعداد عشاء لشخصين، وإحضاره إلى عربتها من مطعم القطار.

كان الصعلوك يراقبها بصمتٍ، ولكن عندما غادر البوّاب، عرض العربون الوحيد الذي كان في وسعه تقديمه فقال: لا أريد أن أوقعك في مشكلة يا سيّدتي.

ـ ردّت وهي تبتسم: عن أيّ مشكلة تتحدّث؟

ـ يبدو أنّك مسافرة مع أحد رجال المال والأعمال، أصحاب هذه السكك الحديديّة، أليس كذلك؟

ـ لا، بل أنا مسافرة وحدي.

ـ إذَن أنت زوجة واحد منهم؟

ـ لا.

ـ أوه.

لاحظت داغني أنّه يسعى إلى انتزاع اعترافٍ منها، فقالت وهي تبتسم:

ـ لا، لست زوجة أحدهم. أنا واحدة من أصحاب المال والأعمال الذين تحدّثت عنهم. اسمي داغني تاجارت وأنا أعمل في هذه السكك الحديديّة.

ـ أوه ... أعتقد أنّني سمعت عنك في الأيّام الخوالي يا سيّدتي.

وكان من الصعب معرفة ما تعنيه له الأيّام الخوالي، سواء أكان ذلك شهرًا أم عامًا أم أيّ فترة من الزمن مرّت منذ أن استسلم. كان ينظر إليها بنوع من الاهتمام مشدودٍ إلى الماضي، كما لو أنّه يفكّر في مرور زمن بعيد كان سيعتبرها فيه شخصيّة تستحقّ

المشاهدة. فقال:

ـ هل أنت هي الآنسة التي تدير إحدى شركات سكك الحديد؟

ـ نعم، لقد كنت كذلك.

فلم يبدِ أيّ علامة من علامات الدهشة من حقيقة أنّها اختارت مساعدته. وبدا كما لو أنّه واجه الكثير من القسوة والوحشيّة إلى درجة أنّه تخلّى عن محاولة فهمها أو منحها ثقته أو توقّع أيّ شيء.

سألته:

ـ ومتى صعدت على متن القطار؟

ـ عند نقطة التقسيم يا سيّدتي. فبابك لم يكن مغلقًا.. ظننت أن لا أحد قد ينتبه إليّ حتّى الصباح لأنّها عربة خاصّة.

ـ وإلى أين أنت ذاهب؟

ـ لا أعلم.. أعتقد أنّي أردت فقط أن أستمرّ في التنقّل حتّى أجد مكانًا قد أعثر فيه على فرصة عِمل.

وكانت تلك هي محاولته لتحمّل مسؤوليّة هدف مّا، بدلًا من إلقاء عبء عبثه على كاهل رحمتها وهي محاولة تشبه تمامًا ترتيب طوق قميصه.

ـ وما نوع العمل الذي تبحث عنه؟

ـ أجابها: يا سيّدتي، ما عاد الناس يتخيرون في العمل. إنّهم يبحثون فقط عن عمل.

ـ وما هو المكان الذي كنت تأمل أن تعثر فيه على فرصة عمل؟

ـ أوه... حسنًا... على ما أعتقد، حيث توجد المصانع.

ـ ألا تعتقد أنّك تسير في الاتّجاه الخاطئ؟ فالمصانع توجد في الشرق.

ـ قال بحزم وثقة: لا، يوجد الكثير من الناس في الشرق. والمصانع هناك مُراقبة بشدّة، ففكّرت أنّه قد تكون هناك فرصة أفضل في مكان مّا حيث يوجد عدد قليل من

الناس وحيث تطبيق القانون ليس صارمًا.

أوه، أنت إذَن تفكر في الهرب؟ ألست فارًّا من العدالة؟

ـ يا سيّدتي، ليس بالمعنى الذي كان له في الأيّام الخوالي، لكن مثلما هي حال الأمور الآن، أعتقد أنّني أصبحت كذلك. أريد أن أعمل.

ـ ماذا تعني؟

ما من وظائف في الشرق. لا يستطيع أيّ إنسان أن يمنحك وظيفة، لأنّه سيزجّ به في السجن وظّف أيّ شخص. ولأنّه مراقب، لا يمكنك الحصول على عمل إلّا من خلال مجلس الاتّحاد الذي تحوّل إلى عصابة حيث العمل يخضع للزبونيّة والمحسوبيّة، بل لا بدّ للمرء من صديقٍ في هذا المجلس إذا أراد أن يحصل على عمل. حسنًا، وأنا لا أملك أيّ صديق قد يمدّ لي يد العون.

ـ وأين عملت آخر مرّة؟

ـ كنت أتسكّع في جميع أنحاء البلاد لمدّة ستّة أشهر.. لا، بل أكثر من ذلك، ربّما لعام كامل... وفي معظم الوقت كنت أشتغل عاملًا يوميًّا في المزارع. لكنّ الأمر أصبح بلا جدوى الآن. أعرف كيف ينظر المزارعون إليك... فهم لا يحبّون رؤية رجل يتضوّر جوعًا، لأنّهم هم أنفسهم ليس بينهم وبين المجاعة سوى وثبة واحدة، وليس لديهم أيّ عمل يعطونك إيّاه، وليس لديهم أيّ طعام. ومهما يكُن ما ادّخروه، فهو إن لم يحصل عليه جامعو الضرائب، فإنّ الغزاة سيفعلون ذلك، تلك العصابات التي تتجوّل في جميع أنحاء البلاد، الفارّون من الخدمة كما يسمونّهم.

ـ هل تعتقد أنّ الحال ستكون أفضل في الغرب؟

ـ لا، لا أظنّ ذلك.

ـ إذَن لماذا أنت ذاهب إلى هناك؟

ـ لأنّني لم أجرّب العمل هناك من قبل. وهذا كلّ ما تبقّى أمامي من محاولة لكسب الرزق. عليّ أن أقصد مكانًا مّا وأحافظ على التحرّك... كما تعلمين.. لا أعتقد أنّ أيّ

فائدة ستتحقّق لي. ولكن لا يوجد شيء للقيام به في الشرق سوى الجلوس تحت بعض الأسوار وانتظار الموت. لا أعتقد أنّني سأقاوم الموت بعد الآن. وأعلم أنّ ذلك الأمر سيكون أسهل بكثيرٍ من البحث عن عمل. أعتقد فقط أنّ من الخطيئة الجلوس وترك حياتك تذهب سدًى، دون محاولة إيجاد عمل من أجل الحفاظ عليها.

ففكّرت داغني فجأةً في أولئك المتخرّجين حديثًا من الكلّيّات الذين عملوا على تسميم الجوّ بالحديث عن الصواب الذاتيّ الأخلاقيّ كلّما نطقوا المهدّئات المعياريّة بشأن انشغالهم برفاهية الآخرين. وكانت الجملة الأخيرة لذلك الصعلوك المتشرّد واحدةً من بين أكثر البيانات الأخلاقيّة العميقة التي سمعتها على الإطلاق؛ ولكنّ الرجل لم يكن يعرف ذلك، فقالها بصوت زاهد وبتعبير بسيط.

ـ تساءلت: من أيّ جزء من البلاد قَدِمْتَ؟

ـ أجابها: من ويسكونسن.

ثمّ جاء النادل، وقد جلب عشاءهم. وأثّث الطاولة ونقل كرسيّين بلطفٍ ولم يظهر أيّ دهشة من طبيعة المناسبة.

نظرت داغني إلى الطاولة؛ وفكّرت في روعةِ عالمٍ يكون بوسع الناس فيه شراء الوقت والجهد لأشياء من قبيل المناديل النشويّة ومكعّبات الثلج الرنّانة، المعروضة على المسافرين جنبًا إلى جنب مع وجباتهم بسعر بضع دولارات. فمثل هذا الأمر لا يزال من بقايا العصر الذي لم تُعتبَر فيه قوتُ حياة الإنسان جريمةً، ولم تكن الوجبة حينها مسألةَ خوض سباقٍ مع الموت، تلك البقايا التي أوشكت أن تختفي، مثل محطّة التعبئة البيضاء على حافّة الأعشاب الطفيليّة في الغابة.

ولاحظت أنّ الصعلوك، الذي فقد القدرة على الوقوف، لم يفقد احترام معنى الأشياء التي انتشرت أمامه. فهو لم ينقضّ على الطعام؛ بل ناضل لتمالك نفسه فحفاظ على بطء حركاته، فبسط منديله بهدوء، والتقط شوكته بنفس درجة سرعتها، بيدٍ مرتجفة، كما لو أنّه لا يزال يعرف أنّ تلك هي الطريقة اللّائقة لسلوك البشر، بغضّ

النظر عن المذلّة التي فُرضت على معشر المتشرّدين أمثاله.

ـ سألته عندما غادر النادل: وما هو مجال عملك في الأيّام الخوالي؟ المصانع، أليس كذلك؟

ـ نعم، يا سيّدتي.

ـ وما هو اختصاصك؟

ـ كنت مشغّل آلة خراطة ماهرًا.

ـ وأين اشتغلت في الماضي؟

ـ في ولاية كولورادو يا سيّدتي. لقد اشتغلت بشركة هاموند للسيّارات.

ـ أوه ...

ـ ما خطبك سيّدتي؟

ـ لا، لا شيء. وهل اشتغلت هناك لفترة طويلة؟

ـ لا يا سيّدتي، اشتغلت لمدّة أسبوعين فقط.

ـ وكيف حدث هذا الأمر؟

ـ حسنًا، كنت أنتظر دوري هناك لمدّة سنة، إذ جُبْت جميع أنحاء ولاية كولورادو فقط للحصول على هذا العمل. وكان لدى شركة هاموند للسيّارات قائمة انتظار تقوم لا وفق معايير الصداقات أو الأقدميّة، بل وفق سجلّ كفاءة طالب الشغل وخبرته. وكان لدي سجلّ جيّد، ولكن من سوء حظي أنّه بعد أسبوعين من حصولي على الوظيفة استقال صاحب الشركة السيّد لورانس هاموند. لقد استقال واختفى، وأغلقوا المصنع بعد ذلك. ثمّ أعادت لجنةٌ من المواطنين فتحَه. فاستدعيتُ مجدّدًا لاستئناف العمل، لكنّ الأمر لم يدم سوى خمسة أيّام، ثمّ بدؤوا بتسريح العمّال في وقت واحدٍ تقريبًا حسب الأقدميّة، لذلك كان عليّ المغادرة. ثمّ سمعت أنّ لجنة المواطنين استمرّت لمدّة ثلاثة أشهر فقط، ثمّ اضطرّوا إلى إغلاق المصنع إلى الأبد.

ـ وأين اشتغلت قبل ذلك؟

تقريبًا في كلّ الولايات الشرقيّة يا سيّدتي، لكن لم يدم الأمر لأكثر من شهر أو شهرين. لقد استمرّت المصانع في الإغلاق.

ـ هل حدث ذلك في كلّ وظيفة كنت تباشرها؟

فنظر إليها، كما لو أنّه فهم المقصد من سؤالها فأجابها: لا، يا سيّدتي.

وللمرّة الأولى، التقطت صدى خافتًا من الفخر في صوته. ثمّ أضاف:

ـ أوّل وظيفة مارستها لمدّة عشرين عامًا. لم تكن الوظيفة نفسها التي أمارسها الآن، بل كانت في المكان نفسه، أعني كنت رئيس العمّال. حدث ذلك قبل اثني عشر عامًا، ثمّ مات صاحب المصنع، واختصم الورثة الذين استولوا عليه وأساؤوا إدارته فأوصلوه إلى الحضيض. كانت الأوقات سيّئة آنذاك، ولكن منذ ذلك الحين بدأت الأمور تسير نحو التفكّك في كلّ مكان بشكل أسرع وأسرع. ومنذ ذلك الحين، يبدو أنّ الأمر نفسه يتكرّر في أيّ مكان أقصده، يتصدّع ثمّ يختفي. وفي البداية، اعتقدنا أنّ الظاهرة حكرٌ على ولاية أو ولايتين فقط. وكثيرون منّا اعتقدوا أنّ ولاية كولورادو ستصمد لكنّها انهارت وتلاشت هي أيضًا. فأيّ شيء تحاولين ممارسته هنا، أو أيّ شيء تلمسينه سرعان ما يتهاوى. وعندما تنظرين في أيّ مكان، تدركين أنّ العمل بصدد التوقّف، المصانع والآلات تتوقّف.. المحرّكات تتوقّف... كانت... تتوقّف.. يا الله، من هو..

سألته: جون جالت؟

ـ نعم، فقط أنا لا أحبّ قول ذلك.

ـ أنا أيضًا لا أحبّ قول ذلك. أتمنّى لو كنت أعرف السبب الذي جعل الناس يقولون ذلك ومن بدأ بقوله.

ـ بالفعل يا سيّدتي، ولعلّي أخشى أن أكون أنا من بدأ ذلك الأمر.

ـ ماذا؟

ـ أنا أو حوالي ستّة آلاف عامل آخرين. ربّما فعلنا ذلك، بل أعتقد أنّنا فعلناه حقًّا. وآمل أن نكون مخطئين.

ـ ماذا تعني؟

ـ حسنًا، لقد حدث شيء في ذاك المصنع حيث عملت لمدّة عشرين عامًا. ووقع ذلك عندما توفّي الرجل العجوز وتولّى ورثته إدارة المصنع. وكان الورثة ثلاثةً، ولدين وابنة، وقد وضعوا خطّة جديدة لإدارته. لقد سمحوا لنا بالتصويت عليها أيضًا، وصوّت الجميع - الجميع تقريبًا - لصالحها. لم نكن نعرف ما نختار وظننّا أنّ الخطّة جيّدة. لكنّها لم تكن كذلك بتاتًا. اعتقدنا أنّ من المفترض أن تكون خطّة جيّدة لأنّها تنصّ على أن يعمل كلّ شخص في المصنع وفقًا لقدرته، لكنّ الدفع يكون نظيرا لحاجاته. نحن.. ما خطبك يا سيّدتي؟ لماذا تبدين هكذا؟

ـ سألته بصوت مهموس: ما اسم هذا المصنع؟

ـ شركة القرن العشرين للمحرّكات ببلدة ستارنسفيل، في ولاية ويسكونسن.

ـ واصل حديثك.مكتبة سُر مَن قرأ

ـ صوّتنا لصالح تلك الخطّة في اجتماع كبيرٍ، وفي حضور ستّة آلاف منّا، وكلّ مَن عمل في المصنع. وأدلى ورثة السيّد ستارنز بخطابات طويلة حول هذا الموضوع الذي لم يكن واضحًا جدًّا، لكن لم يطرح أحدٌ أيَّ سؤال. لا أحد منّا كان يعرف كيف ستعمل الخطّة، ولكنّ كلّ واحد منّا اعتقد أنّ زميله يعرف ذلك. ولمّا كانت الشكوك تمتدّ إلى أيّ شخص، فقد شعر كلّ واحدٍ بالذنب وأبقى فمه مغلقًا لأنّهم جعلوا الأمر يبدو وكأنّ أيّ شخص سيعارض الخطّة سيكون قاتلا للأطفال وبلا قلب وأقلّ من إنسانٍ. وقالوا لنا إنّ هذه الخطّة ستحقّق المثل الأعلى. حسنًا، كيف كنّا نعرف خلاف ذلك؟ ألم نسمعها طوال حياتنا من أهلنا ومعلّمينا في المدارس ووزرائنا، وفي كلّ صحيفة نقرؤها من قبل وفي كلّ فيلم وكلّ خطاب عامّ؟ ألم يُقل لنا دائمًا إنّ هذا كان عادلًا وصائبًا؟ حسنًا، ربّما كان هناك عذر لما فعلناه في ذاك الاجتماع، ومع ذلك صوّتنا

لصالح الخطّة، وما حصلنا عليه هو أنّنا وجدنا أنفسنا اليوم بلا عمل. كما تعلمين يا سيّدتي نحن رجال مميّزون، ولاسيّما أولئك الذين عاشوا خلال السنوات الأربع من تلك الخطّة في مصنع القرن العشرين. وأيّ جحيم واجهناه؟ الشرّ الخالص والعاري، ذلك الشرّ الذي يتصنّع الابتسامة، أليس كذلك؟ حسنًا، هذا ما شاهدناه وساعدنا في صنعه، وأعتقد أنّنا ملعونون، وكلّ واحد منّا ملعون كذلك، وربّما لن يغفر الله لنا ذلك أبدًا... وهل تعلمين كيف اشتغلت تلك الخطّة؟ وماذا فعلت بالناس؟ حاول صبّ الماء في خزّان بِقَاعِهِ أنبوبٌ يستنزف أسرع ممّا تصبّ فيه، وكلّ دلوٍ تجلبه يتسبّب في توسيع الأنبوب مقدارَ بوصةٍ أو أكثر، وكلّما عملت أكثر ممّا يطلَب منك، وتقف دلاء أربعين ساعة عمل في الأسبوع، ثمّ ثمانية وأربعين، ثمّ ستّة وخمسون عند عشاء جارك أو لعمليّة زوجته أو لعلاج حصباء طفله أو لشراء كرسيّ عجلات لوالدته أو شراء قميص عمّه أو لتعليم ابن أخيه أو لتغذية رضيع جاره أو لتسديد مصاريف الرضيع الذي سيولد أو لأيّ شخص في أيّ مكان من حولك فهم من سيتلقّى ويستفيد بدءًا من حفّاضات الرضّع وصولًا إلى أطقم الأسنان. وعليك أن تعمل من شروق الشمس إلى غروبها، شهرا بعد آخر، سنة بعد أخرى، دون أن تجني ثمارعرق جبينك، لأنّ الدفع يكون نظير الحاجة وليس نظير القدرة... وقالوا لنا، نحن عائلة كبيرة واحدة، وجميعنا نواجه المصير نفسه. ولكنّكم لن تقفوا جميعًا من أجل صنع مصباح استيليني واحد في كلّ عشر ساعات من العمل في اليوم.. ولن تشعروا جميعًا بأوجاع البطن... فأيّ القدرات والاحتياجات تأتي في المقام الأوّل؟ فعندما تضعين بيضك في سلّة واحدة لا يمكنك أن تسمحي لأيّ إنسان بأن يقرّر ما هي احتياجاته الخاصّة، أليس كذلك؟ وإن أنت فعلت ذلك، فادّعي مثلا أنّه يحتاج إلى يخت.. وإذا كانت مشاعره هي كلّ ما تحتاجين إليه للحكم على ما يحتاج إليه، فقد ينجح في إثبات ذلك أيضًا. ولمَ لا ينطبق عليّ الأمر نفسه، مثله تمامًا؟ فإن لم يكن لي الحقّ في امتلاك سيّارة، إلّا إذا عملت في أحد أجنحة المستشفيات، كي أكسب سيّارة لكلّ متسكّع وكلّ شخص من الهمج العراة الذين تغصّ بهم الأرض، فلماذا لا يمكن له أيضًا أن يطلب يختا لي، إذا كنت لا أزال أمتلك القدرة على عدم الانهيار؟ لا؟ إنّه لا يستطيع فعل ذلك؟ ثمّ لماذا يمكن أن

يطالب بأن أذهب مطعمي.. إلى أن يستطيع إعادة تجديد ديكور غرفة معيشته؟.. أوه جيّد... حسنًا، على أيّة حال، تقرّر ألّا أحد لديه الحقّ في الحكم على حاجته أو قدرته. لقد صوّتنا على الخطّة بـ"نعم" يا سيّدتي، صوّتنا عليها في اجتماع عامّ مرّتين في السنة. وإلّا كيف يمكن تحقيق ذلك؟ هل تهتمّين بالتفكير في ما حدث في مثل هذا الاجتماع؟ لقد تطلّب منّا الأمر اجتماعًا واحدًا فقط لنكتشف أنّنا أصبحنا متسوّلين... فاسدين، موجوعين، شحّاذين لا ننفكّ نبكي جميعًا، لأنّه لا يمكن لأيّ عامل منّا المطالبة بدخله على أنّه كسب شرعيّ، لم تكن لديه حقوق ولا دخل، فعمله لم يكن ملكًا له، لأنّه ينتمي إلى الأسرة. ولم يكونوا مدينين له بأيّ شيء في المقابل، والادّعاء الوحيد الذي كانوا يتقدّمون به هو 'حاجته'، لذلك عليه أن يتسوّل في الأماكن العامّة للتخفيف من احتياجاته، مثل أيّ متسوّل رديء، وسردِ كلّ متاعبه ومآسيه التي تصل إلى أدراج خزانته المرقّعة ونزلات البرد في رأس زوجته، على أمل أن ترمي إليه 'الأسرة' الصدقات. لقد بات عليه أن يدّعي المآسي، لأنّ المآسي، وليس العمل، هي التي أصبحت عملة المملكة، لذلك تحوّلت إلى منافسة بين ستّة آلاف متسوّل، كلّ واحد منهم يدّعي أنّ حاجته أكبر من حاجة أخيه. وإلّا كيف يمكن تحقيق ذلك؟ هل تتوقّعين ما حدث، وأيّ نوع من الرجال بقي صامتًا، ينتابه الشعور بالعار، والنوع الآخر الذي هرب بعد الفوز بالجائزة الكبرى؟ ولكن هذا لم يكن كلّ شيء. لقد حدث شيء آخر اكتشفناه في الاجتماع نفسه، إذ انخفض إنتاج المصنع بنسبة 40 في المائة، في النصف الأوّل من ذلك العام، لذلك تقرّر أنّ شخصًا مّا سيُحرم من تسلّم حاجته وفقًا لقدرته. ومن كان هذا الشخص؟ ووفق أيّ معايير أو مواصفات وكيف يمكن الفصل في أمره؟ فكلّ ما كانوا يحتاجون إليه هو أن تصوّت 'الأسرة' على ذلك أيضًا. فصوّت العمّال على أيّ من الرجال هو الأفضل، وحكم على هؤلاء الرجال بالعمل الإضافيّ كلّ ليلة للأشهر الستّة المقبلة. العمل الإضافيّ من دون أجر.. لأنّهم كانوا يدفعون لك لا على أساس الوقت أو كميّة العمل المنجز، بل وفقًا لحاجتك... وهل يجب أن أخبرك بما حدث بعد ذلك، وإلى أيّ نوع من المخلوقات بدأنا جميعًا نتحوّل، نحن الذين كنّا في السابق من بني البشر؟ لقد بدأنا في إخفاء أيّ قدرة لدينا، وأصبحنا نعمل ببطء، بل

كان كلّ واحد منّا يحرص على أن يعمل أقلّ من زميله.. وماذا يمكننا أن نفعل، عندما نعرف أنّنا إذا فعلنا ما بوسعنا من أجل الأسرة، فإنّنا لن نحصل على أيّ نِعَم أو مكافآت، بل على عقابٍ؟ وكنّا ندرك أنّه إذا دمَّر أيّ نتن دفعةً من المحرّكات قد تكلّف الشركة المال الطائل – إمّا بسبب إهماله، لأنّه لم يكن لديه الاهتمام الكافي، أو بسبب عدم الكفاءة البحت– فإنّنا نحن في المقابل من سندفع الثمن لنضحّي بليالينا وأيّام الآحاد. لذلك فعلنا ما بوسعنا كي لا نكون عمّالًا جيّدين.

وكان بيننا شابٌّ صغير بدأ في العمل، يملؤه النشاط المتّقد من أجل المثل الأعلى النبيل، وهو طفل ذكيّ من دون أيّ تعليم، ولكن بعقل يحمل فكرًا رائعًا. وفي السنة الأولى، اكتشف طريقة عمل أنقذتنا من الآلاف من ساعات العمل. لقد وهبها إلى "الأسرة"، ولم يطلب أيّ شيء من أجلها، بل لم يطلب أيّ شيء أصلًا، لأنّ مثل تلك الأشياء لم تكن تعنيه. وقال إنّه يفعل ذلك من أجل مثله العليا. ولكن عندما وجد أنّهم صوّتوا عليه بوصفه أفضل القدرات لدينا وحُكِم عليه بالعمل الليليّ، لأنّنا لم نحصل على ما يكفي منه، أغلق فمه وعطّل دماغه. يمكنك أن تراهني على أنّه لم يأت بأيّ أفكار في السنة الثانية... وقد تتساءلين: ما الذي كانوا يقولونه لنا دائمًا عن المنافسة الشرسة لنظام الربح، حيث كان على الرجال أن يتنافسوا على من يؤدّي عملًا أفضل من زملائهم؟ كانوا يصفونها بالمنافسة الشرّيرة، أليس كذلك؟ حسنًا، كان يجب أن يروا كيف بدا الأمر عندما اضطررنا جميعًا إلى التنافس في ما بيننا وما عقاب من يقوم بأسوإ عمل ممكن. إذ لا توجد طريقة مؤكّدة لتدمير رجل أكثر من إجباره على دخول مكانٍ يجب أن يهدف إلى عدم بذل قصارى جهده فيه، وأن يكافح للقيام بعمل سيّئ يومًا بعد يوم. فهذا الفعل سيدمّره أسرع من شرب الخمور أو الخمول أو العيش مع القرف من أجل لقمة العيش. لكن لم يكن هناك شيء آخر لنفعله سوى التظاهر بعدم اللياقة المزيّفة. فالاتّهام الوحيد الذي كنّا نخشاه هو الاشتباه في قدرتنا، تلك القدرة التي كانت مثل رهن عقّاريّ على كاهلك ولا تستطيع دفعه. وما الغاية التي تحفز على العمل؟ أنت تعلم مسبقًا أنّ أجرك الأساسيّ سوف يُعطى لك على أيّة حال، سواء

أَكُنتَ تعمل أم لا.. ما كان يطلق عليه 'منحة السكن والغذاء'، وعلاوة على ذلك الأجر الأساسيّ الزهيد، لم يكن لديك فرصة للحصول على أيّ شيء آخر مهما عملت بجدٍّ. إذ لا يمكنك الاعتماد على شراء بدلة جديدة من الملابس في العام المقبل.. فهم قد يعطونك 'منحة الملابس' أو ربّما لن يعطوك إيّاها، إذا احتاج أحدهم إلى دعم بسبب كسرٍ في الساق، أو إذا كان في حاجة إلى عمليّة جراحيّة أو أنجبت زوجته المزيد من الأطفال. وإذا لم يكن هناك ما يكفي من المال لبدلات جديدة للجميع، فتأكّد أن لا أحد سيحصل على بدلة... وكان بيننا أيضًا أحد الرجال، وقد عمل بجدّ طوال حياته، لأنّه كان يريد دائما أن يرسل ابنه إلى الكلّيّة. حسنًا، تخرّج الصبيّ من المدرسة الثانويّة في السنة الثانية من تنفيذ تلك الخطّة، لكنّ 'الأسرة' لم تمنح الأبَ أيّ 'منحة' ليواصل ابنه دراسته الأكاديميّة. قالوا له إنّ ابنه لن يستطيع الذهاب إلى الجامعة، حتّى يكون لدينا ما يكفي من مال لإرسال أبناء جميع العمّال إلى الجامعات، وذكروا أنّهم مضطرّون أوّلًا إلى إرسال أطفال الجميع إلى المدرسة الثانويّة، ولم يكن لدينا ما يكفي لذلك. لقد توفّي الأب في العام الموالي بسبب طعنة تلقّاها في معركة مجّانيّة بالسكاكين مع شخص مّا في أحد الصالونات. ومثل تلك المعارك أصبحت ظاهرة متكرّرة بيننا طوال الوقت. ثمّ كان هناك رجل عجوز، أرمل بلا عائلة، لديه هواية واحدة: تسجيلات الفونوغراف. أعتقد أنّ هذا كلّ ما حصل عليه من الحياة في الأيّام الخوالي، اعتاد على تخطّي وجبات الطعام فقط لشراء بعض التسجيلات الموسيقيّة الكلاسيكيّة الجديدة. حسنًا، لم يعطوه أيّ 'منح' لشراء تلك التسجيلات بدعوى ما أطلقوا عليه 'البذخ الشخصيّ'. ولكن في ذلك الاجتماع نفسه، تمّ التصويت على منح ميلي بوش -وهي ابنة أحدهم وكانت فتاة دنيئة قبيحة تبلغ من العمر ثماني سنوات- زوجًا من الأقواس الذهبيّة لطاقم أسنانها بدعوى 'الحاجة الطبّيّة'. لأنّ الطبيب النفسيّ الخاصّ بالموظّفين قال إنّ الفتاة المسكينة ستعاني من عقدة الدونيّة إذا لم يتمّ تقويم أسنانها. فتحوّلت هواية الرجل العجوز الذي أحبّ الموسيقى إلى إدمان الخمر. وأصبح مدمنًا إلى درجة أنّك لن تجديه صاحيًا أبدًا. لكن يبدو أنّ هناك شيئًا واحدًا لم يستطع نسيانه. ففي إحدى الليالي، عندما كان يترنّح في الشارع، لمح ميلي بوش فتأرجح بقبضته ولكمها فأسقط

كلّ أسنانها. ففقدت كلّ واحدة منهما. وعادة الشرب، بطبيعة الحال، كانت متفشّية بيننا جميعًا... فلا تسأليني كيف حصلنا على المال لفعل ذلك. فعندما تكون كلّ المتعة المشروعة ممنوعةً، توجد دائما طرق للحصول على تلك المفاسد. فأنت لن تجرئي على اقتحام محلّات البقالة بعد حلول الظلام، ولن تسرقي جيوب زملائك لشراء السمفونيّات الكلاسيكيّة أو أدوات الصيد، ولكن إذا ما تعلّق الأمر بعادة الشرب النتنة ومن أجل السكر والنسيان فإنّك ستفعلين ذلك. صيد السمك؟ بنادق الصيد؟ لقطات الكاميرات؟ هوايات؟ لم يكن هناك أيّ منح للترفيه لأيّ شخص. فـ'الترفيه' كان أوّل شيء أسقطوه من قاموسهم. أليس من المفترض أن تخجل دائمًا من الاعتراض عندما يطلب منك أيّ شخص أن يتخلّى عن أيّ شيء، خصوصًا إذا كان ذلك الشيء يمنحك المتعة؟ حتّى منح التبغ الخاصّة بنا قُطِعت إلى أن أصبحنا نحصل على علبتين من السجائر في الشهر... وهذا ما حدث، حسب ما قالوه لنا، لأنّ المال عليه أن يذهب إلى صندوق حليب الرضّع. فالأطفال الرضّع هم العنصر الوحيد في الإنتاج الذي لم يسقط، لكنّه ارتفع واستمرّ في الارتفاع...لأنّ الناس لم يكن لديهم شيء آخر يفعلونه، على ما أعتقد، ولأنّه لم يكن لديهم أيّ اهتمام، إذ لم يكن الطفل هو عبؤهم، بل رعاية 'الأسرة'. في الواقع، كانت أفضل فرصة لديك للحصول على زيادة والتنفّس أسهل لفترة من الوقت 'منح الرضّع' إما ذلك أو منح الأمراض المزمنة... لم يستغرق منّا الأمر وقتًا طويلًا لنرى كيف نجح كلّ شيء. فأيّ رجل منّا حاول اللعب بشكل مستقيم كان عليه أن يرفض كلّ شيء. لقد فقد ذوقه في أيّ متعةٍ، فكره تدخين التبغ الرخيص الذي لا يساوي ثمنه ثمن العلكة... وكان يشعر بالخجل من كلّ لقمة طعام ابتلعها، متسائلًا عن ليالي العمل الإضافيّ المرهقة التي دفع ثمنها، وهو يعلم أنّ طعامه ليس من حقّه، ويرغب في الاحتيال بدلًا من الوقوع ضحيّةً له، وفي أن يكون مصّاصًا، ولكن ليس مصّاص دماء. لم يتزوّج، ولم يساعد أهله في العودة إلى الوطن، ولم يضع عبئًا إضافيًّا على العائلة. إلى جانب ذلك، إذا كان يتمتّع بحسّ من المسؤولية، فهو لن يتزوّج ولن ينجب أطفالا، حين يجد نفسه غير قادر على التخطيط لفعل أيّ شيء، أو الوعد بأيّ شيء، ولا حتّى الاعتماد على أيّ شيء. لكنّ الكسالى وغير المسؤولين كان

لديهم يوم ميدانيّ بفضل ذلك. إذ ربّوا الأطفال، وأقحموا الفتيات في المشاكل، وجرّوا كلّ قريب لا قيمة له عندهم من جميع أنحاء البلاد، وكلّ أخت حامل غير متزوّجة، مقابل منحة إعاقة، وحصلوا على أمراض أكثر ممّا يمكن رفضه من أيّ طبيب، ودمّروا ملابسهم وأثاثهم ومنازلهم وأيّ شيء كانت الأسرة تدفع ثمنه! ثمّ وجدوا المزيد من الطرق للحصول على 'حاجتهم' أكثر ممّا يمكن لبقيّتنا تصوُّره، فأنشئت مهارة خاصّة لذلك، وكانت القدرة الوحيدة التي أظهروها.

ليكن الله في عوننا يا سيّدتي! هل ترين ما عشناه؟ لقد كنّا نعتقد أنّنا مُنحنا قانونًا يكفل لنا حياة كريمة، يسمّونه قانونا أخلاقيّا، يعاقب أولئك الذين راقبوه... على مراقبته. وكلّما حاولت أن ترتقي إلى مستوى ذلك القانون، عانيت أكثر، وكلّما اقترفت الغشّ أكثر، ستحصلين على مكافأة أكبر. فصدقك كان مثل أداة متروكة تحت رحمة احتيال الإنسان القادم. والشرفاء يدفعون الثمن، وغير الشرفاء هم من يجنون. فيخسر الصادق، ويفوز المحتال. فإلى متى يمكن أن يبقى الناس الجيّدون في ظلّ هذا النوع من قانون الخير؟ لقد كنّا مجموعة محترمة من الزملاء عندما بدأنا. ولم يكن هناك الكثير من المحتالين بيننا. إذ كنّا نعرف وظائفنا وكنّا فخورين بها وعملنا في أفضل مصنع بالبلاد، فالرجل العجوز ستارنز لم يستأجر سوى أفضل عمّال بالبلاد. وفي غضون عام واحد، وفي إطار الخطّة الجديدة، لم يبق بيننا رجل صادق واحدٌ. كان ذلك هو الشرّ، نوع من الشر المرعب الذي استخدمه بعض الدعاة لتخويفك به إلى درجة تغييب الفكر لرؤية نفسك على قيد الحياة. لا لأنّ الخطّة شجّعت بعض الأوغاد، بل لأنّها حوّلت الناس المحترمين إلى أوغاد، ولم يكن هناك شيء آخر يمكن أن تفعله... وكان يطلق عليها المثل الأخلاقيّة!

فمن أجل أيّ هدف كان من المفترض أن نعمل؟ أمن أجل حبّنا لإخواننا؟ وأيّ إخوان هم؟ أمن أجل المتشرّدين، والمتسكّعين، والمتسوّلين الذين رأيناهم في كلّ مكان من حولنا؟ وسواء أكانوا يغشّون أم غير أكفاء، وسواء أكانوا غير راغبين أم غير قادرين، فما الفرق الذي أحدثه ذلك بالنسبة إلينا؟ إذا كنّا مرتبطين مدى الحياة

بمستوى عدم أهليّتهم، مزيّفة كانت أو حقيقيّة، فكم من الوقت يمكننا أن نواصل على هذا المنوال؟ فنحن لا نملك أيّ وسيلة لمعرفة قدرتهم، وليس لدينا أيّ وسيلة للسيطرة على احتياجاتهم، وكلّ ما نعرفه هو أنّنا كنّا وحوشًا بكتل من الأعباء نصارع بشكل أعمى في مكان مّا نصفه يشبه المستشفى، والنصف الآخر يشبه الحظيرة.. مكان لا ينتج سوى العجز والكوارث والمرض... وضعت فيه الوحوش لإغاثة أيّ شيء من أجل راحة كلّ من اختار أن يقول ما كان بحاجة إليه.

حبّ إخواننا؟ ومن هنا تعلّمنا أن نكره إخواننا لأوّل مرّة في حياتنا. لقد بدأنا نكرههم على كلّ وجبة ابتلعوها، وكلّ متعة صغيرة استمتعوا بها، وبسبب قميص رجاليّ جديد اشتروه، أو بسبب قبّعة أخرى للزوجة، أو نزهة مع عائلاتهم، أو بسبب طلاء جديد لمنازلهم.. لقد أُخذ منّا كلّ شيء، ودفعنا ثمنه من حرماننا، وإنكارنا، وجوعنا. وبدأ بعضنا يتجسّس على بعض، على أمل القبض على الآخرين وهم يكذبون بشأن احتياجاتهم، وذلك لقطع 'منحهم' في الاجتماع المقبل. وبدأنا نحصل على الدمى التي كانت تبلّغ عن الناس، أولئك الذين أفادوا بأنّ شخصًا مّا هرّب ديكا روميّا لعائلته في أحد أيّام الآحاد.. ذلك الديك الذي يرجَّح أنّه كان سيدفعه ثمنًا للقمار. وبدأ بعضنا يتدخّل في حياة بعض، فاختلقنا المشاجرات العائليّة، لطرد أقارب شخص مّا. وكلّما رأينا رجلًا بدأ يستقرّ مع فتاة، جعلنا حياته بائسة. لقد أفشلنا ارتباطات عديدة، لم نكن نريد لأحدٍ أن يتزوّج، ولم نكن نريد أن يطعم أيّ واحد من المُعَالين أكثر.

ففي الأيّام الخوالي، كنّا نحتفل إذا رُزِق شخص مّا بطفلٍ، ونلبسه ونساعده في دفع فواتير المستشفى إذا حدث أنّه يمرّ بظرف صعب في ذلك الوقت. أمّا الآن، فإذا ولد طفل، فنحن لن نحادث والديه لأسابيع. لقد أصبح الأطفال خطرا علينا تمامًا كخطر الجراد على المزارعين. ففي الأيّام الخوالي، كنّا نساعد أيّ رجل يصاب أحد أفراد عائلته بمرض خبيث. أمّا الآن... حسنا، سأخبرك عن حالة واحدة فقط. كانت لدينا أمُّ رجل، اشتغل معنا لمدّة خمسة عشر عامًا، سيّدة عجوز سعيدة وحكيمة. وكانت تعرفنا

جميعًا بأسمائنا وكنّا جميعًا نحبّها.. لقد تعوّدنا على محبّتها. وفي أحد الأيّام، انزلقت بسلالم القبو وسقطت وكسر وركها. كنّا نعرف ما يعنيه ذلك في سنّها. لقد قال طبيب الموظّفين إنّه يجب إرسالها إلى مستشفى المدينة، لإجراء علاجات باهظة الثمن وقد تستغرق وقتًا طويلًا للشفاء. ماتت السيّدة العجوز في الليلة السابقة لمغادرتها إلى المدينة ولم يحدّدوا قطُّ سبب الوفاة. لا، لا أعرف إن هي قُتلت، إذ لم يقل أحدٌ ذلك ولا أحد سيتحدّث عنه مطلقًا. كلّ ما أعرفه هو أنّني ـ وهذا ما لا أستطيع نسيانه – أنا أيضًا كنت أتمنّى أن تموت. هذه – سامحنا الله – كانت الأخوّة والأمن والوفرة التي كان من المفترض أن تحقّقها تلك الخطّة لنا!

هل يوجد أيّ سبب يجعل أيَّ شخص يبشّر بهذا النوع من الرعب؟ وهل يوجد شخص قد يكون حصل على أيّ ربح من ذلك؟ طبعًا يوجد كثيرون منهم من قبيل ورثة السيّد ستارنز. أتمنّى ألّا تذكّريني بأنّهم ضحّوا بثروتهم وسلّمونا المصنع هديّةً. لقد انخدعنا بذلك أيضًا. نعم، لقد تخلّوا عن المصنع. ولكنّ الربح، يا سيّدتي، يعتمد على الغاية التي ترومين تحقيقها من ورائه. وما كان ورثة ستارنز يسعون خلفه لا تقدر كلّ أموال الأرض أن تشتريه. فالمال نظيف جدًّا وبريء من ذلك.

إريك ستارنز، الابن الأصغر سنًّا، كان يشبه قنديل البحر الذي لم يكن يملك الشجاعة ليرسم لنفسه أيّ هدف. لقد صوّتوا عليه بوصفه مديرًا لقسم العلاقات العامّة ولم يفعل أيّ شيء، إلّا أنّه أحاط نفسه بطاقم من الموظّفين حتّى لا يفعل أيّ شيء، لذلك لم يكن يجد عناء في التمسّك بالمكتب. أمّا الأجر الذي كان يحصل عليه.. حسنًا، لا ينبغي أن أسمّيه 'أجرًا'، ' لأنّهم لم 'يدفعوا أجرًا' لأيّ منّا.. فقد صوّتوا ليحصل على صدقات كانت متواضعة جدًّا إلى حد مّا، حوالي عشرة أضعاف ما حصلت عليه، ولكن هذه لم تكن تمثّل ثروة. وإيرك هذا لم يكن يهتمّ بالمال، ولم يكن يعلم ما يجب القيام به. لقد قضى وقته في التسكّع بيننا، ليظهر كم كان ودودًا وديمقراطيًّا. ويبدو أنّه أراد أن يكون محبوبًا، والطريقة التي سيّر بها شؤونه هي استمراره في تذكيرنا بأنّه وهبنا المصنع. لم نستطع تحمّله.

أمّا جيرالد ستارنز فكان مدير الإنتاج. ولم نكن نعلم مطلقًا حجم الصدقات التي مُنِحَهَا. ربّما يتطلّب الأمر عددًا كبيرًا من المحاسبين لمعرفة ذلك، وطاقمًا ضخمًا من المهندسين لتتبّع الطريقة التي ضُخَّتْ بها، بشكل مباشر أو غير مباشر، إلى مكتبه. لم يكن من المفترض أن تكون تلك الأموال له... وقد حصل كلّ ذلك تحت عنوان واحدٍ هو نفقات الشركة. وكان جيرالد يملك ثلاث سيّارات وأربع سكرتيرات وخمسة هواتف، وكان يسرف أمواله على الشمبانيا وحفلات الكافيار التي لم يكن بوسع أيّ رجل مال وأعمال يدفع الضرائب في البلاد أن يتحمّلها. وقد أنفق في عام واحد أموالًا أكثر ممّا كسبه والده من الأرباح في العامين الأخيرين من حياته. لقد رأينا كومة تزن مائة رطل -مائة رطل وزنّاها بأنفسنا- من المجلّات في مكتب جيرالد، مليئة بالقصص عن مصنعنا وخطّتنا النبيلة، بصور كبيرة لجيرالد ستارنز، واصفة إيّاه بأنّه أحد الشبّان الصليبيّين الاجتماعيّين العظماء. وكان جيرالد يحبّ أن يزور المتاجر في الليل، مرتديًا ملابسه الرسميّة، بأزرار ماسيّة وامضة بحجم النيكل وهو ينثر رماد السيجار في كلّ مكان. لقد كان شابًّا مغرورًا رخيصًا يحبّ التباهي في كلّ موكب بفضل أمواله المدنّسة، لكنّه لم يُعِرْ أيّ اهتمام للنقود لأنّها كانت له، وأنت حرّة في الالتفات لرؤية وجهه أم لا، كما يحلو لك.. وفي معظم الأحيان ستفضّلين عدم القيام بذلك. ولكن عندما يحدّق وغدٌ مثل جيرالد ستارنز فعلًا ويستمرّ في تفوّهه بأنّه لا يهتمّ بالثروة المادّيّة، وأنّه يخدم العائلة فقط، وأنّ كلّ الازدهار ليس لمصلحته الشخصيّة، ولكن من أجلنا ومن أجل الصالح العامّ، لأنّه من الضروريّ الحفاظ على هيبة الشركة والخطّة النبيلة في أعين الجمهور، عندها ستتعلّمين كُرْهَ ذلك المخلوق على نحوٍ لم تعرفيه من قبل تجاه أيّ إنسان.

لكنّ أخته إيفزي كانت الأسوأ. فهي حقّا لم تهتمّ بالثروة المادّيّة. لم تكن الصدقات التي حصلت عليها أكبر من صدقاتنا، وكانت تسير بحذاء مخدوش ومسطّح الكعب وعادةً ما تلبس قميصًا لكي تظهر فقط مدى نكران الذات. كانت مديرة التوزيع بالمصنع وهي السيّدة المسؤولة عن احتياجاتنا، وهي من تمسكنا من حناجرنا. وبطبيعة

الحال كان من المفترض أن يُحدَّد التوزيع عن طريق التصويت الشعبيّ. ولكن عندما يبلغ عواء الناس ستّة آلاف من الأصوات، في محاولة لاتّخاذ قرار من دون مقياس أو غاية أو سبب، وعندما لا توجد قواعد للّعبة ويمكن لكلّ شخص أن يطالب بأيّ شيء، وعندما يملك الجميع القرار، فإنّك ستكتشف حينها أنّ صوت الشعب هو صوت إيفزي ستارنز. وبحلول نهاية السنة الثانية، أسقطنا المطالبة التي كانت قائمة باسم كفاءة الإنتاج واقتصاد الوقت، وعقدنا اجتماعا واحدا استغرق عشرة أيّام، وكلّ الالتماسات التي تحتاج إلى ذلك كانت ببساطة ترسل إلى مكتب الآنسة إيفزي ستارنز. لكنّها لم تُرسَل. وكان لا بدّ من تلاوتها شخصيًّا من قبل كلّ من يتقدّم بالتماس مّا. ثمّ أعدّدت قائمة توزيع، قرأتها علينا لكي نصوّت عليها بالموافقة في اجتماع دام ثلاثة أرباع الساعة. لقد صوّتنا بالموافقة وكانت هناك فترة بعشر دقائق على جدول الأعمال للمناقشة والاعتراضات. فلم يعترض أيّ شخص. لكن عشنا أوضاعًا أفضل بحلول ذلك الوقت. فلا أحد استطاع تقسيم دخل المصنع بين الآلاف من البشر، من دون وجود معيار لقياس قيمة الناس. أمّا مقياسها فكان يعتمد على التملّق والمهادنة. وماذا عن نكران الذات؟ ففي زمن والدها، لم يكن لكلّ أمواله أن تمنحه فرصة للتحدّث إليها، إذ كانت تشبه منديله الرديء، ولم يتمكّن من الإفلات منها، مثلما حدّثت بذلك أفضل عمّالنا المهرة وزوجاتهم. كانت ذات عينين شاحبتين تبدوان مريبتين وباردتين وميّتتين، وإذا أردت أن تشاهدي الشرّ الخالص، فيجب عليك أن تراقبي الطريقة التي تلمع بها عيناها حين تنظر إلى أيّ رجل يردّ عليها ولو لمرّة واحدة وتكون قد سمعت للتوّ اسمه على قائمة أولئك الذين لا يحصلون على شيء فوق الهبات الأساسيّة. وعندما ترين ذلك، ستنتبهين إلى الدافع الحقيقيّ لأيّ شخص يبشّر بشعار: كلّ حسب قدرته، كلّ حسب حاجته.

كان هذا هو سرّ كلّ ذلك الأمر. ففي البداية، ظلّ التساؤل يخامرني: كيف يمكن للمتعلّمين، والمثقّفين، ومشاهير الرجال في العالم، أن يقترفوا خطأ بهذا الحجم.. عندما تكفيهم خمس دقائق من التفكير لتخبرهم بما سيحدث إذا حاول شخص مّا ممارسة ما

يبشّرون به. الآن أعرف أنّهم لم يفعلوا ذلك وفق أيّ نوع من الخطإ. فأخطاء بهذا الحجم لا ترتكب ببراءة أبدًا إلّا إذا وقع الناس في ضرب من ضروب الجنون الشرّير، حين لا يجدون طريقة لإنجاحه ولا يوجد سبب ممكن لتفسير اختيارهم، لأنّ لديهم سببًا لا يرغبون في إطلاع الجميع عليه. ولم نكن أبرياء أيضًا عندما صوّتنا لصالح تلك الخطّة في الاجتماع الأوّل ولم نفعل ذلك فقط لأنّنا اعتقدنا أنّ الهراء القديم الغبيّ الذي نثروه كان جيّدًا. لقد كان لدينا سبب آخر، ولكن الهراء ساعدنا على إخفائه عن جيراننا وعن أنفسنا. فالهراء أعطانا فرصة لتمرير شيء كنّا نخجل من الاعتراف به فحوّلناه بخلاف ذلك إلى فضيلة. ولم يكن بيننا رجل يصوّت لها، ولم يعتقد أنّه في ظلّ هذا الإعداد اللطيف يجب أن يستفيد من أرباح الرجال الأكثر قدرةً منه. ولم يكن بيننا رجلٌ غنيّ وذكيّ بما فيه الكفاية لكنّه لم يعتقد أنّ شخصًا مّا كان أكثر ثراءً وذكاءً منه، وأنّ هذه الخطّة ستعطيه حصّة أفضل ممّا لديه من ثروة وعقل.. لقد نسي كلّ من هم أدنى منه، أولئك الذين يهرعون لاستنزافه لأنّه كان يأمل في أن يستنزف رؤساءه. فالعامل الذي أحبّ فكرة أنّ حاجته تخوّل له سيّارة ليموزين مثل رئيسه، نسي أنّ كلّ متشرّد ومتسوّل على وجه الأرض سيطلق عقيرته للعويل بأنّ حاجته تخوّل له امتلاك مثل تلك. كان هذا هو دافعنا الحقيقيّ عندما صوّتنا، تلك هي الحقيقة، لكنّنا لم نرغب في التفكير بذلك، لهذا كلّما قلّ إعجابنا بالأمر، كان صوتنا أعلى من أجل حبّنا للصالح العامّ.

حسنا، حصلنا على ما طلبنا. وفي الوقت الذي رأينا فيه ما طلبناه، كان الأوان قد فات. كنّا محاصرين بعدم وجود مكان نذهب إليه. فأفضل الرجال بيننا تركوا المصنع في الأسبوع الأوّل من تنفيذ الخطّة. لقد خسرنا أفضل المهندسين والمشرفين والعمّال المهرة. فأيّ رجل يحترم نفسه لا يسمح بتحويل نفسه إلى بقرة حلوب في يد شخص آخر. لقد حاول بعض الزملاء القديرين التمسّك بالعمل هناك، لكنّهم لم يتمكّنوا من الصمود لفترة طويلة. وواصلنا فقدان رجالنا، وظلّوا يهربون من المصنع وكأنّهم يهربون من وباء. حتّى لم يبق لدينا شيء سوى الرجال المحتاجين، ولكن لا أحد من الرجال المَهَرَة بقي هناك.

والقليلون منّا، أولئك الذين لا يرجى منهم أيّ خير بقوا أيضًا، فلم نكن سوى أولئك الذين قضّوا هناك فترة طويلة جدًّا. ففي الأيّام الخوالي، لم يترك أحد مصنع القرن العشرين. وبطريقة مّا، لم نتمكّن من حمل أنفسنا على اعتقاد أنّه ذهب. وبعد فترة، لم نتمكّن من المغادرة، لأنّه لا يوجد أيّ صاحب عمل آخر سيقبل بنا، وهو ما لا يمكنني أن ألومه عليه. فلا أحد سيتعامل معنا بأيّ شكل من الأشكال، ولا أيّ شخص محترم أو أيّ شركة يمكنها قبولنا. وجميع المحلّات الصغيرة، التي كنّا نتعامل معها، بدأت في الانتقال من قرية ستارنسفيل بسرعة، إلى درجة أنّه لم يبقَ لدينا شيء سوى الصالونات وزوايا القمار والمحتالين الذين باعوا لنا القمامة بأسعار مجحفة. أمّا الصدقات التي حصلنا عليها فقد جعلتنا نستمرّ في السقوط لأنّ تكلفة معيشتنا ارتفعت. وظلّت قائمة المحتاجين في المصنع تتوسّع، بينما تقلّصت قائمة عملائنا. وكان هناك دخل أقلّ يقسم بين عدد أكبر من الناس. ففي الأيّام الخوالي، كان يقال إنّ العلامة التجاريّة لمصنع القرن العشرين للمحرّكات جيّدة مثل قيراط الذهب. ولا أعلم السبب الذي جعل ورثة ستارنز يفكّرون في أنّ هذه العلامة التجاريّة كانت عبارة عن طابع سحريّ قادر على خداع الناس بنوع من أنواع قوّة المشعوذين ومن شأنه أن يبقيهم أغنياء، مثلما أبقى والدهم. حسنًا، وعندما بدأ عملاؤنا يرون أنّنا لم نسلّم أيّ طلبيّة في الوقت المحدّد وأنّنا لم ننتج أيّ محرّك يخلو من الأعطاب، بدأ مفعول السحر يؤدّي عملًا عكسيًّا: إذ لم يعد الناس يقبلون على محرّكاتنا حتّى لو كانت هديّة. ووصل الأمر إلى أن أصبح عملاؤنا الوحيدون لا يدفعون ولا ينوون دفع فواتيرهم. ولكن جيرالد ستارنز، الذي خدّرته الدعاية الخاصّة به، أصبح غاضبًا يجوب البلاد، بشعور من التفوّق الأخلاقيّ، مطالبًا رجال الأعمال بإبرام صفقات معنا، لا لأنّ محرّكاتنا جيّدة، ولكن لأنّنا كنّا بحاجة ماسّة إلى الصفقات.

وبمرور الزمن، كانت القرية تستطيع بإمكانيّاتها المتواضعة أن ترى ما تظاهرت أجيال من الأساتذة بعدم ملاحظته. فما فائدة حاجتنا إلى محطّة توليدٍ للطاقة وقد توقّفت مولّداتها بسبب محرّكاتنا المعيبة؟ وما فائدة ذلك الرجل الذي قُبِض عليه وهو

على طاولة غرفة العمليّات عندما تعطّل التيّار الكهربائيّ؟ وما فائدة ذلك لركّاب الطائرة عندما تعطّل محرّكها في الجوّ؟ وإن هم اشتروا منتجاتنا، فلم يكن ذلك بسبب جدارتها، ولكن بسبب حاجتنا، فهل سيكون ذلك هو الخير، والحقّ، والأمر الأخلاقيّ الذي يجب القيام به لصاحب محطّة الطاقة، أو الجرّاح في ذلك المستشفى، أو صانع تلك الطائرة؟

ومع ذلك كان هذا هو القانون الأخلاقيّ الذي أراد الأساتذة والقادة والزعماء والمفكّرون ترسيخه في جميع أنحاء الأرض. وإذا كان هذا ما فعله ذلك القانون ببلدة صغيرة واحدة يعرف فيها بعضنا بعضًا، فهل ستهتمّين بالتفكير في ما سيفعله على نطاق عالميّ؟ وهل ستهتمّين بتخيّل ما سيكون عليه الأمر، إذا كان عليك أن تعيشي وتعملي، عندما تكونين مرتبطة بكلّ الكوارث وكلّ داء أصاب الكرة الأرضيّة؟ وكلما فشل أيّ إنسان في أيّ مكان، فأنت مَن سيتعيّن عليك التعويض عن ذلك. أنت تعمل دون أيّ فرصة للارتقاء، ودون أيّ فرصة للحصول على حصّة إضافيّة، حتّى يتمّ إطعام الكمبوديّين ويتمّ إرسال الباتاغونيّين إلى الجامعات. تعمل دون ضمانات، تعمل وأنت تفوّض أمرك لأمثال إيفزي وجيرالد يسيطرون على العالم ويقرّرون مصيرك. فهذا هو القانون الأخلاقيّ الذي يجب قبوله؟ هذا هو المثال الأعلى الأخلاقي؟

حسنا، لقد جرّبنا ذلك، وتعلّمنا الدرس. واستغرق عذابنا أربع سنوات، من اجتماعنا الأوّل إلى آخر اجتماع لنا، وانتهى وفق الطريقة الوحيدة التي يمكن أن ينتهي بها: الإفلاس. وفي اجتماعنا الأخير، حاولت إيفزي ستارنز أن تظهر هذا الأمر كرذيلة. لقد ألقت خطابًا قصيرًا وقذرًا وحادًّ اللهجة قالت فيه إنّ الخطّة فشلت لأنّ بقيّة البلاد لم تقبلها، وإنّ مجتمعًا واحدًا لا يمكن أن ينجح في خضمّ عالم أنانيّ جشع، وإنّ الخطّة كانت مثاليّة نبيلة، لكنّ الطبيعة البشريّة لم تكن جيّدة بما فيه الكفاية لتقبل ذلك. فنهض الصبيّ الصغير – الذي عوقب على إعطائنا فكرةً مفيدة في سنتنا الأولى – بينما كنّا جميعًا صامتين، وسار مباشرة إلى إيفزي ستارنز على المنصّة. لم يقل شيئًا بل بصق في وجهها. وكانت تلك هي نهاية الخطّة النبيلة وشركة القرن العشرين.

تحدّث الرجل كما لو أنَّ عبء سنوات صمته قد انزلق فجأة من قبضته. وعرفت هي أنّ ذلك كان تكريمه لها: لم يبد أي ردّ فعل على لطفها، وبدا مخدّرًا بالقيمة الإنسانيّة أو الأمل الإنسانيّ، ولكنّ شيئًا مّا في داخله قد تمّ التوصّل إليه، وكان ردّه هو ذلك الاعتراف، وتلك الصرخة الطويلة اليائسة من التمرّد على الظلم، التي لم تتراجع لسنوات، بل كسرت الطوق اعترافًا بأوّل شخص قابله في جلسة استماع إلى نداء من أجل العدالة لن يكون ميؤوسًا منه. وكأنّ الحياة التي كان على وشك التخلّي عنها أعادتها إليه الضرورتان اللتان يحتاج إليهما: طعامه ووجود كائن عقلانيّ.

سألته:

ـ ولكن ماذا عن جون جالت؟

قال متذكّرا:

ـ أوه.. أوه، نعم...

ـ كنت ستخبرني لماذا بدأ الناس يطرحون هذا السؤال.

ـ نعم...

كان ينظر بعيدًا، كما لو أنّه يستعيد إحدى الرؤى التي كان قد تأمّلها لسنوات، ولكنّها ظلّت دون تغيير أو حلّ؛ وكان بوجهه مظهر مثير للرعب.

ـ كنت تنوي أن تقول لي من كان جون جالت الذي يقصدونه في كلامهم، هذا إن وُجِد شخصٌ يدعى أصلًا جون جالت

ـ آمل ألّا يكون هناك أيّ شخص بهذا الاسم يا سيّدتي. وآمل أن تكون مجرّد صدفة، ومجرّد جملة فارغة من أيّ معنى.

ـ يبدو أنّه خطر ببالك شيء مّا. فما هو؟

ـ لقد كان...الأمر يتعلّق بحدث وقع في ذلك الاجتماع الأوّل بمصنع القرن العشرين. ربّما كانت تلك بداية الأمر، وربّما لم تكن كذلك، لا أعلم بالضبط... لقد

عقد الاجتماع في ليلة ربيعيّة، قبل اثني عشر عامًا. فكان ستّة آلاف عامل مزدحمين على المدرّجات التي بنيت على طول العوارض الخشبيّة لأكبر حظيرة بالمصنع. كنّا قد صوّتنا لصالح الخطّة الجديدة وكنّا في مزاج منفعل، ممّا أحدث كثيرًا من الضوضاء، ونحن نهتف بانتصار الشعب، ونهدّد نوعًا من الأعداء المجهولين ونتوعّد بالقتال، مثل المتنمّرين ذوي الضمير غير المستقرّ. كانت هناك أضواء بيضاء تومض علينا فشعرنا بنوع من الحساسيّة الشديدة والفظاظة الخام، وكنّا همجًا وقبيحين وخطيرين في تلك اللحظة. ظلّ جيرالد ستارنز، الذي كان رئيسًا للاجتماع، يطرق بمطرقته يطلب منّا التزام الهدوء، وهدأنا قليلًا ولكن ليس تمامًا، ويمكنك أن تري المكان كلّه يتحرّك بلا هوادة من جانب إلى آخر، مثل الماء في مقلاة متحرّكة. هذه لحظة حاسمة في تاريخ البشريّة! صرخ جيرالد ستارنز من خلال الضوضاء: تذكّروا أن لا أحد منّا سيغادر هذا المكان الآن، فكلّ واحد منّا ينتمي إلى مجموعة الآخرين وفق القانون الأخلاقيّ الذي نقبله جميعًا! فنهض أحد الرجال وردّ عليه: أنا لا أقبله. لقد اعترض على الخطّة واحد من المهندسين الشبّان لا أحد يعرف الكثير عنه لأنّه كان دائمًا منعزلًا عنّا. وعندما وقف، تحوّلنا فجأة إلى موتى. لقد شدّ انتباهنا بالطريقة التي هزّ بها رأسه. كان طويل القامة ونحيفًا... وأتذكّر أنّ أيًّا منّا كان يمكن أن يكسر رقبته من دون مشاكل، ولكنّ ما شعرنا به جميعًا هو الخوف. وقف وقفة رجل يعلم أنّه على حقّ وقال: سأضع حدًّا لهذه المهزلة، دفعةً واحدةً وإلى الأبد. كان صوته واضحًا وخاليًا من أيّ مشاعر. هذا كلّ ما قاله وهمّ بالخروج. سار على طول المكان، في الضوء الأبيض، غير متعجّل ومن دون أن ينظر إلى أيّ واحد منّا. ولم يتحرّك أحد لإيقافه. فصرخ جيرالد ستارنز فجأةً من بعده وقال: كيف ستنهيها؟ فالتفت وأجابه: سأوقف محرّك العالم، ثمّ خرج ولم نرَه مجدّدًا. لم نسمع قطُّ ما حدث له ولكن بعد سنوات، عندما رأينا الأضواء تنطفئ، واحدة تلو أخرى، في المصانع العظيمة التي وقفت صلبةً مثل الجبال على مدى أجيال، وعندما رأينا البوّابات تغلق والأحزمة الناقلة تتحوّل ساكنة بلا حراك، وعندما رأينا الطرق فارغة وأسراب السيّارات تخفّ، وعندما بدا الأمر كما لو أنّ بعض الطاقة الصامتة كانت توقف مولّدات العالم وكان العالم ينهار بهدوء، مثل الجسد عندما تخرج

منه الروح، حينها بدأنا نتساءل ونطرح أسئلة عنه. وبدأنا نطرح ذلك السؤال في اجتماعاتنا، وانتشر بين أولئك الذين سمعوه منّا مثل النار في الهشيم. وبدأنا نعتقد أنّه أوفى بوعده، وأنّه هو الوحيد الذي رأى الحقيقة التي رفضنا معرفتها، وعرفَها، وكان القصاص الذي طالب به هو رؤوسنا، والمنتقم، هو رجل تلك العدالة التي تحدّيناها. وبدأنا نعتقد أنّه لعننا ولا مفرّ من حكمه، ولن نكون قادرين على النجاة من لعنته، وكان هذا أكثر فظاعة لأنّه لم يكن يلاحقنا، وفجأة أصبحنا نحن من يبحث عنه. لقد ذهب فقط من دون أن يترك أيّ أثر. ولم نجد أيّ إجابة عنه في أيّ مكان وتساءلنا عن أيّ نوع من القوّة المستحيلة مكّنته من أن يفعل ما وعد به. ولم يكن هناك جواب على ذلك أيضًا. وبدأنا نفكّر به كلّما رأينا انهيارًا آخر في العالم، وهو ما لم يستطع أحد تفسيره، وكلّما واجهنا ضربة أخرى، فقدنا أملًا آخر، وشعرنا بأنّنا عالقون في هذا الضباب الرماديّ الميّت الذي يخيّم على جميع أنحاء الأرض. ربّما سمعنا الناس يصرخون بهذا السؤال نفسه ولم يعرفوا ما كنّا نعني به، لكنّهم كانوا يعرفون جيّدًا الشعور الذي جعلنا نصرخ به مثلما شعروا بأنّ شيئًا مّا قد حدث في العالم. ربّما كان هذا هو سبب بدئهم في قوله، كلّما شعروا بأنّه لا يوجد أمل. أتمنّى أن أكون مخطئًا، وأنّ تلك الكلمات لا تعني شيئًا، وأنّه لا توجد نيّة واعية ولا منتقم وراء نهاية الجنس البشريّ. ولكن عندما أسمعهم يردّدون هذا السؤال، أشعر بالخوف. فأتذكّر أنّ ذلك الرجل الذي قال إنّه سيوقف محرّك العالم، كما ترين، كان اسمه جون جالت.

***

استيقظت، لأنّ صوت العجلات تغيّر. كان الإيقاع غير منتظم، بصرير مفاجئ وشقوق قصيرة وحادّة، رافقه صوت يشبه الضحك الهستيريّ المتقطّع، مطابق لهزّات متقطّعة تصدر من العربة. كانت تعلم، قبل أن تلقي نظرة على ساعتها، أنّ هذا هو مسار منطقة كانساس الغربيّة وأنّ القطار بدأ يشقّ المنعطف الطويل جنوبًا من مدينة كيربي، بولاية نبراسكا.

وكان القطار نصف فارغ؛ إذ غامر عدد قليل من الناس في جميع أنحاء القارّة بالسفر

على القطار المذنّب الأوّل منذ كارثة النفق. وكانت قد منحت غرفة النوم للصعلوك، ثمّ بقيت وحدها مع قصّته. لقد ودّت أن تفكّر في الأمر، وفي كلّ الأسئلة التي كانت تنوي طرحها عليه في الغد، لكنّها وجدت عقلها مجمّدًا ومتصلّبا مثل متفرّج يحدّق في قصّة، متفرّج عاجز على الفعل، قادر فقط على التحديق. شعرت كما لو أنّها كانت تعرف معنى ذلك المشهد، وتعرفه بكلّ أسئلته الإضافيّة لكنّها تتهرّب منه. يجب أن تتحرّكي، تلك كانت الكلمات التي تنبض في ذهنها بإلحاحٍ غريبٍ، كما لو أنّ الحركة أصبحت غايةً في حدّ ذاتها، أو كانت حاسمة ومطلقة ومصيريّة.

كان صرير العجلات يتصاعد مع تزايد توتّرها. وظلّت صاحيةً، مثلما يحدث في بداية ذعر غير مبرّر، فوجدت نفسها تجلس باستقامة في الظلام، تفكّر في الفراغ: ما الأمر؟ ثمّ تقول لنفسها في طمأنينة: نحن نتحرّك... نحن مازلنا نتحرّك...

كان المسار من كانساس الغربيّة أسوأ ممّا كانت تتوقّع، هكذا اعتقدت وهي تستمع إلى صرير العجلات. لقد حملها القطار الآن على بعد مئات الأميال من ولاية يوتا فشعرت برغبة يائسة في النزول من القطار على الخطّ الرئيسي، والتخلّي عن جميع مشاكل شركة تاجارت العابرة للقارّات، والعثور على طائرة لتطير مباشرة إلى كوينتين دانيلز. وقد استغرق الأمر منها جهدًا شاقًّا من الإرادة للبقاء في عربتها.

كانت مستلقية في الظلام، تنصت إلى العجلات، معتقدة أنّ دانيالز ومحرّكه فقط لا يزالان مثل نقطة نارٍ أمامها، تسحبها إلى الأمام. فما فائدة المحرّك لها الآن؟ لم تكن لديها أيّ إجابة. لماذا شعرت إذَن بأنّها متأكّدة جدًّا من الحاجة الماسّة إلى الإسراع؟ ولم تكن تملك أيضًا أيّ إجابة. لقد كان الوصول إليه في الوقت المناسب هو الإنذار الوحيد المتبقّي في ذهنها. فتمسّكت به، ولم تطرح أيّ سؤال. ومن دون أن تنبس بكلمة، عرفت الإجابة الحقيقيّة: كان المحرّك مطلوبًا، لا لنقل القطارات، بل لإبقائها تتحرّك.

لم تعد تستطيع سماع القعقعة الرابعة للعجلات بعد الآن في خضمّ الصرير المشوّش للمعادن، ولم تستطع سماع خطوات العدوّ التي كانت تتسابق معه، لقد سمعت فقط تدافع الذعر اليائس... فقالت في نفسها: سأصل إلى هناك في الوقت المناسب،

وسأذهب إلى هناك أوّلًا، وسأنقذ المحرّك. يوجد محرّك واحد ويجب ألّا يتوقّف،.. لن يتوقّف... لن يتوقّف... إنّه لن يتوقّف. ثمّ استفاقت إثر هزّة، فارتجّ رأسها على الوسادة. وكانت العجلات قد توقّفت.

وبقيت ساكنة لحظةً، تحاول فهم السكون الغريب حولها. ثمّ شعرت وكأنّها كانت محاولةً مستحيلةً لخلق صورة حسّيّة من عدم الوجود. لم تكن هناك سمات للواقع. لا شيء سوى الغياب: بلا صوت، كما لو أنّها كانت وحدها على متن القطار، وبلا حركة، وكأنّ هذا لم يكن قطارًا، بل مجرّد غرفة في مبنى، وبلا ضوء، وكأنّ هذا لم يكن قطارًا أو غرفة، بل مساحة من دون أشياء، ولا علامة على العنف أو الكارثة الجسديّة، كما لو أنّ تلك هي الحالة التي لم تعد فيها الكارثة ممكنةً.

وفي اللحظة التي أدركت فيها طبيعة السكون، انتصب جسدها بمنحنى واحد من حركة فوريّة وعنيفة مثل صرخة تمرّد. لقد اختفى ذلك الصخب العالي لظلال الأعمدة التي كانت تمرّ من خلال النافذة مثل سكّين يقطع الصمت، كما لو أنّها ألقت الظلّ إلى أعلى. ولم يكن هناك شيء بالخارج سوى امتداد مجهول من المروج؛ كانت الرياح القويّة تكسر الغيوم، ثمّ نزل برج من ضوء القمر من خلالها، لكنّه سقط على السهول التي بدت ميّتةً مثل تلك الأراضي التي جاءت منها.

مدّت يدها لتضغط على مفتاح الضوء والجرس لاستدعاء البوّاب. فأضاء النور الكهربائيّ الغرفة وأعادها إلى العالم العقلانيّ. فنظرت إلى ساعتها: كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل وبضع دقائق. ثمّ نظرت من خلال النافذة الخلفيّة: لقد انطلق المسار في خطٍّ مستقيم. وعلى المسافة الموصوفة، رأت الفوانيس الحمراء متروكةً على الأرض، وضعت بإتقان لحماية الجزء الخلفيّ من القطار. فبدا المشهد مطمئنًا.

ثمّ ضغطت على جرس البوّاب مرّة أخرى. فانتظرته ثمّ ذهبت إلى الرواق، وأقفلت الباب وانحنت إلى الخارج للنظر نحو أسفل خطّ القطار. كانت بعض النوافذ مضاءة على الشريط المتضائل من الصلب، لكنّها لم ترَ أيّ جسد، أو أيّ علامة تدلّ على النشاط البشريّ. فأوصدت الباب، وعادت أدراجها وبدأت ترتدي ملابسها، بحركات

هادئة.

لم يأتِ أحدٌ للرّد على جرسها عندما سارعت إلى العربة الموالية، فلم تشعر بأيّ خوف، أو شكّ، أو يأس، أو أيّ شيء سوى الحاجة الملحّة إلى الفعل.

لم يكن هناك أيّ بوّاب في فتحة العربة الموالية، ولا أيّ بوّاب في العربة التي توجد خلفها. فأسرعت تهرول في الممرّات الضيّقة، ولم تقابل أحدًا. لكنّ أبواب بعض المقصورات كانت مفتوحة. وقد جلس الركّاب في الداخل، مرتدين ملابسهم أو نصف عراة، بصمت، كما لو أنّهم كانوا ينتظرون. لقد لاحظوا اندفاعها بنظرات غريبة، وكأنّهم كانوا يعرفون ما تبحث عنه، أو كما لو أنّهم توقّعوا أن يأتي شخص مّا فيواجه ما لم يواجهوه. وتابعت، وهي تركض في الممرّ الذي كان يشبه العصب الشوكيّ لقطار ميّت، وهي تراقب التركيبة الغريبة للمقصورات المضاءة والأبواب المفتوحة والممرّات الفارغة: فلم يغامر أحد بالخروج. ولم يتجرّأ أيّ واحد منهم على طرح أيّ سؤال.

ثمّ ركضت من خلال العربة الوحيدة للقطار، حيث ينام بعض الركّاب في أوضاع ملتوية من الإرهاق، في حين جلس آخرون مستيقظين بثبات مثل الحيوانات التي تنتظر صفعة، فلم يتحرّكوا لتجنّب ذلك.

وتوقّفت في ردهة العربة. فرأت رجلًا، كان قد فتح الباب ومال إلى الخارج، وهو ينظر إلى الأمام مستفسرًا عبر الظلام، مستعدًّا للخروج. ثمّ التفت عند سماع صوت اقترابها. لقد تعرّفت على وجهه: إنّه أوين كيلوغ، الرجل الذي رفض عرضًا مستقبليًّا قدّمته له ذات مرّة.

ـ قالت بنبرة تضجّ دهشة وذهولًا: كيلوغ!

أجابها وهو يبتسم:

ـ مرحبا يا آنسة تاجارت. لم أكن أعلم أنّك كنتِ على متن القطار.

أمرته، كما لو أنّه لا يزال موظّفًا في السكك الحديديّة: هيا، أعتقد أنّنا على متن قطار

مجمّد.

قال: نحن كذلك.

ثمّ تبعها مطيعًا، دون أن يبحث عن أيّ تفسير. كما لو أنّهما، في فهم غير معلن، كانا يستجيبان لنداء الواجب، وبدا من الطبيعيّ أنّ من بين المئات الذين كانوا على متن القطار، هما فقط اللذان ينبغي أن يكونا شريكين وفي حالة خطر.

سألته، وهما يسرعان في المرور عبر العربة الموالية: هل لديك أدنى فكرة عن الوقت الذي استغرقه وقوفنا؟

قال: لا، لقد كنّا واقفين عندما استيقظت.

ثمّ سارا على طول القطار، فلم يجدا أيّ بوّاب، أو أيّ نادل في المطعم، أو أيّ عامل مكابح، أو أيّ كمساريّ. فكانا يتبادلان النظرات من حين إلى آخر، لكنّهما التزما الصمت. كانا يعرفان قصص القطارات المهجورة، والطواقم التي اختفت بسبب الانفجارات المفاجئة للتمرّد ضدّ العبوديّة.

ثمّ نزلا في نهاية القطار، فلم يلاحظا وجود أيّ حركة حولهما باستثناء هبوب الرياح على وجهيهما، فصعدا بسرعة على متن قاطرة المحرّك. كان مصباحُ المحرّك الأماميُّ يشتغل، ممتدًّا مثل ذراع متّهم في فراغ الليل. وكانت عربة المحرّك فارغة.

فصرخت من الانتصار اليائس ردًّا على صدمة ما رأت: هذا جيّد! إنّهم بشر!

ثمّ توقّفت، من الفزع، كما يحدث لصرخة شخصٍ غريبٍ. فلاحظت أنّ كيلوغ كان واقفًا يراقبها بفضول، وبتلميح خافتٍ من الابتسامة.

كان محرّكا بخاريًّا قديما، من أفضل ما كانت السكك الحديديّة قادرة على توفيره للقطار المذنّب. لقد تمّ حصر النار في المشابك، وكان مقياس البخار منخفضًا، وقد سقط نور المصباح الأماميّ على الزجاج العظيم أمامهم على شكل مجموعة من الروابط التي التقت بهما، وظلّت ثابتة مثل خطوات السلّم، يمكن عدّها، ترقيمها وإنهاؤها.

ومدّت يدها لالتقاط سجلّ العمّال ونظرت في أسماء طاقم القطار الأخير. فوجدت

أنّ اسم سائق القطار هو بات لوغان.

نزل رأسها ببطء، وأغلقت عينيها. لقد تذكّرت أوّل تشغيل على المسار الأخضر والأزرق، الذي يجب أن يكون عالقًا في ذهن بات لوغان كما كان في ذهنها خلال ساعات الصمت لآخر تشغيل له على أيّ سكّة حديديّة.

قال أوين كيلوغ بهدوء: ما خطبك يا آنسة تاجارت؟

ـ قالت: نعم، نعم... حسنًا... سيتعيّن علينا الوصول إلى الهاتف والاتّصال بطاقم آخر... وفقًا لمعدّل السرعة الذي كنّا نسير به، أعتقد أنّنا يجب أن نكون على بعد حوالي ثمانين ميلًا من خطّ ولاية أوكلاهوما. وأعتقد أنّ برادشو هي أقرب نقطة تقسيم يمكن الاتّصال بها في هذه الطريق. نحن في مكان مّا على بعد ثلاثين ميلًا منها

ـ هل هناك أيّ قطارات لشركة تاجارت ستتبعنا؟

ـ القطار الموالي هو القطار رقم 253، وهو قطار شحن عابر للقارّات، لكنّه لن يصل إلى هنا حتّى حوالي الساعة السابعة صباحًا، إذا كان يعمل في الوقت المحدّد، وهو ما أشكّ فيه

ـ قطار شحن واحد فقط في سبع ساعات؟

هكذا ردّ عليها بشكل لاإراديّ، ردّ بنبرة تشي بالغضب من شركة السكك الحديديّة العظيمة التي كان يفخر بالانتماء إليها في الماضي. ثمّ أضاف: إنّ حركة المرور العابرة للقارّات ليست كما كانت في أيّامك.. ولا أفترض وجود أيّ قطارات قادمة من منطقة كانساس الغربيّة هذه الليلة؟

ـ لا أستطيع أن أحسم في هذا الأمر، ولكن لا أعتقد أنّها موجودة.

فألقى نظرة على قطبي أعمدة بجانب المسار وقال: آمل أن يكون سكّان كانساس الغربيّون قد حافظوا على هواتفهم في النظام.

ـ أنت تعني أنّنا أمام حظّ متعثّر يقول إنّهم لم يحافظوا عليها وذلك من خلال الحكم على حالة المسار. ولكن علينا أن نحاول في كلّ الأحوال.

ـ نعم.

فهمّت بالذهاب، لكنّها توقّفت. كانت تعرف أنّ من غير المجدي التعليق، ولكنّ الكلمات صدرت لاإراديًّا فقالت: أتعلم أنّ تلك الفوانيس التي وضعها رجالنا خلف القطار لحمايتنا هي أصعب شيء يمكن تحمّله. إنّها... تشعر بالقلق على حياة الإنسان أكثر ممّا أظهرته بلادهم من اهتمام بها.

كانت نظرته السريعة إليها مثل لقطة من التركيز المتعمّد، ثمّ أجاب بشكل جادٍّ: نعم يا آنسة تاجارت.

ثمّ تسلّقا السلّم على جانب المحرّك، فشاهدا مجموعة من الركّاب وقد تجمّعوا على المسار، والمزيد من الشخصيّات الخارجة من القطار للانضمام إليهم. وبغريزة خاصّة بهم، جلس الناس ينتظرون وهم يعرفون أنّ شخصًا مّا سيحمل على عاتقه حلّ الإشكال، وأنّ شخصًا مّا سيتحمّل المسؤوليّة، وأصبح من الآمن الآن أن تظهر علامات الحياة.

نظروا إليها جميعًا في جوّ من توقّع الاستفسار، وهي تقترب منهم. ويبدو أنّ الشحوب غير الطبيعيّ لضوء القمر قد ذوّب الاختلافات في وجوههم وأكّد الجودة التي كانت بينهم جميعًا: بنظرة من التقييم الحذر، يوجد فيها جزء من الخوف، وجزء من المناشدة، وجزء من الوقاحة المعطّلة.

سألتهم: هل يوجد أيّ شخص هنا يرغب في أن يكون متحدّثًا باسم الركّاب؟

فنظر بعضهم إلى بعض ولم يكن هناك أيّ جواب. ثمّ أضافت:

ـ حسنًا لا داعي إلى التحدّث. أنا داغني تاجارت، نائبة رئيس التشغيل لهذه الشركة و..

فحدثت جلبة من ردود الأفعال بين الناس في تلك المجموعة، جلبة نصفها حركة، ونصفها الآخر همس يشبه الارتياح، ثمّ أضافت: أنا من سيتحدّث بالنيابة عنكم. نحن على متن قطار تمّ التخلّي عنه من قبل طاقمه. لا يوجد أيّ حادث جسديّ. والمحرّك

سليم ولكن لا يوجد أحدٌ لتشغيله. هذا ما تسمّيه الصحف قطارًا مجمّدًا وتعلمون جميعًا ما يعنيه هذا الأمر.. وأنتم تعرفون الأسباب. وربّما كنتم تعرفون الأسباب قبل وقت طويلٍ من اكتشافها من قبل الرجال الذين هجروكم الليلة. فالقانون منعهم من الفرار ولكنَّه لن يساعدكم الآن.

فصرخت امرأة فجأة، مطالبةً بفظاظة هستيريّة: وماذا سنفعل؟

فتوقّفت داغني للنظر إليها. كانت المرأة تدفع إلى الأمام، للضغط على نفسها في المجموعة، حتّى تضع بعض الأجسام البشريّة بينها وبين مشهد الفراغ الكبير، وكانت السهول الممتدّة تمتصّ ضوء القمر لتستعير الطاقة من الفوسفور الميّت. وكانت المرأة ترتدي معطفًا مرميًا فوق ثوب سهرة، وكان معطفًا مفتوحًا يظهر معدتها البارزة تحت قماش الفستان الرقيق، بسلوك فاحش فضفاض يفترض أنّ كلّ الإيحاء الذاتيّ البشريّ قبحٌ لم تبذل أيّ جهد لإخفائه. وللحظة، أعربت داغني عن أسفها وندمها على إصرارها في الاستمرار.

ـ سأنزل إلى أسفل المسار لأبحث عن هاتف طوارئ... هناك هواتف للطوارئ على مسافة خمسة أميال على طول الطريق السليم. سأطلب طاقمًا آخر، وهذا الأمر سيستغرق بعض الوقت. يرجى منكم البقاء على متن القطار والحفاظ على هذا النظام قدر استطاعتكم.

سألتها امرأة أخرى بنبرة عصبيّة: وماذا عن عصابات المغيرين؟

ـ ردّت داغني: هذا صحيح، ومن الأفضل أن يرافقني شخص منكم. فمن يرغب منكم في الذهاب معي؟

لقد أساءت فهم دافع المرأة، فلم تجد جوابًا. ولم تُوجَّه إليها نظرات، ولا وجّهها بعضهم إلى بعض. ولم تكن هناك عيون، فقط أشكال بيضويّة رطبة تلمع في ضوء القمر. فقالت داغني في نفسها ها هم أناس العصر الجديد، المُطالبون بالتضحية بالنفس ومتلقّوها. لقد أذهلتها نوعيّة الغضب في صمتهم، غضب يقول إنّه كان

يُفتَرَض بها أن تعفيهم من لحظات كتلك، فالتزمت هي أيضًا الصمت بنيّة واعيةٍ.

ولاحظت أنّ أوين كيلوغ ينتظر هو أيضًا، ولكنّه لم يكن يراقب الركّاب، بل يراقب وجهها. وعندما أصبح متأكّدًا أنّه لن يكون هناك جواب من الحشد، قال بهدوء، سأرافقك يا آنسة تاجارت.

ـ شكرًا.

قاطعتها المرأة العصبية: وماذا عنّا؟

فالتفتت إليها داغني، وأجابتها برتابة رسميّة من دون حركة، تشبه ردود أفعال أحد المسؤولين التنفيذيّين في قطاع الأعمال: لم تكن هناك حالات لهجمات عصابات غريبة على القطارات المجمّدة... للأسف.

سألها رجل ضخم بنبرة السيّد الذي يتوجّه بالأوامر إلى الخدم: وأين نحن الآن؟ وفي أيّ جزء توقّفنا؟ وفي أيّ ولاية؟

أجابته داغني: لا أعلم.

ـ تساءل آخر بلهجة الدائن الذي يفرضه المدين: وإلى متى سنبقى هنا؟

ـ لا أعلم.

ـ سألها آخر بنبرة شرطيّ يخاطب مجرمًا: ومتى سنصل إلى سان فرانسيسكو؟

ـ لا أعلم.

وانفجر الاستياء بين الركّاب، على شكل نفث صغير، وطقطقة، مثل الكستناء، بدت في الفرن المظلم لعقولٍ شعرت الآن باليقين من أنّه وقع الاعتناء بها وبأمنها.

صرخت امرأة: هذا فعل شائن جدًّا! ليس لديك الحقّ في السماح بحدوث هذا الأمر! فأنا لا أنوي أن أظلّ وسط العدم واللّامكان أنتظر الإغاثة!

ردّت داغني اغلقي فمك.. وإلّا سوف أقفل أبواب القطار وأتركك حيث أنت.

ـ لا يمكنك أن تفعلي ذلك! فأنت مديرة لنقل عموميّ مشترك! هذا ظلم! وسأبلغ

مجلس الاتّحاد بذلك!

ـ سيكون لك ذلك إذا أعطيتك قطارًا يمكّنك من رؤية مجلسك أو سماعه.

ثمّ رأت كيلوغ وهو ينظر إليها، فكانت نظراته مثل خطّ مرسوم تحت كلماتها، يؤكّد لها اهتمامه الخاصّ بها.

قالت داغني: احصل على مصباح يدويّ من أيّ مكان، وسأذهب أنا لأخذ حقيبة يدي، ثمّ ننطلق.

وعندما انطلقا في طريقهما إلى هاتف المسار، سارا في خطّ صامت من العربات فشاهدا شخصيّة أخرى تنزل من القطار وتسرع لمقابلتهما. إنّه الصعلوك. لقد التحق بهما ثمّ توقّف وسأل داغني:

ـ هل توجد أيّ مشكلة يا سيّدتي؟

ـ لقد فرَّ الطاقم.

ـ أوه، يا إلهي، وما العمل؟

ـ سأذهب إلى الهاتف للاتّصال بنقطة التقسيم.

ـ لا يمكنك الذهاب بمفردك يا سيّدتي، ليس في هذه الأيّام على الأقلّ، فمن الأفضل أن أرافقك.

قالت، وهي تبتسم: شكرًا، لكن سأكون بخير، فالسيّد كيلوغ هنا وسيرافقني. قل لي ما اسمك؟

ـ جيف آلن، يا سيّدتي.

ـ اسمع يا آلن، هل سبق لك أن اشتغلت في شركة للسكك الحديديّة من قبل؟

ـ لا يا سيّدتي.

ـ حسنا، أنت تعمل بإحدى هذه الشركات الآن. أنت نائب قائد ووكيل نائب الرئيس المسؤول عن العمليّات. يتمثّل عملك في أن تتولّى مسؤوليّة هذا القطار في

غيابي، والحفاظ على النظام وإبقاء الركّاب في هدوء. أخبرهم أنّني عيّنتك، ولا تحتاج إلى أيّ دليل. فهم سيطيعون أيّ شخص.

أجابها بنبرة حازمة: حسنًا يا سيّدتي.

وتذكّرت أنّ المال عندما يدخل جيب الرجل يزرع الثقة في عقله؛ فأخذت ورقة نقديّة بمائة دولار من حقيبتها ووضعتها في يده وقالت: خذها كمسبّق على الأجر

ـ حسنًا يا سيّدتي.

ثمّ انطلقت في السير، لكنّه هتف خلفها: يا آنسة تاجارت!

قالت وهي تلتفت إليه: نعم؟

ـ شكرا.

ابتسمت، ورفعت يدها في تحيّة وداع، واستأنفت مسيرها.

ـ سألها كيلوغ: من يكون ذلك الشخص؟

ـ مجرّد صعلوك ألقي عليه القبض وهو بصدد الركوب في القطار خلسة.

ـ أعتقد أنّه سيؤدّي هذه المهمّة على أحسن وجه.

ـ بالتأكيد.

سارا صامتَين بجانب قاطرة المحرّك وفي اتّجاه نور المصابيح الأماميّة. وفي البداية، كانا يتنقّلان من رابط للسكك إلى رابط آخر، وهما يواجهان نبضًا عنيفًا من الخلف، فهما لا يزالان يشعران كما لو أنّهما كانا في المنزل، في عالم السكك الحديديّة العاديّ. ثمّ وجدت داغني نفسها تراقب الضوء المسلّط على الروابط تحت قدميها، وتشاهده ينحسر ببطء، محاولةً الإمساك به، لتستمرّ في رؤية توهّجه المتلاشي، حتّى أدركت أنّ ملامح التوهّج على الخشب قد اختفت ولم يعد هناك شيءٌ سوى ضوء القمر. لم تستطع منع الرعشة التي جعلتها تلتفّ للنظر خلفها. وكانت المصابيح الأماميّة لا تزال معلّقة هناك، مثل كرة كوكب فضّيّة سائلة، قريبة بشكل خادع، ولكن تنتمي إلى مدار آخر

ونظام آخر.

مشى أوين كيلوغ في صمت بجانبها، فشعرت باليقين من كون كلّ منهما يعرف أفكار الآخر.

ـ صرحت داغني بشكل مفاجئ: ما كان عليه أن يتصرّف على هذا النحو. يا إلهي، ما كان عليه أن يقدم على مثل هذا الأمر!

ـ من تقصدين بالتحديد؟

ـ أقصد جدّي ناثانيل تاجارت، لم يكن عليه أن يعمل مع أشخاص مثل هؤلاء الركّاب. ولم يكن عليه أن يوفّر لهم هذه الخدمة. بل ولم يكن عليه أن يوظّفهم أو يتعامل معهم على الإطلاق سواء بوصفهم زبائن أو عمّالًا.

ـ قال كيلوغ وهو يبتسم: يا آنسة تاجارت، هل تعني أنّه سيصبح ثريًّا من خلال استغلالهم؟

ـ قالت بعد أن أومأت برأسها: إنّهم... لقد قالوا لسنوات إنّه أحبط قدرة الآخرين، ولم يترك فرصةً لهم، وإنّ... عدم الكفاءة البشريّة خدمت مصلحته الأنانيّة... لكنّه... لم يكن يطالب الناس بطاعته.

ردّ عليها بنبرة قويّة: تذكّري فقط يا آنسة تاجارت أنّ جدّك كان يمثّل -لفترة وجيزة في تاريخ البشرية كلّها- قانونًا وجوديًّا، وقد ألغى فيه العبوديّة من العالم المتحضّر. تذكّري ذلك، عندما تشعرين بالحيرة من طبيعة أعدائه.

ـ هل سمعت من قبل عن امرأة تدعى إيفز ستارنز؟

ـ أوه، نعم أعرفها.

ـ مازلت أفكّر أنّ هذا هو المشهد الذي كانت ستستمتع به، أي رؤية هؤلاء الركّاب الليلة. هذا ما كانت تسعى إليه ولكنّنا لا نستطيع التعايش مع مثل هذا الأمر، أليس كذلك؟ لا أحد يستطيع التعايش معه، بل وليس من الممكن التعايش معه.

ـ ما الذي يجعلك تعتقدين أنّ هدف إيفز ستارنز هو الحياة؟

لم تجب على هذا السؤال. كان إيقاع خطواتهما مثل روابط السلسلة التي تتخطّى صمتهما، وهما يتخطّيان الروابط التي سجّلها على الخشب وقع كعب حذائها الجافّ والسريع.

لم تكن تملك الوقت لتكون على بينّة من وجوده بجانبها، إلّا بوصفه رفيقها وله من الكفاءة الكثير وقد بعثته العناية الإلهيّة إليها؛ وهي الآن تنظر إلى ملامح وجهه باهتمام واعٍ. كان وجهه واضحًا، بنظرة قاسية ذكّرتها بما كان يعجبها فيه سابقًا. ولكنّ وجهه أصبح أكثر هدوءًا، وأكثر صفاءً وليونةً. كانت ملابسه باليةً. يرتدي سترة جلديّة قديمة، ورغم أنّها تراها في الظلام، فقد كان بإمكانها تبيّن البقع المخدوشة التي تتناثر عبر الجلد.

سألته: ما الوظيفة التي مارستها بعد أن تركت شركة تاجارت العابرة للقارّات؟

ـ أوه، وظائف كثيرة.

ـ وأين تعمل الآن؟

ـ في مهامّ خاصّة لا أكثر ولا أقلّ.

ـ من أيّ نوع؟

ـ من كلّ نوع

ـ أنت لم تعد تعمل بالسكك الحديديّة؟

ـ لا.

يبدو أنّ الإيجاز الحادّ في صوته توسّع ليصبح بيانًا بليغًا. كانت تعلم أنّه يعرف دافعها فقالت:

ـ كيلوغ، إذا أخبرتك أنّه لم يبق أيّ رجل من الدرجة الأولى بنظام شركة تاجارت، وإذا عرضت عليك أيّ وظيفة –وفق الشروط التي تفرضها أو الأموال التي تطلبها–

فهل ستعود إلينا؟

ـ لا.

ـ يبدو أنّك صدمت من خسارتنا لحركة المرور. ولا أعتقد أنّ لديك أيّ فكرة عمّا فعلته خسارتنا برجالنا. لا أستطيع أن أصف لك هذا النوع من العذاب الذي عشته خلال ثلاثة أيّام، في محاولةٍ للعثور على شخص قادر على بناء خمسة أميال من المسار المؤقّت. أمامي 50 ميلا لبنائها عبر جبال الروكي. ولا أرى طريقة لفعل ذلك ولكن يجب أن يتمّ إنجازها. لقد قمت بتمشيط البلاد بحثًا عن الرجال، لكن لم أجد أيّ واحد. ثمّ التقيتك فجأة هناك في تلك العربة، فعندما أعطي نصف النظام لموظّف مثلك، فهل ستفهم لماذا لا أستطيع أن أدعك تذهب؟ اختر أيّ شيء ترغب فيه. هل تريد أن تكون مدير عامّ لمنطقة مّا أو مساعد نائب الرئيس التشغيليّ؟

ـ لا.

ـ أنت لا تزال تعمل من أجل لقمة العيش، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ لا يبدو أنّك تكسب الكثير.

ـ أنا أكسب ما يكفي لتلبية احتياجاتي الخاصّة، ولا أعيل أحدًا آخر.

ـ لماذا أنت على استعداد للعمل مع أيّ شخص، ولكنّك ترفض، في مقابل ذلك، العملَ بشركة تاجارت العابرة للقارّات؟

ـ لأنّك لن تمكّنني من نوع العمل الذي أريده.

ـ أنا؟ يا إلهي يا كيلوغ! ألم تفهم؟ سأقدّم لك أيّ وظيفة!

ـ حسنًا، لا بأس، أريد أن أعمل مراقبًا للمسار.

ـ ماذا؟

ـ أريد أن أعمل بقسم الأعمال اليدويّة منظّفًا لقاطرة المحرّك.

ثمّ ابتسم وهو ينظر إليها وأضاف: لا؟ كما ترين، قلت لك إنّك لن تمنحيني الوظيفة التي أريدها.

ـ هل تعني أنّك سترضى بوظيفة عاملٍ يوميٍّ؟

نعم، وسأقبل عرضك متى أردت ذلك.

ـ ولكن ألا ترغب في شيء أفضل؟

ـ حقًّا، لا أرغب في شيء أفضل من عامل يوميّ.

ـ ألا تستوعب أنّ لديّ رجالًا كثيرين قادرين على القيام بتلك الوظائف، ولكنّني بحاجة إلى رجال من مستوى أفضل؟

ـ أنا أفهم ذلك يا آنسة تاجارت.

ـ ما أحتاج إليه هو..

ـ هل تقصدين العقل يا آنسة تاجارت؟ لم يعد عقلي سلعة تباع في السوق.

ظلّت تنظر إليه، فازدادت حدّة تقاسيم وجهها وقالت في الأخير: أنت واحد منهم، أليس كذلك؟

ـ واحد ممّن؟

فتجاهلته ولم تجب، واستمرّت في السير. فسألها:

ـ يا آنسة تاجارت، إلى متى ستظلّين تعملين في النقل العموميّ؟

ـ لن أسلّم العالم للمخلوق الذي تقتبس منه هذا الكلام.

ـ لقد كان جوابك أكثر واقعيّة.

امتدّت سلسلة خطواتها خلال دقائق عديدة صامتة قبل أن تسأله:

ـ فلماذا وقفتَ إلى جانبي الليلة؟ ولماذا كنت على استعداد لمساعدتي؟

أجابها بسهولة وبكل سرور: لأنّه لا يوجد راكب على متن هذا القطار يحتاج إلى

بلوغ وجهته على وجه السرعة أكثر منّي. وإذا كان القطار يمكن أن ينطلق مجدّدًا، فلا أحد سوف يستفيد من ذلك أكثر منّي. ولكن عندما أحتاج إلى شيء، فأنا لا أجلس وأنتظر النقل، مثل ذلك المخلوق الخاصّ بك.

ـ أعلم أنّك لست كذلك. وماذا لو توقّفت جميع القطارات عن العمل؟

ـ عندها لن أعتمد على القطار في أيّ رحلة مهمّة.

ـ وإلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى الغرب.

ـ هل أنت في مهمّة خاصّة؟

ـ لا، سأقضي فقط عطلةً لمدّة شهر مع بعض الأصدقاء.

ـ عطلة؟ وهل هي مهمّة إلى هذه الحدّ؟

ـ إنّها أكثر أهمّية من أيّ شيء آخر على الأرض.

كانا قد سارا ميلين عندما وصلا إلى صندوق رماديّ صغير مثبّت بعمود إلى جانب الطريق، وهو هاتف الطوارئ. كان الصندوق معلّقًا في الجانب، وقد طالته أضرار العواصف. ففتحته داغني، وكان الهاتف هناك، ذلك الشيء المألوف المطمئن، وهو يتألّق أمام نور مصباح كيلوغ. لكنّها كانت تعرف -في اللحظة التي هزّت فيها السمّاعة إلى أذنها، مثلما كان يعرف عندما رأى إصبعها يطرق بحدّة على خطاف السمّاعة- أنّ الهاتف خارج الخدمة.

فسلّمته السمّاعة دون أن تنبس بكلمة. كانت تمسك المصباح، بينما تفحّص هو الآلة بسرعة، ثمّ فكّها على الحائط وأخذ يتفحّص الأسلاك.

قال: السلك على ما يرام والتيّار موجود. لكن يبدو أنّ هذه الأداة بالذات هي التي تعطّلت. يوجد أمل في أن يكون الهاتف القادم يشتغل... يقع هاتف الطوارئ القادم على بعد خمسة أميال.

قالت: لنذهب إليه إذن.

خلفهما بعيدًا، كانت مصابيح المحرّك الأماميّة لا تزال مرئيّة، وما عادت تشبه الكوكب بعد الآن، بل أصبحت مثل نجم صغير يغمز في ضباب المسافة. وانطلقت السكك الحديديّة أمامهما إلى مساحة تميل إلى الزرقة، مع عدم وجود أيّ شيء يشير إلى نهايتها.

لقد أدركت كم مرّة كانت تلتفت خلالها لرؤية المصابيح الأماميّة مجدّدًا، ولكن مادامت لا تزال في الأفق، فإنّها شعرت كما لو أنّ سفينة الحياة كانت ترسو بهما في برّ الأمان؛ واعتقدت أنّ عليهما الآن القفز منها والمشي... في ذلك الكوكب. لقد لاحظت أنّ كيلوغ، أيضًا، يلتفت إلى الوراء صوب المصابيح الأماميّة.

ثمّ نظر أحدهما إلى الآخر، لكنّهما لم يقولَا شيئًا. ثمّ سمعا طقَّ حصاةٍ تحت حذائها الوحيد فانفجرت مثل المفرقعات الناريّة في صمتٍ. وبركلة متعمّدة وبكلّ برود، ركل جهاز الهاتف وأرسله يتدحرج في حفرة: لقد حطّم عنف الضجيج الفراغ.

قال بهدوء، ومن دون أن يرفع صوته باِشمِئزاز أمام أيّ عرض للعاطفة: عليه لعنة الله! لعلّه لم يشعر بالرغبة في الاهتمام بعمله، وبما أنّه كان بحاجة إلى شيك راتبه، لم يكن لأحد الحقّ في أن يطلب منه المحافظة على عمل الهواتف.

ردّت: دعك من هذا، وانسَ الأمر.

ـ يمكننا أن نرتاح إذا شعرتِ بالتعب يا آنسة تاجارت.

ـ أنا بخير. لا نملك أيّ ثانية لنضيّعها.

ـ هذا خطؤنا الكبير يا آنسة تاجارت. يجب علينا أن نأخذ وقتًا للراحة في يوم مّا.

فضحكت، ثمّ صعدت على أحد روابط المسار، لكي تبرهن على مدى قوّتها، واستمرّا في المشي.

كان أمر المشي على روابط السكك صعبًا، لكن عندما حاولا السير على طول جانب المسار، وجدا أنّ الأمر أكثر صعوبة. فالتربة نصفها رمليّ، ونصفها الآخر غبار، وقد

غرقت تحت كعوب حذاءيهما، مثل انتشار بعض الموادّ الليّنة التي لم تكن سائلة ولا صلبة. فعادا إلى المشي من رابط إلى آخر؛ وكان مشيهما يشبه تقريبًا عبور النهر من خلال القفز من خشبة إلى أخرى.

قالت في نفسها فجأة: كم أصبحت هائلة مسافة الخمسة أميال، وصارت نقطة تقسيم على بعد ثلاثين ميلًا بعيدة المنال الآن، بعد حقبة من السكك الحديديّة التي بناها رجال فكّروا في آلاف الأميال العابرة للقارّات. كلّ تلك الشبكة من القضبان والأضواء التي تنتشر من المحيط إلى المحيط، يتعلّق مصيرها بسلك معطّل من الاتّصالات داخل هاتف صدئ، لا بل هو مرتبط بشيء أكثر قوّة وأكثر حساسيّة، إنّه متعلّق بالروابط في عقول البشر الذين يعرفون أنّ وجود خطّ، أو قطار، أو أيّ عمل من أعمالهم هو أمر مطلق لا مفرّ منه. وعندما اختفت مثل تلك العقول، تُرك قطار الألفي طن تحت رحمة عضلات ساقيها.

هل أنتِ متعبة؟ قالت في نفسها؛ فحتّى جهد المشي بات ذا قيمة، ويمثّل جزءًا صغيرًا من الواقع في السكون من حولهما. كان الإحساس بالجهد تجربة محدّدة هي الشعور بالألم ولا يمكن أن يكون أيّ شيء آخر وسط فضاء لم يكن مضيئًا ولا مظلمًا، وفي تربة لا تساعد ولا تقاوم، وفي ضباب مخيّم ثابت لا يحرّك ساكنًا. كان جهدهما هو الدليل الوحيد على حركتهما: لم يتغيّر شيء في الفراغ من حولهما، ولم يأخذ أيّ شيء شكل الاحتفال بتقدّمهما. وقد تساءلت دائمًا، في ازدراء مشكّك، عن تلك الطوائف التي تبشّر بإبادة الكون باعتبارها المثال الأعلى الذي ينبغي تحقيقه. فقالت: هذا هو عالمهم ومحتوى عقولهم الذي جعل من الأمر يبدو حقيقيًّا.

وعندما ظهر ضوء الإشارة الأخضر من خلال المسار، حدّد لهما النقطة التي سيصلان إليها ويعبرانها، ولكنّه لم يجلب لهما أيّ شعور بالارتياح، لأنّه لم يكن ملائمًا لذلك التفكّك العائم. يبدو أنّه كان قادمًا من زمن بعيد لعالم مندثر، مثل تلك النجوم التي يبقى نورها بعد رحيلها. توهّجت الدائرة الخضراء في الفضاء، معلنةً عن مسار واضح يمكن عبوره، ودعت إلى الحركة حيث لم يكن شيء يتحرّك. وقالت في نفسها:

من كان ذلك الفيلسوف، الذي بشّر بأنّ الحركة موجودة دون أيّ كيانات متحرّكة؟ فهذا كان عالمه أيضًا.

وجدت نفسها تندفع إلى الأمام مضاعفةً الجهدَ. ثمّ ألقت نظرة خاطفة على كيلوغ، فلاحظت أنّه، هو أيضًا، يمشي مثل رجل مستعدّ ليواجه عاصفة. فشعرت كما لو أنّ كليهما كانا الناجيين الوحيدين... من الواقع بوصفهما شخصين يقاتلان وحدهما، ليس العاصفة، بل ما هو أسوأ من ذلك بكثير.

بعد فترة من الوقت، كان كيلوغ هو من يلتفت إلى الوراء، فتابعت نظرته: لم يعد هناك أيّ مصباح أماميّ خلفهما. لم يتوقّفا عن المشي. أدخل كيلوغ يده إلى جيبه وهو ينظر مباشرةً إلى الأمام؛ كانت متأكّدة من أنّ حركته غير طوعيّة؛ ثمّ أخرج علبة من السجائر ومدّها إليها. كانت على وشك أن تأخذ سيجارة، ثمّ فجأة، أمسكت معصمه وأخذت العلبة من يده وفتحتها. لقد كانت علبة بيضاء عاديّة تحمل علامة الدولار.

أمرته بعد أن توقّفت: أعطني المصباح!

توقّف مستجيبًا، وأرسل شعاع المصباح اليدويّ صوب العلبة. ثمّ نظرت إليه فوجدت الدهشة تعلو وجهه.

لم تكن على العلبة طباعةٌ، ولا أيّ اسم تجاريّ، ولا أيّ عنوان، فقط علامة الدولار مختومة بالذهب. وكانت السجائر تحمل العلامة نفسها.

سألته: من أين تحصّلت عليها؟

قال وهو يبتسم: لو كنت تعرفين ما يكفي عن أمر تلك السجائر لما طرحت عليّ هذا السؤال يا آنسة تاجارت، ولْتَعْرفي أنّني لن أجيبك.

ـ أعرف أن تلك العلامة ترمز إلى شيء مّا.

علامة الدولار؟ إنّها تحمل معاني كثيرة. إنّها منقوشة بسترة تلك الشخصيّة البدينة التي تشبه الخنزير في كلّ الرسوم المتحرّكة، بغرض الدلالة على أيّ محتال، أو أيّ خارجٍ عن القانون، أو أيّ وغد شرّير. إنّها في بلد حرّ ترمز إلى الإنجاز، والنجاح، والقدرة،

ولما للإنسان من قوّة إبداعيّة. وبالتحديد لهذه الأسباب، يتمّ استخدامها بوصفها علامة تجاريّة على العار. إنّها ترمز إلى الختم الموجود على جبين رجلٍ مثل هانك ريردن كعلامة على الإدانة. بالمناسبة، هل تعلمين من أين تأتي تلك العلامة؟ إنّها ترمز إلى الأحرف الأولى من الولايات المتحدّة الأمريكيّة

ثمّ التقط منها المصباح، لكنّه لم يتحرّك للذهاب؛ ولم تستطيع تمييز ملامح ابتسامته المريرة.

ـ هل تعلمين أنّ الولايات المتحدّة الأمريكيّة هي البلد الوحيد الذي استخدم، على مَرِّ التاريخ، مونوغرامه الخاصّ به على أنّه رمز للفساد؟ حاولي بنفسك أن تبحثي عن السبب. واسألي نفسك إلى متى يمكن لبلدٍ فَعَلَ ذلك أن يأمل في الوجود، بلدٍ دمّرته معاييره الأخلاقيّة الخاصّة. ففي التاريخ أمريكا هي البلد الوحيد الذي تُكتَسب فيه الثروة عن طريق الإنتاج لا عن طريق النهب، بالتجارة لا بالقوّة. وهي البلد الوحيد الذي كانت أمواله رمزًا إلى حقّ الإنسان في عقله، وعمله، وحياته، وسعادته، ورمزًا إلى نفسه. وإذا كان هذا شرًّا، بالمعايير الحاليّة للعالم، وإذا كان هذا أيضًا هو السبب في إدانتنا، فيجب علينا -نحن معشر مطاردي الدولار وصانعيه- أن نقبل ذلك السبب ونختار أن يلعننا العالم. ونختار أن نضع علامة الدولار مثل الوشم على جباهنا، بفخرٍ، كشارة نُبلٍ، تلك الشارة التي نحن على استعداد للعيش من أجلها، وإذا لزم الأمر أن نموت من أجلها.

مدّ يده لأخذ العلبة فتمسّكت بها كما لو أنّ أصابعها لم ترغب في تركها تذهب، وفي الأخير استسلمت ووضعتها في كفّه. وببطءٍ متعمّد، كما لو أنّه يريد أن يؤكّد معنى لفتته، عرض عليها سيجارة. أخذتها ووضعتها بين شفتيها. وأخذ هو أيضًا واحدة لنفسه، ثمّ أضرم عود الثقاب وأشعل السيجارتين معًا، ثمّ واصلا مسيرهما.

سارا، فوق جذوع الأشجار المتعفّنة التي غرقت دون مقاومة في الأرض المتحرّكة، من خلال الأرض الواسعة غير المتجمّدة تحت ضوء القمر والضباب الملفوف، مع بقعتين من النار الحيّة في أيديهما وتوهّج دائرتين صغيرتين لإضاءة وجهيهما.

وتذكّرت الرجل العجوز عندما قال لها: النار قوّة خطيرةٌ، تروّضها أيدي الإنسان... ذلك الرجل العجوز الذي قال إنّ تلك السجائر لم تكن مصنوعةً في أيّ مكان على وجه الأرض. حين يفكّر الإنسان في وجود بقعة من النار على قيد الحياة في ذهنه ويفكّر أنّ من الصواب أن تكون له نقطة حرق سيجارة كتعبير واحد لتلك النار التي هي بذهنه...

قالت، بنبرة يائسة: أتمنى أن تخبرني عمّن يصنع تلك السجائر.

قال بعد أن ضحك بشكل تلقائيّ: أستطيع أن أطلعك فقط على جزء من أسرار هذه السيجارة. إنّ صديقًا لي هو من يصنعها، وهي معدَّة للبيع، لكن بشرط ألّا يكون مشتريها يعمل في مجال النقل العموميّ. إنّه يبيعها فقط لأصدقائه.

ـ هل يمكنك أن تبيعني تلك العلبة؟

ـ لا أعتقد أنّ بوسعك شراءها، ولكن.. حسنًا.. لا مانع لديّ في أن أبيعك إيّاها، إذا كنت ترغبين في ذلك

ـ كم ثمنها؟

ـ خمسة سنتات.

ـ قالت مندهشة: خمسة سنتات؟

ـ خمسة سنتات... من الذهب.

قالت بعد أن حدّقت فيه: من الذهب؟

ـ نعم يا آنسة تاجارت.

ـ حسنا، وما هو سعر الصرف الخاصّ بك؟ وكم تساوي في عملتنا العاديّة؟

ـ لا يوجد سعر للصرف يا آنسة تاجارت. ولا يمكن لأيّ قدر من العملات سواء المادّيّة أو الروحيّة –تلك العملات التي يكون معيار قيمتها الوحيد هو مرسوم السيّد ويسلي ماوتش– أن تشتري هذه السجائر.

ـ فهمت.

فأدخل يده إلى جيبه، وأخرج العلبة وسلّمها إيّاها وقال: سأعطيك إيّاها يا آنسة تاجارت، لأنّك كسبتها مرات عديدة ، ولأنّك تحتاجين إليها لهدفنا نفسه.

ـ عن أيّ هدف تتحدّث؟

ـ أن تُذكّرنا -في لحظات الإحباط وفي وحدة المنفى- بوطننا الحقيقيّ، الذي كان على الدوام وطنك أيضًا.

قالت: شكرًا لك.

ثمّ وضعت السجائر في جيبها؛ ولاحظت أنّ يدها كانت ترتعش. وعندما وصلا إلى الحجرة الكيلومتريّة الرابعة من الأميال الخمسة التي كانت أمامهما، ظلّا صامتين لفترة طويلة، وقد خارت قواهما ولم يتبقَّ لهما أيّ جهد سوى تحريك أقدامهما. ثمّ شاهدا نقطة من الضوء أمامهما، منخفضة جدًّا في الأفق وأضح جدًّا من أن تكون نجمة. فظلّا يراقبانها، وهما يسيران، ولم يقولا شيئًا حتّى تأكّدا من أنّها منارة كهربائيّة قويّة تضيء وسط البراري الخالية.

ـ سألته ما ذلك الشيء؟

ـ أجابها: لا أعلم، إنّه يبدو مثل..

ـ ردّت على عجل: لا... لا يمكن أن يكون... ليس هنا.

لم تُرِدْ أن تسمع منه ذكر اسم الأمل الذي شعرت به لعدّة دقائق سابقة. فلا يمكن أن تسمح لنفسها بالتفكير في ذلك أو معرفة أنّ تلك الفكرة كانت بمثابة الأمل.

وجدا صندوق الهاتف في الحجرة الكيلومتريّة للميل الخامس. وكانت المنارة معلّقة مثل بقعة عنيفة من النار الباردة، على بعد أقلّ من نصف ميلٍ جنوبًا.

كان الهاتف يعمل لأنّها عندما رفعت السمّاعة سمعت طنين حرارة الخطّ، مثل نفس مخلوق حيّ. ثمّ أجابها صوتٌ يتكلّم بتشدّق وبدا الصوت لشخص يتثاءب: هذه محطّة

جيسوب، في برادشو.

ـ أنا داغني تاجارت، أحدّثك من...

ـ من؟

ـ داغني تاجارت، من شركة تاجرت العابرة للقارّات، وأحدّثك من...

ـ أوه... نعم... فهمت... نعم؟

ـ أحدّثك من هاتف الطوارئ رقم 83، على بعد 7 أميال شمالًا. لقد وجدنا أنفسنا عالقين هنا بعد أن لاذ طاقم القطار بالفرار.

ثمّ وقعت بعض التقطّعات في الخطّ وعاد الصوت يقول: حسنًا، وماذا تريدين منّي أن أفعل؟

كان عليها أن تتوقّف عن الكلام هي أيضًا، لكي تصدّق ما سمعته من مخاطبها بالهاتف ثمّ سألته: هل أنت مرسل الليل؟

ـ نعم.

ـ أرسل على الفور طاقما آخر إلى هنا.

ـ أتقصدين طاقم قطار للركّاب بالكامل؟

ـ بالطبع.

ـ الآن؟

ـ نعم.

ـ قواعد العمل لا تقول أيّ شيء عن ذلك.

قالت وهي تختنق:

ـ كلّم رئيس المرسلين.

ـ إنّه يقضي إجازته في مكان بعيد.

ـ اتّصل بمدير القسم.

ـ لقد ذهب إلى مدينة لوريل لقضاء بضعة أيّام من الراحة.

ـ اتَّصل بأيٍّ شخص مسؤول.

ـ أنا هو المسؤول.

قالت ببطء، وهي تحاول أن تتمالك أعصابها:

ـ اسمع.. هل تفهم ما يعنيه وجود قطار، مخصّص للركّاب، مهجور في وسط البراري؟

ـ نعم، ولكن كيف لي أن أعرف ما ينبغي عليّ فعله؟ فقواعد العمل لا تنصّ على ذلك. الآن لو أنّكم تعرّضتم لحادث هناك، فإنّنا سنرسل قاطرة إزالة الحطام، لكن إذا لم يكن هناك أيّ حادث... فأنتم لا تحتاجون إلى تلك القاطرة، أليس كذلك؟

ـ لا، نحن لسنا بحاجة إلى قاطرة لإزالة الحطام. نحن بحاجة إلى رجال، هل تفهم؟ الرجال الأحياء لتشغيل المحرّك.

ـ القواعد لا تقول أيّ شيء عن قطار دون رجال. أو عن رجال دون قطار. لا توجد قاعدة لدعوة طاقم كامل في منتصف الليل وإرساله للبحث عن قطار مّا في مكان مّا. لم يسبق لي أن سمعت عن ذلك من قبلُ

ـ ها أنت تسمعه الآن. ألا تعرف ما عليك فعله؟

ـ ومن أكون أنا لأعرف ذلك؟

ـ هل تعلم أنّ عملك هو الحفاظ على حركة القطارات؟

ـ وظيفتي هي تنفيذ قواعد العمل. فإذا أرسلت إليك طاقمًا عندما لا يفترض بي فعل ذلك، فالله وحده يعلم ما سيحدث لي! وماذا عن مجلس الاتّحاد وجميع اللوائح التي يعمل بها في الوقت الحاضر، ومن أنا لكي تُلقَى كلّ تلك الأعباء على عاتقي؟

ـ وماذا سيحدث إذا تركت قطارا متوقّفًا على الخطّ؟

ـ هذا ليس خطئي. لم تكن لي علاقة بالأمر ولا يمكنهم أن يلوموني إذا لم أستطع منع ذلك.

ـ مهمّتك هي أن تساعدنا الآن.

ـ لم يخبرني بذلك أحد من قبل.

ـ ها أنا أخبرك به الآن.

ـ كيف لي أن أعرف ما إذا كان يفترض بك أن تخبريني أم لا؟ إذ ليس من المفترض أن نزوّد أيّ أطقم لشركة تاجارت. كان من المفترض بكم الهروب مع أطقمكم الخاصّة، هذا ما قيل لنا.

ـ ولكن هذه حالة طوارئ!

ـ لم يخبرني أحد بأيّ شيء عن حالة الطوارئ.

توقّفت عن الكلام لتلتقط بعض الأنفاس وكي لا تفقد أعصابها، ثمّ قالت:

ـ اسمع، هل تعلم أنّ القطار المذنّب كان من المقرّر أن يكون في محطّة برادشو قبل أكثر من ثلاث ساعات؟

ـ أوه، بالتأكيد. لكن لا أحد سيحتجّ على هذا التأخير، فما مِن قطار يصل في الموعد المحدّد هذه الأيّام.

ـ وهل تنوي إذَن تركنا نعرقل المسار الخاصّ بك إلى الأبد؟

ـ ليس لدينا حركة لأيّ قطارات حتّى قدوم القطار رقم 4، وهو قطار للركّاب ويتّجه شمالًا وقد انطلق من مدينة لوريل، في الثامنة وثلاثين دقيقة صباحًا. يمكنك الانتظار حتّى ذلك الحين. مرسل النهار سيكون هناك في ذلك الحين ويمكنك التحدّث إليه في هذا الخصوص.

ـ أيّها المزعج الأحمق! إنّه القطار المذنّب!

ـ ماذا يمثّل لي؟ أنت لست في مقرّ شركة تاجارت العابرة للقارّات. أنتم يا معشر

الأغنياء تتوقّعون الكثير مقابل أموالكم. أنتم لا تمثّلون شيئًا سوى مصدر صداع لنا، ومع كلّ العمل الإضافيّ الذي يقدّمه زملاؤنا من المستويات المتدنّية في سلّم العمل فهم لا يتقاضون أيّ أجر إضافيّ على ذلك... لا يمكنك التحدّث معي بهذه الطريقة. لقد ولّى الزمن الذي كنتم تتحدّثون فيه مع الناس بهذه الطريقة.

لم تكن داغني تصدّق على الإطلاق وجودَ رجال يتعاملون معها بتلك الطريقة التي لم تعتمدها قطّ؛ إذ لم يتمّ التعاقد مع هؤلاء الرجال من قبل شركة تاجارت العابرة للقارّات، بالإضافة إلى أنّها لم تُجبَر على التعامل معهم من قبل.

سألت، بنبرة تضجّ تهديدًا ووعيدا: وهل تعرف من أكون؟

ـ أجابها: أنا... أعتقد ذلك.

ـ إذن اسمح لي بأن أقول لك إنّك إذا لم ترسل لي طاقمًا على الفور، فستكون معطّلًا عن العمل خلال ساعة واحدة بعد أن تصل إلى مدينة برادشو، وهو أمر مفروغ منه.

ـ قال: حسنا يا سيّدتي.

ـ اتّصل بطاقم كاملٍ لقطار الركّاب ووجّه إليهم أوامر بنقلنا إلى محطّة لوريل، حيث يوجد رجالنا.

ـ حسنًا يا سيّدتي... هل ستخبرين الشركة بأنّك أنت من أمرني بذلك؟

ـ سأخبرها.

ـ وأنّك أنت المسؤولة عن ذلك.

ـ بالتأكيد.

ـ سألها سؤال العاجز: كيف سأتصل بالرجال الآن؟ فمعظمهم لا يملك هاتفًا.

ـ هل يوجد فتى توصيل؟

ـ نعم، لكنّه لن يصل إلى هنا حتّى الصباح.

ـ هل يوجد أيّ شخص في الساحات الآن؟

ـ يوجد عامل النظافة في ورشة إصلاح القاطرات.

ـ أرسله إذَن ليتّصل بالرجال.

ـ حسنا يا سيّدتي. ابقي على الخطّ.

انحنت داغني على جانب صندوق الهاتف تنتظر، بينما كان كيلوغ يبتسم، ثمّ سألها:

ـ وهل يمكن للمرء أن يدير شركة للسكك الحديديّة بمثل هؤلاء الناس؟

تجاهلته ولم تردّ.

لم تستطع إبعاد عينيها عن المنارة. لقد بدت قريبة جدًّا، وفي متناول يدها. فشعرت كما لو أنّ الأفكار التي لا تعترف بها تناضل ضدّها بشراسة، وفكّرت في الرجل القادر على تسخير مصدر لا يستغلّ الطاقة، ذلك الرجل الذي يعمل على محرّك ليجعل جميع المحرّكات الأخرى عديمة الفائدة... يمكن أن تتحدّث إليه، وإلى دماغه، في غضون ساعات قليلة... فقط في غضون ساعات قليلة... ماذا لو لم تكن ثمّة حاجة للإسراع إليه؟ كان هذا ما أرادت فعله وكان كلّ ما أرادته... عملها؟ وماذا يتضمّن عملها: هل يتضمّن الانتقال إلى أقصى حدّ واستخدام عقلها على نحوٍ أكثر تشدّدًا أو قضاء بقيّة حياتها وهي تفكّر مثل رجل لا يصلح أن يكون مرسلًا ليليًّا؟ ولماذا اختارت العمل؟ هل كان من أجل أن تبقى حيث بدأت -مشغّلةً ليليّةً لمحطّة روكديل- أو أقلّ من هذا، لكنّها كانت أفضل من ذلك المرسل، حتّى في محطّة روكديل. وهل كانت تلك هي الخلاصة النهائيّة: نهاية أقلّ من بدايتها؟.. لا يوجد سبب للإسراع؟ لقد كانت تمثّل العقل... وكانا بحاجة إلى القطارات، لكنّهما لم يكونا بحاجة إلى المحرّك؟ هي فقط من تحتاج إليه... وذلك هو واجبها. لكن لِمَن؟

استغرق ذهاب المرسل لإعلام الرجال فترةً طويلةً، لكن عندما عاد، بدا صوته عابسًا: حسنًا، يقول عامل النظافة إنّه سيتدبّر أمر الاتّصال بالرجال، ولكن لا جدوى من ذلك، لأنّهم لا يملكون قاطرة للتنقّل إلى هناك.

ـ ألا توجد أيّ قاطرة؟

لا توجد أيّ قاطرة هنا. لقد أخذ المشرف إحدى القاطرات ليصل إلى مدينة لوريل، أمّا الأخرى فهي قيد الإصلاح في الورشة، وظلّت هناك لأسابيع، أمّا قاطرة التبديل فقد حادت عن السكك الحديديّة هذا الصباح، والعمّال بصدد الاشتغال على إعادتها إلى الخطّ ولن يتمّوا هذه المهمّة إلّا بعد ظهر الغد.

ـ وماذا عن قاطرة إزالة الحطام؟

ـ أوه، إنّها في الشمال. كان هناك حطام بالأمس وهي لم تعد بعد.

ـ وهل لديك سيّارة ديزل؟

ـ لم يتوفّر لدينا أيّ شيء من هذا القبيل. ليس في هذه المحطّة على الأقل.

ـ وهل توجد عربة طوارئ؟

ـ نعم، نعم... توجد عربة طوارئ.

ـ أرسلهم إذَن على متن عربة الطوارئ.

ـ أوه ...حسنًا يا سيّدتي.

ـ أخبر رجالك أن يتوقّفوا هنا، على مستوى الهاتف رقم 83، ليأخذوني معهم أنا والسيّد كيلوغ.

ـ حاضر سيّدتي.

ـ اتّصل بمدير قطار شركة تاجارت في محطّة لوريل، وأبلغه بتأخّر القطار المذنّب واشرح له ما حدث.

ثمّ وضعت يدها في جيبها، وفجأةً أمسكت أصابعُها شيئًا: لقد شعرت بعلبة السجائر. ثمّ سألته: قل لي ما سبب وجود منارة على بعد حوالي نصف ميل من هنا؟

ـ انطلاقًا من المكان الذي توجدين فيه أنت ورفيقك؟ أوه، يجب أن يكون ذلك هو حقل الهبوط الاضطراريّ لشركة الريادة للخطوط الجويّة.

ـ فهمت... حسنًا، هذا كلّ ما في الأمر. اشرع في إعداد طاقمك حالًا وقل لهم أن

يأخذوا معهم السيّد كيلوغ على مستوى هاتف الطوارئ رقم 83.

ـ حسنًا يا سيّدتي.

ثمّ أغلقت الخطّ وكان كيلوغ يبتسم. فسألها:

ـ يوجد مطار هنا، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ثمّ ظلّت تنظر إلى المنارة، ويدها لا تزال تمسك بعلبة السجائر في جيبها.

ـ لذلك هم سيلتقطون السيّد كيلوغ، أليس كذلك؟

فالتفتت إليه، وقد أدركت القرار الذي خطر ببالها من دون معرفة ذلك عن وَعْيٍ. ثمّ قالت: لا، لم أقصد التخلّي عنك هنا. إنّ لي أيضًا هدفا مهمّا جدًّا في الغرب، حيث يجب أن أسرع، لذلك كنت أفكّر في محاولة اللحاق بطائرة، لكنّني لا أستطيع فعل ذلك، وهذا ليس ضروريًّا.

قال، وهو يتّجه صوب المطار: هيّا انطلقي إلى هناك.

ـ لكن أنا...

ـ إذا كان لديك هدف بالغ الأهمّيّة، فامض قدما ولا تتردّدي.

همست: بل هو أهمّ من أيّ شيءآخر في هذا العالم.

ـ سأتعهّد بأن أكون المسؤول الذي ينوب عنك، وأوصل القطار المذنّب إلى محطّة لوريل.

ـ شكرًا لك... لكن كما تعلم إذا كنت تريد... ألّا أتخلّى عنك فسأفعل ذلك بكلّ سرور.

ـ أعلم ذلك.

ـ لماذا أنت حريص جدًّا على مساعدتي؟

ـ أريدك فقط أن تري كيف تكون الحال عندما تفعلين شيئًا تريدينه، ولو لمرّة واحدة

في حياتك.

- يوجد احتمال كبير بألّا تكون لديهم أيّ طائرة في ذلك الحقل.

- ويوجد احتمال آخر بأن تكون لديهم واحدة.

كانت هناك طائرتان على حافّة المطار: الأولى، هي بقايا لحطام نصف متفحّم، وغير جديرة بالإنقاذ لأنّها مجرّد قطعة خردة، أمّا الأخرى، فهي طائرة من نوع دوايت ساندرز أحاديّة السطح، وهي جديدة تمامًا، وكانت من نوع الطائرات التي كان الرجال يسعون إلى امتلاكها، لكنّ كلّ محاولاتهم تبوء بالفشل.

كان في المطار مضيّف نائم، وهو شابّ قصير القامة وربّما تستنتج من خلال معجم مفرداته أنّه خرّيج جامعيّ، لكنّه كان من حيث طريقة تفكيره يشبه الشقيق التوأم لذلك المرسل الليليّ بمحطّة برادشو. لم يكن يعرف شيئًا عن الطائرتين. لقد كانتا هنا عندما تولّى هذه المهمّة لأوّل مرّة قبل عام. ولم يستفسر عنهما، ولا أيّ شخص آخر فعل ذلك أيضًا. وعند وقوع أيّ انهيار صامت في المقرّ البعيد لشركة الخطوط الجويّة، إذا حدثت تصفية بطيئة لشركة طيران كبيرة، فقد تنسى طائرة ساندرز الأحاديّة السطح، فممتلكات من هذه الطبيعة تتعرّض دائمًا للنسيان في كلّ مكان... مثلما نُسِي نموذج المحرّك في كومة خردة، وظلّ زمنًا في مرأى الجميع، لكنّه لم يكن يعني شيئًا للورثة واللصوص...

لم تكن ثمّة قواعد عمل لإخبار المضيّف الشابّ بما إذا كان من المتوقّع أن يحتفظ بطائرة ساندرز أم لا. وقد اتّخذ القرار بسبب أوراق اعتماد الآنسة داغني تاجارت، نائبة رئيس السكك الحديديّة، وبسبب تلميحات قصيرة عن بعثة طارئة، وبسبب ذكر اتّفاق مع كبار المسؤولين في شركة الطيران بنيويورك، الذين لم يسمع بأسمائهم من قبل، وبسبب دفع شيك بمبلغ خمسة عشر ألف دولار وقّعته الآنسة تاجارت، وديعة مقابل عودة طائرة ساندرز، وشيك آخر بقيمة مائتي دولار من أجله كمجاملة شخصيّة.

فزوّد الطائرة بالوقود، وتفقّدها بأفضل ما في وسعه، ووجد خارطة لمطارات البلاد

فأمدّ بها داغني، ورأت أنّ حقل الهبوط في ضواحي مدينة أفتون، بولاية يوتا، كان يحمل علامة تؤكّد أنّه ما يزال موجودًا. كانت متوتّرة ونشطة جدًّا لتشعر بأيّ شيء، ولكن في اللحظة الأخيرة، حين أنار لها المضيّف الأضواء الكاشفة، وعندما كانت على وشك الإقلاع على متن الطائرة، توقّفت لإلقاء نظرة على فراغ السماء، ثمّ على أوين كيلوغ. لقد ظلّ واقفًا، وحيدًا تحت الوهج الأبيض لضوء المنارة، وقدماه مغروستان في جزيرة من الإسمنت في حلقة من الأضواء التي تسبّب العمى، بلا شيء يتجاوز تلك الحلقة سوى ليلة لا يمكن تعويضها. وتساءلت أيّهما كان بصدد أخذ فرصة أكبر ومواجهة الفراغ الأكثر جدبًا.

قالت: إذا حدث لي أيّ مكروه... هل ستفي بوعدك وتخبر إيدي ويلرز في مكتبي بأن يمنح جيف ألن وظيفةً؟

ـ سأفعل ذلك... هل هذا كلّ ما توصين به... إذا حدث لك أيّ مكروه؟

فكّرت في الأمر وابتسمت بحزن، ثمّ قالت: نعم، أعتقد أنّ هذا كلّ شيء... وأتمنّى أيضًا أن تخبر هانك ريردن بما حدث وبأنّني طلبت منك إخباره بذلك.

ـ حسنًا سأفعل.

قالت بحزم: لا أتوقّع أن يحدث لي أيّ مكروه. وأذكّرك أنّه بمجرّد وصولك إلى محطّة لوريل اتّصل بمحطّة وينستون، في ولاية كولورادو، وأخبرهم بأنّني سأكون هناك بعد ظهر الغد.

ـ حسنًا يا آنسة تاجارت.

أرادت أن تمدّ يدها لتوديعه، ولكن يبدو أنّ تلك الحركة لم تكن ملائمة، ثمّ تذكّرت ما قاله عن أوقات الوحدة. فأخذت العلبة وعرضت عليه بصمت إحدى سجائرها الخاصّة. كانت ابتسامته دليلًا على التفاهم الذي حصل بينهما، وكانت الشعلة الصغيرة لعود ثقابه هي التي أشعلت سيجارتَيهما فبدت بمثابة مصافحتهما الأكثر ديمومة.

ثمّ صعدت على متن الطائرة، ولم تكن الفترة التي تلت ذلك لحظاتٍ وحركاتٍ

منفصلةً، بل اكتساحًا لحركة واحدة ووحدة زمنيّة واحدة، تقدُّم يشكّل كيانًا واحدًا، مثل نوتات قطعة موسيقيّة: من لمسة يدها على زرّ التشغيل إلى انفجار صوت المحرّك عندما هدر مثل انهيارٍ جبليّ، وفي كلّ اتّصال مع الوقت خلفها، إلى السقوط الدورانيّ من شفرة اختفت في البريق الهشّ من الهواء الدوّار الذي قطع الفضاء إلى الأمام، ثمّ إلى بداية المدرج وإلى الوقفة القصيرة، ثمّ إلى التوجّه نحو الأمام، وإلى المدى الطويل، المحفوف بالمخاطر، وليس المدى الذي ينبغي عرقلته، والسير وفق الخطّ المستقيم الذي يجمع السلطة من خلال إنفاقها على جهد أصعب وأصعب وتسارع أكبر، ذلك الخطّ المستقيم نحو الهدف المنشود، ثمّ إلى لحظة، دون أن يلاحظها أحدٌ، عندما تُسقط الأرضُ الخطَّ، دون انقطاع، وتقلع الطائرة إلى الفضاء في فعل بسيط وطبيعيّ من الارتفاع.

ثمّ رأت خطوط التلغراف بجانب المسار وهي تعبر فوقها فتبدو وكأنّها تحت أطراف أصابع قدميها. وكانت الأرض تتساقط إلى أسفل، فشعرت وكأنّ وزنها يسقط من كاحلَيها، كما لو أنّ كوكب الأرض سينكمش إلى حجم الكرة، الكرة المحكوم عليها والمدانة، تلك الكرة التي جذبتها وفقدتها. ثمّ تمايل جسدها، وترنّح ثملًا بصدمة الاكتشاف، وهزّت مهارتها اليدويّة جسدها، فكانت الأرض تحتها هي التي تترنّح بإتقانها القيادةَ، واكتشفت أنّ حياتها الآن بين يديها، وأنّه لا داعي إلى الجدال، والشرح، والتعليم، والتوسّل، والقتال... لا شيء سوى الرؤية والتفكير والفعل. ثمّ استقرّت الأرض في ورقة سوداء واسعة نَمَت على نطاق أوسع وأوسع كلّما حلّقت، وارتفعت أكثر. وعندما نظرت إلى أسفل للمرّة الأخيرة، انطفأت أضواء الميدان، ولم تبقَ سوى المنارة الوحيدة فبدت وكأنّها طرف سيجارة كيلوغ، المتوهّجة كتحيّة أخيرة في الظلام.

ثمّ تُرِكت مع أضواء لوحة العدّادات أمامها وانتشار النجوم خلفَ بلور طائرتها. لم يكن هناك ما يدعمها سوى نبض المحرّك وعقول الرجال الذين صنعوا الطائرة. وقالت في نفسها: ما الذي يدعم أيّ واحد منّا في أيّ مكان؟

ذهب خطّ مسارها إلى الشمال الغربيّ، لقطع قطريّ عبر ولاية كولورادو. كانت

تعرف أنّها اختارت الطريق الأكثر خطورة، على امتداد فترة طويلة من أسوإ حاجز جبليّ، لكنّه كان أقصر خطّ، والسلامة تكمن في الارتفاع، ولا يبدو أنّ أيّ جبل سيكون خطيرا مقارنة مع مراسل محطّة برادشو.

كانت النجوم مثل زبد البحر وبدت السماء مليئة بالحركة المتدفّقة، التي تشبه حركة فقاعات تستقرّ وتتشكّل، ثمّ تعوم في شكل موجات دائريّة دون أي تقّدم. وكانت شرارة ضوء تلتهب في الأرض من حين إلى آخر، وبدت أكثر إشراقًا بفضل الزرقة الثابتة أعلاها. لكنّها بقيت معلّقة وحدها، بين سواد الرماد وزرقة السرداب، وبدت وكأنّها تكافح من أجل موطئ قدمها الهشّ، فحيّاها واختفى.

ثمّ جاء الخطّ الشاحب للنهر يرتفع ببطء من الفراغ، ولفترة طويلة من الزمن ظلّ في الأفق، وانزلق بشكل غير محسوس لمقابلتها. وبدا وكأنّه وريد فوسفوريّ يظهر من خلال قشرة الأرض، يشبه وريدًا حسّاسًا من دون دماء.

وعندما رأت أضواء البلدة، مثل حفنة من العملات الذهبيّة التي ألقيت في البراري، تلك الأضواء العنيفة الزاهية التي يغذّيها التيّار الكهربائيّ، بدت الآن بعيدة مثل نجوم صعبة المنال. واختفت الطاقة التي أضاءتها، وتلاشت السلطة التي أنشأت محطّات الطاقة في البراري الخالية، ولم تعد تعلم أيّ رحلة ستمكّنها من استعادة ذلك. ومع هذا، كانت تلك نجومها -قالت في نفسها وهي تنظر إلى أسفل- وكانت هي هدفها، ومنارتها، والتطلّع الذي رسمته على مسارها التصاعديّ. ذلك الذي ادّعى الآخرون أنّهم يشعرون به عند رؤية النجوم، تلك النجوم البعيدة بأمان على مسافة ملايين السنين الضوئيّة، أي من دون فرض أيّ التزام بالفعل، ولكن بمثابة زينة من العبث. وشعرت عند رؤية المصابيح الكهربائيّة التي تضيء شوارع البلدة. وتساءلت كم أصبحت تفتقد تلك الأرض، ومَن جعل منها كرة محكوما عليها بأن تُجرّ عبر الوحل، ومَن حوّل وعده بالعظمة إلى رؤية لا يمكن الوصول إليها أبدًا. لكنّها عبرت البلدة التي أصبحت جزءًا من الماضي، وكان عليها أن تنظر إلى الأمام، إلى جبال كولورادو وهي ترتفع في طريقها.

أظهر الاتّصال الزجاجيّ الصغير على لوحة تحكّمها أنّها تصعد الآن وتحلّق في مجال جبليّ. فشعرت بصوت المحرّك، وهو يهدر من خلال الغلاف المعدنيّ من حولها، ويهزّ عجلة القيادة تحت راحتَيها، مثل نبض قلبٍ متوتّر إثر جهد رهيب، يخبرها بالسلطة التي كانت تحملها فوق القمم. لقد أصبحت الأرض الآن منحوتة متكومة تتمايل من جانب إلى آخر، على شكل انفجار لا يزال يطلق النار على نحو طفرات مفاجئة للوصول إلى الطائرة. رأتها مثل قطع سوداء مسنّنة تمزّق انتشار النجوم اللبنيّ، مباشرة في طريقها وتزداد اتساعًا. واتّحد عقلها بجسدها وجسدها بالطائرة، وواجهت شفطا غير مرئي يجذبها إلى أسفل، وقاومت هبوب عواصف مفاجئة قلبت الأرض كما لو أنّها كانت على وشك التأرجح في السماء، وكأنّ نصف الجبال تتقلّب مثلها. كان نضالها يشبه مقاومة إنسان للبقاء على قيد الحياة في محيط متجمّد قد تكون فيه لمسة واحدة من الرذاذ قاتلةً.

وكانت هناك فترات راحة تقلّصت أثناءها الجبال، فوق الوديان المليئة بالضباب. ثمّ ارتفع الضباب إلى أعلى لابتلاع الأرض فتركت معلّقة في الفضاء، بلا حراك ما عدا هدير المحرّك.

لكنّها لم تكن بحاجة إلى رؤية الأرض. فلوحة العدّادات والتحكّم الآن هي قوّة بصرها وهي الرؤية المكثّفة الوحيدة لأفضل العقول القادرة على توجيهها وإرشادها في طريقها. واعتقدت أنّ تلك الرؤية كانت تعرض على بصرها وتطلب منها فقط أن تكون قادرة على قراءة ما تمليه العدّادات. كيف دُفِع الثمن، لتلك العدّادات، التي تهب البصر؟ ومن الدرب اللبنيّ المكثّف إلى الموسيقى المكثّفة وإلى الرؤية المكثّفة من الأجهزة الدقيقة. أيّ ثروة منحتها تلك الأدوات للعالم وماذا جنت في المقابل؟ أين هي الآن؟ أين هو دوايت ساندرز؟ وأين هو مخترع محرّكها؟

ثمّ انقشع الضباب. وفي عمليّة تطهير مفاجئة، رأت نارًا تلتهب بين الصخور. لم يكن ضوءًا كهربائيًّا، بل لهبًا وحيدًا في ظلام الأرض. وعرفت المكان وتعرّفت إلى تلك الشعلة: لقد كانت شعلة آبار وايت النفطيّة.

كانت تقترب من هدفها. وفي مكان مّا خلفها في الشمال الشرقيّ، وقفت القمم التي اخترقها نفق شركة تاجارت. كانت الجبال تنزلق في منحدر طويل إلى التربة الأكثر ثباتًا في ولاية يوتا. فتركت طائرتها تقترب من الأرض.

كانت النجوم تتلاشى، والسماء تزداد ظلمة، ولكن في ضفّة الغيوم باتّجاه الشرق بدأت الشقوق الرقيقة في الظهور؛ أوّلًا كخيوط، ثمّ تحوّلت إلى بقع انعكاس خافتة، ثمّ إلى أشرطة ضوئيّة مستقيمة لم تصبح ورديّة بعدُ، ولكنّها لم تعد زرقاء مثل لون ضوء المستقبل، والتلميحات الأولى لشروق الشمس القادمة. ظلّت الشقوق تظهر وتتلاشى، وتتزايد ببطء لتصبح أكثر وضوحًا، وقد تركت السماء أكثر قتامةً، ثمّ تشقّها على نطاق أوسع، مثل وعدٍ يكافح من أجل الوفاء به. لقد سمعت قطعة من الموسيقى تنبض في ذهنها، معزوفة نادرًا ما كانت تحبّ تذكّرها، لم تكن الكونشرتو الخامس لهالي، بل الكونشرتو الرابع، بصرخة النضال المعذّب، وأوتار تعزف موضوعها وهي تخترق مخيّلتها، مثل رؤية بعيدة يتعيّن الوصول إليها.

ثمّ رأت مطار مدينة أفتون عبر مسافة أميال، فبرز من البداية مثل مربّع من الشرر، ثمّ مثل إطلالة شمس بأشعّة بيضاء. كان مدرج المطار مضاءً لطائرة على وشك الإقلاع، وكان عليها أن تنتظر دورها في الهبوط. وظلّت تحلّق في الظلام الخارجيّ فوق الحقل، حتّى رأت الجسم الفضّيّ لطائرةٍ ترتفع مثل طائر الفينيق المنبعث من النار، وانطلقت في خطّ مستقيم فتركت خلفها للحظةٍ ضوءًا بقي معلّقًا في الفضاء، واتّجهت نحوالشرق.

ثمّ هبطت داغني في مكانها، نزلت صوب قِمَعٍ من الحزم الضوئيّة، فرأت شريطا من الإسمنت أمامها، وشعرت بهزّة العجلات وهي تحتكّ بالمدرج ثمّ تقف في الوقت المناسب، ثمّ تضاءلت سلسلة حركات الطائرة. لقد نجحت داغني في ترويضها بسلامٍ بعد أن أوقفتها بسلاسة في المدرج.

كان مطارًا صغيرًا خاصًّا، يخدم حركة مرور هزيلة لعدد قليل من رجال الأعمال أصحاب المشاغل الصناعيّة التي لا تزال قائمة في مدينة أفتون. رأت داغني مرافقًا

وحيدًا يسرع لمقابلتها. فقفزت من مقعدها ونزلت بعد تثبيت الطائرة بشكلٍ نهائيّ، فاجتاحت ساعات الرحلة عقلها بفعل نفاد الصبر على امتداد بضع دقائق أخرى.

سألت المرافق: هل يمكنني الحصول على سيّارة في مكان مّا هنا لتقلّني فورا إلى معهد التكنولوجيا؟

نظر المرافق إليها وهو في حيرة من أمره وقال: لمَ لا؟ أعتقد ذلك.. إنّه من الممكن توفير سيّارة، يا سيّدتي. لكن... ما الجدوى من ذلك؟ إذ لا يوجد أحد هناك.

ـ أظنّ أنّ السيّد كوينتن دانيلز موجود هناك.

هزّ المرافق رأسه ببطء، ثمّ هزّ إبهامه، مشيرًا شرقًا إلى مصابيح الطائرة الخلفيّة وهي تتقلّص: السيّد دانيالز موجود هناك. لقد أقلعت طائرته للتوّ.

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد غادر للتوّ.

ـ لماذا غادر؟

ـ لقد رافق الرجل الذي حطّ بطائرته وقدم من أجله قبل ساعتين أو ثلاث.

ـ أيّ رجل؟

ـ لا أعرف، لم أره من قبل... يا له من شابّ! لقد كان آية في الجمال!

فعادت داغني مجدّدًا إلى طائرتها وأمسكت بعجلة القيادة، وداست بأقصى سرعتها على المدرج، ثمّ ارتفعت في الهواء، فانطلقت طائرتها مثل رصاصةٍ تهدف إلى اللحاق بشرارتين من الضوء الأحمر والأخضر لطائرة كانت تتلألأ في السماء الشرقيّة، بينما كانت داغني لا تزال تردّد: أوه لا، إنّهما لن يفعلا ذلك بي! لن يفلتا منّي! يجب أن ألحق بهما!

مرّة واحدة وإلى الأبد، قالت في نفسها وهي تمسك بمقود الطائرة، كما لو أنّها لم تكن تريد أن يفلت العدوّ من بين يديها، فكانت كلماتها مثل انفجارات منفصلة بأثر النار في

ذهنها المرتبط بمَن هما أمامها في الطائرة التي تلاحقها مرّة واحدة وإلى الأبد... مقابلة المدمّر وجهًا لوجه... لمعرفة من هو وأين يذهب ليختفي... لن تسمح له بخطف المحرّك... لن ينجح في حمل المحرّك بعيدًا نحو مكان مجهول مغلق... لن يفلت هذه المرّة...

ثمّ تصاعدت حزمة من الضوء في الشرق، ويبدو أنّها كانت منبعثة من الأرض، وقد أُفرج عنها مثل أنفاس طويلة المدى. وفي الأفق الأزرق العميق فوق ذلك الضوء، كانت طائرة الغريب مثل شرارة واحدة تغيّر لونها وتومض من جانب إلى آخر، مثل تأرجح النوّاس في الظلام عندما يعلن عن الوقت.

وكان منحنى المسافة قد جعل تلك الشرارة تنزل أقرب إلى الأرض، فضغطت داغني على دوّاسة الوقود بأقصى حدٍّ، كي لا تدع الشرارة تغيب عن بصرها، أو تدعها تلامس الأفق وتختفي. وتدفّق الضوء إلى السماء، كما لو أنّه كان مستمدًّا من الأرض بواسطة طائرة الغريب. اتّجهت تلك الطائرة نحو الجنوب الشرقيّ وكانت داغني تتبعها.

ذاب لون السماء، من لون الجليد الأخضر الشفّاف إلى لون الذهب الباهت، وانتشر اللّون الذهبيّ في بحيرة تحت شريط هشٍّ من الزجاج الورديّ، لون ذلك الصباح المنسيّ الذي كان أوّل شيء رأته على وجه الأرض. وكانت الغيوم تتساقط على شكل أشلاء طويلة من اللّون الأزرق الدخانيّ. فأبقت داغني عينيها مركّزة على طائرة الغريب، كما لو أنّها كانت تلمح سحب طائرتها. وقد أصبحت طائرة الغريب الآن مثل صليب أسود صغير، يشبه علامة اختيار متقلّصة بالسماء المتوهّجة.

ثمّ لاحظت أنّ الغيوم لم تكن تنخفض، بل ازدحمت على حافّة الأرض، وأدركت أنّ الطائرة كانت متّجهة نحو جبال كولورادو، وأنّ الصراع لمواجهة عاصفة غير مرئيّة كان ينتظرها مجدّدًا. لقد لاحظت ذلك من دون أدنى عاطفة؛ ولم تتساءل عمّا إذا كانت لطائرتها أو لجسدها القدرة على فعل ذلك مرّة أخرى. ومادامت قادرةً على التحرّك، فإنّها ستتحرّك لمتابعة تلك البقعة التي كانت تهرب بعيدًا بآخر جزء من عالمها. لم تشعر

داغني بشيء سوى فراغٍ خلّفته النار التي كانت مشحونة بالكراهية والغضب والدافع اليائس إلى النضال حتّى حدود القتل، وانصهرت كلّ تلك الأحاسيس في سلسلة جليديّة واحدة، شكّلت العزمَ الوحيد على تعقّب الغريب، أيّا كان، وأينما أخذها، فهي ستظلّ تلاحقه... ولم تضف أيّ شيء آخر في ذهنها عدا أمرًا كان غير معلنٍ، فما يكمن في الجزء السفليّ من الفراغ هو أن تهب حياتها، إذا استطاعت أن تأخذ حياته أوّلًا.

كان جسدها يؤدّي حركات قيادة الطائرة مثل أداة ضُبِطت على نظام التحكّم التلقائيّ، وكانت الجبال تترنّح في الضباب المائل إلى الزرقة أدناها والقمم المسنّنة ترتفع في مسارها كتشكيلات الدخان الأزرق الأكثر فتكًا. ولاحظت أنّ المسافة التي تفصلها عن طائرة الغريب تقلّصت. وبينما كان هو يتفحّص سرعته استعدادًا للعبور الخطير، استمرّت هي بالنسق نفسه غير واعية بالخطر، وناضلت عضلات ذراعيها وساقيها لتحافظ على طائرتها عاليًا. وقامت بحركة ضيّقة قصيرة من شفتيها كانت أقرب ما يمكن إلى شكل الابتسامة. واعتقدت أنّه هو من كان يقود طائرتها عوضًا عنها؛ لقد أعطاها السلطة لتقفّي أثره بمهارة المشي أثناء النوم.

كانت إبرة الارتفاع أمامها في لوحة التحكّم تتحرّك صاعدةً ببطء، كما لو أنّها تستجيب لتحكّمه. وارتفعت داغني بطائرتها واستمرّت في الارتفاع وهي تتساءل متى ستفشل أنفاسها ومروحتها. أمّا هو فكان يسير باتّجاه الجنوب الشرقيّ نحو أعلى الجبال التي أعاقت مسار الشمس.

كانت طائرته هي التي صدمتها أوّل أشعّة للشمس. فأومضت للحظة، مثل انفجار النار البيضاء، وأرسلت الأشعّة النفّاثة من أجنحتها. وأدركت قمم الجبال بعد ذلك: فرأت ضوء الشمس يصل إلى الثلج في الشقوق، ثمّ يتدفّق على جانبَي الجرانيت؛ ليقطع ظلالًا عنيفة.

كانا يحلّقان فوق أعنف امتداد من ولاية كولورادو، وهي منطقة غير مأهولة، وغير صالحة للسكن، وغير قابلة للوصول إليها من قبل البشر سيرًا على الأقدام أو حتّى باستعمال الطائرة. ولم يكن من الممكن الهبوط داخل دائرة نصف قطرها مائة ميل؛

فنظرت إلى مؤشّر قياس الوقود فاكتشفت أنّه لم يبقَ لديها من الوقود إلّا ما يكفيها للتحليق مدّةَ نصف ساعة. أمّا الغريب فكان يتّجه مباشرة نحو نطاق آخر أعلى. وتساءلت لماذا اختار مسارًا لا يوجد فيه أيّ طريق جوّيّ ولم تسلكه أيّ طائرة من قبل. وأعربت عن رغبتها في أن يكون ذلك النطاق خلفها، ولكنّه كان آخر مرحلة لآخر جهد يمكن أن تأمل في بذله.

وفجأة زادت طائرة الغريب من سرعتها. فكان الغريب يفقد الارتفاع فقط عندما تتوقّع منه داغني أن يصعد. وكان حاجز الجرانيت يرتفع في طريقه، ويتحرّك لمقابلته، ليصل إلى جناحيه، لكنّ الخطّ الطويل والسلس لحركته كان ينزلق إلى أسفل. لم تكتشف داغني وجود أيّ عطب، أو أيّ هزّة، أو علامة على وجود أيّ عطل ميكانيكيّ؛ وبدا الأمر مثل حركة مقصودة مسيطَر عليها. ومع وميض مفاجئ لأشعّة الشمس على جناحيها، هبطت الطائرة في منحنى طويل، وكانت الأشعّة تقطر مثل الماء من جسدها، ثمّ سارت على شكل دوائر واسعة ودخلت في دوّامة، كما لو أنّها تدور من أجل الهبوط حيث لا يمكن تصوّر أيّ هبوط.

كانت داغني تراقب فقط ما يحدث، ولم تحاول تفسيره، ولم تصدّق ما رأته، وظلّت تنتظر الدفع التصاعديّ الذي من شأنه أن يلقي بها مرّة أخرى على مساره. لكنّ الدوائر الانزلاقيّة السهلة استمرّت في الانخفاض، نحو أرض لم تستطع رؤيتها ولم تتجرّأ حتّى على التفكير فيها. لقد حالت سلاسل الجرانيت المسنّنة، التي كانت تشبه الفكوك المكسورة، بين طائرتها وطائرته؛ ولم تستطع معرفة ما يمكن أن يقع في الجزء السفليّ من حركته اللولبيّة. كانت تعرف فقط أنّ تلك الحركة لا تبدو حركة انتحار.

ورأت لمعان ضوء الشمس على جناحيه لحظةً. ثمّ نزلت الطائرة واختفت وراء التلال الصخريّة، مثل جسد إنسان يغطس بصدره أوّلًا وبذراعين ممدودتين، متروكتين بهدوء لاكتساح السقوط.

استمرّت في الطيران، في انتظار ظهور طائرة الغريب مرّة أخرى، غير قادرة على تصديق أنّها شاهدت كارثةً مروّعة تحدث ببساطة وبهدوء أمام ناظريها. ثمّ توجّهت

إلى حيث سقطت الطائرة. يبدو أنّه عبارة عن وادٍ في حلقة من جدران الجرانيت.

وصلت إلى الوادي ونظرت إلى أسفل. لم يكن هناك مكان محتمل للهبوط ولم يكن هناك أيّ أثر للطائرة.

كان الجزء السفليّ من الوادي يبدو وكأنّه امتداد لقشرة أرضيّة مشوّهة من جرّاء الأيّام التي كانت الأرض تبرد فيها، وقد تركت بلا رجعة منذ ذلك الحين. كانت تمتدّ من صخور الأرض بعضها ضدّ بعض، والصخور المعلّقة في تشكيلات غير مستقرّة، ذات الشقوق الطويلة والمظلمة وعدد قليل من أشجار الصنوبر الملتوية التي كانت تنمو أفقيّا في الهواء. لم يكن هناك مستوى لقطعة من التربة حتّى بحجم منديل. ولم يكن هناك مكان لتختبئ فيه طائرة، بل ولم يكن هناك بقايا لحطام طائرة.

ثمّ انحرفت طائرة داغني بحدّة، وظلّت تدور فوق الوادي، وانخفضت قليلًا. وبدت أرضيّة الوادي مرئيَّة بشكل أكثر وضوحًا من بقيّة الأرض من خلال خدعة ضوئيّة لم تستطع تفسيرها. لم تستطع أن تتبيّن بما فيه الكفاية لتعرف أنّ الطائرة ليست هناك، ولكن لم يكن هذا الأمر ممكنًا.

ظلّت تحلّق وتنخفض أكثر وتنظر من حولها. وفي لحظة واحدة مخيفة، اعتقدت أنّها كانت في صباح صيف هادئ، وأنّها وحدها، وقد تاهت في منطقة جبال الروكي التي لا ينبغي أن تغامر أيّ طائرة بالاقتراب منها، ومع احتراق آخر كمّيّة من وقودها، كانت تبحث عن الطائرة التي لم تكن موجودة من قبل، سعيًا وراء القبض على مدمّر اختفى كما تعوّد على الاختفاء دائما؛ وربّما كانت رؤيته هي ما قادها إلى أن تُدمّر هنا. وفي اللحظة التالية، هزّت رأسها، وضغطت على فمها بإحكام وانخفضت أكثر صوب الأرض.

لقد ظنّت أنّها لا تستطيع التخلّي عن ثروة لا تُحصى مثل دماغ كوينتين دانيلز على إحدى تلك الصخور في الأسفل، ولعلّه لا يزال على قيد الحياة وقد تكون مساعدته في متناول يدها. فنزلت في محيط دائرة جدران الوادي. وواجهت مهمّة طيران خطيرة، وكان الفضاء ضيّقًا جدًّا، لكنّها استمرّت في الدوران والنزول أكثر، وأصبحت حياتها

مرتبطة ببصرها، وبصرها مشتّت بين مهمّتين: البحث في أرضيّة الوادي ومشاهدة جدران الجرانيت التي بدت على وشك تمزيق جناحيها.

كانت تعرف الخطر فقط بوصفه جزءًا من العمل. ولم يعد له معنى شخصيّ بعد الآن. ولكنّ ذلك الشيء الوحشيّ الذي شعرت به كان يشبه التمتّع تقريبًا. إنّه آخر غضب في معركة خاسرة. لا! كانت تصرخ بداخلها، وتصرخ في وجه المدمّر، والعالم الذي تركته، والسنوات التي مضت، والتقدّم الطويل للهزيمة - لا!... لا!.... لا!...

ثمّ اجتاحت عينيها لوحةُ العدّادات، وبعد ذلك جلست بثباتٍ وسكون فلم تعد تسمع شيئًا سوى صوت لهاثها. وكان عدّاد الارتفاع بلوحة التحكّم، في المرّة الأخيرة التي تذكّرت رؤيته فيها، يشير إلى 11000 قدم. لقد بلغ الآن مستوى 10000 قدم. ولكنّ أرضيّة الوادي لم تتغيّر. ولم تقترب بل بقي الأمر بعيدًا كما رأته أوّلَ وهلة.

كانت تعرف أنّ الرقم 8000 يعني مستوى الأرض في ذلك الجزء من ولاية كولورادو. ولكنّها لم تلاحظ مسافة نزولها. ولم تلاحظ أنّ الأرض، التي بدت واضحة وقريبة جدًّا من الارتفاع، أصبحت الآن قاتمة وبعيدة جدًّا. وكانت تنظر إلى الصخور نفسها من المنظور نفسه، فلم يزدد حجمها، ولم تتحرّك ظلالها، ولا يزال الضوء غير الطبيعيّ الغريب معلّقًا بقاع الوادي.

كانت تعتقد أن مؤشّر الارتفاع قد تعطّل، واستمرّت في الدوران إلى أسفل. فرأت إبرة المؤشّر تتحرّك إلى أسفل، ورأت جدران الجرانيت تتحرّك إلى أعلى، وشاهدت حلقة الجبال ترتفع إلى أعلى أيضًا، وقممها تقترب بعضها من بعض في السماء، لكنّ أرضيّة الوادي ظلّت من دون أيّ تغيير، كما لو أنّها كانت تسقط في بئر بقاع لا يمكن الوصول إليه أبدًا. وانتقلت الإبرة إلى 9500 و9300 فـ 9000 ثمّ 8700.

وبهرها وميض من الضوء لم تعرف مصدره. كان الأمر كما لو أنّ الهواء داخل الطائرة وخارجها أصبح انفجارًا للنيران الباردة المسبّبة للعمى. لقد ألقتها الصدمة إلى الخلف، فتركت يداها عجلةَ القيادة ثمّ ارتطمت بعينيها. وفي لحظةٍ استعادت أنفاسها وتمالكت أمرها، وعندما استولت على عجلة القيادة مجدّدًا، اختفى الضوء، ولكنّ

طائرتها ظلّت تدور، وكانت أذناها تنفجران من الصمت، أمّا مروحة طائرتها فقد وقفت في شكل مستقيم بشدّة أمامه. لقد تعطّل محرّكها.

حاولت سَحْبَ طائرتها لربح القليل من الارتفاع، ولكنّها كانت تنزل، وما رأته يحلّق أمامها لم يكن انتشار الصخور المشوّهة، بل انتشار العشب الأخضر في حقلٍ لم يكن من قبل حقلًا.

لم يكن هناك وقت لرؤية بقيّة الأشياء، ولا وقت للتفكير في البحث عن التفسيرات. ولا وقت للخروج من الدوران. كانت الأرض مثل سقف أخضر ينزل عليها، لبضع مئات من الأقدام تتقلّص بسرعة بعيدًا.

وتأرجحت من جانب إلى آخر مثل النوّاس، وهي تتشبّث بعجلة القيادة، وكان نصفها مثبّتًا في مقعدها، والنصف الآخر جاثيًا على ركبتيها. لقد ناضلت لسحب الطائرة إلى منحدر، لمحاولة الهبوط على البطن، في حين كانت الأرض الخضراء تدور حولها، وتجتاحها من فوق، ثمّ من أسفل، بلفائف لولبيّة تقترب أكثر فأكثر من الأرض. واستمرّت يداها في سحب عجلة القيادة، ولم يكن لديها أدنى فرصة لمعرفة ما إذا كان يمكنها أن تنجح في إنقاذ نفسها، أمام تقلّص المسافة ونفاد الوقت. فشعرت، في ومضة من النقاء الكامل والعنيف، بذلك الشعور الخاصّ من الوجود الذي لازمها دومًا. وفي لحظة تكريس لحبّها، وإنكارها المتمرّد للكارثة، ونظرا إلى حبّها للحياة لما لها من قيمة لا مثيل لها، شعرت بيقين فاخر أنّها سوف تبقى على قيد الحياة وتنجو.

وردًّا على الأرض التي كانت سترتطم بها، سمعت في ذهنها، سخريّتها من القدر، وصرخة تحدّيها، والكلمات التي كرهتها، كلمات الهزيمة، واليأس، ونداء المساعدة:

أوه بحقّ الجحيم! من هو جون جالت؟

الجزء الثالث قريبا في .. مكتبة



telegram
@soramnqraa

آين راند

أطلس متململا

يعتقد الناس أنّ الكاذب يكسب انتصارَه على حساب ضحيّته. أمّا ما تعلّمته فهو أنّ الكذبَ فعلٌ من أفعال التنازل عن الذات، لأنّ المرء يسلّم حقيقتَه إلى الشخص الذي يكذب عليه ويجعل منه سيّدًا عليه، وفي مقابل ذلك يُدين ذاتَه منذ ذاك الحين لتزييف نوع الواقع الذي يحتاج ذاك الشخصُ إلى تزييفه. وإذا كان المرء يظفر بالغرض المباشر من الكذب، فإنّ الثمنَ الذي سيدفعه في مقابل ذلك هو تدمير ما كان ذاك الظفرُ يقصد إلى خدمته. فالإنسان الذي يكذب على العالم هو عبدُ ذلك العالم. وعندما اخترتُ إخفاءَ حبّي لك، بهدف التنصّل منه في العلن وعيشه مثل كذبةٍ، جعلته ملكيّةً عامّةً، ولم تكن لديّ أيّ وسيلة لتجنّب ذلك ولا أيّ قوّة لإنقاذك. وعندما استسلمت للصوص -بعد توقيع شهادة الهديّة قصدَ حمايتك- كنت لا أزال أزيّف الواقع، ولم يبقَ لي من حلٍّ آخر. فأنا يا داغني، كنت أفضّل أن يُنظَر إلينا بوصفنا أمواتًا على أن أسمح لهم باقتراف ما هدّدوا به. لكن لا توجد أكاذيب بيضاء، وما يوجد فقط هو سوداويّة الدمار، فالكذبة البيضاء هي الأكثر سوادًا على الإطلاق.


ISBN:978-603-91630-3-9
9 786039 163039
WWW.PAGE-7.COM

